رسائل ابن أبي الخصال

الكاتب الفقيه أبي عبد الله بن أبي الخصال
الغافقي الأندلسي

تحقيق
الدكتور محمد رضوان الداية
أستاذ أدب الأندلس والمغرب في جامعة دمشق

دار الفكر



بسم الله الرحمن الرحيم



رسائل ابن أبي الخصال / تأليف أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي ؛ تحقيق محمد رضوان الداية . ـــ ط. ١ . ـــ دمشق : دار الفكر ، ١٩٨٨ . ـــ ٧٥٢ ص. ؛ ٢٤ سم .

١ ـــ ٨١٦,٦ خ ص ا ر ٢ ـــ العنوان
٣ ـــ ابن أبي الخصال ٤ ـــ الداية

ع ـــ ٥٠١ / ٥ / ١٩٨٨ مكتبة الأسد



الكاتب الفقيه أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي

« ولأبي عبد الله ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء الأندلس قد جعلوه مِثالاً يحتذونه ، ونصبوه إماماً يقتفونه » .

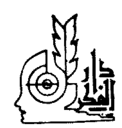
تحقيق

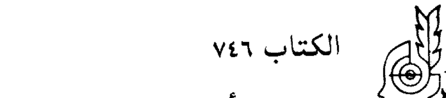
الدكتور محمّد رضوان الدّاية

أستاذ أدب الأندلس والمغرب في جامعة دمشق

دار الفكر

دمشق - سورية





الكتاب ٧٤٦

الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م

سورية - **دمشق** - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - برقياً: فكر
س. ت ٢٧٥٤ هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست): المطبعة العلمية بدمشق

الكلمة الأُولى

هذِهِ السِّلْسِلَةُ الأندَلُسِيَّة

نقدّم إلى القارئ الكريم كتاب ترسل الكاتب الفقيه ابن أبي الخِصال ، في إطار سلسلة كتب تراثيّة أندلسية ومغربيّة ، اجتهدت من زمانٍ في تحقيقها وإخراجها تباعاً ؛ يحدوني إلى ذلك حبٌّ للتراث وائتلافٌ معه ؛ وإعجابٌ عميق الغور بالفكر الأندلسي والحضارة العربية الإسلامية في ذلك القُطر من أطراف الدولة الإسلامية السالفة في أيّام عزّها وبسطتها ؛ وحافِزٌ عِلميٌّ يقدّر ما خلّفه الأجْداد في فنون العلم والأدب وضروب المعرفة المتعدّدة الجوانب .

وفي الكتب التي أصدرتُها في هذه السلسلة ما نُشِر على أَصْلٍ واحد . والنشر عن أصل مخطوط واحد من المهام الْمُشكلة ، لأُمورٍ معروفةٍ في أُصول نشر النصوص وتحقيقها . ولكنْ في التراث الأندلسي الباقي عدد غير قليل من المخطوطات الفريدة ، والتي يصحّ أن تعرض على النّاس لينتفعوا بما فيها ، ويضيفوا إلى التّراث المطبوع المنشور كتباً جديدة تُسهم في الحياة الفكرية والعلمية والأَدبيّة عامة وتغني الدراسات الأندلسيّة خاصّة . وقد رجح عندي هذا الرَّأي فَما أشدّ حاجتنا إلى بعث التراث الأندلسي الباقي - وهو كثير - ، وقلت أيضاً : عسى أن يكون نشر هذه النصوص عن أُصول فريدة إثارة تنبّه إلى نسخة أُخرى - أو نُسخ - .

والكتاب الذي أقدمه اليوم يُنشر عن أَصْلٍ فريد قدّمْتُ وصفه في مقدمة التَّحقيق . وهو لواحد من أشهر كُتّاب الأندلس ، اجتهدت في قراءته ونقله

وضبطه وتحقيقه وشرحه . وصنعت له فهرسةً فنيّة مناسبة ؛ أرجو أن أسُدّ به ثغرة فإن النّصوص النثرية المنشورة من التراث الأندلسي قليلة جداً ، نعرف منها : رسائل من آثار لسان الدين بن الخطيب (ريحانة الكُتّاب) ومجموعة رسائل موحّدية نشرها ل. برڤنسال منذ زمان .

آمل أن يتلقّى محبو التراث العربي ومتابعو الأصول الأندلسيّة ، هذا الكتاب بالقَبُول ، وأن يجدوا فيه ما يغني جوانب التّأريخ الأدبيّ العربي ، وأن يتبوأ لدى متابعي الدراسات الأندلسية والمغربية مكانة طيّبة .

والحمد لله رب العالمين

أ . د . محمد رضوان الداية

قالوا في ابن أبي الخصال وأدبه

● « وهو اليوم بحيث لا تشيرُ الأصابعُ إلاّ إليه ، ولا تنطوي الأضالع إلا عليه .... وله بيانٌ لا يتعاطاه ناظِمٌ ولا ناثِرٌ ، وإحسانٌ لا يبلغُ مَداهُ أَوّلٌ ولا آخِر .. » .

ابن بَسّام في الذخيرة ٢/٣ : ٧٨٦

● « حامل لواء النّباهة ، الباهر بالرويّة والبداهة .. » .

ابن خاقان في القلائد : ١٧٤

● « أما البلاغَةُ فإليه انتهت ، وعليه قُصرت ، وبموته فُقدت .. » .

أبو القاسم بن حُبَيش : نقله ابن الأبار في المعجم : ١٤٥

● « لم ينطلق اسم **كاتب** بالأندلس على رجل مثل أبي عبد الله بن أبي الخصال » .

أبو مروان بن مسرّة : نقله ابن الأبار في المعجم : ١٤٦

● « ابن أبي الخصال ... رئيس كُتّاب الأندلس » .

ابن سعيد في : رايات المبرّزين

● « ولأبي عبد الله بن أبي الخِصال **ديوانُ رسائل** يَدُور بأيدي أُدباءِ الأندلس ؛ قد جعلوه مثالاً يحتذونه ، ونصبوه إماماً يقتفُونه .. » .

المراكشي في المعجب : ٢٤٠

● « لم يكن في عصره مثلُه مع دين وفضل وورع .. » .

الملاّحي : نقله لسان الدين في الإحاطة ٢ : ٣٨٨

● « كان من أهل المعارف الجمّة ، والإتقان لصناعة الحديث ، والمعرفة برجاله ، والتقييد لغريبه وإتقان ضبطه ، والمعرفة بالعربيّة ، واللغة ، والأدب ، والنسب والتاريخ ... وأمّا الكتابة والنظم فهو إمامها المتفق عليه ، والمتحاكم فيهما إليه .. » .

أبو جعفر بن الزبير ؛ نقله في الإحاطة ٢ : ٣٨٨

مقدمة التحقيق

ابن أبي الخصال ورسائله وآثاره[1]

(١)

ترجمته

صاحب الرَّسائل هو أبو عبد الله محمّد بن مسعود بن خلصة بن فرج بن مجاهد الغافقي المشهور بابن أبي الخِصَال . وأورد ابن الأبار في معجمه روايتين عَمّن تلقب بهذا اللقب ، فقيل هو لقب أبيه ، وقيل هو لقب جَدّه . (المعجم : ١٤٥) .

وابنُ أبي الخصال ينتمي في حيّ عربي هو غافِق ؛ وكان تجمهر الغافقيّين في الأندلس في شمال قرطبة كما نبّه ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (٣٢٨) قال عن بني غافق بن الشاهد : ودارُهم معروفة باسمهم في الجوف ، في شمال قُرطبة . وقال ابنُ غالب : « ومن غافق أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب ، وأكثر جهات شقورة ينتسبون إلى غافق » نقله في النفح (١ : ٢٩٤) .

وأُسرة ابن أبي الخِصال من قرية فَرْغَلِّيط من جهة شقورة . وشقورة تابعةٌ لكورة جَيّان .

---

(١) استوفيت دراسة شخصية ابن أبي الخصال ، وآثاره ، وأدبه ؛ وذكرت مصادره ومراجعه مفصّلةً في كتاب (ابن أبي الخصال ـ رئيس كتاب الأندلس) في سلسلة : أعلام الفكر العدد : ٥

وكانت ولادته سنة ٤٦٥ هـ في فَرْغَلِّيط . وفيها تلَقّى علومَهُ الأُولى . وتردّد منها على ما حولها من المدن للاستزادة من وجوه الثقافة والمعرفة : فلقي وجوه الشُّيوخ والأساتذة البارزين . وسرعان ماظهر ونبغ وصار ذا شأن .

وأُسْرَة بني أبي الخصال أسرة موصولة بالعلم ، أصيلة فيه ، وقد أنجبت في وقت ثلاثةً من الرجال هم : أبُو عبد الله ، وأخوه أبو مروان ، وأخوه الثالث أبُو جعفر . ونعرف من أبنائهم بعض الأسماء ممن كان لهم صيت ومكانة .

وقد انتقل ابن أبي الخِصال إلى قُرطبة ، فصار يقال فيه « القُرطبي » . ولا تُغفل كتب التراجم أنّه فرغلّيطي شقوري .

وأسهبت كتب التراجم في الحديث عن الكاتب الفقيه أبي عبد الله بن أبي الخِصال . وسردت أسماء شيوخه ، وتلامذته النابهين ، وذكرت مؤلّفاته ، وأوردت أخباراً من أخباره ومجريات حياته .

وخلاصة ما يتبيّنه الدارس من مطالعة أخباره وما يجده مما أورده عن نفسه من آثاره شخصية العالم المثقّف ، والكاتب البارع ، والمدبّر القدير ، والصّديق المنظور إليه بالتكرمة الموصوف بصفات الودّ والإخلاص والتّفاني في الخدمة والإفادة .

ولقد كان قلمه متدفّقاً سَيّالاً ، ووقتُه موزّعاً بين عمل يدبّره ، ورسالة يدبّجها ، وحديثه يفيد به ، ومحاضرةٍ يلتفّ حولها التلامذة والمريدون ، وكتاب يؤلّفه ، أو يقرؤه على طُلاّبه ، وأُناس يحلُّ مُشكلاتهم . وفي هذه الرّسائل التي ننشرها دليل على شيءٍ غير قليل من حقيقة الرجل ، ومواهبه ، وصِلاته بأهله وإخوانه وبزملائه الكُتّاب والعلماء والأدباء ، وببعض أُولي الأمر مِمَّن ذكر أسماءهم وصفاتهم ومَن لم يذكر .

فمن الأعلام الذين روى عنهم وأخذ عنهم أبو بحر الأسدي ، وأبو بكر بن أبي الدّوس ، وأبو تميم المعز بن بقنة ، وأبُو بكر غالب بن عطية ، وأبو بكر بن سابق الصقلّي ، وأبـو الحسن بن مـالـك اليعمري ، ولقي بـالمريـة شيـخ العصر أبـا عليّ الصدفي فقرأ عليه ؛ وفيهم أبو عمران بن تليد ، وأبو عبد الله النفزي المـالقي (ابن أُخت غانم الأديب) ... وأخذ عن أبي الحسن بن الباذش وأخذ هو عنه فَتَدبَّجـا . وغير هؤلاء كثير . وهم من أعلام العصر ورجال الفكر المشهورين .

وروى عن ابن أبي الخصال جماعـةٌ أعلامٌ فيهم أبو جعفر أحمـد بن أحمـد عُرف بـابن القصير ، وأبو القـاسم بن حُبَيش ، وابن بشكـوال ، وأبـو عبـد الله محمـد بن عبد الرَّحيم وغيرهم كثيرٌ .

ولابن أبي الخِصال تاريخ حافِلٌ في الخدمة السلطـانيـة ، والحصول على الجـاه والمكانـة ، وانحطـاط الرُّتبـة أيضـاً . ولكنـه في ذلـك كلـه كان رجل العلم والفكر والأدب نثره وشعره ، المحـوط بـالمحبّين والْمُرِيـدين من أهـل العلم وطلبتـه . وقـد فصّلت في مجريات حيـاتـه في دراسـة مستقلّـة عنـه في سلسلـة بُحوثي التي بـدأتهـا بعنوان الذَّخائر ، ممّا يضيق عنه مجال هذه المقدّمة .

وقد تَرقّى ابن أبي الخصال في الخدمـة السلطـانيـة فكتب لعلي بن يوسف بن تاشفين وهو والٍ على غرناطة ، واختصّ ـ في مدة إمارته للمسلمين ـ بالكتـابـة عن أبي يحي أبي بكر بن أبي عبد الله محمـد بن الحـاجّ . انتقل مع بني الحـاج هؤلاء إلى فـاس ، وانتقـل معهم إلى الثغر الشرقي سرقسطـة ، ونجـد لـه أخبـاراً في فـاس والجزيرة الخضراء ومَرَّاكش وغيرها . وفي رسائلـه مـا يـدلُّ على أنـه كتب عن أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين ـ وعن غيره من أُمراء المرابطين ـ ونجد رسـائل موجّهة إليه أيضاً . وتواريخ الرسـائل البـاقيـة الصـادرة عن أمير المسلمين علي بقلم ابن أبي الخصال تدلُّ على طول مدّة خدمته في دولته .

وكانت دائرة أصحابه وعارفيه واسعة من رجال العصر الكبار ، وفي آثاره الباقية مراسلات مع أبي بكر بن العربي وأبي إسحاق بن خفاجة ، وأبي بكر بن رحيم ، وأبي بكر بن عبد العزيز ، والكاتب أبي محمد بن الحاج اللورقي ، وأبي محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري ، وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون ، وأبي الحسن بن دُرّي ، وأبي بكر بن القصيرة ، وأبي الوليد بن رُشد (الجدّ) وغيرهم .

وتنقّل في الْمَغْرب والأندلس ، مصطحباً بعض أمراء الْمُرابطين ، أو متولّياً الأعمال الإدارية والكتابية لهم ، ونذكر من المدن التي استقرّ فيها في الخدمة السلطانيّة : قرطبة ، وبلنسية وسرقسطة وفاس وسبتة ...

وعُمّر ابن أبي الخصال طويلاً . وفي سنة ٥٤٠ قتل شهيداً ، قتله بعض جُند المصامدة الذين دخلوا قرطبة ؛ في الفتنة بين ابن حَمْدِين متولّي شؤون قرطبة الداعي لنفسه بالخلافة وبين ابن غانية الذي ناوأ الموحّدين في دعوتهم ، وحاول أخذ الأندلس .

قال لسان الدين :

« قتله بربر المصامدة رجّالة أهل دولة اللثام لِحُسن ملبسه ؛ ولم يعرفوه ، وقتلوا معه ابن أُخته عبد الله بن عبد العزيز بن مسعود ، وكان أنكحه ابنته ، فقُتلا معاً ، وكان محمّد (بن أبي الخصال) خيرة الشيوخ ، وعبد الله خيرة الأحداث ، رحمها الله تعالى » .

وقد غَطّت شهرة أبي عبد الله بن أبي الخصال على شهرة أُسرته السابقة . وشاركه في ذلك أخوه أبو مروان وقاسمه إياها في زمانه . ثم انفرد أبو عبد الله بالمكانة العالية في تاريخ الأدب ، وعند الكتّاب والمتأدبين اللاّحقين ، ولم يؤثّر أحد من الكتاب بعده تأثيره في صنعة الكتابة في الأندلس إلى نهاية العصر الإسلامي هناك .

وقد كان أخُوه أبو مروان عبد الملك من الكتّاب المعدودين في زمانه ، ونبغ شأنه خاصّةً في المدّة التي خمل فيها ذكر أخيه أبي عبد الله في مطلع القرن السادس حين أُخذ أنصار ابن الحاج وحاشيته بجريرته مدةً من الزمان إلى أن ردّ إليه اعتبارُه ، وعادت إليه وإلى أنصاره مكانتهم .

ولأبي مروان ذِكرٌ طيب في كتب التراجم ، وله رسائل باقية .

ولأبي عبد الله أخ ثالث ـ فيمن نعرف من إخوته ـ لم تكن له شهرة أخويه الكاتبين هو أبو جعفر أحمد بن مسعود ، وقد تولّى خُطَّة الأحكام زماناً ، وكان ذا سُمعةٍ طيّبة في زمانه .

وعرفنا من الجيل التالي ابناً لمحمد بن مسعود اسمه عبد الملك وكنيته أبو مروان ، أدّى فريضة الحجّ ، ونبغ شأنُه في حياة أبيه . ولكنه استشهد في كائنةٍ لم نعرف تفاصيلها في مدينة المريّة ، ورثاه أبوه بقصيدة احتفظ بها كتاب الذيل والتكلة ، وأثبتها في آخر الكتاب في المستدرك .

ولأبي عبد الله بن أبي الخصال ابن أُخت نابه ، من أهل العلم ، قرّبه خاله إليه وزوّجه ابنةً له . وقد قتل هذا الشابّ مع خاله حين هجم عليه جنود المصامدة فذهبا معاً سنة ٥٤٠ .

(٢)

آثارُه

اشْتَغل ابنُ أبي الخصال بالتّأليف ، وبرع في الكتابة الديوانية ، واشتهرت رسائله الإخوانية ، ورسائله في أغراض شتّى : وشارك في نظم الشعر ، وعلى بعض شعره الباقي طلاوة وحلاوة ، ولكن أكثره وليد الذهن العقلي العلمي الذي داخله ذوق الفُقَهاء ، وإن كانت أداته الشعرية متمكّنة طيّعة . ويبدو للقارئ أن

ابن أبي الخصال لا يروّي شعره مثل ما يروّي ، أو يتأنى ويتأنق في نثره ، ومن هنا غلبت شُهرته في النثر ، وعلا ذِكره في الترسُّل .

أ ـ المؤلّفات المصنّفة والرسائل المطوّلة :

ـ ذكر له المقرّي في نفح الطيب (٣ : ١٨٤) كتاباً اسمه : **سراج الأدب** وقال إنه صنَّفه على مَنْزِع كتاب **النوادر** لأبي علي القالي و **زهر الآداب** للحصري القيرواني .

ـ رسالة سماها : **لَمْحَةُ البارق وقذف المارق** ردّ فيها على رسالة ابن غرسية التي فضّل فيها العجم على العرب . وسماها في كشف الظنون ، والإعلام بمن حل مراكش من الأعلام (٤ : ٨٩) : خطف البارق . وفي فهرسة ابن خير : **لمحة** البارق .

ـ وقال في الإعلام : « ووقفتُ على كتابه : **ظل الغمامة وطوق الحمامة في مناقب من خصّه رسول الله ﷺ بالكرامة** بخط سيدي عبد القادر الفاسي » . وزاد في المطرب : « من صحابته بالكرامة ، وأحلّهم بشهادته الصادقة دار المقامة » .

ونبه ابن خير على أنه قرأ هذا الكتاب على مؤلفه في منزله (بقرطبة) وفي جزيرة طريف أيضاً .

ـ كتاب **المنهج (في معارضة المُبهج) :** ذكرهُ ابن خير (الفهرسة : ٣٨٦) .

ب ـ الرسائل الإخوانية والسُّلطانيّة الديوانية وغيرها :

وهي رسائل كثيرة جداً مَيّز تلامذة ابن أبي الخصال بعضها من بعض من جهة موضوعاتها أو من كتبت لهم ، أو غير ذلك .

وفيما أورده ابن خير من رسائل ابن أبي الخصال التي رواها عنه وقرأها عليه مثلاً :

- رسالة كتبها إلى مقام النبي ﷺ .

- رسالة بديعة (نظم ونثر) يخاطب بها الفقيه المشاور أبا الفضل جعفر بن محمد بن يوسف .

- رسالة كتب بها من العُدوة إلى بني الفقيه القاضي أبي عبد الله بن أصبغ يُعَزّيهم في أبيهم ... إلخ .

وقد تلقّف معاصروه رسائله وتداوَلُوها ، وتفرّقت في أيديهم إعجاباً بها ، واستفادةً منها ، واتخاذاً لها قُدوةً وإماماً .

جـ - الْخُطَب والْمَقامات :

وشارك ابنُ أبي الخِصال في فنون النَّثر الشائعة لزمانه : كَتب في الرسائل الزّرزورية (راجع حاشية القطعة الأُولى من الرَّسائل) ، وألّف في المقامات (له مقامةٌ في هذه الرسائل جرى فيها على نهج الحريري) ، وأنشأ الْخُطب أيضاً ، وعارض بعض رسائل المعرّي .

وقد نبه الدكتور إحسان عَبّاس في تاريخ الأدب الأندلسي (جـ ٢) على مجاراة ابن أبي الخصال لابن نُباتة السَّعدي صاحب الخطب المشهور ، وللمعرّي في (ملقى السّبيل) خصوصاً ، وللحريري في بعض مقاماته .

ولا شكّ عندي في أنّ ابن أبي الخصال وضع بعض خطبه ورسائله بقصد توجيهي تعليمي قاصد ، وأنّ خطبه كانت تتناقل ، ويخطب بها بعض الخطباء ، كما هو مفهوم من سياق الخطب الباقية والتوجيهات المصاحبة لها .

(٣)

رسائِل ابن أبي الخِصال

حظيت رسائل ابن أَبي الخِصال بعنايةٍ واسعة في زمانه ، وبعناية أَجيال جاءت بعده . كان الكُتّاب ، والْمُتَدرّجون في الخدمة الدّيوانية ، يقرؤون رسائله ، ويقلدونها ، وكانَ فيهم من يحفظ منها أَيضاً .

وكان ابن أبي الخصال في شرخ الشّباب حين قال ابن بسّام فيه « ... وهو اليوم بحيث لاتشيرُ الأصابع إلاّ إليه ، ولاتنطوي الأَضالع إلاّ عليه » .

وفي رسالة الشَّقُنْدِي في تفضيل الأَندلس والدفاع عنها (النفح ٣ : ١٩٣) نقرأ قوله « وهَل لكم في بلاغة النثر كالفتح بن عُبَيد الله .... ومثلُ ابن أبي الخصال في ترسيله ... » ؟

وفي فهرسة ابن خير احتفالٌ برسائل ابن أبي الخصال وأثاره الأدبية المختلفة وقد رواها ابن خير ، وذكر أَسانيده فيها . وبعد أن ذكر مجموعة من الرسائل بأسمائها وعناوينها قال (ص ٤٢٠) :

« ورسائل كثيرة في معانٍ شتى لابن أبي الخِصال أيضاً قرأْتُها عليه وكتبتها بخط يدي عنه » .

ومعنى ذلك أن رسائل ابن أبي الخصال في حياته ، إلى أن لقيه ابن خير لم تجمع كلها في سفر واحد أو مجلّدات متلاحقة كالسِّفر الواحد المجزّأ أَجزاءً .

(٤)

هذا الكتاب

في مكتبة الإسكوريال مخطوطة أندلسية باقية ، فيها قدر حسن من رسائل أبي عبد الله ابن أَبي الخِصال وأَشعاره .

والواضح من العنوان أن هذا السِّفر إنما هو ـ حين جمعه جامعه ـ منتخبات من رسائل كاتبنا . فقد ورَد على غلاف المخطوطة عبارة ذهب شيءٌ منها من أثر الترميم فيها :

« كتابٌ فيه من ترسيل الفقيه الكاتب [أَبي] عبد الله بن أبي الخصال ومقامات[ـه] ومعارضة [مـ]ـلْقى السَّبيل لأَبي العلاء المعرّي ، رحمهما الله [ومخـ]ـمَّسَـ[ـاتهِ] [وأشـ]ـعاره ، ونسخ إجازاته وخطبه » .

وهذا بيان قاطع على ما نذهب إليه .

ومن جهة أُخرى إن هذه النسخة ، وهي فيما نعلم ، وحيدة ، مخرومة من آخرها ؛ وقد عملت الأرضة وعوامل أُخر في الورقات الأخيرة منها فأفسدت بعض الرسائل ، وانقطعت الرسالة الأخيرة دون تمامها .

وليسَ بين يديَّ من أَخبار ابن أبي الخصال أَنّ أحداً جمع رسَائله جميعاً في كتاب . ولعلّ الناس اكتفوا بذيوع رسائله أَفراداً ذيوعاً شديداً كبيراً . وفي كتب التراجم المتوالية مع الأعصر ما يدلُّ على عدم انقطاع الاهتمام برسائله وكتبه . وقد نقل لسان الدين مثلاً (وهو توفّي سنة ٧٧٦) ما قاله فيه أَبو جَعفر بن الزُّبير صاحب صلة الصّلة (توفّي ٧٠٧ أو ٧٠٨) دون تعديلٍ ولا إنكار ، وهو « أما الكتابة والنظم فهو إمامها المتفق عليه والمتحاكم فيهما إليه .. وأمّا كتبه وشعره

وتواليفه الأدبية فكل ذلك مشهور متداول بأَيدي النّاس . وقلّ من يُعلم بعده أن يجتمع له مثله . رحمه الله » .

أمّا لسان الدين فقال : « وكتابة ذي الوزارتين ـ رحمه الله ـ كالشمس شهرةً والبحر والقطر كثرة ... ومحاسنهُ القَطْرُ الذي لا يُعَدّ والأمر الذي لا يأخذه الحدّ ... » .

وتبدأ النُّسخة بالبسملة والصلاة على النبي ﷺ دون أية مقدمة من جامع الكتاب . ثم ترد أولى الرسائل « رسالة لذي الوزارتين الأجَلّ أبي عبد الله بن أبي الخصال في الزّرزور » وهي الرسالة المرقّمة في طبعتنا بالرقم [١] .

وفي الورقة ٦٢/ب من المخطوطة بداية كرّاسة جديدة أو جزء جديد من الكتاب فقد ختم الرسالة ذات الرقم [٧٧] وهي آخر مافي الكراسة الأُولى دون إشارة إلى ختامها ، واكتفى الناسخ بأن ترك ثلث الورقة فارغاً ليبدأ بصفحة جديدة فيها البسملة والصلاة على النبي ﷺ في رأس الصفحة الجديدة .

وينقطع الكتاب في الورقة ١٣١/أ دون أية إشارة أُخرى واضحة لبدء كراسة جديدة .

ولا ندري ـ وقد انتهى الكتاب بخرم ـ ماذا ضاع من المخطوطة الأَصليّة ، وليس من خبر عنها يقدّر لنا ذلك تقديراً . ولكنها تبقى على كل حال اختياراً من رسائل ابن أبي الخصال وآثاره ، لا تستغرق ولا تستوفي .

والكتاب في ١٣١ ورقة . الأولى هي ورقة الغلاف وعليها عنوان الكتاب كما أوردته وليس عليه اسم مصنّفه أو جامعه . وتحت العنوان بخط مغاير اسمٌ ذهب أَوّله ، ويقرأ الباقي منه على هذا الوجه : (.... عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الله بن عمر الأنصاري الأوسي وفّقهُ [الله] ...) .

وإلى حدود الورقة الخمسين من المخطوطة آفةٌ أصابت رؤوس الصفحات ، من أثر ماء ورطوبة وقدم . وقد ظهرت كلمات وغابت كلمات ، وبقي من كلمات كثيرة حروف وأبعاض حروف وأشباح حروف . وكان لابدّ من الصبر الطويل لاستجلاء المكتوب واستيضاحه واستنطاقه . ويَسّر الله تعالى إلى حلّ معظم مشكلات هذا الجانب من المخطوطة . ونبّهت باستمرار إلى ما اعترضني وإلى ما صنعته . ووضعت الكلام بين معقوفتين إذا كانت قراءتي استيضاحاً أو تقديراً غالباً أو إضافة مكّلة للمقصد .

أمّا سائر المخطوطة فحسن على جهة العموم .

وقد دلّ الناسخ على أنّه قابل النسخة في أكثر من موضع . ولكن هذه المقابلة لم تخل النسخة من الوهم والسهو في مواضع يسيرة جدّاً نبهت إليها .

وفي المخطوطة ١٠ ورقات كتبت بقلم مغاير ، مختلف القاعدة ، دقيق ، ولكنّه مضبوط على العموم مُتقن ؛ من الورقة ٨١/أ إلى ٩٠/أ .

والمخطوطة أَندلسيّة ، مكتوبة بخط أندلسي جليّ جميل ، يكثر فيه الناسخ من الضَّبط ؛ وضبطه في الجملة صحيح .

وعلى الصفحة الأولى ١ / ب من المخطوطة مع العنوان بعض التملكات لم تظهر من أثر الماء والتآكل والترميم .

واعتمدت على كتابين مخطوطين آخرين في توثيق بعض نصوص الرسائل أو القصائد المشتركة من آثار أبي عبد الله بن أبي الخصال هما : القسم الباقي من كتاب (ريحان الألباب وريعان الشَّباب) لابن المواعيني ، ومجموعة رسائل محفوظة في مكتبة طلعت بدار الكتب المصريّة .

وقد أوردت في مستدرك هذا الكتاب ما عثرتُ عليه من آثار ابن أبي الخصَال ونبّهت إلى مكانها ، الأَصليّ .

وجمعت ما وصلت إليه يدي من آثار ابن أبي الخصال في قصائده ومقطعاته ورسائله ـ مما لم يرد في المخطوطة المعتمدة ـ في ورقات مستقلّة وألحقتها برسائل ابن أبي الخصال في ذيل الكتاب تحت عنوان المُستدرك .

ورجعتُ في جمع هذا المستدرك إلى ذينك المخطوطين ، وإلى المصادر الأندلسية والمغربية التي ترجمت لابن أَبي الخصَال أو نقلت عنه أو أوردت شيئاً من تراثه الباقي .

وقد رجح لديّ أن أضيف هذه النصوص المستدركة ، وأكثرها مطبوع لسببين أحدهما أنها ليست بالكثيرة والثّاني أَنَّ وضع تراث الرجل الباقي من رسائله وأشعاره في سفر واحد يسهل على المطالع ، والمراجع ، والمتابع ؛ يعزز ذلكَ أَنَّ الأصول الأندلسية ليست متوفّرة توفُّر الآثار المشرقية .

وفي النقول التي نقلتها احتفظت بصورة الأَصل المنقول عنه غالباً ، وتَصرَّفْتُ في النصوص التي نقلتها عن الإحاطة للسان الدين بن الخطيب ، وجعلتُ ماأثبتّه من هذا الكتاب قراءةً لي ، على ما استطعت استجلاءه من هيئة المطبوع . فقد تبيّن لي أن النصوص الأدبية التي احتجت إلى نقلها من هذا الكتاب يصلح أن تعاد قراءتها من جديد .

وقد أضفت إلى نصوص المخطوطة الأصلية أرقاماً متسلسلة بين معقوفتين جعلت لكل قطعة صغرت أم كبرت رقماً . وجعلت للشُّروح على النصوص أَرقاماً كالعادة ، ولكنني لم أترك لكل صفحة أرقاماً خاصة بها بل سلسلت أرقام الحواشي في كل قطعة من أولها إلى آخرها . فإذا ما انتهت القطعة بدأت برقم جديد من الأول .

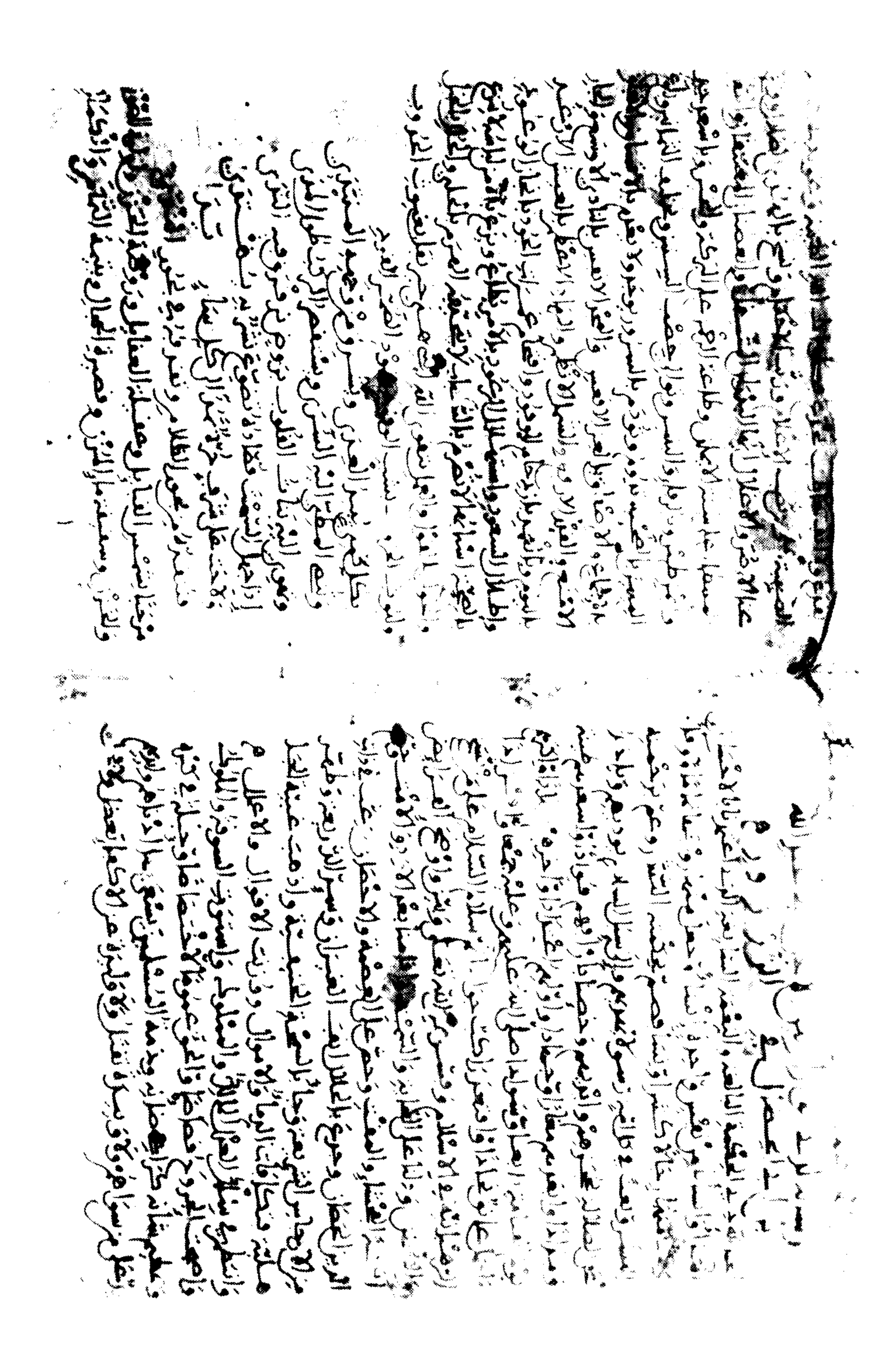
وحـاولت في تحقيقي للنُّصـوص أن أقـدم الشَّرح الضروري ، والإضـاءة المناسبة ، والتعليق الذي ظننتهُ مفيداً ، في اختصار وإيجاز على القدر المستطاع ، لكي لا يطول الكتاب ، ولكي لاتكون الشروح عبئاً إضافياً على القارئ .

واعتمدت في الشروح اللغوية على اللسان والقاموس والأساس . وربما خرجت إلى غيرها خروجاً يسيراً .

وإنّما صَنعتُ ما صنَعْتُ على وُسع الطاقة ، والنَّظر والاجتهاد ، والوفرة في المصادر ، والحمدُ لله ربِّ العالمين .



غلاف المخطوطة



الورقة الثانية من المخطوطة . وفيها أول الرسائل

[illegible]

أخر ورقة (موجودة) من المخطوطة

الورقة رقم ٣٤ من مخطوطة رسائل أندلسية

الورقة رقم ٣٥ من مخطوطة رسائل أندلسية

الورقة من مخطوطة الريحان والريعان



الكاتب الفقيه أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي

« ولأبي عبد الله ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء الأندلس قد جعلوه مِثالاً يحتذونه . ونصبوه إماماً يقتفونه » .



بِسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم

صلى الله على محمّد وعلى آلهِ وسَلّم

[١]

رسالةٌ لِذي الوِزارَتَيْنِ الأَجَلّ أبي عبد اللهِ بن أبي الخِصَال في الزُّرْزُور[١]

الحمدُ للهِ ذي الحِكْمَةِ البالغة ، والنّعمة السّابغة ، الذي اعْتَمَدَنا بالإحسانِ ابتداءً ، وأنشأنا من نفْسٍ واحدةٍ إنشاءً ، وجعلَ منها زَوْجَها تماماً ووفاءً . وبثَّ منهما رِجالاً كثيراً ونساءً[٢] ، فضمَّ بحكمتهِ النَّشرَ ، وعَمّ

[١]

(١) الزّرزوريّات رسائل تبادلها عدد من كتاب الأندلس في زمانِ المؤلف . وأصْلُها لمحة عابرةٌ في رسالة لأبي الحسين بن سراج أحد كتّاب الأندلس يشفَعُ فيها لرجل لقبُه (الزّرزور) وأدار الحديث وكأنه عن زرزور ؛ واستعار ما يليق به من الريش والطيران والفراخ ... الخ . وشارك في هذا النوع من الرسائل أبو القاسم بن الجدّ وابن أبي الخصال وغيرهم . وحاول كلّ واحد من الكتّاب أن يتناول معالجة الرّسالة الزّرزورية بأسلوبه ومنهجه . ويلاحَظ أن المؤلف أعطى الرسالة بعض ملامح الخطبة .

انظر الذخيرة لابن بسّام تراجم هؤلاء الكتّاب ق ٢ ج ١ ص ٣٤٧ وغيرها . وتاريخ الأدب الأندلسي د . إحسان عباس . عصر الطوائف والمرابطين ٢٩٨ ، وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس .

(٢) اقتبس المؤلف في تحميده من الآية الأولى من سورة النساء (٤/١) .

بِرَحمتـه البَشر[٣] ، وبَعَثَ في كُلّ أُمّـةٍ رسـولاً يهـديهم ، وإلى سُبُـل السّـلام يُؤَدّيهِمْ ، ويأخذ عن الضلالة بِحُجَزِهم وأيديهم[٤] .

وخَصَّنـا بـأرأفِهم فُـؤاداً ، وأسعـدهم طِينـةً ومـداداً ؛ وأبعـدهم مغـاراً وجِهـاداً ، وأولهم اعْتِـداداً وآخرهم ميـلادا ، وأكثَرهم يـوم القيـامـة تـابعـاً وسَواداً[٥] .

صلّى الله عليهم ، وعليـه ، جَمْعـاً وإفراداً ، مـا حَمَل عـاتقٌ نِجـاداً ، واقتعد راكبٌ جواداً[٦] .

ثم سلامُ السّلام على مَنْ نَسخَ الرهبـانيـة في الإسلام ، وفسّر ـ بِمَنّ الله تعـالى ـ وبيَّن ، وأوضـح الفرائضَ والسُّنن ، ودَلّنـا على الغـايـةِ والسَّمت ، وأقامنا بعد الأَوَدِ والأَمْتْ ، وحَرّم أنكحة الفحشـاء والمَقْت[٧] ؛ وحَضَّ على العِصمة والإحصان ، ورغَّبَ في ذات الدّين الحَصَان ، وجَدع بـالحلال أنفَ الغَيران[٨] ؛ وسدَّ الذريعة ، وطَهّر من الأَرجاسِ الشريعة ؛ وجاء بالسّمحةِ

---

(٣) النَّشر : التفريق . (تُفتح الشين وتسكن) .

(٤) الْحُجز جمع حُجزة : الإزار أو معقد الإزار . أي يمنعهم عن الضلالة .

(٥) المغار : الغارة . والسواد : كل عدد كثير . واعتدّ : تهيأ ، يقول : هو أوّل الأنبياء أُعد للبشرية وهو آخرهم .

(٦) النجاد : حمائل السَّيف ، أو ما وقع على العاتق (الكتف) منه .

(٧) السمت : الطريق ، وحُسن النحو في مذهب الدين . والأَوَد : الاعوجـاج ، والأمت : العوج . نكاح المقت من نكاح الجـاهليّـة : كان يتزوج أحـدهم امرأة أبيـه إذا طلقهـا أو مات عنها . وقد حرّمه الإسلام فيما حرّم من الأنكحة الجاهلية .

(٨) الحصان : العفيفة . والجدع : القطع .

الحنيفيَّة ، وأذهبَ غبيَّةَ الجاهليَّة ؛ فتكافأت الدّمـاء والأَموال[٩] ، ووُزِنت الأَقوالُ والأَعمـالُ ، وانتظم في سلـك العـدل المـالـك والمملوكُ ، واستَـوَت السُّوْقةُ والملوك ، وأصبحت الجروحُ قِصاصا ، والحقُّ عموماً لا اختصـاصـاً ، و (جَبلَة)[١٠] ـ في كِبْرِه وعظيم شـأنـه ـ كراعي ضـأنـه ؛ وذِمّـةُ المسلمينَ يَسعى بها أدناهم ، وأيديهم يَدٌ على مَن سِواهم . ولا وئيدةَ تُقتل ، ولا وليدة عن الأَكفـاء تُعضـل[١١] . ولا فَحْـلَ [٢/ب] يُقـدع ، ولا أنفُ خـاطِب يُجدَع[١٢] .

فصلواتُ اللهِ الطيّبة ، وغَوادي رحمته الصَّيِّبـة ؛ على مَنْ نصبَ الأعلام ، ورتّب الأحكام ، ونسخ بالهدى الضّلال ، ووضع عَنّا الإصرَ والأغلال .

أيها البدرانِ المُتَّسِقان ، والغُصنان المعتَنِقان ، والكَفّان المُنتظمان ، على سُنَّةِ الإيمـان وطـاعـة الرحمن ، على البركـة والخير ، وبـأسعـدِ جَـدٍّ وأيْمَنِ طير ، وبـالرِّفـاء والبنين ، وتـوالي خِصب السِّنين ، وتَخليف الثمانين[١٣] ، وبُلوغ المئين ؛ بـالصُّحبـة تـدوم وتودم[١٤] ، بـالسُّرور يوجَـدُ ولا يُعْـدَم ؛

(٩) اقتبس حـديثـاً وفرقـه في العبـارات التـاليـة وهو : المسلمون تتكافـأ دمـاؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على مَنْ سواهم .

(١٠) هو جبلة بن الأيهم ، وسيرد خبرٌ عنه مطوّل في القطعة .

(١١) عضل الأيّم : منعها الزواج ظلماً .

(١٢) قدعه : منعه (بيده أو لسانه) وجدع أنف الخاطب كناية عن ردّه .

(١٣) خلفه : خلاه وراء ظهره . يريد أن يتجاوز ثمانين عاماً (أن يعمرّ طويلاً) .

(١٤) تودم مخففـة من تؤدم أي تشـدّ وتقـوّى . وفي حـديث المغيرة بن شعبـة أنـه ذكر امرأةً لرسول الله وأنّه يخطبها فقال له ﷺ : « لو نظرت إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكمـا » (مسند أحمد ٢ : ٢٤٥) .

بالاتِّساق والاتّفاق ، بالإجماع والإصْفاقِ ؛ بالعزّ الأقْعَس[١٥] ، والمجد الأَنفس ؛ بالنّادي الأَوسع ، والجار الأَمْنع ، والقَدرِ الأَرفع ؛ والشّمل الأَنظم ، والرَّماد الأَعظم ؛ بالعيش الأَرغد ، باليومِ وبالغدِ ؛ بازدحام الوفود واقتحام غَمَرات الجود ؛ بإنجاز الوعود ، وإطلال السُّعود ، واستهلال الرُّعود ؛ بالأَمر يطاع ويزع[١٦] ، بالأَمنِ لِباسُه لا يُنزع ، بالصّحة أسبابُها لا تُصْرم ، بالشَّباب لا يتحيَّفهُ الهرم ، بالحَلْيِ والحُلل ، بالخيل والخَوَل ، بالقَولِ والعَمل ، بتقوى اللهِ التي هي خَيْرُ نَفَل[١٧] ؛ بِغُيوث الجُدوب ، وليُوثِ الحروب ، بشبِّ الوَقُود ، بقَودِ الضُّمَّرِ القود[١٨] ؛

[المتقارب]

بِكُلّ كَميٍّ يُبيدُ العِدَا	ويُشْرِقُ من وجهِه الْمُنْتَدى
وتُنْضِي[١٩] الْمَطيّ إليه السُّرى	ويستقصِرُ الركبُ طولَ الْمدَى
وتَهوِي إليه بناتُ القُلوبِ[٢٠]	برَوْضٍ تَرَقْرَقَ فيه النَّدى
إذا جهل السَّمْتَ قُصّاده	تَضوَّع نشرٌ بهِ يُهتدى

(١٥) الأقعس : الثابت من العِز .

(١٦) وزع النفس عن هواها : كفَّها .

(١٧) الْخَول : الأتباعُ والْحَشم . والنَّفل : الهبة ، والغنيمة .

(١٨) الضمّر (جمع ضامر وضامرة) صفة للفرس . والقود جمع أقود : الطويل العنق والظهر من الإبل والدواب .

(١٩) أنضى (بعيره) : أهزله بالسَّير .

(٢٠) بنات القلب : طوائفه ، قال الشاعر يصف حُبّه (اللسان : بنو) .

فسبَتْ بناتِ القلب فهي رهائنٌ بخبائها كالطير في الأَقفاصِ !

ولاحَتْ على شرفٍ حُرّةٌ تمـــدُّ إلى كُـلّ ســـارٍ يَـــدا
فتنقِـــذُه من بُحـــورِ الظَّـــلامِ وتقـــذِفـــهُ في بُحـــورِ النَّـــدى

مَرْحباً بشمسِ القَبائلِ ، وعَقيلةِ العَقائل ، وروضـة الحَزْن[٢١] ، ولُؤلؤة الصَّوْن والخَـزْن ، وشقيقـةِ مـاءِ الْمُـزن ؛ وقصيرةِ الْحِجَـال ويتيمـةِ التّمام والكمال ، [٣/أ] الباسقـةِ الْخِلال ، المحفوفَـةِ بـالمجْـدِ عن يَمينٍ وعن شِمال ؛ من اللَّواتي علونَ مقداراً ، وبَعُـدْن عن الْفَحْشـاء والْهُون دارا ؛ بعيونِ المنى يُلْحَظْنَ ، وبِطُـوَلِ القَنـا ـ لا بـالتمائم ـ يُحْفَظن . زُفّت من الْخِـدْر إلى البَدر ، ونُقِلَت إلى القَلْب عن الصَّدر ، وبرَزت عن حَضانة أكرمِ الآباءِ إلى حصَانة أكرمِ الأَكفـاء ، إلى البيتِ بـالعَليـاء ، إلى سَيّـد الأحيـاء ، إلى أبي زَرع[٢٢] في حُسن العِشرة والثَّراء ؛ إلى آفـةِ الْجُـزر ، إلى الطيّب معـاقِـد الأُزر[٢٣] ، إلى أَبي الأَضيـاف ، ومَجْمَعِ الأخيـافِ[٢٤] ؛ في الشّتوةِ الغَبْراء ، والهَبْوَةِ الْحَمْراء[٢٥] ؛

---

(٢١) العقيلة من النساء : الكريمة المخدرة النفيسة . الحَزْن من الأرض ما غلظ وخَشُن .
(٢٢) ضربه مثلاً ، قـال في تـاج العروس : زرع اسم ، وفي الحـديث : كنت لـك كأبي زرع لأمّ زرع وهي أم زرع بنت أكيمل بن ساعدة .
(٢٣) ضمن الكاتب من بيتي الخرنق بنت هفان

لا يبعـــدن قـــومي الـــذين هُمُ سمّ العـــداة وآفـــة الجـــزر
النـــــــازلين بكل معترك والطيّبـــون معـــاقـــد الأزر

(٢٤) الأخياف : الضروب المختلفة في الأشكال والأخلاق . يعني الكاتب : الجمّ الغفير .
(٢٥) هو كريم (أيام الشتاء المحلة) وشجاع في المعارك المحتدمة .

[مخلّع البسيط]

قِرانُ سَعْـــــدَيْنِ لا يَحُـــورُ[26] ... رِكْبُ الْمُنى حَـوْلَـــهُ يـــدورُ
زارَ بِــهِ الـــدَّهرُ لا عَـــدِمْنَـــا ... دَهْراً بـــأمثـــالهـــا يَــزورُ
وانتجـزَ الـوعــــدُ في لقـــاءٍ ... ألقى عصَـــــاهُ بــــهِ السُّرورُ
تجــــوزهُ أعينُ اللَّيـــــالي ... وهي غِـزارٌ ، إليـــه صُـوْرُ[27]
مـاضَرَّ أنْ غـابت الـدَّراري[28] ... عن مَـــلأٍ هُمْ بـــهِ حضـــورُ
أطـــوادُ حِلْمٍ بُحـــورُ عِلْمٍ ... تَصْغُر عَنْ قـــدْرِهـــا البُحـورُ
تتـوّجُـوا بـالـوقـار زيّـاً ... تَعْجَبُ من حسنــهِ البُـــدورُ
مــــــا الخيرُ إلا بهمْ وفيهمْ ... هُمْ حيثُ حَلُّـوا هـــدًى ونـورُ
هم قُـــدوةُ النّـــاسِ لا أُحـــاشي ... ومُـــــدَّعي غيرِ ذاكَ زورُ !
بهمْ - ولـــولاهمُ هلَكْنـــا - ... تُحَـلُّ ، أو تُعْقَـــدُ ، الأُمــورُ
لم يغب البِرّ عن صَـــــداقٍ ... فيــــه لأسمائِهمْ سُطـــورُ
قــد سطـعَ النــدُّ[29] والبخُـورُ ... فكيفَ لا تَسْجَــعُ الطّيــورُ ؟
هـــــا إنّ زُرزورِكم حَفِيٌّ ... بكم ، عن القَصـــدِ لا يَجُــورُ
يفتُرُ في الشَّـــــدوِ كلُّ طيْرٍ ... ومـــا لَـــهُ عنكمُ فُتــورُ
[٣ / ب] عَـوَّد منقـارَه ثنَـاءً ... في نَشرهِ للعـــلا نُشـــورُ
يحفــظُ إحســـانكم بشُكرٍ ؛ ... مـــا ضَيَّـعَ النِّعمـــةَ الشَّكـورُ

---

(٢٦) حار يحور : نقص بعد زيادة ، وفي الحديث « نعوذ بالله من الحَور بعد الكَور .

(٢٧) غزار جمع غزيرة ، وهي من العيون الكثيرة الدَّمع . وصور : مائلات .

(٢٨) الدراري جمع الدرّي : وهو من الكواكب : المضيء .

(٢٩) الندّ : عود يُتبخَّرُ به .

لاأوحشَتْ منكمُ المعَـــــالي ولا خلَتْ منكمُ الصُّـــــدورُ
ودُمتمُ مَفْـــزَعـــــاً وذُخْراً لِرَتْـقِ مـــاتفتُـقُ الـــدُّهـورُ

القـولُ ـ أيـدكُمُ اللهُ !ـ ينصَاتُ[٣٠] وقـد طـالَ الإنصَـات ؛ والبركـة ترفرفُ على سَمائكم ، وتحـومُ حـول فِنـائكم ، وتَستشرفُ إلى دعـائكم ، وتَستبطئُ مَسموعَ [ندائكم] ، وتَستأنِسُ بنـاديكم ، وتنحَـطُّ على أيـديكم ؛ فاستَنْزِلُوا بالدُّعاءِ دِيْمَتها ، وحَقّقوا بالتأمين عَزيمتها ؛ وخَلّدوهـا في أهل هذا البيت الصَّالح تخليدا وقلّدوهم سِمْطَ[٣١] النِّعْمَـةِ تقليـدا ؛ وقـد أعفـاكم زُرزوركم من النَّصَب ، ومدّ إلى السَّماء من ألفاظ الدُّعـاء بسبب . فـأمِـدُّوه ـ رحمكم الله ـ من ضمائركم الأَرجَـة بِعَرْف ، وصِلُـوه من التـأمين بحرف ؛ ليحظى بـالوصُول ، ويبلغَ مـدَى القَبُول ؛ ويَجريَ في الغَيب الْمَصُـون ، ويسريَ في الظُّهـور والبُطـون ، ويتغلغـل بين الحركات والسكـون ، ويتقلّب بين الكاف والنُّون ، وتَبْلى على جِدَّتها الأَحقاب ، وتلقاها لميقاتها الأخلافُ والأَعقاب .

اللهمّ يا مَنْ جَعَل الأَرْضَ قَرارا ، وفَجّر خلالَها أَنْهارا ، وجَعَل لنـا من الشَّجر الأخضر نارا[٣٢] ؛ ويـا مَنْ جَلّ عن الشُّركاء والأَنـداد ، وتعـالى عن الصاحبـةِ والأَولاد ، وأَنزل[٣٣] بغنـاه وكرمـه فقر العبـاد ؛ فـأَلِّفْ بينهما كما

---

(٣٠) يقال : دُعي فانصات أي أجاب وأَقبل .

(٣١) السِّمط : القلادة .

(٣٢) إشارة إلى الآيات الكريمة : (من البقرة ٣٦/٢ ، والنمل ٦١/٢٧ ، ويس ٨٠/٣٦) .

(٣٣) كذا في الأصل . قلت لعلها : وأزال .

أَلَّفْتَ بين العين وسناها ، والنّفسِ وهُداها ، والأُقحوانة ونَداهـا ؛ والأَرْض وسَمائها ، والشمس وضيائها ؛ والنجوم وأفلاكها ، والبدور وأحلاكها .

وانشر اللهمّ منهما الطيّبَ الكَثير ، والملأ الأَثير ؛ وأَشْعِرْهُما تقـواك[٣٤] ، وألبسْهما رِضَاك ؛ واحفُفْهُما بعصمتك ، واجْعَلْهُما في كَنَفِـكَ وذِمَّتِـكَ [٤/أ] [حيث لا يُخاف ظُلم ولا يُخْشى جَوْرُ حُكم][٣٥] .

واجْعَلْهُ اللّهُمّ اجتماعـاً مَشْهُودا ، وانتِظـامـاً لِتَقْواكَ مَشْـدُودا ، ومجلسـاً لرضاك وفضلِكَ معقوداً . وأَلْبِسْ حـاضِرِيْـه من الأَمَنَـةِ والكرامـة بُروداً ، ولا تَجْعَلْ فِينا مَحْرُوماً ولا مَحْدُودا[٣٦] ، ولا عن أَبوابِ رحمتك مَرْدُودا .

ورَحِمَ اللهُ مَنْ أمَـدَّنـا بـالتّـأمين[٣٧] ؛ وصَلّى اللهُ على الرَّسُولِ الأَمين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيّبين ، وعلى جميع الأنبياء والصـالحين ، وعليـه التوكل وبه نَستعين ، وهو المؤيّد المعين ؛ لا ربَّ سواه ولا نُعْمى إلا نُعْمَـاه ولا نَدْعو ولا نَعْبُد إلاّ إيّاه .

---

(٣٤) أشعرهما تقواك : أي ألبسهما .

(٣٥) هنا سطر مطموس تقريباً . والكلام مقترح ، مبني على بقايا الكلمات والحروف .

(٣٦) المحدود : المحروم .

(٣٧) أمَّن : قال آمين .

[٢]

ولَهُ[١] ـ نَضَّر اللهُ وَجْهَهُ ـ مُخَمَّسَةً[٢] في الأمير أَبي إسْحَاق[٣]

[البسيط]

الحمــدُ للهِ أضْحى الـدِّيْنُ مُعْتَليــا   وباتَ سَيْفُ الهدى الظَّمآن قد رَويا

---

[٢]

(١) هذه القطعة الشعرية ذات أهميّة تاريخيـة سيـاسيـة ، فهي تؤرخ لحادثـة (أو سلسلـة حوادث) لم تذكرها كتب التواريخ في زحمـة أحـداث أوائل القرن الهجري الخـامس . وقد ذكر ابن أبي الخصال في هذه القطعة اسم (ابن رُذمير) ملك أراغون وذكر مدينتي قوريـة وسمورة (سنترجم لهما في أثنـاء الحواشي) ومعروف أن ابن رذمير كان قـد شنّ حملات متواصلـة في منـاطق الثغر الأعلى وشرق الأنـدلس وركز على أملاك دولـة بني هُود من سرقسطة وتوابعها .
والشّاعر ، من خلال هذه المخمّسة ، يبثّ الحماسـة في الأمير إبراهيم بن يوسف للانتقـام من ابن رذمير وما عاثه في (قوريـة) و (سمورة) ومـا أحرق وقتل وسبى ، واختـار قصيدة أبي تمّام ليبني عليها . وكان أبو تمام قد نظم بائيّته المشهورة واصفاً فتح عموريـة حين استنجدت امرأةٌ بالمعتصم فاستجاب لها .
يقـول : الشـاعر الكاتب : أيهـا الأمير حلمت أنـك غـزوت بجيش كبير فجـدّدت نصر سميّــك أبي إسحــاق المعتصم فحقّـق هــذا الحلم وأنت الشّجــاع ابنُ الأمير المنصــور : يوسف بن تاشفين .

(٢) المخمسة منظومة شعرية : يأخذ الشاعر قصيدة لشاعر آخر ويُضيفُ إلى كلّ بيت ثلاثة أشطار على الوزن وعلى قافية صدر البيت ، فتتمّ خمسة أشطار ؛ ويستمر الشاعر هكـذا إلى آخر المخمّسة . ولكن الشّاعر هنا لم يلتزم بتمام أبيات أبي تمّام .

(٣) هو الأمير أبو إسحاق إبراهيم (توفي بعد سنـة ٥١٥ هـ) أحـد أبنـاء أمير المسلمين وزعيم المرابطين الفـاتح يـوسف بن تـاشفين ، وأحـد ولاة أقـاليم من الأنـدلس وأحـد القـوّاد =

إنْ كنتَ ترتاحُ للأمر الذي قُضِيا   فسَلْهُ نَشْراً ودَعْ عنكَ الّذي طُوِيا
فالسَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْباءً من الكُتُبِ[٤]

هو المقيّدُ للآثارِ والحِكَمِ   لولا وقائِعُهُ في سالِفِ الأُمَمِ
لم يَحفل النّاسُ بالقِرْطاس والقَلَمِ   أينَ اليَراعةُ من صَمْصَامَةٍ خَذِمِ
في حَدّهِ الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ[٥]

= المشهورين فيها . ويعرف أيضاً بابن تاعيشت (وهو اللفظ البربري لاسم عائشة ، وهي أُمّهُ ، نُسب إليها) . ولي عدداً من ولايات الأندلس أيام أبيه يوسف ، وأيام إمارة أخيه علي . وقاد لها الجيوش ، فتولى إشبيلية وبلنسية ومرسية وضبط أمور سرقسطة مدة يسيرة بعد وفاة واليها سنة ٥١٠ وهو أبو بكر بن إبراهيم . وعليه كانت وقعة كُتندة (أو قُتندة) سنة ٥١٤ التي استشهد فيها عدد كبير من رجال الأندلس وعلمائها .

ويبدو أن أخاه عزله ـ بعد هذه الهزيمة ـ وحَمّله مسؤوليتها ، وشدّد عقوبته .

وعلى العُموم فقد كان أبو إسحاق من القواد المرموقين . وكانت له وقائع منتصرة . وكانت له صلة بأهل العلم والأدب . وألف له ابن خاقان كتاب القلائد . ومدحه الشُّعراء ، وعلى رأسهم ابن خفاجة .

(قلائد العقيان ٣ ، المعجم في شيوخ الصدفي ٨ ، التكملة لابن الأبار ٢ : ٦١١ ، الحلل الموشية ٩٠ ، المغرب لابن سعيد ١ : ٣٩٧ ، ١ : ٢٥٣ ، الإحاطة ٤٠٤/١ ، وفيات الأعيان ٤ : ٢٤ ، الإعلام بمن حَلّ مراكش وأغمات من الأعلام ١ : ١٤٧) .

(٤) هذا الشَّطر هو صدر البيت الأوّل من قصيدة أبي تمّام (ديوانه ١ : ٤٠) وفيه : « قال يمدحُ المعتصم بالله أَبا إسحاق محمد بن هارون الرشيد ، ويذكر حريق عمورية وفتحها » ، وكان الممدوح في مخمسة ابن أبي الخصال يكنى أيضاً بأبي إسحاق .

(٥) اليراعة واحدة (اليراع) : القَصب ، وتطلق على القلم . والصمصامة والخذم من صفات السيف القاطع . وقوله : « في حدّه الحدّ ... » هو عجز أول بيت من قصيدة أبي تمام .

والسَّمْهَرِيَّةُ تتلوهُ وتتبَعُهُ ماملَ عَرْشٌ رماحُ الْخَطّ ترفعُهُ[٦]
خُذْ ماتراهُ ودَعْ ماكنتَ تَسْمَعُهُ[٧] فالعِلْمُ في شُهبِ الأرماحِ أَجْمَعُهُ
بينَ الخميسين لا في السَّبْعَةِ الشُّهُب[٨] !

في أَمْرِ (قُوريّةٍ) سِرٌّ ومُعْتَبَرُ[٩] هل للكواكبِ في استفتاحِها أَثَرُ
حتى انتحاها أبو إسحاق والقَدَرُ وعَزْمَةٌ مالهمْ من دونها وَزَرُ
كالسَّيْل في اللَّيلِ ذي التَّيار والحَدَبِ[١٠]

سَما إلى الدّين والدُّنيا فشَدَّهما بفتكةٍ رَفَّعَتْ فِي اللهِ حَدَّهُما

---

(٦) السمهريَّة : الرماح . والْخَطّ : مكان تنسب إليه .

(٧) هذا من قول أبي الطيب (ديوانه بشرح الواحدي : ٤٩٠) من قصيدة في مدح سيف الدولة :

خذ ماتراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زُحَلِ

(٨) في ديوان أبي تمام : البيت الثالث من قصيدة عمورية :

فالعلمُ في شُهبِ الأرماحِ لامعةً بين الخميسين لا في السَّبعة الشُّهبِ

(٩) (قورية) Coria مدينة أندلسية منيعة من جهات الثغر الأعلى إلى الغرب كانت من نظر دولة بني هود ثم صارت في نظر المرابطين ابتداء من أوائل القرن الخامس ، وهي قريبة من (ماردة) ، وكان لها سورٌ منيع يفيد في الدّفاع عنها . وقد شدّد النصارى في محاولات الاستيلاء عليها واستعصت عن ألفونسو المحارب ملك أراغون (ابن رذمير) ومات دون ذلك . وفي سنة ٥٣٦ حاصرها ألفونسو ريمونديس ولما يئست من الإنجاد سقطت ، ودالت دولة العرب فيها .

وشكوى الشاعر في القطعة إنما هي من العيث والفساد والإحراق الذي بثّه أمراء النصارى وقوّادهم ، وخصوصاً عيث ابن رذمير الذي كان بالغ القسوة والبطش .

(١٠) الوزر : الملجأ والْمُعتصم . والحدب : ارتفاع الماء تارة وانخفاضه أخرى . وفي البيت أخذ يسير من بيت أبي تمّام : ٥١

[٤/ب] وجَحْفَلين أعضَّ الكفر حَدَّهما رَمى بك اللهُ بُرْجيها فهدَّمها

ولو رَمى بكَ غيرُ اللهِ لم يُصِبِ[11]

سواكَ تُخفَرُ بعد العقدِ ذِمَّتُهُ[12] وأنت من كَملت في الصَّفح نِعْمَتُهُ

ولا تُبَتُّ بِملءِ الأَرْضِ عِصمَتُهُ ورُبَّما أعرضت للحَزْمِ هِمَّتُهُ

يومَ الحِفاظِ عن المَسْلُوب والسَّلب

أَبْقى كَنِيُّكَ عَمُّوريةَ مَثَلا[13] فجئتَ تفعَلُ محموداً كما فَعلا

لَمَّا رَأَوْا بك صرفَ الموتِ قد نَزلا ولم يدعْ لهم صِدقُ الرَّدى أَمَلا

لديكَ إذ جَنَحُوا للسّلم من كَثَب

رضيتَ عنهمْ وصدر السَّيف ذو حَنِق والسَّمهرِيَّةُ تَسْتَسقي على حُرَقِ

وتلك (سَمُّورة) تهوي من الغَرَقِ[14] وفي ضَمانِكَ أَنْ تَرْوى من العَلَقِ

ظُبى السُّيوفِ وأَطرافُ القَنا السُّلُبِ[15]

---

(١١) البيت ٤١ من قصيدة أبي تمّام .

(١٢) خفر ذمّته : لم يَرْعَها . والبيت المخمس في قصيدة عمورية : ٥٤

(١٣) المخاطب أبو إسحاق إبراهيم وكنيّه أبو إسحاق المعتصم . و (عمورية) مشهورة .

(١٤) سَمّوره Zamora من مدن الثّغر الأعْلى من نظر سرقسطة افتتحها المسلمون ، وضاعت منهم أيّام عبد الرحمن الداخل (في أعقاب الفوضى قبل وصوله) ثم استردّها المسلمون . وتاريخُها غير جَليّ وتنقطع أخبارها في الكتب في أواخر القرن الرّابع . وظاهر أنها كانت في المدن المقاومة لضربات الدولة الشمالية النصرانية وخصوصاً هجمات ابن رذمير . وفي هذا النصّ إضافة مهمّة في إيضاح تاريخ هذه المدينة العربيّة .

وسقطت المدينة في تاريخ قريب من سقوط (قورية) في القرن السّادس .

(١٥) الشطر الأخير من قصيدة عمورية : ٤٤

فاصمدْ إليها وثِقْ بالواحد الصَّمَدِ لاتَخْشَ مَطْلاً وناجِزْها يداً بِيَدِ
فما تُصاولُ أُسد الغابِ بالنَّقَدِ وانهَدْ فجيشُك لم ينهدْ إلى بلدِ
إلا تقدّمَهُ جيشٌ من الرُّعُبِ[١٦] !

لاقَتْكَ قوريّة بالذُّلّ واعترفَتْ في فتيةٍ صُبُرٍ ليسوا كمن عَرَفَتْ
كم خاطبٍ بأليمِ القَدْعِ قد صَرفَتْ لكن برُعْبكَ درّ الرِّسْلُ وانصرفتْ
منها الْمُنى حُفَّلاً معسولَةَ الْحَلَبِ[١٧]

أبوكَ ناصِرُ هذا الدّين إذ خُذِلا ومُنْشِرُ العَدْلِ لَمّا ماتَ أو قُتِلا
فكنْ على هَدْيهِ الميمون مُحْتَمِلا وأَورد الأَمْرَ مهما شئتَ مُشْتَمِلا
ففي نِصابكَ ما يكفي من النَّصَبِ[١٨]

لكنّكَ الشَّمسُ لاتنفكُّ في سَفرِ وفي بَشائرَ تُهْديها إلى البَشَرِ

[٥/أ]

ولا تَرَقّى إليه هِمَّة النُّوَبِ[١٩]

سجيَّةٌ من أَبي يعقوب لم تنمِ وشيمةٌ طُبِعَت من أكرمِ الشِّيَمِ

---

(١٦) أخذ من بيت عمورية : ٣٩ . ويقال : صمد إليه : قصده وانتظر غفلته . والنَّقَد : صِغار الغَنم .

(١٧) قدعه : كفه ومنعه بيده أو لسانه . الرِّسْلُ : اللَّبن . وآخر شطر من قصيدة عمورية : ١٣

(١٨) قوله : « أبوك » يعني يوسف بن تاشفين الذي وحّد المغرب والأندلس ، وانتصر على تحالف الدول النصرانية في (الزلاقة) ٤٧٩ هـ .
ـ واشتمل على الأمر : أحاط به .

(١٩) الشطر الأخير من البيت ١٧ من قصيدة عمورية . والشطران السابقان لم يظهرا في المخطوطة .

وديمـةٌ لم تكن من هـــذه الـــدِّيَمِ   سَقتْ بَـوارِقُهـا أَرضَ العِـدَا بـدمِ

فيها الصواعق من سُمْرٍ ومن قُضُبِ[٢٠]

اختــــارَهُ اللهُ عن علمٍ ومكَّنـــهُ   فزلـزل الشِّرْكَ ، والإسلام سكَّنَـهُ

حتّى تبـوّأَ عنـد اللهِ مَـأْمَنَـهُ   صَلّى الإلــهُ على تُربٍ تَضَمَّنَـهُ

فَكُلُّ مَعْلُوَةٍ في ذلك التُّربِ[٢١]

طــودٌ نَمَتْـهُ إلى العَلْيَـاءِ أَطْـوادُ   كيف استقلّت بـهِ في النَّعْشِ أَعوادُ

كأنهم حَمَلُـوا رَضْـوى ومـا كادُوا   والعـدلُ والبرُّ والتقـوى لـهُ زادُ

فَحَلَّ من ذروةِ الفِردوسِ في رُتَبِ[٢٢]

مع ابنِ عبـدِ العَزيز المُرْتَضى عُمَر   قـد كانَ ثـانِيَـهُ في فـاضِلِ السِّيَرِ

فصـارَ أَوْلى من الأَوْلَيْن في السُّوَرِ   إنَّ المُصَلّيَ بعـد السـابقِ الظفِرِ

أَدْنى إليه من الأدنين في النَّسَبِ[٢٣]

يــاقَبْرُ زارك عَنّـا وابِـلٌ عـذِقٌ   وروضَـةٌ للحِجَا رَيْحـانُهـا عَبِقُ

يضاحكُ الشّمسَ منهـا كوكبٌ شرِقُ   لو مـاعلمتَ على مَنْ أنت مُنْطَبِقُ

لاختالَ تُرْبُكَ من عُجْبٍ ومن عَجَبِ

---

(٢٠) أبو يعقوب يوسف بن تاشفين . والشطر الأخير يلمح إلى البيت ٣٦ من قصيدة عمورية .

(٢١) المَعْلُوَة : كسب الشرف .

(٢٢) الطود : الجبل ، ورضوى اسم جبل معروف ضربه مثلاً . ويظهر أن ابن أبي الخصال أنشد هذه القطعة في فترة قريبة من وفاة يوسف (سنة ٥٠٠ هـ) وولاية ابنه عليّ . يدل على ذلك حرارة الرّثاء وترداد حوادث معيّنة .

(٢٣) أكثر الشعراء من تشبيه يوسف بن تاشفين (في عدله وورعه وبأسه) بعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز (راجع مثلاً أبيات ابن الجدّ في أعمال الأعلام للسان الدين : ٢٤٢) . المصلّي : الفرس الثاني في السباق ، والسابق الأوّل .

هَلْ من بشيرٍ بهذا الفتح يُعْلِمهُ ... ما شاءَ من بعدِهِ برٌّ يُعَظِّمهُ
واللهُ في أجرِهِ الموفُورِ ينظمهُ ... فإنّهُ في الثَّرى تَهْتَزّ أعظمهُ
بما استَباح من الأَوثانِ والصُّلُب[٢٤]

هذا حَديثٌ إلى الرَّحْمٰن مصعدُه ... ويوسفٌ عن يمين الله مقعَدُهُ
[٥/ب] وروحُه الطيّبُ الزاكي سَيشهدُه ... وأحمدٌ ثَمّ عند اللهِ يَحْمَدُهُ
عن العبادِ وعيْنُ اللهِ لم تَغِب[٢٥]

يا حائط الدِّيْنِ في ماضٍ ومُقْتَبَلِ ... لم تُبْقِ لِلْمُلْكِ والإسلامِ من أَمَلِ
خصَصْتنا بأمير المؤمنين عَلي ... ناهيكَ من عِوَضٍ ضَخْمٍ ومن بَدَلِ
تدورُ من رأْيِهِ الدُّنيا على قُطب[٢٦]

أَعْلى الْمُلوكِ وأتقاهم لمالكِهِ ... للعدل فَيضٌ وبَسْطٌ في ممالكِهِ
والمشرفيّةُ تَدْمى من مآلكِهِ ... والحِلْمُ - وهو حَياةٌ - من مهالِكِه
[لَمّا] رأيت جُنودَ اللهِ في الضَّرَب[٢٧]

خاصِمْ بدعوتِه المنصورةِ الْحُجَجِ ... وكنْ من النَّصْرِ والعُقْبى على ثَلَجِ
وافرُجْ بها كُرَبَ الإسلامِ تنفرجِ ... واقْرَعْ بها كلّ بابٍ مُبهمٍ تَلِجِ
فنِعْمَ مِفتاحُ بابِ المعقلِ الأَشِب[٢٨]

---

(٢٤) يلمح إلى شيء في البيت ١٠ من قصيدة عمورية .

(٢٥) تعكس حرارة الثناء في هذين البيتين مكانة يوسف عند الأندلسيّين ، والمكانة التي ردّها إليهم عند أعدائهم . وها هم أولاء يفتقدونها حالاً بعد حال .

(٢٦) يلمح إلى شيء من البيت ٩ من قصيدة عمورية . والأمير هو عليّ بن يوسف بن تاشفين .

(٢٧) مآلكه جمع مألكة : الرسالة .

(٢٨) الثَّلَج : الفرح وانشراح الصّدر . والباب المبهم : المحكم الإغلاق . ومعنى أشِبَ الشجر : التفّ . والمعنى بالمعقل الأَشب : المحكم الحماية .

هـا إنّهـا نفثَـةٌ زارتْـك عن أثَرِ مبشّراتٌ من الرُّؤيـا على قَـدَرِ
بـاحَتْ كما بـاحَت الأكمامُ بـالـزَّهرِ واللّيـلُ تُـدْرِجُه طيّاً يـد السَّحَرِ
والفَجْرُ راياتهُ منشورةُ العَذبِ[٢٩]

تأويلُ رؤيـايَ قـد لاحَتْ أوائلـهُ ويُمْنُ رَأْيِـكَ قـد قـامَتْ دلائِلُـهُ
وأنجحتْ نحـوَ مـاتَبْغِي وسـائلـهُ واللهُ يُعْطِيـك ممّـا أنْتَ سـائِلـهُ
كلَّ الذي بَعْضُه يأتي على الأرَب !

لا زِلتَ تَقْدَحُ زنـدَ البـأس والكَرمِ ودُمْتَ تَرْفَـعُ للسَّـارين في الظُّلَمِ
نـارَيْ نَـدًى ووَغًى تُـذكى على عَلمِ والنَّـاسُ من بـأسِك المحمرِّ في ذِمَمِ
وجودُك النَّضرُ في ماءٍ وفي عُشُبِ[٣٠]

هـو الأميرُ أبـو إسحـاقَ مـا نَهَـدا إلا أعـادَ عـزيـزَ الكُفْرِ مُضْطَهَـدا
[٦/أ] واستصحب الملأ الأعلى لهُ مددَا ولم يمُـدّ إلى المستصعبـاتِ يَـدا
إلا اتّقتْ بِرضاهُ سَوْرَةَ الغَضَبِ[٣١]

أمطَتْـهُ قُـوريّـةٌ أعْنـانَ صَهْـوَتِهـا أوْلى لَهـا لـو تَمادى عَقْـدُ جَفْـوَتِها
من الْجُيـوشِ التي حَلّت بِعَقْـوَتِهـا لو حـاولتْ رأسَ غمـدانٍ بِعَنْـوَتِها
ماتَ ابنُ ذي يَزَنٍ من شِدَّة الرَّهَبِ[٣٢]

---

(٢٩) العَـذَب : خرقـة تشـدّ على رأس الرمـح ، ومـا سُـدِل من العمامـة بين الكتفين وهمـا طرفاها . (الواحدة : عذبة) .

(٣٠) استفاد مما في البيت ٤٥ من قصيدة عمورية .

(٣١) نهد لعدوّه : صمد له وشرع في قتاله .

(٣٢) العقوة : ماحول المحلّة . و (غمدان) قصر مَشْهور ، وهو قصبـة صنعـاء بـاليمن ، وكان سيف بن ذي يزن أقام به واستقبل الوفود (الروض المعطار : ٤٢٩) .

لم تَستطعْ مع ما أحكَمْتَهُ حَركا   لَمّا نصبْتَ على أَقْطارِها الشَّرَكا
حتى أخذت عليها الجَوَّ والفَلَكا   بطامحٍ فاتَ أسبابَ السُّها دَركا
ذَلّتْ به راسياتُ الصَّخْرِ للخشَبِ[٣٣]

يُونانُ تعجز عن إحكام ما اختَرعا   والفُرْسُ لا تَدَّعي بعض الذي صَنعا
لو رامَ ذاكَ أَنُو شروانُ لامْتَنعا   ولو أبو كَربٍ في وصْلِها طمعَا
ندّتْ وصَدَّتْ صُدوداً عن أبي كَرِبِ[٣٤]

أَثْبَتَّ - بعد زَوالٍ - أرْض أَنْدَلُسِ   وقُمْتَ تُذكرنا بالأَمْنِ والأَنَسِ
والفَتْح عَهداً من الإقبال كانَ نُسِي   فالنّاسُ - ما دُمْتَ - في عيدٍ وفي عُرُسِ
والأَرضُ تبرزُ في أثوابها القُشُبِ[٣٥]

اغضَبْ لِعَيْثِ ابن رُذْميْرٍ فقَدْ مَردا   واجْرُرْ عَلَيْهِ لريحِ النَّصْرِ ذَيْلَ رَدى
بوقعةٍ تَرتمي أَمواجُها زَبَدا   بكلِّ أَدْهَمَ تُعطيه البُروق يَدا
بالليلِ مُشتملٍ بالفجرِ مُنْتَقِبِ[٣٦]

---

(٣٣) استفاد في الشطر الأخير من البيت ٢٥ من قصيدة عمورية .

(٣٤) أَبو كَرِب أحد تَبابعة اليمن ، وأنو شروان أحد أكاسرة الفُرس . وسيرد له ذكر أوسع من هذا . (راجع فهرس الكتاب التَّفصيلي) .

(٣٥) القُشُب جمع قشيب : (جديد) . والشطر الأخير من معنى البيت : ١٢ من قصيدة عمورية .

(٣٦) (ابن رُذمير) هو الصورة العربية لاسم ألفونسو بن سانشو راميريس ، ورث ملك مملكة أراجون بعد أبيه . وكان فاتكاً لا خلاق له (كما في عصر المرابطين والموحدين ١ : ٩٤٣) . وله أخبار كثيرة مع دول عصره من المسلمين والنصارى معاً . وقد اجتهد في محاربة الأندلسيّين والمرابطين في الثغر الأعلى وشرق الأندلس ، واشتهر بلقب المحارب : El Batallator . واستولى على عدد من القلاع والْحُصون ، ولكنه مات بعد هزيمة منكرة جرت عليه سنة ٥٢٨ هـ بعد حصار مخفق لمدينة إفراغة .

وانْهَضْ نُهــوضَ أَبيّ النَّفْس معتزمٍ   واسلـكْ سبيـلَ أبي إسحـاق معتصمِ

وخُـذْ بثـأرك في البَيْضـاء واحتكمِ   يا غيرةَ اللهِ قـد عـاينتِ فـانتقمي

بغزوِ مُحتسِبٍ لا غزوِ مُكتَسِب(٣٧)

وارْمِ العَـدُوَّ بسهمٍ منــك لم يطشِ   وانعشْ بحزمِكَ ذاك الثّغْرَ يَنْتَعِشِ

[٦/ب] وارغَبْ بتابعِ أصحـاب الهـدى حَنَشِ   عن كُـلّ رِجْسٍ لحرِّ الجمرِ مفترشِ

وارْبَأ بأعظُمِه عن ذٰلكَ اللَّهَب(٣٨)

واهـاً لِوَحْشـةِ مَبْـداهـا ومَحْضَرِهـا   واهـاً لِرَفْضِ مُصَلّاهـا ومَنْحَرِهـا

واهـاً لمسجِـدهـا الأَعْلى ومنبرِهـا   لشَـدَّ مـا سُلبت إشراقَ مَنْظَرِهـا

وغُودرت وحْشَةَ السَّاحات والرَّحَب

معَـاهـد تعرفُ التَّوحيـد والسُّوَرا   وسُنّـة المصطفى الْمُختـار والأَثَرا

وجَنّـة أَصبحَتْ روضـاتُهـا سَقَرا   وبُـدّلتْ بِـذَوي الإيمـانِ مَنْ كفرا

فأَيُّ طِفْلٍ لِهذا الهَوْل لم يَشِب ؟!

الـدِّينُ جِسمٌ سَوِيٌّ بـاسِقُ القَـدَرِ   وإنْ أَلَمَّ بعُضْـوٍ منـــه ذي خَطَرِ

داءٌ تَضعضَـعَ بـالْحُمَّى وبـالسَّهرِ   فانظرْ وفي الجسمِ مَدْعـاةٌ إلى النَّظَرِ

فإنَّما الغَوْثُ قبل الفوتِ والعَطَب(٣٩)

---

(٣٧) استفاد من البيت ٥٢ من قصيدة عمورية .

(٣٨) الإشارة إلى التـابعي الجليل حنش الصَّنعـاني . وهو حنش بن عبـد الله الصَّنعـاني (صنعـاء الشـام) تـابعي من المجـاهـدين الشجعـان . غزا في البرّ والبحر، وولي الـولا يـات ، ودخـل الأَندلس فاتحاً مجاهداً . واشتهر ببنـاء المسـاجـد وتعـديل القبلـة ، وهو الـذي ابتنى مسجـد سرقسطـة . وفيهـا وفـاتـه سنـة ١٠٠هـ . ولـوفـاتـه ثمـة قـال ابن أبي الخصـال : (واربـأ بأعظمه...) . (ينظر بحث عنه وعن مصادر ترجمته في مجلة الإكليل العدد ٣)

(٣٩) في البيت إشارة إلى الحديث المشهور : « ... كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ... » .

إليـــكَ بعـــد أَمير المـؤمنين عَلِي نشكُو ونَفْزَعُ عنـد الحـادث الجلـلِ
فاكشفْ أراجيفَ هذا الرَّوع والوَهَلِ بعـارضٍ للمنـايـا مسبِلٍ هَطِـلِ
بالْمَشْرَفِيّة والأَرواحِ مُنْسَكِب[٤٠]

أَغِزْ أَبِر انهِل اعلُلْ سُلَّ شُلَّ غِرِ أَنِر أَثِر اخطِر انْفِر اسفر أَسْرِ سِرِ
أَحِطْ أَمِط اقبِض ابسِط نُط أبح أَجِرِ أَفِدْ أَفِت اْرفِد اخفِض ارفَع انْهَ مُرِ
زَلزِلْ أَزِلْ أَرعِد ابْرِق اسْتَهِلّ صُب[٤١]

لعـلّ مـاسَرّ هٰـذا الحـائن البَطِرا يَجْنِيــهِ مــا سـاءَهُ غِبّـاً ومُخْتَبرا
فَرُبَّ واردِ غيٍّ لم يَجِـدْ صَـــدَرا وساقِطٍ ليـديــهِ في الّــذي حَفرا
ومُحْرَقٍ بلَظى ما حَشّ من حَطَب[٤٢]

أَراهُ قـد لَـجّ في استِدْراجـهِ القَـدرُ واستشرَفَتْــــهُ وحثّتْ نحـوه سقَرُ
[٧/أ] وكلّ يومٍ لـهُ نحوَ الرّدى سَفَرُ [تُــدني منيّتَــهُ] الآصـــالُ والبُكَرُ
إنّ القَضاءَ ليحدُوهُ بلا طَلَبِ[٤٣]

---

(٤٠) هو أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين (حكم من ٥٠٠ هـ ـ ٥٣٧) .

(٤١) أفعال أمر متوالية ؛ في الشطر الأول من : أغار ، أبار ، نهل ، علّ ، سلّ ، شلّ ، غار . وفي الثاني من : أنار ، أثار ، خطر ، نفر ، سفر ، أسرى ، سار . وفي الثالث من : أحاط ، أماط ، قبض ، بسط ، ناط ، أباح ، أجار . وفي الرابع من : أفاد ، أفات ، رفد ، خفض ، رفع ، نهى ، أمر . وفي الخامس من : زلزلَ ، أزال ، أرعد ، أبرق ، استهل ، صاب .

ـ وقد سبق إلى مثل هذا الأسلوب أبو الطيب المتنبّي في المشرق وابن زيدون في الأندلس ، وغيرهما .

(٤٢) الحائن : الأحمق . حش : قطع وجمع .

(٤٣) ما بين معقوفتين غير واضح وهو مقترح اقتراحاً .

فَتْحُ الفتُوح الـذي هٰـذي أَمـارَتُـهُ　　وافَتْ بقـوريّـةٍ عنـهُ بشـارتُـهُ
وبعـدَهـا وقعَـةٌ فيهـا إبـارَتُـهُ　　يـا حَبَّـذا نـاطِقٌ هـذي عِبَـارَتُـه :
« باللهِ قُلْ وأَعِدْ يا أَفْصَحَ العَرَبِ »[٤٤]

[٣]

ولَهُ إلى الوزير الكاتب أبي بكر بن عبد العزيز[١] ، رحمهما اللهُ

أطالَ اللهُ بقاءَ أميري وإمامي الذي أُطيعُـه خوفـاً ووُدّاً ، وأتبعـه على أنْ يعلّمني مِمّا عُلّم رُشدا[٢] ؛ وأرى أُمراء البَلاغة لهُ خَوَلاً وجُنْدا ، وأتقَـدَّمُ

---

(٤٤) أباره الله : أهلكه .

[٣]

(١) الوزير الكاتب أبو بكر محمد بن أبي مروان عبد الملك بن عبد العزيز (وبنو عبد العزيز يُعْرَفون ببني المُرْخِي) اللخمي الإشبيلي . أحد أفراد زمانه علماً وكتابةً وروايةً وشهرة . كان مُحَدّثاً مُتقناً ضابطاً حَسن الخطّ .
سكن قرطبة ، واختصّ بأميرها أيام يوسف بن تاشفين ، أبي بكر محمد بن الحاج داود . وفي سنة ٥٠٠ كان معه حين رفض المبايعة لعلي بن يوسف . فلما فسد تدبير ابن الحاج هرب أبو بكر إلى شرق الأندلس . ولما اعتدلت أُمور ابن الحاج لحق به في ولايته على (فاس) بالمغرب وتنقّل معه في المغرب والأندلس في سَرقُسطة وبلنسية وغيرهما حتى قُتل ابن الحاج في معركة البورت سنة ٥٠٨ . وقعد أبُو بكر بن عبد العزيز للإقراء ؛ واستمرَّت علاقته وثيقة بالمُرابطين إلى وفاته سنة ٥٣٦ هـ ، وقد استكتبه علي بن يوسف هو وابن أبي الخصال .
ـ وله في تَراجمه الباقية شعرٌ ورسائل مفرّقة .

(الذخيرة ق ٢ ج ٢ : ٥٣٣ ، المغرب ١ : ٣٠٧ ، الصلة ٥٥٥ ، الذيل والتكملة ٦ : ٥٠٤ ، معجم الصّدفي ١٣١ ، الخريدة ٣ : ٤٣٣ ، بغية الملتمس : ٩٢ ، المطرب ٢٠٨ ، قلائد العقيان : ١٦٣ ، نفح الطيب ٣ : ٤٥٨ ، ٥٧٠) .

(٢) اقتباس من الآية الكريمة من سورة الكهف ٦٦/١٨

تَحْتَ رايتِه لا أَجِدُ من ذلك بُدّا ؛ وصَدْرُه بالحكمةِ يجيشُ ، ورقاعُه تَبْرِي وتَرِيْشُ[٣] وروحُ الفصاحة بما ينفثُ فيه من رُوحِه يذكو ويعيش .

كتبتُ ـ أدامَ اللهُ عِزَّهُ ـ والنَّشاطُ أُمنيةٌ تُزْوى ، أَو طَلَلٌ بِحُزْوى[٤] ؛ والقلبُ صادٍ ، والذُّكرة الّتي تَجذِبُ الضُّلوع بِمرصاد[٥] ؛ والوَرْدُ روضَةُ أَبي بَصِير[٦] ، والشَّوْقُ عَصا قَصِير[٧] ، وأشكو إلى الله من التَّقْصِير . وإنَّ كِتابَهُ الْجَلِيل الفذَّ ، وافى فَنَضا السَّوابِقَ وبَذّ[٨] ، وقد احتضَن ذلكَ الْمُخْدَجَ الأَحَذّ[٩] . كلامٌ كأنّما أُسِفَّ رائدُهُ الْمَلّ فأَعجف وأقلّ[١٠] ، أَو غُذِي الخلّ

---

(٣) أصل المعنى : تبري السهام وتريشها (استعداداً للرَّمي) واستعاره للكتابة .

(٤) زوَى الشيء : طواه . حُزْوى : موضع كثر ذِكره في الشّعر القديم (وهو في ديار بني تميم) : معجم مااستعجم ٢ : ٤٣٣

(٥) صادٍ من صَدِي : عطش . والذُّكرة (بضم الذّال) ضد النسيان .

(٦) أبو بصير هو الأعشى ميمون بن قيس (شاعر جاهلي أدرك الإسلام) . يشير الكاتب إلى قوله وقد وصف روضة في مجال الغزل بـ « هريرة » :

ما روضةٌ من رياض الْحَزْن معشبةٌ	خضراء جاد عليها مسبلٌ هطلُ
يضاحك الشوق منها كوكبٌ شرِقٌ	مؤزّرٌ بعميمِ النبت مكتهلُ
يوماً بأطيب منها نشر رائحةٍ	ولا بأحسن منها إذْ دَنا الأُصلُ

(الديوان : ٥٧) .

(٧) (العَصا) اسم فرس لقصير أو جذيمة الأبرش كانت لاتُجارى (أمثال العسكري ٢ : ٢٣٢) . (وانظر فهرس الكتاب التَّفصيلي) .

(٨) نضا الجوادُ الخيل : سبقها وتَقدَّمها . بَذّ : سَبَق (و : غلب و : فاق) .

(٩) المخدج من فعل أخدج ، أخدجت المرأة ألقت الولد قبل تمامه (يكون ضعيفاً) . والأحذ : الفقير ، والرقيق الحال .

(١٠) أُسِف من سَفّ الدواءَ وغيره إذا تناوله يابساً (كالذّرور وغيره) المَلّة : الرّماد (أو التراب الحارّ يخبز أو يطبخ عليه) . أعجف : هُزِل .

فأَسْقطَ وأَخلّ ، ولم يُحْمِض ولا أَخَلّ[١١] . وأَلفاظٌ ليس بها طرْقٌ ، ولا لها في هذا العُرَيب عِرْق[١٢] . لو كانت نَقْداً لَزُيّف وبُهْرِج[١٣] ولو أُرسلت غَيثاً لكانَ الخادِعَ الزِّبْرِج[١٤] . ولو تمثّلت بَشراً لَما كان مُؤدَماً مُبْشَراً[١٥] . تَذْعَرُ السَّوام[١٦] وتُوقِظُ الخطب إذا نام . وتَنْعى وتنعَبُ ، وتَشُتُّ وتَشْعَب . لو عَرضَتْ للعُصْمِ النَّواطحِ[١٧] في سَهل الأَباطح لحادَتْ ذُعراً عن سَنَنِها ، وأَلحقتها بأَعالي قُنَنِها[١٨] . ولو مَرَّت بالرّوضةِ الغنّاء تَجْلُو حُسْنَ مبتسِمِها ، وتضحك ملءَ فِمِها [٧/ب] لتَجهَّمَتْ بعد ابْتِسامها ، وتَوارَتْ في أَكْمامِها[١٩] . تُوسِعُ الأَسْماعَ وَقْرا ، وتُودِعُ القلوبَ نَكْأً وعَقْرا[٢٠] ، وتَعِدُ النُّفوسَ كُفْراً وفَقراً . أَخطأَ صاحِبُها الرِّفعةَ والسَّناء ﴿ وشَجَرة تَخْرُجُ مِن

(١١) الأصل في الحمض والخل نوعان من النبات (للرّعي) يُراوح الراعي الماشية بينهما . ويقال : ما فلانٌ بخلٍّ ولا خمر ؛ أي لَيْسَ بشيء . ويقال للمتهدّد : أنت مختلٌّ فتحَمّضْ ! قاله الزمخشري . ومعنى عبارة الكاتب أي : لم يصنع شيئاً .

(١٢) الطِّرق : الشحم . (كلام لا فائدة فيه) . والعريب تصغير العرب .

(١٣) بُهرج وزيّف بمعنىً .

(١٤) الزِّبرجُ : السحاب الرقيقُ فيه حُمرة (وهذا عادةً لا يُمطر) .

(١٥) من : الأدمة والبشرة .

(١٦) السَّوامُ ج السائمة : الراعية من المواشي .

(١٧) العصم جمع الأعصم والعصماء : الحيوان في ذراعيه أو في إحداهما بياض وسائرهُ أسود أو أحمر . والأباطح جمع الأبطح : المكان المتسع يمرّ به السَّيل . والكاتب لا يخصُّ مكاناً مُعَيّناً .

(١٨) قنن جمع قنة : رأس (الجَبل) .

(١٩) تجهَّم : عبَس . وكُمّ كل نَوْر : وعاؤه ، جمعه أكمام .

(٢٠) وقرت الأذن : ثقل سمعها . والعقر : أثر كالحزّ في قوائم الدابّة .

طُوْرِ سَيْنَاء ﴾[٢١] وهُـدِي إلى الّتي ﴿ تخرجُ في أَصْلِ الْجَحِيم ﴾[٢٢] ، وتَغْلِي في البُطونِ[٢٣] ﴿ كَغَلْيِ الْحَمِيْم ﴾[٢٤] ، طَلْعُهـا رُؤوسُ الأَراقِم ، وطعْمُهـا نفوسُ العَلاقِم[٢٥] . إنْ تَذكَّرها الإنسانُ جُبِهَ وصُدِغ ، أَو تحرّك بها اللّسـان نُكِزَ ولُدِغ . تبْرَأُ منها الأَنقاسُ[٢٦] ، ويكفرُ بها القَلمُ والقِرطاس ، ويَغْلِبُ قارِئَها التثاؤُبُ والعُطاس ، ويغشاهُ البَرْدُ والنُّعاس !

[٤]

وَلَهُ رَحِمَهُ الله ونَضَّرَ وَجْهَه[☆] :

أَطـالَ اللهُ بقـاءَ الأَميرِ الأَجلّ ، الملـكِ الأَعْـدَلِ ، نَـاشرِ النِّعَمِ ، ومُحيي الهِمَم في السَّعْـدِ الأَدْوَمِ ، وَالمحـلِّ الأَرْفـعِ الأَكْرمِ ؛ ولا زال يُرضي الرحمنَ ويُعِزّ الإيمـانَ ، وَيكسِرُ الأَوْثـان . آلاؤه ـ أَيّـده اللهُ ـ تَتنـاصر ، وشُكري وإنْ بلغتُ الجهدَ يَتضاءَلُ عنهـا ويَتقـاصر . واللهُ جَلّتْ قُـدرتُـه يتولّى لي بالكفايةِ مذهبَه الجميلَ ، ويصلُ لديه ولديَّ فيه الصُّنعُ الجَميل .

---

(٢١) سورة المؤمنون ٢٣ الآية ٢٠

(٢٢) في سورة الصافات ٣٧ : ٦٤ ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ .

(٢٣) اقتباس من الآية الكريمة من سورة الدخان ٤٤ : ٤٥ ﴿ كالمهل يغلي في البطون ﴾ .

(٢٤) في سورة الدخان ﴿ كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ .

(٢٥) الأراقم جمع الأرقم : ذكر الحيّات أو أخبثها . والعلاقم جمع العلقم : كل شيء مُرّ .

(٢٦) الأنقاس جمع نقس : حبر .

[٤]

(☆) رسالة إلى أحد الولاة من المرابطين القوّاد ، إشعاراً بورود كتابه الذي يُخبر بعودته من حملة ناجحة المقاصد في ديار العَدوّ .

ووافى كِتابُهُ الكريمُ المنوّهُ المشرّفُ ، المنبّهُ المعرّفُ ، بأوبتِهِ السَّعيدةِ التي هي رأسُ المالِ ، وجماعُ الآمالِ ، والنّعمةُ العُظمى التي لا كِفَاءَ لها[1] ، ولا نهوضَ إلاّ بعون الله بحقّها ، بعد شِفاءِ الصدورِ ، وإرضاءِ الجُمهورِ ، واستباحةِ بَيْضةِ الكُفّارِ[2] ، وانْتِسَافِ تلكَ الديارِ .

والحمدُ لله على ما كتب له من جلالةِ الآثارِ ، وبُعْدِ الصِّيتِ في الأَنجادِ والأغوار . وهو بفضلِهِ يسمُو به إلى أشرفِ الأَخطارِ ، ويُخْدِمُ همّتَه العَليّةَ نَوافِذَ الأقدارِ ، فهو الكفيلُ بقواصِي الأوطار .

وتلاه كتابُهُ العزيزُ مراجعةً عن كتابي كان إليه بما يستعبدُ الحُرَّ ، ويستغرقُ البرَّ ، ويستنفذُ في نصائِحِهِ العُمْرَ .

ومنَ اللهِ أستوهبُ المعونةَ على شُكرِه ، والنهوضَ بلوازمِ أَمْرِهِ ، والنفوسُ مستشرِفَةٌ[3] ، وليومِ ورودِهِ الحميدِ معترفة . فإنْ رَأَى - أيَّدهُ اللهُ - متَابَعةَ التشريفِ بإيثارِ الإشعارِ بهِ والتعريفِ .

هَدَانَا [٨/أ] - مَعْشَرَ عبيدِهِ - سُبلَ تَمجيدِهِ ، وأمدَّنَا بمأمول تَوفيقِهِ وتسديدِهِ ، إنْ شاءَ الله . أقدَمَهُ اللهُ أَيمنَ مَقدمٍ وجَعَلَهُ في أوقى عِصمةٍ وَأَمنعِ حَرَمٍ بعزّتِهِ وقدرته .

---

(١) لا كفاء لها : لا مماثل لها .

(٢) بيضة القوم : أصلهم ومجتمعهم .

(٣) استشرف الشيء : رفع بصره ينظرُ إليه . واستعملها الكاتب على المجاز (استشراف النفوس) .

[٥]

وَلَهُ(☆)

سَيِّدِي الأَعلَى ، وعَتَادي الأَزْكى وَمَظهري الأَسْمَى ، ومَعْقِلي الأمنَعِ الأحمى . لا زلتَ يَكتنفُكَ الإعلاءُ والإظهارُ ، وتُرفعُ لِقدومِكَ الأَبْصارُ(١) ، وتَتَزيّنُ بحديثِكَ الأسمارُ .

قَدّمتُ ـ أعزَّكَ اللهُ ـ هَذِهِ الحروفَ بين يَدي اللقاءِ قَاضياً بها بعضَ ذلكَ البِرِّ والاحتفاءِ ، مُعترفاً بِفَضْلِ ذَلكَ التهمُّمِ(٢) والوفاءِ ، واللهُ جَلّت قدرَتُه ، يَحمي جوانِبَكَ ويُعْلِي مَرَاتِبَك ، ويُبقي لِلأَولياءِ جَليلَ اعتنائِكَ وَيَشْكُرُ جَميلَ مَنَابكَ وغنائِك فلا غيبةَ وأَنت حاضِرٌ ، ولا عَوْرَةَ ولكَ المشاهِدُ المكرَّمَةُ والمحاضِرُ . تَكفَّلَ اللهُ بحُقوقِكَ ، وكحَّلَ عُيونَنا ببشرِكَ وشُروقِكَ ؛ بعزّتِه وقُدرتِهِ .

وقد كتبتُ إلى الأميرِ الأجلِّ مُولِي النِّعْمَة ـ أيَّدَه اللهُ ـ بما تشيعُه وتشفعُه والإعلامُ بيومِ الوصولِ مِنْ بركَ المَوَالي الموصولِ إنْ شاءَ الله .

---

[٥]

(☆) رسالة قصيرة (بطاقة) وقد سمَّاها الكاتب « حروفاً » . رفعها إلى (مسؤول) كبير وفد على مكان إقامة الكاتب يشكر ذلك الموفد الكبير ، ويخبره بأنه كتب إلى الأمير بوفوده وبجميل صُنعه .

(١) كناية عن علوّ مكانه ومكانته .

(٢) تهمّم الشّيءَ : طلبه ، وتحسسه ينظر أين هو .

[٦]

وَلَهُ(☆) رَحِمَهُ الله مُعَزِّياً :

سَيِّدي الأعظَم ، وعَتادِيَ الأكرَمَ ، ومَفْزَعي فيما أَهُمَّ ؛ ومَنْ أَطالَ اللهُ بقاءَهُ ثابتاً في الملمّاتِ جَلَدُه ، آنساً عِنْدَ الصَّدماتِ خَلَدُه ، لولا أَنَّ لِلدِّين ـ أعزَّكَ اللهُ ـ سنّةً في الْمُواساةِ ، راكِبُها مُتّبعٌ ، وتَارِكُها مُبتدِعٌ ، لما ذَكَّرتُ منْكَ ذاكِراً ، ولاَ نَبَّهتُ حامِداً لله تعَالى ، فيما نابَ ، شاكراً . وبَلغتني الفجيعةُ الوجيعةُ بالنجيبِ الحسيبِ رَيْعانةِ أُنْسِك ، ومَنْ نَفسُه مشتقةٌ مِن نَفسِكَ ، آوَاهُ اللهُ إلى رِضوانِه ، ونَعَّمه في جنانِه ، وثقَّلَ به ميزَانَك ، وأَخْلَى منَ الفجائعِ زَمانَك . فأخذتُ من ثُكْلِه بالحظِّ الأَوْفَى وسَاهَمتُ فِيه مُساهَمةَ الوَليّ الأَحفَى[1] ، وخَفِيَ عليَّ الأمرُ أوْ كَادَ يَخفَى ، لِمَا أنَا بسَبيلِه من أشْغَالٍ لا تنفسُ ، وأُمورٍ : وجوهُ مَخارِجِها تَلْتَبِس ، وأنتَ ـ أدامَ اللهُ عِزَّكَ ـ تَعلَمُ أنَّ أمْري مِنْ أمرِكَ ، في شؤونِ دَهرِكَ ، وحُلْوِكَ ومُرِّك ، وقُلِّكَ وكُثْرِكَ . فإن اتفقَ تأخيرٌ أو عَرَضَ تقصيرٌ فَصَدْرُكَ ينشرِحُ ، [٨/ب] وَعُذْرُكَ لي ينْفَسِحُ . واللهُ تَعالى يَمُدُّ في حياتِكَ ، ويَذُودُ المكَارِهَ عَنْ سَاحاتِكَ ، ويُنجزُ لكَ مَا وُعِدَ بِهِ الصَّابرُ المحتسِبُ في حَميمِهِ ، مِنْ وجوبِ جنَّتِهِ ونَضْرَةِ نعيمِهِ . وبجليفِ صَفَائِكَ أمسُّ حاجةٍ إلى معرفةِ ما تلقّيتَ بِه هَذا الْمُصابَ مِنْ صَبرٍ جميلٍ كريمٍ ،

---

[٦]

(☆) تعزية بوفاة ولد .

(١) المبالغ في الاحتفاء والاهتمام .

وتسليمٍ من الجزَعِ وَالشَّكوَى سَليمٍ . مُتِّعْتَ بأَعْلاقِكَ ، ولا فُجِعتَ بِشَرفِ سجاياكَ وأخلاقك ، وعُوِّضْتَ مِنْ فَانِيكَ أجراً خالداً ، وأحسن ما عَوَّضَ اللهُ مِنْ ولدٍ بَرٍّ والداً بجودِهِ ومَجْدِه .

[٧]

وَلَهُ(☆) رَحِمَهُ اللهُ وَنَضَّرَ وَجْهَه ؛ مُجاوباً منْ خَاطَبَهُ بجفاء وكانَ قَد أَهدَى إلَيه [مُدْيَةً](١)

[من مجزوء الكامل]

يا مُهْدِياً أَهْدَى الْمُدَى ... ذُقْ مِنْ هَدِيَّتِكَ الرَّدَى
واجْنِ القَطِيْعَةَ إنَّها ... ثمراتُ كُلِّ مَنِ اعتَدى
سَدَّدْتَها نَحْوِي ولسْـ ... ـتَ بما أتَيْتَ مُسَدّدا
فاشْرَقْ بحدِّك لا فُديـ ... ـتَ ومن يَكونُ لَكَ الفِدَى(٢)
واضربْ بسَوْطِك ظهرَ نَفْـ ... ـسِكَ واتّخِذ عِندي يَدا(٣)
أنتَ الذِي لانُوْكَ إلاّ ... نوكُهُ(٤) فِيما بَدَا !

[٧]

(☆) رسالة توبيخٍ ، وردٌ على رَجُل أهدى إلى الكاتب مُديَةً ـ ممّا يستخدم عادةً عند الكتاب من تسوية البطائق وقطع الورق الخ ـ ولكنّ الكاتب ـ لجفاء قديم بينه وبين المُهدي ـ تنبّه إلى الرَّمْز في إهداء الْمُدية ، فكتب هذه الرّسالة الغريبة المنزع .

(١) لم تظهر كلمة (مُدية) لورودها في آخر هامش الورقة . وهي مُستدركة ، مفهومة من سياق النصّ . (انظر البيت الأول) . والْمُدية : السّكّين .

(٢) الشرق : الغصّة .

(٣) اليد : الصنيعة والمعروف .

(٤) النُّوك : الحمق .

أَمَّا بعد : تُلِلْت لِخَدّك[٥] ، وذُبحت بحدِّك ، وعُلّقت بِنَوْطك[٦] ، وجُلدت بسوطك ، وفُللت بشباك[٧] ، وحُمِلت على أَسِنتك وظُباك ، فإنكَ تائهُ جهالة ، وحائرُ ضلالة ، وحائنُ مَهانة[٨] ، وخائنُ أمانة ؛ فاتَحْتَ بعُنف ، وتاحَفْتَ بحَتْف ، وفتحت على نفسك باب خَسْف ؛ وفرَيْت[٩] بما أَرهَفت ، وأَمْهَيت[١٠] أديم حالك ، وقطعت بما اصطنعت حبلَ اتّصالك ؛ وليتَك ـ إذ لم تقصد قصْدَ احتِفال ، ولا تناولْتَ البرّ إلا من سفال ـ تلافَيْتَ من رأيكَ ما فَال ، وتخيّرتَ الفال[١١] ؛ هذا وأنت من الخواصّ بزعمك ، وفي النُّبلاء على حكمك . وما زالت العامّةُ تَحترِسُ مما أَتيت ، وتَرى خِلاف ما رَأيت . وجُرأتكَ عَليّ بما تعلمُ تَنَزُّهِي عنه ، [٩/أ] وبُعدي منه ، أشدّ نكاية ، وأَحدّ جناية ؛ وهذه مُرهَفاتُك التي انْتَضيتها ، والْمَذْرُوبات[١٢] التي أَشرعتَها ، وأَمْضَيتَها ، قد عادت إلى نَحْرِكَ ، وارتادَت مواقِعَها من فُؤادك وسَحْرِك[١٣] ، فانهجْ لها سَنناً ، وأَعِدّ

---

(٥) تلّه : صرعه ، وألقاه على عنقه وخدّه .

(٦) النوط : عرقٌ غليظ ممتدّ من الرئتين عُلّق به القلب .

(٧) الشبّا : (جمع) شباة الشي : حدّه وطرفه .

(٨) الحائن : الأحمق .

(٩) فَرى : قطع .

(١٠) يقال أمهى السمن والقِدر والشّراب : أكثرَ ماءَها .

(١١) فالَ رأيهُ : أَخطأ وضَعُف . والفال : (أصلُها الفأل) ضد التَّطيّر .

(١٢) ذرب السَّيف وغيره : أَحَدَّه . يقال سيفٌ ـ وسنانٌ ـ مذرّب وذربٌ ومَذْرُوب .

(١٣) السَّحر : الرّئة . ورُبّما أُطلق على القلب والكبد أو على كلّ ما تعلّق بالحُلقوم من قلب وكبد ورئة ..

من الأَعمـالِ الصّحيحـةِ جُننـاً ، فـإني لا أَلتمسُ إلا مخـاتِلـك[14] ، ولا أَرقبُ بالْمُناقشةِ إلاّ مَقاتلك ؛ فرُبَّ مقتولٍ بما شَحـذ ، ومـأخوذٍ بمـا أَخـذ ، واللهُ وليُّ التّـوفيـق ، والْمُعين على التّحقيـق ، بعـزّتـه وقـدرتـه . وعليــكَ من السَّلام كلُّ مُرهفٍ فاتِك[15] ، ومخْطَفٍ فاتِـك ، يبلغ نسيســك[16] ، ويقلع تأسيســك ، ويلغُ في تـامورِك[17] ، ويُحيـط بضميرك وأُمورك ، ولا يُنكر هذه التحية ، من أهدى تلك الهَدِيّة ، إن شاء الله .

[٨]

وله[☆] رحمه الله ، وقد قصَد أَحدَ الأَعيان زائراً ، فألفاهُ نائماً :

قصدتُ ـ أطال اللهُ بقاءَك ، ومكّن علاءك ـ منزلَـكَ الرّحبَ ـ لا زال مقصُوداً ـ وزاحمتُ فيه بعد وفود التّهنئة وُفودا ؛ فـألفيتُـك قـد أَمْعَنت في السُّرى ، وحَللتَ بــوادي الكَرى[1] ، ونمْتَ ـ لا نُغِّصْتَ ـ نـــومَ مَنْ أذكى

(١٤) السَّنن : النَّهج والمسلـك . والجُنن ج جُنّـة : الستر والواقي . والمخاتل جمع مختـل ، من ختَل : خدع عن غفلة .

(١٥) المرهف والمخطف : يريد بها السَّيف .

(١٦) النَّسيس : أقصى كل شيء . ويُقال : بلغ نسيسه أي كاد يموت .

(١٧) التأمور (والتامور) : النفس ، والقلب .

[٨]

(☆) قصد الكاتب إلى دار صديق من ذوي الشأن ليتوسط لديـه في أمر رجل يحمل رسـالـة توصية من شخصية أُخرى ، فوجده نـائمـاً . فـاختصر المقصـد في كلمـات ، وأَشـار إلى الواقعة .

(١) الكرى : النَّوم . وفي العبارة مجازٌ لطيف .

عَيْناً[٢] ، وولّدَ للأعادي رَغماً وحَيْنا ، فآثرتُكَ بلذيذٍ كطعمِ الصَّرْخَدِيّ[٣] ، وانثنيتُ بغُلّتي عن ذلك النَّدِيّ ، وتركتُ راحتَك في سردِها ، وعينَك - لا أرقتْ ! - مُستمتعة ببرْدِها ، مُتلفّعة بالسِّنَةِ وبُرْدِها ؛ وتخطّيت محلَّك إلى ما وراءَهُ ، وعَقَدتَ شوقي إزاءَهُ ، لِتَرجعني عليكَ الرَّواجِع[٤] ، وتصحّ للإدراك الواجبة الْمَراجع ؛ فبعد تعلّل هناك يَسِير ، ومقامٍ كلا ولا قصير[٥] ، عُدت فإذا لِحافُ النَّوم سابِغ ، وطعمُه سائغ ! ولما اعْتَاص لقاؤك ، أفضيتُ إلى هذه الرقعة بسري ، وأودعتُها في صدري ؛ وحملتها أمر فلان ، مُعظّمك - أعزّه الله - في تلك الكتب المأمور له بها ، لتنفذ على ما يَقتضيه جميلُ رأيك فيه من البرّ والتّنويه ، وإنّ له من الرّئيسِ الأَجلّ - أيده الله - محلاًّ نَبيهاً ، ومكاناً وجيهاً ؛ [٩/ ب] فإنك تَرتهنُ بذلك شُكري وشكره ، وتخلدُ في الرّقعة ببلاغتك الرفيعة ذكره ، إنْ شاء الله .

---

(٢) يقال أذكى النار إذا أوقدها . ويستعارُ الكلام للفؤادِ وغيره .

(٣) الصَّرخدي نوعٌ من الشراب المنسوب إلى صَرْخَد (يقال اليوم صَلْخَد) - والغُلّة : العطش .

(٤) من قول قيس بن الملوّح : (قيس ولبنى : ١٠٦)

وأرمي إلى الأرضِ التي من ورائكم ... لِترجعني يوماً عليك الرّواجِعُ

- والبيت في عيون الأخبار وفيه : ٢ : ٢٦ « وقال ابن الأعرابي : ... البيت » .

(٥) في اللسان (لا) قال : العربُ إذا أرادوا تقليل مدّةِ فعلٍ أو ظهور شيء خفيّ قالوا : كان فعلهُ كَلاَ . ورُبّما كرّروا فقالوا كلا ولا .

[٩]

وله(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يَتشَفَّعُ لإنسانٍ لِيَجْمَعَ في الصَّيفَة(☆☆) :

ياسادَتي وأَوْلِيائي وأَحِبَّتي وأَصفيائي : أعَزّكم الله وأبقاكم ، وحَرسكم وتولاّكم . الصَّيفَةُ ـ أكرمكم الله ـ موسمُ التِقاط ، ومَعْلَمُ استِظهارٍ على القوت واحتياط . وإذا كانت الذَّرَّةُ على دِقَّة جِسمها ، وقلّة جِرْمها[1] ، تُقبل وتُدبر ، وتَقتني وتَدَّخر ؛ وتتَعرّض لحطمِ الظّلف والحافِر والْخُفّ ، فالإنسان في سعةِ حَواياه[2] ، وانفِساح أركانِه وَزَواياه ، وشهوتِه الْمُلتهبة ، ومعدته الملتهمة ، أَوْلى بالإعداد ، وادّخار الزَّاد .

وفُلان قد نظمَ مآثركم ، وسَرَد مفاخركم ، وأَجَادَ أَمْدَاحكم ، وانتجعَ سَماحَكم ؛ وهو يرجعُ إلى عِيال ، ويُمْسِي ويُصبحُ على اختِلال[3] ؛ وأنتم بكرمِ انفِعالكُمْ ، وعادَةِ إجمالكم ؛ تنتبهون إلى مُواساتِه ، وتَسُدُّون من خَلاّتِه[4] ، إن شاء الله .

---

[٩]

(☆) رسالة ـ أو بطاقة ـ للشفاعة العامّة ، زوّد بها بعضَ مستميحي أَهل الفضل . فهي ليست مرفوعة إلى واحد معيّن . وغرض ذلك المستميح أن (يلتقط) في موسم الصَّيف ما يجود به أهل الكرم .

(☆☆) لم ترد (الصّيفة) في المعاجم . وقد سجلها دوزي في تكملة المعاجم وهي تدلّ على موسم جني القطاف الصيفيّة .

(١) الجِرم : البدَن .

(٢) الْحَوايا : الأَمعاء والمفردة : الحويّة والحاوياء والحاوية .

(٣) الاختلال : الاحتياج .

(٤) الْخَلّة : الفقر والحاجة .

[١٠]

وَلهُ[☆] ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يُهَنِّئُ عاملاً :

يـا عِمادي الأَعظم ، ومصـادي الأعصم[١] ، ورِدْأ استِظهـاري الأَكرم ، وإمامي الأَهدى في الخَطْب إن أَعتم[٢] ؛ ومن أطال الله بقاءَهُ لعزٍّ يَستأنفه مشيد ، وعمر يستقبلُه جديد ، ومهل سائغ الظلّ مَديـد . كتبتُ ـ أدامَ اللهُ عِزّك ـ والقتادُ ثمار ، والثّمار غِمار[٣] ، وعُودُ الزّمانِ ـ بعودتك الحميـدة ـ نُضار[٤] . أجل لقد شبَّ بعد الهرم ، وأعربَ عن عهدٍ صريحِ الكرم . وإن دهراً لبسَ رَونـق بهـائـك ، ومُلكاً شُـدّ بـاكتفـائـك ، وأُوثر ببقيّـة عمركَ الزّاكية وغَنائك ؛ لجـديرٌ أن تضحـكَ ريـاضُـه ، وتفْهَق حِيـاضُـه ؛ وتجمّ أَموالُه على العَلل[٥] ، وتبرأ أحوالُه من الأَعراضِ والعِلل ؛ وتَطّرِدَ بـالسَّـدادِ ومصالحِ العِباد قوانينُه ، وتَتّقد بِمَصـابيح الإتقـان والإحسـان دواوينُـه ، وتنتظمَ الفوائدُ في سلكها فرائدَ فتسرّ النـاظر ، وتبهج الزّائر ، بحقـائق في حدائق ؛ خطرَت بالجداول ، وقصرت عنهـا يـدُ الْمُتَطـاول ؛ فكأنّهـا سماء

---

[١٠]

(☆) تهنئة عامل بولايته . ولم يظهر اسم العامل ، ولا زمن تعيينه ، ولا مكانه .

(١) الْمَصادُ : أعلى الجبَل .

(٢) أعتم من العتمة (دخل في العتمة) .

(٣) القتادُ : شجر صلب شائك . والغمارُ (جمع الغمر) : الماء الكثير ، والكريم السَّخِيّ .

(٤) النُّضار : الخِيار من كل شيء .

(٥) العَلل : الشربة الثانية .

مُلئت حرساً شديداً ، وشهباً لاتلبثُ لاستراق السّمع مَرِيدا[٦] ، فكم مخطومٍ منها بخطام [١٠/أ] ومكعُومٍ بكِعَام[٧] ، [يُجْزَون][٨] من تهذيب نسقَ الْحُقوقَ وتقصَّاها ، ويتْلُونَ :

﴿ يَا وَيْلَتَنا مَالهذا الكِتابِ لاَ يُغادِرُ صَغيرةً ولا كَبيرةً إلاّ أَحْصَاها ﴾[٩]

فالحمدُ للهِ الذي أَحْي الأَعْمالَ منك بزادَانِها[١٠] ، من بعد ماضرب على آذانها ، فشول الفيء تُكسَعُ بأَغبارِها[١١] ، وعُلب الْحَلب تملأ إلى أَصْبارِها ؛ فهنيئاً لراعي الأُمّة ، وكاشف الغُمّة ؛ بيُمن سياسَتك ، وأَمْنِ حياطتك وحراستك ، وهنيئاً للأَولياء عامّة ، ولي بك خاصّة ، ماأتقلّدُه من إمامتك ، وأنالُه بتجدد كرامتك ، من مَبَرّةٍ طائلة ، ومسَرّة في كل عضو جائلة ؛ متّعني الله فيكَ بنعمه ، وجعَلك في كلاءَته وذِمَمه ، ولا زلت في وثيق عِصَمه ، بمنه وكرمه .

---

(٦) يقتبس من الآية الكريمة من سورة الجن : ٨/٧٢

(٧) الخطام : الزِّمام ، وما وضع على خطم الجمل ليقاد به . وخطمه : جعل على أنفه خطاماً .

ـ والكِعام : مايُجعل على فم الحيوان لئلاّ يعضّ أو يأكل .

(٨) كلمة لم تظهر ، وبقيت بقايا من حرفي (حر) .

(٩) من الآية ٤٩ من سورة الكهف ١٨

(١٠) الإشارة إلى زادان فرّوخ كاتب زياد بن أبيه على الْخَراج ، وكان يتقلّد ديوان الفارسيّة للحجّاج ، وفي وقته عرّب الحجّاج الدواوين . وكان زادان من أَحفظ رَجُل.

(الوزراء والكتّاب للجهشياري ٦٧) .

(١١) من قول الحارث بن حلّزه (اللسان : كسع) :

لاتكسع الشول بأغبارِها　　　إنك لاتدري من النّاتِجُ ! =

وقد كنتُ ـ علمَ اللهُ ـ من هذه الأعمال التي رُمِيت بها مُتفادِيا ، ونَحوك رائحاً أو غاديا ، مُستشعراً بك دَعةً وسُكونا ، وإسناداً إليك ورُكونا ، وألاّ أمُدّ إلى عملٍ يَمينا ، ولا أعدِلُ بالسّلامة عِلْقاً ثميناً[١٢] ، وألاّ أُوسَم من هذه الصناعة بِعُرّ[١٣] ، ولا أذود الطّير عن شجرٍ[١٤] ، قد بلوتُه مُرّ ؛ فلم أجد إلى ما رُمته سبيلا ، ولا عدمتُ من هذا الوالي ـ أيّده الله ـ قبُولا ؛ فإنّه شُغِف بما ألفاهُ من ضبط ، وأضافني بكرم سجاياه إلى اغتباط ورَبط . والحالُ معه بفضل الله مُعْتلية ، ويدي لأقسام خِدْمَته مُستوفية . حتّى لقد شغلني بالعَرض ، وتقدير الأُعطية والفَرض . أجمل اللهُ العُقبى ، وأكمل النُّعمى ، وأوجب الحُسنى . وممّا أَوسَعني نشاطاً ، وأَودَعني انبساطا ، ماأنست به من تَقَلُّدك الميمون ، وإقراره للنّفوس والعُيون ، فإنّي أشعرت منهُ مُنَّةً[١٥] ، ووجدت بهْ في النفسِ ـ فَاديتك ـ نهوضاً وقُوة . ووجبَ إعلامُك ، وتعيّنَ إسهامُك ، وكانت تَلاحقت لك عِندي كتبٌ كريمة . عاقَ عن إنفاذ المراجَعة عنها ، على تهمُّمي بها ، وإعْدَادي لها ، تعذّر من يرضى أداؤه ، ويوثقُ إنهاؤه ، مع التَّشغيبِ الذي كان [١٠/ب] لا يُسيغُ

= وكسع الناقة بِغُبرها : ضرب ضرعها بالماء البارد ، أو عالجه بالمسح وغيرِه ليترادَّ في ظهرها فيكون أشدّ لها . وأصبار العلبة حُروفها ، يقال : أدهق الكأس إلى أصبارِها (أي مَلأها إلى أعاليها) .

(١٢) العِلق : النَّفيس من كل شيء .

(١٣) العُرّ : الْجَرب .

(١٤) من قول أبي نواس : (الديوان : ٣٩٩)

لاأذودُ الطير عن شجرٍ   قد بلوتُ الْمُرّ من ثمرِهْ !

(١٥) الْمُنّة : الإحسان والإنعام .

رِيقاً ، ولا يوجدُ إلى حاجاتِ النَّفْسِ طَريقاً ، ولا أحتاج مع ماتعلمه من اعترافي ببرّك ، وتَعظيمي لِقَـدْرك ، إلى عُـذر أُقرّره ، أو مـانـع أُفسّره . فجانبُ قبولك لي أسهل ، ووجهُ إقبالك أطلقُ وأجمل ، ولا بدّ من مكاتَبة خطيرةٍ أجتلي حالك السنيةَ منها تفسيرا ، وأرى بها وَجهَ رضاك مُشرقا مُستنيرا ، إن شاء الله .

لا زالَ زمانُك لك ، ولنا فيك مُنصفاً ، وفضلُ الله لك مُكتنفاً بِمَنِّه .

[١١]

وكتب إليه(☆) أبو حبيب صاحب الأحكام بالقَبْذاق(☆☆)

[من الطويل]

١ لكَ الْخَيْرُ كَمْ أَهديتُ في ذلك الطِّرسِ ... من البِرِّ والتَّنويهِ والبِشْرِ والأُنسِ

٢ وكم لك من طِرسٍ بَديعٍ مثالُهُ ... ملكتَ بهِ حُرّاً مِثالي في الإنسِ

٣ أَلَمَّ على بُعدٍ فقَرَّب لِي الْمُنى ... وجَدَّد آمالي ونبَّه من حَدْسِي

---

[١١]

(☆) أبو حبيب ؟

(☆☆) القبذاق : في الأندلس أكثر من موضع باسم (القبذاق) . منها حصن (بلدة محصّنة) من حصون قلعة بني سعيد (في جنوبي الأندلس) . والقبذاق من قرى اشبونة (ليشبونة) . وظاهر أنّ المقصود منها الحصن الذي عند قلعة بني سعيد .

(المغرب في حلى المغرب ، والذخيرة ٧٨٧/٢/٢ ، والذيل والتكملة للمراكشي ، السّفر الأول ، القسم الأول ١١٧ . وأورد في ترجمة أحدهم أنّه قرطبي قبذاقي الأصل) .

١ ـ الطرس : الصحيفة . نوّه به : رفع ذِكره وعظّمه .

٤ وليسَ غريباً أن يَنال من اغْتَدى   بعيداً كما نال القريبُ سَنا الشَّمسِ
٥ عَذيريَ من بِرٍّ مَطلْتُ بشُكرهِ   وإن كان في سرّي وجَهري مُنى نفسي
٦ وما كان مَطلي عن ملاءٍ فأَغتدي   إلى الظُّلمِ منسوباً بِمَطْلٍ ولا حَبْسِ
٧ ولكنّها الأقدارُ تجري على الورَى   بما خَطّت الأَقلامُ في السَّعد والنَّحْسِ
٨ فمن بين مَسرورٍ بيومٍ ينالهُ   وباكٍ على يومٍ تفاوت بالأَمسِ
٩ ومن كانت القبذاقُ دار قرارهِ   على غير ما يَرْضاهُ يُصبحُ أَو يُمسي
١٠ وإنّي على ما كان منّي لأَرتجي   وفاءً بعهدي أَو أغيّبَ في رمسِي

[١٢]

فأجابه ذو الوزارتين الأجَلّ أبو عبد الله ، رحمه الله ، :

[من الطّويل]

١ مَطلْتَ بما أَهديتَهُ فَكأَنَّني   وَردْتُ سَجاياكَ العِذابَ على خِمْسِ
٢ وذكَّرتَني بالشّعر ما قد نسيتُهُ   وبعضُ الذي عِندي يُبَلِّدُ أو يُنسي
٣ إذا رمتُ شعراً رمتُ قِرْناً مُساوِراً   فأَعجبُ من نفسي وأَفْرَقُ مِن طِرْسِي

---

٥ ـ عذيري من كذا : مَنْ يعذرني في أمره ؟
٦ ـ مَلُؤ فلان مَلاءً : صار كثير المال .
٨ ـ فاته الأمر : ذهب عنه . وأفاته الشيءَ : جعله يفوتُ عنه ويسبقه و (تفاوت الشيئان : تباعد مابينهما) .

[١٢]

١ ـ الخِمسْ : أنْ تردَ الإبلُ الماءَ في اليوم الخامس من ورُودها السّابق ، فيكون بين الوِرْدَين ثلاثة أيّام . والعِذاب جمع العذب وهو السائغ من الطعام والشراب وغيرهما .
٣ ـ ساوره : واثبه ، وصارعه . والفَرَق : الخوف .

٤ وأَرجُو نَشاطاً والزَّمانُ مكسّلٌ — فَرُوحي منهُ والخواطِرُ في حَبْسِ

٥ ولولاك ما زاولت منه كريهةً — قَرعتُ عليها أَو نَزعْتُ بِها ضِرسي

[١١/أ] ٦ [وكيفَ وقدْ أُتحفتُ منكَ] بروضَةٍ — تنوّرُ قَلبي حين أُصبح أَو أُمسِي

٧ وَعدتَ بها والأَربعون ثَنِيَّتي — وها أنا قد وفّيتُ خمساً إلى خمسِ

٨ حَنانيكَ من طول المطالِ وشقِّه — فقد شابَ من طُولِ انتظارٍ لها رَأسِي

٩ وأهْدِ بها كُحْلاً إلى العَيْن حالياً — فقد صَدِيت عَيْني وقد صَدِيتْ نفسي

١٠ وراجع هوى القبذاقِ فالعيشُ بُلْغَةٌ — وقد تُقطعُ المَوْماةُ بالضَّامِرِ العَنْسِ

١١ ويحمد ساري اللّيلِ عاقبةَ السُّرى — صَباحاً ويمحُو اليومُ سَيِّئةَ الأمْسِ !

تَفَتَّيتَ[١] - صانَ اللهُ فَتاءَكَ ، وكَثّر رَيْعَك وإِتاءَك[٢] ، وقطعَ

---

٥ - أي قرعت عليها سِنّي ، أو نزعتُ ...

٦ - لم يظهر معظم الشطر الأوّل . والمُثبتُ استكمال واستشراف .

٧ - الثنيّةُ : الطريقُ في الجبل . يقول له إنه وعده بها حين كان في الأربعين من عمره (من طريق العمُر) .

- وفي الشعر تحديد تاريخ الرسالتين المتبادلتين ، فالكاتب هنا في سنّ الخامسة والخمسين وهذا يوافق سنة : ٥٢٠ هـ ، إذ إنّ مولده في ٤٦٥ هـ ووفاته ٥٤٠ هـ .

٩ - يقال صدي أي عطش .

١٠ - البلغة : ما يكفي لسدّ الحاجة ولا يفضلُ عنها . الموماة : المفازة الواسعة . والضّامر صفة للنّاقة (المحذوفة) والعنس : الناقة القويّة .

١١ - إشارة إلى المثل العربي : عند الصّباح يحمد القومُ السُّرى (أمثال العسكري ٢ : ٤٢) .

(١) تفتّى : اتخذ سبيل الفتوة .

(٢) في الأصل : أتاءك . وفي كتب اللغة : الأَتاء ما يقعُ في النهر من خشب وورق . والزَّبَد.والإتاء بكسر الهمزة : الرَّيع والغَلّة ، وهو المقصود .

بـالْخَيرات آنـاءَك[٣] وعَمر بـالْمَسَرّاتِ فِنـاءَكَ ـ بمـا تراه أُنسـاً بمـا طلعَ من تِلقائك وطرباً بخِطابك يُعادلُ طَربِي بلقائك . ومـا كنتُ لولاه لأنفثَ ، وما كان خاطري ـ يشهـد اللهُ ـ لينبعث . وذكّرني خَطّـك الْخَـطّ وكنتُ ناسياً . ولعلّ الزّمانَ قد ألانَ من تلك العِـدَةِ قلبـاً قـاسيـاً . فـإن نشطت فكما أينعَ الزّهر ومَـدَّ جَـداولَـهُ النَّهر ، فقـد تُوركَ النَّظر وبوركَ البَصر . وإذا لم يُرَدّ من الشّباب مخلُوع ، ولا رُجي لليلهِ الْمُغْدِف[٤] طُلوع فلم تبق إلاّ حُروف تُجسّم ، وجمـعُ مـا كان آنفـاً يُفرَدُ ويقسّم . والإشـارةُ كافيــة ، وللارتيـاب نـافيـة . ولعلّـك ـ ولَعـاً لـك[٥] ـ قـد وجـدتَ مـا وجـدتُ ، ووفدتَ على المشيب كما وفدتُ ، فتريدُ من ذلك ما أَردت .

وأذكّرُ بأمرِ فلانٍ في اقتضاء ما بفضلك وعَدْلـك يُقْتَضى ويُحصَّلُ منـه على الرّضى ، فتجمع لـه بين الحِيلـة والشـدة ، وتحضره بعض تلـك العَـزائم المستبدة ؛ إن شاء الله .

---

(٣) الآناء : ساعات اللّيل .

(٤) المُغدف : من أغدف الليل إذا أرخى سُدوله .

(٥) لعاً لك : دُعاء يُقال في العاثر لترتفع عثرته .

[١٣]

وله ـ رحمه الله ـ إلى المشرّف ابن مهلّب(☆)

يـا عِمادِيَ الأَعظم ، وكهفيَ الأعصم ، وإمـامي الـذي أَلـزمَـهُ التّشيّـع الأكرم ، وأَعترف بحقّه الأوجب الألزم ، ولا أُوثر حديثاً على فضلِه الأَتلَـدِ الأَقـدم[١] . ومن أَطـال اللهُ بقـاءه والعزُّ منِيخٌ بفنـائـه ، والنّجمُ مُصيخٌ إلى سنائه [١١/ب] والأَنديةُ أَرِجةٌ بثنائه .

[مَنْ أَحْسَنَ ـ أدامَ اللهُ عِـزّك ! ـ قَرْضـاً ، وقَضى بَعْـدَهُ واجبـاً وفَرْضـاً][٢] فـإنّما وضع عن كاهِلـه إصْراً ، وعَبر إلى مُكافـأة المُنعم جِسراً ،

---

[١٣]

(☆) ترجم ابن الأبـار (المعجم : ١٤) لأبي بكر (ويقـال أبـو جعفر) أحمـد بن عبد الرّحمن بن عبد الله بن مهلّب الأسدي من أهل مُرسية من العلماء الكبـار ، وكان شـديـد العلم بـالروايـة وسماع العلم . وذكر في تـلاميـذ أبي علي الصّـدفي (شيـخ رواة الأندلس في عصره) أخاً لأبي بكر بن مهلب اسمه عبيـد الله ، وابن عم لهما يـدعى أبـا المطرّف . ونقل في الخريـدة (٣ : ٤٣٥) مراسلـة بين أبي بكر بن عبـد العـزيـز وأبي الحسن بن مُهَلّب .

ـ وفي الرّسالة إشارة إلى إحدى المعارك التي خاضهـا التّحـالف المرابطي الأنـدلسي في سلسلـة المعارك الدفاعية عن أرض الأندلس . (انظر الحاشية « ٧ » من هذه الرّسالة) .

(١) تَلِدَ : قَدُم .

(٢) هذا السطر وتاليه من قوله « والأندية ... إلى قولـه أن يقـال أدّى » في رأس الصفحـة وفيهما من التشويـه مـا ذكرتُـه في مقـدّمـة التّحقيق . وقوّمتُـه بما يُـوافـق بقيّـة الرسم ويُطابق المعنى .

وحَسْبُه أن يُقال أدّى برّاً ، وصحب المعروف مقرّاً ؛ فأما أن يخدم بحُسنِ الذّكر ، [ويُؤتى صُحفاً] مُنَشَّرةً من الشُّكر ، فذلك مِمّا يَرُدُّه في حافِرة الرّق ويسجّل عليه بثبوت الْحَقّ . وتلك سَبيلي ـ أدام اللهُ عزك ـ فيما يسنحُ من عملٍ يجري بهواك ، وحالٍ تقعُ موقعَ رضاك . أنزل فيها منزلةَ المأمُور وأسيرُ ـ لولا طاعة الودّ ـ سير المحمول المجبور . وعلى ذلك فما أغنيت ، وأيّ واجب من واجباتك قضيت ؟ فأمّا ما اعتدَدْته لي بفضل مُحاباتِك لي في الحكم وإغضائك عن أياديك العُقم من برّ (فلان) أبقاهُ الله ، وقد استوجب أضعافَه بِذاته ، واقتطعَ أمثاله في بعض واجباته ، فحريٌّ ألاّ يُعْتَدّ ، وجَديرٌ أن يفسخ إن أَرضاك فسخه ويُرَدّ . ولو كانت مكارَمة لها بال ، وساعدت على الرّضى في جهته الرفيعة حال ، لصغرتُ عن كبير شكره ، وتضاءلتُ دون جليل قَدره . فكيفَ وإنّما كانت عُجالةَ استيفاز وعُلالة انْحِفَاز[٣] ، تلزمني من العُذر أَضعاف ماأَلتزمه من الشُّكر . لكن يأبى اللهُ إلاّ تظاهُرَ إحسانِكَ وأن يضعَ الرّجحان إلا في ميزانك . وإنّي حيثُ كنت ولو نلتُ النّهى ، وانتهيتُ إلى حيث وقف الفَرْقَدُ[٤] وانتهى ؛ لحسَنةٌ من حَسناتك ونفثةٌ من نفثاتك . إلى سُؤددك أَعْتزي وبما تَقيَّلْتُه من شَمائلك أَشمخُ وأَنتزي[٥] . لا زال ظلٌّ حياتك مَديدا وأَمَدُ بقائك منفسِحاً بَعيدا . وما استنهضت إليه في أمر السِّتْرين هو جلْدَةٌ بينَ

---

(٣) الوفز : العجلة . استوفز : جلس على هيئة كأنه يريد القيام . وتحفّز في جلسته : انتصب فيها غير مطمئن ، وتحفّز للأمر : تهيأ للمضيّ فيه واستعدّ .

(٤) الفرقد : نجم ، وهما فرقدان .

(٥) تقيّله : تشبّه به . انتزى إلى الشيء : طمح .

الأَنْفِ[٦] والعَيْن ، فلا يتوجه إليه إغفالٌ ولا يرتدُّ عن تمهيدُ ما يجب فيه إقبال .

والأميرُ - أيّده اللهُ - وهو المرجُوّ لتَنفيق سُوقهما ، وإنهائهما إلى حُقوقهما ، اليومَ غائب ؛ وبعودته بحولِ اللهِ أُعيدُ أَمرهما ، وأُجري بما جب ذِكرهما ، وأخاطبُ للفور بما يجبُ . وأجرّد لذلك من يتجرّدُ له ويُنتدب . [١٢/أ] وكنتُ أعزّكَ اللهُ قد كتبتُ معرّفاً بحسب الحال إذْ ذاكَ ، ومُستبطئاً حصولَ الكتاب بسبب الواصلين بكتابك الأثير لأنّهما غابا بعد امتثال إشارتك الكريمة فيهما إلى الغَرب على عدةٍ من الاجتياز عليّ لم أجد لها وفاءً .

ولَمّا يَسَّر اللهُ بفضله نفوذ مُوصله أَصحبتُه الكتاب على حاله ، وما تضمّن من آماله ؛ ليشهد بما لعلّه لا يغيبُ عن تحققك ، ولا يشذّ عن إحاطتك وتيقنك ، من التهمُّم بالمُطالعة والتوفُّر على واجب المُراجعة .

وحدثت أثناءَ ذلك هذه الحوادثُ التي نَفت الْهُجوع وأَجْرَت الدُّموع[٧] من فَقد الأَمير أَبي يحي كرَّم اللهُ مآبه وخَفّف بإدْراك الثّأر رُزاه ومُصابه ،

---

(٦) يشير إلى قول الشاعر :

يديرونني عن سالمٍ وأُريغهُم وجلدة بين العين والأنف سالِمُ

اللسان (سلم) ، وتهذيب اللغة ٨ : ١٨٧ و ١٤ : ١٥٥ . وينسب إلى دارة والد سالم وإلى عبد الله بن عمر (رض) .

(٧) أبو يحي هو أبو بكر بن أبي عبد الله محمّد بن الحاج داود المشهور بالحاجّ . كان أبوه أبو عبد الله من أُسرة بني تاشفين ، ومن كبار ولاة المرابطين في الأندلس والمغرب . وكان =

إلى مَنْ أُصِيْبَ من الْمُسلمين ، جبَر اللهُ الصّدعَ وأجملَ العزاءَ والصّبر .

وكنتُ أعـزَّكَ اللهُ في الأغلب بَرِمـاً بهـذه الخِـدمـة مُعتـدّاً بـالانفصـال عنها ؛ لو شاء الله تعالى وُفور النِّعمة ، واتّخاذ العِصمة ؛ فلم أجـد سَبيلاً إلى الانفكاك ، ولا اتّفق غيرُ الانجرار والاستمساك ؛ ورَجوتُ عند هذه الوَهْلَةِ فلم يَر قاضي الجماعـة والفُقهـاء أعَزّهم الله إلا التمادي إلى أَنْ يَصِلَ والٍ يتَسلّمُ العمَل ، وينهج السُّبل إن شاء الله .

وأَنا أَشكرُ إجمالهم وأحمدُ لديك برَّهم واشْتِمالَهُمْ وأَستنهضُ فَضْلك إلى شُكر قاضي الجماعة ـ وصلَ اللهُ توفيقه ـ وشُكر من خفّت يدك بعد إليه ، جـاريـاً على كَرم الْمُساهمة ، وفضل الْمُواساة والمقاسَمة ؛ إن شاء الله عزَّ وجل .

= ابنُ أبي الخصال مقرّباً إلى أبي يحي المذكور وإلى أبيه أبي عبد الله محمد .

والكائنة التي يشير إليها الكاتب كانت سنة ٥٠٣ . ذلـك أن المرابطين كانوا قـد أخـذوا سرقسطة وأخرجوا منها ابن المستعين بن هود حاكمهـا السّـابق بطلبٍ من أهلهـا لكثرة استنجاده بالرُّوم . فدخل محمد بن الحاج سرقسطةَ بدلاً من عبد الله بن فاطمة (الذي كان اقترب ليأخذ سرقسطة) وفتحت لابن الحاج الأبواب .

ثم إن ألْفُونسـو الأول (الملقب بـالمحـارب) ملـك أراغـون اقترب مـع عمـاد الـدولـة عبد الملك بن المستعين بن هود بحجـة نصرتـه لاسترداد ملـك آبـائـه . وخرج إليـه أبو عبد الله بن الحاج ومعه الناس يتهيـأ للقـاء العـدوّ وحليفـه ابن هُود ، فـأخلّ بعضهم بالنظام وانسلّ بعضهم إلى داخل المدينة ، فانتهز ألفونسو (يسمّيـه العرب ابن رذمير) هـذه الفُرصـة وقسم الجيش المرابطي الأنـدلسي قسمين وانفرد بـأبي يحي ومن معـه في مناوشة سريعة قضى أبو يحي فيها شهيداً وأصيب معه جماعة من المجاهدين .

(البيان المغرب لابن عذاري ٤ : ٥٤) .

[١٤]

وله[☆] ـ نَضَّرَ اللهُ وَجْهَهُ ـ :

يـا سَيِّـدي الأَعظم ، وعِلْقَ ادِّخـاري الأَنظم ، وردْأ[١] استِظْهـاري الأكرَم ، وصُبح إسفَاري للدَّهر إن أَظلم ، ومن أَطال الله بقاءَهُ في الْجَنابِ الأَنعم ، والسَّعدِ الأَدوم ، والصُّنع الأَجمل الأَعصم .

ليسَ الوُدّ ـ أعـزَّك اللهُ ـ بتَـزْويـق اللِّسـان ، ولا تَنميـق البَنـان ؛ ولا الشّأن في رويّة مَكيثـة ، ولا بَـديهـة حَثيثـة ، ولا في أَسـاطير في الصُّحف مبثُـوثـة ؛ وإنمـا هـو مـا وَقَر في الفُـؤاد ، ورسَـخَ في الاعتقـاد ، وثبَتَ [١٢/ب] في مَـواطن الاعتـداد ؛ ولبسَ الجِـدّة والقِـدَم ، وخـامَر اللّحم[٢] والدم ؛ وتلك سَبيلنا المستَمِرّة ، وحـالنـا المُستَقرّة ؛ التي لاتنفصم ـ بحولِ الله ـ عُراها ، ولا تختلّ قواها ، ولا تتقاصر ـ يَدَ الزَّمان ـ يـداهـا[٣] ، ولا يقفُ دون مداه ـ والمُستعان الله ـ مداها .

وإذا استَنـدنـا إلى هـذه الثّقـة ، ونُفوسٍ مُتّفقـة ، وقُلـوبٍ عَلى الرّضى مُصْفِقة ، فلا مَدْرَج للارتيـاب[٤] ولا حَرج في الإغبـاب . نعم ؛ ولو ترتّب

---

[١٤]

(☆) رسالة إلى صديق ، سعى بينه وبين الكاتب ساعٍ بكذبٍ وزُور .

(١) الرّدء : المعين والنّاصر .

(٢) خامرَ : خالط . يُقال : لا أَفعلهُ ـ يدَ الدّهر ـ و : يَدَ الزمان ؛ أَي : أبداً .

(٣) تقاصر : تتقلّص ، تقصر . و (يَدَ الزمان) دائماً ، على الزّمان .

(٤) المدرج : المسلك والمذهب .

عن عمد ، ووجَب على تيمُّم وقصد ، وصادَف صَدراً منشرحاً ، ووقتاً لِمُطالعه مُنفسحاً ، وفِقَراً مَجْلُوَّة ، ورِقاعاً على قدرٍ مَحْذُوّة[٥] ؛ وذهناً مُشتعلاً ، وكلاماً سَمْحاً منفعلاً ؛ وأقلاماً تُصوّر ما في النّفسِ ، وتَلُفّ سقطهُ في مُلاءَة النِّقس[٦] ؛ لما أثبت حكماً ، ولا لفتَ عن أوّله عَزماً ؛ ولَكان كيفَ كان عَمْداً أو سهواً ، هدراً ذاهباً ولَغْواً .

هذه - أعزّك الله - طريقةُ وُدّنا المُثلى ، وعقيدةُ عهدنا الوثقى ، عليها نحتمل ، وبردائها - رداء الضمير - نشتمل ؛ وكلانا - أَعزَّكَ اللهُ !- كيفَ دار وأَيّاً مااختار ؛ في سعة ورخاء ، وعلى مَنْهَجِ برٍّ وإخاء ؛ إن والى فَعنْ فَضل ، وإن أَغبَّ ففي غير مَعْتَبةٍ ولا عَزل . وإذا ثَبتتْ هذه العقيدة ، والحجج المستقيدة ؛ فلا عليك - أعزك اللهُ - أن تخفض لأخيك الصّدق جَناحا ، وتخفضُ عنه : إيجاباً وإسْجاحا[٧] .

وإنّ كتابك الكريم وافى بعد فَترة ائتمرتَ فيها ما ائتمرتَ ، وأَضمرتَ - ويغفرُ اللهُ لك بها - ما أَضمرتَ ؛ ثم أَبى الطبع الكريم ، والأَواصر التي عَطفَتْك كما يعطفُ الحميم ؛ إلاّ أَن تفيئ فيئَ المُنْعِم ، وتَفِي وفاءَ البَرّ المُقسم ؛ وتُلغي ما حكمهُ الإلغاء ، وتُصغي إلى داعي الصِّلة وحَقّه الإصغاء . فسَوّغت من المَبَرَّةِ مانغّصت ، وأتممت من المَسرَّةِ ما نَقصت .

---

(٥) أصل معنى حذَا قطع : حذا الجلد ، قطعه .

(٦) السّقط : الشّرارة (تتطاير من قدح الزندين) . النقس : الحِبر .

(٧) أسْجَح : سهل ورفق .

وعلمي أنّك لوأجمعت حرباً ، وأشرعت شَباةً وسَلَلْتَ غَرْباً[8] ؛ ثم استَنزلك بأيسر أَذِمّتنا مُسْتَنْزِلٌ ، واستَحْملَكَ تلك الْحَفائظ الدّامِيَةَ بها مُستَحْمِلٌ ؛ لوضَعت أَوزارَ الْحَرب ، وأَخمدْتَ نارَ الطَّعن والضَّرب ؛ وعُدت إلى السّلم ، وتَجاهلت على فرط العِلم . [١٣/أ] وإنّني ـ أعَزّك اللهُ ـ لمدفوعٌ من هذه الأَعمال ـ أوضح اللهُ مواقِعَها ، وأنهض واقِعها ـ إلى ما يُبَلّدُ ويُذْهِل ، ويُعمي ويُجهل ؛ فمتى كان منّي تَوقُّفٌ في مطالعة ، أَو إبطاءٌ فيّ بما يجبُ لهُ الإسراع من مُراجعة ؟ فلهذا الشَّغب الدَّائم ، والشّغل القائم ؛ لالِمَا لعلّه يُتوهَّمُ من إغفالٍ : بُعدي عنه جَلِيٌّ ، وأَنا ـ عَلِمَ اللهُ ـ منه خَلِيّ .

فمَهّدْ لي ـ أَعَزّكَ اللهُ ـ كَنفَك ، وأَزِلْ من هذه الظنون الكاذبة ما اكْتَنفك !

واللهَ أستَحْفِظُه على صَفائك ، وأستَقرضُه قِياماً بحقوق وفائك . وأَعلمني فُلانٌ مؤدّيه بالكلامِ الّذي زُوّر ، والأمرِ الذي نُسِب وصُوّر . وأَنت ـ أعزكَ اللهُ ـ تعلمُ منبع تِلك الكذُوب ، ومُسَيلِمَةَ ذلكَ الإفك المنسُوب . فمن أُفقه طلَع ، ومن مَعْدِنه نَبع . فَنزِّهْ سَمْعَك المَصُون عن افترائه ، « واللهُ مُحيطٌ من ورائِه » وحالي التي هي حالُك اتّصالاً كما يُرضيك ظهوراً وإقبالاً ، وعلى ما لا يشغَلُ لك ولا يكدّر بالا .

أحمدُ الله حمداً يقيّدُ نِعمَهُ ، ويَستغزِرُ دِيَمَهُ ؛ واسأله لكَ ولي فيكَ من خيرِ ما قَسَمه .

---

(٨) الشبا من كل شيءٍ : حَدُّه . والغَرْبُ : حَدُّ الشيء .

[١٥]

وَلَهُ(☆) رَحِمَهُ الله :

سَيّـدي الأَعظمُ ، ومَـلاَذِي الأَعصَمُ ، ومَلجئي الأمنـعُ الأكرمُ ، ومَنْ أَطالَ اللهُ بقاءَهُ للعدلِ يمدُّ ظِلالَهُ ، والفضل يفسَحُ مجالَـهُ ، والـدَّهر يَطول أفرادَهُ ورجالَهُ ، قد تقرَّرَ إسْنَادِي إلى عُلاه ، واعتمادِي على جلاَلَـةِ نُهَـاه ، واعتدادي في جُملتِـهِ ، وأَدائي لحمتـه[1] ، وتشيُّعي في مجـدهِ ، وتَشْييعي في شكرِهِ وحَمْدِهِ ، فمِنَ الحقِّ أنْ أُعْفِيَه ـ دَامَ عزُّهُ ـ من التّردادِ والقولِ المعاد ، إلاّ إلمـامـاً كالطيف سَرى ، أو النَّسيم وَهْنـاً[2] على الزَّهرِ جرَى . ولا بـدَّ بما يقْتضيـهِ الإمحـاضُ[3] ، وتـوجبُـهُ هـذهِ الأَغراضُ ، من استعراضِ كَرَمِـهِ ، واستنهاضِ هِمَمِهِ ، ووضْعِ مهمّةٍ من مهماتي في ذِمِمِهِ .

وفلانٌ جاري ، وآمِلـهُ المُترامي على فضْلِـهِ ـ صَنَعَ اللهُ لـهُ ـ تكلّف في قصدي شقّاً[4] واستوجَبَ إلى حُقوقِهِ القديمةِ عِنْـدِي حقّـاً ، ومَـاذَا أُغْنِي في

---

[١٥]

(☆) رسالة إلى شخصيّة مرمُوقة لم يسمّها الكاتب ، يتوسط لرجل اكترى أرضاً في ذلك العام من (المسجّلـة) ولم يكن المـوسم طيّبـاً ؛ ويطلب إبراء ذمّتـه من الكراء تفضّـلاً ، ومراعاة لحال الجدب ونقص الثمرات .

(١) كذا من الأَصل . ولعلّه : « وأدائي [حقّ] لُحمته » على أن سهو الناسخ نادر جدّاً .

(٢) الوهن : نحو نصف الليل ؛ أو بعد ساعةٍ منه .

(٣) محضه النُّصح : أخلصه إيّاه .

(٤) الشَّق (بفتح الشين وكسرها) : الجهد والمشقة .

قَصْدِهِ ، وأينَ أقَعُ فِيما دَهَمَه مِنْ رِفْدِهِ ؟ وبيني وبينَ ذلِكَ حاجِزٌ ، [١٣/ب] وصَرْفُ ضرورَتِهِ ناجزٌ . بلى ! إنَّ لِي في ذلكَ الجانِب الكَريمِ ، والسَّرْوِ[٥] العَميمِ ، إذا أَحلْتُه عليهِ ، وثَنَيْتُهُ واثقاً إليه مُنفسَحاً ، عَريضاً ، ويُسراً مستَفيضاً ، وأيادي تَثْني وجوهَ مطالبِهِ بيضاً ، وشرحُ قَضِيّتِهِ التي أشخصَتْهُ ، والهمومُ تَنْفَحُهُ ، والسَّمومُ تُلحفهُ وتلفحُه ، أنَّه تشبَّثَ لضروراتٍ لَحِقتْهُ ونوائبَ رَمَقَتْهُ بكراءِ قطعةٍ من الْمُسَجّلة صادفَ فيها مالا يَدْفعُ في حقيقتهِ دافعٌ ، ولا يُعدمُ عليهِ بُرهانٌ ساطعٌ ، من ارتفاعِ البَركاتِ ، ونقصِ الثَّمَراتِ ، وإخلافِ الإصاباتِ ، فقصَّرتِ الحالُ فيما أورَد ، وبرد عليهِ لِهذه العِلّةِ مابَرد[٦] . وذِمَّتُهُ مَطلوبةٌ ، والسَّطوَةُ عليهِ مرهوبةٌ . ولا بلاغَ له اليومَ إلا بشفاعةٍ منه ـ أيَّده اللهُ ـ كريمة تُدرِكُهُ وعنايةٍ تتلافى رَمقَهُ وتُمسكهُ . وسَيَجدُ إن شاء الله مُرتقى الرّغبةِ سهلاً ، ويَلقى في ناديها مرحباً وأهلاً ، وتُصادفُ الصَّنيعةُ منهُ في تقلدها ومِنّي في شُكرِها أهلاً . وفلان ـ أعزَّهُ اللهُ ـ لا يزهدُ بفضل مُساهَمتِهِ في هذهِ الفضيلة ولا يُخِلُّ بكَرم الوَسيلةِ ، وهي حَالٌ أنا بشُكرِها مرتَهنٌ ، وهو بمُآثرتِها قَمَنٌ[٧] ، ومَعها مِن رِضى اللهِ ـ سبحانه ـ مَا لا كِفاءَ[٨] له ولا ثمن ، وعِندي مِن التطلعِ إلى تيَسُّرِهِ لِلإجمالِ وتَوفُّرِهِ على التَّهمّمِ .

---

(٥) سَرُو (سَرْواً وسَراوةً) شَرُف ، فهو سَرِيّ .

(٦) بَرِدَ : لزم وثبتَ .

(٧) قمنٌ : جدير . (وهي على وَزن كَتِف وجبَل) .

(٨) الكفاء : المماثل .

والاهتبالِ ، ماهو شُغلُ الخاطِرِ ونَصبُ البالِ ، ولـهُ الطَّولُ[9] الأعمُّ ، في وجَلٍ عَني يَرفعه ، وأملٍ عندي يشفَعُه .

لا زال يَفُكُّ العُناةَ[10] ، ويُدرِكُ من حُقوق السيادةِ مافاتَ بحولِ اللهِ وجوده ومجده .

[١٦]

وله[☆] ، رحمه الله :

سيّدي الأَعلى ، وذُخري الأكرم الأَوفى ، وظهيري في الجُلَّى ، الذي أَسكُن إلى وفائه ، وأستظهرُ في المهمّاتِ بصفائه ، ومن أَطال اللهُ بَقاءه في سعادةٍ يستجدُّها ، ونعمةٍ يمتريها ويستمدّها . كتبتُه ـ أَدام اللهُ عِزّك ـ عن عهدِ الواثق المُدِلِّ ، ورسم المُكبر المُجلّ ، بَصيرة لاتنقضُها الأَيّام ، ولا يزال بها التمكّن والاستحكام ، والله جلّت قُدرته يصونُ مابيننَا عَقده ، ويضعُ عليه دون الحوادث يَده [١٤/أ] ويتأدّى [من ... فُلان[1] جَاري] ومعظّمك أَبقاهُ الله ، وبيني وبينهُ من الأَذِمّةِ الوَكيدة[2] ،

---

(٩) الطَّول : الفضل والغنى واليُسر .

(١٠) العناة جمع العاني : الأسير .

[١٦]

(☆) رسالة وساطة إلى كبير لم يعين شخصه ولا صفته لإسعاف صديقٍ من جيرانه بعد جائحةٍ أَصابت ماله أو نقصت من مؤونته .

(١) ما بين معقوفتين استجلاء لآثار الكتابة الممحوّة . والكلمة الضائعة لعلها : قِبلي : « من قبلي فلان » .

(٢) الأذمّة جمع الذمام : كل حقّ أو حُرمةٍ تلزمك وتُلامُ إذا ضيّعتها .

والصُّحبة الْحَميدة ، والمودَّةِ القَديمة التَّليدة ، ما يقْتَضي مُساهمته في أَحوالِه ، والتّقدم أَمامه في عوارض هِمَمه وآماله ، وتشبّثَ من العمل بما علمتَهُ ، ووقفَ أَمره حيثُ عَرفته ؛ وهو مطلوبٌ عنه بما لا يبلغُه وُسعه ، ولا تَفِي به ذِمَّتُه ، وغيْرُ خافٍ عنكَ مانالَهُ في مُدّة العملِ من الجوائح المُجْحِفة[3] ، والأَعوامِ المُخلِفَة ، والنَّوائبِ المُتلِفة ، وأَنّ ذلكَ النُّقصانَ لم يكن عن استهلاك فائدة ، ولا تَضييع عائدةٍ ، وما كان على هذه السَّبيل مجرَاهُ ، وانفردَ بإذهابه اللهُ ، فسبيلُ صاحبه أن يُعانَ فيما فَدَحه ، ويكشف عنهُ ما شجاه وترَّحه[4] . وقد أنزلتُ هذه النازلةَ له بذمامك ، ومثّلتها بعين اهتمامك ، ورجوتُ فيها نافذَ عزمكَ وقِيامك ، لتضعَ عَنّي إصْرهَا[5] ، وتقلّدني فيه اليدَ الجميلةَ وشُكرها ، وهذا سعيٌ جَدُّك مِلاكُه ، ورهنٌ في يدك بعدَ الله فِكاكُه ، وحبيسٌ إليك إطلاقُه ، وإمساكُه .

والله ـ عزَّ اسمه ـ يُيَسِّرُكَ لأَحسن ظنونِ الإخوان ، ويجعلك مَلاذاً للأعيان ، وجُنّةً من خطوب الزَّمان .

وأَنا بما يَخُصُّني من أَمره ، مصروفُ البالِ إلى حُسن تَخلُّصك له من هذه الأُنشوطة ، واضطلاعِكَ بحقُوق الرَّغبةِ المَنُوطة ، لاعدمتَ في أمثالها أَجراً حَسناً ، وحُرّاً بأياديك مُرتهناً .

---

(٣) الجوائح جمع الجائحة : السّنة (القحط) أو النازلة تحلُّ بالرجل في ماله فتجتاحُه . والمجحفة من أجحفت السنة إذا أضرّت بالمال . وأجحفت به الفاقةُ أذهبت ماله وأفقرته .

(٤) فدحَه الدَّينُ والأمرُ والحِمْلُ : أثقله . و : تَرَّحَهُ : أَحزنه .

(٥) الإصر : الثقل ، والشدّة ، (والعهد) .

[١٧]

وله(☆) ، رحمه الله : يُهنّئُ بَعْضَ الرُّؤساء بمقْدَمِهِ :

أطال الله بقاء الرئيس الأَجلّ ، السّيد الأَفضل ، ذي المآثر الموصُوفة ، والفَضائل المألوفة ، عالياً أمرُه ، سامياً ذِكرُه ، مُتوالياً تأييده ونصره ؛ ولا زال اليُمن يُسايره ، والتّوفيق يظاهرُه ويؤازره ؛ بحول الله .

كتابُنا أيّده اللهُ ، وتمّم عليه عوارِفَهُ ونُعماه(١) . يومَ السَّبت غُرّة شهر ذي الحجة ـ عرّفَهُ اللهُ بركةَ أيّامِه ولياليه ، ولا أَخلاه فيه ، وفيما يليه مِنْ مَنٍّ يصلُه ويُواليه . ولدينا من الاستبشار بِمَقْدَمِه الحميد ، والاستشرافِ [١٤/ب] إلى احتلاله السَّعيد ، والدُّعاء المتواتر بالتّوفيق والتّسديد ، ما يكون عندَ من تحقّق محلَّهُ الْمُنيف ، ونِصابُه الرّفيع الشّريف . واللهُ يُجيبُ فيه صالح الدُّعاء ، ويهنئهُ ويهنِّئُنا فيه ، ماألبسَهُ من جَميلِ الذِّكر والثَّناء ، فهو وليُّ الفَضل والنَّعماء ، بعد وُصول الكتابين الكريمين ، والتّذكرة المُقترنة بالثّاني منهما ، فَقَرأنا جميعَ ذلك ووَعيناه ، وصِرنا إليه وامْتَثَلْناهُ ، ووقَع النّظرُ فيما تضمّنته التذكرة من الأَسبابِ المقدّمة نحوه ، والأَسبابِ المأمور بإعدادِها ، وجميعها عتيد إلى أن يَقْدم بحول اللهِ . وقد شخص فلانٌ ثالثنا ، وشيعته أَبقاه الله ، وعنده في جَميع ما يتطَلّعُ إليه ،

---

[١٧]

(☆) في التّهنئة ، والإخبار بمجريات معيّنة .

(١) العوارف (جمع عارفة) : المعروف .

ويستشرفُ نحوه ، من أُمور البلد ، البَيان العامّ ، والشّفاء التام : وبه غَنينا عن التَّطويل ، واقْتَصرنا على ذِكر القليل : اكتفاءً بعِلمه ومَعرفته ، وإحالة على تفسيره وصِفَته ، ومن قبله يقفُ - أيّده الله - على ماتيسَّر من المالِ الذي استَدْعاه ، وإنّ بعضَهُ ممّا تَأتّى من الجباية ، وبعضُه مما استُقدِمَ سلَفاً على ما يُقْتَضى منها ، وقد نَفذ ماحَدَّه ، - أَيَّده اللهُ - في أمرِ فُلان ، وما وقَع تَشكِّيهِ ، فلا دَرَك على أحدٍ مِنّا فِيه .

[١٨]

وله(☆) - نضَّر الله وجْهَهُ :

يا عِمادي الأَعظم ، ومصَادي الأعصَم[١] ، ومَرادي الأَخْصَب الأنعم ، وحُسامي الذي إذا هُزَّ صَمَّمَ ، وإذا تيمّم خَطيراً أدركَ ماتَيَمّم . أَطالَ اللهُ بقاءَك ناهِضاً بأعباء الكَرم ، مُتناولاً للأمل الأَقصى من كَثَبٍ وأَمم[٢] ، لا يَسطيعك - أعزَّك اللهُ - إلا صَنَعُ اللِّسان[٣] طريرٌ كالسِّنان[٤] ، شهيرٌ في

---

[١٨]

(☆) رسالة جوابية ، بعث بها الكاتب إلى صديقٍ له يشغل منصب كاتب سلطانيّ يخبره فيها بأمور منها عنايته بما أوصى به صاحبه من أمر رجل يدعى ابن السرّاج .

(١) المصادُ : أعلى الجبل .

(٢) الأمم : القُرب .

(٣) يقال هو صَنَعُ اللسان أي بليغ .

(٤) الطّرير ذُو الهَيئة والحُسن والجَمال .

الإتقـان والإحسـان ، يَفْرِي الفَرِيَّ[5] ، ويَنبِـطُ من الْحَسي ، الْمَعين الريّ[6] ، وإلا فمن يُعارِضُ البَحْرَ بِوَشَلٍ[7] ، ويُقاوم جَري المُذكِّياتِ بقصورٍ وفَشَلٍ[8] ، وما تزالُ لك من سِحر البلاغة وعُذوبتها الْمُسْتَساغة رايةٌ تخفقُ ، وغارةٌ لا تُخْفِق ، تروعُ سرحاً[9] ، وتكلّف من شَأوِها عَناءً وبَرْحاً ، فلولا أن يَسُوءَ ظنٌّ ، ويُكفَرَ إنعامٌ ومَنٌّ ؛ لأَمسكتُ عن مُراجعةٍ تُحاسِنُ [١٥/أ] حَوَراً بِعَور ، وتماتِنُ صلابةً بخَوَر[10] ولكنْ : قد يركبُ المضطرُّ الأَسِنَّةَ ولا يركَبُ الظِّنَّةَ[11] ، ويغشى البُهَمَ ، ولا يَغْشى التّهَم[12] ، وإنّي لألُفُّ رأسي حَياءً[13] ، وأتضاءلُ خفاءً ؛ لكتبٍ كريمةٍ من تِلقائِكَ تلاحقت تَلاحُقَ الجِياد ، وتناسَقت تناسُق الدُّرِّ في الأَجياد ،

---

(٥) فرى : قطَع ، وفي حديث الرؤيا « فلم أرَ عبقريّاً يفري فرِيَّهُ » أي يعملُ عمله ، ويقطع قَطْعَهُ . وتقول العرب : تركتُه يفري الفريّ إذا عمل العمل فأجاده .

(٦) نبطَ البئر : استخرج ماءها . والحَسْيُ : أرضٌ أسفلها غليظ (صخر) وأعلاها رَمْل تُمسِكُ ماءَ المطر فإذا نبث الرمل (نبش) ظهر الماءُ عذباً بارداً . (وتستعمل في بعض الأقطار لمعنى البئر) . والمعين من الماء الجاري الظاهر .

(٧) الوشل : الماء القليل يتحلّب من صخرة أو جبل يقطر قليلاً قليلاً ، لا يتّصل قطره .

(٨) المُذكّيات جمعُ المذكّي ، وهو من الخيل ما أتى على قروحه سنةٌ أو سنتان .

(٩) السَّرح : الأنعام (الماشية) في المَرْعى .

(١٠) الخَوَر : الضَّعف . وماتنه : عارضه في جدل وخُصومة .

(١١) هذا السّطر « حوراً ... الظنّة » في رأس الورقة ١٥/أ . وفي معظم كلماته محو . وهو مُستوضح ومستشفّ .

(١٢) البُهم جمع البُهمة : الشجاع الذي لا يُدْرى من أين يهاجَمُ ، والذي لا ينثني عمّا أراد .

(١٣) من قول أبي تمام (ديوانه بشرح التبريزي ٢ : ١١٥) .

أتـاني مـع الرُّكبـان ظنٌّ ظننتـهُ لففتُ بـه رأسي حيـاءً مِنَ الْمَجْـدِ

انتظمت شذور الأَماني ، وتضمّنت مالم تضمن صدور الغَواني ، فَجلَّ حقُّها عن الأَداء ، وحَقَّت في جانبهِ روَاجِحُ الأَعبـاء ، وكم أَسيرِ دَيْنٍ لا يمنُّ عليـه بـالفِـداء ، ولا عيبَ في رقٍّ لأكرم مُسْتَرِقٍ ، ولُزومِ حقٍّ لأعظم مُستحقٍ ، واللهُ ـ عزَّ اسمه ـ يُبقي لي مظاهَرتـك الجميلـة ، ويَجزي عنّي مُضَـافرتـك الْخَطيرة الْجَليلة .

ورأَيتُ مـاسُقتَـهُ في ذلـك الإدراج ، من أمرِ صَـديقنـا أبي فـلان ابن السَّرّاج ، وذِمامُه ذمامُه ، وأيّامُـه في الصُّحبـة أيّـامُـه ، لكنّـه ربمـا أعجلَ الأُمـور عن الإنضـاج ، وانـزعـجَ بعضَ الانـزعـاجِ . ولـلأَعمـالِ مـواسِمُ ، وللفُرَصِ غُررٌ ومباسمُ ، فإن أركاني إلى إمكاني[١٤] ، وأَعطاني فضلَ عِناني ، جَعلتُـه من أهمّ مـا حـزنني[١٥] وعَنـاني ، ولـو لم يمتّ بـوسيلـة ، ولا أَدلى بِفَضيلـة ، إلا بكتـابـكَ الْخَطير ، لأدنـاهُ إلى مُتَمنَّـاهُ ، وتلقّى رايـةَ اليُسرِ بيمنـاه ، فكيف ولـه العَهْـدُ الكريم ، والـودُّ المقيم ، والأَذِمّـة التي تُروي[١٦] وتُسِيم ، وذلك مُعْتَقـدي في كلِّ من يتوسَّلُ بِجَلالـك ، ويَتمسَّـك بحبلٍ من حِبـالـك ؛ فـإنّي أَرى لـكَ في أَعمـالي بـذلَ المُستطـاع ، وتحكّم الأَمرِ المُطـاع ، لا ردَّ لِمَـا تُمضيـه ، ولا مطْلَ بمـا تَرْتَضِيـه ؛ إلاّ أَن يحـولَ دون ذلك حائل تعذُرني فيه .

---

(١٤) أركاه إلى كذا : خلاّه ، وأركاه : أخّره .

(١٥) في الأصل بنونين (حَزنني) ، ويتـوجّـه المعنى بها . وفي مـادة (ح ز ب) : حـزبـه الأمرُ : أصابه واشتدّ عليه .

(١٦) تُروي من الريّ . وتُسيم : من أسام الدابّة : أرسلها في المرعى (فهي سائمة) .

وأمّا الذي تحمله من عَرْضِ ما لا يَخفى فيه التّرجيح ، والإيثار الصّحيح ، فسأمخض حَقِيْنَهُ[(١٧)] ، وأقدحُ في شكّه يقينَهُ ؛ ولا محالةَ أنّي لاأحتارُ بعدك[(١٨)] ، ولا أستطِيبُ عَيشاً بعدك ، وإذا وجب القول كان لك في تمحيصه الطَّول . والحازمُ ـ دامَ عزُّك ـ لا يكتفي في هذه العُهدة الحليلة[(١٩)] بإيماء ، ولا يَردُ الماءَ إلا بماءٍ[(٢٠)] ، وظَنّي أنّكَ لا تخلُو من تَدْميث[(٢١)] ذلك الْمُضْطَجَع ، وصِلَةِ ما بين الْمُصطِنِع [١٥/ب] والْمُصطنَع . فالنّفسُ توّاقةٌ ، والعينُ مُشتاقَةٌ ، والله ـ عَزّ اسمُه ـ وليّ الخيرة يُسَنّيها ، والبُغية يُدنيها بعزته .

ولا أؤكّدُ عليكَ أَمْرَ فلانٍ فيما خاطَب الآن فيهِ ، فإنّه عندك ، وكيدٌ ، وجدّك له حاضرٌ عَتيد ، ولعلَّ الله ـ عزَّ اسمُه ـ يَصنعُ وينظمُ ويَجمعُ ، فَتُقضى مآرِبٌ وتصفُو مشارِبٌ ؛ إن شاء الله عَزَّ وجلَّ .

---

(١٧) الحقين : اللبن يوضع في القربة .

(١٨) المعنى واضح . والنص هكذا (أحتار) من الحيرة . ووقر في ظني أنّها : « لاأختارُ بُعدك » .

(١٩) كذا في الأصل : ولعلها « الجليلة » .

(٢٠) من قول القائل (أمثال العسكري ٢ : ٢٨٢) .

☆ أنْ تردَ الماءَ بماءٍ أكيسُ ☆

(٢١) دمّث المضطجع : مهّده ووطّأه .

[١٩]

وله(☆) ـ رحمه الله ـ :

أطـال اللهُ بقـاءَ شيخي الأكرم ، وإمـامي الأعظم ، الـذي أعتَرِفُ بإجماله ، وأُسندُ إلى جَلالـه ، وأَضرعُ إلى الله سُبحـانـه في اتّصـال علائِـه ، واشتمال آلائِه ، والدّفـاع الجميل عن حُوبـائـه(١) ، وسُبُلُ آمـالِـه منتهجـةٌ ، والألسنةُ بشكره بهجةٌ ، والصُّدورُ بدوام عـافيتـه مُنشرحـةٌ مُبتهجـةٌ ، ولا زالت بقيَّتُهُ الصّالحـةُ ، ومَحَجَّتُـه الواضحـة ، مرفوعـةَ الأعلام . موضوعـةً لمصـالـح الأنـام . مـاأَلتزمُـه لِشيخي وإمـامي من تَـوقيري وإعظـامي ، وشُكري الذي أقطعُ به مسَافة عُمري وأيّامي مستمرُّ التّرتيب ، مُستقِرٌّ عند البعيـدِ والقريب ، ومهما اختلَّتْ سريرةٌ أَو كَلَّتْ بعد مَضـائهـا بصيرةٌ ؛ فسريرتي كما شفَّ الغَـديرُ الصَّـافي عن الرَّضراض(٢) ، وبصيرتي كما خَلصَ السَّهم المصيبُ إلى الأغراضِ ، لاأنثني حتى ينثنيَ السّيل الْمُعتلجُ ، ولا أَنِي أو يَنِيَ الصُّبح الْمُنبلج ، ويَلِجَ الْجَمـلُ في سَمِّ الخيـاط ولا يلـجُ(٣) . وقـد كنتُ حَرِيّـاً ببـدايَتِـه ، فيما شـاءَ لي بعـدَهُ من أملٍ ، وسَنـحَ من تَصريفٍ

---

[١٩]

(☆) رسالةٌ إلى من دعاه شيخه وإمامه ، وقد وقّره فيها الكاتب توقيراً شديـداً ؛ يخبره فيهـا بامتثال رغبته في أمور أوصى بها لرجل غير مسمّى .

(١) الحوباء : النفس .

(٢) الرَّضراض : الحَصَا الصّغارُ في مَجاري الماء .

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة في (الأعراف ٧ : ٤٠) .

وعملٍ ، ساقَهُ القدَر دون إشرافٍ ولا إسفافٍ ، وحَداه على قَناعة وكفـافٍ ، وانقباضٍ وتَجافٍ ، لكنْ أَبى اللهُ إلا أن يُفْرِدَهُ بـالإيثـار ، ويَخُصَّـهُ بمكارِمِ الإيراد والإصدار ، ويجْعَل له فَضيلةَ التّقديم والخِيَار ، ويُعقِبَهُ عن تواضُعِهِ في شرفه شَرفَ المِقـدار . ومـا زلتُ ـ علمَ الله ـ إلى مفـاتَحتـهِ بـالأَشواق . وعلى مُكاتَبته بالعَشيِّ والإشراقِ ، فلا أَخلُو من شـاغلٍ يتصـدَّى ، وقـاطعٍ يتَعـدَّى ؛ إلى أَن أَسْمَـعَ نِـداؤُه ، وصـدَع ابتـداؤُه ، [١٦/أ] وتَـوسَّـعَ حقُّـه وأَعْرضَ أَداؤُه[٤] ، فَلَبَّيْتُ مُعترفاً بالقُصورِ[٥] ، مُتَعرِّضاً إلى صفحـة الميسُورِ ، مُسْتَكثِراً من بِرِّهِ الموفُور ، مُستزيداً استِزادَةَ الشَّكور ، مهتمـاً بمـا يُكلِّفُـه من أَرَبٍ أَرْمِيـه بهمَّتي ، وأَجمـعُ لـه جَراميزَ خِـدمتي[٦] ، فـإنّـهُ لا يـأمرُ منّي إلا مُطيعـاً ، ولا يـدعُو إلا سَريعـاً ، إلى داعيـهِ سَميعـاً ، يرى عقـوقَـه كبيرةً تُحبِطُ العَمل ، وتقبضُ الأَمل .

وممّـا امتثَلْتُ فيـه مـا رَسَمَ ، ونزلتُ في خِـدمتـه على مـا حَكم أمرُ فلان وقد نَفذَ لطيّته بعد إعمال الجِـدِّ ، وبلوغ الحَـدِّ ؛ وتلـك سبيلي فيما يتزيّـدُ من رغباته ، وَيعنُّ من شفاعاته المشفّعَة ، وعِنا ياته .

ومِنَ الله ـ جلَّ اسمُه ـ أَستوهِبُ معونةً تفي ببرّه ، وتـأتي على قـدره ، وهو الْجَوادُ ، الوهّاب لا ربَّ غيرَه إليهِ المآلُ والمآبُ .

---

(٤) أَعْرض لك الخير (وغيره) أمكنك أن تفعله .

(٥) هذا السطر من رأس الصفحة مُستجلى وبعض الأحرف والإعجام غائب .

(٦) يقال : جمع فلان لفلان جراميزه إذا استعدّ له ، وعزم على قصده .

[٢٠]

وله(☆) ـ بَرَّدَ الله ضريحه ـ:

أطالَ اللهُ بقاءَ عمادِي الأَعظم ، وسَندي الأَعصم ، وظهيري الأَكرم ، الذي أَعْتَرِفُ بحقّه الأَلزم ، وبِرّه الأَتلد الأَقدَمِ ، فسيح مدى الإجمال ، ممتدّ مُهَلِ الظّهور والإقبال . ولا زال ينتظمُ المكارمَ والمآثر ، ويتسلّم المحامِدَ والْمَفاخِرَ ، ماتقرّر لديه ، وتكرّر من غير وجهٍ عليه ، من استظهاري بفضْلِه وإسنادي إليه ، قد وضُحَت طريقُهُ ، وتظاهَر تَحقيقُه ، فاطّراحُ صِفته احتفاءٌ ، وإعادَةُ ذكره جَفاءٌ ، وإنّني حيثُ كنتُ من البلاد ، وكيفَ تقلَّبتُ من إتهام وإنجاد ، لمخيّمٌ عنده بالتّعويل[1] ، سالك من البِرّ بِهِ والتشيُّعِ فيه أَهدى سبيل ، فليعلم ـ أَدام اللهُ عِزّهُ ـ أنّي في ذَراهُ مُقيم ، وإلى كرمِ عهدهِ مُستنيمٌ ، ولنعمةَ اللهِ فيه وبه مُستديم . واللهُ يصونُ بصيانَتِه شخصَ السّيادة ، ويُظفِّره بِكلّ أملٍ قصيٍّ وإرادة . وتوالتْ لَهُ ـ أَدام الله عِزَّه ـ كتبٌ برَّةٌ كريمةٌ ، تضمّنتْ أَغراضاً في حامِليها ، وإشارات ابتدرَت مذهبَه الجميلَ فيها ، لم تَقْتَضِ مُراجعة بأكثر من إنفاذِ معَانيها ، ثم أَرْدَفها كتابٌ خطيرٌ [١٦/ب] في أمر الرَّجل الْمُصاب بمالِه ـ جَبره اللهُ ـ استنفدْتُ له وُسْعِي ، وبلغْتُ فيه

[٢٠]

(☆) إعلام بتوفير الرعاية لرجل أصيب في ماله . وفي الرسالة بسط لطبيعة العلاقة الطيبة بين الكاتب وبين المرسل إليه .

(١) عَوّل عليه : اعتمد عليه واتّكل .

جُهدي ، ولو أتت قُدرتي على جميع ما أَمَّل لما عادَ إلا ظافِراً ، ولِذَنب الزّمانِ فيما جَناهُ غافراً . لكنْ على اللهِ النّجاحُ ، وعليَّ الْمَغْدى فيما يُرضِيه والْمَراحُ[2] ، ومَنْ أَبلغَ النَّفْسَ عُذْرَها[3] ، ووَضع في يَدَيْهِ قُلَّها وكُثْرَها ، فلا بدَّ أن يَسعه إغْضاؤُه ، وإن أعجزَه إرضاؤُه .

وأنا بعدُ مُعتملٌ فيما يهواه ، مُحتَمِلٌ في العُسر واليُسر على ما يَراه ، مُتَطلّعٌ إلى وطرٍ من أوطارِه يتَسبَّبُ ، وحَقٍّ من حُقوقِه يترتبُ . واللهُ ـ عزَّ اسمه ـ يَنهضُ بما يستنهضُ إليه ، ويُعين على ما يَزْكو لَديه ، فالخيرُ أَجمعه بيديه ، إنْ شاء اللهُ .

[٢١]

وَلَهُ[☆] رَحِمَهُ الله :

أطَال اللهُ بقاءَ عِمادي الأَعلى ، ومصَادي[1] في الجُلّى ، في سَعْدٍ يُتَملَّى ، وإقبالٍ لا يَتولّى . ولا زال يَقْدَحُ زَنْدَ الإحسان ، ويحملُ لواءَ

---

(٢) من : غدا : خرج صباحاً (غدْوةً) و : راح : رجع في العَشِيّ .

(٣) من قول الشاعر (عروة بن الورد) في ديوانه ٤٠ :

ليبلغ عذراً أو يصيبَ رغيبةً ومبلغ نفس عذرها مثل مُنجحِ

[٢١]

(☆) رسالة جوابية عن رسالتين اثنتين وردتا إلى الكاتب من أحد ذوي الشأن ، لم يسمّه ولم يترك صفة مميّزة له .

(١) المصاد : أعلى الجبل .

البَيـان . رُبَّ حُقوقٍ مَنعت من حُقوق ، وبِرٍّ في ثيـاب عُقـوقٍ ؛ ورَازحٍ[٢] فدَحَه الطَّولُ ، وصامِتٍ بهَره القَول ؛ ذي لسانٍ عَقلَتْـهُ غَيْبَتُـك ، وجَنـانٍ مَلَكَتْهُ هيبَتُـك ، غـادرتـه نفثـاتُـك مُمتقعـاً ، ولم تترِكْ لـهُ في سَماء الفكر مُطَّلعـاً ؛ ظننت بـه جَفـاءً ، وإنّما صَمَتَ بِرّاً واحتفـاءً ، ولو شئت لنهجتَ هُـداه ، وقرَّبت مَـدَاه ؛ بكـلامٍ يُطمعـه ، ومَرامٍ يخـدعُـهُ ، ومَسـاقٍ لا يقطعُـهُ . ومـا تـوقفتُ ـ علم اللهُ ـ إلا إجـلالاً ، وإنّي لا أجـد في هـذا الباب مَجـالاً . فـإنْ قنعتَ بتَعبيري ، ولم تَستشرف إلى تعثيري ، وتَركتني ومـا في ضَميري ، رجوتُ أن تُلْفِيَني راجحَ الكِفَّـة ، ثَقيـلاً على الخِفَّـة ، إن شاءَ الله .

وتَلاحقَتْ[٣] ، لـك عنـدي كتـابـان كـريمـان ، أَقمتُ منهما تحت عِبـاء قاهر ، وفضلٍ مُتَظاهر . وأنا ـ بحول الله ـ في رضاك مُعتمل ، وعلى هواك مُحتمل ، وأما الشَّقُوريّ[٤] ـ حَفِظه اللهُ ـ فقد وافَق هَذا الهواء الـذي تَراهُ ، وأَعدّ له قبل النُّزولِ قِرَاهُ ، فكأَنّ البَرْدَ سَرى بِمَسراه ، وجرى في الأحشـاء مجراه .

والرأيُ أن تُبْتَرَ حبالُه ، وتؤثَر به جِبالُـهُ ، فهي أَحْمَلُ لِكَلِّـهِ ، وأجبرُ لِفَلِّهِ . أَمَا إنَّ لهُ بالوسيلـةِ ، [١٧/أ] ومـا أثْبت لَـه من فَضيلـة ، آصرةُ وُدٍّ

---

(٢) من رزح : ضعف ولصق بالأرض .

(٣) من الأصل .

(٤) إشارة إلى رجل ينسبُ إلى شَقُورة : وهو المعنيّ في هذه الرسالة .

أَبُلُّها بِبلالها ، وأَرْمِي دُونَهُ بِنبالها ، واللهُ بقُدرته ، يُعينُ على تلقّي هذه الْحُقوق واستقبالها .

وأَما عَوْدُك لتلك الحال المأمولة ، والدَّولَة الْمَأنُوسةِ المأهولةِ ، فالقَدَرُ فيه يهيلُ مُحسناً[5] ، ويُديْلُ مُنعماً مُمعناً . وإنّها لدعوةُ سَعدٍ ، وحبيبٍ زار على غير وَعدٍ . وهذا حظٌّ أَدناه يُؤذِنُ بأقصاه ، وأُولاه تُومِئُ إلى مُنتهاه ، واللهُ يُيَمِّنُ ذلك السَّفَرَ ، ويُبَوِّئُكَ صورَ المجدِ أكبرَ أكبر[6] ، بعزّته .

وقد ارتبطتْ إلى الإعلام ، فلا تُسْلِمني إلى الإبهام ، لأُشيّع بدعاءِ الغَائبِ ، وأَقُومَ مقام المُجتهد النّائب . شَيَّعَتْكَ السَّلامة ، ولا وَدَّعتك الكرامة ، وأَصبِحْ في الْمَسرّاتِ وأَمْسِ ، ودُم حتّى يعودَ أَمسِ ، إن شاءَ الله .

[٢٢]

ولهُ[☆] ـ رحِمَهُ اللهُ ـ

أَطالَ اللهُ بقاءَ الفقيهِ الأَجَلّ ، القاضِي الأفضل ، الفارج للمهمّات ،

---

(٥) يقال : هِلتُ الشيءَ أهيله (هيلاً ، فانهال) أي جَرى وانصبَّ . وفي كلام الكاتب إشارة إلى مثل وهو قولهم : « أراكِ محسنةً فَهيلي » .

(٦) من قول امرئ القيس (ديوانه : ٧٠) :

وكنّا أُناساً قبل غزوة قرملٍ ورثنا الغِنى والْمَجْدَ أكْبَر أكْبَرا

[٢٢]

(☆) رسالة إلى أحد الفقهاء القضاة يوصي بصهره أبي جعفر بن سليمان .

الكاشِف للأزمـات ، النّـاهض بـأقـوى الْمُنَنِ[1] وأَمضى العَـزمـات ، عليمـاً بابتناءِ المَجد ، بَصيراً باقْتِناء الحمـد ، ولا زالتْ لـه المِننُ[2] الغُرّ والبَـدآتُ التي عواقِبُها تَسُرّ .

مُـؤَدّيـه ـ دامَ عِـزُّك ـ أَبُـو جعفر بن سُلَيمـان[3] ، مِنّي بـالمُصـاهرة والمظـاهرة بمكان ، ونفسي بـالخطب يَنُـوبـه مُحترقـة ، وعَيْني للمكروهِ يُصيبه مُسَهَّدة أَرِقَة ، وحديثُه في ذلك الكَرى ، فعَلى يديك دار ، وذلـكَ الطّلبُ الذي أَخّرْتَهُ بكرمِ وَساطَتِكَ قد استدار . وكنتُ قد سَكنتُ لـه إلى إشارتك الحسَنة ، وما مَهّدته من رفع الْمَخافـةِ وبَسْـطِ الأَمَنـة ، وقـد كان ـ أَعزّك الله ـ بِثقَلِ ظَهره مَفْدُوحاً ، وبِنَوائب دَهْرِه مَفْضُوحاً . لا يجدُ من العَيْشِ بَلاغـاً ، ولا يَلْقى لِشَكْـواه مَسـاغـاً ، فكيفَ بـهِ الآنَ وقـد مُـدَّت الثّأطة[4] بماء ، وَكرَّ التعقُّبُ منـه على رَمقٍ خـافتٍ وذَمـاءٍ ؟ وَلَمّـا بغتَتْـهُ هذِه البَديهة ، والحادِثَةُ الكَريهـة ، عَوَّل على الاستِسْرار ، وطوى كَشْحـاً[5] على الفِرار ؛ فأَشفقتُ لحاله ، ورحِمْتُ من تَنْعَطِفُ عليـه القُلوب القـاسيـةُ من أطفالِه ، ورَأيتُ له أن يتوجَّه إليك ، ويُعيد أمرَهُ عليـك ، ويُعلمـك

(١) المُنن : (بضم الميم وكسرها) جمع الْمُنّة والمِنّة : القُوّة .

(٢) والمنن جمع المنة ـ على لفظ سابقتها ـ : الإحسان والإنعام .
ـ وقد ضبطت النُّسخة المُنن الأولى بالضم ، والثّانية بالكسر .

(٣) أبو جعفر بن سليمان (؟) .

(٤) الثأطةُ : الحمأةُ أو الطين . وفي المثَل : « ثأطَةٌ مُدّت بماءٍ » أي ازدادت فساداً لأن الحمأة إذا صُبّ عليها ماء زادت فَساداً . يُضْرَبُ للأحمقِ يزداد حُمقاً أو يزداد منصباً .

(٥) طوى كشحاً أي أضمر أمْراً . قال زهير (ديوانه : ٢٢) :

وكان طوَى كَشحـاً على مُستكنّـةٍ فـلا هـوَ أبـداهـا ولم يتقَـدّمِ

بما عنده من خَسارة وجائِحَة ، وحُجّةٍ واضحـةٍ لائحـة ، ويَستشهـدك على ماأَبرمته [١٧/ب] بفضلك من سُقوطِ ذلكَ التَّعَقُّب .

وعقـد فـلان ألاّ يطلب بعـد بِشيء منـه ، وكان لـكَ هُنـالـك السَّعي الرَّفيع ، وأنت في هذه الحال التي هي بحكمـك إلى نفسـك شَفيع . فـالكرمُ يحدوكَ ، والرَّغبة أَوّلاً وآخراً لا تَعْدُوك ، وما تُسْدِيه من خَيرٍ فإلَيّ ، ومـا كان من شُكرٍ فعَلَيّ ، ولعَمْرُ اللهِ لو عَرفتُ لهُ وَفاءً أَو أعلمت أنّهُ يجـدّ لهـذا المطلوب وإن لم يُلزمه قَضاءً لما جَشَّمتُك أَمره ، ولا سمعتُ عُذره !

ولكنّي أَعلمُ مـا يرجعُ إليـه من إقلال[٦] ، ومُؤلم فقرٍ واختِلال ، وأَفزعُ إليك فَزَع الضّاحي[٧] إلى الظِّلال ، والظَّمآنِ إلى العَذبِ الزُّلال .

لا زلتَ تبلُّ رحمَ الخلّةِ بما يجبُ لهـا من بلال[٨] ، بحولِ اللهِ ذي الطَّوْلِ والجَلال ؛ لا ربَّ غَيْرُه .

---

(٦) أقلّ الرجل (إقلالاً) : افتقر وفيه بقيّة .

(٧) الضّاحي : البارز للشمس .

(٨) الخلّة : الفقر والحاجةُ .

[٢٣]

وله(☆) ، رحمةُ اللهِ عَليه

إلى القاضي الإمام أبي الوليد بن رشد(☆☆) رحمه الله ، يُعزّيه بابنهِ الأصغر ، المُتَوفّى في صفر عام سَبع عشرة وخمس مئة .

أَطالَ اللّهُ بقاءَ الفقيهِ الأَجلّ ، الإمام علَم الإسلام ، وصِنو الغَمام ، ومُستوفي شُروط الكمال والتّمام . وبقية الخِيرة الكِرام ، للصّالحات يَصِلُها ، والمُشكلات يفصِلُها . ولا زالت المَطايا تَشتكيه ، والأَئمّةُ تَستهديه ، والدّينُ يعدّه ويَنتضيه ، والأمة تسلّمُ لما يقضيه ، وتَبُوءُ بإنعامِه(١) وإحسانه ، وتأخذُ عقائد دينها عن يده المباركة ولِسانه .

[٢٣]

(☆) رسالة تعزية إلى الفقيه القرطبي الشهير أبي الوليد بن رُشد (جد الفيلسوف ابن رُشد) في ولد له تُوفّي . وكان ابنُ رشد وقتها شيخاً يدلف إلى عام السبعين من عُمره . وتاريخ الرسالة سنة ٥١٧

(☆☆) الفقيه ، قاضي الجماعة بقرطبة ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رُشد (٤٥٠ ـ ٥٢٠) من الفقهاء العلماء الحفّاظ ، كان من أشهر رجال عصره علماً وفقهاً ، مشهوراً بالديانة والصّيانة والفضل ، والرّعاية لأهل العلم وطلبته ، محمود السيرة عند العامة والخاصة . وله تواليف كثيرة أكثرها في الفقه .

خرج في أول سنة عشرين وخمس مئة إلى المغرب فلقي أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ليبسط له حال الأندلس فلقيه لقاءً حسناً . وتوفي أبو الوليد بن رشد في آخر العام (في الحادي عشر من ذي القعدة) . وتبارى الشعراء في تأبينه .

(قضاة الأندلس ٩٨ ، الصلة : ٥١٨ ، بغية الملتمس ٤٠ ، أزهار الرياض ٣ : ٥٩ ، الديباج المُذهب : ٢٧٨) .

(١) باءَ بكذا : رجعَ به .

الخَطْبُ - لا أَحَسَّهُ ، والقَرْحُ[٢] لا وَجَد مَسَّهُ - لو تَنكَّبَ زَعِياً[٣] ، وتَخَطّى جَليلاً في النُّفوس عظيماً ، وراقَب ديناً ، وتَحامى مُؤتَمناً على كنزِ العِلم أَميناً لاسْتُثْنِيَ من قَدَرِه ، وسَلِمَ على وِرْدِه وصَدَرِه ، وإذْ لا سبيلَ إلى الْخُلود ، ولا مَذهب عن تعثير الْجُدود[٤] ، وتعفير الْخُدود ، فأحقّ مَن عرفَ للهِ تَعالى حقَّه ، وعَصى داعي الْجَزع وعَقَّه ، مَن استعْبَد هواه واستَرقّه ، وباء باسمِ الإمامة واستحَقّه . أما إنه وعدٌ جامعٌ صادقٌ ، وإنّه الآخر بالأول لاحِق . وبَلغني مُصابه بفلذةٍ من كبدِه قُدّت ، ولبنةٍ من بنائِه هُدّت ، وأن أبواب الأُنسِ بهِ سُدّت ، والصَّفائح[٥] عليه مُدّت ، فقلت : لهُ غَايةٌ حُدّت ، وعاريّةٌ إلى الْمُعير رُدَّت . وربَّانِيّ الوقتِ ، وهادي السَّمت . [١٨/أ] ومُقيم الأَوَد والأَمْت[٦] ، فكيفَ نُكلمه ؟ وماذا يقولُ للعالِم من يُعَلّمه[٧] ؟ أجلْ ! نقول بعض ما قال ، ونُنيله مما أنال ؛ فَهنيئاً لِفَرطه[٨] الصَّالح وذُخره الزّاكي الرَّاجِح ؛ ما اختارَهُ اللهُ لهُ مِن كرامةِ جِواره ، واختصّه به من إيثاره .

---

(٢) من معاني القرح : الألم .

(٣) تنكبه : تجنّبه .

(٤) الْجُدود جمع الْجَدّ : الحظ . يقال : حظٌّ عاثر .

(٥) الصفائح جمع الصفيحة : لوح عريضٌ من حَجر .

(٦) الأَود والأمت : الاعوجاج . وأقام أوده وأمته : قوّم اعوجاجه .

(٧) أي ماذا يقول للعالِم من يقف منه ، لسبب ما كالتعزية هنا ، موقف المنبّه المعلّم ؟ وهذا مدخل للاعتذار واستجرار للكلام ، حسن .

(٨) الفَرَط (بفتح الفاء والراء) الذي يموتُ ولم يبلغ الحلم من الأولاد (في سنّ الطفولة قبل البلوغ) يُقال : افترط فلانٌ ابناً له صغيراً ، إذا مات قبله .

نقلت إليه ظاهِراً عن دَرَكِ العار ، طاهِراً من دَنَسِ الأَوزار ؛ والقَبُولُ يَتَلقَّاهُ ، والرِّضوان يرفعُ مُرتقاه ، حين تقارب الزَّمن[٩] ، واستشرفت الفِتَنُ ؛ وأصبَح الولدُ غَيظاً ، والشّتاءُ قَيْظاً . وهَنيئاً للإمام ـ أيَّدَهُ اللهُ ـ مودَّعٌ : مَوعِدُه الْجَنَّة ، ومُفَدًّى هُوَ لَهُ فِداءٌ وجُنَّةٌ[١٠] . فإنّما الْمُؤمن خامَةُ زَرع[١١] ، وذُؤابة فَرْع تُفَيِّئُها الرّياح يَميناً وشمالاً[١٢] ، وتلينُ في يَديها إدباراً وإقْبالاً . والكافِرُ أرزة مُجْذِيَةٌ تتحاماها المعرّة[١٣] ، ثم تكرّ عليها كرّة فيكون انْجِعافُها مَرّة[١٤] . قال رسول الله ﷺ[١٥] :

---

(٩) يُريد في آخر الزمن (عند اقتراب السّاعة) . وذكر اختلاف طبائع الأُمور حين يكون الولد سَبباً للغيظ (لا ريحانةَ للنفس) والشّتاء قَيْظاً (لا برداً وشِتاءً) !

(١٠) يعني شفاعة الولد ، وقد فَرَط ، لوالديه . وفي النّهاية في غريب الحديث (مادة فرط) ومنه الدّعاء للطفل الميت : « اللهم اجعَلْهُ لنا فَرَطاً » أي أجْراً يتقدَّمُنا .
ـ والْجُنّة : الوقاية .

(١١) الخامَةُ من الزّرع هي الطّاقة الغَضّةُ اللّينةُ من الزَّرع .

(١٢) تُفيّئها أي تُميلها .

(١٣) الأرزة : الشجرة المعروفة . قال ابن الأثير : الأرزة شجر الأرزن وهو خشب معروف ، وقيل هو الصّنوبر . والمجذية : الثابتة المنتصبة . والْمَعرَّة : الأذى .

(١٤) انجعافها : انقلاعها .
ـ وقد اقتبس الكاتب الحديث الذي رواه كعب بن مالك (رض) عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَثلُ المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الرياح تصرعها مَرّة وتعدلُها أُخرى حتى يأتيه أجله ؛ ومَثلُ الكافر مثل الأرزة المجذية على أصلها لا يقلّها شيء حتى يكون انجعافُها مَرّة » . مسند الإمام أحمد ٦ : ٣٨٦
وروي في المسند وغيره بروايات مُقاربة .

(١٥) من حديث رواه أنس (رض) . (سنن الترمذي ، أبواب الزهد : باب في الصَّبر على البلاء ٤ : ٢٧) وانظر مسند الإمام أحمد ١ : ٩٢

« إذا أرادَ اللهُ بعبدِه الْخَيْرَ عجّل اللهُ لهُ العُقوبةَ في الـدُّنيـا ، وإذا أَراد بعبده الشرَّ أمسَك عنه بذنبه حتى يُوافي به يومَ القِيامة » .

وقال ﷺ[16] ، وقد سُئل :

« أيّ الناس أشدّ بلاء ؟ فقال : الأَنبياء ، ثم الأَمْثَلُ فـالأَمْثل . فَيُبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان [في][17] دينهِ صُلباً اشتدَّ بلاؤُه ، وإن كان في دِينـه رقّـةٌ ابتُلِيَ على حسب دينـهِ فَما يَبْرَحُ البَـلاء بـالعبـدِ حتّى يتركه يَمشي على الأَرض وما عليهِ خَطيئة » .

وقـال ﷺ[18] : « مـا يَـزالُ البَـلاءُ بـالْمُـؤمِن والْمُـؤمنـة في نفسِـه ، وولده ، وماله ، حتى يَلْقى اللهَ وما عليه خَطيئة » .

لـلإمـام الأَجـلّ ـ أيّـده اللهُ ـ مَثَـلُ الْخَير ، ولا تنـاولَتْـهُ يـدُ الضَّير ، ولا وجَد أُواماً ولا ذَعَرَتْ لـه الحوادِثُ سَوامـا[19] . ويـا نـارَ الْحُزن كوني

---

(١٦) في سنن الترمذي (٤ : ٢٨) في باب الصَّبر على البلاء : حدثنـا قتيبـة أخبرنـا شريـك عن عاصم عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت : يـا رسول الله : أيُّ النـاس أشـدُّ بلاء ؟ قال : الأنبياء ... إلخ الحديث . قال : هذا حديث حسن صحيح .

(١٧) الزّيادة من السُّنن .

(١٨) في سنن الترمـذي (٤ : ٢٨) من حـديث أبي هريرة (رض) بسنـد ذكره ، كما أثبتـه المصنّف ، قال : هذا حديث حسن صحيح ، وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة بن اليمان .

(١٩) السَّوام (جمع السّـائمـة) : الراعيـة من المـاشيـة . والأُوام : حرارة العطش . يُشيرُ إلى قول يزيد بن مُفرّغ الحِميري (ديوانه : ٧٢)

لا ذَعرْتُ السّـوامَ في فلـق الصُّبـ...ـح مُغيراً ولا دُعيْتُ يَـزيـدا !

عليه بَرْداً وسَلاما[٢٠] ، ويا صُنْعَ اللهِ[٢١] عاقِدُهُ لِزاما ، وحالفه دواماً ؛ فقد أصبح للمتّقين إمـامـاً ، وصَـدراً في الّـذين « إذا مَرُّوا بـالّلغـو مَرُّوا كِراما »[٢٢] .

طالعته ـ أَيَّده الله ـ وعندي على الغيبةِ مُساهمةُ الشّاهد ، وأرق السّاهر السَّاهد ؛ فَما تُكْلُه ثكلُ وَاحدٍ[٢٣] . إذا سَلِم سَلِم الجميع ، ومَتى أَلِمَ فبالكلّ ألمٌ وَجيع . فسَحَ [١٨/ب] اللهُ مَداهُ ، ولا سَلَبنا ما أَلبسَنا من هَدْيِه وهُداهُ ، وعَمر بشهبِ العِلم سماءهُ ومُنتداه ؛ بجوده وعلاه ؛ لا رَبَّ سِواه .

[٢٤]

وله[☆] ، رَحِمَهُ اللهُ ،

يـا عمـادِيَ الأَعلى ، وكبيريَ المـوقّر الْمُفَـدّى ، ومُنيري الأَشرق الأَهدى ، الذي ينمُّ على ضميره ما أَبْدى ، ويُحيي ما درَس من آثـارِ الْمُروءة

---

(٢٠) اقتباس من الآية الكريمة من سورة الأنبياء ٦٩/٢١

(٢١) الصُّنع : الرزق . وقصد الكاتب إلى معاني الرزق والسّلامة والرعاية ، يقال : ما أحسن صنع الله وصنيعه عندك .

(٢٢) اقتباس من الآية الكريمة من سورة الفرقان ٧٢/٢٥

(٢٣) من قول عبدة بن الطبيب (مخضرم ، أدرك الإسلام وأسلم) . الأغاني ٢١ : ٢٩ في الرثاء :

وما كان قيسٌ هُلكهُ هُلْكُ واحدٍ ولكنّه بنيانُ قومٍ تَهدَّما

[٢٤]

(☆) رسالةٌ إلى بعض الكبراء ، يعتذرُ عن دعوة وجّه بها إليه .

والنّدى ، ويدعو إلى مـأدُبـةٍ حينَ انْتَقر النّـاسُ الْجَفلى[1] ؛ لا زالت نـارُك توقَدُ باليَفاعِ[2] ، وتستنقذ السَّارين مِنْ أَيْـدِي الضَّلال والضَّيـاع ؛ وتهيبُ بالْخَرْقاء والصَّناع[3] ، وتأخذُ بالأَبْصارِ والأَسماع .

كتبتُ وقـد وافى الكتـاب المستحثّ ، ورائِـدُ الوَبْـل يلـطّ ويلثّ[4] ، وسطـوره تنــدى طيبـاً وتَمُثّ[5] ؛ فقلت : شَبّ الـزَّمـانُ على الهَـوى ، وعاوَدتهُ أَرْيَحِيّةُ الكَرم .

ويا لَلعَامِظةِ[6] أَهل القُرى ! لقد وافاهُم الْمَوسم ، وطالعَتْهُم غُرّةُ ذلك المجـد تبتسِم ؛ « انْفِرُوا خِفـافـاً وثِقـالا »[7] ، وأَجِـدُّوا لِشَهـواتكم صِقـالا ، وحُطُّـوا على البَـواذِخ من شمام أَثقـالا[8] ؛ على آفـةِ الكُـوم ، على العـارضِ

(١) استفاد الكاتب من قول طرفة بن العبد (ديوانه : ٦٥) :

نحنُ في المشتـــاة نـــدعـو الجَفلى لاترى الآدِبَ فينـــــــا يَنْتَقِرْ

« الجَفَلى أن يعمّ الداعي بدعوته إلى الطعـام ولا يخصّ واحـداً دون آخر . والنَّقَرى أن يخصّ بدعوته ولا يعمّ » .

(٢) اليَفاعُ : المرتفع من الأرض .

(٣) الخَرقـاءُ : التي لاتحسن العَمـل . والصَّنـاعُ : المـاهرة . وجمعت الأمثـال بين الخرقـاء والصّناع وضُرب بها المثل ، وقالوا : لاتعدم خرقاء علّة ، ولا تعدم صناع ثلّة (أمثـال العسكري ٢ : ٣٧٩) .

(٤) لطّ : لزم ، ولثّ المطر : دامَ أيّاماً .

(٥) مثّ الرجلُ : عَرِق .

(٦) اللُّعموظ : من لَعْمَظ الرجل : إذا نهم وشَرِه . وهو أيضاً : الذي يخدم بطعام بطنه !

(٧) اقتباس من الآية الكريمة من سورة التوبة : ٤١/٩

(٨) البواذخ جمع الباذخ : العالي .

ـ و (شمام) اسم جَبل (معجم مااستعجم : ٨٠٧) .

الْمَرْكُوم[٩] ؛ وحَيَّ على لُبابٍ يُلبَكُ بلباب[١٠] ، وشبابٍ يُحبكُ بِشباب ، وقبابِ مجدٍ تُسْمَكُ بِقباب[١١] ؛ ويا ظفرَ الحاضِرين وخَيْبةَ الغيّاب ؛ « يا لَيْتني كنتُ مَعهُمْ فَأَفُوز »[١٢] . وأنّى لاقتراحِ أَخي الحِرْصِ أَن يَجُوز . ومَنْ لي بانتشاقَةِ عَرف واختلاسةِ طَرف ؛ وقد وُضِعت الجفان ، وجَحظت الأَجفان ؛ وخشعت الأَصواتُ ، وغَصّت الحلاقيمُ واللّهَوات ؛ وانسكبَت الأَلْوانُ كلَّ مُنسكب ، وجَثَوا[١٣] للرُّكَب ؛ وأَنغضوا رؤوسهم[١٤] واحتسَبُوا نفوسهم[١٥] ؛ والتفّت بالغاشِيةِ الغاشية ، وهاجت الآبيةَ العاشية[١٦] ؛ وجبالُ اللّقم تسيرُ ، وصحف الصِّحافِ تَطير[١٧] ؛ إنه لمقام كريم ، ودَيْنٌ يتمنّاهُ الغَرِيمُ ، ويلزمه فلا يَرِيمُ[١٨] .

وإني ـ عَلِمَ اللهُ ـ لسريع إلى نادِيك ، سميع لِمُناديك ؛ غير أَنَّ مَنزلي

---

(٩) الكوم : القطعة من الإبل . وهو آفة للكوم لأنه كريم ينحر منها .
ـ والعارض : السّحابُ المعترض في الأُفق .

(١٠) اللُّباب : طحين مُرقّق . لبك : خلط .

(١١) سمك البيت : رفعه .

(١٢) من الآية الكريمة من سورة النساء : ٧٣/٤

(١٣) جَثا : جلس على ركبتيه .

(١٤) نغض الرجلُ رأسه : حرّكه وأماله كالمتعجّب من شيء !

(١٥) أي أسرفوا في الأكل حتى كادوا يتلفون !

(١٦) الآبية ضدّ العاشية . الآبية التي لاتريدُ عشاءً ، والعاشية : الناقة ترعى ليلاً .
(ضربها مثلاً) . وفي أمثال العرب : الآبية تهيج الغاشية .

(١٧) الصحاف جمع صَحفة .

(١٨) لا يريم : لا يبرحُ .

ـ كما علمتَ أو أُعلمت ـ عَـوْرَة[19] ، ولهـذه الأيـام ـ ألانَهـا اللهُ ـ شـدّةٌ وسَوْرة . فَعُـذري بـادٍ ، ونـاديـك لي نَـادٍ ، وبرّك رائحٌ [١٩/أ] وغـادٍ ؛ وحَسبي دعـواتٌ تُسمـع ، وصلـواتٌ تُرفـع ؛ عَرّفكم اللهُ بَركـة الانتِظـام والاتّساق ، وأدَام ما بينكم بالْمُلاءَمةِ والاتّفـاق ، وعفى عـاجلَ الْخَلَفِ على ذلك الإنفاق[20] ؛ بِعزَّته وقُدرته .

[٢٥]

وله(☆) ـ نَضَّر اللهُ وجْهَهُ ـ

يـــا عِمادي الأَعظم ، وعَتَـــاديَ الأَنْفس الأَكرم ، وصَفِيِّي الأَخلص الأَقدم ؛ الّذي إلى مَجـده أستنيم[1] ، ومن عَهـده أَروى وأسيم[2] ؛ وبِـذكره الجميل أَقعدُ وأَقوم . أطالَ اللهُ بَقاءك للسِّيادة تُقيم أَوَدها ، والْمَكارم تبسُـط يدَها ؛ وتحوزُ مَداها الأَبعد وأمَدَها .

مـا بيننـا ـ أعزّكَ اللهُ ـ يقتضي التَّفـاوُضَ في الـدَّقيقِ والجَليل ، ويمـدُّ إليكَ عين التَّـأميل ؛ والله ـ عزَّ اسمُـه ـ يُجري على يَـديـك كلَّ صـالحـة ، ولا يُخليكَ من مَكْرُمةٍ راجحةٍ ، ومَسعاةٍ في البِرّ ناجِحة .

---

(١٩) العبارة قرآنية من الآية الكريمة ١٣ من سورة الأحزاب (٣٣) .

(٢٠) في حديث الدُّعاء : « اللهمّ أعْطِ كُلّ مُنفقٍ خَلفا » أي عِوَضاً . (النهايـة لابن الأثير : خلف) .

[٢٥]

(☆) رسالة إلى أحد الكبراء للإسهام في موضوع « مصاهرة » .

(١) استنام لكذا : سكن إليه .

(٢) روي من الماء : ارتوى . وسام (ناقته على الحوض) : عَرَضها عليه غير مستقص .

وقد علمتَ ـ دامَ عِزُّك ـ ما كان عندنا شائعاً من الْمُصاهرة بَين فُلانٍ وفُلان ، وإن ذلك حديثٌ سارتْ بهِ الرِّفاقُ ، وأَصغَتْ نَحوه الأَعناق[٣] ؛ فصارَ عُرفاً لا يُنكر ، وأمراً يُراح به ويُبتكر[٤] ؛ ومَضى على ذلك العمل ، وارتبط فيه الأَمل ، ثم أَلَّمَ بهِ بعضُ الكسَل ، وحادَ قليلاً عن السَّنن الأَفضل ؛ لراحلةٍ لم تستمر ، وحالةٍ لم تستقرّ ؛ ونازعَتْهُ الآنَ نفسُه التي هي في سبيلٍ من نِزاعِها ، وعلى مَهْيَعٍ[٥] من استِشْرافِها واطّلاعها ؛ إلى أن يَلتئم الشّعبُ ، ويَغْتَصّ بحاضِريه[٦] النَّدِيُّ الرَّحب[٧] .

وقد خَاطَبك فلانٌ في ذلك بما كشَف عن الْجَلِيّة ، وأَعرب بِسِرّ القَضِيّة ؛ وكتابهُ هادٍ وكتابِي سابِقٌ عَجِل وحَادٍ[٨] ؛ ومثلُ جَدِّكَ أَضْرَخ وجَدع أَنْفَ مَن تعرَّض وشَمخ ؛ وبنى هذا البيتَ في عَليائه ، وجَمع بين أَرْضهِ وسَمائه ؛ وتأثيرُك مُرتقب ، والأَمرُ إذا يَمَّمْتَهُ أَمَمٌ وصَقب[٩] ؛ لا زلتَ لأمثالِها من الْجَلائل مَأْمُولا ، وفِناؤكَ بِنجومِ البِلاد مَأهولا ، وغَناؤكَ متعاطىً مَبذولا .

---

(٣) أصغى إليه (برأسه وبأذنه) : أمالها يستّمع .

(٤) من الرّواح والبكور .

(٥) المهيع من الطُّرق : البيّن .

(٦) اغتصّ المجلسُ بأهله : غصّ وامتلأ .

(٧) الندي : مجلس القوم ومتحَدَّثهم ماداموا فيه .

(٨) من قول أبي الطيب المتنبي (ديوانه بشرح الواحدي : ٥٢١)
أنا السَّابقُ الهادي إلى ما أقولهُ إذ القولُ قبل القائلين مَقُولُ

(٩) الأَمم : القريب ، ومثلُه الصَّقب .

[٢٦]

وله(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ

يـا عِمادي الأَعلى ، ومَعقلي الأَحمى ، وظَهيري الأَرفع الأسمى ، وصُنْعَ اللهِ [١٩/ب] لـديَّ الأَجمل الأَنْمى ، ومَنْ أَطـال اللهُ بقـاءَهُ مـوفـورَ النُّعمى ، مَخصُوصاً بالْحُسنى ، وصَوْبِ الثَّناءِ الأَهْمى . مُساهَمَتُـك ـ أَدام اللهُ عِزَّك ـ موصُولـة ، ومُواسـاتُـكَ ـ إذا ضُنّ بـالمُـواسـاةِ ـ مَبْـذُولـة . فَما أَفقدُها في مُوهيةٍ تشرق ، ولا أُنكِرها عندَ حادثةٍ نَكراء ـ وحاشاكَ منها ـ تطرق . وأَحمَـدُ اللهَ على زمـانٍ مُتقـارب ، وحَـظٍّ مُقـارب ، لا يَهَبُ إلاّ ارْتَجع ، ولا يَسُرُّ إلا أَحزنَ وفَجع !

وإنّ كتابَـك الكريم وافى مضمّنـاً في مـا جَرَّهُ القَـدرُ النّـافـذ والكتـابُ السَّـابـق في الأَمير أبي بكر(☆☆) ـ كتبَ اللهُ شهـادَتَــه ، وأَوجَب زُلْفـاهُ[1] وسعادتَه ـ ما يُشبهُ فَضْلَ ارْتِماضِك[2] ويُشاكه كرمَ أَنحائك وأَغراضِك[3] .

---

[٢٦]

(☆) رسالـة جوابيـة بعث بها إلى أحـد كُبَراء الـدَّولـة . وكان قـد وصلـه كتـابٌ من ذلـك المخاطَب برسالة ابن أبي الخصـال يخبره فيهـا بـاستشهـاد أبي بكر بن محمـد بن الحـاج . وكانت وفاته سنة ٥٠٣ هـ .

وفي الرسـالـة إشـارة إلى عمـل يتقلّـده ـ وهـو على الأرجـح مـوصـولٌ بخدمـة أبي بكر المذكور ـ

(☆☆) هو أبو يحيى ، أبو بكر بن محمد بن الحاجّ (سبقت ترجمته في حواشي القطعة ١٣) .

(١) الزُّلفى : القُربى والمنزلة .

(٢) ارتمض من كذا : اشتدّ عليه وأقلقه .

(٣) شاكه وشابه بمعنى .

وإنّها - أعزَّك اللهُ - لَمَصائبُ شتّى، وحَوادِثُ تُحْذَرُ عواقِبُها وتُخشى، وهُمومٌ كقِطْعِ اللَّيل[٤] تغشى. والله يجبرُ صَدْعَ الإسلام، ويعودُ علينا بِمِنَنِه الجسام، ويَستأصل شِيَعَ الكُفر بوشيكِ الانتقام؛ بعزّته وقُدرته.

وأمّا الحالُ التي تطوَّلْتَ باسْتِعلامِها فخيرُ حال: انتكثت أسبابُ قوامها، وانتثرَ عَقْدُ نِظامها. وقد كنتُ أتَقلّى منها وأمْرُها جميعٌ، وجاهُها وَسِيع. فكيفَ بها اليومَ والأيدي مُنطلقة، والأهواءُ على حُكمها مُسْتبقة. ولقد رَجوتُ الرّاحةَ الْجَميلةَ من شُغوبها وما مَسَّني من لُغوبها[٥]. فعَزم عَليَّ قاضي الْجَماعة[٦] والفُقهاء الْمُشاورون - وصَلَ اللهُ تَوفيقهم - في التَّمادي إلى أن يصلَ من يتسلّمُ الحال؛ فإمّا اتّصالٌ جَديدٌ أو انفصالٌ حَميد. فاحتملتُ على إصْفاقِهم[٧]، ومِلْتُ مع اتّفاقهم. وأنا أشكرُ عندَك - أعزكَ اللهُ - حُسن اشتِمالهم[٨] ووُفورَ بِرّهم بي وإقبالهم؛ وأَستنهضُ فَضلَك إلى شُكر قاضِي الجماعة - وَفَّقه الله - عمّا أسلَفَهُ وأَولاه، مُتَطوّلاً إن شاءَ الله.

---

(٤) قِطع الليل: طائفة منه. وروي في الأثر (النهاية: ق ط ع): «إنّ بين يدي الساعة فتناً كقِطع الليل المظلم ...».

(٥) لغب لَغْباً ولُغوباً: تعب وأعيا أشدَّ الإعياء. وفي الآية ﴿ وما مسَّنا مِنْ لُغوب ﴾ ق ٣٨/٥٠

(٦) قاضي الجماعة (يقابل عند المشارقة: قاضي القضاة) ومرتبته أعلى مراتب القَضاء. (النُّباهي: ٥).

(٧) إصفاقهم: إجماعهم.

(٨) في الأصل: اشمالهم (غير منقوطة التاء). يقال اشتمل عليه: أحاط به ووقاه بنفسه.

[٢٧]

وله(☆) ـ رحمه الله ـ [السَّرِيع]

لابُدّ مِن ذِكْرى علَى أَنّني ... ببعضِ ماتَذْكُره مُكْتَفِي

أعلمت ـ أَطال الله بقاءَك ـ أَنّ العملَ الحَشِيب[1] يصقل ، والنُّسخة السَّوداء تنقل ؛ واللهُ يَمْحُو ما يَشاءُ ويُثبت[2] ، وأَعوذُ به من شَفاعةٍ لاتُثمر ولا تُنبت . وقد علمتُ أنّ الزيادةَ على فُلانٍ إنّما كانت ضِراراً ، وحَميّةً تُوردُ ناراً ، وتَرْحَلُ جانيها بِخِزْيَةٍ وتَتْرُكُ عاراً[3] ؛ فتَأمر فيها بما تَراهُ سَداداً ، وصلاحاً لا يَجُرّ فَساداً . فمن الزّيادة على علمك ما يجلبُ نَقْصاً ، وقد يعودُ تَناهِي النّفاقِ كسَاداً وبَخْساً . وحَسْبِي بهذِه الحُروف عند إيجابك المَعْرُوف ، إن شاءَ الله .

---

[٢٧]

(☆) رسالة قصيرة (بطاقة) سريعة إلى مجهول ممّن يتولّون الجباية أو فرض الضَّرائب . ولعلّها هي الثانية إلى ذلك المخاطب المقصود بالوساطة ، ففي الرسالة إشارة إلى (الشفاعة التي لاتثمر) .

(١) في كتب اللغة : الثَّوب الحَشِيب : الخشن الغليظ .

(٢) في التنزيل العزيز في سورة الرعد ١٣ الآية ٣٩ ﴿ يمحو الله ما يشاء ويُثبت وعنده أُمّ الكتاب ﴾ .

(٣) قال جرير في هجو الفرزدق (ديوانه ـ ط الصاوي ٢٨١) :

وكُنْتَ إذا حَلَلْتَ بدارِ قومٍ ... رَحَلْتَ بخزيةٍ وتركْتَ عارا

[٢٨]

وله(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ :

[٢٠/أ] أَطال اللهُ بقاءَ أمير المُسلمين وناصِر الدّين عَزِيْزَ النَّصر ، مُضاعف التّمكين ، حافظاً للباقين عهدَ الماضين ، كافلاً بعدَ الآباء للبَنين ، ولا زالَ للأَولياء يجبر فَلَّهُمْ ويحملُ كَلَّهم[١] .

قد علم أميرُ المسلمين وناصرُ الدّين أَعْلى اللهُ أَمره ، ماأَسلفَهُ عمّي ـ رحمه اللهُ ـ من طاعَتِه التي مَضى عليها حَميداً ، وانفصَلَ عنها شَهيداً ، ومَنْ قاتَلَ لِيوَفّي حَقَّ إسلامِه ، ويُعلي دعوةَ إمامه ، فقدْ استَوْجَبَ رَعْيُ ذِمامِه[٢] ، وحفظُه في تركتِه وأَيتامه .

وكان ـ رَحِمهُ الله ـ قد استَشْعَر قُبيل تَوديعه مانفذَ به القدَرُ من اخْترَامِه[٣] ، فعهدَ إليّ ألاّ أَلتزم دِيواناً وأَلاّ أَحمل لِمُنعم ـ غير أَمير المسلمين أيّدهُ اللهُ ـ إنعاماً ولا إحسانا ، وأَلاّ أَتَقَدّم ولا أَتأخّر إلا بعد إذنه وتحت

---

[٢٨]

(☆) رسالة إلى أمير المُسلمين ، ويرجح عندي أن يكون علي بن يوسف ، بعد استشهاد عَمّه ، يخبره فيها بالتزام وصيّته من رعاية أَولاده ، ويعتذرُ عن المثول في ديوانه . ويصل فيما بينه وبين الأمير ؛ وينتظر رأيَهُ وإن لم يذكره صراحةً .

(١) الفَلّ : الثّلم . والكَلُّ : اليتيم ، وصاحب العِيال ، والعيال .

(٢) الذِّمام : العهد ، والحقُّ والحُرْمَة .

(٣) اخترمته المنيّةُ : أخذته .

عالي أَمره . فالتزمتُ وصيّته ولزمتُ أليّتـه[٤] ؛ ولولا أَنْ أُخـالِفَ قَصْـدَه ، وأُفارِقَ عَهده ، لكنتُ مكانَ كتابي هـذا لأَحُلّ مَحلَّ الاغتِبـاط ، وأتشرّف بلثم البِســاط . لكنّي حَبَسْتُ على الإذن الكريم نَفسِي ، ورجـوتُ منـه مـا يَبْعَثُ عَـزمي ويُثيبُ أُنسِي . وإذا كشفَ أملـه الـزّمـان ولجـأَ إلى أُمّـه اللَّهفان ، فلا مَلجأَ لي بعد الله إلا إلى أميرِ المُسلمين ـ أَصْلَحه الله ! ـ فـإنّي مُنقطعٌ من سواه ، مُفتقرٌ إلى حُسناه ، كثيرٌ بلمحةٍ تُدركني من رِضاه .

لا زال يَرُبُّ[٥] الإحسان ، ويَستغرقُ بَقاؤُه الأَزمان ، بِحول الله .

[٢٩]

ولهُ[☆] ـ رَحْمَةُ اللهِ عليه ـ :

أَطـال الله بقـاء العَمّ الْمَبْرُور ، والوَزَر[١] عنـد مُلِمّـات الـدُّهـور ، في السَّعد الموفُور ، والْمَحلّ الْمَغْبُوط الْمَنظور ، والإجمال الْمُتواصف المـأثور ؛ ولا زال حَفِيّاً بذويه مُشتملاً على الدّاني والقَاصي من بَنيه ؛ إن كان عَمّي ، مُعَظِّمُـك ، كان ـ رحمـهُ الله ـ قـد مَضى لسبيلـه ، وانْقَطـع السّبب في

(٤) الأليّة : اليمين .

(٥) يقال : رَبَّ الولد أي وليه وتعهّده ورعاه .

[٢٩]

(☆) رسالة من الكاتب إلى عمّ آخر له ، يخبره بوفاة عَمّه شهيداً ، ويفيده بما كتب بـه إلى أمير المسلمين ـ علي بن يوسف بن تاشفين ـ مستأذناً للّحاق به . (انظر القطعة : ٢٨) .

قلت : كأنّه يواصِلُ بهذا مهمّة عمّه من الخدمة السُّلطانية في الدِّيوان .

(١) الوزَر : الجبل المنيع يُلجأ إليه ، ثم قيل لكل معقل ؛ ومنه الملجأ والمعتصم .

تأميله ؛ وخَلّى عَليّ مكانَه ، فقد خَلّى لي أعمامي إخوانَهُ ؛ وعَهِد إليّ أن أفزعَ إليهمْ عندَ فَقْدِه ، وأَلجأَ إلى ماذخر لي مِنهم مِن بَعده . وها أنا قد احتسَبْتُ عند اللهِ فقْدَه ، وامتثلتُ عَهْدَه . وأنتَ ـ أدامَ اللّهُ سَعْدَك ـ أكرمُ من أَعدّه وأورثني وُدّه ، وأَعلقني سَببه الكريم ومجده ، وقد خاطبتُ أَمير المسلمين وناصر الدّين ، ملاذَ الجميع فَسح الله عُمره وأَصْحَب التّمكين [٢٠/ب] والجَدَّ الْمُعين أَمْرَهُ ، راغباً في إذنه العَالي لأَلْحقَ بِحَضْرَتِه ، وأَتشرّفَ بقضاءِ حَقّه ، وأفوزَ بموفّق رَأيه ؛ ووَجب التَّيُّن بمشهدك ، والتعرُّض إلى شُكر عارفتك الجميلة ويدك ؛ وإن أَذِنَ اللّهُ سُبحانه ثم أميرُ المسلمين ـ أيّدهُ اللّهُ ـ بوصُولي ، خَرجْتُ إليك عن جَميع جُمَلي وفُصُولي ، وشدَدْتُ بكريم سَعْيِكَ فُروعي وأُصولي ؛ واللّهُ ـ جَلّتْ قُدرته ـ يُبقيكَ للأَولياء وَزَراً ، ولا يُجرِي عَليكَ إلا بالْحُسْنى قَدَرا ؛ بعِزّتِه وقُدرته .

[٣٠]

ولَهُ(☆) ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ :

ياعِمادي الأَعظم ، وعَلْقَ ادّخاري الأَنظم ، ومَحَلّ استِظهاري الأَكرم ، الّذي لاأَعْدِلُ به جَليلاً ، ولا أجِدُ لسُنّة بِرّهِ تَحويلا ؛ لازال فَضْلُكَ يسعُ

---

[٣٠]

(☆) رسالة إلى صديق للكاتب فيها إشارة إلى أكثر من رَجُل لملابسات مختلفة . ونلاحظ في النّص إشارة إلى الأحوال المضطربة في شرق الأندلس ، حيث كانت للمرابطين حركات ضد القشتاليين ، والمرتزقة الذين يحتمون بهم .
ـ واقتبس الكاتب من الآية ٤٣ من سورة فاطر ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيْلاً ... ﴾ الآية .

الإخوانَ ، وحلمُكَ يزعُ الزّمـان . إن حَمَلتني ـ أعزّكَ اللهُ على سَنَنـك[1] ، وطـالَبْتَنِي بِمثـل مُنَنِـك ؛ أَسلَمْتَني إلى الانقِطـاع[2] ، وكلّفتني غيرَ الْمُستَطاع .

وتَوالتْ لكَ عِندي كتبٌ كريمةٌ خطيرةٌ ليست من سِيادتك ببِدع ، ولا تُرامُ عَزيمتُك فيها بِرَدْع ، فَواصلْتُ الاعترافَ بِنُعماها ، وكلّفتُ الشّكر شَأوها الأبعدَ ومَداها . ولئن استَبْطأتَني في الْمُراجعة ، وعَنّفْتَني على تـأخيرِ الْمُطالعة ، فيعلم اللهُ ـ وكفى به[3] ـ أَنّي لاأعتمـدُ ذاكَ ، ولا أَهوى خِلافَ هَواك ؛ لكنّي مَدفوعٌ إلى أَشغالٍ ساهرة ، وهُموم مُستكنّة وظـاهِرة ؛ من أَدهاها وأَمَرِّهـا ، وأَحماهـا وأَحَرِّهـا ، مـا حَلّ بـالشَّرقِ ـ عَصمَـهُ اللهُ ـ من فَرَق ، وعَمَّ الجزيرةَ من غُصَصٍ بهـا وشَرَق ، ومـلأَ القُلـوبَ من الْمَخـافـةِ اللاّزمة والفَرق ؛ وهذه حالٌ تُذْهِلُ الخليلَ عن خَليله ، وتُزيلُ الهـامَ عن مَقِيله . ولو نظَمَتْنا الْمُشافهة في سِلكها ، وجَمعَتْنا يدُ القُرب في ملكهـا ، لصَقلنا الرَّأي بالرَّأي في التماسِ نَجاةٍ ، ورُكوب ماءٍ أو مَوْماة[4] ؛ وما بي إلاّ هـذا المنتشب الـذي أُودى بـه العيش والنَّشب ؛ ولـو قـد ملكت وَسَنِي

---

(١) السَّنن : الطريقة والمِثال .

(٢) استفـاد الكاتب من عبـارات وردت في قصيـدة لقطري بن الفجـاءة (شعر الخوارج : ٤٢ ـ ٤٣) كقوله : وتُسلمه المنون إلى انقطاع ، وقوله : فما نيل الخلود بمستطاع .

(٣) أي : وكفى به شهيداً .

(٤) الموماة : الأرض الفلاة الواسعة . والماء هنا : البَحر . أي لقصد إلى المخاطب بَرّاً أو بحراً .

لخلعتُ رَسَنِي[٥] ، وجهــدْتُ أن أختم في ﴿ أوّل بيت وضـع ﴾ عُمُري وزَمني ؛ فأَنْجِدْنِي ـ أعَزَّك اللهُ! ـ بدعوةٍ تُعين ، وترقُّ بهـا القُلوبُ وتَلين . ومَنْ عَـذِيري[٦] [٢١/أ] من (فُلانٍ) وهو بـه على الكرامـة ، وتَلظّيـه[٧] من طُولِ الإقـامـة ؛ وكتمانِـه لِرحلتِـه التي لاتشـقُّ على النَّـواظِر ، ولا تُعلم بالخَواطر ، وتسحَبُه هناك على جهتي ، ونَحته لأَثلتي[٨] ؛ وسأُعرض عنـه إعراضَ الكريم ، وأتركُ بينه وبين ذلك الخُلقِ الذَّميم .

وفلانٌ يُعلمك بجليَّةِ أَحوالِه ، وصورة مقامه واحْتِماله . وأمّا بِـدَاري[٩] إلى مـا يعِنُّ[١٠] من شَفَـاعـاتِــك وأَهـوائـِـك ، ويعرِضُ من أَغراضِــك ، وأَنحَائك ، فعلى أَتمّ ماتَقْتضيه المصافاة ، وتُوجِبُه المُوافقة والموَاتاة[١١] .

وفلانٌ يَقِفُـكَ على الأُمور ، ومـا أَنهضُ فيـه نهوضَ المشكـور ، أَو أقِفُ عنه وقوفَ المعذُور ؛ إن شاءَ الله .

---

(٥) الرسن : الحبلُ تقادُ به الدابة . ولكنهم قالوا : خلع رسنـه ، وخلع عـذاره إذا دخل في البطالة أو تمادى فيه . واقتبس الكاتب من الآية ٩٦ من سورة آل عمران .

(٦) أي : مَن يعذرني .

(٧) معنى تلظّى في اللغة : توقّد .

(٨) الأثلةُ : اسم لشجرة (نوع من الشجر) ، ويقال على وجـه من المجـاز : نحت أَثلتـه إذا تنقّصه .

قال الأعشى :

ألستَ منتهيـاً عن نحت أثلتنــا ولست ضائرها مـاأَطَّتِ الإبلُ ؟

(٩) بادر بِداراً ومبادرة : أَسرع .

(١٠) عنَّ له الشيء : ظهرَ أمامه أو عَرَض لفكره .

(١١) وقف فلاناً على الأمر : أطلعه عليه . والمواتاة : الموافقة .

[٣١]

ولهُ ـ رحمةُ اللهِ عَلَيهِ ـ (☆) : [من الكامل]

١ أَشكُو إليكَ بغائبٍ لا يقدَمُ ... وصَبابَةٍ من ذِكْرِه لا تُعْدَمُ
٢ كَلِفٍ بِمَطْلِ زيارةٍ موقوتةٍ ... من دُونِها للبُعدِ بابٌ مُبْهَمُ
٣ أَطلقْ مطيَّتَهُ وخَلِّ سَبيلَهُ ... ودَعِ الوُشاةَ لِسُوءِ ماتتوهّمُ
٤ أنّى تحيدُ عن العَلاء وأنت مِنْ ... شَرفٍ « من القَوم الذين هُمُ هُمُ »
٥ وأنا الّذي إن شئتَ وصْفَ مودَّتي ... لم آتِ منها بالّذي لا تَعْلَمُ
٦ وإن اقتصرتُ فقد كَفاني وَصْفها ... بَيْتٌ عليَّ من اللّيالي مُعْلَمُ
٧ وقفَ الهَوى بي حيثُ أَنْتَ فليسَ لي ... مُتأخَّرٌ عنهُ ولا مُتَقدَّمُ !

[٣٢]

وله (☆☆) ـ رحمه اللهُ ـ :

عِمادي الأَعظم ـ أطال الله بقاءه ، ومَكَّن عَلاءه ـ كالكوكبِ الوَقّاد ، بعيد الهِمّة في الانتقاد إذا رازَ النّاس الأَشياء ، وسافَها[1] أَحبَّ معاليها

[٣١]

(☆) قطعة وطّأ بها للبيت الأخير (السابع) وهو لأَبي الشِّيص الخُزاعي (ديوانه : ٩٢) .

١ ـ لم أجد من عَدّى (شكا) بالباء .

٢ ـ يُقال : أبهم القفل ونحوه أي أغلقه فلا يُهتدى لفتحه .

٤ ـ قوله « من القوم الذين هُمُ هُمُ » مأخوذ من قول أبي الطّمحان القيني :

وإنّي من القومِ الّذين هُمُ هُمُ ... إذا ماتَ منهم سَيّدٌ قامَ صاحِبُهْ

[٣٢]

(☆☆) رسالة إلى صديق له نظرٌ على بعض المهامّ ، يُوصي برجل وصفه ، ووصف صَنعته .

(١) سافه : شَمّه . والسَّفساف : الرديء ، والأمر الحقير . ورازه : جرّبه واختبره .

وكرِهَ سَفْسافَها ؛ فكأَنّه هنديٌّ في حِكمته ، صينيٌّ في هِمّته ؛ لا يَقْبَلُ إلاّ الإبريز[٢] ، ولا يَرْضى إلا السَّبق والتَّبريز . ولقد أفادَني بالتّكرار ، ومُشاهدتِه في هذهِ الآثار ؛ شيمةً من شِيَمه ، وإن لم أبلُغ قطرةً من دِيَمِه ؛ فصرت لا أمرّ باللّحظةِ إلاّ محصّلا ، ولا أُرسِلُ القَوْل إلا مُستقرّاً مُتَأَصّلا ثم سَرى ذلك [٢١/ب] في خُلُقِي ، وانبثّ يَميناً وشمالاً في طُرقي ، فإذا ظفرتُ بإنسانٍ ذي إحسان وإمعانٍ في شَتّى مَعان ؛ ميّزتُه من قومه ، وأحرزتُه ليومه . وإذا كان الإتقانُ مَطلوباً ، والإحسانُ على كل شَيءٍ مَكتوباً[☆] ؛ فَلِمَ يقنعُ بغير مقنع ، ويتنكّبُ بالصَّنيعة طريق المصنع ؟ ولا خيرَ في شأوٍ إذا أنضجَ رَمَّد[٣] ، وإذا سَها في إحراقٍ تَعمَّد ، ومَنْ كان على ضدّ هذه الصِّفةِ وارتَسم بالأَخلاق المُنصفةِ ، وكان في إنضاجه مُشيحاً ، وعلى أَمانتِه شحيحاً ؛ نارهُ لا تَعدُو على قِدر ، ولا تَتجاوزُ قَدْرها في كل ذي قدْر ؛ قَديرُهُ[٤] لا يخرُجُ عن تَنُّوره إلاّ بنُوره ؛ كخدودِ العَذارى أَبْرزَها عَجل ، فَطرّزَها خَجل ، ومشويّاته تنشُرها الأَوهام ، وتَبرَأُ منها العِظام ؛ سكَن لها اللَّهب بعدما ثار ، ووكل بها الأُوار[٥] ؛ فسَرى في الضَّمائر واطلع على السَّرائر ، وجَرى في الباطِن والظَّاهر ، وانقاد لربّه

(٢) الإبريز : الذهب الخالص .

(☆) في الحديث : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه (رواه البيهقي) ؛ وإن الله كتب الإحسان على كل شيءٍ ... الحديث . (رواه مسلم وابن ماجه والدارمي) .

(٣) رَمَّد الشواءَ ونحوه : أصابه بالرَّماد . وفي المَثل : شوى أَخوك حتى إذا أَنضجَ رَمَّد ، يُضرب للرجل يَعُود بالفساد على ما كان أَصلحه !

(٤) القدير : ما يُطبخ بالقدر ، أو ماطبخ من اللحم بتوابل .

(٥) الأُوار : حرّ النّار ووهجها .

الماهِر ؛ فلولا رَشْحٌ تعلَّق ، وتنقّش وردهُ وخَلّق ؛ لَجُهل تَناهيه ، ولم يَبْـدُ أثرٌ للنّار فيه . وأَما قَديرُه ، فقـد اكتَنفـهُ تَقـديرُه ، واشتمل عليـه حِفْظُـه وتَدبيره ، وتناوله تَقْديمُه وتأخيرُه . فإذا بلغ إناه[٦] ، وجاءَ على ما يَشتهيـه الآكلُ ويَتمنّـاه ، أطلعَـهُ لِتَمامِـه ، كالنَّور في أكمامـه ، والعتيـقِ البـالي تحت خِتامه . فَكأَنّهُ مُحصي دقائق وسـاعـات ، ومُعَـدّلُ مَوالِـدَ[٧] وأَوقـات ، أو مُتَحرّي فَرْض أَو أَخْـذِ نَبْض[٨] . إن قَرْطَسَ سهمُـه[٩] ملَـك ، أَو زَلَّ وَهْمُـه[١٠] أَهْلَـك وهلـك ؛ لكن في ضَميرِه المحتَـدِمِ أريجُـه[١١] ، إسطِرلابُـهُ وزيجُه[١٢] .

وفلانٌ مُؤَدّيها ـ سَلّمه اللهُ ـ الْمُشارُ إليه بهذا الحِذق ، والمصرّف لهـذا

---

(٦) أنى يـأنِي إنىً : حـانَ وأَدرك . وفي سورة الأحزاب ٥٣/ ﴿ إلاّ أَن يُؤذَنَ لكم إلى طعـامٍ غير ناظرين إناه ﴾ أي إدراكه ونُضجه . والقدير : ما يُطبخ بالقِدْر ؛ وعنى الطَّعامَ .

(٧) مـوالـد جمع مـولـد ؛ يعني معرفـة رصـد الهـلال وتعيين ولادتـه (حيث يبـدأ الشهر القمري) .

(٨) شبهه بعـددٍ من الـذين يـدققون في صنـائعهم : الموقّت ، والفلكيّ ، والفـارض (العـالم بالمواريث) ، والطبيب .
ـ والمقصود بـالموالـد : مـولـد الهـلال (ويـدقـق فيـه لإثبـات بـدايـة الشّهر القمري : الهجري) .

(٩) قرطس : أصاب القرطاس وهو كل ما يُنصب للنّضال (كالدريئة) .

(١٠) زلّ : مَرّ سريعاً .

(١١) احتدمت الحرارةُ ونحوها : اشتدّت .

(١٢) الإسطرلاب : جهاز استعمله المتقدّمون في تعيين ارتفـاع الأجرام السّماويـة ، ومعرفـة الوقت والجهات الأَصليّة (الوسيط) .
ـ والزّيج : كتابٌ يُحسب فيه سير الكواكب ، ويُستخرج التقويم سنة فسنة .

اللَّطَفِ والرِّفق . غيرَ أنه يشكو عبئاً فَسخه ، وثابتاً من الخرج قد نسخه . وعنده بنَظرك الجميل عُدّة يؤمّل بمكاني إحرازَها ، ويَحْدُو بلساني إنجازها ؛ فأرِه حَقيقَتها ودَعْ مَجازها .

والله ـ عَزَّ اسمُه ـ يُبقيكَ مالِكَ المَعالي ومُحتازَها[١٣] ، ويخلعُ عَليك المحامدَ وطِرازَها . والسَّلام عليكِ ماأدرك السَّابقُ غايةً وحازَها ، وغالت المطيُّ غولَها [٢٢/أ] ومَفازَها[١٤] ، وقطعت إلى البَيْتِ العَتيقِ[١٥] نِياطَها وأَجوازَها[١٦] . إن شاء الله .

[٣٣]

ولهُ[☆] ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ :

سيّدي وكبيري ، المخصوصُ بتوقيري ، المعظَّمُ في خَلَدي وضَميري ؛ الذي أستديمُ بقاءَهُ ، وأقترحُ على الأيّام قربَهُ ولقاءَه ؛ لا زلتَ في أفسح مَهلٍ ، وأسْمَحِ أملٍ ، وأنجح مَسعى مَبرورٍ وعَمَلٍ . ما ألتزِمُه ـ أعزَّكَ اللهُ ـ

---

(١٣) احتاز الشيء (وحازه) ضمّه إليه .

(١٤) الغَوْلُ : بُعد المسافة . والمفازَةُ (بالهاء) : الصَّحراء ، وكلُّ قَفْرٍ .

(١٥) إلى الكعبة المشرّفة . (وما يلازم ذلك من المسجد الحرام والمشاعر) .

(١٦) نياط (جمع نيط) : العرقُ المعلق به القلب . أَجوازها ج جوز وهو الوسط ، ومعظم الشيء .

[٣٣]

(☆) رسالة فيها جواب عن رسالة بعث بها من يوقره الكاتب . يستريثه في إرسال رجل سقط اسمه من الرّسالة إلى أن يوافي الوالي الجديد . وكان الرجل المطلوب إنفاذه في (خدمة) الكاتب ابن أبي الخصال أو معيّته .

من بِرّك وإجمالِ ذِكرك قد أَحطتَ بهِ خُبْراً[1] ، وبلوتَهُ سِرّاً وجَهراً ؛ والله لا يسلّط عليه زمَناً ولا دهراً بعزّته .

وتأدّى كتابُك الخطير بمعهود أنسك ومبلغ ذلك الألم الْمُطيفِ من نفسِك ؛ ورأيت ما أَشرتَ إليه من لحاقِ (فلان) بكَ لتخصّه بوصيّة ، وتغتنم ما في عُمُرك نَفَّسَهُ اللهُ من نَساءٍ[2] وبقيّة ، وكان مَذهبي أن أُوْثرك على نفسي بدنوّه ، وأُعينه على ما يأطرهُ من حَنينه اللاّزم وحُنوّه ؛ لأنّي وإن تَبَنَّيْتُه وطاولتُ الأمل فيه وتأَنَّيتُه لا أرى إمساكه إلا مَعَقّةً ، كما أرى مُفارقته في هذا الوقت مَشَقَّة . لكنه بفضل وفائه وحُسْنِ صَفائه رأى الإقامةَ إلى أن يَصِلَ والي الحَضْرة ، وينبلج ـ بِحَوْلِ اللهِ ـ أمرنا معه . وعند ذلك ينفذُ سَريعاً ويُصبح شَمْلُك به جميعاً . والوالي قريبُ الورود ، راكبٌ من إغذاذه للبَريد . واللهُ بفضله يجمعُ له بين الطَّرَفين ، ولا يُخليه من توفيةِ الْحَقَّين . بعزّته وقُدرته .

[٣٤]

وله[☆] ـ رحمهُ اللهُ ـ :

سَيّدي الأعلى ، وعَتادي الأزكى ، وعِلْقِيَ الأَنْفَس الأَسْرى ومعتَمدِي

---

(١) اقتباس من الأُسلوب القرآني .

(٢) النّساء : تأخر العمر وطول البقاء (مصدر) .

[٣٤]

(☆) رسالة يتوسط الكاتب فيها لفارس مجاهد ، لِيُعطى فَرَساً ، من الخيل الموقوفة من أهل الخير .

الأكبر الأقوى ؛ ومَنْ أطال اللهُ بقاءَه للْحَسنات يَبْتَنيها ، والصالحات ينافِسُ فيها ، ويضَعُها عند أهليها .

كتبتُ ـ أعزّك الله ـ عن مَعْهُودِ الإكبار ، ومألوف الإعداد والاستظهار بصيرةٌ لا تلفت ، وسريرةٌ لا تزال نَحْوك تتلفَّت . ومُؤدّي هذه الرُّقعة فلان أَقْعَدَتْهُ ـ وهو من كبارِ الفُرسانِ وذوي البَسالة في مُلْتَقى الأَقران ـ عُطلة ، وثَبَّطتْهُ عن مجالِ الخَيل رُجْلَة[1] ، [٢٢/ب] وصَحّ عندنا ما أوصى به فُلان ـ رحمه الله ـ في هذه السَّبيل . وهو ـ أعزّك الله ـ مِمّن يجبُ حمله على فرسٍ ظاهرٍ ليتوصّل به إلى نِكاية العدوّ ، ويوردَهُ مَوردَهُ من الغَارات يشنُّها عليهم ، والبَلايا يُزْجِيها إليهم . وأنت بطَوْلِك العَميم ، وفَضلك الجَسيم تَرْعى رَغبتي فيه وشَهادَتي له . وتَثنيه على ما يُرضيه ويُرضي فيه . مُوَفّقاً إن شاءَ الله .

[٣٥]

وَلهُ(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ :

أَطال اللهُ بَقاء الأَمير الأجلّ مَوْلى الإنعام ومُولي المِنَن الجِسام ، منصورَ الأَعلام ، مَبرور النُّفوذ في سبيله والإقدام ؛ ولا زال يَصْدُر عن مواطِنه

(١) الرُّجلة : شدّة المشي .

[٣٥]

(☆) رسالة يُخبر فيها الأمير بنجاز ما أوكله إليه من مهامّ سلطانية . وفي الرسالة إشارة إلى ما كانت تعاني منه منطقة سرقسطة (قبل سقوطها) . وسيرد حديثٌ عنها .

راضياً ، ولِحُقوق الله فيا قلّده قَاضياً ؛ كتبتُ من حضرتِه الآمنة بظلّه ، السّاكنة بِعَدْلِه ، الجانحة إلى فَضلِه . والدُّعاءُ له من الْجُمهور مُتَوال ، والنّداءُ إلى الله ـ سُبحانَهُ ـ في مظانّ القَبُول عَال . واللهُ يجيبُ فيه صالحَ الأَدْعية ، ويَثنيه مُظَفَّر الأَلوية ؛ بعزته وقدرته . وما تركَه ـ أيده اللهُ ـ بيد العمل ، وحَصَرني فيه إلى حدّ النّجاز والعَجل . كالكراء على المِيرة[1] وواجب الفُرسان ، وما يتّصلُ بِهذا الشّان قد كمل على أتمّ ما يَرْضَاه ، وجَرى حسب ما يهواه ، وصحبتنا عادةُ يمنِه في تَقضّيه وبلوغ الغاية فيه .

والحمدُ لله واصِباً على ما يُيَسّره من إرادته ويُسَنّيه[2] ، ولزِمَ أَعلامُه ـ أَيَّدهُ اللهُ ـ ليصدر رَخِيَّ البال من هذه الأَعمال ، شاكرَ اللهِ على ما خلفَهُ بِهِ من النُّجح والإقبال . ولا جديد إلا ما خامَر النُّفوس من الْجَزع وتَداخلها من الرّوع والفَزع ، بما ورَد من جِهَة سَرَقُسْطة[3] ـ ثَبَّتها الله ـ فهو مُهِمّ قد غَلب على الأَفكار ، وأَخذ بالأَسماع والأَبصار . وإلى اللهِ

---

(١) المِيرة : الطّعام (المؤونة أو التّموين) .

(٢) وصب : لزم ، ودام ، وثبت . وسنّى الأمْرَ : سَهَّله .

(٣) سرقسطة : من مدن شرق الأندلس ، في الشّمال ، وتُعرف بالمدينة البَيْضاء . فتحت سنة ٩٤ هـ واستمرّت في ظل الدولة الأمويّة . وفي مدّة دول الطوائف دَبّر أُمورها ـ وما تبعها من الأراضي ـ أسرة التُّجيبيّين . ثم آلت إلى إدارة المرابطين المباشرة منذ سنة ٥٠٣ هـ . وسقطت المدينة نهائياً سنة ٥١٢ هـ . وينتسب إلى سرقسطة عدد جمٌّ من العلماء والمحدّثين والأدباء فيهم محدّث الأندلس أبو علي الصَّدفي (ابن سكرة المستشهد في وقعة كتندة سنة ٥١٤ هـ) .

(معجم البلدان ٣ : ٢١٢ ، والروض المعطار : ٣١٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية ١١ : ٣٦٧) .

الضَّراعَـة في كَشفِ البَـأسـاء ، وقَمْعِ الأَعـداء ، وحَسْمِ الـدَّاء ، ودَفْعِ مُتَوقَّعِ البَلاء ؛ فهو وَلِيّ النَّعماء ، وأَهلُ العَفو والإعفاء ؛ لا رب غيره .

[٣٦]

ولهُ(☆) - رحِمَهُ اللهُ - :

يـا سيّـدي الأَعلى وأَملي المُجتلى وظلّي المُستَـذْرى ، ومِجَنّي الـذي لا يُقَطّ(١) ولا يُفْرى ؛ ومَن أَطال اللهُ بقاءَهُ : آهِلَ المَنازِل والحِمى ، مُخْضَرّ المعاهـدِ بـالمكْرُمـات [٢٣/أ] والنَّـدى . لاتُعمر - أَعَزَّك اللهُ - سـاحـةٌ إلاّ وعَليها مِن جَمالك المُشرِق لِباس ، ولَها من ذِكرك العَبِقِ نَفَحاتٌ وأَنفاس ، وحَديثُ فضلٍ يتناوَلُه بعدَ ناسٍ ناس ؛

واللهُ جَلّت قُدرته يُديم بك إمتـاعَ الأَيّـام ، ويُبقيـك غُرَّةً واضِحـةً في الكِرام ، وعَلماً سامياً على الأَعلام ؛ .

ومِمّن صَدر عن منـاهِلـك الرَّوِيّـة مصـدوراً بـالإحسـانِ فنفَث شـاكراً مَغْمُوراً بالامتنان . فانبعث مُتحدّثـاً بـهِ ذاكرا (؟) فـإنّـه قـام بـأيـاديـك خَطِيبا وامتدّ في مَعاليك مُطنِباً ومطيبا ؛ فما تَركَ لقائلٍ مَقـالا ولا غـادرَ لجائلٍ مَجالا ، وعلى ذلك فإنّهُ استَقْصَر باعَهُ ، واستَبْطأَ تقدُّمَه وإسراعَـهُ ،

---

[٣٦]

(☆) رسالة من الكاتب إلى رجل ذي شأن يخبره فيها بمشاركتـه في مقـام ، قـام فيـه أحـدهم بالثناء عليه ، ثم استظهر بالكاتب ابن أبي الخصال ، فشارك في ذلك المقام .

(١) القطّ : هو القطع عامّةً ، أو القطعُ عَرْضاً .

(؟) كأنّ في الكلام اسماً أسقطه الناسخ .

فاستظهر بِمَكاني ، واستعارَ لشكرك ـ ولا فضل فيه عنهُ ـ لساني ؛ .

فلزمَ الاحتمالُ على رسمه ، والذّهابُ مع رِضاهُ وحُكمه ؛ عالماً أنّي ماقَضيتُ فَرْضاً فأتَنفَّل ولا وردت نَهلاً فأتعلّل ؛ . وأنت ـ أيّدك الله ـ تُوسعُ لأَوليائك التّأويل ، وتقبلُ عنهم بدلَ الكثيرِ القليل . لا زالَ رَبْعُكَ مُسْتَلماً ، ومنهجُ وافِديك أَمَماً ، والمجدُ إليكَ مُسَلّما ، بِحَوْلِ الله .

[٣٧]

وله(☆) ـ رَحِمَهُ الله ـ :

أطالَ اللهُ بقاءَ شَيخي وكبيري الذي أَلتَزِمُ له تَوقيرَ الوَالد . وأبوءُ بحقّه التّالد وفضلِه الدّائم الخالد ؛ ولا زال للعلمِ يمنَحُ أَعلاقه ، ويفتَحُ أَغلاقه ، ويُوَفّي الله سُبحانه فيه عهده المَأخوذ عليه ومِيثاقَه .

كتبتُ ـ أدامَ اللهُ عِزّك ـ عن غايةٍ في برّكَ لاتُدرَك ، ومحلٍّ من تَوقيرك لا يُنازع ولا يشترك ، وشعبٍ في التَّحَفّي بجانبك لا يُسلَكُ ولا يُطرق .

وإنّي ـ وقد بَذذتُ السّابقين شَدّاً ، وفُتّهم في هٰذا المِضمار جِدّاً ـ لأَشكو تَقصيراً يلزمُ الخَجل ، وفُتوراً قد قضّ عليّ[1] وأسجل ؛ فلا مَنْهَضَ

---

[٣٧]

(☆) رسالة في موضوع إنفاذ شفاعة .

(١) قضّ ، يقال : قَضّ عليه المضجع : نَبا .

بِواجباتـك ولا كِفـاء لِحَسنـاتـك ؛ وحَسبي أنْ أَكِلَهـا إلى اللهِ تَعـالى ، فهو عليها أَقوى وبها أَملى[٢] .

وتـأدّى الكتـابُ الكريمُ الـذي صـدَر عن وُدٍّ أُسِّسَ على التَّقـوى وشُـدَّ بالصَّفاء ، وأُكِّد بـالتَّعهُّـد والاحتفـاء ؛ فلثمتُ من مَجْرى سُطوره ومَسقـط فِقَره وشُـذوره يـدكَ الْمُفَـدّاة ، وشِيَمـك المعسُولـة الْمُستَهـداة [٢٣/ب] وتَيسّرت في أَمر المَشْفوعِ لَهُ (فلان) إلى مـا يَقْضِي الـذِّمـام ، ويُحْمَـدُ بـه هذا الإمام ؛ على مـا في الأَحوالِ من تقَلُّص وتعـذُّر ، لا يُفْضِي مع الإخوان إلى تخلُّص . ومن اللهِ جَلّت قُدرَتُه أَستوهِبُ أَنْفُساً حالُها يفضي بِرضـاهُم ، ويُغني جانب تأميلهم وهواهم ؛ بعزّته وقُدرته .

[٣٨]

ولَهُ(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

تَحقَّقْتُ بِما لا مَدْفَع فيه ، ولا شُبْهَة تُعارِضُه وتُنافيه ، أنَّ ذلكَ الرَّجُلَ السَّرَقُسطي[١] ـ وقـاهُ الله ـ قـد وَصَـل ، وكنتُ مشتغـلَ البـالِ بِغيبتـه ، مُشفقاً من طُولِ احتباسِه حَذِراً من خَيبته ؛ فـأُعلمتُ أنّـه عـادَ بمـا شَـاء . ووَقاه اللهُ ماساء .

---

(٢) كذا بالمقصورة ، وكأنها من ملؤ ، أي : هو أَقْدرُ على المكافأة .

[٣٨]

(☆) في التوسط ـ عند رجل مجهول ـ لأحد أبناء مدينة سرقسطة .

(١) السرقسطي نسبة إلى مدينة سرقسطة (انظر حواشي القطعة ٣٥) .

وتَطلُّعي إليه لاأَحُدُّه ، وشَوقي لاأَملِكُه ولا أَرُدّه ؛ وأَنت إن شاءَ اللهُ تُعينهُ على الصِّلةِ ولا تَرُدُّه ، فَوُدُّه وُدّه !

[٣٩]

ولهُ(☆) ـ رحْمَةُ اللهِ عَليه ـ :

هذا الشّهر ـ أَيَّدك اللهُ ـ موسم الحسَنات ومطلع مبارك الدّعوات ؛ فالإجابة فيه قريبة ، ومظانّ القَبُول فَسيحةٌ رَحِيْبَة . وكُلُّنا ـ أعزَّك اللهُ ـ في الدُّنيا مُعْتَمِلٌ ، ولتكاليفها مُحتمل ؛ فهل لك في مَسرّةِ باكٍ ، وتوجيهِ عملٍ زَاك ؛ وحَمْلِ رَجُلٍ حَطّه الإملاقُ وأَقعَدهُ الإخفاق ؛ وتدارك رمقٍ خافتٍ وطرفٍ باهت ؟

نعمْ ! حامِلُ هٰذه الرُّقعة ـ جَبره اللهُ ـ له أطفالٌ لا يجِدُ لهم ذَواقاً[1] ، قد مَدُّوا إليه أَعناقاً وأَحداقاً . وها هو قد بَلّح[2] ، والدّهرُ في منعهِ قد جَلّح[3] ؛ وله نُبلٌ ومعَه عَقل . ورغبتي لهُ ـ ولا يَتّسعُ الوقتُ لغير ذلك ـ

---

[٣٩]

(☆) يتوسّط لرجل ليكون وكيلاً في إحدى الطّواحين (الملحق بها مخزن للدقيق ونحوه) .

(١) الذوّاق : الْمَذوقُ من مأكولٍ ومشروب ؛ يُقال : ماذقتُ ذَوَاقاً ، أي : شيئاً .

(٢) بلّح : أعيا .

(٣) جلّح : صمّم ، وأقدم .

أنْ يكـونَ للفـارِ أَكِيْـلا[٤] ، وفي إحـدى الأَرحــاء[٥] وكيـلا ؛ فَيقرب من الحِنطة ، ويُمسي ويُصبح في غِبطة ؛ ويُهيلُ في جِرابه ، ويأتي الرّزق من بابه ؛ فإن رأَيتَ أن تُبرمَ قضيّته ، وتُنفِذَ وَصِيّتـه قـدَّمْتَ إلى اللهِ سُبحـانـه عَملاً تُفتح لهُ أبوابُ الثَّواب ويَرْتَقِي في الأَسباب ؛ إن شاءَ الله .

[٤٠]

ولَهُ[☆] ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ :

أطـالَ اللهُ بقـاءَ الرّئيس الأَجلّ ، الفقيـهِ الأَفضـل ، الْمُعمّ الْمُخْـول ، الكريمِ الْمُفضـل ، الْمُحسِن الْمُجمـل ؛ مشرقـةً كـواكبُ سَعـدِه ، مُتّسقـة مَراتبُ مجدهِ ، منطلقةً ألسِنَةُ شُكره وحمده .

ولا زال إقبالُه يَستخدم الأَقـدار ، وعُمرهُ [٢٤/أ] [يفرعُ] الأعمـار ، وخَطرهُ يَستغرقُ الأَخطار .

انقِطاعي إلى نِعمته ، وارتسـامي بخِـدمتِـه ؛ وتَشرُّفي بنـاديـه وتَصرُّفي بين يَديْ أَوامِرهِ ونَواهِيه ، قد غَنيتُ عن تجديدِ ذِكرٍ فيه .

---

(٤) كناية عن عمله (المقترح) في حراسة الأَهراء (مخازن الْحَبّ) .

(٥) الأَرحاء جمع الرَّحى : حجر الرّحى المستـدير الـذي يُطحن بـه . ويسمّى المكان بـاسم الآلة فيقال قصدتُ إلى الأرحاء .

[٤٠]

(☆) يستنجزُ وعداً بإلحاقه في الدّيوان .

والله جَلّت قُدرته يُعين على ما افْتَرضهُ لـه من حَقّ الطّاعـة ، ويُمْنٍ بإنهاضِ الْمُنّة[1] والاستطاعـة ؛ وسلَفت لي منـهُ ـ أيّـدهُ اللهُ ـ عِدَةٌ كريمـةٌ اضطرّتني الحال إلى إحرازِها ، والتذكير بإنجازها ، لاسيّما وعندي في ذلـك عهدٌ مِنه ـ أيَّدهُ الله ـ ماضٍ ، وأمرٌ عزيز يبعثُ على هَزٍّ وتَقاض[2] ، أَنهاهُ إليَّ فلانٌ قُبَيْلَ حَركتـه ، فـإنّـه قـال لي : إنّـه أَجرى مـع الرَّئيس الأَجَـلّ ـ أيَّده اللهُ ـ ذِكري ، وباسَطَهُ في أمري ؛ فوعَد بما يُشبهُ هِمَمَه ، ويُشاكـه كَرَمَـهُ ، وقـال ليـذكرني ـ إن شـاء الله ـ فـأَخّرْتُ الأَمر على الضَّرورة الحافزة ، والحاجةِ النّاجزة ، إلى مِيقاتِهِ الـذي تُرجى فيـه الْمَسَرّة وتغتنمـه الذّرّة .

والرّئيسُ الأَجـلّ ـ أيّـدهُ اللهُ ـ يُنعم على عبـده بعطفـةٍ من عَطفـات مجـده ، وكرمِ عَهـده ، تُلحِقـهُ بسـائرِ من ثَبت في ديوانـه ، وجرَت عليـه جَواري إحسانه ، وآوى إلى رُكنٍ شديدٍ من إنعامه[3] ؛ وأَخذ بالْمُسـانَهـةِ[4] والكسوة أماناً من عَامِه ؛ لا زالَ آمِلُه مأمولا ، وسـائلُـه مَسؤولا ، وصعبُ الأَيّام لهُ ذَلُولا ، وصُنع اللهِ الجميلِ لَديه مُطَّرِداً مَوْصُولا ؛ إنْ شاءَ الله .

---

(١) الْمُنّة : القوّة .

(٢) الهزّ من قولهم هزّ فلاناً بالخير : حرّكه له . والتقاضي مصدر تقـاضى (الـدَّين والأَمر : طلبه منه) .

(٣) قولـه : وآوى إلى ركنٍ ... ، مقتبَسٌ من قولـه تعـالى [هود ١١/٨٠] : ﴿ قَـالَ لَو أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَو آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيْدٍ ﴾ .

(٤) الْمُسَانهة (على وزن المشاهرة) من السَّنة .

[٤١]

وَلهُ(☆) ـ رَحْمَةُ اللهِ عَليه ـ :

[السَّرِيع]

١ أَعْدَدْتُ للدَّهْرِ وأَحداثِه أَخاً أَراهُ في العُلا فَذّا
٢ إن شَذَّ مَعنًى من تَصارِيفهِ دفعتُ ما شَذَّ بما شَذّا
٣ لا خلفَ في ميعادِه إن يَعِدْ رأَيتَهُ من صِدْقِه أَخْذا !

[٤٢]

وله(☆) ـ رحمه اللهُ ـ :

أطالَ اللهُ بقاءَ شيخي الموقّر وإمَامي ، المحفوف بإكباري وإعْظَامي ، الموصول في سِلكه اتّسامي وانتِظامي ؛ والْمُلك بحِياطتِه مَشْدُودٌ ،

---

[٤١]

(☆) لعلّ القطعة ٤١ ، والقطعة ٤٢ قطعة واحدة .

٣ ـ من معاني أخذ : عاقب ، ومنه في سورة آل عمران ١١/٣ ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنوبِهِمْ ﴾ .

[٤٢]

(☆) رسالة إلى من دعاه (شيخه) يخبره فيها بإنجاز بعض الأمور . ويستطرد إلى مسألة بينه وبين رجل يعرفه (الشَّيخ) المذكور ، كان بينه وبين الكاتب جفاء .

والصَّلاحُ بإحاطتِه مَعقود ، ولا زال يستجدُّ رِفعةً وعَلاءً ، ويَستمِدُّ أَملاً دانِياً ورَجاءً ، ويَستمدُّ اضطلاعاً قائماً وغَناءً .

إنْ أخذتُ ـ أدامَ اللهُ عزّكَ ـ في [٢٤/ب] وصف ماأعتقده ، وشرح ماأتوخّاه من بِرّك وأعتمده ، وبَسط مأمَن الثّقة بِمَكانك ، والبَأْو[١] بخطير شأنك ، أجده . وقفتُ وُقوفَ الحَسير[٢] ، ولم أُحِط من ذلك مع الإسهاب إلاّ بالتّافه اليَسير ؛ فالاكتفاءُ إذاً بالإيماءِ أبلغُ من الأَداءِ ، وأسْوَغُ فيما بيننا من الصَّفاءِ . وإنّي لَمُتعلّقٌ بطرفٍ من العُقوق ومُخلّ ـ ولم أقصد ـ لِما يَجبُ لِمطالعتك من الْحُقوق .

وكم رُقعةٍ سَوّيتُها ، ونُكتةٍ في ذٰلك رَوّيتُها[٣] ؛ أَذهَلني الشُّغل عن إثباتِها وتَجهيزها لميقاتها فإن عَذل فمُصيب ، وإن عَذرَ فلي في العُذر نَصيب ؛ وتأَدّى الكتابان الْخَطِيران في جهة فُلان وفُلان ولا خَفاءَ بما لهما من نِصابٍ كريم ، وشَرف قَديم ؛ كما أنّ ما يَجمعهما بك ـ دام عِزُّك ـ من ذِمام تُرعى حُرمَتُه ، وترى قُرباه وسُهمته[٤] ؛ لاأَشذّ عنه ، ولا أَخرجُ منه ، اختِصاصاً بصُحبةٍ حَميدةٍ ، وجوامع من الوُدّ وَكِيدة . وسَأَبذلُ المجهودَ في أَمْرِهما ، وأَجري على العُسر واليُسر إلى بِرِّهما . ولا أَذخَرُ

---

(١) البأو : الفخر .

(٢) الْحَسير : المتعَب ، الْمُعيِي ، الكالّ .

(٣) سوّى الرقعة والبطاقة : جعلها سوية (وجهّزها للكتابة) . وروّى في الأمر : نظر فيه وتفكّر .

(٤) السُّهمة : القَرابة .

إمكاناً ، ولا أتركُ إسراراً وإعلاناً . فَأَمّا تلكَ النَّبْوَةُ الْمُتَخَيّلة بيني وبين فُلان فقد عَفا أَثرها ، وانطَوى خَبَرُها ، ومعاذَ اللهِ أن أَحتمل من تلك الْمُدّة حِقداً ، أو أُخلّ بهِ وقد أَجْمَع نَحوي قَصداً[٥] . ولو صَحّت لي في ذلك عَزيمة ، أَو بَقيت في الصَّدر سَخيمة[٦] لاستَلّها بيانُك ، وأتى على إساءتها إحسانُك ؛ فكيف وما تقلّدتُ في جهتِه ضِغْناً ، ولا سُؤتُ به ظَنّاً ؟ واللهُ يعلم أنّ نادي الأذى ليس لي بنادِ ، ولا وَادي القطيعةِ لي بوَادٍ !

وهو ـ جَلّ جلالهُ ـ يُخلص ضَمائِرَنا ، ويُصلح سَرائرنا ؛ ويُجمل عُقْبانا ، ويَصْرِفُ هَمّنا إلى ما عَنانا ، بعِزّته وقُدرته .

ولي رغبة أبثّها ، وشفاعةٌ إلى مَجْدِك أَحُثُّها ، في أَمر (فُلان) قَديماً انقطعَ إليّ وعَوَّل عَليَّ[٧] ؛ أَستديمُ له بها سببَ الخِدمة ، وأَستمدُّ جاري النّعمة ، وأَن يكونَ منك في كنَفٍ سَعَةٍ وذِمَّة ؛ إن شاء الله .

[٤٣]

ولَهُ(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

أَطالَ اللهُ بقاءَ الوزير الأَجلّ السيّد الأَفضل غُرّة [٢٥/أ] الزّمان

---

(٥) أجمع الأَمر : عزَم عليه .

(٦) السخيمة : الحقد والضغينة (ج سخائم) .

(٧) هذا هو رسم العبارة . وأجد فيها ثقلاً .

[٤٣]

(☆) رسالة إلى أحد الوُزراء في جملة أُمور .

ولباب السَّادة الأعيان ، مضاعف جَلالةِ القَدْر والشّان ، باذخ علوّ المحل والْمَكان ؛ ولا زال يُسْدِي إحساناً ، ويَسعُ بني الرَّجاء تَطَوُّلاً وامتِنانا ؛ (فلانٌ) سَلَّمه الله ، منقطعٌ إلى جِهَتي ، معدودٌ في جُملتي . ومَن اتّصل هٰذا الاتّصالَ أدلَّ في رَغباته واستَطال .

وبين يَدي إبرامِك ، وبِصَدد قضائِكَ واعتِزامك هذا الغَرض الذي تُخشى وطأَتُه ، وتُتَسَمَّع على البُعد والقُرب نبأَتُه[1] ؛ ويجوب الأَرض لتخفيفِه ، وحَطّ ماتيسَّر من تكليفه ؛ ورغب التَّنْبيهَ على مكانِه منّي وحظّه عندي . وأنت بِطَوْلك تُوليه الجميل ، وتُخَفّفُ عنه ذلكَ العِبءَ الثّقيل ؛ لازلتَ تنعِشُ[2] العاثِر ، ويزوّدُ إجمالُك الواردَ والصَّادر بحول الله .

[٤٤]

وله(☆) ـ رحمهُ اللهُ ـ :

أطالَ اللهُ بقاءَ السّيد الأَوحد ، ذي المجد الأَتْلَد ، والنّجار الأَكرم ،

---

(١) النَّبأةُ : الصوت الخفِيّ أو الخفيف .

(٢) يقال : نعشه إذا رفعه بعد عثرةٍ .

[٤٤]

(☆) رسالة في شرح حال ابني عمّ ، ورفعها إلى أحد ذوي الشأن ممّن لأمرهما به تعلّق ؛ بعد مقدمة مطوّلة .

والسُّؤدد الأَقدم ، لتوفيقٍ يستمدُّه ، وصديقٍ يستجِدُّه ؛ وثناء يستفيده ، وإخاءٍ يَستجيدُه ، ولا زالت الأيّام تَعِدُه ، والْحُظوظ تُسعِده ، إنّ أمراً قادَ إلى مُفاتَحتك ـ أيّدكَ الله ـ لحميد . وإنّي به ـ فَضلاً عمّن سبَّبَهُ وأَوجبَهُ ـ لَسعيد . فالتَّيَمُّن بهِ لزام ، وهو لِما بَعْدَهُ في النَّفسِ دَليلٌ وإمام . وخيرُ ما استُثير لهُ الكلام ، وتَصافحت فيه القَراطيسُ والأَقلام أمْرٌ لا تُجتنى منه لائمة ، ولا تزال لهُ بركةٌ دائمة ، ودرجةٌ على ذروةِ المجدِ قائمة ؛ فهل لك ـ دامَ عِزُّك ـ في عِزٍّ في الأَحياء تَقتنيه ، وبَيْتٍ بالعَلْياء تَبْتَنيه ، ودعاءٍ يتصدّى القبول إلى رافِعيه . ومثلُك ـ ولا مِثل ـ نَهض بالأَعباء ، وأَلّف بين الأكفاء وعَطف الآباء على الأَبناء ، واستَنزل العقاربَ برُقاها ، ورفَع الأَقارب إلى سَماء مُرتَقاها ؛ فأصبحوا بنعمةِ اللهِ إخوانا ، وشيّدُوا في البرّ والصِّلة بُنياناً ، وجمَعُوا إخواناً ، ووَضعُوا للوليمةِ نِطعاً وإخوانا[1] . ولَهج بِذكرهم السّامر ، وسَطعت بِنَشرِهم الْمَحافل والْمَجامر[2] ، ما لمن يستشرِفُها إلا شَرفك ، ولا يجمع أطرافها إلاّ يُمنك ولطَفُك ؛ وهذه العبارةُ الوافيةُ ، والإشارة الكافية ، [٢٥/ب] إلى (فلان) أعزّه الله فإنّه لمّا أَطال عِندنا المقام [وقطَعَ في الوَحْدَةِ الأَيّام][3] واستكشف لمتقدّم العِرفان ما أذهَله عن الأَوطان ، وعلّمه مُفارقة

---

(١) النِّطع : بساطٌ من الأديم (الجلد) . والإخوان ـ وهي لغةٌ في الخِوان ـ: ما يؤكل عليه الطعام .

(٢) المجامر جمع المِجمر والمِجْمَرة : التي يوضع فيها الجَمر بالدُّخنة (أي بالبخور) .

(٣) الكلام مشوّه في رأس الورقة [٢٥/ب] . وهذا ما استجليته ، وأظنّه كذلك .

الجِنان[٤] ، وأَخرجه عن لطف الأَب الحانِي إلى مُقاساة الزَّمان ؛ فأَشرفت على سَريرةٍ لم تَتَلَبَّس بجريرة ، وضمير للصَّفاء حليف وسمير ؛ ولم أَجد إلا أَنَفَة ، وعَودة مُؤتَنفَه ؛ ومَذهباً في الاعتِصام ، وعملاً على الاعتزام ؛ ونيّةً في بنت عَمّه ـ صانها اللهُ ـ قد امتزجت منهُ بلحمٍ ودم ، ولفَّته « من قرنٍ إلى قَدم » . وهو ـ أعزّه اللهُ ـ يرجع من السكون إليك ، والتَّعويل في هذا المهمّ عليك ، إلى ثقةٍ لا يُنَهنِهُها[٥] ظنّ ولا يَثنيها إنسٌ ولا جِنّ .

وفُلان ابن عَمّه كذلك لا يقطعُ دونَك أَمراً ، ولا يَرى معَك رأياً . فإنْ رأيتَ ـ أعزّك اللهُ ـ أن يتشبّثَ بِهذه الْمَنقبة الْجَليلة ، والْمَكرُمة الأَصيلة ؛ وتُمهّد للانتظام وتُوطئ توطئة[٦] الكرام ، وتراجع بما يُسفر عنهُ سعيك ، وينفذُ فيه رأيُك ؛ أَوريتَ زِناداً ، وجَنبت طَوع قِبابك فُؤادا ؛ وأَثقبتَ في سماءِ الْمَجد سِراجا ، وأَوسعتَ الخطّة الضيّقة انفِراجاً ، وفَريت من هذه اللّزبة[٧] أَوداجاً ، لازلت لِلْمُبْهماتِ فَرّاجاً ، ومن أَبوابِ التَّوفيقِ وَلاّجاً خَرّاجاً[٨] ، بِحَوْلِ الله .

---

(٤) من قول أبي الطيب (ديوانه بشرح الواحدي : ٧٦٩) على لسان حصانه بشعب بَوّان :
أبـوكُمْ آدَمُ سَنَّ الْمَعـاصي وعَلّمكُمْ مُفـارقَـة الجِنَـانَ !

(٥) نهنهه : زجره ، ومنعه .

(٦) في الأصل : طوطئة .

(٧) اللّزبة : الشدّةُ والسنةُ الشديدة .

(٨) يقال هو خرّاجٌ ولاّج : كثيرهما . والمعنى : بارع ، مدبّر للأُمور .

[٤٥]

وله(☆) ـ رحمه اللهُ ـ:

سيّـدي الأَعظم ، وعَتـــادي الأَنْفس الأَكرم ، ومَصـــادِي الأَعظم ؛ لازلتَ في أَحمى الجوانب والذِّمَم .

الشّفــاعــاتُ ـ أَدامَ الله عـزك ـ تَتشعَّب ، والفُروضُ النّـادرة تثقُــل وتتصَعّب . ومُؤدّيه ـ سلّمـه اللهُ ـ توجّهتْ لـه إليَّ عِنـايـة ، وترتّبتْ فيـهِ رعاية ، والرَّغبةُ إن تيسَّرت في تَخفيف حظّه من هٰذه الوَجيبة ، والكلفـة الشّاملة القريبة . واللهُ يُوجِدُك إلى ما في نفسـك من الإجمـال سَبيلا ، ولا يُعدِمُكَ صُنعاً حَسناً جميلا ؛ بعزّته .

[٤٦]

ولهُ(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

العهدُ ـ أطالَ اللهُ بقـاءَ سَيّـدي الأَعلى وكبيري الْمُفَـدّى ـ وإن تَراخى أَمـدُه وتَطـاولت مُـدَده :ـ راسـخٌ في الضَّمير ، أَصْفى من العَــذْبِ النَّمير

[٤٥]

(☆) رسالة وساطة في تخفيف وجيبة عن أَحد من يعرف .

[٤٦]

(☆) رسالة إلى بعض ذوي الشّأن في تزكية صديق ، وهي رسالة معزّزة لرسالة أخرى كتب بها كاتب آخر يتوسط للصديق نفسه .

[٢٦/أ] عالي المكان ، تقصر عن تناوله يدُ الزّمـان . ومـا هو إلا العِلقُ[١] التّالد ، يسلّمه إلى الولد الوالد . واللهُ ـ عَزّ اسمُه ـ يُخلـده فما كانَ لوجهـهِ فهو الْخَالد ؛ لا ربَّ غيره .

ولما لقيتُ فلاناً ـ أعزّه اللهُ ـ لقيتُ به الْمَجد ، وجدّدنا ذُلـك العَهـد ؛ ونظَمنا الشّمل ، ووَصلنا الْحَبل ؛ وكُنّا إلى الائتلاف أَسرع من السِّهـام إلى الأَهداف ، ومن الطّير إلى الأُلاّف[٢] ؛ ومن الماءِ إلى القَرارة ، ومن النّـدى إلى جَفن العَرارة[٣] . وحينَ تَشاكينـا البَثّ ، وحَثَثْتُ إلى الغـايـةِ القُصوى وَحَثّ ، أَشعرَتْني غُربتـهُ ارْتِماضـا[٤] وَأَوْمَضت لي إلى حنينـه الـذي يكتمـهُ إيماضاً ، وحقَّ لِمَنْ فارقَ حنانـك ، وجـانَبَ مَكانـك ، وَفقـدَ قبلَ فقـدِك إحسانك : أن يُمسِيَ خاشِعا ، ويَمْشِي خاضِعاً ، ولثوبِ التَّجَمُّلِ خالِعا .

وَإنْ كانَ ـ بحمـدِ الله ـ ينزلُ في كلِّ مكانٍ ينزلـهُ ، ومحـلٍّ من مَحلّـك يَسْتَبـدِلُـه ، على مـامَهَّـدْتَ وأَثَّلْتَ[٥] ، ووطَّـأت وسَهَّلت . فـلا يَلقى إلاّ صَديقاً ، ولا يَرى إلاّ مَنْ يَرى لكَ عليـهِ حُقوقـاً . لكنْ قُرْبُـك لـهُ أَولى ، ورَأيُك في برّهِ أكرمُ وَأَعلى ؛ لا سيّما وَقَدْ كنتَ قيّدتَـهُ مِنْ تلـكَ العِصمـةِ بمـا قَيّدت ، وأيّدت إقبالَكَ عليهِ بها بما أَيَّدْت . ومثلُكَ إذا قـالَ قولاً وجبَ ، وَإذا وَعدَ وَعْداً تَرتَّب .

---

(١) العلق : النَّفيس .

(٢) الأُلاّف : جمع آلف .

(٣) العَرارةُ واحدة العَرار وهو بهار البَرّ : نبتٌ طيب الرائحة ، وقيل هو النرجس البَرّي .

(٤) ارتمض من كذا : اشتدّ عليه ، فأقلقه . وارتمض له : حزن عليه .

(٥) أثّل الله ماله : أصّله وزكّاه . ومنه : مجد مؤثل .

وَهـذا الوجْـهُ مِنْ وجـوهِ البِرِّ التي تلتقي بهـا الشُّكـول[٦] ، وَلا ينبغي عَنْهـا النُّكول[٧] . فلا تنسَ ـ أعزكَ الله ـ مَنْ بـذكرهـا عُنِيَ ، وَلـه سُمّيت وَلها سمّي ؛ وقَدْ خَاطبـك (فلانٌ) يحضُّ على مـا حَضضت ، وَيعرض مِنْ هذا الأَمر مـا عَرضت . ونحنُ ننتظرُ مِنْ جوابـكَ مـا تحمِلـهُ عَليـهِ وتصرفُـهُ ـ ولا بُدَّ ـ إليهِ . واللهُ يُريكَ الخيرَ ويَحْمِلُكَ عليهِ ، بعزتهِ وقدرتهِ .

[٤٧]

وله[☆] ـ كَرّمَ اللهُ مَثْواهُ ـ :

أطالَ اللهُ بقاءَ الفقيهِ الجليل ، في القدر الرَّفيع النَّبيل ، والمجدِ الأَصيل الأَثيل ؛ وَلا زال أمَلُـه مستقِّلاً ، ومحلُّـهُ منيفـاً مطلاً . مـا كلُّ مَنْ احتجبَ عن العَين ، وَحالتْ دونَ لقـائـهِ يَـدُ البَين ؛ يحتجبُ عَنِ الضّمير ، وَيَخْفَى مـدى صوتـهِ الشهير ؛ كلاّ ! إنَّ القلبَ يليـهِ وَإنَّ السَّمـع يَجتليـه . وَرُبَّ مُزنةٍ حُرِمْناها نظراً ، وَشَهِدنـاهـا أَثَراً ، سحَّت مَطرا ، [٢٦/ب] وَلاحتْ روضـاً يـانعـاً وَزَهَرا . وَهـذهِ الأَمثـالُ التي لـكَ أَعلاهـا ، ونحـوكَ أَلْيَقُهـا وَأَوْلاهـا ؛ مضروبـة فيما سَرَى من ذكركَ العَبِـق وَتـوارى مِنْ مُحيَّـاك الْمُشرق .

---

(٦) ـ الشكول جمع شكل : الشبه والْمِثل .
(٧) نكَل : نكص .

[٤٧]
(☆) رسالة إلى صديق حالت دون زيارته موانع .

هذهِ ـ دامَ عزك ـ حـالُ الْمَحصور ، وجهـدُ الْمَمنوعِ المقصور ؛ ولعلَّ وجهَ قُربكَ يجلو ، وسندَ دنّوك يعلو ؛ فآخذ حديثَ المجدِ عنـك ، وأتلقّى القولَ غَريضاً[١] منكَ وَفي دونِ ماهو إلى الْمُفاتحةِ على مافيها مِنْ مقامٍ هائلٍ ، وخطرٍ دونَ الوطنِ حائل ؛ تُنْضَى المطِيّ وتُعتقَلُ العِصِيّ[٢] ، وَيُنشرُ العَزم المطوِيّ ؛ فخيرُ خطا السّاعين ، وَأَهدى سُبلَ المتبّعين خُطاً يتعلّقُ البرّ بأذيالِها ، وتبلُّ رَحِمِ الإيمانِ ببَلالِها[٣] ، وسبيلٌ نَقتادُ رِكابَ الصِّلَةِ على أَذلالِها[٤] ؛ وَليتَني قَدْ أَجزتُ نحوكُمْ حبل المعرّف في أَمثالِها[٥] . وَهذا الإيماءُ الذي بعثَ الاحتشاد ، وَشادَ مِن الذِّكرى التي تنفعُ ماشاد ؛ إلى (فلان) ـ أعزهُ الله ـ فحقيقٌ لشملِه أَلا يُصدَع ـ وهو الكُفءُ ـ أَلا يُقْدَع[٦] ؛ وَحاشى لمثلكِ أَنْ ينخدعَ فيهِ أو يُخدع . أنتَ بقُرباهُ أضَنّ .

---

(١) الغريض في اللغة : الطريّ من اللحم وغيره . وهي هنا على المجاز .

(٢) يقال : اعتقل رمحه إذا جعله بين ركابه وساقه (على الفرس) ، أو تحت فخذه وجَرّ آخره على الأرض وراءه .

(٣) البَلال : اسمٌ لصلة الرحم .

(٤) الأذلال جمع الذّل : حال الشيء التي يصلح عليها .

(٥) الْحَبْل (على لفظ الواحد من الحبال) ـ كما في معجم مااستعجم ٢ : ٤٢١ ـ: « هو عرفة » . وذكره ياقوت (في المعرّف) فقال : المعرّف هو موضع الوقوفِ بعرفة ؛ ونقل قول عمر بن أبي ربيعة

يـاليتني قـد أَجزتُ الحبـل دونكم   حبل المعرّف أو جاوزت ذا عُشَرِ !

(والذي في طبعة بيروت من معجم البلدان : الخيل ، خيل المعرّف) .

وهذا البيت مطلع قصيدةٍ غزلية له (ديوانه : ١١٥) ووردت فيه الرّواية صحيحة .

(٦) يقال : قدعت الفحل إذا ضربت أنفه بالرُّمح ـ إذا كان غير كريم ـ حتى يرتدع ، =

واللهُ عليكَ بتوخّي رضاهُ فيما قلّدك إياه أَمنّ ؛ لاسيّما وهناكَ ذِكرٌ قدْ لزِمَ لُزومَ الأَطواق ، وعهدٌ أخصّ من السَّوالفِ بالأَعناق . ولعلّ اللهَ سُبحانَهُ قَدْ اطّلعَ على تلكَ العُهدةِ فارتَضاها ، وقَدَّرَ فيها الخِيَرَةُ وَقَضاها ، وكتبَ الغِبطةَ في مُفتتحها وَعُقباها ، وَها هو يمدُّ يَدَ الاسْتِهام[7] في مظنّةِ الازْدِحام وإلقاءِ الأَقْلام[8] ، لازالتِ الرَّغباتُ إليكَ والخيراتُ مرجوَّةٌ لديك ، بحولِ الله .

وَلولا ماتُؤثرهُ مِنْ كرمِ الآداب ، لأَعفيتُكَ مِنَ الْجَواب ؛ لكنَّهُ أَمرٌ أَنا مُراقِبه ، وفي سبيلِ اللهِ صُدوره وَعَواقِبُهُ ؛ فَرأيك في النَّشاط وحُسن الانْبِساط ؛ إنْ شاءَ الله .

[٤٨]

وَلَهُ(☆) ـ قَدّسَ اللهُ رُوحَهُ ـ :

ياعماديَ الأَعلى ، وَظهيري الأَعزّ الأَحمى ، ومنَّة اللهِ العُظمىٰ ، وَأَهنا

= وينكفّ . وفي حديث زواجه صلى الله عليه وسلم قال ورقة بن نوفل : « محمّدٌ يخطب خديجة ؟ هو الفحلُ لايُقْدَعُ أنفه » .

(٧) استهم القومُ : اقترعوا .

(٨) في سورة آل عمران ٤٤/٣ ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ : قال في معجم ألفاظ القرآن الكريم : إلقاء الأَقْلام يصح أن تكون أقلام الكتابة جعلوا عليها علامات واقترعوا بها . ويصح أن تكون السّهام التي يقترع بها .

[٤٨]

(☆) رسالة إلى أحد ذوي الشأن في جملة أمور ديوانيّة وسلطانيّة .

مـابلغَ مِنْ أملٍ وسَوَّغَ[1] مِنْ نُعمى ؛ ومن أطـالَ اللهُ بقـاءَه ، ومحـلٌّ مجـدِهِ راقٍ ، وغمامُ سعدِهِ [٢٧/أ] ساقٍ ، وصُنع اللهِ بهِ كافل ولَهُ واقٍ .

ما ينثالُ ـ أدامَ اللهُ عزك ـ مِنْ برّك الذي لا تَستفيق[2] دِيَمُهُ ، وعهدِكَ الذي لا يُغِبُّ حُسنه وكرَمه ؛ قَدْ فاتَ الإحْصَاء والإدْراك ، وأثقلَ الكاهلَ بلا حِراكِ ؛ فلم يبقَ إلا أنْ أَكِل جَـزاءه إلى اللهِ الـذي هـوَ بـهِ أَمْلى وَعَليـهِ أَقـوى ؛ وأَستظهِرُ بـدُعـاءٍ يُعـدي على الفَرض ويُجـزي بعضَ القَرض ، ويحصرُ سببُه الواصل بينَ السَّماء وَالأرض . وإنَّ كتـابَـةُ الكريم ـ أعْزِزْ بـهِ وَبـاليـدِ المفـدّاة التي أَنبتتْ زَهَرَه ، وَأَثْبَتَتْ في سحرِ البيـانِ فِقَره ـ وافى فَـزَحْـزَح ظمأ الهَـواجر ، وبَرّحَ بـالهُمـومِ الشَّـواجر[3] ؛ وأَصْلَـحَ بين الجَفْنَ وَكراه ، وتركَ بينَ الطّيفِ وبَينَ سُراه ، فـوفّيتـه حَمْـدَ مـاأولاه ، وَرَأَيْت الفَضْلَ بينَ فـاتحتـهِ وَمُنتهـاه . ومـا ذَكَرَ (فـلانٍ) مِنْ تهمُّمٍ ، وشكرهُ مِنْ تلطُّفٍ وَتَخَدُّم ، فتلكَ درجةٌ لا تُنـال بـالإرضـاء ولا تُرتقى إلا بـالتّجـاوزِ منكَ والإغضاء .

واللهُ جَلّت قُـدرتـه يرمي أمـوركَ بـالتَيسيرِ والتمامِ ، ويجعـلُ قضـاءَ لُباناتك على طرفِ الثُّمام[4] .

---

(١) يقال : سوغه المال : أعطاهُ إياه . ورسمها في الأصل : صوّغ (بالصاد) .

(٢) استفاق من الشراب : كفّ عنه .

(٣) اشتجرت أي تشابكت .

(٤) يقال : هو لك على طرف الثُّمام إذا كان هيّنَ المتناول . (واللُّبـانـات جمع لُبـانـة وهي الحاجة . والثام : نبت ضعيف قصيرٌ لا يطول) .

وأمّا (فلانٌ) ـ أَبقاهُ الله ! ـ وما أكّدتَ بهِ مِنْ وَصاةٍ ، وَعِنايةٍ غير مُحصاة ؛ فنفسي مُمتزجةٌ بنفسِهِ ، وَأُنسي مُقتدَحٌ من أُنسه . وَلو علمت بعدَ هذا في وُدّه مَدَى أتكلّفهُ ، وَمَراماً أَتعسَّفهُ ، لبلغتُ أَقصاه ، وذللت آباهُ وَأعصاه[٥] .

وَلَقَدْ صدرَ عَنْ حضرتكَ مغموراً باهتِبالِها[٦] ، موفُوراً مِنْ إجمالِها . فَاعترف في كُلِّ نادٍ ، وَعَرَّفْ بثنائهِ كلَّ واد . وجميعُ الإخوانِ بِمَا أوليتهُ مُرْتَهنون ، وعلى تلكَ الجلالةِ مُثنون ، وَإِليها مُنْثَنُون .

أَمَّا الكُتب التي أَصبحتْ أَمانتها مُضاعة ، وَالظِّنَةُ فيها مُشاعة . فيعلمُ اللهُ ، ثم جملةٌ مِنَ الإخوانِ الذينَ يشهدونَ نَجْواي ، ويتكرّرونَ على مَثواي ؛ تفرُّغي إلى إنفاذها ، وتَأكيدي في إسراعِها وَإغذاذِها[٧] . ومَنْ لي بحَظٍّ أَقيمُه فيقعد وبرٍّ أُدنيهِ فيبعُد . وإنْ أعشْ فسأستجيدُ الحامل وأتنكّبُ بها الخامل . وَلَو استطعتُ لصيرتُ البلدَ بها بريداً وَوَكّلتُ بهِ مِنَ النجومِ [٢٧/ب] شُهوداً ، وجعلتُ ورودها موسماً مشهوداً .

أعانَ اللهُ على لوازمِ فضلكَ ، وَلا أَعْدَمَني صلة حَبلك بعزّتهِ وقدرتِه .

وَقَدْ انتدبَ (فلانٌ) إلى خدمةِ ما كلّفتُه واضطلعَ اضطلاعَ الناهضِ بِمَا حمَّلتَهُ . وَلَنْ يعدمَ منّي ـ إنْ شاءَ الله ـ إنجاداً يرضاه ، واستبداداً يأتي على هَوَاه ، ورأياً مُوافقاً لما تراهُ ويراه ؛ إنْ شاءَ الله .

---

(٥) آباه : أي أكثره امتناعاً .

(٦) اهتبل الفرصة اغتنمها .

(٧) أغذّ السير (وأغذ في السير) : أسْرعَ .

وله(☆) ـ رحمة الله عليه ـ :

سيّدي الأَعظم ، وَسندي الأَعصم ، وَوَزري الأَمنع الأَكرم ، الذي أَرى لهُ الحقَّ الأَلزم ، وَأَعترفُ لَهُ بالفضلِ الأَقدم ؛ وَمَنْ أطالَ اللهُ بقاءَهُ مُعتليَ المراتبِ ، مُحتميَ الجوانبِ ، ناميَ الآلاءِ وَالمواهِب .

ما بيننا ـ أدامَ اللهُ عزك ؛ وَاللهُ يحميهِ ويُعرفنا المزيدَ الموفورَ فيهِ ـ يقتضي التّنبيهَ علىٰ الحَسناتِ والانْبِساطِ في الرغبات .

وَ (فلانٌ) توجَّهَ في أمرِهِ من الاستدعاءِ لَهُ ماتَعلمهُ وَهُوَ يظنّكَ المُطَرِّق(١) إلى تلافيهِ والمسبّبَ لذلكَ الرأيَ الكريم فيهِ . وبذلكَ وَبما قَويَ في نفسهِ منهُ تأنّس ، وَنشطَ وسُرَّ وانبسطَ وَسارَ منفسحَ الرجاءِ معوّلاً عليكَ في جميعِ الأَنحاءِ ؛ مُعتقداً أنَّ ما ينالهُ مِنْ مَبَرَّةٍ وَيلقاهُ مِنْ بِشْرٍ وَمَسرَّة ؛ وَيُفضي إليهِ من استقرارٍ في أوطانهِ ، وَعونٍ على زمانِهِ ، معدودٌ في حسناتِك ، منبعثٌ على الكريمةِ ذاتِك ، مطّردٌ في سِيَرك الجميلة وَعاداتك .

وأنتَ ـ دامَ عِزّك ـ تريشُ جناحهُ ، وَتتعهدُ صلاحهُ ؛ وَتَسْتَجْزِل الثَّوابَ في جمعِ شملِهِ ، وَصِلَةِ حبلِهِ ، موفّقاً مُعاناً ؛ إنْ شاءَ الله .

---

[٤٩]

(☆) رسالة توصية .

(١) طَرّق لها : جعل لها طريقاً . وطرق الطريق : سَهّله .

[٥٠]

وله[☆] ـ رحمه الله ـ :

أطالَ اللهُ بقاءَ القـائـدِ الأَجلّ ، السَّيـدَ الأَفضل ؛ ذي الهِمَمِ البَعيـدة ، وَالمَآثرِ المَشيـدة ، وَالمكارِمِ العَتيـدة ، متسـابقـةً إليـهِ الآمـالَ ، متغـايرةً في جلالَتـهِ الولايـاتُ الخَطيرة وَالأعمـال ، متنـاسقـةً في فضـائلـهِ الأحـاديثُ وَالأَمْثَال .

قَدْ عَلِمَ ـ دامَ عِزُّه ـ التزامي لعهـدِه ، وَانتظـامي في عِقْـدِه ، وَقيـامي بواجباتِ شكرهِ وَحَمْدِه ، وَتلكَ [٢٨/أ] ـ بحول الله ـ سبيلٌ مـا أزالُ لهـا سالِكاً ، ولِما سِواها تاركاً .

ويتأدّىٰ من قِبَل فُلان ؛ وقد كنتُ فاوضْتهُ ـ دامَ عِزّه ـ في خدمتـه ، والتحافهِ بحُرمته ، وتعويله على سَوابغ نِعمته ؛ فـأَجملَ الموعود ، والتزمَ أن يبدأ ويَعُود . وها هو قد شخَص وسار ، بل انقضَّ على أُفقِه المُبهج وطَار . تحملـهُ قوادم المِقَـة[1] ، وتهزّه ريح الثقـة ، وسوانحُ السُّعود المتّفقـة . وهـو أَهلُ مـا يُوليـه ، ويُوليني فيـه ، والعـادةُ أَن ينضـاف إلى (كـذا) لتنتظمَ أَشتاتُ الجَدّ[2] ، وتلتقي أَطرافُ الحَلّ والعقد . وما ينالـه من رِفـده الجزل

---

[٥٠]

(☆) رسالة إلى أحد القوّاد بانتظام رجل (كان سبق الحديث عنه) في الخِدمة .

(١) المقة : المحبّة .

(٢) الجَدّ : الحظّ .

ونائلِه الغَمْر[٣] . فإيّاي نال ، وعَليَّ انثال ، وأَنا المُرتهنُ بقَرْضِه ، المتصدّي إلى قَضاءِ فَرْضِه ؛ إن شاء الله .

[٥١]

وله(☆) ـ نضّر الله وجهه ـ :

أطال اللهُ بقاء الفقيه الأَجلّ ، القاضي الأفضل ، مَبْسُوطاً عَدْلُه ، مَنُوطاً بأعناقِ الأحرارِ فضلُه . ولا زال يُولي جزيلاً ، ويصطنعُ جليلاً ؛ ما رسخ من تصافينا في الضَّمائر ، وثبت في السَّرائر ؛ محكمَ المرائر ، لازمٌ لزومَ القربىٰ الشّابكة والأَواصر ، واللهُ ـ جلَّت قُدرته ـ يُبقيه كريمَ الأَوائل والأواخر بعزّته . ومناولُه فلان ، وتولّى هنالك ما تعلمه ؛ ولا يذهبُ عنكَ سلَفُه القديم ، ومَحلّه الكريم ، وأَنتَ ترعىٰ أَهلَ السَّلف ، وتَحُوطُ ذوي المَراتبِ والشَّرف ؛ وتصطنعُ باصطناعِه ذَويه ، وتحوزُ شكرَ الكُلّ فيه .

وفلانٌ قد وَعدني بالإجمال في أَمرِه ، والتَّوفية لِبرّه . والرَّغبة أن يُسْنَد إلى قِمّتك ، ويُعتَدَّ في جُملتك ؛ ويَأوي إلى حِماك ويَستظهر في شؤونه بِعُلاك ؛ إن شاء الله عزّ وجلّ .

---

(٣) الغمر : الكثير .

[٥١]

(☆) رسالة إلى أحد القضاة لضمّ رجل إلى الخدمة في دائرة عمله ، ويخبره بموافقة (فلان) ممّن له الأمر في مثل هذه الحال على ذلك .

[٥٢]

وله(☆) :

ويتأدّى من يد فُلانٍ ـ سلَّمه اللهُ ـ وهو من برّك على عَادة ، مثلُكَ وصَلَها ، واستخفَّ اليدَ الكريمة فيها واحْتَملها ، وأحرزَ المَثُوبةَ الجسيمة عنها واهْتَبلها ، وعندي من الشُّكر على ماتُوليه مالا يَزهدُ فضلُك فِيه ، بل تَدخَرهُ وتقتنيه ؛ إن شاء الله .

[٥٣]

[وكتَبَ(☆) أبو عَبد الله بنُ أبي الخِصال إلى الوزير الكاتب أبي محمَّد بن

---

[٥٢]

(☆) قطعة من رسالة ، وهي أصْلاً رسالة قصيرة من نوع البطاقات التي يحملها صاحب الحاجة بيده إلى ذي الشأن .

[٥٣]

(☆) هذه الرّسالة نصّ أدبيّ نقدي مهمّ في تأريخ النثر الفنّي في الأندلس والمشرق معاً ، وفيها مناقشة هادئة لقضيّة الأُسلوب الفنّي النّثري المُعتمد في زمان الكاتب . وهي ردٌّ تطوّعي من ابن أبي الخِصال على رسالةٍ قَصيرة كتبها مُعاصر له يفضّل فيها طريقة بديع الزّمان الهمذاني على طريقة أبي إسحاق الصّابي . وقد انتصر الكاتب للصّابي وفصّل في ذلك واحتج لآرائه .

الخطاب في هذه الرّسالة إلى أبي محمّد عبد اللهِ بن محمد بن عبد الله بن القاسم الفِهري . وهو آخر أفراد أسرة حكمت منطقة حصن البُوْنت من أعمال بلنسية إلى أن أخذه المرابطون ـ فيما أخذوا في حركتهم لتوحيد الأندلس ـ سنة ٤٨٥ . وقضى بقية حياته في (سلا) بالمغرب . وكان كاتباً أديباً ، ولقّبه ابن خاقان بالوزير الكاتب ، وأضفى =

القاسم يَرُدُّ عليه في رسَالتِه التي فَضَّل فيها بديعَ الزَّمان الهَمذاني على أبي إسحاق الصَّابي][1]

[٢٨/ب] سيّدي[2] الذي كَرُمَتْ عناصِرُه ، وقَدُمَت أواصِرُه ، وعَذُبَتْ مَحانِيه ومكاسِرُه[3] ، ويَعِزُّ عَليَّ أنّي[4] لاأُياسِرُه !

عَرَّفَك اللهُ الحُقوق ، وكَرَّه إليك العُقوق ، وتَخَلَّصَك من دَواحِضِ[5] الحُجَج ومداحِض الزَّلَج[6] ، وحَملكَ على المَهْيَعِ[7] [و] المنهج ، ورماك

= عليه ابن سعيد لقب (الأمير) .
(يُنظر في ترجمته قلائد العقيان ١٢٧ والمغرب ٢ : ٣٩٦)
ودراسة عنه في : تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ـ الطبعة الثّانية ـ ٣٣٨
ورسالةُ أبي محمد بن القاسم وردت في مجموعة رسائل أندلسيّة في (مكتبة طلعت ـ بدار الكتب المصرية ـ برقم ٤٦٥٠ أدب) ، ومعها رسالة ابن أبي الخصال هذه من ٣٩/ وإلى ٤٢/ظ . وسأُقابل على ما في (رسائل أندلسيّة) برمز (ط) إشارة إلى مكتبة طلعت . (تنظر رسالة ابن القاسم مع رسالة ابن أبي الخصال في دراستي عن ابن أبي الخصال) .

(١) قدّم في (ط) قبل رسالة ابن القاسم : « وكتب أحد الكتّاب في الترجيح بين الصّابي والبديع وقد سئل في ذلك ، وهو أبو محمد بن القاسم » . وقدّم لرسالة ابن أبي الخصال بقوله « وكتب إليه في ذلك أبو عبد الله بن أبي الخِصال بما نسخته .. » .
والتقديمُ ، هنا ، زيادة مقترحة ، وقد خلت النسخة من تقديم .

(٢) في (ط) ياسيّدي .

(٣) المحاني جمع محنية : مُنعرج الوادي . والمكاسر جمع مكسر : وهو من الشجرة أصلُها .

(٤) في ط ، أن لا .

(٥) حجّة داحضة : باطلة .

(٦) مداحض جمع مدحضة (مزلقة) ، والزّلَج من زلج المكان زَلِقَ .

(٧) المهيع من الطرق : البيّن الواضح .

بِجُهَيْنَة اليَقين[8] و الثَّلَج .

الحكومَةُ ـ أعزّك اللهُ ! ـ ماعَلِمت : صَعْبٌ مُرْتَقاها ، بَعيد ملتقاها ؛ وقَديماً تجنّبها الحُزَمـاء ، وحـاد عنهـا الحُكَماء . وقـد كانَ أهلُ الجـاهِليّـة ـ حيث لاقُرآنَ يَرْدَع ، ولا بُرهـــانَ يَسْطَــع ؛ وليس إلا مُقْتَضى النَّظر ، ومنتضى العقـول والفِطر ، يَهـابُـون كل المهـابَـةِ مـواطِنَهـا ، ويَكِلُـون إلى التَّهـادِي والكِتمـانِ بَـواطِنَهـا ؛ فلمـا غَشِيَهُم الإسـلامُ ، ووجبَ الإعـلانُ والإعـلام رُجِيَ أن تستفـز الأَحْـلام ، وتُفســخَ تلــكَ الأَحكام ، ويــؤثر بتَرجيحِها وتَفضيلِها الكلام ، فاشْتَدَّت عند ذلك الضَّنانَـة ، واستـدَّت على ذاتِ أَنفُسِها الصِّيانة . وأَمْرُ هَرِم بن قُطبـة[9] في ذلـك مَشْهُور ، وخَبَرُه مع الفَارُوق[10] علمٌ في رَأسِهِ نُور ؛ حين استنزلَهُ فَنفر ، وسأَلـه من كان ينفِّرُ لو

---

(٨) إشـارة إلى المثل : وعنـد جهينـة ـ ويروى جُفينـة ـ الخبر اليقين . (أمثـال العسكري ٢ : ٤٤) .

(٩) هو هرم بن قطبة الفَزاريّ (توفي بعد سنة ١٣ هـ) له صُحبة ، كان من الخطباء البلغـاء والحكماء الرؤساء ، ومن قضاة العرب في الجاهليّة . وممّن تنافر (تحاكم) إليه عـامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثـة وكان كل واحـد منهما سيّـداً في قومـه . ولم يرض أن يفضّل بينهما وقـال أنتما كركبتي البعير الأدرم (المكتنز) يقعـان معـاً على الأرض ، أو قـال : كغَرْبَي السّيف (كحدَّيه) . وخرجا راضيين .

(أُسد الغابة ٥ : ٥٧ ، المحبّر ١٣٥ ، البيان والتبيين ١ : ١٠٩ ، سرح العيون : ١٦٢)

(١٠) كان عمر رضي الله عنـه يحب هرمـاً ، فقـال لـه يومـاً : أيّهما كنت تنفّر (يعني علقمـة وعامراً) فقال : لو قلتُ الآن فيهما لعادت جذعة فأعجبه قوله وقـال : بحقٍّ حكّمتـك العَرب .

(سرح العيون ١٦٢ ـ ١٦٨)

نَفّر فلم يجدْ لنفسِه في التّرجيح سَعةً ، وقالَ : لو قُلتها اليوم ياأميرَ المؤمنين لأَعَدْتُها جَذَعة[١١] . فأثنى عُمر ، رضي اللهُ عنه ، على عَقْلِه وإدراكِه ، وأعجبَه ما كان من بُخلِه[١٢] وإمساكِه !

ولِضيقِ هذا المسلكِ ووَعْرِه قَالُوا : أَشْعَرُ النَّاسِ مَنْ أَنْتَ في شِعره[١٣] وإن كانَ لكلٍّ مَذْهَبٌ يَنْتَحِيه ، ورَأيٌ إلى أَوليائه يُزْجِيه .

فالحذَر من النُّصوص ، والبَيان - ما لم يَخرج إلى العُموم عن الخُصوص ، ولم يَثْبُت في الصُّحفِ كالبُنيان المَرْصُوص ، هَباءُ حَلبة ، وبَهاءُ عُلبة[١٤] : يعلُو ويثور ، ولا يكونُ إلا رَيثَ ما يَحُور ؛ فأمّا ما يُدَوَّنُ ويُخَلّد فقد أَصْبَح مَذْهَباً يُتَقَلَّد ، وغَرضاً يَتشعّب فيه القَوْلُ ويَتَولَّد .

ولا يَخْلُو أُمَراءُ البُلَغاء[١٥] من أتباع [٢٩/أ] يمشُون على مَدْرَجهم ، ويقولون بِحُجَجهمْ ، ويذبّون عن منهجهم ؛ ويَحْمُونَ حِماهُمْ ، ويَرْمُون من رمَاهُمْ .

---

(١١) يقال عاد الأمر جَذَعاً أي جديداً كما بدأ .

(١٢) يعني من بُخله وإمساكه عن القول في ذلك الموضوع .

(١٣) في الشعر والشعراء ١ : ٨٢ « ولله در القائل : أَشْعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه » . ولم ينسبه .

(١٤) العُلبة قدح ضخم من خشب أو من جلود الإبل يُحلبُ فيه . يقول ذلك الذي لم يثبت كغبار حلبة السباق ورغوة الحليب سرعان ما يذهبان .

(١٥) في (ط) : أمراء الكلام .

ووَقَفْتُ لكَ منذُ أَيّامٍ على نَفثاتٍ غُرٍّ ، وكَلامٍ بَيْنَ الصَّابي[16] والبـديع حُرّ[17] ؛ عـالٍ تنـاولَـهُ خـاطِرُكَ من عُلو ، ووقعت طيرُ القُلوبِ منـهُ على ثَمَرٍ حُلو . لكنّك ـ واللهُ يَغْفِرُ لكَ ـ جَرَّعْتَ الصَّابيَ منـهُ صـابـاً ، وملأْتَ صُـدورَ شيَعـهِ أَوْصَـابـا[18] ؛ فهمُ بين جُمـوعٍ مُنْفَضَّة ، ودمـوعٍ مُرْفَضّـة ؛ ونواظرَ كَليلـة وخواطرَ فَليلـة[19] ، ينظرُونَ من طَرفٍ خَفِيٍّ ويتظلّمـونَ منـــك من بَرٍّ حَفِيّ ، لا يَسْتَقِــلّ لهمْ لِـواء[20] ، ولا يَرْتَــدُّ إليهم طرفُهم وأَفئدتُهم هَواء[21] !

مَهْلاً ! فداكَ الأَقوامُ ، ولا عَـداكَ القَصْـدُ والقَوامُ[22] ، فـالقَضـاء جِـدٌّ

---

(١٦) أَبو إسحاق الصَّابي : إبراهيم بن هلال الحرّاني الصابي (٣١٣ ـ ٣٨٤) أحد كبار كتّاب الدولة العباسية (للخلفاء وللبويهيّين) وصفه ابن خلّكان بصاحب الرسائل المشهورة والنظم البديع . وقال إنه ولد سنة بضع وعشرين .

(وفيات الأعيان ١ : ٥٢ ، ومعجم الأُدباء ٢ : ٢٠ ، ويتيمة الدهر ٢ : ٢٤٣ ، وإحكام صنعة الكلام : ١٠٥) .

(١٧) بديع الزمان الهمذاني : أحمد بن الحسين بن يحيى ، أبو الفضل (٣٥٨ ـ ٣٩٨) قال ابن خلكان : صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة ، أحد الفضلاء الفُصحاء . ولد بهمذان وتوفي بهراة . وله مجموع رسائله ، ومقاماته وديوان شعر . وهو رائد فن المقامة العربية .

(وفيات الأعيان ١ : ١٢٧ ، يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٦ ، وإحكام صنعة الكلام : ١٢٤) .

(١٨) الصاب : شجر مُرّ له عُصارة بيضاء كاللبن شديدة المرارة . والأوصاب جمع وصب : الوجع والمرض .

(١٩) أصل الفلّ : تثلّم في السّيف وحدّ القلم ، واستعاره الكاتب للخاطر .

(٢٠) أي لا يرتفع لهم لواء . و﴿ ينظرونَ مِنْ طَرفٍ خَفِيّ ﴾ من سورة الشُّورى : ٤٥

(٢١) اقتباس من الآية الكريمة من سورة إبراهيم (١٤/٤٣) .

(٢٢) القوام : العدل .

عَسِير ، والخَطْبُ - وإن اجتهَدْتَ - غَيْرُ يَسِير ، وإذا اسْتَقادك هَواك فلا تَهِم[٢٣] ، وإذا نظرتَ بعينِ رضاكَ فاتَّهِمْ ؛ فالمُوازنة كالمُبارَزَةِ إنّما تكونُ بالوَفاء ، ومُقارعة الأَكفاء بالأَكفاء ، ولذلك أَبتْ قُرَيْشٌ إلاّ أَقْتالَها[٢٤] ، وسَمَتْ من الأَنصار - رضوانُ اللهِ عليهم - عَمّن سَما لها[٢٥] ؛ فاتَّقاهُم رسولُ اللهِ - ﷺ - بأَنْدادِهِم ، ورمَاهُم من صَمِيم عِتْرَتِه[٢٦] بأَعدادهم ، فعضُّوا على النَّواجذ عضّاً ، وقرع النَّبْعُ بعضُهُ بَعْضاً[٢٧] . وقد قال مُهَلْهل ماقَاله في بُجَيْر[٢٨] وأَمِنَ من القَوَدِ قاتِلُ الزُّبَير[٢٩] ، وطال - على القِصَرِ -

---

(٢٣) هام فلانٌ : تحيّر في أمره واضطرب .

(٢٤) أقتال جمع قِتْل وهو المثل والنظير في قتال وغيره .

(٢٥) لّما خرج عُتبة وشيبة والوليد للمبارزة برز لهم ثلاثة رجال فسألوهم عن نسبتهم فقالوا : رهط من الأَنصار ؛ قالوا : مالنا بكم من حاجة ثم نادى مناديهم : ياممحّد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ... الخ (السيرة النبوية ١ : ٦٢٥) .

(٢٦) العترةُ : نسل الرجل ورهطه وعشيرته . وكان رسول الله ﷺ قد ندب لمبارزتهم ثلاثة من أهل البيت وهم : عبيدة بن الحارث ، وحمزة ، وعلي رضي الله عنهم .

(٢٧) يقال عض على ناجذه إذا صبر على صعاب الأُمور . والنبع شجر تتّخذ منه القسيّ والنّبال .

(٢٨) مهلهل هو الشاعر التغلبي المعروف ، وبجير هو ابن عمرو بن عُباد أرسله عمه أو خاله الحارث بن عباد (الذي قال في الحرب لاناقة لي فيها ولا جمل) برسالة فقتله مهلهل وقال فيه : بؤ بشسع نعل كُليب . (تنظر أخبار حرب البسوس ، والخبر في سرح العيون : ٩٨) .

(٢٩) قاتل حواري رسول الله ﷺ الزبير بنِ العوام هو عُمير بن جُرموز من تميم قتله غَدْراً . ولما حَمل سيفه إلى علي رضي الله عنه بَشَّرَ عليّ القاتل بالنار لحديث سمعه عن رسول الله ﷺ (الطبري ٤ : ٤٩٩ ، ٥١٠ . وفيه أن ابن جرموز استعان برجلين آخرين . وكان ذلك في عقب أَحداث وقعة الجمل) .

عُمر عُمَيْر[٣٠] ، ويُنشد في مثلِه[٣١] : [الوافر]

☆ فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَير ! ☆

وبدونِ هذا صعقَ جُذَيْمَةُ[٣٢] من النَّدم ، وضُرِّجَ ماأَنْفُ الخاطبِ بِدَم[٣٣] !

وأبو الفَضْلِ ، وإن كانَ كما سُمّي بديعاً ، ولأَخْلافِ البَلاغـةِ رَضِيعاً[٣٤] لا يُقـاس بـأبي إسحـاق رأسـا ، ولا يجعَلُ لـه سلمـا ولا بـأسـا ؛ لأَنَّهما وإنْ جَمعهما أَصلُ اللّسـان ومُزاولـةُ الإحسـان كالثُّرَيّـا وسُهَيل لا يلتقيـان[٣٥] ، ولا يَشْتَبِهان فيما يَنْتَقيان .

---

(٣٠) هو عمير بن جُرموز (ويقال له عمرو) . والقَوَد : القِصاص .

(٣١) صدر بيت لجرير وتمامه :

☆ فلا كعباً بلغت ولا كلابا ☆

من قصيدته (الدامغة) التي أسقط بها شأن الرّاعي النُّميري . (ديوان جرير ٨٢١) .

(٣٢) جذيمة الأبرش (ويقال فيه الوضّاح) أول من قـاد العرب وملـك على قُضـاعـة وكانت منازله الحيرة والأنبار . والإشارة إلى تزويج جذيمـة (وهو سكران) أختـه رقـاش من نديمه عديّ بن نصر ثم صحا وندم ، وهرب عديّ .

(المحبّر ٢٩٩ ، سرح العيون ٩٧) .

(٣٣) يُقال ضَرّج أنفه بدمٍ إذا أدماه . وفي شعر مهلهل (اللسان : ضرج)

لـو بـأبـانين جـاء يخطبهـا ضرّج مـا أنف خـاطب بـدم

(٣٤) أخلاف جمع خِلف وهو حلمة الضرع (أو ضرع الناقة) .

(٣٥) في الكـلام تضمين لشعر أَنشـده عمر بن أبي ربيعـة . فقـد كان يشبّب بـالثريـا من بني أُمية ، وتزوجها سهيل بن عبد العزيز فقال : (الأغاني ١ : ٢١٩ وديوانه)

أيهـا المنكـح الثريّـا سهيـلاً عَمركَ الله كيف يلتقيـان

هي شـاميـة إذا مـا استقلّت وسهيـل إذا استقـلّ يمـان

وأوقع تورية لطيفة بثريا السّماء ونجم سُهيل ، ومطلعاهما مختلفان .

أبو إسحـاق مَعِينُ القَول ، مُقْـدِمٌ على الْهَـوْل ، يَصُـول صَـوْلَ القَرْمِ في الشَّوْل[٣٦] [٢٩/ب] إن غضبَ حَسِبْتَ النّاس غضابـا[٣٧] ، ورأيتَ السُّهولَ وُعوراً وهِضابا ، أَو رَضِيَ أَعادَ الْمَشيب شَبابـا ، وفتّحتِ السَّماء أبوابـا[٣٨] ، وضَربت النُّجوم قِبابا ، ولبست الأَرضُ من وَشي النَّوْرِ ثِيابا !

كتُبه تُغْنِي عن الكَتـائِب[٣٩] وتُقيم الْمُجْرِمَ مقـامَ العـائـذ التّـائب . كم جُيـوش فَلَّت ، وعـزائم نَقضت وحَلَّت ، ورقـاب كرقـابِ الأُسْـدِ أذلّت . وكيف تُجَارَى أقلامٌ أَرْضَعت الخلافة الهاشمية[٤٠] بلبـانهـا ، وأَوت إلى رَبْوَةٍ ذاتِ قرارٍ ومَعين من بيـانهـا[٤١] ، ونطقَتْ فـأَفْحمت النّـاطقين بلسـانهـا ، وأخذت على الأَيّام بِطَرَفَيْ شمائِلها وأَيمانها ؟

إن عَزّى سَلّى ، أَوْ عـاتَب سَرَّى وجَلّى ، وأَمَرّ وأَحْلى ؛ أَو مَـدَحَ تَوَّجَ

---

(٣٦) أصل المعين الماء الظاهر الـذي تراه العين يجري على وجـه الأرض . والقرم من الفُحول الـذي يُترك من الركوب والعمل ويودع للضّراب . والشول جمع الشـائلـة : التي فصل عنها أولادها ونقص لبنها ولا تزال شولاً حتى يُرسل فيها الفحل .

(٣٧) تضمين من بيت جرير من الدّامغة : (ديوانه ٨٢٣) :

إذا غضبت عليـــك بنــو تميم ... حسبت النـاس كُلّهم غِضــابـا

(٣٨) اقتباس من الآية الكريمة من سورة النبأ (١٩/٧٨) .

(٣٩) استفـاد الكاتب من أبيـات في ذِكر القلم في أثنـاء مـدح أبي تمـام لمحمـد بن عبـد الملـك الزيات ، وهي مشهورة عند الأَنـدلسيين جـدّاً ، ومنهـا قولـهُ (ديوان أَبي تمـام : ٣ : ١٢٤)

أطاعته أطراف القنـا وتقوّضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافلُ

(٤٠) هي الخلافة العباسيّة .

(٤١) اقتباس من الآية الكريمة من سورة (المؤمنون) (٥٠/٢٣) .

وحَلّى ، أو قَـدَح أخْلـقَ وأبلى ، أو غرَّ سَـوَّل وأملى . لا جَرَم ! إنّ لَـهُ القَلم الأَعْلى[٤٢] ، والذُّروة الباسقَةُ لا تُظْهَرُ ولا تُعْلى .

فـأما نَظْمُـهُ فـالأَرْيُ الْمَشُـور[٤٣] والفُستـقُ الْمَقْشُـور ، والْخُسْرُوانيُّ الْمَنْشُور[٤٤] ، ووجهُ الحبيب يملأ عينَ مُحبّه ويَصُور[٤٥] . يزيد في السَّبْـك أضعافا وينصَعُ ، وتَوَدُّ الثُّغورُ أنّها بكلمـاتـه الغُرّ تُصَرّعُ أو تُرَصَّعُ[٤٦] . وهو - بَعْدُ - على مَهْيَع العَرب ، وأُسلوبهـا الأَبعـد الأَقْرب ، لا يُحْرَمُ توفيقَهـا ، ولا يخرِمُ على حالٍ طريقَها[٤٧] ؛ ولذلك نَرى أَبـا الفضل قـد تَحـامـاهُ على اعتراضِه ، وأَخذَ في غيرِ أَغْراضه ، ولشيءٍ حادَ عن تَقَيُّلِه ، فأصاب مـا شـاءَ من تَخَيُّلِهِ ، وأجاد في تَخَلُّصِهِ وتَحَيُّلِهِ ؛ وآثَر معَـهُ الـدَّعَـةَ والقَرار ، وخَلّى الطّريقَ لمنْ يُبنى بهِ الْمَنار .

فما لكَ - أعزّك اللهُ ! - تَقْرِنُـه بـالصَّعْب ، وتحـارِبُ بـه وقـد أَتى السّلم ظَفراً عـالي الكعب ، وتُعـارِض جَـابِيـة الشَّيـخ العِراقيّ بـالقعب[٤٨] ؟

---

(٤٢) من قول أبي تمام في القصائد المشار إليها قبل :

لـك القلم الأعلى الـذي بشبـاتــه ... تُصابُ من الأمْرِ الكُلى والمفـاصِلُ

(٤٣) الأري : العسل . المشور من شار العسل : استخرجه من الخليّة .

(٤٤) الخسروانيّ : نوع من الثياب من نسج الحرير الرقيق منسوب إلى أحد الأكاسرة .

(٤٥) صار الشيءَ إليه : أماله وقرّبه .

(٤٦) التصريع والتّرصيع ضربان من البديع في الشعر .

(٤٧) يقال : ماخرم الدليلُ عن الطريق : ماعدل عنه .

(٤٨) الجـابيـة : الحـوضُ الكبير . والقعب : قـدح ضخم عظيم . واستفـاد الكاتب من قـول الأعشى :

=

هيهات ! جَلَّ الفُرات عن المتح[٤٩] ، ولا هجرة بعد الفتح[٥٠] . وأنّى وقد مَضت الهجرة لأهلها ، وفازَ السَّابقون الأوَّلُون بِفَضلها ، وخُتِمت النبوّة فلا دَرَكَ لمثلِها ؟

والجوّ لأبي الفضل ـ مالم يُلْزَز في قَرَنٍ[٥١] ـ خال ، وثَمنُه ـ مالَمْ يُحْمَل [٣٠/أ] على ثمنِه ـ غال ، وحُسْنُه ـ مالم يُضَفْ إلى حُسْنِه ـ فائتُ القَدْر[٥٢] عَال ؛ وإلاّ فلا رأيَ للوَعْلِ في مُناطحة الصَّلْد[٥٣] ولا لِهَمّام في مساجلة الأَخضَرِ الجِلْد[٥٤] . أمّا هَمّام فَنجا وفَرّ ، وأما الوَعِلُ فأَوْهى

= تروح على آل المحلق جفنةٌ ... كجابية الشيخ العراقي تفهقُ

خصّ العراقي ، لجهله بالمياه لأنه حضري فإذا وجدها ملأ جابيته . (اللسان : جبى) . والبيت في الديوان : (٢٥٥) من قصيدة طويلة .

(٤٩) متح الماءَ : نزعه واستخرجه .

(٥٠) هذا حديثٌ شريف . وفي الفتح الكبير (٣ : ٣٥٠) : لا هجرة بعد فتح مكة . ولا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة ...

(٥١) استفاد من قول جرير (اللسان : قعس)

وابنُ اللبون إذا ما لُزّ في قَرَنٍ ... لم يستطع صولةَ البُزْلِ القناعيسِ

(القناعيس جمع القنعاس : الناقة العظيمة الطويلة السَّنمة . وابن اللبون ولد الناقة وقد استكمل عامه الثاني ودخل في الثالث . ولزّه به : قَرَنه) .

(٥٢) فائت القدر : لا يُدرك .

(٥٣) الصَّلْد : الصلب الأملس الشديد .

(٥٤) هو همام بن غالب(الفرزدق) . والأخضر الجلد هو الفضل بن العباس اللهبيّ وكان أحد شعراء بني هاشم المذكورين وفصحائهم . وكان شديد الأُدمة ، وهو القائل :

وأنا الأخضر من يعرفني ... أخضر الجلدة من نسل العرب

قال أبو الفرج (الأغاني ١٦ : ١٢١) دخل الفرزدق إلى المدينة فنظر إلى الفضل ينشد : =

قَرْنَهُ[٥٥] ومَرّ !

ولعل أبا الفَضْل لو التَقت حَلَقتا البطَان[٥٦] ، وغَشِيَتهُ مهابة السلطان ، وأُسِرَ في تلكَ المَحافل أَسْرَ القِدّ والحَلَق[٥٧] ، ورمتهُ المُلوكُ ذوو التّيجان بالحَدَق[٥٨] ، وفُجِئَ عَلى غِرّةٍ بإحْدى الكُبَر[٥٩] ، ورُمِيَ بأمر الملك وإنّما هو واحدةٌ كلمحٍ بالبَصَر[٦٠] ، أَسلَمَتْهُ خَواطِرُه إلى الحَصَر[٦١] ، وذَهِلَ عن تلك المُلَحِ واللُّعَبِ ، وكسفَ رَونَقُ تلك النُّتَفِ والشُّعب .

أما إنَّ لأَبي الفضلِ فَضْلاً يُرْعى ، وهو - بعد أَبي إسحاق - مَرعى[٦٢] ، ويُدعى إثره أَوّل من يُدْعى : من رَجُلٍ لطيفِ الحِيلة ، مُشَخِّصٍ للأوهامِ

= من يساجلني يُسَاجِلْ ماجداً يملأ الدلو إلى عقد الكرب

فانصرف الفرزدق ولم يجرؤ عليه ، وقد عَرَفَه .

(٥٥) يشير إلى قول الأعشى (ديوانه : ٦١) :

كناطح صخرة يوماً ليفلقها فلم يَضِرْها وأوهى قرنه الوَعِلُ

(٥٦) يقال : « التقت حلقتا البطان » كناية عن اشتداد الأمر .

- قال أوسُ بن حَجر (ديوانه : ٥٤) :

وازدحَمَتْ حَلقتا البِطانِ بأَقْ... ...وامٍ وطارَتْ نفوسُهمْ جَزَعا

(٥٧) القِدّ : السَّير والسَّوط . والحلق جمع الحلقة : حلقة الحديد وغيره .

(٥٨) الحدق جمع الحدقة (من العين) .

(٥٩) في الكلام اقتباس من الآية الكريمة من سورة المدثر (٣٥/٧٤) .

(٦٠) في الكلام اقتباس من الآية الكريمة من سورة القمر (٥٠/٥٤) .

(٦١) حصر فلان : عي في منطقه .

(٦٢) في أمثالهم (مَرْعًى ولا كالسَّعدان - أمثال العسكري ٢ : ٢٤٢) يقال في الأمر الحسن وغيره أَحسن منه .

الْمُستحيلة ، إن أَصاب فُرْصَةً قتَل ، وإن أَخْطأَها ختَل؛ ومسحَ بالذُّروةِ والغَارب وفَتل[٦٣] ، ضَيَّق من الكلامِ ماتَوسَّع ، ورَقع الْكُوى بالْمَحاجِرِ ورصّع ، وشعّب وفرّع . واخترع من تلكَ الأَخاليقِ مااخْتَرع ، فأَحْسَن وتّم ، وأَدرك من تلك الغاية ما يَمَّم .

وأبو إسحاق إذا تأمّلتَ مداره ، وعايَنْتَ اقتداره ، ولم تَبْخَسْهُ مِقداره ، عاينت رَضْوى وثبيراً[٦٤] ، ورأَيت نعيماً وملكاً كبيراً[٦٥] ؛ وجَنّةً بربوة ، ومَلِكاً في حبوة ، وجِياداً نصَلتْ سابقةً من هَبْوة[٦٦] ؛ وشَمْساً يَجْلُوها السَّعد ، وبَوارقُ يَحْدُوها الرَّعد ، وبَحراً يقذف بالغِنى ويَجُود بما فَوق الْمُنى . وكلّ شيء تهواهُ مُخيّراً وتتمنّى سُؤدده رَهْو[٦٧] ، ومحلُّه دَسْتٌ أَو بَهْو[٦٨] ، ولأَيّامِهِ على سالفِ الأَيام زَهْو . لوأُنْشِرَ عبد الحميد فَنَشِر[٦٩] ، وحَشد عليه بدائِعَهُ وحشر ، لطوى معه مانشَر ، وستَر ماشهر ، وقال : ماذا نَزل بَعدي من البَديع وظَهر ؟

---

(٦٣) يقولون : يفتل في الذروة والغارب أي يتأنس ويُزيل النفور .

(٦٤) رضوى وثبير جبلان مشهوران .

(٦٥) يقتبس من الآية الكريمة من سورة الإنسان (٧٦/٢٠) .

(٦٦) نصل : ظهر .

(٦٧) رهو : ساكن .

(٦٨) الدَّست : صدر المجلس .

(٦٩) يقال : أَنْشَر الله الميت فنشِرَ . وعبد الحميد هو الكاتب الأموي المشهور عبد الحميد بن يحيي (توفي سنة ١٣٢ هـ) من أئمة الكتاب ، ويُضرب به المثل في البلاغة .

(وفيات الأعيان ٣ : ٢٢٨ ، الوزراء والكتاب ٧٢ ، شرح الشريشي على مقامات الحريري ٢ : ٢٥٣ ، أمراء البيان ١ : ٣٨) .

وأنا لاأَعْـدِلُ الهزلَ بـالفَصْل[٧٠] ، ولا الْخَيْزُرانـة بـالنَّصْلِ ، ولا أرغبُ عن الْهُدى ، ولا أضَعُ السَّيْف موضع الندى[٧١] ، ومـا سمعتُ ـ ولا إخـالني [٣٠/ب] أسَـأْتُ سَمعاً ـ بينهما لأَحـدٍ من المتقـدّمين جَمْعـا . وقـد ذكر الثعـالبيُّ أبو منصور ـ وكتـابُـه على هـذا الشـأن مقْصُور ـ أنَّ الْمُماثلـة على الْمَسلك اللاَّحب إنّما وقعتْ بينَهُ وبينَ الصَّاحب ، وأَنّ الْجَهابـذة في ذلـك أَفاضُوا ، وجَالُوا بينهما وخاضُوا . فَهُنالِـكَ رُمِيَ طَوْدٌ بِطَوْد ، وزُوحِمَ عَوْدٌ بعَوْد[٧٢] ، وصُـكَّ صَلْـدٌ بِصَلْـد ، ووضـع جَلْـدٌ بـإزاء جَلْـد ؛ وقُـوِّمَ نَفيسٌ بِنَفيس ، وقُـووِمَ رئيس برئيس . لكن : كـلاهمـا جَرى في البحر والبَرّ[٧٣] ، وانتظمَ حـاشِيَتَيْ النَّفع والضُّرّ وقـام بـالنَّهي والأَمر ، وحَلّ من النفـوسِ مَحـلّ العَـذْب الغَمْر ، وبـاشتراكهما فيما يَخْرُبُ ومُـزاولَتهما لكلّ ما يقربُ من الأَغراض ويَعْزُب[٧٤] ، يقعُ التّمثيل والتّعديل ويَميل النّاظرُ حيث يَمِيل .

وهـذه مـوازنـة الآمِـديّ بين حَبيبٍ والْبُحتري[٧٥] ، إنّما استَنْبَطهـا من

---

(٧٠) الفصل من القول ما كان حقاً قـاطعـاً . والكلام مقتبس من الآيـة الكريمـة من سورة الطارق (١٣/٨٦) ويشبهه قولهم :

ألم تَرَ أن السَّيف يُـزْرى بقـدره ... إذا قيـل إن السَّيف أمضى من العَصـا ؟

(٧١) ينظر إلى قول أبي الطيب (ديوانه بشرح الواحدي : ٥٣٣) .

ووضعُ النَّـدى في مَوضع السَّيف بـالعُـلا ... مضرٌّ كوضـعِ السَّيفِ في مَـوضـعِ النَّـدى

(٧٢) العَوْدُ : المسنّ من الإبل والشّاء ، وفيه بقيّة .

(٧٣) في ترجمة أبي إسحاق الصّابي في اليتيمة مقارنة بين الصاحب والصابي (٢ : ٢٤٥ ، ٢٤٦)

(٧٤) يعزب : يبعد .

(٧٥) قـال الآمـدي في مقـدمـة كتـابـه (الموازنـة بين شعر أبي تمـام والبحتري) ١ : ٧ « ... =

أَثناء ماﺍشْتَركا فيه من يَأس ورَجاء ، وَمدحٍ ورثاء ، وتشبيه وتشبيب ، وتَرْغيبٍ وتَرْهِيب ، ولولا ذلك لَمَا اعتَدلت الأَوزانُ ، ولا وُضع المِيزان ، ولا تبيّنت الخِفّة ولا الرُّجْحان .

فإن تَعاطى الْحُكومَة مُتَعاطٍ ، وخَطا إلى الفَصْل بينهما خاطٍ ، فليؤصّل لِلْمُماثلة أَصْلا ، وليُثْبِت لهذا فصْلاً ولهذا فصلا . فَمَنْ وضع الهناء موضعَ الهناء ، ولم يعدل عن جادّه أهل الدَّهناء[٧٦] ، وارتقى إلى البلاغةِ في أَسبابِها ، وأتى بيوتَ الفَصاحةِ من أَبوابها ، فذلكَ الذَّهبُ الإبريز ، والسَّابق الذي له التَّبْريز . وهذه الصّفة لن تعدُوَ أبا إسحاق : فقد أُعطي التّمام وجُنّب الْمَحاق[٧٧] ، وحاقَ النقصُ بمن حَاق . وهل تقاس ثِمادُ الضَّحضاح[٧٨] ، والسُّحَيْبَةُ تتبعُ[٧٩] أذناب أَعاصيرِ الرّياح ، بِهَطْلٍ كأَفواهِ الجِراح ؛ بِمُسدلةِ الرّواق ، مُنحلّةِ النِّطاق تبيتُ آذانُ شائها تنطِفُ[٨٠] حتّى الصّباح ؟. وكيف يُقال - وإنها لَوَهْيَةٌ[٨١] لاتُرْقَعُ وعَثْرَةٌ لاتُقال - إنّ هذا الماضي الْخَذِم ، والبحرَ الْمُغتلم[٨٢] ؛ يستنصِرُ كهاماً ويَستمطر

= ولكنّي أقارنُ بين قصيدة وقصيدة من شعرهما إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنًى ومعنى ثم أقولُ أيّهما أشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ... » .

(٧٦) الهناء : القطران . الدهناء موضع ، يعني العرب مُطلقاً .

(٧٧) البدر يوم التام كامل ، ويغيب في الْمَحاق في آخر الشهر القمري .

(٧٨) الثماد جمع الثمد : الماء القليل الذي ليس له مدد . والضحضاح : القليل .

(٧٩) يُقال : مابقي في الغدير إلا سُحيبة من ماء أي مويهة قليلة .

(٨٠) نطف : قَطر .

(٨١) الوهيةُ المرّة من وَهى يَهِي : حمق وضعف .

(٨٢) اغْتَلم البحر : هاج .

جَهامـاً[٨٣] ؟. هـذا ـ أعزّك الله !ـ خَرْقُ الإجمـاع وشيءٌ لا يَلجُ في الأَسماع [٣١/أ] حتّى يلـج الْجَمـلُ في سَمِّ الخِيـاط[٨٤] ، وتثبتَ في الـذّئب دَعْـوى الأَسبـاط[٨٥] . وكيف يتعسّف أو يتكلّف من يَـدْعُو الحِكَم فـلا تتخلّف ، وتنقادُ لهُ البَلاغـةُ طَوْعـاً وتـَألّف ، وتتصـدّى إليـه البِـدَعُ فيـأخُـذ منهـا مـا يَشـاء ويَـدع . وهل نفْسُ التّكلف إلا مـا دَفع البـديعُ إليـه ، وتَبعْنـاهُ ـ مَعْشَر الضُّعفاءِ ـ عَلَيْه ، حين عدلنا عن الْمَنهج ، ودخلنا تحتَ الْحَرج ؛ ولو شاء اللهُ بنا يُسْراً لوضع عنّا من هذه المشقة إصْرا ؟!.

فالصَّابي يُنَسِّق أعلاقاً ، ونحن نُلفّقُ أخلاقـاً ، ونكابِـدُ ـ ومفـاتح غنـاه تَنُوءُ بالعُصبةِ أُولي القُوّة[٨٦] ـ إملاقا . وعُمدةُ إحساننـا حين تعزمُ إنمـا هي لزومُ ما لا يلزم ، ومُقابلاتٌ يُبْدأ بها الكلامُ ويُختم ، يعثُر فيها القلَمُ ، ولا يكاد يُقيمهـا اللسـانُ والفم ؛ فكأنّنـا نُضـارِعُ الـدّرّ بضَريـع[٨٧] ، ونُحـاسِنُ بـالهشيم خُضرة الرَّبيع ، ونضرة الرَّوض الْمَريع ، ونُبـاهي رَصْفَ الْخَورنق بنسْجِ الْخَدرْنَق[٨٨] ، من كل هَلهلٍ أسمال ، عَرِيٍّ من الْحَصافة والْجَمال !

---

(٨٣) الكهام من السيوف الكليل غير القاطع ، والجهام من السَّحاب الذي لا مطر معه .

(٨٤) الجمل : الحبل الغليظ . والكلام مقتبس من الآية الكريمة في سورة الأعراف (٧/٤٠) .

(٨٥) يعني إخوة يوسف ، ضرب هذا مثلاً لِما لم يكن أو لِما لا يكون .

(٨٦) اقتبس في العبارة من الآية الكريمة من سورة القصص (٢٨ : ٧٦) .

(٨٧) الضريع : العوسج الرطب ، وفي التنزيـل العـزيـز ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلاّ مِنْ ضَرِيعٍ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ . والضريع : نبات منتن يرمي به البحر .

(٨٨) الخورنق قصر مشهور قديم ، للنعمان بن المنذر الأكبر . والخدرنق ذكر العنكبوت .

فبعيشكَ أين نحْنُ في تُرَّهاتِ الأَمـاني من سَحْق اليَماني[٨٩] يُحـدّثُ عن ذي رُعَين[٩٠] ورفعته ما شئتَ في اليَدِ والعَيْن .

أَجلْ ! لو وُقّتَ للبُلَغاء يوم لا يَعْدُونـه ، ونُصِبَ لهم حَوْضٌ على قَـدْر الإحسان يَرِدُونه ، لورَد أبو إسحاق أَوّل وَارِدٍ ، وأخـذَتْنـا مع (البَـديع) عِصِيُّ الـذّوائـد[٩١] ، وضَرب صـاحِبُ الحـوضِ بيننـا وبينـه سُوراً ، وقـال ارجعُوا وراءَكُم فـالتمسوا نُورا[٩٢] ؛ ليس بكـلامكم من البـلاغـة طِرق[٩٣] ، ولا نَبضَ لكم في الإعرابِ عِرق ، هذهِ جَعاجعُ رِئمان ، وقَعـاقِعُ شنـان[٩٤] ؛ وهذا ابنُ لَحِيِّكُمْ ، وآفة مَيتكمْ وحَيِّكم ، غَيَّر العَربيّة السَّهلـة ، وجهل عليكم هذه الْجَهْلة ، وبَدَّل دينه[٩٥] ، فاقْتُلوه ، وخُذوه فاعتلُوه ، وأَلحقوا بـه من استبصر فيما شرَع ، وتجاوزوا عَمّن أَقصر ونزع[٩٦] !

وأمّا فَخْرُكَ لهُ باللّقب[٩٧] الـذي لا يُسَوّغـه الشَّرع ، ولا يحملـهُ الأَصْلُ

---

(٨٩) السّحق : الثوب البالي .

(٩٠) اشتهرت اليمن بالنسيج . وذو رُعَين : جَدّ من اليمن يُنسب إليه خلقٌ كثير .

(٩١) ذاده : دفعه وطرده .

(٩٢) اقتباس من الآية الكريمة من سورة الحديد (١٣/٥٧) .

(٩٣) الطرق : القوّة .

(٩٤) شِنان جمع شن : القربة الْخَلَقُ الصغيرة .

(٩٥) يشير إلى أثر الهمذاني في سيطرة السجع والصنعة على أُسلوب الكتابة والترسل خُصوصاً .
ـ وقوله : ابنُ لَحِيّكم : لَحِيّ وزن فَعول (بمعنى مفعول) من لحاه : عذَلَهُ وقَبَّحه !

(٩٦) نزع عن الأمر : كفّ وانتهى .

(٩٧) يعني « بديع الزّمان » .

ولا الفَرع ؛ فهو إلى أن يكونَ غِلَّ إسارٍ ، أقربُ منه إلى أن يكونَ طوْقَ نُضار ، [٣١/ب] وقد نَهانا خاتمُ الأنبياء - صَلّى الله عليه وسلم - عن أَخْنع الأَسماء[٩٨] وقال اللهُ في مُحكم الكتاب : ﴿ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾[٩٩] وما قَصّر الجدّ لابن هِلال ، ولقد وَسَم أباهُ بِميسم جمالٍ[١٠٠] ، سيّره وأشاعه ، وألقى عليه رِداءَهُ وشعاعه .

ولله دَرُّ أبي مَنْصُور . لقد نَصرهُ في مواطنَ كَثيرة ، وأَفْرَدَهُ بالْمَنْزلَة الأَثيرة ، لأَنّه قال : إنَّ اللهَ هداهُ لِمَحَاسن الْكَلام ، ولم يهده للإسلام[١٠١] ، وقال فيه وفي الصّاحب : وكيف جَرى الأَمْرُ فَهُما هُما ، ولقد وقَفَ فَلَكُ البلاغة بعدهما[١٠٢] . ورأى من مَناقب أَبي الطيّب وفَخْره ، ما نَثراه في رسَائلهما وتمثّلا بهِ من شِعْره . وهذا على تَقْديمه نَصّ ، وأَنَّهُ بالفَضِيلة مُختصّ ، وليسَ على أَبي الفَضْلِ في كماله نَقْص ، لأَنّه إلاّ يكنْ صاحبَ رِضوان ، فهو تابعٌ بإحسان[١٠٣] .

وإنّي - أَعزّك اللهُ ! - وإن أَومأْتُ إلى خِلافِك ، لَمِنْ أَصفيائِك

---

(٩٨) في (ط) أشنع .

(٩٩) سورة الْحُجرات (٤٩/١١) .

(١٠٠) يعني اسم أبيه « هلال » .

(١٠١) يتيمة الدَّهر ٢ : ٢٤١

(١٠٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٦

(١٠٣) جعل الهمذاني تالياً في المكانة لأبي هلال الصّابي (وشبههما في فضل المنزلة بما بين الصحابيّ والتّابعي) .

وأَحلافِك ؛ لكن يُسْتَدعى الرِّفق فيسمحُ بما فَوق القَدر ، ويُستَوْعى الحقّ فيرد الماء إلى الْجَدْر[١٠٤] .

[٥٤]

ولهُ[☆] ـ رحمَه اللهُ ـ [الطويل]

وإني لأَسْتَحْيِي أَخِي أن أَرى لَـهُ عَليَّ من الحَقِّ الَّذِي لا يَرى لِيَا[١]

نعم نَعِمَ ناظِرُك ، وأَشرقَتْ مطالِعُك ومَناظرك ، وروّضَ باديكَ وحاضِرُك ، وسَقتك البُروق ، وتنكّبتْ ساحاتِكَ الشُّهب الرّوق[٢] ، فإنّ أَدبك اليانعَ هَبّ هبوبَ النّسيم ، وخَلص إليَّ خُلوصَ البُرْءِ إلى السَّقيم ، وأَلقى عِصيّ الحَاضِر الْمُقيم[٣] ، حين أنصلتْ[٤] أَسِنةُ الأَقلام ، ووضعتُ

---

(١٠٤) في الحديث : اسق أرضك حتى يبلغ الماء الجدر ، والجدر : أصل الجدار .

[٥٤]

(☆) رسالة إلى صديق ، نموذج للرسائل الإخوانيّة في ترسل ابن أبي الخِصال .

(١) البيتُ لجرير ، في الكامل للمبرّد ٢ : ١٣٧ ، ومعناه : « إنّي لأستحيي أخي أن يكون له عليَّ فضلٌ ولا يكون لي عليه فضل ومنّي إليه مكافأة فأستحيي أن ارى عليَّ حقّاً لِما فَعَل إليّ ولا أفعل إليه ما يكون لي به عليه حَقّ » .

ـ والبيت ممّا أخلّ به الدّيوان .

(٢) تنكّب عنه : تنحّى ، وعدل .

(٣) يقال ألقى عصا التّسيار ، إذا نزل واستقر ، وقال زهير (المعلقة) .

فلما وردنَ الماء زرقاً جِمامُه وضعْنَ عِصيَّ الحاضِرِ الْمُخَيِّمِ

(٤) أنصلَ السهمَ : نزع نَصْلَهُ .

أوزارَ الكلام ، وأتبعتُه بعد الحولِ اسمَ السلام[٥] وفارقتهُ مفارقَة عمرو حين شَبّ لِطَوقهِ[٦] ، ونبذتهُ نَبْذَ أَبِي صَخر بعد الحاجبيَّة لنسيبهِ وشوقِه[٧] ، وخلعتهُ خَلْعَ المَفَارِق للشَّبابِ المُفارِق ؛ ولطالما أَطَعْتُه أَميرا ، وقطعتُ اللَّيل به سميراً ، وقُمت عليه قِيامَ الوازع ، وصادَيْتُه مُصاداة السِّرب النّازع[٨] . فالآن حين آثرت على النَّصَب الراحة ، وقلتُ له ما قالَ لناقَتهِ بعدَ الحِسَاءِ [٣٢/أ] ابن رَواحة[٩] ، ونصبتُ من القُتر[١٠] ، وعَطَّلْتُ قوسَهُ من الوَتَر ، وودّعتُه [كما] ودّعَ يحيى بنُ طالب اليَمامَة[١١] ، ومالكُ بن

---

(٥) استفاد الكاتب من قول لبيد (ديوانه : ٢١٣) يخاطب ابنتيه :

إلى الحَوْلِ ثمّ اسم السَّلام عليكُما   ومن يَبكِ حَولاً كاملاً فقد اعتَذرْ

(٦) من المثل : شب عمرو عن الطوق (أمثال العسكري ١ : ٥٤٧) .

(٧) أبو صخر هو كثيّر عَزّة شاعر الغزل الأُموي . والحاجبيّة هي عَزّة بنت حُمَيل من بني حاجب بن غفار . وهو القائل :

وددت وما تغني الودادةُ أنّني   بما في ضمير الحاجبية عالمُ

(٨) صاداهُ : عارضَه . النازع : الذي غلب عليه الحنينُ إلى وطَنه .

(٩) هو الصحابي الجليل عبد الله بن رواحَة (توفي شهيداً سنة ٨ هـ) شهد المشاهد والغزوات مع رسول الله ﷺ ، وكان من الأمراء (لمكانته في قومه) من الشُّعراء والرّاجزين وكان استشهاده بمؤتة . بقي من شعره قدر طبع في ديوان لطيف الحجم (جمعه د. وليد قصاب ـ دار العلوم ـ الرياض ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢ م) .

ـ والإشارة إلى قول عبد الله بن رواحة في مسيره إلى مؤتة (ديوانه ١٥١) .

إذا أدّيتني وحمَلْتِ رَحْلي   مسيرةَ أربع بعد الحِسَاء

فشأنُك أنعمٌ وخلاكِ ذمٌّ   ولا أرجعْ إلى أهلي ورائي

(١٠) القُتر جمع قتره : حلقة الدرع .

(١١) هو يحيى بن طالب من بني حنيفة ، من اليمامة ، شاعرٌ مقلّ من شعراء الدولة العباسيّة كان جواداً سخيّاً يقري الأضياف فركبه الدَّيْنُ الفادح فجلا عن اليمامة إلى بغداد يسأل =

الرَّيبِ نَجْداً وتِهَامة [١٢] .

فتلك فوارسُ الأقلام لا تنتهز فُرَصا ، وجَوارِحُها لا تُرِيْغُ قَنَصاً ، ولو قُيِّض لها إنهاض ، وأُتيحَ تَصوُّبٌ وانقِضاض ؛ لزاحَمَتها الرَّخَمُ ، وكان لها دونَها الحظُّ الأَفخم .

فَعُذراً إلى ذلك الاحتفاء ، وصَبْراً على ما كانَ من الجَفاء ؛ فما أُلفيتُ من الخاطِرِ مَطْلُوباً ، ولا أَتيتُ ما أَتيتُ إلاّ مجْبُوراً مَغْلُوبا . ولقد أنكرت اليراعةُ يُمْناها ، وعقّت البَراعةُ أَبا مَثْواها ؛ وتبرّأ الإحْسَانُ مِمّن كان يتَوَلاّه ، وتجَهَّم الزّمانُ فحطّ في هَواه ؛ ومن خانته فِطَرُه ، وناصَبَتْهُ فِكَرُهُ فَأَمنه حَذرهُ ، وبحقٍّ أن يذرَ مَنْ يَذرُه .

وما خَططته ـ على ما عندي من كَلَفٍ بِمُناجاتك وَحرص ـ إلاّ ونَزْعُ أَثْبَتِ ضِرْسٍ ، أَيْسَرُ من لَفظٍ أُثْبِتُه في طِرْس [١٣] . فقوامُ هذا الشَّأن إنّما هو

= السلطان قضاء دَيْنه . وله شعرٌ في الحنين إلى اليمامة ، كقوله :

إذا ارتحلتْ نحو اليَمامة رُفقةٌ ... دعاك الهوى واهتاج قلبك للذكرِ

(الأغاني ١٣ : ٢٨٩ وسمط اللآلي : ٣٤٩) .

(١٢) هو مالك بن الرَّيب المازني ، شاعر فارس قضى زماناً من عمره لصّاً في الفاتكين ثم تاب ، وغزا ، ومات في خُراسان غريباً . وله القَصيدة المشهورة في رثاء نفسه .

(الأغاني ٢٢ : ٣٠٣ وخزانة الأدب للبغدادي ٢ : ٢١٠) .

وقد ذكر في قصيدته هذه دياره (ديار بني مازن) وكانت في طريق البصرة إلىمكة .

(١٣) الطِّرس : الصحيفة ، وقد كان الفرزدق كما روى ابن رشيق (العمدة ١ : ١٣٦) يقول : « تمرُّ عليَّ الساعة وقلعُ ضرس من أضراسي أهون عليَّ من عمل بيت من الشعر » .

بـالمُزاولـة والإدمـان ، وإلاّ فهو سَريـعٌ تفصِّيـه[١٤] مُتعبٌ تَتبُّعـه وتَقصّيـه ، ومـا أَسـأتُ ـ حين دعـوتَ ـ سَمعـاً ، ولكنّي لم أَستطـعْ لِمعـزْى الفِـزْر جمعـاً[١٥] ، ومـا لَوَيْتُـكَ عن وُجْـد ولا أَخلفتُ موعِـدَك بوُد ، ورُبَّ عَـزيمٍ لا يُقْضى حتى لا يجِـد مِن بُـد . فـأمّـا ترقُّبـك للأَنواء ، وتقلّب وجهـكَ في السَّماء ؛ وانتقالك في أَعدادِها ، وعتبك من إخلافِ عِهادِهـا ، فَما يفتحُ اللهُ للنّاسِ من رحمةٍ فَهُم في وعدِه ، وما يُمسكْ فلا مُرسلَ لهُ من بَعْدِه[١٦] .

ولَعمري إنَّـهُ لعـامٌ أَخْـوَتْ فيـه نجـومُ الأخـذ[١٧] ، ولم تَسمـح إلاّ بالنَّبْذ[١٨] ؛ ولكنّها بفضلِ اللهِ كرّت ، وأَضعاف مـا سـاءَت سَرَّت . ولسنـا ممّن يبطرُ فإنّما بفضلِ اللهِ نُمْطَر . وإن قال قائلٌ : نضرةُ الرّوض مـاتت ، ومنفعة الغَوث فاتت ؛ وإنـه لو أَنِيَ لأَوانِـه[١٩] ، ولجَّ في تَهْتـانِـه ، دَفعنـا بالحكمةِ في صَدْر بُهتانِه ، ورَدَدْنا إليـه فضْلَ لسـانـه ؛ قـد تعرِضُ المواردُ ، ويَعرضُ نفسَـهُ الـزُّلالُ [٣٢/ب] البـارِد ، فَيُعْرِضُ عنـهُ الـوَارِدُ حتّى إذا حَظره من اللهِ مَنع ، أو حَرّمـه [للأَسنّـة ؟] شعـاعٌ يستطيرُ فوقَـهُ لَمْع ؛

---

(١٤) تفصّى : تخلّص وتفلّت .

(١٥) الفِزرُ : اسم رَجُل كان له معزى فأبى أولاده من رعيها فوهبها للنّـاس (يـأخـذ الرجل منهم واحـدة) فضربوا المثل بـه وقـالوا في كلامهم : لا آتيـك مِعْزى الفِـزر ، أي حتى تجتمع ، وهي لا تجتمع أبداً .

(١٦) في الكلام اقتباس من الآية الكريمة من سورة البقرة (١٤٤/٢) وفاطر (٢/٣٥) .

(١٧) نجوم الأَخـذ : منـازل القمر ، وأخوت النجوم : أمحلت ولم تُمطر . وقولـه : فمـا يفتح الله إلخ ، اقتباس من الآية الكريمة ٢ من سورة فاطر .

(١٨) النبذ : الشيء القليل اليسير .

(١٩) أني يأنى أنىً : تأنى وتثبّت .

بُذلتْ فيهِ المُهَجُ وكان أَعزّ عِلْقٍ يُكْلَفُ بهِ ويُلْهَجُ ، وأمسى للنَّفس شقيقـا ، وإلى الحياةِ طَريقاً ؛ يَسْري بمسراهُ لطَفُه ، ويُفضى حَيث أفضَت نُطَفُهْ !

لا جَرَمْ إن هواها مداه ، ونَداها بنَداه ؛ وسناها يَقـدحُ ، أو يَجْـدَحُ ، من سَنـاه . ومـا أَشتَهي وليلي هـادئ هـادنٌ[٢٠] ، وأنـا مُسـالِمٌ ، والمسـالِمُ بـادن[٢١] ، أن أَلقى خفيفَ الحشَـا ضَرْبـاً[٢٢] ، لا يثني غَربـا[٢٣] ، ولا يَني طَعنـاً مُتـداركاً وضَربـاً . إن كاثَرتْـهُ الظُّلَمُ فهو ضوءُ البـلادِ ، أَو سـاجلتْـهُ الحـدث[٢٤] فهـو عينُ العـادِيّ التـلاد ، أَو جـارَ البُلغـاء فهـو على السَّنَنِ الَّلاحِب . أو فاز الطُّلَقاء[٢٥] فإنَّما هو تابعٌ لأَرْضى صاحِب .

أجَلْ ! لقـد كانَ في الفَصاحـةِ ثـانِيَ اثنَيْن ، وذا هِجرتين ، وحـامـل رايتين ، والْمُسْتـولي على غَـايتين ؛ يَـؤُمُّـه أَهـل الحـديث ، بـالرّكض الحثيث ، فيقيم إسنادَهُ ويثقّف مُنْآدَهُ[٢٦] ، ويعلمُ صلاحَـهُ وفَسـادَهُ . وأمّـا أَهل الأَدب فينسِلُون إليـه من كل حَـدَب[٢٧] ، وينتـدبـون نحـوَهُ من كل

(٢٠) هدن : سكن .

(٢١) بَدَن : ضخم جسمه .

(٢٢) الضَّرْبُ : الرجل النَّدب الماضي ، ليس برَهْل .

(٢٣) الغرب : النشاط ، والتمادي في الأمر .

(٢٤) كأنها جمع حديث ، وضبطها في المخطوطة الْحُدُث .

(٢٥) إشارة إلى حديث فتح مكّة . واستفادَ منه استفادة لفظيّة .

(٢٦) تضمين من قول عديّ بن الرقاع (الطرائف الأدبية : ٨٩) .

وقصيـدة قـد بتُّ أجمع بينهـا حتى أقـوّم ميلهـا وسنـادهـا
نظر المثقف في كعـوب قنـاتـه حتى يقيم ثقـافـهُ منـآدَهـا

(٢٧) في الكلام اقتباس من الآية الكريمة من سورة الأنبياء (٩٦/٢١) .

مُنْتَدب ، فيكْرَعُون في حِياضٍ تَفهق[٢٨] ، وينعمون في رياضٍ تَندى طيباً وتَعبق ، ثم يَصْدُرون عن غَمرٍ تغترف منه الأَحياء ، ولا تكدّرهُ الدلاّء[٢٩] . ومَنْ كان ذُبابَ هذا النَّصل[٣٠] ، وفرع ذلك العُنصر الكريم والأصل ؛ فلا أَيدَ يُصاوِلُه ، ولا يدَ تُطاوِلُه[٣١] ، ولا فَوْتَ على ما يحاوِلهُ ؛ مَنَّ الله بإقبالٍ يَنتضيه ، وزمانٍ يُرْضِيه، وتنفُقُ أعلاقُ الإحسان فيه ؛ فيعرجُ إلى مُرتقاه ، ويبعُد على القرب مُلتقاه .

وقد وَفّى (فلان) أبقاه اللهُ ما تحَمّل ، وفَسَّر ما أجْمَل ؛

واللّهُ الكفيلُ بما أمّلت له وأَمّل ، بجودِه ومَجْده . وأقرأ عليه - دامَ عِزُّه ! - سَلاماً لو عُصر منهُ المسكُ لانْعصَر[٣٢] ، يُونِقُ السَّمْعَ والبَصر ، ويُهْدِي إليه في السَّمُومِ الْخَصَر[٣٣] ، ويُشارِكهُ هدءُ الليل به السَّحَر ؛ يخبرُ عن وُدٍّ مشربه العَذْب ماأَبْحَر ، ثم السَّلامُ عَبقاً ، ويُهْدَى نَسَقاً ، على حَضرتِه الْجَليلة ؛ ورحمةُ الله .

---

(٢٨) فهق الإناء : امتلأ .

(٢٩) الغمر : الماء الكثير ، والبحر . وفي الكلام تضمين لقول حسان (ديوانه بتحقيق عرفات : ١ : ١٨) .

لساني صارمٌ لاعيب فيه وبحري لاتكدّره الدّلاءُ

(٣٠) ذباب السيف : حدّه وطرفه الذي يُضرب به .

(٣١) الأيد : القوّة . والأَيِّدُ : القويّ .

(٣٢) ضمّن بيت أبي النجم العجليّ (ديوانه : ١٠٣)

☆ لَو عُصر منهُ البانُ والمسكُ انعصَرْ ☆

(٣٣) السَّمُوم : الريح الحارّة ، والخَصَرُ من خَصِرَ الماءُ (والنهار) إذا بَرد .

[٥٥]

ولهُ(☆) ـ رحِمَهُ اللهُ ـ :

[٣٣/أ] سَيّـدي الأعلى ، وشِهـابِيَ الأَنْفَس الأجلى ، وحَسنـة الـدَّهرِ الْمُثلى ، بقيْتَ في نِعمـةٍ لاتَبْلى ، وإقبـالِ وجهُـه يَتجلّى ولا يَتـولّى ، ولا زلت تَجني مِن آمالكَ الثَّمَرَ الأعذبَ الأَحْلى ؛ رُبّ حظٍّ لمكانه يُرْجـأ ، ومَوهبةٍ بعد اليأس منها تَفْجأ[1] ، ومَكْرُمةٍ إلى حِينها تُصانُ وتُخْبأ .

وتلك سبيلُ كتـابـك الْخَطيرِ مَحلُّـه ، المنير مَطلعـهُ ومُستَهلُّـه ، فـإنّ ربَابَهُ[2] ـ غِبَّ الْمَحْلِ ـ هَطَل ، وقضَى بعدَما مَطَل :

وَافى والهِلالُ قد أكلَ قُرْصَهُ المَحاقُ ، وأَضْنَتْ عِلَّتُه الْمُعتادَةُ شخصَـهُ فما تَبيّنَتْهُ الأَحداق ، إلاّ بـاقيـةً كالعَلامـةِ ، وحـاشيـةً مثل القُلامَـة ، تُبـدي صَفحةُ الغَرْبِ منها سِرّاً مكنُوناً ، وتَخُطُّها بيمينِها فَتَدِقُّ وتُدْمَجُ نُونـاً ! فما يُثْبِتُ وَهْماً في ذلـك الضَّحضـاح[3] حتى تغشـاه لججُ الصَّبـاح ، وتفقـده الأَبصار ، ويلفّهُ في مُلآءته الإسفار . وما كاد نورُه يخبو وأفقُه منـه يخلو ؛

---

[٥٥]

(☆) رسالة جوابيّة إخوانيّة إلى صديق .

(١) والمقصود : يُرْجَأ (يؤخّر) وتفجأ . (بالهمز) من المفاجأة .

(٢) الرّباب : سحابٌ أبيض (واحدته ربابة) …

(٣) الضَّحضاح : الماء القليل .

ولا كَرَبت[٤] فحمة الليل تغطُو[٥] ، وغياهبهُ تَسْطُو حتّى لاح لِمطالَعتِـكَ الباهرة منهج وسطعَ لشمائِلكَ العاطِرَة أَرج ؛ فظلتُ بعد مَحاق السِّرَر[٦] ، في إشراق الغُرَر ، ونعمتُ من رُقعتها ببـديـع الْحَـوَر ، وصـورة هي أبهى الصُّـور ؛ وكحلتُ النـاظرَ منهـا بِما أقرَّه وشفـاه ، وأضربتُ بهـا عن ذلـك النِّضو[٧] النّاحِل وشفاه . يميناً إنّها لفائدة العُمر ، وما يسرُّني بها ملك رب البيض والسُّمر ، ولا مـلء البـلاد من السُّـود والْحُمر ! فقـلْ في نضرةٍ بعـد البِلى ، وهَبّةٍ أعادتْ عهـد الشّبيبـةِ وقـد وَلّى . لاجرَمْ ! إنهـا يـدٌ للزّمـان أَجـدُ روحَهـا اتّصـالاً ، ولا أَجـدُ عن حقّهـا انفصـالا ، فـأنـا في شكرهـا راتب[٨] ، وعَليه في مَطْلِي بها عاتِب . لكنّـهُ نِعْمَ مـااستغفرَ بعـدمـا أَجْرَم فلقـد أعطى أَضعـافَ مـاحَرم ، ووصَـل أمثـالَ مـاصَرم . آليتُ لاأَطْلُبـه بجَريرة ، ولا أكشفُه بعـد٠هـذه عن سَريرة . فما ينصحُ هـذه الْمُنـاصحـة ظَنين[٩] ، وإنه وقد أدّى هـذه الأَمـانـةَ لأَمين . وأَمّـا العـذر بـالْمَهـابـةِ ، والتوقّف عند الْمُفاتحة [٣٣/ب] بعـد الـدُّعـاء إليهـا والإهـابَـة ؛ فـذلـك مَذهبُ الإحسان ، وبِرُّ (يسمح ؟) ... اللسان[١٠] ، وإلاّ فقـد مَضَى مثَلُ

---

(٤) ماكرب : مأأوشك .

(٥) غطا الليل : أظلم وسترت ظُلمته كلَّ شيء .

(٦) السِّررُ : ليلة السرار ، وهي آخر ليلة في الشهر .

(٧) النّضو : المهزول . وشفاه : حرفه والقليل منه ، يقال : مابقي منهُ إلا شفا !

(٨) راتب : ثابت دائم .

(٩) الظنين : المتهم ، الذي لا يوثق به .

(١٠) في النص كلمتان غير واضحتين . ولعل الثانية منهما : « اللسان » .

النُّعمان ، وما أَشبَه هذا المخوفَ بالأَمان[11] ، وما كل عشاءٍ يَسْقُط بصاحِبه على سِرْحان[12] . وربَّ رامٍ أَرْمى من ابن ثُعَل[13] للهَدف ، وراعدة تتجلّى مَخِيلَتُها عن صَلف ؛ وإن الودّ من عهدِ تلك الإلمامة اليَسيرة ، واللّقاءةِ القصيرة ؛ ليرفَعُك في الضّمير نَصّاً ، ويَخُطُّك في الفؤادِ شَخْصا . ولقد وَفتْ لي تلكَ النظرةُ الفَذّة ، وساعة مذاكرانكَ الْحُلوةِ اللَّذّة ؛ بأقصى ماأَومأتْ إليه ، ودَلّت عليه من مَكْسِرٍ[14] عَذب ، ومُختبر عَضْب ؛ وما الطِّرْفُ إلا عَدْوَة ، وهل السَّيف إلا رَوْحَةٌ أو غدوة ، ولا الرُّمح إلا مَشْقَة ، ولا المسكُ إلا فَوحةٌ فاغِمةٌ[15] ونَشْقَه ؟ وإني لأَسرعُ إليك من الظّمآن إلى الماء ، والْحَرّان إلى بَرْد الهواء ، والسَّقيم إلى الشّفاء ، والمظلومِ إلى الإعْداء[16] ؛ بل من بني قَيْلَة إلى الفَزعِ[17] ، ومن أَشْعَب إلى

---

(۱۱) هو النُّعمان بن المنذر ملك الحيرة .
ـ والإشارة إلى خوف النابغة من النُعمان ، وقد هدر دمَهُ . وخبرهما مشهور .

(۱۲) من المثل العربي (أمثال العسكري ۱ : ٥١٤) : « سقط العشاءُ به على سِرْحان » . والسرحان : الذئب . يُضربُ مَثلاً للحاجة تؤدّي صاحبها إلى التَّلَف . وللمثل قصّة .

(۱۳) يُضرب المثل برماة بني ثعل (ثمار القلوب : ۱۲۰) ، وقال امرؤ القيس (ديوانه : ۱۲۳)
رُبَّ رامٍ من بني ثُعَلٍ ... مخرج كفّيه من ستره

(١٤) يقال : فلانٌ طيّب المكسِر : إذا كان محموداً عند الخِبرة . والطّرف : الكريم من الخيل .

(١٥) مشق أسرع ، وامتشق السَّيف وغيره : استلّه . وفغمت الرائحة البيت ملأته .

(١٦) أعداه : نصره ، وأعانه .

(۱۷) بنو قيلة (الأنصار) نسبة إلى قيلة بنت الأرقم بن عَمرو بن جفَنة بن عمرو مزيقياء (جمهرة ابن حزم ۳۳۲) وفي الحديث (النّهاية : فزع) : إنكم لتكثرون عند الفَزع وتقلّون عند الطَّمع .

الطَّمَع[١٨] ، ومن حارثة إلى زيـد[١٩] ، ومن عبـد اللهِ إلى دُرَيـد[٢٠] ، ومن حُضَيرِ الكتَائب إلى أُسَيد[٢١] ، ومن أهلِ البَطَـالـةِ إلى حُمَيـد[٢٢] ! بل من السَّيـل إلى القَرارة ، والنَّـدى إلى جفنِ العَرارة[٢٣] . واللهُ بِجُـوده واقتِـداره يُعِيْنُ على شُكر بِداره[٢٤] . ويَجزي حقَّ إيرادِه في الوُدّ وإصْدَاره ، لا رَبَّ غيرُه . واقرأ عليهِ سَلاماً يَنْدى عَبقـا ، ويُهْـدى نَسقـاً ، ويكونُ لِصفـائـه طبقا !

---

(١٨) هو أشعب بن جبير (ت ١٥٤) ويضرب به المثل في الطمع (ثمار القلوب : ١٥٠) .

(١٩) هو حارثة بن شراحيل والـد الصحـابيّ الجليل زيـد بن حـارثـة . وكانت أم زيـد قـد زارت به قومها فأخذه قوم أغاروا عليهم وباعُوه في عكاظ . ولحارثة شعرٌ في فقـد ابنـه أوّله

بكيتُ على زيـــد ولم أدر مـــا فَعـل ... أحيّ يُرَجَّى أم أتى دونــه الأَجـل

(العقد الثمين ٤ : ٤٦٧ وسير أعلام النبلاء ١ : ٢٢٠) .

(٢٠) هو عبد الله بن الصّمة أخُو دريد .

(٢١) حُضير بن سماك كان رئيس الأَوس يوم بُعاث ومات قبل الهجرة بست سنين . وخلفـه ابنه في الرياسة وأُسيد بن حضير من النُّقباء حضر العقبـة الثـانيـة . (سير أعلام النبلاء ١ : ٣٤٠) .

(٢٢) لعلّه حميـد بن ثور الهلالي الشـاعر المخضرم المعروف (نحو ٣٠ هـ) : انظر تهـذيب ابن عساكر (٤ : ٤٦٢) .

(٢٣) العَرارة : واحدةُ العرار : نبت طيّب الرّائحة .

(٢٤) البِدار والْمُبادرة مصدر : بادَر : أي أسرع إلى الشيء .

[٥٦]

ولَهُ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ :

أطـالَ الله بَقـاء الفقيـه الأَجل ، القـاضي الأَفضـل ؛ وعقبـهُ متبـوع ، وأَمْرُه مسموع ، وحَوضُه موروُدٌ ، وصـدرُ مُنـاجيـه بثَلَج[1] الأُنس مَبرود ؛ ولا زَال جَنَابُهُ وارِفَ الظّلال ، ونارُه مرفوعةً بِمُبتغي النَّوال .

إذا اتّصلت طريقُك ـ أعزّك الله ـ من بَسطـة[2] إلى منْتِيشـة[3] ، فقـد

---

[٥٦]

(☆) رسالة إلى صديق فقيهٍ من أصدقائـه ينتمي في العرب اليمانيـة (الأَذواء) ، يعـاتبـه ألاّ يعرّج عَليه وقد اقْتَرب من مقامه وعلى الرسالة طابع الرسائل الإخوانية .

(١) ثلجت نفسه : اطمأنّت وسكنت .

(٢) بَسْطَة مدينة بالأندلس تابعة لكورة جيَّان ؛ ثم صـارت تـابعـة لغرنـاطـة بعـد سقوط جيّان (وما تزال إلى اليوم تابعة لغرناطـة) ، وتقع في وادٍ منخفض في منطقـة جبـال سييرّانيفـادا . واشتهرت بسطـة بكثرة الغلال الـزراعيـة ، وصنـاعـة البسـط والنَّسيـج وبوفرة المياه والبساتين .

قال في الآثار الأندلسيـة البـاقيـة (ص ٢٣٣) : وقـد لبثت مـدينـة بسطـة في أيـدي المسلمين طوال الدولة الإسلاميّـة ولم تسقـط إلا سنـة ١٤٨٩ م (٨٩٥ هـ) وبعـد دفـاع مجيد خلدته صحف العصر .

(الروض المعطار ١١٣ ، معجم البلدان ١ : ٤٢٢ ، الآثار الأندلسية ٢٣٣) .

(٣) منتيشة (وردت في أعمال الأعلام بصيغة : منتاشة) مدينة بالأندلس كانت من أعمـال كورة جَيّان ، وهي مدينة مطلّة على بساتين وأنهار وعيون .

نغّصتَ علينا المعيشةَ ، وطويتَنا بِبُكورك وانفردت دُوننا بِجَني باكُورك[٤] . وما هو إلاّ المُجاهرةُ بالقَطيعة والتّصريحُ ، أو البُخل الصَّريح . وما نرضى لك وأنتَ من ذَوائبِ الأذواء[٥] ، صنيعَ بني الخَذواء[٦] [٣٤/أ] لمّا دَنَا الأضحى وصَلَّت اللّحام ، قالوا لِضَيفِهم : « لَعَكٌّ منكَ أَقربُ أو جُذام ! »[٧] .

راجِعْ - أعزّكَ اللهُ - كرمَك ، وجهّز نحونا دِيَمك ؛ وإن لم تزُرنا فرِفْدُك يزُور ، وإنْ جُرت عَمداً فَجُودُك لا يَجُور ؛ بل يعتمدنا اعْتِماداً ، ويَتَدارك بساحاتنا عِهادا ، ولولا خوفَ الوطأةِ الثّقيلة ، والتَّعلّل بإقامَتِك القَليلة ، لانتدَبْنا نحوك كلَّ مُنتدَب ، ووردْنا عليكَ ورود فرضِ لا ندب ، وقضينا من منتيشةَ كل وَطر وأرَبٍ ؛ وامتَطينا إلى ذلك

---

(٤) بكَر بكوراً : خرج غدوةً (صباحاً) . والباكورة من النخيل (وغيرها) : التي تُدْرك (تنضج) أوّلاً .

(٥) الأذواء : جمع ذو ، بمعنى صاحب ، تدخل في ألقاب ملوك اليمن القدامى ، فيقال ذو يزن وذو الكَلاع ، ونحو ذلك . ويقال فلان ذؤابة قومه : شريفهم والمقدّم فيهم .

(٦) يُقال للأتان : الخذواء (أي المسترخية الأُذن) .

(٧) نثر الكاتب بيتين لأبي الغُول الطُّهَويّ ، يهجو قوماً ، وهما : (في اللسان : ل ح م) :

رأيتكمُ بني الخَذْواء لمّا ... دنا الأَضْحى وصَلّت اللِّحامُ

تَولَّيتُم بِوُدّكمُ وقُلتم ... لَعَكٌّ منكَ أَقربُ أو جُذامُ

ومعنى صل اللحم : أنْتَن . (مطبوخاً كان أم نيئاً) . واللِّحَامُ جمع لحم . يقول الشاعر : « لما أنتنت اللحوم من كَثرتها عندكم أعرضتم عَنّي ! »

- و (عَكّ) و (جُذام) قبيلتان .

السُّهيليّ كلَّ وعْرٍ وسَهْل[٨] . ولقينا حِلمه بأعظم جَهل ؛ وتسنّمناه طبقاً طبقاً ، وأَكْلَناهُ ثَمراً وورقا ، ولَذُدنا الطَّير عن شَجرٍ قد بلَونا الحُلو من ثَمره[٩] ، ولكُنّا من لَيلك الذي هو كَليلِ مَنبج[١٠] وسحَرَه ، ولأَعْرَضنا بِوَجهك وأَخلاقِكَ عن نُجومه وقَمره .

ومِثْلُكَ - دام عزّك - يكتفي بالتَّعريضة ، والإشَارة المَريضة ؛ فكيف وقد أَلقيتُ القِناع[١١] ، وقَرعتُ الأَسماع ، وشَننتُ الغَارة ؛ وراميتُ من سَماحتكَ فأنصفتُ القارة[١٢] . فهاته أَشْهى من الأَدب ، وأحلى من الضَّرَب ، أخضر الجلدة في بيت العرب[١٣] ، عقيليّ الانتماء[١٤] ، حسن

(٨) السُّهيلي : نسبة إلى سُهَيل .
- وسهيل من أعمال (مالقة) الغربيّة ، على نحو ثلاثين كيلومتراً غربي مالقة . (تسمّى اليوم بالإسبانية Fuengirola) .

(٩) من قول أبي نواس (ديوانه : ٣٩٩) .

لاأذودُ الطَّيرَ عن شجَرٍ قد بلوتُ المُرَّ من ثَمَرهْ !

(١٠) يضرب المثل بليل منبج (مدينة معروفة في شمال بلاد الشام) في طيب الهواء ، وعُذوبة الماء ، ورقة النَّسيم ، وصحة التربة . (ثمار القلوب ٦٣٨) .

(١١) يقال ألقى القناع ، ووضع العمامة ، ورفع اللثام .

(١٢) شن الغارة على عدوه : أغار من كل ناحية .
- واستفاد في العبارة من المثل : « أَنصف القارة من راماها » وهو يُضرب مثلاً لمساواة الرجل صاحبه فيما يدعوه إليه . و (القارة) قبيلة . (أمثال العسكري ١ : ٥٥) .

(١٣) من قول الفضل بن العباس اللهبي ، وكان أحد شعراء بني هاشم المذكورين وفصحائهم ، وكان شديد الأُدمة (السُّمرة) ، وهذا قوله : (الأغاني ١٦ : ١١٧)

وأنا الأخضرُ مَنْ يعرِفُني أخضرُ الجلدة من بيتِ العَربْ

- والضَّرَب : العَسَل الأبيض الغليظ .

(١٤) عقيلي نسبة إلى عقيل .

الصّفات والأَسماء ، قد عاتَبهُ الهواء وخَمّشه ، وعـابَثَـه النّسيمُ وجَمَّشـه[١٥] ؛ فمـزّق من تلـك الـدِّيبـاجـة[١٦] مـا ارْتَـدى ، وتَرقرقت في جَنبـاتــه عَبرةُ النَّدى . ففي كل فَنن منهُ مَنظر يَسُرّ ، وعنبرة مُدحرجة تكلّلها الدرّ .

قد أَجدنا في الأَوصاف فأَجِدْ في الإنصـاف وترفَّقنـا في الاستلطـاف ، فجئنـا بتلـك القِطـاف ، وتعطف فـإنـك ابنُ العَطّـاف[١٧] . ولولا ضِيـقُ الأنفـاس ، وتَـزاحمُ الجُـلاّس ؛ لامتــدّت الأَطنــاب ، ومشى في غُلَـوائــه الإطناب . لكن بدون هذا يُجتنى الرُّطَب ، بل يقتنى الـذَّهب ، ويرتـاحُ البخيل ويَهب ، وكلٌّ يستيقن أَنَّ نوالك لا يَعْزُب[١٨] ، ولكنّ منـاجـاتـك تعذب .

وكثير من السُّـؤال اشْتيــاقٌ وكثيرٌ من رَدِّهِ تَعليــــــلُ[١٩]

وأَقرأ عَليـكَ سلامـاً كثنـائِـك ، لا يَبرحُ عن فِنـائـك ، تظلـل أفقـك غَمامُه ، ويزحزح الهجير برده وسلامه .

---

(١٥) جمّش المرأة : غازلها بقرص أو ملاعبة .

(١٦) ديباجةُ الوجه (وديباجُه) : حُسن بشرته .

(١٧) يقال : تَعطّف عليه أي وصله وبَرَّه . والعَطّاف : الرجل الحسن الخلق ، العطوف على الناس بفضله .

(١٨) عزب : غاب ، وبَعُد وخفي .

(١٩) البيت لأبي الطيب المتنبي (ديوانه بشرح الواحدي : ٦١٥) .

[٥٧]

وَلَهُ(☆) ـ نَضّر اللهُ وجْهَهُ ـ :

[٣٤/ب] هَــوِّنْ على بَصرٍ مــا شَــقّ منظَرُهُ   فــإنَّما يقَظـــاتُ العَيْنِ كالحُلُمِ[١]

الدُّنيا ـ أطالَ اللهُ بَقاءك ، وحُكمكَ في أعدائك حكمُ سعدٍ ، والأيّامُ من نصرك وأعدائك على أصدق وَعد ـ كما علمتَ : لهوٌ ولَعِبٌ[٢] ، وفنون تتشَظّى وتَنْشعِب . والكريمُ « شِيمَتُــه الصَّبرُ » ، والمُـؤمن لايحرزه[٣] إلا القَبر . ومَنْ برع بُروعَك وفَرع في الفضائل فُروعَك وشفَّ شفُوفك وخفَّ على المُلوك ـ ولا تصلحُ إلاّ لهم ـ خفُوفَك : رشَقَتْهُ السِّهام ورمَقته بعين الحَسادة والأَوهام ، وأضرَّ بِهِ الكمالُ والتّمام . وحُكِمَ حيث كانَ ومَع مَنْ كانَ باستِعلائه ، وقُضِي ـ ولابُدَّ ـ باستِوائه واسْتيلائِه ، وذُعِرَ أَهلُ العَجْزِ لِغَنائه الحميد وبَلائه . ويُغني عَنِ الاستنباط في التَّناجز عَلى ذلكَ البَساط حديثُ الأَسباط[٤] ؛ وربّ مُتْحَف بكَ كالآلِ[٥] في رَقْصِه يخافُ كمالَك على

---

[٥٧]

(☆) رسالة إلى أحد أَصدقاء الكاتب في شُؤون بينهما ، وفيها إشاراتٌ إلى آخرين . وفي الرّسالة بيان مُدّة كتابتها في جلسة واحدة سريعة .

(١) البيت لأبي الطيب المتنبّي (ديوانه بشرح الواحدي : ٧٢٢) .

(٢) في سورة الأنعام ٦/٣٢ ﴿ وما الحياةُ الدُّنيا إلاّ لعبٌ ولَهْوٌ ﴾

(٣) الحرز : الصيانة . وقوله « شيمتك الصّبر » من بيت مشهور لأبي فراس الحمداني .

(٤) البَسَاط : الأَرض المُستوية . والتناجز الاقتتال المؤدي إلى سفك الدّماء .

ـ يشير إلى حسد إخوة يوسف ، وما ترتب على حسدهم من طرح يوسف عليه السَّلام في الجُبّ .

(٥) الآل : السَّراب . ورقصُه : التماعُه .

نَقْصِه . يَسُرُّكَ بادِيـه ، ويخضَعُ من برٍّ بـكَ هَـادِيـه[٦] ، ونَـادي الأَذى في غَيْبَتِكَ نادِيه وَلَئِن نَطقوا هُجْراً[٧] واسْتَحْقَبُوا مِن اللَّوم حَقـائِب بُجْراً[٨] فَما ذَهَبوا لك بِمجد ، ولا انْقَلبوا إلاّ بغُلّة ووَجـد . والحُرُّ على كلّ حَـال حرّ ، والـدرّ [برغم من][٩] جَهِلَـهُ در وَفي الـدّهر بَقيـه لِتفريـقِ ذاتِ بينهم ، أَو لَجزائهم بِإِفْكهم [وَمَيْنهم][١٠] ، أَجلْ ! إنه ليقيد وَيقصُّ ، وَيُشرق وَبعد اللّذاذة وَيغص[١١] . وَسَيَشْرب مِن [مُرِّ تلكَ] الكَأْس مُـديرهـا ، وَيصْلى بالسّيرة السّيئة من يَسيرُها[١٢] . وَمراتبهم تُخفض ، وَسهامهم إِلَيهم بأَمثالها تُفَـوّقُ وَتُنْبض[١٣] [إنّما أُكلت يـوم] أُكِـلَ الثّـور الأَبْيض[١٤] وَيـودّ مُلقّن

---

(٦) الهادي : العُنق .

(٧) الهُجْرُ : الهذيان والقبيحُ من القول .

(٨) البُجر : العَجب . يقـال : « قـال هُجْراً وبُجْراً » أي أمراً عجَبـاً . واستفـاد من قـول الشاعر :

يَمُرُّون بـالـدَّهنـا خِفـافـاً عِيـابُهم ويخرجْنَ من دارِينَ بُجْرَ الحقـــائبِ !

(٩) مـا بين معقوفتين في هـذه الورقـة مُستـدرك أو مستجلى ، لسوءٍ في تصـويرهـا أدّى إلى غياب كلمات أو كلمة هنا وهناك . وسأكتفي بهذه الإشارة هنا عن الإعادة .

(١٠) المين : الكذب .

(١١) يقيـد من القَـوَد . يقـال : أقـاده أي أعطـاهُ القـوَدَ : فـأخـذ ثـأره وقتـل قـاتلـه . و (أقَصّه) : أمكنه من القِصاص .

(١٢) من قول خالد بن زُهير الهذلي :

فلا تغضبن من سيرةٍ أنت سرتها فـأول راضٍ سيرةً من يسيرُهـا

(ديوان الهذليّين ١ : ١٥٧ ، والخصائص ٢ : ٢١٢) .

(١٣) فوّق السَّهم : جعل الوتر في فُوقه عند الرَّمي . و : نبضَ القوس : حَرَّك وتَرها لترنّ .

(١٤) « أكلت يوم أُكل الثور الأَبيض » مثل في أمثال العسكري (١ : ٧٠) .

الْعَضِيهة[١٥] وَمُعلّم اللّفظة الكَريهة [لو كرّه] الْجَفاء ، وَزيّن الوَفاء ، وحَبّب المَبرّة وَالاحْتِفاء ، عَلى أنّ اللّؤْمَ وَالهَوان لا يشجيهم[١٦] وَإنّ الْكِلاَب الضَّاريات لتعافهم[١٧] وَإنّ الذُّباب [عَلى ضَعْفِه لا يَخافهم][١٨] .

وقديماً عَلِمْنا شَرَقَ أَهْلِ الفهاهة بالأَبينَاءِ وَتعلّل [الأشقياء على الأنبياء] حِينَ أَتَتْهم البَيّنات وبَهرتهم الآيات ، وأُخذت عليهم [المواثيق المؤكّدات] [٣٥/أ] وَقالُوا قَوْل البطر ، « وَعُموا وَصَمُّوا »[١٩] عَنْ سَبيل النّظر . وَإن قَدراً حَجب نَاظرك عَنْ قَذاهم ، وَصانَ سَمْعَك مِنْ ضُروبِ أذاهُم ، لقَدَرٌ يُرضي مِن حَيث أَسْخط ، وَيُطمع بِما أيأَس وَأَقنط !

وَقَدْ فَاوضت مَن دَام عزّه بَعد وُقوفي على كِتابي وَكتابه ، فَقال مَا تَراه مِن جَوابه . وَلقد انْزَعج انْزعاج من يَرى حَالك حَاله ، وَإن مَانالك من خير وَشرّ فَقَد نَاله . وَلّما كَانَت الشِّكَاية مُبْهمة ، والنّفثة مُشتركة المغْنى

---

(١٥) العضيهة : القذف بالباطل ، واختلاق الكذب .

(١٦) شجاه الأمر وأشجاه : أحزنه .

(١٧) من قول النجاشي يهجو تميم بن أُبي بن مُقبل :

تعافُ الكلابُ الضارياتُ لحومهم ... وتأكُل من كعب بن عوفٍ ونهشلِ

ومعنى تعاف تكره الشيء طعاماً كان أم شراباً .

(اللسان : عيف . والشعر والشعراء ١ : ٣٣١) .

(١٨) في التنزيل العزيز الحج ٧٣/٢٢ ﴿ وإن يَسْلُبهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ والمَطْلُوبُ ﴾ .

(١٩) اقتباس من الآية ٧١ من سورة المائدة (٥) .

مُتهمـة ، جَـال ظَنّي فـأَخَـلَّ وَأَحمض[٢٠] وَأَشرَف وَأَغْمَض ، وَقُلْت لَـه قَـد يَكون لِبعْض الصّوارم نبو ، وَهو الشّيء : مَوْلى الْمَرء فِيه قرن وَابنه عَدوّ . فَجاءَ بالْحديث عَلى نَصّه وَأَسْقط إليّ بنُكتته وَفصّه[٢١] ، فَقلتُ : كَـان من الحَقّ أَن يَقع تَحذير ، وَيتقدّم نَـذيرٌ ؛ ليقعَ اجْتِنـاب ، « ويَسْكت حَتّى لاَ يَكون جَواب » .

فَقَـال : إنّـهُ وَضع السّرَّ حَيْث يَجب ، وَرجَـا أَن ذلِـكَ يَنْطـوي وَيحْتجب ؛ إلى أَن تَتيسّر مُواجهة ، وَتَتَمَكّن مُشافهة ، إذ كَـان مِن الأُمُور الّتي لاتُسْنـد وَلا تَثق فِيهـا بِـالْيَـد الْيَـد مَعَ الاسْتِراحَـة إلى تَوسّع الْغيـوب وَتَقلب القُلوب وقد اعْتقد ـ دامَ عزّه ـ أخذ العهد والاسْتِنامـة[٢٢] إلى ذلـك المجدِ فَتَبْرُد لوعة ، وتنزح رَوعة ، وتأمَن ساحاتٌ ذَعرتها الظُّنون ، وأُذيل حِمَـاهـا المَصُـون[٢٣] ، وقـد كان الرَّأيُ عنـدي ولا دفـعَ للمقـدور ، ولا رَدّ لفائتِ الأُمور أَلاَّ تُورِي ولا تُصْلِد[٢٤] ولا تصْدُرَ ، ولا تَرِد ، وبين هـذين الطَّرفين للحزمِ مجالٌ وللرَّأي رَويّة وارْتجـالٌ ، لكنْ فيمَ الكلامُ ؟ وعلى أَيّ الأَمرينِ المَـلام ؟ أعلى الْمَـأْمُـورِ الآتي أَم على الْمَقْصُـورِ الْمَنهيّ ، فلْيسْـخُ

---

(٢٠) الخُلّة والحمض نوعان من النبات . وتضرب الخلة مثلاً للدعـة والسعـة ، والحمض للشرّ والحرب

(٢١) النكتـة : اللطيفـة المؤثرة في القلب . والفصُّ من الأمر : حقيقتـه وكنُهـه . وقـال أبو الطيّب :

أُقِـلُّ سـلامي حُبَّ مـــا خَفّ عنكمُ   وأسكت كيما لا يكـــونَ جَـــوابُ

(٢٢) استنام إلى الأمر : ركن إليه .

(٢٣) أذاله: أهانه .

(٢٤) أورى الزّند : استخرج ناره ، وصلد الزّناد : صَوَّت ولم يُورِ .

بنفسِكَ ماسَخا بنفسِ الدُّؤليّ[٢٥] فَما تأسى هناك على زمَنٍ ناضرٍ ، ولا ثَمَّ شيءٌ يَخاف عليه لذعة نَاظر .

أَما إنَّ أَبا وَجْزَة ـ وليس بالْمُتَأَبِّد[٢٦] ـ أُولع باليَماني الجيِّد[٢٧] ، وما سَمِعنا بعدُ بهذا إلاَّ في شواذٍّ ببغداذ ، وعلاقة ندرَت بابن يَزْداذ[٢٨] ، ولعُبيد الله[٢٩] ابن عبدِ الله بن طاهر [٣٥/ب] في ذلك مذهبٌ غيرُ ظاهر :

وَمَنْ كَانَ ذا نفسٍ كَنَفْسِكَ حُرَّةٍ ففيهِ لنا مُغْنٍ ، وفيها لَهُ مُسْلِ

ويَبقى على مَرِّ الحوادثِ صَبْرُهُ ويَبدُو كَمَا يبدو الفِرَنْدُ على الصَّقْلِ

استدركتُ هذه الحُروف بعدَ الاجتماعِ به ـ دامَ عِزُّه ـ في الفترة بين تَهجيرنا[٣٠] للجمعة وبين صلاتها ، ولقد أَخذنا في هذا السُّلوان .

---

(٢٥) هو أبو الأسود الدُّؤلي (توفي سنة ٦٩ على الأرجح) ؛ وله قطعة (ديوانه المجموع : ٦٩) يعاتب فيها صَاحِباً يقرّبُه أبو الأسود ويودّه ، ويزدادُ ذاك ابتعاداً ، وآخرها :

أَبَتْ نَفْسِي لَه إلاّ وِصالاً وتأبى نفسُه إلا انقِطاعا

(٢٦) المتأبّد (بالباء الموحّدة التحتيّة) من تأبّد الرجل : إذا طالت عزبته وقل أربه في النساء .

(٢٧) الخبر عن أبي وجزة السَّعدي (توفي سنة ١٣٠ بالمدينة المنوّرة) شاعر مُجيد راوٍ للحديث قال ابن قُتيبة ، وهو أحدُ من شبّب بعجوز ، ومنها ـ وهو ماأشار إليه الكاتب ـ :

حتّى مَ أنت مُوَكّلٌ بقديمةٍ أَمْسَت تجدّد كاليماني الجَيّدِ !

(٢٨) علي بن محمد بن الحسن بن يزداد العبدي ، قاضي واسط . كان ثقة في الحديث (٣٧٢ ـ ٤٥٩) .

(٢٩) عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، من أُمراء دولة العباسيين ، كاتب شاعر . إليه انتهت رياسة أهله .

(٣٠) هَجّر إلى الشيء ، بكّر إليه وبادر . ومنه التهجير إلى صلاة الجمعة والمبادرة إليها .

فَعجب لتَعارُض المَذْهبين ، على قُرب الوَقْتَيْن ؛ وما شاهده من الكَلَفِ والهُيام ، وأخذك ـ ولا بُدّ ـ بالالتزام . ومن يُجادِلُ عنك يأبى عَليه ، ولا يجد فُسْحَةً لَديه . ويُعلمه بما لك في ذلك من أَلِيَّةٍ[٣١] مَعْقُودة ، ونيّةٍ في الإباء مَشدُودة . وأمّا أنا فما استَغْربت لأنّي قد جَرّبت ولا بُدّ بِحول الله من فُرجةٍ كوَحْيِ المَقال ، وحلّ العِقال[٣٢] :

وإنّ بهمْ لو يعلَمُون لَغُلَّةً ... إليكَ كما بالحائماتِ غَليلُ[٣٣]

أَخَذ اللّهُ لكَ ولأَوليائك فيكَ بالنَّصَفَةِ ، وعَرّفك بركة الأَنفة ، وجعل أَوّلها عزّاً وإباءً ، وعُقباها تنَصُّلا وحباءً ، ورِفعةً مُتضاعِفةً وعَلاءً ؛ بعزته وقدرته .

وأقرأُ عليكَ ـ دام عزك ـ أَعمَّ سلام تَهاداهُ الأَصفياء ، وتَعاطاهُ الأَوفياء ، يحيّيك بأنفاسِ الرّياض ويُنُوبُ عَنّي في التَّسلية والارتِماض[٣٤] ، ويُبَشّرُ حاسِدَك بالصَّدّ والإعراض ، وفتكةٍ كَفَتْكَةِ البَرّاض[٣٥] !

---

(٣١) الأَلِيّةُ : اليمين .

(٣٢) من قول أميّة بن أبي الصّلت (ديوانه : ٤٤٤) ، والبيت في اللسان (فرج) :

رُبّما تجزعُ النفوس من الأمـ ... ـرِ له فُرْجَةٌ كحلِّ العِقالِ !

(٣٣) الغليل : العطش .

(٣٤) ارتمض من كذا : اشتدّ عليه وأقلقه .

(٣٥) هو البَرّاض بن قيس الكِناني ، ضُرِب به المَثَلُ فقالوا : « أفتك من البَرَّاض » يراجع أمثالُ العسكري ٢ : ١١٠ ، وثمار القلوب : ١٢٨ .

[٥٨]

وله(☆) ـ رحمة الله عليه ـ :

السَّيّدُ الأَوحد الزَّعيم ، لابَرِحَتْهُ النَّضرة والنَّعيم ، ولا انفكَّ حاسِدُه يَئِيْمُ ويَعِيْمُ[1] ؛ حَديدَ نظرِ الهِمّة ، جديدَ أثرِ النِّعمة ، وكيدَ أسباب العَهْدِ والذِّمّة . مكارمه أبداً تُكِبُّ ، وفواضِلُه لاتغبّ[2] ، وبحر نداه يعبُّ ؛ ويَدُه تَلي معروفَهُ الواسع وتَرُبّ[3] . وما زلت أتقلّى شديداً من وجده ، وأسألُ عنه صَبا غَوْرِه ونَجدِه ؛ حتّى أَهَلّت بِقُربه الجَنُوب ، ووجَدتْ مَسَّ بَرْدِها الضُّلوع والجُنُوب . وما كنتُ أظنّ بها احتفاءً ، ولا إخالُ عندها من داءِ البُعد شفاء ؛ ولا أتنَسَّمُ لها هبُوباً ولا أَنتظرُ من [٣٦/أ] لِقائها مَحْبُوباً ، إلى أن بَعث بها [رِخوَة ، وأَودَعها من مَبَرَّته بَصْوَة ؛ وجعل بينه][4] وبينها سبباً موصولاً .

---

[٥٨]

(☆) رسالة جوابية إلى صديقٍ نعته بنعوت الكتّاب المشهورين . وفيها إشارة إلى عدد من الأُمور بينهما .

(١) آم يئيمُ أَوْماً : اشتدّ حَرُّ جوفه ، وضجّ من العطش . وعام يعيمُ عَيْماً وعَيْمَةً : اشتهى اللبن شهوةً شديدة .

(٢) أكبّ على الأمر : أقبل يعمله ، ولزمه . ولا تغبّ : لاتتأخّر .

(٣) رَبَّ المعروف : نمّاه وأَصلحه .

(٤) في رأس الورقة [٣٦/أ] كلمات غير واضحة وضوحاً حَسناً ، فوضعتُها ـ كما استجليتُها ـ بين معقوفتين .

ـ الرّخوة : اللينة . والرُّخاء : الريح اللينة الهبوب . والبصوة : الشَّرارة (الغفوة ؟ وهي كل رائحة طيبة) .

يميناً لقد مدّ إلى المُصافحة بها يميناً ، تَركتْني لِنُعماها مَديناً ، وغادرتْ لي حُبَّها مَذهباً ودِينا ؛ وسأبرُد بها جَواي[٥] ، وأخلعُ عليها هَواي ، وأقولُ لِوافِدها « يابُشراي » ! وعلى ذلك فإنّها قديماً ، أَنْضَرُ الرِّياح أديماً ، وأَغضُّها نَسِيما ، وأَطْلَقُها مُحَيَّا وَسِيما ؛ وأَخْصَبُها ذَيْلاً مَجْرُوراً ، وأقربُها نيلاً مَوفُورا . نعم إذا أَذِنَ اللهُ سُبحانه بِسُقيا تُرب ، ووعَد النُّفوسَ الصّاديات بِشُرب ، صَرَّفها في يُسْرى الإعجاز ، وشَرَّفَها بِبُشرى الإنجاز . وأَمرَها فثارَت في وَجْهِ الشّمس ضَباباً ، وأثارت بِقُدْرَتِهِ سَحابا ؛ يَحْدُوه الرّعد مُهَيِّتاً[٦] لِيُحْيِي بهِ بَلداً مَيتاً[٧] ؛ ويُثلج بِهِ من الثّرى المَكْرُوب[٨] ضَميرا ، ويسقيهِ أَنعاماً وأناسِيّ كثيراً . لا جَرَمْ إنّها ، الصَّناعُ الطَّبَّةُ[٩] ، والأُمُّ التي تُرضِعُ أَخلافَها الحبّة[١٠] ، ويوضع لها القبول والمحبّة ؛ مَرُّها مَرُّ الحاني الرَّفيق ، ومسُّها مَسُّ الآسي الشَّفيق ؛ فكأنّها طبيبُ بني أَودٍ[١١] ، أو يدُ هِنْدٍ مرَتْ بين جبين وفَودِ[١٢] ، تلك في وَجْهها شافعٌ على البُرء مُعين ، وهذه في يَدِها معَ الرّفقِ لين ؛ أفضت إلى الوُجوه والأبدان بألينَ من

---

(٥) الجوى : الحُرقة وشدّة الوجد (من عشق أو حُزن) .

(٦) هيّتَ وهَوَّت : صاحَ .

(٧) اقتباس قرآني ؛ وفي سورة الفرقان ٤٩/٢٥ ﴿ لِنُحيي بِهِ بَلْدةً مَيتاً ﴾ .

(٨) في شعر أبي تمّام (الديوان ١ : ٢٩١)

ديمةٌ سمحةُ القِيادِ سَكُوبُ مستغيثُ بها الثرى المكروبُ

(٩) الصّناع : الماهرة ؛ والطبّةُ : الحاذقة بالأشياء ، الماهرة .

(١٠) الأخلاف جمع الخِلف وهو (لكل ذات ظِلفٍ وخُفّ) : الضَّرع .

(١١) طبيب بني أَود هي (زينب) : كانت تطبّب وتعالِجُ العَيْنَ والجِراح .

(١٢) الفود : معظم شعر الرأس مِمّا يلي الأذن (وهما فودان) .

ناعماتِ الأَردان ، وسَرت بريعانِ الشّبابِ تَحِيّاتُ الأَحباب ، وأنفاسُ رِياض الآداب . فَلِلّهِ نَضرةُ هُبوبها ومَسْرَاها ، ويا نعمها رِيحاً ماأَخْطَرها وأَسراها ؛ تنفحُ بالمِسك يَمينُها ويُسراها ، أَلذّ في الأَجفانِ من سِنَة كَراها[١٣] ، وأطيبُ في النُّفوسِ من عَشِيّاتِ الحِمى[١٤] وذكراها حِين استبحنا من اللّذاتِ حِماها ، وأدركنا الكأسَ الرَّوِيَّةَ فَسرت حُمَيّاها على وجُوهٍ تُحَيّينا الشّموسُ الطّالعة من مُحَيّاها ؛ وجعَلنا مانفضَتْهُ غَدائِرُها ونفَحَتْهُ رَيّاها ، في المُدامِ ؛ فأَعْبق بِها أفواها !

سَقى اللّهُ ذلك العهدَ ما ينوبُ عن الوسميّ والوَليّ[١٥] ، ويفعلُ فِعْلَ الْمُعتّقِ البَابِليّ[١٦] [٣٦/ب] بيد أَنّي كنتُ فيه نديمَ شمّ وحَديث ، ومُديمَ طربٍ سريعِ الرقص حثيث ، ألقط الألفاظ[١٧] والنّغم ، وأَفدي شادي الظّباء إذا بغم ، وأَنْتشِقُ طيّب الكِباءِ إذا فَغم[١٨] .

(١٣) في شعر محمد بن عَمّار الأندلسي من قصيدة مدح بها المعتضد العَبّادي (ديوانه : ١٩٠)

أندى على الأكباد من قطر النَّدى　　　وألذ في الأجفانِ من سنةِ الكرى

(١٤) وفي شعر الصمّة القشيري (ديوانه : ٩٦)

فليست عشيات الحمى برواجع　　　عليك ولكنْ خَلّ عينيك تدمَعا !

(١٥) الوسمي : أول ما ينزل من المطر ، والوليّ بعده .

(١٦) البابليّ من الخمر : المنسوب إلى بابل (كان نوعاً مشهوراً) .

(١٧) الكلمة غير واضحة (ألقط ؟ أنقط ؟) .

(١٨) بغمت الظبية : صاحت إلى ولدها بأرخم صوت . والكباء : عود البخور ، أو نوع منه . ومعنى فغم الطيب : انتشر وملأ الخياشيم . وفي شعر لأبي بكر محمد بن القوطية الأندلسيّ (ت ٤٦٧) :

اشرب على السوسن الغضّ الذي فغما　　　وباكر الآس والورد الذي نجَما

(انظر رايات المبرّزين : ٤١ ، درة الغواص : ١٧٢) .

هذا كلامٌ أستغفرُ اللهَ من هَناته وأسأله صفحاً من هَناته[١٩] فما هَبّ من سِناتِه إلا لِهباتِه ، وما هِيَ إلاّ أَريحيّةُ مُناجاتِه ، وثمرةُ مُناولتِه ومُعاطاتِه ، وإلاّ فقد زُوِي[٢٠] النَّشاطُ وطُوِيَ ذلك البسَاط ، وجاءَ الشَّيبُ وكفَى بِه ناعياً يَنْعى الشَّباب ، ويذكر المعادَ والْمَآب ؛ وإنّ في ثكلِ مَنْ فَقدناهُ مِن الأصحابِ والأَتراب ، وأسلمناهُ بعدَ الضَّنانةِ إلى التُّراب لِمَا يَعِظُ فلا يدعُ اغْتِرارا ، ويذودُ القول كما ذادَ النّومَ إلاّ غِرارا[٢١] .

وأرجعُ إلى مَرامِ شأوِه الْمُستَصْعِبِ ، وكتابِه الفاضِح الْمُتعب ، فإنّهُ وَرد على فترة دُثور ، وَشَمْلُ من الخاطِرِ بعد اجتماعِه مَنْثُور ؛ ونفس تقسَّمَتْها الشّؤون ، وبالٍ توزّعتهُ الشُّجون ، فما آخذُ منهُ إلاّ بتارِكٍ ، ولا أبعث إلاّ جَدّ رازحٍ[٢٢] بارك ! وأَراهُ ـ دام عزه ـ قد ذهَب أَبعد الذَّهاب ، وأَسهبَ في الإطراء كلَّ الإسهاب ، وارْتَقى في الأَسباب ، ونَثر عقد كُلّ نثرةٍ وشِهاب ، ونسَق الفاضِلين نسَق الْحِسَاب ، وقَرن ذِكري بذكرِ أُمراء البُلَغاء ورُؤَساء الكُتَّاب . وبِرُّه لاأَدفع في صدره كما أَنّي لاأَقْبَلُ ما زادَني على قَدري من جلالة قدرِه ، فأَرُدُّ الحقّ إلى أَهلِه ، والماء إلى حَدره[٢٣] .

---

(١٩) الهناتُ جمع الهنة ، وهي ما يقبحُ ذِكرهُ من الأشياء والأُمور . وفي الحديث : « ستكون هناةٌ وهناةٌ ... » أي شرور وفسَاد ؛ فالهنات هذه الداهية والشديدة من الدهر والجمع هنوات .

(٢٠) السنات : جمعُ السِّنَةُ : النوم ، والهبات جمع الهبة .
ـ زَوى الشيء : صرفه ، وزوى عنه الأمر : طواه .

(٢١) الغِرار : النومُ القليل .

(٢٢) يقال : رزحت الناقة : سقطت إعياءً أو هُزالاً .

(٢٣) الحدر : ماانحدر من الأرض .

أولئك قومٌ انفردوا بالإحسانِ ، وأتوا الزَّمان في شبيبةِ الزّمان[٢٤] . وهجرة قد مضت لأهْلِها[٢٥] ، وفازُوا وهم السَّابقون الأَوّلُون بفَضْلها . قَرْطَسُوا[٢٦] وسهامُنا تطيشُ وتَصِيْفُ[٢٧] ، وفاتُوا فما يُبْلَغُ لهم مُدٌّ ولا نَصِيف[٢٨] . ومن الْمُصابِ لا من الصَّواب رَدُّ لواءِ بني لُؤيّ إلى صُؤاب[٢٩] ، ومعارَضةُ الْجَنُوبِ الغَضّة بِنِسْع[٣٠] ، ومُقابَلَةُ عَرانين[٣١] الْمُلوك بِشِسْع ! حَسْبُ بليغِنا أثرٌ منهم يَقْتَفِيه ، وحِمىً يَرْعى حَولَهُ ويقعُ فيه ، وحيلٌ على أَلفاظِهم يُديرُها ، وحُلىً من محاسِنهم يَسْتَعِيرُها . وأَبْعَدُ كُتّابنا من حَيْف [٣٧/أ] وألطفُهم مَسْرى طيف ، وأَقربهم من الدِّفء ، وأَحذقهم باللَّمِّ والرَّفء مَنْ (أسعفه ؟)][٣٢] جَدّه في غَصْبِهم ، ورقع بِجادَهُ بِعَصْبِهم[٣٣] .

(٢٤) من قول أبي الطيب (ديوانه بشرح الواحدي : ٧٢٣)

أتى الزمانَ بنوهُ في شبيبته ... فسرَّهُمْ وأَتيناهُ على الْهَرمِ

(٢٥) في الحديث : « لا هجرة بعد الفتح » ، وضربه الكاتبُ مثلاً .

(٢٦) قرطس : أصاب القِرطاس (وهو الغَرَضُ المنصُوب) .

(٢٧) صافَ السهم عن الهدف : عدل .

(٢٨) الْمُدّ والنَّصيف : من المكاييل .

(٢٩) هو صؤاب ، عبدٌ حبشِيٌّ ، غلامٌ لبني أبي طلحة ، حمل راية قريش في بدر بعد مصرع حملته من بني عبد الدار - وهم أصحاب الرّاية لقريش - (السيرة ١ : ٧٨ ، ١٢٨) .

(٣٠) نسع : عَلَمُ ريح الشمال ، وهي : ريحٌ نِسعيّة .

(٣١) عرانين جمع عرنين وهو السيّد الشريف . والشِّسع أحد سُيور النَّعل ، وهو الذي يدخل بين الإصبعين . وليس الشسع عينه مقصوداً ، وإنما يشير الكاتب إلى قول المهلهل لابن الحارث بن عباد حين قتله « بُؤ بِشسع كُليب » أي كنْ لشسع نَعْلَيه ! وهذا الخبر من أخبار حرب البَسُوس .

(٣٢) ما بين معقوفتين رأس صفحة ، وهو مُستجلى . والكلمة الأخيرة ممحوّة تقريباً .

(٣٣) العصب : ضرب من البرود اليمانية . والبجاد : الثوب .

ولو نبغَ بَعْدَهُم نابغٌ ، وبلغَ مجدَهُم بالغٌ ، لم يَنْبَغِ ذلك لسواه ، ولا اعتقَدْناهُ إلاّ إيّاه ؛ لأنّهُ اليَنبُوع والمعدن ، والشيءُ الذي حَولَهُ نُدَنْدِن[٣٤] . لكن غِبْنا عن الإحسان وحَضر ، وخِبنا وحازَ الغُنْمَ والظَّفر ، وحُجبنا ورُفع له السِّجف فشافَه ونظَر ! وبحَقٍّ أن يَحْصِرَ البلاغةَ كلَّ الْحَصْر ، وتخفق عليهِ ألويةُ النَّصر ، فقد كانَ أَبُوه - رضوانُ اللهِ عليه - قرِيعَ العَصْر[٣٥] . أَما السُّؤدد فأُسَيلم بنُ الأَحنف[٣٦] ، وأما النُّبل فإبراهيمُ بنُ العَبّاس[٣٧] والعبّاسُ بنُ الأَحْنَف[٣٨] . وإن له في العِصامِيِّ لَقلائدَ مُعجزات ، وبدائع آيات أَرْبَت على بدائع ابن العَبَّاسِ في ابنِ الزَّيّات[٣٩] .

---

(٣٤) دندن حول الشيء : دار .

(٣٥) القريع : المقارع والسيِّدُ الرَّئيس .

(٣٦) أسيلم بن الأَحنف الأَسدي سيّد ممدّح ، كان مقرباً من بني أُميّة ، قال الجاحظ : « كان أُسيلم ذا بيان وأدب وعقل وجاه » . له أخبار قليلة في البيان والتبيين (١ : ٣٩٦) . وانظر حواشيه . وفيه يقول الشاعر :

أُسيلمُ ذاكُمْ لاخَفا بمكَانهِ   لعين تَدحّى أو لأُذنٍ تسَمَّعُ

(٣٧) إبراهيم بن العباس الصُّولي (١٧٦ - ٢٤٣) كاتب العراق في عصره ، قال فيه دعبل الْخُزاعي : « لوتكسّب إبراهيم بن العَبّاس بالشعر لتركنا في غير شيء ! » وكان يدّعي خؤولة العباس بن الأَحنف الشاعر . وله ديوان مطبوع .

(٣٨) العَبّاس بنُ الأَحنف (ت ١٩٢) الشاعر الغزل ، خالف الشعراء - في زمانه - فلم يمدح ولم يهجُ . وله ديوان مطبوع .

(٣٩) هو إبراهيم بن العَبّاس الصُّولي ، فقد كان صديقاً لابن الزيات قبل وزارته فلمّا وليها - وإبراهيم على الأهواز يلي معونتها وخراجها - تنكّر له وآذاه ... فاستعطفه ابنُ العباس بنظمه ونثره ... إلخ . انظر مقدمة ديوانه في الطرائف الأدبيّة (١١٩) من قلم الميني رحمه الله . =

ومن تجسَّم مِن ذلكَ الشُّعاع وتركَّب مِن تِلك الطِّباع فَكُلُّ المحسنين له من الْخَوَلِ الأَتبـاع[٤٠] . وإني لأَعجبُ من قومٍ جَفوه وعَرفُوا حَقَّـهُ فَما وَفَّـوه ! أَما علِموا أنّ نارَهُ تُوقَدُ باليَفاع[٤١] ، ولا تُستَرُ بالقِناع ؟ وأنّهُ أَبو الأَضياف ومَثْوى الأَخيـاف[٤٢] ؛ وقمر الأَحـلاكِ ورَديف الأَمـلاكِ[٤٣] ، وعِصمَـةُ الْهُلاّك ؟ وما مِنهم إلاّ من نَعِمَ في ذَراه[٤٤] ، وتزوَّدَ من فضلِ قِراه ؛ وعقـد على خصْب مَحلِّهِ تأويبَهُ وسُراه[٤٥] . أَما إنّ الشّمسَ لا تجدُ لَها أَشباهاً ، ولا تَبْتَغِي بمـا فَعلت نفْعـاً ولا جـاهـا . ولـو زارُوه لأَلبسَهُم شرَفـاً وجَمالا ، ووَسِعهم بِرّاً و إِجمالا ، ولزَيّن أَحْسَابهم بِحَسبه ، وأَخَذُوا من مالـه وأَدَبـه . ولقد فَاتهم مجدٌ لا يسمح بمثله الزَّمان ، وحظٌّ أَقعدَهم عنه الْحِرمان . بلى إنّ الليثَ لتنفرُ عنــه الرُّبْــد[٤٦] ، والشمسَ لا تشبهُهَــا الأَعْيُنُ الرُّمْــد .

= ـ وابنُ الزّيـات هـو أبـو جعفر محمد بن عبـد الملـك ، المعروف بـابن الـزيّـات ، وزر للمعتصم والواثق ونكبه المتوكّل بعد ولايتـه بمـدّة يسيرة لأنـه كان حـاول صرف العهـد من المتوكل إلى ابن الواثق ولم يفلح . وكان ابن الزيات كاتبـاً مترسلاً ، شـاعراً ، وكان من العقلاء الدُّهاة . وله ديوان لطيف الحجم مطبوع .

(٤٠) الأتباع والحشم .

(٤١) اليَفاعُ : المشرفُ من الأرض والجبل .

(٤٢) الأخياف : الضُّروب المختلفة في الأشكال والأخلاق .

(٤٣) الردف والرديف : كلّ ماتبع شيئـاً . والرّدفُ : نـائب الملـك وأقرب جلسـائـه إليـه ، والوزير .

(٤٤) يقال : هو في ذرَا فلان أي في كنفه .

(٤٥) التّأويب سير جميع النهار إلى الليل ، وعكسه السُّرى .

(٤٦) الرُّبدة في النعام : سواد مختلط . ورُبد جمع أربد ورَبداء .

والْجُعلان[٤٧] يُميتُها بأَنفاسِه الوَرْد !

وأمـا فُـلانٌ فـوقَف على الْمُـدْرَجـة ، ونحنُ من الازدِحـام في مِثـل الحرجَة[٤٨] . فأقسم وللبرّ أيمانُـه مـابلغَـهُ مكانُـه . ولامَ حين لم يقـدّم إليـه رَسُول ، ولا أعلمَهُ معلومٌ من ثقاته أو مجهول [٣٧/ب] وإنّ عُـذرةَ عِنـدي لَمَقبول . وإن حَدَّ الْمَوْجِدة لَمَفْلُول[٤٩] .

وقد خاطب فلانٌ بما اقتضاه تنزيلُ تلك القَضِيّة ، والتـدرّج إلى مـافي النِّيّـة من تيسير الأُمنيّـة . وفي المـدرجـة[٥٠] التَّفسير ، ومن الله الْمَنُّ والتّيسير ؛ لا ربَّ غيرُه .

[٥٩]

ولَهُ(☆) مُرَاجَعَةٌ لأَبِي بَكر بن العَرَبيّ(☆☆) - رَحِمَهُما اللهُ -:

الفقيهُ الأجَلّ . الإمام بمناقبه الثَّواقب ، وكرمِـه الْمُتَعـاقب ، وسُؤدده

(٤٧) جعلان جمع جُعَل : دويّبة من الخنافِس . قال الجاحظ (الحيوان ٣ : ٥٠٢) : « ومن أعـاجيب الْجُعَل أنـه يموتُ من ريح الورد ويعيش إذا أُعيـد إلى الرَّوث ! » وقـال في مقام آخر : « ... فإن الْجُعَل إذا دفن في الورد ماتَ في العين .. » .

(٤٨) الحرجة : الشجر الملتفّ ، والموضعُ الكثير الشَّجر .

(٤٩) الموجدة من وجَد عليه إذا غضب .

(٥٠) الْمُدرجة : ذكرها دوزي (١ : ٤٣٢) ؛ وهي هنـا رسـالـة موضحـة في طيّ الرِّسـالـة المطوّلة هذه .

[٥٩]

(☆) رسالة مطوّلة إلى فقيه العَصر أبي بكر بن العربيّ .

(☆☆) القـاضي الفقيـه الإمـام أبـو بكر محمـد بن عبـد الله بن محمـد بن العربي المعـافري ، الإشبيلي ، المالكي (٤٦٨ ـ ٥٤٣) من وجوه فقهاء الأندلس وعلمائها . ولد بإشبيليـة ، =

الْمُتَناسق الْمُتَصاقب[1] . لا يُخْفَرُ لديه الذِّمام ، ولا تُبلي جِدّةَ وُدّه الأيّام[2] . يَلُمُّ الإخوانَ على شَعَث[3] ، وينبعثُ إلى صِلتهم كلَّ مُنبعث . ويغفرُ عَوراءَ الصَّديق[4] ، ويأذنُ لعذره[5] أذن التّصديق . ولا يلزمُ الضَّعيفَ ذنبَ الْمُطيق . ويرتفعُ جَلالُه عن الظنّ ، ولا يكدّرُ معروفَه بالْمَنّ[6] . لاسيّما عند من يعرفُ ويَعترف ، ويَمضي في سَنَنِ شكره ولا يَنحرف . فأَمّا الْكُفر فهو لنفسِ الْمُنعم مَخْبَثة[7] ، ولِدَفين الاعتداد

= ورحل مع أبيه إلى المشرق ، ورجع إلى الأندلس فانتدب للقضاء وتولى التعليم والتدريس والرّواية . وله مؤلّفات في متون الحديث والتفسير والفقه والأصول والأدب والتاريخ وغيرها . توفي قرب فاس بالمغرب سنة ٥٤٣

(نفح الطيب ٢ : ٢٥ ، أزهار الرياض ٣ : ٢٦٢ ، المرقبة العليا ١٠٥ ، المغرب ١ : ٢٤٩ ، الديباج المذهب ٢٨١ ، وفيات الأعيان ٤ : ٢٩٦ ، بغية الملتمس : ١٧٩) .

(١) المتصاقب : المتجمع . ومعنى خَفَر ذِمّته : لم يَرْعَها .

(٢) من قول أبي نواس (ديوانه : ٥٠٣) من مطلع قصيدة .

يادارُ مافعلت بك الأيّام ... لم تبق فيك بشاشة تُسْتَامُ

(٣) من قول النابغة (ديوانه : ٧٤)

ولست بمستبق أخاً لاتلمُّه ... على شعثٍ أيُّ الرجال المهذب ؟

(٤) من قول حاتم الطائي (ديوانه : ٨١)

وأغفرُ عوراءَ الكريم ادّخارَهُ ... وأُعْرِضُ عن شتم اللّئيم تَكَرُّما

والكلمة العوراء : القبيحة .

(٥) أَذِن له : استمع .

(٦) اقتبس من الآية الكريمة من سورة البقرة : ٢٦٤/٢

(٧) المخبثة : المفسدة . وهو من قول عنترة في معلقته (الديوان بشرح الأعلم : ٢١٤) :

نبئت عمراً غير شاكي نعمتي ... والكفرُ مخبثةٌ لنفسِ الْمُنعم

مثارٌ ومَنبثة[٨] . وإنّي لأراه بما يجبُ لـه من الإعظـام ، وأنتظمُ بهواه كُلَّ الانتِظـام ؛ وأرفعُ ذكره في كلّ نـاد ، وأَهيمُ من حُبّـه في كلّ واد[٩] . وأهفُو إلى لقائه لِيُناوِلني فضلَ سِقائـه ، ومن لي وقـد فـاتَتني الهجرةُ أَن أكونَ من طُلَقـائِـه[١٠] ؛ وإن عـاقني عن حظّي منـهُ دهرٌ مُقعـد فهـواي مـع الرّكْبِ اليَمانين مُصْعِـد[١١] ، وأَمَلِي ـ وعلى اللهِ الإنجـاز ـ يَعـد وإذا قَرّب فلا بُعـد ولا مُبعِـد . على أَنّ القُرب لـو رُفعت رايَتُـه وقُطِعَت غـايَتُـه ، لم يُغرب بجديد ، ولا أَتى على مابَين الْجَوانح بمَزيد . وما الوُدُّ إلاّ كالإيمـان ، وهل الْمُؤمن للمـؤمن إلاّ كالبُنيـان[١٢] ؟ وللمـؤمن أَن يعمـل من وراءِ البِحـار ، وإنّما نحنُ منه زَندٌ في سِوار ، وحَدقـةٌ بين أَشفـار ، ومتنُ نَصلٍ بينَ غِرار[١٣] وغرار . ولصـاحبِ أُمّ عمرٍو[١٤] مَثَلُـه في الانتِشـار ، وتَراخي أَمـدِ اللَّيـل

---

(٨) من نبث : أظهر وأذاع .

(٩) استفاد من الآية الكريمة من سورة الشعراء : ٢٢٥/٦

(١٠) الإشارة إلى الهجرة (إلى المدينة) وحديث الفتح : « اذهبُوا فأَنتم الطُّلقاء » . وأوردها على جهة الاستفادة والتمثيل .

(١١) من قول جعفر بن علبة الحارثي (في الحماسة ١ : ٥١)

هـواي مـع الركب اليمانين مُصعِـدٌ جنيبٌ وجُثماني بمكّـةَ مُـوثَـقُ !

(١٢) من الحديث الْمَشهور : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضُه بعضاً » مسند أحمد ٤ : ٤٠٥

(١٣) الغِرار : حدّ السَّيف .

(١٤) أظنه يريد القصّة التي رواها الجاحظ عن أحد المعلمين ، وحُبّـه ـ على السَّماع ـ امرأة تكنى أم عمرو (أو تسمّى كـذلـك) وحـزنـه لـوفـاتها ، وهـو لم يرهـا . (الْمُستطرف ٢٧١/٢) .

والنّهار . نعمْ قد تَنأى الأَرضُ بين الْخَليلين ، ولا أمثّل إلا بِجَليلين . ذاكَ تحتها بال غيرُ مُبال ، وهذا على ظهرِها راقٍ [٣٨/أ] والوُدُّ باق . يَعْتادُهُ وفاءُ الذِّمّة ، وإنّما يُطِيْفُ بتُربةٍ ورمَّة . وعلى ذِكر الرُّفات ، والإمعان في هذه الصّفات ، فقد أَجارتْ بقبر غالب رَبَّةُ بيت[١٥] ، وشفع قَبْرُ معاوية للكُمَيْت[١٦] ؛ ولله دَرُّ هذا العُرَيب فما ميتُهم بِمَيْت[١٧] !

ولو شاءَ الإمامُ الأَجَلُّ ـ وأَنا أستأذنه بِرّاً ، وأُلقي إليه هذِه النّفثةَ سِرّاً . فإن قال : أَمامَك ! ظهرتُ وقَهرت ، وإن قال وراءك ! نكصتُ وقَهقرت ـ لناديتُه في النَّسَب من كَثَب ، وفَخرتُ على الزَّمن بذي يَمَنْ ! ولعلّه يذودُ عنها ويقول : « حَنّ قِدْحٌ ليسَ مِنها »[١٨] ، فأُحيل على

(١٥) حُبس ابنٌ لامرأةٍ اسمه حُبيش أو خُنيس في السند ، وطالت غيبته فجاءت أمّه وأقامت عند قبر غالب أبي الفرزدق الشاعر ، وعلم بمكانها وخبرها ، فقال شعراً إلى تميم القضاعي حاكم السّند فأطلق الفتى (الأغاني ٢١ : ٤٢٣) .

(١٦) كان الكميت بن زيد قد أحفظ الأُمويّين بما عَرَّض بهم ، وأطلق من لسانه فيهم ، ومدح بني هاشم . فأمر هشام بن عبد الملك ـ وهو خليفة ـ واليَ الكوفة أن يحبسه ، ففعل . ثم تمكّن الكميت من الهرب بحيلةٍ ، واستجارَ بِعَنْبَسَة بن سعيد بن العاص ، فقال لهُ : عُذْ بقبر مُعاوية بن هشام . ثم سأل مَسْلَمة بن هشام أخاه أن يشفعَ للكُمَيت عِند أبيه هِشام ففعل ، وعَفا الخليفةُ الأُمويّ عنه .

(الأغاني ١٦ : ٣٣٢) .

(١٧) العُريب تصغير العرب (للتّحبيب) .

(١٨) في أمثال العسكري (١ : ٣٧٠) يُضْرَبُ مثلاً للرجل يُدْخِلُ نفسه في القوم ليس منهم . (والقِدْحُ واحدُ الأقداح التي كان يُستقسم بها الأزلام .) . والقِدْحُ أيضاً السهمُ قبل أن يراش ويُنصل . والمقصود الأوّل .

الكتبِ والآثار ، وأَجيء بالزُّبير بن بَكّـار[19] ، وأستظهِرُ بـأبي الْمُنـذر[20] أيَّ استظهار ؛ وأُعْلِمُه غيرَ شكٍّ ، أَنّي من غافقِ بن الشّاهد بن عَكّ[21] .

وهناكَ الشّان ، فإنَّ عَكّاً تَنافَسَهُ عَدْنَان وعُدْثَان[22] . وكُلٌّ قَـد جَلَب مـا جَلَب ولا أُبـالي أَيّ الفحلين غَلَب ! فـإن تـوجَّهت النُّـون فـالحـديثُ

---

(١٩) يُحيل على بعض كتب التواريخ والأَنساب ومؤلفيها .
- والزُّبَير بن بَكّار القرشي الأسدي (١٧٢ - ٢٥٦) عالم بالأنساب وأَخبار العرب ومن كتبه المشهورة أخبار العرب وأيامها . ومن كتبه المطبوعة : نسب قريش وأخبارها ، وكتاب الموفّقيات .

(٢٠) أبو المنذر كنية هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، وهو مؤرخ عالم بـالأنسـاب وأخبـار العرب وأيّامها . من كتبه : جمهرة الأَنساب (أو جمهرة النَّسب) طبع منه قسم . ومن كتبه المشهورة المطبوعة الأصنام ، ونسب الخيل .
- وكانت وفاة ابن الكلبي سنة ٢٠٤ هـ .

(٢١) ينتمي الكاتب ابن أبي الخصـال في عَـكّ ، في (غـافق) منهم . قـال ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (٣٢٨) بنو عَكّ ... منهم غافق بن الشاهد بن علقمـة بن عـكّ ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم في الجوف (أي في الشمال) في شمال قرطبة .

(٢٢) قـال ابن حـزم في جمهرة الأنسـاب (٣٧٥) « ... فَمَنْ نسب (عَكّـاً) إلى اليمن قـال : عَـكٌّ بن عـدنـان بن عبـد الله بن الأزد ... » المنتمي إلى كهلان . على أن بعض كتب النسب مثـل (طرفـة الأصحـاب في معرفـة الأنسـاب) للسلطـان الأشرف يقـول في معرض سرد نسل الأزد وقبـائلهم (ص ٢٧) وافتراقهم على نيف وعشرين قبيلـة « ... وعكّ بن عُدْثان بالثاء المثلثة » . ويروي الطبري (٢ : ٢٧١) أن عكّـاً - ويقـال لـه الدَّيْث أو هي أمه - انطلق إلى سَمران من أرض اليمن ... » . فهذا معنى قول الكاتب : تنافسه عدنان وعُدثان . والكلامُ في هذا يطولُ لوقصدنا إلى استيفائه .

(انظر تاريخ الطبري ٢ : ٢٧٠ ، والكامل في التاريخ ٢ : ٣٢ ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٣٧٥ ، وطرفـة الأصحاب : ٢٦ ، وعجالة المبتدي وفضالة المنتهي (العكي ، والغافقي) ، قلائد الجمان : ١٠٩) .

شجـون ؛ وإن تَرجّحت الثّـاءُ ففي الأَزْدِ[٢٣] العَـددُ والثّراء ، والعِـزّةُ القَعْساء[٢٤] ، والبأسُ الذي تُدْفعُ بهِ البـأسـاء ، ولا يـدرأ عن شَرفٍ دراء ، ماأَقامَ ثَبِيرٌ وحِرَاء[٢٥] !

ومُرتَقانا فيما بعد سَهل ، ومُلْتَقانـا ليسَ بـه خَفـاءٌ ولا جَهل . وأوْجَب الزُّبَير[٢٦] للخم في خُزَيمة بنِ مُدركةَ دَركاً[٢٧] ، وفَخْراً لا يَرى ذو الفَخر لَـهُ مَتْركا . فـإنَّ تـأيَّـد ذلـك فـالنـون تَصُول[٢٨] ، وعلى أسـدة بن خـزيمـة الوصـول ، وإني وإن كنت ذا نفر[٢٩] ، وعلى فَلـج[٣٠] في الْمُنْتَمى وظفر ؛ لأُسَرّ بنسبةٍ تربع في ذَرَاه ، وترفَعُني إلى ذُراهُ .

---

(٢٣) من جعله علكّ بن عُدثان أثبت نسبته في (الأَزْد) .

(٢٤) قعس الرجل : ثبت في عِزّة ، يقال : عزّةٌ قعساء .

(٢٥) ثبير ، وحراء ، جَبلان عند مكّة المكرّمة (معجم البلدان : ثبير) .

(٢٦) يعني الزبير بن بَكّار صاحب كتاب (نسب قريش وأخبارها) .

(٢٧) قال أبو محمد بن حزم (جمهرة أنساب العرب : ٤٢١) : « ... وقد كان أراد رَوْح بن زنباع أن يَرُدّ نسب جُذام إلى مُضَر فيقول : جـذام بن أسـدة أخي كنـانـة وأسـد ابنَيْ خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فمنعـه من ذلـك نـاتل بن قيس .. » . ونـاتل هذا من قوم رَوح .

(٢٨) نون (عدنان) ، كما سَبق عند الكاتب . وانظر في أسدة بن خزيمة (جمهرة ابن حزم : ١١).

(٢٩) أي ذا نفرٍ كثير . والنفر في اللغة : المجمع من النَّـاس ؛ قـال العبّـاس بن مرداس ، وهو صحابي يخاطب خفاف بن ندبة ، وهو صحابيٌ أيضاً :

أبـا خراشـة إمّـا كنت ذا نفرٍ … فـإن قـومي لم تـأكلهمُ الضَّبُـعُ

(٣٠) الفلج : الغلبة والظهور .

فكيف يرى ـ أيّده اللهُ سبي وتسبّي ؟ ، وأين يقع من مَذْهَبِه حُبّي وتحبُّبي ؟ .

وإنّي لأَستحيي من لاميّتـــهِ التي لبست لأمتي التَّحسين والتحصين ، وسَدِكَت[٣١] من الكلامِ بكلّ رزينِ السرد رَصين !

لا جَرمْ ! إنّي بعدَ أن لثمتُ ثَراها ، وقدّسْتُ ورُودَها وسُراها وقَرَيْتُها من التّعظيمِ قِرَاها ؛ رُمتُ التَّرفُّع في مِضْمَارِهـا ، والتّطلع في أَنوارهـا ، بل التلفُّع[٣٢] بغبـارهـا ، والتعلّـق بـأذيـالِ [٣٨/ب] آثـارهـا فرأيت شـأواً لا يَتعـاطـاهُ البَرقُ ، وتَبريـزاً يسلّم لـهُ الغَرب والشّرق ، فقبلت أمر ابن معدي كرب[٣٣] ، وتركتُ العَنقاءَ الْمُغرب[٣٤] ، ولـه أن يقول : كنتَ تَرقعُ وَهْيَةَ ذلكَ العِثـار ، وتنزل عن النّظـام إلى النّثـار ، فـأَقول : لا أَدفع مـا مَثَّل ، وإن لم يكن النّثـارُ بـأَمثـل ؛ لكنّـه أنفـذَهـا بين يَـدْي جهـاده وحطَّهـا على ظهر جَـوادِه ، وفي ثِنْيَيْ مُفـاضَتِـه ونِجَـادِه[٣٥] ، وقـد تَـوهَّم

---

(٣١) اللّأمة : الدّرع الحَصينة . واللامية : القصيدة التي على اللّام .
ـ وسدك : لزم .

(٣٢) تلفّع بكذا : تغطّى به .

(٣٣) يُشير إلى قول عمرو بن معد يكرب (ديوانه : ١٣٣) .

إذا لم تستطـع شيئـاً فـدعـهُ وجـاوزهُ إلى مـا تستطيـعُ !

ويروى : إذا لم تستطع أمراً .

(٣٤) العنقاء : طـائرٌ عظيمٌ معروف الاسم مجهول الجسم (طـائر خرافي) ، قـالوا هي عنقـاءُ مُغرب وكثر ذلك حتى سمّوا الدّاهية بـ عنقاء مُغرب ومُغربة .

(٣٥) المفاضةُ من الدروع : الواسعة . والنّجاد : حمائل السَّيف . والثّني (من الثوب) أحـد أثنائه وهي تضاعيفه ومعاطِفه .

القرنَ مَفْصُوما[٣٦] ، والدِّين مَعْصُوماً ؛ لأنّهُ أودَع كلَّ قافِيَةٍ همزة ، وأشربها عِزّة ، فمنها ما يَخْضَرُّ رَبيعاً ، ومنها ما يَحْمَرُّ نَجيعاً !

أشهدُ لو تمثّلت بَسالتها رِجالاً سُودَ الرُّؤوس ؛ لأتوا حوشَ القُلوبِ والنُّفوس ، يَضرِبونَ ملجأَ الكُفر ، ويُلْحِقُونهم بالعَفَر والعُفْر[٣٧] .

ولَمّا نَشيتُ[٣٨] من رِيحها ما نشيْتُ قلتُ : ليسَ لي ما شيتُ ، وعَلّلتُ نَفْسي بِتَراخي الصَّدر ، ورَجَوْتُ أنْ يكونَ لنا ريحُ الجِلاد[٣٩] ، ورَحا القَدر فتبعث الخَواطرَ بواعثُ النَّصر ، وتُرسل الهِمَم من عِقال ذَلك الحَصْرِ فورَدَ من الأَمر ما وَرَد ، وبَرَد الدُّعاءُ حيثُ بَرَد ، وحقَّتْ ذُنوبٌ وتَرَقّت خُطوبٌ ، وتَوالَتْ شُغُوب ، وأَنكادٌ مسَّ الخاطِرَ منها لُغوب[٤٠] ؛ ودَفَن القَوافي غُمَير[٤١] ، وتُرِك عَنْ ميامِنِنَا ضُمَير[٤٢] ، وعاشَ في الذِّمَم الوافية

---

(٣٦) القرن : حدّ السيف . ـ ومفصوم : مكسور .

(٣٧) العَفر : ظاهر التراب . والعُفر : جمع أعْفَر (وعفراء) ، وهو الظّبي (الذي يعلو بياضه حمرة ، قصير العنق ، أو هو الأبيض) .

(٣٨) يقال : نَشِي منه ريحاً طيّبةً : شَمَّ .

(٣٩) الجلاد المُجالدة في القتال . و : كانت الريح لفلان أي كانت لهُ الغلبة . ولابن هانئ :

فتُقت لكم ريحُ الجِلاد بعنبرٍ وأمَدّكم خلقُ الصّباحِ الْمُسْفِرِ

(٤٠) الشّغب : تهيج الشرّ والفتنة . واللّغوب : أشدّ الإعياء والتّعب . وفي سورة فاطر / ٣٥ ﴿ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ ﴾ .

(٤١) من أوّل بيتٍ في قِطعةٍ للشَّمَيْذَر الحَارثيّ (الحماسة بشرح المرزوقي ١ : ١٢٤) .

بني عَمّنا لا تذكروا الشّعر بَعْدَما دفنتم بصَحراء الغُمَير القوافيا

وكانوا قد قصّروا في ذلك المكان الذي ذكَره ، ولم يُبلوا بلاءً حَسناً .

(٤٢) من قول أبي الطيب المتنبي (ديوانه بشرح الواحدي : ٤٨٥) .

لئن تركنَ ضُمَيْراً عن ميامِنِنا ليحدثنّ بمن ودَّعنهم ندمُ !

العَدَم ، ولم يَحْدُث لِمَنْ وَدَّعتهم نَدم ، ولا التفَّ بالشَّوق قرنٌ ولا قدم ، وما خَطَطْتُه إلاّ عَن عجزٍ وكَسَل ، وفِكْرٍ كوخْزِ الأَشافي[٤٣] ، بل كوقْعِ الأَسَل ! ولولا الجَلالَةُ والكَرامة ، وأنَّ المُراجعة دَيْنٌ لازِمٌ وغَرامةٌ ؛ وأَنَّ الفتى يدعى للطَّعْنَةِ فَيُجيب ، ورُبّما تجزي الإحسانَ مُوليَةُ الفتَاةُ وتُثيبُ لما زِدتُ على المحبّةِ أبديها ، والتَّحِيَّةِ أُهديها ، وحَضْرَته الجليلةِ أُفَدّيها .

وأما أُخلوقَةُ[٤٤] العَرّاف ، وسموّ الذّوائب نَحْوها والأَعراف ، فهي نُهْزَةُ كُلّ رائمٍ[٤٥] ، وحَلُوبَةُ قاعِدٍ لا قائم ، وجحش تبذّهُ الأَعيار[٤٦] ، ومموّه يكشِفُه المِعيار ، وما مشت إلاّ في خفاراتِ الإخوان ، ومُعارات الاستحسان . وما وَدُّوه ؛ فَمودود ، وما ردُّوه وبَهْرَجُوه[٤٧] ؛ فَمُبهرجٌ مَرْدُود . ولو استدركت عليه ـ أَيده الله ـ[٤٨] [٣٩/آ] ... ... وما سَوَّل الشَّيْطانُ وَلا أَمْلى . إنّ لِغيرِه فيه المَثَلُ الأَعلى ، أَجل ! لا يَستوي الفرقَدَان[٤٩] : هذا مُنيرٌ أُفقيّ ، وَذاك غَريرٌ

---

(٤٣) الأشافي جمع الإشفى : المثقب يكونُ للأساكفة ، وهو المِخرز . والأَسل : الرماحُ الطِّوال .
ـ وقول الكاتب : « وربّما تجزي الإحسان ... » قريب منه قول المجنون (ديوانه : ٥٢)
سأستعطف الأيام فيك لعلّها ... بيوم سرور في هواك تثيبُ

(٤٤) على وزن أُفعولة كـ أُكذوبة .

(٤٥) رائم فاعل من رام الشيء : طلبه .

(٤٦) العَير : الحمارالذكر . والجحش : ولده . والمِعيارُ ما يعرف به صحّة الشيء من زيفه .

(٤٧) بهرجوه : وجدوه بهرجاً زائفاً .

(٤٨) بعد عبارة (أَيّده اللهُ) ثلثا سطر ، استبهمت كلماتُها .

(٤٩) الفرقدان : نجمان في بنات نعش الصُّغرى ، قريبان من القطب ، يَهتدي بهما المسافرون . والفَرْقدُ (على لفظ المفرد من المثنى السّابق) ولد البقرة الوحشِيّة . والمقارنة هنا بين النجم والظبي .

أَفَقِي[٥٠] ، وهذا يُهتَدَى به في البرِّ والبَحر ، وهذا يُشعر[٥١] ويُهْدى للنَّحر . ولا يَتشاكَهُ الهلالان[٥٢] نرحب من هذا بِحُجَين[٥٣] ، وتتراءاه فلقةُ قَعبٍ[٥٤] من لُجَيْن ؛ وَنُكبِرُهُ وَنُكَبِّرُ ، ونَصومُ لرؤْيتهِ ونُفْطر ، ونَستَنيره نِضواً نَاحِلاً فَيَبدُن ويُقمِر ؛ حتى إذا بَسَقَ[٥٥] واتّسق ، وَوَسَقَ من نورهِ ما وَسق ؛ استدرجَهُ اللّحاق وعادَّه[٥٦] المحَاق فإذا عاد كالعرجون[٥٧] ، ولبسنا سَابغات السُّود الجُون ؛ أَظهَرَهُ الّذي أَضمَرَه ، وسَخَّره وَأَمَرَه ؛ فأَنشأَ يَملأُ من هالته[٥٨] ما أَصْفَر ، ويَعمرُ بالنور ما كانَ أظلَمَ وأَقْفَر ، شتّانَ

---

(٥٠) منيرٌ أُفقي (نسبة إلىالأفق) وغَرِيرٌ (يوصف به الشابّ لا تجربة له) وهو يتحدث عن الظبي . وأَفَقِيّ أي ذو جِلْد ، والأَفيق : الجلد الذي لم يتمّ دباغه .

(٥١) أشْعَرَ البَدَنة : أعلمها بشقّ جلدها أو بطعنها في جانب سنامها بمبضع أو سكّين حتى يظهر فيها الدَّمُ ليعلم أنها هدي . (والبَدَنة : ما يُساق ويُهدى في حَجّ القِران فينحر بمكّة من بقرٍ وإبل ، سُمّيت بذلك لأنهم كانوا يسمّنونها) .

(٥٢) تشاكها : تشابها . الهلال الأول : قمرُ السماء ، والهلال الثاني : الحَيَّة .

(٥٣) حُجَين (على وزن زُهير) تصغير أحْجن . وصَفَ الهلال بأنه أحْجن وصغّره . وأصل معنى حَجن : اعوجَّ .

(٥٤) القعب : قِدْحٌ ضخم غليظ . وفلقته أحد نصفيه .

(٥٥) بسق الشيء : تمّ ارتفاعُه . واتسق القمر : استوى وامتَلأ . ووسقَ الليلُ الأشياء : جَلّلَها .

(٥٦) عادّه : تركه زماناً ثم عاوده .

(٥٧) العُرجون من النخل كالعنقود من العنب ، وفي سورة يس ٣٩ ﴿ حتّى عاد كالعُرجونِ القديم ﴾ .

(٥٨) الهالة : دارةُ القمر .

ماهو ومنهرتُ الشِّـدقَيْن[٥٩] منصلتُ الشِّقَّين : ريقـهُ سُمٌّ نَـاقِع[٦٠] ،وَنفثـه أَجَلٌ وَاقِع . فَسَلْ عن سام[٦١] عَيْنَيهِ سَامـة ، ونَسـأَلُ اللهَ تعـالى السَّلامَـة . ولا يَتَسَـاجل النَّهَـارَان[٦٢] ، هـذا يُسبغُ ثـوبَـهُ طُـولاً وعَرضـاً ، ويعمُّ سَماءً وأرضاً وَيَقتضِينا نَافِلَةً وَفرضاً ، ويُخْرج الخِبْءَ فيعرضُهُ عرضاً ؛

وذاكَ تلفُّـه البَوارِحُ وتقصـدُهُ الجَوَارح ؛ فَتَمزَّعـهُ أشلاءً ، وتتـوزَّعـه : غِلاباً وغلاءً . فلو أنّ هناكَ للاشتِباه عِرقاً[٦٣] نازعاً لَكان للمنيَّة عنه ذائِـداً ووازِعاً .كَلاّ إنَّ الخالي ليشبَّه يومَ سرورِهِ بِقِصَرِ أُظْفُورِهِ[٦٤] : وما أرى هذهِ القرابة تُجازُ عَلى الأيّام ، ولا تُحَازُ بِقصرِ الإبهَام .

ولا التِبـاس بينَ الصَّرِيمَيْنِ[٦٥] ، هـذا فَلقِيٌّ[٦٦] طَلْـقُ الإسفـار وَذلـك غَسقِيٌّ تُشبَّهُ بهِ أوجُهُ الكفَّار ، وهُناكَ ثَالثٌ[٦٧] رُبَّما حَسَّنَـهُ ذُو الرّمّـةِ وَكانَ

---

(٥٩) منهرت الشّدق : واسعه .

(٦٠) سمّ ناقع : بالغ قاتل .

(٦١) السّام : الموت (؟) وسامة اسمّ اشتهر ممن سمّى به سامة بن لؤي والإشارة هنا إليه ، فقد فقأً عين أخيه وهرب إلى عُمان فمات من نهشة أفعى (الطبري ٢ : ٢٦١ ، أنساب الأشراف ١ : ٤٦)

(٦٢) النّهار (الأوّل) عكس الليل ، والنهار ـ أيضاً ـ : فرخُ القطا .

(٦٣) نزعت به أعراقه : مالت بالشَّبه .

(٦٤) الأُظفور : الظفر ؛ كذا العبارة . ويقال : قِيْدُ أُظفور وقيس أظفور ، قال الشاعر :
مـــا بين لُقمتهـــا الأولى إذا ازْدَردت   وبين أُخرى تَليهـــا قِيـــدُ أُظفــورِ !

(٦٥) صريما الليل : أوّله وآخره ،

(٦٦) الفَلق : الفجر أو الصُّبح .

(٦٧) الصّريم (المعنى الثالث الـذي أشـار الكاتب إليـه) : القطعـةُ الضَّخْمَـةُ من الرمل ذات الشَّجر .

=

مِنْ مُشاكَهةِ أَوراكِ العَذَارَى في ذِمَّة .

خَـدَمتُ حضرة أنسـه ـ أيَّـدهُ الله ـ بمـا حَضر ، وإنّما اقتفيتُ الأَثر ، وأنّى بهِ وقد استَصفى الأَطيبَ الأَكثر ، وتمكّنَ مِن سَماءِالقَول كَيف شَـاءَ ، فَنظَم نُجومَها وَنثَر ؟ .

وأَما أَبو الحَجَّاجِ[٦٨] ، فَقدْ نَبغَ في الجَدلِ والحِجَاج ، وخَلعَ ثَناءَ العَـذْبِ عَلى الأُجـاج . فَلَـو أَطعمتَـهُ « العراقَ ورَافِـدَيـهِ » وانبسَطتْ فيهما كِلتَـا يَديْـهِ ؛ لَكانَ [٣٩/ب] شُكرُهُ عَنهُمَـا فَـاضلاً ، ولي في الامتثـالِ بَـاذِلاً ؛ فكيف ولَمْ أُرِدْهُ عَلى شَفاعَة وَوساطة ، واستخراجُ وتحٍ[٦٩] لا يستقلُّ نخلتـهُ بشدٍّ ولا إماطَة[٧٠] ؟

وَسـأَبري لـه وأنحت ، وألحى وألحت[٧١] ، وَسَيـأوي من همَّتـهِ العتيقـة العريقةِ إلى ظِلِّ دانيةِ الغُصونِ وَرِيقَة ، ويَهتدي من نُورِ هُداه ، وَيَأخُـذ

= ـ وذو الرمّـة (٧٧ ـ ١١٧) غيـلان بن عقبـة شـاعر أُمويّ ، أجـاد في الغـزل ووصف طبيعة البادية .

ـ وفي ديوانه ـ مثلاً ـ ص ٦٧٣ في صفة نسوةٍ :

جَعَلْن الحليَ في قصَبٍ خِـدال ... وأَزّرهُنَّ بـالعَقِـدِ الصَّرِيمُ

(القصب : كلّ عظم فيـه مـخ . خِـدال : ممتلئـة . أَزّرهن الصريم أي كان الرمـلُ لهنّ إزاراً . فشبّه أعجازهن بالرَّمل) .

(٦٨) أبو الحجّاج : لم تسبق الإشارة إليه باسمه .

(٦٩) الوتح : القليل التافه من الشّيء .

(٧٠) أماط الشيء : نحّاه وأبعده .

(٧١) لحى ، ولحت : قَشر .

من عِلمـهِ وَنَـداه ، وليتني أَخْلُصُ إليـه فـأهبـطُ أثرهُ ، والتقـطُ ممَّـا نَثرهُ ، وأستفيـدُ ممَّـا استصفـاهُ وَذخرهُ بـل ممـا نَفـاه وأخَّره ؛ وَلا أقـلَّ إذ حُرِمتُ الغَرَض ، مِن الموانعِ مـا اعترض ، من إجـازةٍ تَصِلُ سَببي بعُـلاه ، وَتُحمِّلني بجلاه ، ما حَمله وَرواه إن شاء الله .

[٦٠]

وله(☆) ، رحمةُ اللهِ عليه ، نسخة إجازة مُقْرِئ

الحمدُ للهِ الّذي هَدَانا لفضيلةِ حَمـدِه ، وحَـدَانـا إلَى تمجيـدِه بِمَجْـدِه ، وأَنـزلَ الفُرقـانَ على عَبـدِه[١] واختصَّـهُ ببـلاغِ رِسَـالاَتِـه وَعَهْـدِه ، وقَلَّـده التَّحـذير مِن وَعِيـدِه ، والتَّرغيب في وَعـدِه ؛ فَصَـدَعَ بـأَمرِه وانتهى إلَى حَدّه . وَدعا بالْحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الْحَسَنـة إلى سَبيل رَبّـه ، وَأَطلَعَ الإيمـانَ مِن مَطلَعِه وَأَهَبَّهُ مِنْ مَهبِّه ، وقامَ دونَهُ بِصَادقِ طَعْنِهِ وضَربـه ، وَظـاهَر[٢] في إظهـارِهِ بينَ حَـالَيْ سِلْمـهِ وحَرْبـه ، إلى أَن ذوى[٣] لَـهُ مَـا بَينَ شَرقِــهِ وَغَربِه .

[٦٠]

(☆) نسخة إجازة مُقرئ (أتْقَن علم القِراءة وحذقه على الشيوخ المعتبرين) .

(١) استفاد من الآية الكريمة من سورة الفرقان ١/٢٥ وهي : ﴿ تَبَارَكَ الَّذي نَزّلَ الفُرْقَـانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمينَ نَذيراً ﴾ .

(٢) ظاهر بين الثوبين : طابقَ بينهما .

(٣) في الحديث : « زُويت لِيَ الأرضُ فرأيتُ مشارقها ومغـارِبَهـا » أي جُمعت ، يُقـال : زويتُه أزويهِ زَيّاً .

وقَرأَ القرآنَ على مكثِ الـوَادعِ الْمُطمئنّ ، وتجـاوزَ بتبليغـهِ الإنسَ إلى الجنّ . وبَثَّ آيـاتِـهِ في ضُروبِ الأُمَم ، وصَـكّ[٤] بمعجـزاتِــهِ أسماعَ العَربِ والعَجمِ ، حينَ احمرَّ البَأسُ[٥] ، وَأَلظَّ اليأسُ[٦] وَطَارَ عن مجاثِمهِ الرَّأسُ[٧] .

والمنيَّـةُ غِمارُهـا تُخَـاضُ ، والشَّـدائــدُ صِعَـابُهــا تُراضُ ؛ فكم عَلى بِئْرِ مَعُونَةَ[٨] مِنْ طَـاوي الْحَشى صَوَّام ، وأَشعثَ بـآيـاتِ رَبِّـهِ قَوَّام ؛ لاتَحفِزُهُ زَهرةُ الحياةِ الدُّنيـا ، ولا ينهزُهُ[٩] إلاَّ أن تكونَ كَلمـةُ اللهِ العُليـا ؛ وَموطن أَذى غَضِبَت لَـهُ الأرضُ والسَّماءُ ، وآيــة هُــدًى أُرِيقَت على جَــوَانِبِ[١٠]

---

(٤) صكّه : دفعه ، أو ضرب قفاه أو وجهه بيده مبسوطة . وفي (صكّ سمعه) مجازٌ .

(٥) احمرّ البأس : اشتدّ .

(٦) ألظّ اليأس : لزم ولم يفارق .

(٧) مجاثم جمع مَجثم (مكان الجثوم) من فعل جثم . والمعنى : موقع الرأس من البدن .

(٨) بئر معونة بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم في طريق المصعد من المدينة إلى مكة . وكان نزلها المنذر بن عمرو رضي الله عنه مع أربعين من أصحابه من خيار المسلمين . وكان أبو براء عامر بن مالك قد وفد على النبي ﷺ فلم يُسلم ولم يَبْعُد ولكنّه قال لرسول الله ﷺ لوخرج رجالك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دعوتك رجوت أن يستجيبوا لك ، وتعهّد لرسول الله ﷺ بحمايةِ الْمُسلمين وجَعلهم في ذمّته . وبعث الوفدُ النازل ببئر معونة أحدهم إلى عامر بن الطفيل بكتاب فقتله واستعدى على المسلمين من أطاعه من بني سُليم فالتفوا على الوفد وقتلوهم شهداء .
وكان شهداء بئر معونة من قرّاء القرآن الكريم .
(السّيرة ، وتاريخ الطبري ، وكتب التواريخ) .

(٩) نهزه : دفعه (وحثّه) .

(١٠) من قول المتنبي (شرح الواحدي : ٣٤٨)

لا يسلمُ الشَّرفُ الرّفيـــعُ من الأذى حتى يراقَ على جـوانبِـه الـدَّمُ

تَبليغِها الدِّماء ، وسُورةٍ محكَمَةٍ تُتلى ، ورؤُوسٍ بالصَّوارمِ تُفْلَى[11] ؛ وكَلمةٍ لا يُبلَغُ مَدَاهـا حتى تَبلُغَ النُّفوسُ رَدَاهـا ، وصحيفـةٍ لا تُختَمُ إلاَّ عَن آجـالٍ تُحتَم ، وكتابٍ تزاحَفَتْ [٤٠/أ] عليـه المصـائب ، وجُزَّت عَليـهِ النّواصي والـذَّوائب[12] . وسَقَتْ أَقلامَـهُ الْمُهَجُ الصَّوائِب ؛ حتَّى انجلى عَن الإسـلامِ ذلـكَ الـزَّبَـدُ الرَّابي ، وثَبَتتِ الأَطـوادُ والرَّوَابي ، وظَهَر أَمرُ الله برغمِهم وإكراهِهم . وتَمَّ نورُه الذي أَرادُوا أن يُطفِئُوهُ بأَفواهِهم[13] .

وأَشهَـدُ أَنْ لا إلـه إلاّ الله وَحـدَهُ لا شَريـكَ لَـه ، شَهـادةَ يَقينٍ لا قِـلادَةَ تَلقِين ، وعقيـدةً تُـوصِـلُ إلى الإحسـانِ وتَصِـلُ مـا بَيْن القَلبِ واللِّســان ، وتَستفْرِغُ رِضَى الرَّحمن ، وتَملأُ كِفَّةَ الميزان[14] ؛

وأَشهَـدُ أنَّ محمّـداً رَسُولُـه الْمُرتَضى ، وحُســامُـهُ المنتَضَى ، وأمينُـهُ المصطفَى ، الَّـذي أَردَفَ بـهِ[15] على فَتْرَةٍ من الرُّسلِ وَقَفَّى ، وفـوَّضَ إليـه فَشَفَى وكَفَى ، وختَم بـهِ الأنبيـاءَ ووَفَّى . وَجَعَلَـهُ أَكْثَرَهُم سَوَاداً[16] ،

---

(١١) فلاه بالسَّيف : ضربه وقطعه . وفلى الرأس : بَحثه عن الْهَوامّ .

(١٢) من قوله « عليه .. » إلى « الذوائب » مُستجلى من رأس الصفحة .

(١٣) اقتبس من الآية الكريمة من سورة التوبة : ٣٢/٩

(١٤) في الحديث « ... خمسٌ ماأثقلهنّ في الميزان : لاإله إلاالله ، والله أكبر ، وسبحـان الله ، والحمد لله ، والولد الصالح يتوفّى فيحتسبُه والده » . مُسنـد أحمـد ٣ : ٤٤٣ . ورويت أحاديث مُقاربة لفظاً ومعنًى .

(١٥) أردف : أتبع . والفترةُ : ما بين كل رسولين من رسل الله تعالى ، تنقطع فيه الرسالة .

(١٦) سـواد النـاس : معظمهم . والنّجـاد : حمـائـل السيف (وطـويـل النجـاد : طـويـل القامة) . والمعنى متداول ، وكلام الخنساء فيه مشهور .

وأطوَلَهُم نِجَاداً ، وأَبعَدَهُم مُغاراً ، وأَوسَعَهُم كَتِيبَةً وَغَاراً[١٧] ، وأَسطَعَهُمْ طيباً وغُباراً[١٨] ، وأَرفَعَهُم ذِكراً وَنَاراً . صَلّى اللهُ عليهِ وَعَلى أهلِ بَيتهِ الأَرفع ، وأَصحابِهِ أَهلِ الإخباتِ[١٩] والوَرَع ، والإيمانِ الأَنصَع ، والحباءِ[٢٠] الأَوْسَع ، وَالغَوثِ الأَسرع ، وأَنصارِهِ الّذين كانُوا يَقِلُّونَ عندَ الطَّمَع ، ويكثُرون عندَ الفَزع[٢١] الذين مَضوا عَلى الوَاضِحة المهيَع[٢٢] ، ووَردُوا جمَّةَ المَشْرَع[٢٣] ، وعنفوانَ المكْرَع صلاةً عَبِقَةَ البرُود ، متَّسقةَ الوُرود ، لاتَنقطِعُ مُدودُها ، ولا يَزالُ الشَّوقُ يَقودُها ولا يَبْلى عَلى الأَيَّامِ جَديدُها ، وتُطوى لَها الأَيَّامُ وَيدنُو بعيدُها[٢٤] .

قَال فُلان :

أَمّا عَلى أَثرِ ما سَبَق ، وبعدَ ما انتظَم واتَّسق ؛ فإنَّني أَحمدُ اللهَ مُعيدا ، وأسبّحهُ تَرديدا ، وأُمَجّدُه تَمجيدا ؛ على ما منَّ بهِ من نِعمةِ الإيمان ، والتمهُّرِ في القُرآن ، والتبحُّر من أَجلِه في اللِّسان ؛ بتعليلٍ يرقُّ ، ومعنًى جَليلٍ يدقُّ ، وتصريفٍ يَعتاصُ ويشُقّ ، وإقامةِ وَزْنٍ يستَسقطُ فيه

---

(١٧) المغار : موضع الغارة . الغار : الجمع الكثير ، والجيش .

(١٨) سطعت الرائحة : فاحت وانتشرت ، وسطع الغبارُ : ارتفع .

(١٩) أخبت : تواضع وخشع .

(٢٠) الحِباء : العَطاء (أو العطاء بلا مَنّ ولا جَزاء) .

(٢١) في الحديث أنه ﷺ قال للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلّون عند الطّمع » .

(٢٢) المهيع : الطريق البيّن .

(٢٣) الجمّة : البئر الكثيرة الماء . والمشرع من شرع إذا تناول الماء بفمه . ومثلها المكرع .

(٢٤) من قول كثيّر (ديوانه : ٢٠٠)

وكنتُ إذا ما زرتُ سُعدى بأَرضها ... أرى الأَرضَ تُطوى لي ويَدْنُو بَعيدُها

النِّقــاب[1] ، وتَمضي على زلّتِـه الأَحقــاب ، ويتــداوَلُهــا الأَخــلافُ والأَعقــاب ؛ فَجُلْتُ في شتّى فُنــونِــه ، وأَحطتُ بعيــونِــه ؛ وأَعرسْتُ بـأَبكارِه ، وتمتَّعْتُ بِعُـونِـه ، حتّى اتَّقـاني بمكنـونِـه ، ورمــاني بمخبُـوئِــه ومَصُـونـه ؛ وبلغتُ ـ ولله المنُّ ـ أَطْـوَرَيْـهِ[2] ، [٤٠/ب] ونـازعتُ الأئمَّـةَ طرَفيـه ، ونقبت عن فـوائـد مِصْرَيْـه[3] ، إذ كان بـاعث النَّشــاط ، وأَداة الانبســاط ، ومفتـاح الْمُغلق الْمُبهم ، وسلاح كُماةِ البُهَم[4] ؛ وقـوام العَقـلِ واللّسن ، ومِعيار القَبيح والْحَسَن ، وطريقَ المِنَحِ الْجَزيلـةِ بـالمِحَن ؛ ومـا خلصتُ إلى هذه المرتبَـة ، ولا فُزتُ بتلـك المـأثرةِ الجليلـةِ والمنقبـةِ ؛ بعـد فضل اللهِ الـذي « يُؤتيـه من يَشـاءُ » ، ويُنيلـه فتُنـال بـه العليـاء ؛ حتى اكتحلتُ أُوار[5] الأَرَق واستشعرتُ صِــدَارَ الفَرَق[6] ؛ واستــأنستُ بالوَحشة[7] ، وسكنتُ إلى العُزلـة والوَحـدة ، طلبـاً للإتقـانِ والتَّجويـد ، ورَمياً إلى الغَرَض البعيد ؛ أرتـاحُ للشُّفوفِ والفَرْق[8] وأنتجعُ العلم انتجـاعَ البَرْق ، وأَنظمُ بين طرفي الغرب والشَّرْق ، فَقَلَّ إمامٌ مذكورٌ إلا وقـد شُـدَّ

---

(١) النِّقابُ : قناعُ المرأةِ يستِرُ لونها ، والقِناع على مارنِ الأنف .

(٢) يقال بلغ فلان من العلمِ أَطوريه ؛ أي حدّيه أوّله وآخره .

(٣) عنى بالمصرين الكُوفة والبصرة ؛ وهما من أهم مواطن العلم في صدر الدَّولة الإسلاميّة .

(٤) البُهَم جمع البهمة : الشجاع يستبهم على قِرنه (مكافئه) وجهُ غلبته .

(٥) الأُوار : حَرّ الشمس (والنار والتنور) .

(٦) الفَرَق : الصُّبح . وأصل الصدار ثوبٌ للمرأة . و : استشعره : جعله شِعاراً .

(٧) من قول تأبط شرّاً (ديوانه : ١٥٧) والمعنى متداول :

يَرى الـوحشـةَ الأنسَ الأنيسَ ويهتـدي   بحيثُ اهتـدَتْ أُمُّ النُّجـومِ الشَّـوابِـكِ

(٨) الشُّفوف جمع شِفّ وشَفّ ، وهو الثوب الرقيق (يُرى ما وراءه) ، والفرقُ : الكَتّان .

إليــه لي كُـور[٩] ، وتَهــاداني نحـوه رَواحٌ وبُكـور ؛ إلى أن نَسَّقَهُم سِلـكُ إسنادي ، ووَرَيتُ بلقـائهم زِنَـادي ؛ وخَـدمتُ أنـديتهم التي تخيِّم الرَّحمـةُ فيها ، وتضعُ الملائكةُ أجنحتَهَا لمنتديها[١٠] .

فصــدَرْتُ ـ بحمــدِ الله ـ عن الأئمّــةِ والرُّواةِ ، كما صَــدَر الظَّمآنُ عن الفُراتِ ، وهلُمَّ جرّا ، فما أَسـأمُ من الالتِمَـاس ، ولا أرفعُ نَفسِي لَو ألفيتُ من يُـؤخَـذ عنـه من الاقتبـاس ؛ فـإنّي في العلم والشُّكرُ لله نَهِمُ السَّريرة ، جَذَع البَصيرة[١١] .

واللهُ جلَّت قدرَتُه ينفَعُ بعمرٍ أنفقتُـهُ في سبيلـه وقطعتُـهُ بَينَ تنزيلـهِ ، وحديثِ رَسُوله ، ويوجّـه ذلـك إلى رضـاهُ وقبُولـه ، فقـدر الحـاملِ قـدرُ مَحمُولِه .

ومــا امتطيتُ من المشَقَّــة مــا امتطيت ولا تخطَّيتُ إلى الأئمَّــة ما تخطّيت ، إلا لِتَلَقِّي القرآن غَضّاً من أفواهِهِمْ ، وتثقيفِ أَوَدِ[١٢] الْحُروفِ عن أَلسنَتهِمْ وشِفَاهِهِمْ .

فيتَّصل بالأَداءِ الأَداء ويرتَقِي بنا الاهتِدَاء ، في أَقْوَمِ سَمْت[١٣] ، وعَلَى

---

(٩) الكُور : رحلُ البعير .

(١٠) في الحديث : « إنّ الملائكة تضعُ أجنحتها لطالب العلم » .

(النهاية ٥ : ١٩٧ ، ومسند الإمام أحمد ٤ : ٢٣٩) .

(١١) الجذع : الشاب الْحَدَث .

(١٢) الأود : العوج .

(١٣) السَّمت : الهَدي .

غيرِ عِوَجٍ ولا أَمْت[١٤] ؛ بين سِماطَي[١٥] ثقاتٍ ، وسطْرَيْ هُداةٍ أَثباتٍ : يهدُوننا في كلّ مَجهَل ، ويُؤَدّوننا إليه - صلواتُ الله عليه - من مَنهلٍ إلى منهل ؛ حتّى نُصافح بنانَه ، ونسمَع فصاحتَه وبيانَه ؛ ونراهُ يقرئ زَيداً[١٦] وأُبيّاً[١٧] ، ويُشْرِبُهم الإيمانَ حيّاً حيّاً ؛ ومَن ركِب [٤١/أ] [ثبج ؟][١٨] [المحجّة][١٩] البيضاء ، واستنار بنور الله واستضاء : ولم يَعْدُ عن هذهِ المنزلةِ طامحُ همتِه وطرفِه وتَمسّك بكتابِه العزيز ، الذي ﴿ لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يَديْه ولا من خَلفِه ﴾[٢٠] : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ

---

(١٤) الأمت : العوج . وفي سورة طه ١٠٧/٢٠ ﴿ لاترى فيها عوجاً ولا أَمتا ﴾ .

(١٥) السّماط : الصفُّ الواحدُ من النّاس (والبيوت والنخل) .

(١٦) زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي (١١ ق . هـ - ٤٥ هـ) من كتاب الوحي ، وأحد من جمعوا القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ وعرضه عليه ، وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر ثم لعثمان (رضي الله عنهما) حين جَهّز المصاحف إلى الأمصار .

(سير أعلام النبلاء ٢ : ٤٢٦)

(١٧) أُبي بن كعب بن قيس من بني النَّجار من الخَزرج (... - ٣٠ هـ) سيّد القُرّاء . جمع القرآن الكريم في حياة النبي ﷺ ، وعَرَضه على النبي عليه الصلاة والسَّلام ، وحفظ عنهُ علماً مباركاً ، وكان رأساً في العلم والعَمل . وفي حديث أنس رضي الله عنهُ ، قال رسول الله ﷺ : « أقرأ أُمتي أُبيّ » .

قال الذّهبي (سير أعلام النبلاء ١ : ٤٠٢) : قال الواقدي سمعت من يقول : مات في خلافة عثمان سنة ثلاثين وهو أثبت الأقاويل عندنا .. » .

(١٨) الثَّبج : وسط الشَّيء .

(١٩) المحجّة : جادة الطريق ، والطريق المستقيم .

(٢٠) من سورة فصّلت ٤٢/٤١

بـالْعُرْوَةِ الـوُثْقى ﴾[٢١] ورقي أَعلى مُرتقى ، وترك الخلافَ لـلإجمـاع ، والافتراقَ للاجتماع وفازَ بملء القُلوبِ والأَسماع .

كتـابٌ عزيز أَحكمَهُ وفصَّلـه ، وقرآنٌ عظيمٌ نـزَّلـهُ ووصَّلَـه ، وتكفَّـل بحفظهِ[٢٢] ، ولا ضيعةَ على ماتكفَّله . لا يُدركُهُ البِلى ، ولا تزيدُهُ إلاّ جدّةً كثرةُ مـا يُتلى . معـدِنُ الحِكَم ومُعجِـزُ الأُمم ، ومنـاخ الفِكَرِ والفِطَن ، وينبوعُ الفرائضِ والسُّنَن .

ينفَدُ البحرُ ولا تنفَدُ عجائِبه[٢٣] ، ويُحصى القَطر ولا تُحصى غرائبه ؛ يسَّرهُ بلسانِ نبيِّه - ﷺ - للذِّكرِ والإفهام[٢٤] . وجعلَـهُ قيِّماً غيرَ ذي عِوَج من الكَـلام[٢٥] ، ووصلـه بـالنَّظـائر والأَشكال ، وفصَّلـه بـالحِكم البـالغـة والأَمثـال[٢٦] ؛ فجـلَّ عن المثـال ، وتمَّت بـه النِّعمـة ، وكمل الـدِّين كلّ الكمال ؛

---

(٢١) من سورة البقرة ٢٥٦/٢

(٢٢) في سورة الحجر (مثلاً) ٩/١٥ : ﴿ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

(٢٣) في حديث الحارث الأعور عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « .... وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ... ولا يخلق عن كثرة الردّ ولا تنقضي عجائبه » رواه الترمذي في أبواب فضائل القرآن (٤ : ٣٤٥) وقال هذا حديث غريب ... الخ . ورواه الترمذي عن الحارث أيضاً في كتاب فضائل القرآن : ٤٣٥

(٢٤) في سورة القمر ١٧/٥٤ : ﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مُدّكر ﴾ .

(٢٥) في سورة الكهف ١/١٨ - ٢ ﴿ ولم يجعل له عوجاً ☆ قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ .

(٢٦) إشارة إلى مافي الكتاب الكريم من ذكر الحكمة البالغة ، وضرب الأمثال .

لو أُنزلَ على الجبالِ لتصدَّعَتْ من خَشيةِ ذي الجلال[٢٧] ، وتَهيّلت تهيُّلَ الرّمـال . فصلاةُ الله وسلامُـهُ بـالغـدوِّ والآصـالِ ، على المتحمّـل لـه حـقَّ الاحتمال[٢٨] ، والمستقلّ به كُنهَ الاستقلال ، ومفسّره بسُننـهِ المبيّنـةِ للحرامِ والحَلال ، مُودِعُه كما استُودعَهُ صدورَ الرِّجال ؛ والمفضي به إلى خيرِ أصحابـه الأئمّة وتَابعيهم من أبدال[٢٩] الأُمَّـة يتسلَّمُـه صـدرٌ عن صـدر وينقُلـه بَـدرٌ باهرٌ إلى بَدر ؛ محفوفاً بالكلاءَة[٣٠] والعِصمـة ، مَحمولاً من ذِمَّـة وافيـةٍ إلى ذِمّة ؛ مِن كلِّ جَليلٍ مُتَهيَّبٍ : مَنْ نَظر إليـه سَرَّه ، أو كلَّمَـهُ وقَّره وبرَّه ، أو ضعيفٍ متضعّفٍ إن أَقسمَ على اللهِ أبَّره[٣١] ، أو مُنِـع القطرَ استنزلَـــــهُ واستـدرَّه ؛ تشرقُ الأَرضُ بِنُورِهِمْ ، وتحضر البركَـةُ بحضورِهِمْ ، ويُستسقى الغمامُ بعـدَهم بقبورِهِمْ كانُـوا عَصراً عَصراً ، وزَمـانـاً زَمـانـا ؛ لـلأُمَّـة مَـلاذاً وأماناً ، وللرَّحمة حتماً واقعـاً وضمانـاً [٤١/ب] اعتزُّوا بـالقَنَـاعـةِ والزَّهـادةِ

---

(٢٧) في سورة الحشر ٥٩/٢١ ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خـاشعـاً متصـدّعـاً من خشية الله ﴾ .

(٢٨) تحمّل واحتمل بمعنى حمل .

(٢٩) أَبدال جمع بَـدَل وبِـدْل وبـديل ، وهو غير الشيء ، يغني غنـاءه ويكون مكانـه ، وهو الخلف منه . وذكر الرواة أَحاديث عن (الأبدال) وأنهم أربعون كلما مات رجل أُبدل مكانه آخر ... الخ . انظر مثلاً مسند أحمد ١ : ١١٢ . وكتب فضائل الشـام وخـاصـة (فضائل الشام ودمشق للربعي) : ٤٤ ـ ٤٦ . وتعليقات ناصر الدين الألبـاني في ذيل الكتاب ص ١٠٠ ـ ١٠١

(٣٠) الكلاءة : الحراسةُ والحِفظ .

(٣١) معنى : (أبّره) أي صـدقـه . واللفـظ في حـديث مشهـور ، وفيـه « لـو أقسم على الله لأبرّه » . مسند أحمد (٣ : ١٤٥) .

وجَمعوا [أدبهم][٣٢] إلى العِبادَة ؛ وجلَّت أقـدارُهم ومراتبُهم عن الزيـادةِ : تُفردهم صِفاتُهم ، وتُعينُهم أوقاتُهم ، ويميزهم[٣٣] (؟) سَنـاهُم ، وتَشهـدُ لهم سِيماهُم ، لولاهُم[٣٤] لما وَجَبَتْ حَجَّـة ، ولا عُبرت لُجَّـة ولا لاحت حُجَّـة ؛ ولكانَ الدَّهرُ بَهيماً[٣٥] ، والنَّاس عِطـاشـاً هِيماً[٣٦] . كرَّمهم اللهُ وأَحظـاهُم ، وأزلفَهم[٣٧] وأرضاهُم ، كما آتاهُم رشدَهم وتَقواهم ، وأيَّـدهم بـالعصمـةِ وقوَّاهم ؛ وكافأَهم عن الوفاء بميثاقِه الذي أخـذَه عَليهم[٣٨] ، وأَداءِ الأمـانـةِ التي أَفضى بها إليهم[٣٩] ؛ وإعطائِها حقَّها من الإشاعـةِ والنَّشر ، وتخليـد مـآثِرهـا على وَجْـهِ الـدّهر ، مُكافَـأَةً تُقِرّ في جواره وبحبـوحـة داره عُيـونَهُم ، وتَستغرق أمانيَّهم وظُنونَهم ؛ فقد بَثّوا ماعلموه ، وبَيّنُوه لنـا ولم يكتموه[٤٠] ، وورّثُوه

---

(٣٢) حروف الكلمة مشوهة تماماً في السطر (أول الورقة ٤١/ب) .

(٣٣) كلمة غير بيّنة ، وهي مستجلاة استظهاراً .

(٣٤) كرر كلمة (لولاهم) في الرَّسم .

(٣٥) البهيم : الأسود .

(٣٦) الهيم : العطاش ، التي يُصيبها داء فلا تروى من الماء .

(٣٧) أزلفهم : قرّبهم .

(٣٨) الميثاق : العهد ، وما يُشَدّ به العهد ويؤكّد . وفي سورة المائدة ٧/٥ : ﴿ واذكُروا نعمة اللهِ عليكم وميثاقه الـذي واثقكم بـه إذ قلتم سمعنـا وأطعنـا واتقوا الله إن الله عليم بـذات الصّدُور ﴾ .

(٣٩) انظر الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

(٤٠) في سورة آل عمران ١٨٧/٣ ﴿ لتبيّننّه للناس ولا تكتمونَهُ ﴾ .

وخِيارُه فيه كما وَرِثُوه[٤١] ، لم يَستأثروا منه بذَرْءٍ[٤٢] ، ولا لَقُوا طالِبَهُ بدفعٍ عنهُ ولا دَرْءٍ !

وبعد : أيُّها الحريصُ المُستوفِزُ[٤٣] ، والمستبطئُ المستنجِز ، من غَريبٍ إلى أهله يأرزُ[٤٤] ، ومُقيمٍ هَمُّه إجازةٌ يُحرِزُ بها ما يُحرز . أنيخُوا يَسيراً ركائبَ سَفرِكُم ، وأَصِيخُوا قليلاً بين يَدي صَدَرِكُم[٤٥] . فإنّي لا أدري لعلّي أن أُدعى فأُجيب ، ولعلّ ما أخطأني يَوماً أن يعودَ فَيُصيب ؛ حتّى أَنصح لكم جُهدي وأبرأَ إليكُم فيما تَأخُذونه بميثاقِي وعهدي ؛

فَمنْ جارَ بعدُ وتَحيَّر ، وبدَّل وغيَّر ؛ وألفى في الحياة مُضْطَرباً ، فإنّ لَهُ مَعاداً ومُنْقَلباً ؛ واللهُ من ورائِه مُحيط ولن يُعجز اللهَ هَرباً .

عليكم بِتَقْوى الله ، فَهي نِظامُ مَماتكم ومَحياكم ، وقوامُ دينكم ودُنياكم . والتِّجارة الرّابحةُ التي تَشْرُون ، والغَايةُ الطّامحةُ التي إليها تَجْرُون ، وتأدَّبُوا بأدب اللهِ تعالى فيما يُتلى عليكم وتَتلون ، ولا تَولَّوا عنهُ وأنتُم مُعرِضون . ﴿ ولا تكُونوا كالّذينَ قالُوا سَمِعْنا وهم لا يَسْمَعُونَ ﴾[٤٦] .

---

(٤١) من قول عمرو بن عديّ اللخميّ :

هـذا جَنايَ وخيارُهُ فيه إذ كُلُّ جانٍ يدهُ إلى فيه !

(المصون : ٢٩ ، والمذكر والمؤنث لأبي بكر الأنباري : ٢٥٥) .

(٤٢) الذَّرء (بفتح الذال وتضمّ) : اليسيرُ من الشَّيء أو الطَّرفُ منه .

(٤٣) معنى استوفز : جلس على هيئة المستعد للوثوب أو المضيّ .

(٤٤) أرزَ إليه : التجأ .

(٤٥) الصَّدَر : اسم مصدر من فعل صدَر .

(٤٦) الآية ٢١ من سورة الأنفال (٨) .

ولا ﴿ تَخُونوا أَماناتِكُم وأنتم تَعْلَمُون ﴾ . ﴿ أَتَأْمُرون النَّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُم وأَنتم تتلونَ الكِتابَ أَفلا تَعْقِلونَ ﴾[٤٧] .

فلا أَعلَمَنَّ [٤٢/أ] [من قَعد][٤٨] مِنكم مقعدَ الإقراء ، مُهذّب الردِّ والإصغاء ، نبيلَ الهَيئة والرُّواء عَبِقَ الثّوبِ والفِناء ، مُحتبياً للسُّمعة والرِّياء ، كخضراءِ الدّمن[٤٩] ، يابُؤس لتلك الخضراء ؛ مَنْ نظَر إلى ظاهرِه أَسرعَ ورَفْرَف[٥٠] ، ومن استَشفَّ باطِنَهُ جدَّع[٥١] وأَفّف . أُولئك الذين نَبّأنا رسولُ الله - ﷺ - من أَخبارهم ، ووسَمهم بِنارهم . يقولون من خيرِ قول البرية ، ويمرُقونَ من الإسلام كما يَمْرُق السَّهمُ من الرَّمِيّة[٥٢] . عَصمنا اللهُ وإيّاكم من مُضارعةِ صفةٍ من صِفاتهم ، أَو مُنازعة جهةٍ من جهاتِهم ؛ نعمْ ! ومِن آخَرين « لا يَرْجُون للهِ وقَاراً » ، ولا يرفَعُون للقرآنِ العظيمِ مَناراً ، ولا يُرْعُون[٥٣] القارئَ أَسماعاً ولا أَبصاراً .

---

(٤٧) الآية ٤٤ من سورة البقرة (٢) .

(٤٨) مابين معقوفتين لم يظهر أو هو ممحوّ بأثر تلفٍ أو ماء . وهو مقترح .

(٤٩) من الحديث « إيّاكم وخضراءَ الدّمن » ذكره ابن الأثير في النهاية ٢ : ٤٢ . وانظر ماقاله فيه العجلوني في كشف الخفاء ١ : ٣١٩

(٥٠) من معنى : رفرف الطّائر بجناحيه .

(٥١) جَدّع : قال له : جَدْعاً وعقراً (دعاءٌ عليه) .

(٥٢) من حديث رواه علي رضي الله عنه ... « إن رسول الله ﷺ قد حدّثنا بأقوام يمرقون من الدين كما يمرقُ السهم من الرميّة .. » إلخ الحديث . مسند أحمد ١ : ٨٨ وانظر النهاية (مرق) .

(٥٣) أرْعاه سمعه أي استمع له .

كأنّهم لا يَعتقدون الأمر جِدّاً ، ولا يَروْنَ الباطِلَ للحقّ ضِدّاً ؛ أَلم يعلموا أنّ الله مُستمِعٌ قريب ، وأنه عَليهم مُطّلعٌ رقيب ؟

﴿ والسّماء ذاتِ الرّجعِ ☆ والأَرْضِ ذَاتِ الصَّدع ☆ إنَّـهُ لَقولٌ فَصْلٌ ☆ وما هُوَ بالهَزْلِ ﴾[٥٤] . ولله قومٌ ركبُوا الْمَحَجَّةَ البَيضاء ، واقتبَسُوا نورَ الهُدى فأَضاء ؛ يُلقون إلى القارئ بالسَّمع ، وتَفيضُ أَعينُهم من الدّمع[٥٥] ؛ منازِلُهم عند الله مكينةٌ ، وقلوبُهم خاشعةٌ مُستكينةٌ ، تنزلُ عليهم الرّحمةُ والسّكينة . كأنّهم يتخايلون اللهَ بين أَعيُنِهم لا يَستخفّهُم أمرٌ من الأَمن أَو الخوف[٥٦] لتثبُّتِهم وتَبَيُّنهم ؛ وحقّ لمن قامَ بين يَدي مَولاه ، وعالمِ سرّه ونَجواه أَلاّ تعدو عَمّا ائتمَنَهُ عليه عَيناه ، وأَن يعدلَ بين يُسراه ويُمناه ؛ فإنّ وقته مُسترقّ وسمعَهُ وبَصره مُستَحق ؛ وكيفَ يَستدركُ ما فاتَهُ من خانَ القارئَ سَمْعَهُ والتفاتَه ، وخسر إيمانَهُ ، ولاته[٥٧] !

حُكي أَنَّ عبد الله بن الزبير[٥٨] ـ رضي الله عنه ـ في حِصار الْحَجّاج إيّاه قام إلى صلاةٍ في بعضِ تلكَ الشَّدائد التي يكادُ الفَرْضُ فيها يُحذف ،

(٥٤) سُورة الطّارق ١١/٨٦ ـ ١٤ .

(٥٥) العبارة قرآنية . انظر مثلاً : الآية ٨٣ من سورة المائدة ٥

(٥٦) العبارة قرآنية ، سورة النساء ٨٣/٤

(٥٧) أي ولات أوان : استدراك لما فاتَ .

(٥٨) هو الصَّحابي الجليل عبد الله بن الزّبير (١ ـ ٧٣) فارس قريش في زمانه ، وله أخبارٌ في الفتوح كثيرة . بويع له بالخلافة في مدّة اضطراب الدّولة الأموية سنة ٦٤ هـ ودامت خلافته تسع سنين .

(سير أعلام النبلاء ٣ : ٣٧٠ ، تاريخ الطبري ٥ : ٤٩٦ ، وفيات الأعيان ٣ : ٧١ ، تهذيب ابن عساكر ٧ : ٣٩٦) .

والكعبةُ بحجـارةِ المنجنيق تُقـذف ، وفلقُهـا ترفضُّ ، والمنـايـا بهـا تسمُو ثم تنقَضّ . فبينما هو قائمٌ في أَرْبَطِ جـأش وأمكنِـه ، إذ مرّتْ فِلقـةٌ منهـا بين نَحْره وذقنِـه ، فَما تَطـامَن ولا قهقر ، [٤٢/ب] ولا تقـدّمَ ولا تـأخّر ؛ ولا بـالاهـا بـالاً ، ولا التفتَ يَمينـاً ولا شمالاً ؛ فقـال لـه قـائـل ـ وقـد استَعْظَم مـا رأى من جَلَـدِه ، والكلُّ قـد أَلْقى بيـده ـ : هـلاّ انحرفْتَ عن إقبالك والتفتّ حذراً عن يمينك أو شمالك ؟ فقال : وما عَسى كانت تُبقي التفاتةٌ لو التفتُّها من صلاتي[٥٩] ؟ .

وذُكر أن الإمام أبا عبد الله محمّد بن إسماعيل البُخاري[٦٠] ـ رحمـهُ الله ـ في قصّةٍ شائعة مُستفيضة قام إلى نافلـةٍ بعـدَ فريضـة فـأَطـال ، وأصحـابُـه يستبطئون انفتاله ، ويهوون محادَثته وسُؤاله ؛ فبعد لأيٍ ما سَلّم وبَدا على وجهه أنّه شكا أَو تألم ؛ فقال لبعضهم : تأمل ثوبي فـإني أجـدُ فيـه شيئـاً ، فرفـع ثـوبَـهُ فـإذا زُنبـورٌ قـد أَبَرهُ بضـعَ عشرةَ أَبْرَة ، وجِسْمُـه قـد انْتَبَر[٦١] فعجبَ الحاكي واعْتَبر ، وقال له : هلاّ أوجَزْت وسلّمت لأَوّلِ ما تـألّمت ؟ فقال : كنت في سُورةٍ فلم أُرِد قَطْعَها .

فهـذه ـ عَصمكُمُ اللهُ ـ طريقـةُ القـومِ الْمُثلى وهُـداهم الأَوضـح الأَجلى ، ومحلّهم الأَرفع الأَعلى . فعليكم أَمَم قصـدِهم فـاسْلُكوه ، ودَعُوا فضلَ جهـدِهمْ

---

(٥٩) في سير أعلام النبلاء خبر آخر يدلّ على ورعه واستغراقه في الصلاة (٣ : ٣٧٠) .

(٦٠) هو الإمام صاحب الصحيحْ . والخبر مذكور في ترجمته . (انظر سير أعلام النبلاء ١٢ : ٣٩١) .

(٦١) انتبر الجرح : ورم . ويقال انتبر أيضاً لموضع لدغة الدَّبر وغيره .

فلن تُدركوه ! أَمَا إنّ التعلق بهم ـ كيفَ كانَ ـ رِيادة ، والنظرَ إلى سَبقهم وفَوتهم مع التَّقصير عنهم عِبادة .

واعلمُوا أنّ لأهل القُرآن ـ إذا كانُوا من أَهله ، وأصابُوا وجهَ تلاوته ؛ وحمله ـ الفضلَ الذي لا يُدرك ، والحظَّ الذي لا يُنازع ولا يُشترك ؛ لأنّهم إلى ربّهم مُنقطعون ، ولكلامه الذي أَنزل على نبيّه ـ ﷺ ـ تالُون ومُستمعون ؛ وإلى تعلُّمه وتَعليمه مجتمعون . لا يطَّبيهم[٦٢] لغو ، ولا يميلُ بهم إلى لهو الحديثِ صَغْو[٦٣] ؛ فما منهم إلا عبقُ اللّسان طيّبُ الْحُجرات والأردان ، مشغول مَشغوف بالقُرآنِ ، قد جَعله هِجِّيراهُ[٦٤] ، وراحته وذكراه ، والتبسَ بيقظتِه وكراه ؛ لا يَثنُون إلى غيره طَرفاً ، ولا يُعجمون لكلامٍ ـ ما خلاه ـ حَرفاً ؛ ولا يقبلون للْحُروفِ عَدلاً ولا صرفاً ، حتى تخرج من مخارجها وتَسير على مناهجها ومَدارِجها ؛ مُبَرّأةً من لُكنةٍ[٦٥] ترتضخُ ، محصورة إلى مسالك لا تعفو آثارها ولا تنسخ .

فكم للمعنيّ بترتيبها ، المتكلّف لإتقانها وتهذيبها ، من أَجرٍ [٤٣/أ] مكتوبٍ وثوابٍ غيرِ مَحْسُوب [اقتفاءً للآثار][٦٦] وتَرتيلاً مُطوّلاً للكَلِم

---

(٦٢) اطّباه : استماله .

(٦٣) صغا صغواً وصغاً : مال واستمع .

(٦٤) هجّيراه : دأبه وعادته .

(٦٥) ارتضخ لكنةً أعجميّةً : نزع إلى العجم في ألفاظهم ، لا يستمرُّ لسانهُ على غيرها ولو اجتهد .

(٦٦) كلمتان غير ظاهرتين ، ولها أثر .

القِصار ، لا هـدّاً كهـدّ[٦٧] الأشعـار ؛ وقـد ثبت أن قراءتـه ﷺ كانت بالتَّرجيع[٦٨] والمدّ ، وأَنّ حديثَهُ كان لا يُعجله عن الإفهام والعَـدّ . فَمَن ذا الّـذي يُطلـع رأسَـهُ للردّ ، أو يتعرّضُ لتعـدّي الحـدّ ، أَو يَرى نَثْرَهُ كنثرِ الدَّقَل[٦٩] في الصَّاعِ والْمُدّ ؟

وأحبَّ أن يسمعـه - ﷺ - من سواه ، وقـال لـه حَسبُـك وقـد ذرفت عَيناه ، وقال لأبي مُوسى - وقـد ركب في قراءَتِـه ذلـك الْمَنهج المحمُود - : « لقـد أُوتيتَ مِـزمـاراً من مَـزاميرِ آل داوُود[٧٠] » ، وقـال - ﷺ - : « لا حَسـد إلا على اثْنَتين ، رجل علّمـه اللهُ القرآن فهو يَتْلُوه آنـاءَ اللّيـل وآنـاء النهـار ، فسَمِعـه جـارٌ لـه فقـال : ليتَني أُوتيتُ مثلَ مـا أُوتي فُلان ، فعملتُ مثلَ ما يَعمل ؛ ورجل آتاه الله - عز وجَلّ - مـالاً فهو يُهلكـه في الحـقّ ، فقـال رجـل : ليتني أُوتيت مثـلَ مـا أُوتي فـلان فعملت مثـلَ ما يعمل »[٧١] .

---

(٦٧) هدّ الصّوت (هدّاً وهديداً) : جاء ومعه دويّ .

(٦٨) في صفة قراءته عليـه الصلاة والسَّلام يوم الفتح « أنـه كان يُرَجّع » . قـال ابن الأثير : الترجيـع : ترديـد القراءة ومنـه ترجيـع الآذان . وقـد ورد تعليـل الترجيـع فيـه (النهاية : رجع) .

(٦٩) الدَّقَلُ : رديء التمر ويابسُه .

(٧٠) روى في سير أعلام النبلاء من حديث ابن بُريـدة عن أبيـه قـال : « خرجت ليلـةً من المسجد ، فإذا النبي ﷺ عند بـاب المسجـد قـائم ، وإذا رجلٌ يصلّي ، فقـال لي : يـا بُرَيـدة ! أتراه يُرائي ؟ قلت : اللهُ ورسولـه أعلم . قـال : بل هو مؤمن منيب . لقـد أُعطي مزماراً من مزامير آل داوود . فأتيته فإذا هو أبو موسى . فأخبرته » .

(سير أعلام النبلاء ٢ : ٣٨٦) .

(٧١) الحديث في الفتح الكبير ٣ : ٣٤٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وروى أبُو عبــد الرّحمن السُّلمي عن عثمان عن النّبي - ﷺ - قــال : « خَيْرُكم مَنْ تَعلّم القُرآنَ وعَلَّمه »[٧٢] .

قال : وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان حَتّى كان الحجـاج . قـال : وذاكَ الّذي أَقعدني مقعدي هذا .

وكم للمُــؤمن القــارئ للقرآن من فخر وحُجّــة في أنْ جَعلــه - ﷺ - كالأُتْرُجَّــة[٧٣] استبـد - كما استبـدّت - بـالَمديـح ، وجمعت بين الطّيبين في الطّعم والرّيـح . فَرجِّحُـوا المرَجّـح الأَولى ولا تَرْضَـوا إلا بـالمثـل الأَعلى ؛ وشَبّه المُؤمن الذي لا يَقروُه بالتّمرة . فأَعطـاهُ حَظّـاً من حظّين ، ومنزلـةً من منزلتين . وشبّه المنافِقَ الـذي يقروُه بـالرَّيحـانـة : ريحٌ تعبق ، وطعم يُغَصُّ به ويُشْرَق ! ونعوذ باللهِ منه ومن العـاجز لم يتمسّـك بفضيلـة ، ولا تعلّق بِوَسيلة فَمَثّله بالحَنظلةِ : خُصّت بـالأَمَرَّين ، وجَمعت بين الشَّرَّيْن . وقال - ﷺ -[٧٤] : « مَن قَرأَ القُرآن وعمل بما فيهِ أُلبس والـداهُ تـاجـاً يومَ القيامة ، ضَوؤه أحسن من ضوءِ الشّمس في بيوت الدُّنيا لو كانَت فيكم ، فَما ظَنكم بالذي عمل بهذا ؟ » .

---

(٧٢) في الفتح الكبير ٢ : ١٠٢

(٧٣) روى الإمام أحمد من حديث أبي موسى الأشعري « مثل المؤمن الـذي يقرأ القرآن مثل الأُترجّـة طعمهـا طيب وريحهـا طيّب . ومثل المؤمن الـذي لايقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها . ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانـة مرّ طعمهـا وريحها طيب . ومثل الفاجر الذي لايقرأ القرآن كمثل الحنظلة : مرٌّ طعمهـا ولا ريح لها » مسند الإمام أحمد ٤ : ٣٩٧

(٧٤) رواه الإمام أحمد من حديث معاذ بن أنيس رضي الله عنه (المسند ٣ : ٤٤٠) .

وقال[٧٥] - ﷺ - [٤٣/ب] : « الـذي يقرأُ القُرآنَ وهو مـاهِرٌ بـه مع السَّفَرة ، الكِرامِ البَررة ، والذي يَقرؤه وهو يَشْتَدُّ عليه فله أجران » .

وقـال ﷺ :[٧٦] « مـا اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بُيوت الله - عَـزّ وجَـلّ - يتلون كتاب الله ويتَـدارَسُونـه إلا نزلت عليهم السّكينـة وغشيتهم الرَّحمـة وحَفَّتْهُم الملائكةُ وذَكرهم الله - عَزّ وجَل - فيمن عنده » .

وعنه[٧٧] - ﷺ - وقد خَرج على أَصحابه في الصّفّة[٧٨] فقال :

« أيكم يحبُّ أن يغـدو إلى بطحـان[٧٩] أو العقيـق[٨٠] فيـأخـذ نـاقَتين كَومـاوَيْن زَهْراوَيْن[٨١] بغير إثم بـالله عز وجل ، ولا قطع رحم ، قـالوا : كلّنا يارسول الله . قال فَلأَنْ يَغدوَ أحدُكم كلّ يومٍ إلى المسجدِ فيتعلّمَ آيتين من كتاب الله - عز وجَلّ - خيرٌ له من ناقتَين ، وإن ثلاث فثلاث ، مثل أَعدادِهنّ من الإبل » .

---

(٧٥) رواه الإمام أحمد من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (المسند ٦ :٤٨) .

(٧٦) رواه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (المسند ٢ : ٢٥٢) .

(٧٧) في مسند الإمام أحمد (٤ : ١٥٤) من حديث رواه عقبة بن عامر الجهني .

(٧٨) موضع مظلل من المسجد (النبوي) .

(٧٩) بطحان وادي المدينة المنورة (معجم ماستعجم ١ : ٢٥٨)

(٨٠) هو عقيق المدينة : موضع تلقاء المدينـة المنورة ، بينهـا وبين مكـة المكرّمـة . (معجم ماستعجم ٣ : ٩٥٢ و ٤ : ١٣٢٢) .

(٨١) كوماوين (مثنّى كوماء) : أي مشرفة السنام عاليتـه . والزهراوين (مثنى الزّهراء) صفة للناقة وهي البيضاء المشربة بالحُمرة .

وعن أُسيد بن حُضير[٨٢] قال : « بينما هو يَقرأ من اللّيل سورة (البقرة) وفرسهُ مربوطةٌ[٨٣] عنده إذ جالت الفرسُ فسكتَ فسَكتت ، فقرأ فجالَت الفرسُ ؛ فسكتَ وسكتت ؛ ثم قرأ فجالت الفَرسُ ، فانصرفَ وكان ابنُه يحي قريباً منها فأشفَق أن تُصيبه ، ولما أخبره رفعَ رأسه إلى السَّماء حتى ما يراها . فلما أَصبح حدّث النبيَّ ﷺ ، فقال له : اقرأ يا بن حُضير اقرأ يابن حُضير . قال فأشفقتُ يا رسول الله أن تَطأ يحي ، وكان منها قريباً . فرفعتُ رأسي فانصرفتُ إليه ، فرفعتُ رَأسي إلى السَّماء فإذا مثلُ الظُّلة فيها أَمثالُ المصابيح فخرجتُ حتى لاأَراها ؛ قال : وتَدري ماذاك ؟ قال : لا ، قال : تلكَ الملائكةُ دَنت لِصَوتك ؛ ولو قرأتَ لأَصبحَتْ ينظرُ النّاس إليها لاتَتوارى منهم » .

فما ظَنكم بهذا الفَضل وفَوْته ، وبمن تدنُو الملائكةُ لصوتِه . وكيف لا يُتنافَسُ في شيءٍ يُنال بهِ النَّعيم ، ويُرقى[٨٤] به السَّليم ، ويتَنكَّب[٨٥] صاحِبَهُ الشّيطانُ الرّجيم ؟

الكلمةُ منه للخائف أمانٌ ، وللنّجاة ضمان .

وعن ابن مَسعود[٨٦] عن النبيّ - ﷺ - : « إنّ هذا القُرآن مأدُبَةُ الله .

---

(٨٢) رواه البخاري في كتاب (فضائل القرآن - باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن) . (صحيح بخاري - طبعة استانبول - ٦ : ١٠٦) .

(٨٣) في صحيح البخاري : مربوط .

(٨٤) الرُّقيةُ : العُوذة .

(٨٥) تنكبّ عنه : عدل وتنحّى .

(٨٦) رواه الدارمي في سننه في كتاب (فضائل القرآن - باب فضل من قرأ القرآن) ، من =

[٤٤/أ] تَعالى فتَعلَّمُوا من مأدُبـة اللهِ تَعـالى مـااستَطعتُم . إنّ هـذا القُرآن حبل الله وهو النور البين ، والشّفاءُ النّافع ، عصمةُ من تَمَسَّكَ بـهِ ، ونجـاةُ من تَبِعه ، لا يعوجّ فيقوّم ولا يَزيغُ فَيُستَعتب ، « ولا تنقَضِي عَجائِبُـه » ، ولا يخلقُ عن كثرة الردّ . اتلوهُ ، فإنّ اللهَ يـأجُرُكم على تِلاوتـه بكل حرفٍ عشرَ حَسنات . أَمـا إني لاأقولُ ﴿ الٓمٓ ﴾ حرف ، ولكنْ ألف عشراً ، ولام عشراً ، وميم عشراً » .

وعَنهُ ﷺ أنّهُ قال :[٨٧]

« لن تَرجِعوا إلى اللهِ تَعالى بشيءٍ أَحبَّ إليهِ ممّا خرج منه » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أَنَّهُ قال[٨٨] :

« القُرآنُ أحَبُّ إلى اللهِ من السَّمواتِ السَّبع والأَرضين وما فيها » .

= حديث عبد الله بن مسعود . (ج ٢ : ٤٣١) .

ـ وقـال ابن الأثير (النهـايـة في غريب الحـديث مـادة : أدب) منـه حـديث ابن مسعود : « القرآن مأدبة الله في الأرض » يعني مدعاته ؛ شبه القرآن بصنيع صنعـه الله تعالى للناس ، لهم فيه خير ومنافع .

(٨٧) رواه الترمذي من حديث جبير بن نُفير رضي الله عنه في بـاب ثواب القرآن من أبواب فضـائل القرآن (٤ : ٢٤٩) وفيـه : « قـال رسول الله ﷺ : إنكم لن ترجعـوا إلى الله بأفضل مِمّا خرج منه ، يعني القرآن » وقال بعد هـذا : هـذا حـديث غريب لانعرفـه إلا من هذا الوجه . وبكر بن خنيس (في سلسلة السند) قـد تكلم فيـه ابنُ المبـارك ، وتركه في آخر أمره .

(٨٨) رواه الـدارمي في سننـه في كتـاب (فضـائل القرآن ـ بـاب فضل كلام الله على سـائر الكـلام) (٢ : ٤٤١) من حـديث عبـد الله بن عمرو بن العـاص ، وفيـه : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « القرآن أحبُّ إلى الله من السّماوات والأرض ومن فيهن » .

ورُوي عن ابن مَسعود أنّه قال[٨٩] :

« إنما هذه القلوب أوعيةٌ ، فاشْغَلُوها بالقُرآن ، ولا تَشْغَلُوها بِغيره » .

وعنه صَلّى الله عليه وسَلّم أنه قال[٩٠] :

« عُرِضَت عَلَيَّ الذُّنوب فلم أرَ فيها شَيئاً أعظمَ من حاملِ القُرآن وتارِكه » .

وعن أبي هُريرة[٩١] أنه كان يقولُ : « الْبَيتُ إذا تُلِي فيه كتابُ اللهِ اتَّسَع بأَهلِه ، وكَثُر خيرُه وحَضَرَتْهُ الْمَلائكةُ ، وخرَجت منهُ الشّياطين » .

وعن عبد الرحمن بن سابط[٩٢] أَنّهُ قال : « إنّ البيوتَ التي يُقرأ فيها القرآنُ لَتُضيء لأَهل السَّماء كما تُضيءُ النجومُ لأَهلِ الأَرض » .

---

(٨٩) أوعية جمع وعاء ، وهو هنا كناية عن مستقرّ العلم ، ومحلّ وعيه .

(٩٠) روى الترمذي في أبواب فضائل القرآن من حديث رواه المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « عُرضت عليَّ أُجورُ أُمّتي حتى القذاةُ يخرجها الرجلُ من المسجد وعُرِضَت عليّ ذنوب أُمّتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أُتِيَها رجل ثم نسيها » . قال الترمذي : « هذا حديث غريب » وساق بعده كلاماً في صحة سماع المطلب من أنس .

(سنن الترمذي ٤ : ٢٥١) .

(٩١) الصحابيّ الجليل أبو هريرة الدَّوسي اليماني ، قال فيه الذهبي : سيّد الْحُفّاظ الأَثبات . وقيل في اسمه أقوال أشهرها عبد الرحمن بن صخر . حمل عن النبي ﷺ (روى) علماً كثيراً ، وعن عدد من جلّة الصحابة .

(سير أعلام النبلاء ٢ : ٥٧٨) .

(٩٢) هو عبد الرحمن بن سابط بن عمرو بن أُهيب الْجُمَحي ، راوية للحديث .

(جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ١٦٢) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص[٩٣] : « مَنْ جَمع القُرآن فقد حمل أَمراً عَظيماً ، لقد أُدرجت النبوّةُ بين جَنْبَيه ، غيرَ أنّه لا يُوحى إليه » . فلا يَنبغي لحاملِ القُرآن أَن يحدّ مع من حَدّ[٩٤] ، ولا يَجهل معَ من جهل ؛ لأنّ في جوفِه كلامَ الله عز وجل .

وعن ابن عَبّاس[٩٥] رضي اللهُ عنهُ قال : « مَنْ قَرأ القُرآنَ ، واتَّبع ما فيه ؛ هَداهُ اللهُ من الضّلالة إلى الْهُدى ، ووَقاه يومَ القيامةِ سُوءَ الحِساب » . لأنّ الله تعالى يقولُ : ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾[٩٦] قال : فضمن اللهُ لمن قَرأ القُرآن ألاّ يضلّ في الدُّنيا ، ولا يَشْقى في الآخرة .

وعن مُعاذ[٩٧] أَنّهُ قال : « مَن اسْتَظهر القُرآن كانت له دَعوة : إن شاءَ

---

(٩٣) الصّحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال فيه الذّهبي : الإمام الْحَبر العابد ، صاحب رسول الله وابن صاحبه . أسلم قبل أبيه ، وكتب الكثير من أحاديث النبي ﷺ بإذنه (جمع الكتابة إلى الرّواية) توفي سنة ٦٣ أو سنة ٦٥ هـ .
(سير أعلام النبلاء ٣ : ٧٩) .

(٩٤) حَدّ يحِدُّ : غضب وفيه حدّة .

(٩٥) الصّحابي الجليل عبد الله بن عَبّاس ، البحر ، حَبْرُ الأُمّة ، وفقيه العصر ، وإمام التَّفسير ، ابن عم رسول الله ﷺ . ولد بِشعب بني هاشم سنة ٣ ق.هـ. وانتقل مع أبويه إلى دار الهجرة سنة الفتح وصحب النبي ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً ، وحدّث عنه بجملة صالحة . ودعا له النبي ﷺ فقال : « اللهمّ علّمْهُ تأويل القرآن » .
(سير أعلام النبلاء ٣ : ٣٣١) .

(٩٦) من الآية ١٢٣ من سورة طه ٢٠

(٩٧) معاذ بن جبل من الخزرج ، أنصاري ، صحابي جليل ، من أهل العَقبة . شهد بدراً =

تعجّلَها لِدُنياه ، وإنْ شاءَ لآخِرَته » .

[٤٤/ب] وعن مَسْرُوق[٩٨] أنّه قال : « لا يسألُ أصحابُ محمّدٍ ﷺ عن شيءٍ إلاّ وعِلْمُه في القُرآن ؛ غيرَ أنَّ عِلمنا يقصرُ عنه » .

والقرآنُ ـ رحمكم الله ـ أعظمُ قَدراً عند الله تعالى من أن تَصِفَهُ أَلسِنَةُ الواصفين ، وإن أَطنبوا ؛ ويبلغُوا منهُ إلى غايةٍ في التّعظيم وإن أَسْهَبُوا . أو تستطيعَ القُلوبُ تَحَمُّلَ ما يغشاها منه إلاّ بما حجب اللهُ عَنها ولم يَكشفه لها ، رِفقاً من الله تعالى في ذلك بأقوامٍ قد رَآهُم له أهلاً ، فأظهرَ لهمْ منهُ ماشاءَ على علمِه بقدرِ ماجعَلهُ فيهم من القُوّة على حَمله ، وهَلاكاً لأَقوامٍ لم يرَهُم أَهلاً للانتفاع به ، فقال تعالى[٩٩] :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلاَّ خَسَاراً ﴾ .

= وعمره عشرون سنة . وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال ، قال رسول الله ﷺ : « خذوا القُرآن من أربعةٍ : من ابن مسعود ، وأُبَيّ ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى حُذيفة » .
وتوفي معاذ سنة ثمان عشرة .
(سير أعلام النبلاء ١ : ٤٤٣) .

(٩٨) مسروق بن الأجدع ، الْهَمداني ، الكُوفيّ . عِدادُه في التابعين ، وفي المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ . ومسروق هو ابن أُخت عمرو بن معديكرب .
(سير أعلام النبلاء ٤ : ٦٣) .

(٩٩) سورة الإسراء ٨٢/١٧ . أي : لا يزيدُ القُرآنُ المكذّبين به إلاّ خساراً .

يُروى عن أُبَيّ[(١٠٠)] أنه قَال : « عَرَضَ رسولُ الله ﷺ القُرآن في السَّنـةِ التي تُوفّي فيها عليّ مَرّتين ، فقال يـاأُبَيّ ! إنّ جبريلَ عليـه السّلام أمَرني أن أقرأ عليك القُرآن وهو يُقرِئُكَ السّلام . فقال أُبَيّ : يارسولَ الله أَوَقَـدْ ذُكِرْتُ في الْمَلأ الأَعلى ، قـال : نَعَمْ ، والـذي نفسِي بيـده ، فـارتعَش أُبَيّ لذلك فخَرّ مَغشياً عليه ، فلمَّا أَفاق احتضَنه النّبيُّ ﷺ وحَنَّكَهُ ، فهدَأَ أُبَيّ وسَكن . فقَرأ عَليه ، فلما قَرأ وفرغ قال أُبَيّ يارسول الله : كَمَـا كانت لي خاصّةٌ لِقراءَتِكَ القُرآن عَليّ فَخُصَّني بعلمِ ثَوابِ القُرآن وما عَلّمك اللهُ تَعالى وأَطْلَعك عليـه . فقـالَ رسـولُ الله ﷺ : نَعَمْ يـاأُبَيّ : مـامِن مُسلمٍ قَرأ القُرآن ، وآمنَ بـه ، وقَبلَـهُ بِقبُـولـه ، إلاّ أَعطـاهُ اللهُ تَعـالى من الثَّـواب مـا يعجزُ عنـه منطِقُ أَلسن مَنْ خَلق ؛ فقـال أُبَيّ : قـد عَلمنـا ثَوابَ قراءَةِ القُرآن والإيمان به ، فما قَولُـك فيمن قَبلـه بِقَبُولـه ؟ قـال : يُحِلُّ حلاَلَـهُ ، ويُحَرِّمُ حَرامه ، ويَقِفُ عنـد مـاتَشـابـه منـهُ ، لا يُماري فِيمن يُماري ، ولا يجهلُ فيمن يَجهل . يقول الحقَّ ويعملُ بـه ، ويـأمرُ بـالمعروف ويفعلُـهُ ، لا يخالفُ قولُه فِعلَهُ ، ولا سريرَتُه علانِيَته ، فإنّ اللهَ تعالى يَأخذُ أَصحـابَ القُرآن بما يأخذُ به الرُّسُلَ ، ويسـألُهم عمـا [٤٥/أ] يسـألُ عنـهُ الرُّسُل من

(١٠٠) أُبي بن كعب بن قيس الأنصاري النّجاري الخزرجي ، الصحابي الجليل . شهد العقبة وبدراً ، وجمع القرآن في حيـاة النبي ﷺ وعَرضـه على النبي ﷺ . قـال أنس بن مـالـك : جمع القرآن على عهـد رسـول الله ﷺ أربعـة كلّهم من الأنصـار : أُبَيّ بنُ كعب ، ومعاذ بن جَبل ، وزيد بن ثابت وأبو زيد أحد عمومتي . قال الـذهبي فيـه : سيّد القُرّاء .

(سير أعلام النبلاء ١ : ٣٨٩) .

تَبليغ الرِّسالة ، والأَمرِ بالْمَعْرُوف ، والقِيام بِطاعته » .

فكما وجَب لله تَعالى تبليغُ الرّسالة كذلك يجبُ على أَصحابِ القُرآن النصيحةُ لعبادِ الله ، والأَمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عن الْمُنكر ، في قَصدٍ ورِفقٍ ورَحمةٍ ووَقارٍ وسَكينةٍ وتؤَدة . لاتحملُه قوّتُه أن يعنُف عليهم ، ولا يَرقع ماوهموا فيه ، وضَيّعُوا من حَقّ الله ؛ يذكّرهُم وَعِيدَهُ ، ويخوّفُهم آياتِه ويحذّرُهم نقمَتهُ وعذابَهُ ، ويذكّرهم بأيّامِ اللهِ تَعالى ونعمتهِ عليهم ، وحُسن ثوابِه لأهلِ طاعته .

فكذلك بعثَ اللهُ النبيّين مُبَشرين ومُنذرين ، فَمَن قَرأ القُرآن ابْتغاءَ وجهَ اللهِ وقَبلَهُ بِقَبُوله أعطاهُ اللهُ من الثّوابِ مايُعطي الْمُرْسَلين . فقال أُبَيّ : بأَبي أنت وأُمّي يارَسُولَ اللهِ من يَّقُومُ بالحقّ ؟ قال مَن صَبر عليه ورَجا ثَوابَهُ . قلتُ : مَن يصبر عليه ويرجُو ثوابَه ؟ قال : من صدَقتْهُ نِيّتُه وعَظُمت رغبَتُه فيما عند الله تعالى . فإنّ العبدَ إذا نوَى ماعندَ اللهِ جاءَهُ من الله التّوفيقُ والسَّدادُ وحُسنُ المعونة . فإنّ الله تعالى قَضى أَنّه : ﴿ مَعَ الَّذينَ اتَّقَوْا والَّذينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾[101] .

قد نحلتُ لكم ـ أَرشَدكُم اللهُ ـ نُصحي ، وأوردتُ مما بعثني عليه إشفاقِي وشُحّي ، ماأَرجُو أن أكونَ قضيتُ به ماعليَّ ، وبلغْتُ به عُذراً فيما توجَّهَ من نَصيحتكم إليّ . وما تَوفيقي إلاّ بالله عليهِ توكَّلْتُ وإليهِ أُنيب وهو السَّميع القَريب والْمُجازي الْمُثيب » .

---

(١٠١) سورة النحل ١٢٨/١٦

ثم إنّ فُلان بنَ فلان[☆] لَمّا أُشرِب محبّةَ العِلمِ فؤادُه ، وتوالى إليَّ تكرارُه وتَردادُه ، واجتهدَ في الطَّلبِ فأَثْمَر اجتهادُه ؛ وألفيتُه فَطِناً لَقِناً[١٠٢] ومُجيداً للتّلاوة مُتْقِناً ؛ وسَبَرْتُه في الْمُتَشابِه الْمُؤتلف[١٠٣] ، والعَويص الْمُختلف فَوجَدْتُه حافِظاً لما استودعتُه ، لافِظاً كما أُسمعتُ وأَسمَعْتُه : لا يَخرِمُ[١٠٤] ولا يعدِل ولا يحرِّفُ ولا يُبَدِّل ، صَنعَ اللّسان[١٠٥] ، مُشرِفاً على ذُروةِ الإحسان ؛ إن حقّق حَرفاً دمّثه ووَطّأه ، أو اختلسَهُ[١٠٦] [٤٥/ب] فكأنّما أخطأه ، أو تناوَله بالرَّوْمِ والإشمام[١٠٧] أَلَمَّ أَحْسَن الإلمام ولم [يبخس قِسماً][١٠٨] من الأَقسام . أَو مَرّ بما يُدغم ويُظهر[١٠٩] جاءَ في

(☆) أورد الكاتب فيما يلي من الرسالة بعض مصطلحات علوم القرآن ، وخصوصاً مصطلحات القراءات القرآنية .

(١٠٢) فلان لَقِنْ : سريع الفهم ، حسن التلقين لما يسمعُه .

(١٠٣) يراجع مثلاً النوع الرابع ، والخامس ، والسادس من كتاب علوم القرآن للزركشي ج ١

(١٠٤) يقال : ما خَرم من الحديث شيئاً أي ما نقص منه .

(١٠٥) صَنَع : حاذقٌ ماهر .

(١٠٦) التدميث : التسهيل والتليين . وتحقيق الحرف ، واختلاسه نوعان من النُّطق بالحروف على وجه مخصوص محفوظ .

(١٠٧) أشمّ الحرف : أذاقه الضَمّة أو الكسرة بحيث لا تُسْمَعُ ، وإنّما يتبيّن بحرفِ الشفة ، ولا تكسِرُ وزناً .

والرَّوْمُ حركةٌ مختلسةٌ مُخْتَفَاةٌ بضربٍ من التَّخفيف ، وهي أكثرُ من الإشمام لأَنَّها تُسْمَعُ .

(١٠٨) ذهب النصف الأعلى من الكلمتين . وأظنهما كذلك .

(١٠٩) الإدغام والإظهار أيضاً طريقتان في نطق مخصوص محدود ، معروفتان في علم التجويد .

كلٍّ بحذقٍ يقهر ، أو فَخّم عَقل واسْتَوقف ، أو رَقّق لطفَ وأَرهف ؛ أَو أَمال[110] ، مالَ معهُ الإحسان كيفَ مال ؛ وحبّ أن يلحق نُظراءه ، ويتميّز بالتّقديم مِمّن وراءَه ؛ وأَن أَنصبَ له بالإجازة لِواءَه ؛ وأَدُلَّ عليه ، وأُشِير بالأَصابِع إليه ؛ اقتداءً بالسّلف الصّالح ، وتَنبيهاً على المصالح ، ودَفعاً لِهمّته ، ووفاءً بِذمته ؛ وإلحاقاً بذلك لمن تخلّف وأَبطأ ، وتحضيضاً لمن قَصّر ونَأنأ[111] .

فالحميّةُ تبعثُ القَرائح ، والغَادِي يحثُّ الرائح ، والعاشي يَهيجُ الآبِي[112] ، والْمَاضِي يُجَرِّئُ النَّابي[113] . أنهضَنا اللهُ وإيّاهُ بما أَخَذ عَلينا من إصرٍ ، وأَوْزَعنا شكرَ نِعَمِه الَّتي لا تُدرك بعدٍّ ولا حَصر ، ولا أَخْلى كتابَهُ العَظيم من إعزازٍ ونَصْر .

[٦١]

وله(☆) ـ بَرَّد اللهُ ضَريحَهُ ـ :

يا عمادِيَ الأَرفَع الأَوْثَق ، ومَصادِيَ الأَشمّ المنطق ، وغَمامي الأَنعم الأَغْدَق ، وهُمامي الأَزْعَم الأَصدق ؛

(١١٠) التفخيم والترقيق والإمالة معروفة في التجويد .

(١١١) نأنأ : ضعف .

(١١٢) في المَثَل : العاشية تهيجُ الآبية (أمثال العسكري ٢ : ٥٧) يعني أنّ (الإبل) التي تأبى الرعي إذا رأت غيرها يرعى رعت معه .

(١١٣) يقال : سيف ماضٍ (قاطع) وسيف نابٍ غير قاطع . ضربها مثلاً .

[٦١]

(☆) من رسائله إلى بعض الأَصدقاء من ذوي الشأن .

هَنيئاً لـك ما استَحْللت ، وأَهلاً وسهلاً بك وبِمَا استَسْهلت ؛ صدقتَ ! أنا الْمُسيءُ ، والْمُستقيلُ الْمُستفيء[1] .

وَفَتْ ذِمَمُـك ، وصفَت مَوارِدُك ودِيَمُـك ؛ مـالِمَنْ تُؤَخّره استِقدام ، ولا لِمَنْ يَهونُ عَليك إكرام ، ولا لِمَن تَخطَّاهُ رِضاك ورَاءٌ ولا أَمام !

أُقِرّ بالذَّنبِ ولم أَجنِه[2] ، وأردُ هـذا المـاءَ على أَجْنِـه[3] ؛ وأجنبُ ـ ولو قُطِعَ الوريدُ ـ ما أُريد لِمَا تُريد .

وهل أَعمد من تابعٍ ينقادُ لمتبوعه ، ومظلمٍ يعشُو إلى الفجرِ وفُروعـه ؛ ونازحٍ جمعتَ له بين البُعد والصدود ، وخامسٍ[4] بـه ظمأُ التّثريب[5] لاظمأُ الوُرود .

أَلَمْ يكفِ الحـاسـدَ أنّي لا أَخلَعُ هَواك ، ولا أَلينُ في يَـدَيْ سِواك ، ولا أُصافح إلا يُمناك ولا أقتبسُ إلا من سَناك ؛ ولا أَزحفُ إلاّ تحتَ رايَتك ، ولا أَرى غايةَ كُلِّ سابقٍ إلا دونَ غايتك !

أضربُ المثلَ في الفَضل بِفَوْتِك ، وأَدعُ كلّ صوتٍ بعدَ صوتِـك ، فـإنّـهُ

---

(١) استقاله عَثرته : سأله أَن يصفح عنها . واستَفاء : رجع .

(٢) لم أَرتكبه .

(٣) أَجن الماءُ أَجْناً : تَغيّرت رائحته وطَعْمُه ولَونه .

ـ وقريبٌ أن يكونَ الكَلامُ شعراً :

أُقِرُّ بـالـذَّنْبِ ولَم أَجْنِـه وأَرِدُ الْمَـاءَ على أَجْنِـهِ

(٤) خمست الإبل : رعت ثلاثاً ووردت الرّابع ، فالبعير خامِس ، والإبل خامسة .

(٥) ثرّب فلاناً : لامه وعَيّره بذنبه .

الصَّدى وأنتَ الصّائح[٦] [٤٦/أ] المحكيّ ، والبحرُ يتضاءَلُ عنـه الرَّكِي[٧] ، والبازِي لا يَشتهي لقاءَهُ الكُرْكيّ[٨] ! ما أَراك إلاّ قد برمتَ بخدمة مَولاك ، ولم تُولـهِ من جَزاءِ الطّـاعـة مـا أَولاك ، نعم ! هـو بصيرُك ونصيرُك وأنتَ عَمْرُه وهو قَصِيْرُك[٩] .

فإنْ كانَ هناكَ ثأرٌ يُطلب ، أو أَمرٌ يُخلب[١٠] فيه أو يُغلب ، فـأَنفٌ مارِنُه[١١] حَفيطةً لكَ يُجْدَع ، وشملٌ في تأليفِ شَملك يُصْدَع ، وحيـاةٌ في طيبِ حياتِك تُرفضُ وتُودّع ؛

هـذه أيـدك الله صفقـةٌ لا تُبـاع بِوَكس[١٢] وتَوبَـةٌ تُقبلُ من صـاحِب مَكس[١٣] ، ويقينٌ لا يُعارَض بشكّ وصدقٌ لا يُنـاقَضُ بِمَحْـك[١٤] . فـأمّـا

---

(٦) ضمّن قول أَبي الطّيب (ديوانه ، الواحدي : ٥٣٥) في مدح سيف الدولة والثناء على نفسه :
ودَعْ كلَّ صَـوْتٍ غيرَ صَـوتي فـــإنّني أنـا الطّـائرُ الْمَحْكِيُّ والآخَرُ الصَّـدى
(٧) الركيّ جمع الركيّة ، وهي البئر تُحفر . (ومثله : ومَنْ قَصد البَحْرَ استقلّ السَّواقيا) .
(٨) الكركي طائر مَعْرُوف .
(٩) هذه إشارة تكرّرت في رسائل ابن أبي الخصال . والمشـار إليـه عمرو بن عـدي ، وأمّـه رقـاش أُخت جذيمـة الأبرش صـاحب الحِيرة . والآخر قَصيرُ بنُ سعـد ، من رجـال جُـذَيمـة ، وأَحـد الـدُّهـاة . (يُنظر سَرح العُيـون ، وثمـار القلوب والمفصّل في تـاريـخ العرب قبل الإسلام ...) .
(١٠) خلب فلانٌ فُلاناً : خدعه وفتن قلبه .
(١١) المارن من الأنف : ما لانَ منه .
(١٢) بيع الوكس : البيع بالخسارة .
(١٣) صاحب المكس : الذي يتقاضى الضريبة التي تأخذ ممن يدخل البلد (من التجّار) .
(١٤) محك محكاً : لج وتمادى في لجاجته .

إيثارُك بنَجواك ، واختيارُك لي في بَثِّ شكواك ، فَما كان عندي لِحُرمتها انتهاك ، ولا أَخَذْتُها إلاّ بما أخذَ السَّيفَ سِماك[١٥] . ذلّلتُ عِندك صَعْبَها ، ورأَبتُ بالْمُواساةِ والتوجّع شَعْبَها[١٦] ، وهَوَّنْتُ حَربها ، وفَلَلْتُ غَرْبَها ، وإن كنتُ تلقَّيتها بضميرٍ مُحترق ، وأَويتُ في صَدْمَتِها إلى جَفنٍ أَرِق ، وناظرٍ بدمعِ الإشفاقِ خضلٍ[١٧] شَرِق .

ولما رقعنا بالصبر الجميل معاوزَها[١٨] ، وقطعنا بالصِّدق مفاوزها ، وجَهّزنا نازِلَها فاحْتَمَل ، ودَملنا[١٩] جُرحها فاندمل ؛ وتكشّفت هَبواتها[٢٠] منك عن مُتَخمِّطٍ تُخشى على الأَقرانِ بوادِرُه[٢١] ؛ وتأخذ بثنايا الزّمان

---

(١٥) سِماكُ بن خَرَشة (ابن أوس بن خَرَشة) أبو دُجَانة ، ذو الْمُشَهَّرة من الفُرسان الشُّجعان . نقل ابن دريد في الاشتقاق أنه أشجع أنصاريّ في دهره . ونقل الطبري خبر السيف في أكثر من رواية . وفي أحاديث معركة أُحد أن رسول الله ﷺ قال : من يأخذ هذا السيف بحقّه ؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة فقال : وما حقّه يا رسول الله ؟ فقال : أن تضربَ في العدوّ حتى ينحني فقال أنا آخذه بحقّه يا رسول الله . فأعطاه إيّاه . وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ... الخ الخبر .

(تاريخ الطبري ٢ : ٥١١ ، وثمار القلوب : ٨٧ ، ٢٨٩ ، وجمهرة أنساب العرب ٣٦٦ ، والاشتقاق ٤٥٦ ، والسيرة النبوية ٢ : ٦٦) .

(١٦) رأب الشعب : أَصلحه .

(١٧) خضل : مبتلّ ، نديّ .

(١٨) الْمِعوز : الثوب الْخَلَق (البالي) الذي يُبتذل .

(١٩) دمل الجرح : داواه .

(٢٠) الهبَوات جمع الهبوة : الغبرة .

(٢١) هذا من قول الأحوص بن محمد (من كلمة حماسية ـ الحماسة بشرح المرزوقي ١ : ٢٢٣) وديوانه : ٢٠٣ =

مَوارِدُه ومَصادِرُه . نزلنا نشز الرُّبا وحَللنا عقد تلك الْحُبَا ، ووَضَعنا أَوزارَ الفِكر ، وأَقَمْنا نَلتقي بجميل الذِّكر . ولعلّ ما وَكَلتَهُ إليّ من الْمُفاتحة ، قد وكلتُه إليك ، وعَسى تعقُّبك عليّ تعقّبٌ عليك . لكنّي واللهِ ماأَمسَكتُ نازيا[٢٢] ، ولا تثبّطتُ[٢٣] تجازياً .

ولا تأخّرتُ لِنفاق ، ولا كان ماكانَ إلاّ عن حُسنِ ظَنّ واتّفاق . ورُبّما وافاكَ بين يَدي هذه الضَّجرةِ كِتابي ماشِياً على أَناتِه ، وطيرُه في وكناتِه[٢٤] ، وصدرُه مطمئنٌّ ببناتِه[٢٥] .

إلا لِبْسَةَ الْمُتَفَضّل[٢٦] ، وبذاذَةَ الْمُتَبَذِّل[٢٧] ، كأنّهُ من طيبِ نفسِه في

= فإذا تزولُ تزولُ عن متخمّطٍ تُخْشى بوادِرُه لدى الأَقرانِ

(المتخمّط : المتغضبُ له سَوْرة والتهاب . يقول : إذا انكشفت تلك الخطوبُ والْمُلِمّاتُ انكشفت عن رجل متكبّر يخاف فلتاتُه وبدَراته عند نُظرائه في البأس والشدّة) .

(٢٢) نزا : وثب .

(٢٣) تثبط : تريّث .

(٢٤) من قول امرئ القيس (ديوانه : ١٩) .

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

(٢٥) بنات الصّدر : ما يضمره الإنسان من الخير والشّر . وهو من قول الصمّة القشيري (ديوانه)

ولّما رأيتُ البِشْرَ قد حال دوننا وجالتْ بَناتُ الشَّوقِ يَحْنِنَّ نُزَّعا

(٢٦) اللِّبسة : هيئة اللباس . والمتفضل : اللابس ثوباً واحداً . والعبارة لامرئ القيس (ديوانه : ١٤) .

(٢٧) البذاذة : رثاثة الهيئة . والمتبذّل : لابس البذلة . والبذلة : مالا يصان من الثياب أو الثوب الْخَلَق (البالي) .

الأَشهُرِ الْحُرمِ[٢٨] ، أَو من بني سعيـد[٢٩] أَعـزّةِ الْحَرم . ولئن تَمَمْتَ[٣٠] على ماأراهُ لَيذُمَّنَّ عند الصَّباح سُراه[٣١] ، ولَيريَنّ من الفَزعِ ماراَه صاحب أبي بصير[٣٢] ، ولينالَنَّه [٤٦/ب] مانـال ذا الْخَلَصـةِ من جَرير[٣٣] ؛ ولَيقْصُرَنّ

---

(٢٨) لأنّ الحال آمنةٌ في الأشهر الحرم ، يلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يذعره .

(٢٩) هم أبناء سعيد بن العاصي بن أميّة من سادة قريش . والكاتب يشير إلى قول أبان بن سعيد ، وكان قد أجار عثمان بن عفّان رضي الله عنه يوم الحديبية وحمله على فرسه ودخل به على مكّة :

أقبِـلْ وأدبرْ ولا تخف أحـداً بنـو سعيـد أعـزّةُ الْحَرمِ

(انظر مثلاً نسب قريش : ١٧٥) .

(٣٠) تَمّ على كذا : استمرّ عليه .

(٣١) من المثل العربي ـ وقد عكسه الكاتب ـ « عندَ الصَّباح يَحمدُ القَومُ السُّرى » .

(٣٢) أَبو بَصير : عُتبةُ بن أُسيد بن جَارية ، كان مِمَّن حُبِس بمكّة (مُنِع من الهجرة) . فوفدَ على النبي ﷺ في المدينة المنورة فأرسلت قريشٌ رَجُلَين يَردّان أَبا بصير ، اتّباعاً لِصُلح الحديبية . فوفى الرسول الكريم وردّه مع الرّجلين وسأله الصّبرَ وانتظارَ الفَرج . فلما كان ببعضِ الطّريق وَثبَ أبو بصير على أَحَدِهما وهو الْمُسَلّح فيهما فَقتله ، فهربَ الآخر منهما إلى النبي ﷺ ؛ فلما رآهُ ﷺ قال : « إنّ هذا الرجل قد رأى فَزَعاً » . ولأَبي بصير خَبرٌ بعد هذا .

(السّيرة النبوية ٢ : ٣٢٢ ، تاريخ الطبري ٢ : ٦٣٨) .

(٣٣) ذو الْخَلصة صنم من أصنام العرب في الجاهليّة . وما من شيءٍ جرى له على يد جرير ! ومقصودُ الكاتب الإشارة إلى ماجرى للرّاعي النُّميري الشّاعر على يَد جرير حين هَجاه فأفحمه ، زعَمُوا أنّه مات منه كمداً بعد قصيدته المسمّاة : الدّامغة . واستَغْنى الكاتب بذكر (ذي الخلصة) لأنه صَنم كان يَعبدُهُ قومٌ فيهم بنو عامر ؛ وسَدَنتهُ بنو هلال بن عامر بن صعصعة ؛ والرَّاعي النُّميري ينتسبُ في نُمَير بن عامر بن صعصعة .

(انظر مثلاً : المحبّر : ٣١٧ ، وجمهرة ابن حزم : ٢٧٩) .

ـ وهذه من إشارات الكاتب الخفيّة !

قصرَ أَبي جَنْدَل[٣٤] ، ولَيَلقَينّ ـ ويَدْفعُ اللهُ ـ مـالقِيَـهُ أبو أُنيس من بَحْـدَلٍ وابنِ بَحْدَل[٣٥] !

كلاّ إنه لَيُعاديك من أَمَم[٣٦] ، وينشدك ذمّـة عمم[٣٧] . وهَبْني عنـدك ـ دَام عِـزُّك ـ في حَصر ومُعتَقـلاً بين تَقصيرٍ وقَصر فمـا لِثـالثنـا الـوَزير أَبي نصر[٣٨] ؟ مـاآذاهُ إلاّ جِـواري ، ولا احْتَرقَ إلاّ بـأُواري[٣٩] . ولقـد ذكّرني

---

(٣٤) أبو جَنْدَل بن سهيل بن عمرو ، وكان قد أسلم ، ومُنع من الهجرة . وحـالت الْحُـدَيبيـة دون لحاقه بالمسلمين ، فهرب ولحق بأبي بصير (انظر الحاشية السّابقـة) وصـار معهم ، وهم نحو سبعين رجلاً فذعروا قوافل قريش ومصالحها .

(الطبري ٢ : ٦٣٩) .

(٣٥) أبو أُنيس (ويقال فيه أبو أُميّة) الضحّـاك بن قيس ، سيّـد بني فهر في زمـانـه . ولـما خلَع معاويةُ بن يزيد نفسه من الخلافة وتركَ الأمرَ شُورى قام الضحّاكُ بـأمرِ النـاس إلى أن يجتمع الناس على خليفة . ثم كان من دُعـاة عبـد الله بن الزُّبير . ونـاوأه رجـال قبيلة كلب ، ورأسهم يومئذٍ حسان بن مالك بن بَحْدَل . وكانت أُمُّ يزيد بن معاويـة ميسون بنت مالك بن بحدل ، وكان والياً على فِلسطين . وانتصرَ حسـان والكلبيّةُ دعاةَ مروان بن الحكم ، وقُتل الضحاك في وقعة مرج راهط سنة ٦٤ هـ .

وفي ذلك يقول زفر بن الحارث وكان من القيسية أنصار الضحّاك :

أَفي الله أَمّـا بحـدلٌ وابنُ بحـدلٍ فيحيـا وأَمّـا ابنُ الـزبير فَيُقْتَـلُ ؟

(٣٦) من أمم : من قرب .

(٣٧) العمم : الاسم من كل مااجتمع وكَثُر .

(٣٨) لم تفصح الرسـالـة عن شخصيـة أبي نصر . واشتهر من أعـلام الفترة بكنيـة أبي نصر الفتح بن خاقان صاحب القلائد .

(٣٩) الأُوار : حَرُّ النار ووهجها .

ذِكْرُك لـهُ جَرِيراً يَعْبَثُ بِهَمام[٤٠] ويعيث ، ويَجْـدَعُ أنفَ الأَخطَـلِ حينَ ضَغا[٤١] البَعيث !

أُقسم لـولا أنّـك لاتهيم ببنت حُبّ[٤٢] ولا تَـدِينُ لسـاكنـةِ الـدَّنِّ بحُبّ لقلتُ : عَربدةٌ لم تغبْ عنها الْمُدامة ولولّيتها الملاَمة إنْ كانَت مَلامة[٤٣] !

وعلى كل حـال فلـك السُّؤدد حتماً ، والفَضْلُ افتتـاحـاً وختماً ، وبفي الحـاسـدِ الأَثلبُ[٤٤] يهتمُ فـاهُ هَتما ، ومـاذا نُعيـد ـ أيَّـدكَ اللهُ ـ من ذكر نَبْـوَةٍ[٤٥] لم ينْبُ لهـا حَـدُّك ، وجَفـوةٍ لم يتَضعْضَـع بهـا مَجْـدُك ؛ مـا ضَرَّتْـكَ إلا كما ضَرّت الكعبـةَ الْقُلَّيسُ[٤٦] ، ولا آذَتْكَ إلا كما آذى عيسى بنَ مريم ـ صلى الله عليهما وسلم ـ إبليسُ !

---

(٤٠) همّام بن غالب ، هو الفرزدق . وصاحباه الآخران هما الأَخطل التَّغلبي مدّاح بني أميـة المشهـور ، والبَعيْث أحـد الشعراء الـذين دخلـوا مـع جرير في خصومـة لأنـه تحـزّب للفرزدق . وإشارة الكاتب إلى قول جرير (ديوانه : ٩٤٠) .

لمـــا وضعت على الفَرَزْدق مِيسمي وضَغا البعيثُ جـدعت أنف الأخطلِ !

(عنى بميسمه أثر شعره فيه) .

(٤١) ضغا : استخذى ؛ أي خضع ؛ والضُّغاءُ : صوت الأَرنب والثعلب ، ونُباح الكلب .

(٤٢) بنتُ الْحُبّ : الخمرة . الْحُبّ : الجرّة ، أو الخابية . (وساكنة الدّن الخمرة أيضاً) .

(٤٣) إشارة إلى قول حسان بن ثابت في الخمرة ـ وهي من شعر الجاهلية ـ (ديوانه : ١٧/١)

نـولّيهـا المـلامـةَ إنْ أَلَمْنـا إذا مـا كان مَغْثٌ أو لحـاءُ !

(٤٤) الأثلب : الحجارة . وهَتم السنَّ : كسرها .

(٤٥) النبوة مصدر (نَبا) والْمَرّةُ منه .

(٤٦) القُلّيس : بناءٌ بناه أبرهة الحبشي . روى الطبري وغيره من المؤرخين أنه كنيسـة بنـاهـا ليصرف العرب عن الكعبة إليها . ولهذا خرج أبرهة بجيشـه إلى مكـة عـام الفيل ، فـأُهلـك إهلاكاً . قـال السُّهيلي في شرح السيرة : سمّيت القُلّيس لارتفاع بنائها وعلوّها . (الطبري ٢ : ١٣٠) . وأشار إلى الآية الكريمة ﴿ وإني أُعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم ﴾ ٣ : ٣٦

وما أبعدنا من الظنّ الذي ظننتَ ، و « ما كان ضَرَّك لومَنَنْتَ »[٤٧] ؛ أنحن نَستَخِفُّ حَصاتَك[٤٨] ؟ ونرى أن دابّة الأَرض تـأكل منسأتـك[٤٩] ؟ فنحن إذاً مِّمَّنْ يتَعـاطى الجبـالَ يُـزيلهـا ، ويَسْعى إلى أُسـد الشَّرى يَستبيلُهـا[٥٠] . ويقول إنّ لُبْسَ الفَتى للفتى شَرف ، وإنَّ السّيفَ بحمَـائلـهِ وغِمدهِ يُعرف[٥١] ! لقد أَورَدْتنا - أعَزّكَ اللهُ - موردَ نَدامة وقَرَنْتَنـا بِقُرنـاءِ غَباوةٍ وفدَامة .

وأَمّـا مـا أَشرت إليـه من حَقـائب وُفر ، وبيضٍ مَخْـزُونَـةٍ وصُفر[٥٢] ؛ فمن[٥٣] أَقام السُّؤدد حِفافَيْه ، وفَهق[٥٤] العلمُ بين دَفَّيه ، فكُنوزُ قـارون بينَ

(٤٧) أخذ بعضَ شطرٍ من قول قتيلة بنت النضر (الحماسة بشرح المرزوقي ٢ : ٩٦٦) .

مـــا كان ضرّك لـــومَنَنْتَ وَرُبّما مَنَّ الفَتى وهـو المغيـظُ الْمُحْنَـقُ ؟

(٤٨) الحصاةُ : الرأي .

(٤٩) المنسأةُ : العصا (من نسأ الدّابة على السَير : زجرها وحَثَّها) . وفي سورة سبأ ١٤/٣٤ ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلى مَوتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتِهِ ﴾ .

(٥٠) من قول الفرزدق (اللسان : ب ول) :

وإنّ الـذي يَسْعى ليفسـدَ زَوجتي كسـاعٍ إلى أُسـد الشّرى يَسْتَبيلُهـا

قال في اللّسـان : أي : يـأخـذ بولها في يـده . والبيت من قصيـدة في الـديوان (٢ : ٦٠٥) باختلاف في صدره .

(٥١) هو من قول أبي العلاء المعرّي (سقط الزند ١ : ٥٢٦) .

وإن كانَ في لبسِ الفَتى شَرفٌ لَـــهُ فمـا السَّيفُ إلا غِمْـدُه والْحَمائـلُ !

(الحمائل جمع حمـالـة السّيف . يقول : شرف الإنسـان بـأصغريـه لا بملبسٍ جميلٍ يُرى عليه) .

(٥٢) من فضة (بيضاء) وذهب (أصفر) .

(٥٣) كذا في الأصل : وأظنه « ممّن أقام .. الخ » .

(٥٤) فهق : امتلأ .

كفّيه ، ولا تَوى[٥٥] ولا ضَيْعَة عَليـه . وهـذا كنزٌ لا يـذهَبُ بـه دَهر ، ولا يُكْوى لِمُقْتَنيهِ جنبٌ ولا ظَهر[٥٦] .

كتبتـهُ ـ أعـزَّك الله ـ والظَّـلامُ لافِتٌ ، والكَرى مُتهـافِت ، وذَمـاءُ السِّراج خافِت ، وضوؤهُ لا يَجهر بل يُخافِت ؛ فَتيلٌ قَتيلٌ : شربَ سُلافَـة الـدُّهن ، كما اشتَفّت الأيـام جِريـالَ[٥٧] الـذِّهن ، فـأَفضى كما أَفضيتُ إلى الْمَهل ، وفارق الْحِلْمَ فسَقط على الْجَهل ؛ فَطوراً ينش[٥٨] [٤٧/أ] وتـارة يكشُّ[٥٩] ، وآونـةً يَرشُّ[٦٠] ، وأخرى يتملّـق ويَهشّ[٦١] . وقـد نـام من أهدى لي الأَرق ، وهَدأ مَنْ وكَّل بيَ القَلق ؛ فَشقِيتُ بـاللّيل وخَصَرِه[٦٢] ، وبقيتُ بين سَمع البيتِ وبَصره .

أَنحيت ـ أعـزَّك اللهُ ـ على السِّراج ، وضللت ضـلالَ صَخرة في

---

(٥٥) التوى : الهلاك .

(٥٦) يشير إلى الآية الكريمة : ﴿ وَالَّذينَ يَكْنِزُونَ الـذَّهَبَ والْفِضَّـةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهـا في سَبيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أليمٍ . يَومَ يُحْمَى عَليها في نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبـاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورهُمْ هَذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزونَ ﴾ التوبة ٣٤/٩ ـ ٣٥

(٥٧) الجريال : الخمر الشديدة الْحُمرة . ويُقال : اشتفّ ما في الإنـاء : شربـه حتى الشُّفـافـة (البقيّة) . وأورد الكاتب هذا على التمثيل .

(٥٨) النشيش : كل ما سُمِعَ له صوت : كغليان القـدر ، وصوت المـاء عنـد الصبّ . وللفتيل في اشْتعاله نشيش أيضاً .

(٥٩) الكَشيش أيضاً صوت . ومنه صوتُ غَليان الشَّراب . وصوتُ الْحَطب إذا أُحرق .

(٦٠) يقال : رشت السماءُ ماءها : نفضته .

(٦١) من مَعاني هشّ : أظهر الفرح والسُّرور .

(٦٢) الْخَصَر : البَرد .

مِراجِ[٦٣] ، وتركت جَفْناً هو جُفَينة الْخَبر[٦٤] ، وبَصراً قد رَابني فيه ريبُ الكِبَر[٦٥] . فأشكو إليك بإنسانٍ ، لا يعبأ بإحسان . ذي عَبْرةٍ بَطيئة ، لم يبكِ على خَطيئة ؛ يجمدُ في الحقّ ، جُمودَ الصَّلْد الصَّدق ، ويذوبُ في الباطل ، ذوبَ الغَمام الهاطِل ، فَبما لم تَجْرِ لهُ في الْخَدّ عَبرة ، انتَبرت[٦٦] في ماق اليُسرى نَبرة : فمرّةً أَراها ذَرّة ، وأُخرى أحسبُها من الدُّرّ صُغرى ، أَلْمَسُها فَرقاً ، وأُداري منها حيّةً مُطرِقاً . فيالها من رَمزةٍ لا تُفَكُّ ، وهمزةٍ لا يُسْفِرُ عن يَقينها الشّك . جثَمت بين الأنف والعَين ، وثَبّتت لالتقاء السّاكنين ؛ وحارَبت ولها دعوى الْمُسالم ، ونَزلت بزَعمها منزلةَ سالم[٦٧] ؛ لكنّها أبت التّعويض ، واختارت على العُرعرة[٦٨] الْحَضيض ؛ ولقد خفف

---

(٦٣) ضَبطها في الأصل (صخرةَ) كأنه اسمُ علم . والمرج تُجمع على مُروج . وكأنه من الشعر .

(٦٤) من المثل : « وعند جُفينة الخبرُ اليقينُ » . وقد تكرّر في هذا الكتاب .

(٦٥) من قول حُميد بن ثُور الهلالي (ديوانه : ٧)

أَرى بَصري قد رابَني بعد صِحّةٍ ... وحَسْبُكَ داءً أَن تَصِحّ وتَسْلَما

(٦٦) انتبرت : ارتفعت .

ـ و « ماق » العين لغةٌ في مُؤقها : (طرف العين مما يلي الأنف ، وهو مَجْرى الدّمع منها) .

(٦٧) من قول القائل (وهو عبدُ الله بنُ عمر ، رضي الله عنهما) . والشعر لزهير . ديوانه : ٢٥٦

يُديرونني عن سَالمٍ وأُريغهُمْ ... وجِلْدَةُ بينَ العينِ والأنفِ سَالِمُ

قال الجوهري : يُقال للجلدة التي بين العين والأنف : سالم . قال ابن برّي : هذا وهْمٌ قَبيحٌ ، وإنما (سالم) ابنُ ابنِ عمر فجعله لمحبّته بمنزلة جِلدة بين عينه وأنفه .

(٦٨) عُرعرة كل شيءٍ : أعلاه .

الله من باسها ، ولطّف في التباسها ، فالناظر يخالها قذاة ، وأنا أستيقنُها أَذاة ؛ ولقد جُفيت فيها من حيث البرّ ، فواحدٌ يَجهر وآخر يُسِرُّ ، فأَمسَحُها إرضاء ، وأُطيعهم إغضاء ؛ فهل من طبيبٍ طَبِنٍ ، وفَطِنٍ تَبِنٍ[69] ؛ فأَمثلُ مَنْ عِندنا طريقةً وأكثرُهم جِداً وحقيقةً ، مَنْ أَشارَ من الخولان[70] بِرَدْع ، وزَعم أَنّه أبلغُ ردع إلى أن يعتدلَ الْهَواءُ ويُدرك الدَّواء ؛ ولو أَمنتُ من تَفَشِّيها ، ولم أَحذر عاديةَ تَمشّيها لعاهَدتُها على الإعفاء ، وعاقدتُها معاقدةَ الوَفاء ؛ ولألقيتُ هناءَها[71] ولما أصغيتُ إناءَها[72] ، ولتركتها وفِناءَها ، وانتظرت بها أَصدقَ الْمُنْتَظِرَيْنْ فَنائي أَو فَناءَها ! فإنها لم تطمسْ علماً ولا حمّلت أَلَماً ، ولا هي - والحمدُ للهِ - كالدُّمَّلِ الْمُمِدّ[73] ، ولا من قبيل الهزل ولا الجدّ ، سواءً عليها حَرٌّ وبَردٌ ، وشفعٌ من الأدويةِ وفَرد ؛ فلطّفْ لي رأيك ، وأَرهِفْ لي سَعْيَك ؛ فناظِري ناظِرُك ، وحاضِري من الصّحّةِ والسَّقم حاضِرُك . وقد [٤٧/ب] وقفَ الوزيرُ أَبو نَصر على استِبطائك الذي أَثاره الإجمالُ ، ونفَثَهُ الاهتبالُ[74] ، فابتدرْ كما ابتَدرتُ ، وأَصدِرْ جوابك كما أَصدَرْت .

---

(٦٩) طبن الشيء : فَطِنَ له . وتَبِن : فطن وأدقّ النظر في الأُمور .

(٧٠) في الأصل : الخولان (بالخاء المعجمة) .

- والرَّدعُ : ضربٌ من الطِّيب .

(٧١) الْهِناء : القَطران يُطلى به الْجَرب .

(٧٢) أصغى الإناء : أَمالَهُ وحَرّفه على جَنبه ليجتمعَ مافيه .

(٧٣) أمدّ الْجُرح : صارَ فيه مِدَّة : (ما يجتمع في الْجُرح من القَيْح) .

(٧٤) اهتبَل الفُرصةَ : اغتنَمها .

ولو عَلمنا أنّ عندكَ استبطاءً لانْتَدبنا سراعاً لابِطاءً ، ولأَتعبناك في الصُّحفِ تَقُدُّها والتّحيات تؤدُّها ، والْمُراجعات لاتُحْصِيها ولا تَعُدُّها .

ولئن هممتَ بالإعراضِ ، وألمتَ إلمامَةَ البرقِ في الإيماض ، فنحنُ بما عندنا وأَنت بما عندك راض . فَلأُنشِدَنَّكَ ما يَستعطفُ الأَحبابَ للأَحباب ، ويَصِلُ الأَسباب بالأَسباب :

إنّي من صَدِّكَ في لَوعةٍ تَغوّلَتْ لُبّي[٧٥] وهَاضتْ جَناحْ
لَسْتُ على سُخطِكَ جَلْدَ القُوى ولا على هَجرك شاكي السّلاحْ !
وما أنا حين تُؤذِنُني بِصرمٍ ربيطُ الْجَأْشِ متّسعُ الخِناقِ[٧٦] !

وأَقرأ عليك ـ أدام الله عِزّك ـ سَلاماً كضميركَ اتِّداعاً[٧٧] ، وكعَفوكَ اتّساعاً ، وكَوُدّي لكَ افتِرَاقاً واجتِماعاً !

---

(٧٥) يُقال مثلاً : تغوّلت الفلاةُ : ضلّلت أهلها . وتغوّلتهم الغول : تَوّهوا . يريد الكاتب أن اللوعة ذهبت بلبه أو كادت !

(٧٦) الصّرم : الهجر والقطيعة . ربيط ومربوط بمعنى . يقال فلان رابط الجأش : ثابت عند الشدائد .

ـ والخِناق : القِلادة . متسع الخناق كناية .

(٧٧) اتّدع : سكن واستقرّ .

وَلَهُ(☆) ـ رحمَهُ اللهُ ـ :

الحمدُ للهِ خالقِ الحياةِ والْمَوْت ، السامعِ لكلِّ صَوْت ، الَّذي لا يعجل مخافةَ فوت ؛ ذِي العَطاء الأَسْنى ، والأَسماءِ الْحُسْنى ، والصِّفات العُلى ، الَّتي لا تَبيدُ ولا تَفْنى . خَلَق الْخَلْقَ أَطواراً[(١)] ، وجَعَل لهم آمالاً وَأَوطاراً . فكلٌّ على رزقِهِ غادٍ ، من بين متحرِّج وعادٍ ، وساجعٍ وَشادٍ ؛ فَماشٍ على رجلَيْن[(٢)] ، وباطِشٌ بيَدَيْن ، وطائِرٌ بجناحَيْن ، وماشٍ على أَربَع ، وبهائمُ رُتَّع[(٣)] ، وموشيَّةُ[(٤)] الْمُتون ، ماشيةٌ على البُطون ، تَنْسابُ وتترفَّع ، وتُذْيِل[(٥)] حِبَراتٍ بها تتلفَّع[(٦)] ؛ كأنّ نسجَها على غَيرِها ، فهي تخلَعُ ما تزرُّ وتسحَبُ وتجرُّ ، أما إنها : ـ وتضربُ لكُمْ أمثالَكُم ـ أُممٌ أمثالُكُم[(٧)] ، لها

[٦٢]

(☆) رسالة في غرض الزرزوريّات
(راجع التّعليق على القطعة الأولى من هذا الكتاب) .

(١) الطور : التارة والحالة ؛ وفي سورة نوح ١٤/٧١ ﴿ وقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ .

(٢) في سورة النور ٤٥/٢٤ ﴿ ... وَمِنْهُم مَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَع ﴾ .

(٣) من : رتعت البهيمة : إذا جاءت وذهبت وأكلت وشربت في المرعى .

(٤) موشيّة المتون : الحيّات . (المتن : الظهر ، والوشي : النقش) .

(٥) أذال ثوبه : أطال ذيله . والحبرات جمع حبره : ثوب من كتان أو قطن مخطط .

(٦) تلفع بالثوب : اشتمل به حتى يجلّل جسده .

(٧) في سورة الأنعام ٣٨/٦ : ﴿ وما مِنْ دَابَّة في الأَرْضِ ولا طَائِرٍ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ .

من الحِمَامِ نصيبُها ؛ والأَقدارُ كَما تُصيبُكم تُصيبُها .

فسُبحانَ مَنْ أَعْطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هَدى[٨] ، وجعلَ لكلٍّ مَوْعداً وضَرَب له مَدَى ؛ فكلُّ نفسٍ إلى يومِها مَسُوقَة ، إمّا مَلِكٌ وإمّا سُوقَة .

والأَرْوَى[٩] في بُعْدِ مَصامِها[١٠] ، وَقُلَلِ اعتِصامِها ، كالنَّعامِ في إسْهالِها وقُرْبِ مَرامِها . [٤٨/أ] والضَّبُّ في غيابَةِ[١١] جُحرِه ، كالنُّونِ[١٢] في لُجَّةِ بَحْرِه .

أَحْمَدُهُ وأُمجِّدُهُ كَما يَرْضى ، وأَسأَلُه من خَيْرِ ما حَتَمَ وَقَضى ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وَحدَهُ لا شَريكَ لَه شهادةً كالْحُسامِ الْمُنْتَضَى ، وكلمةَ إخلاصٍ مَوْعِدُ الرّحمةِ بغيرِها لا يقتَضَى ، وأجعَلُها عائِذاً من السُّخطِ وسيلةً إلى الرِّضى ؛

وأَشهدُ أنَّ مُحَمَّداً عبدُهُ ورسولُهُ الَّذي انتَظَمَتْ رِسالَتُه جميعَ الأُمَم ، وأَسمعَتْ بلاغتُهُ كلَّ ذي صَمَم ، وأشَمَّتْ عزائمُهُ بَوَّ[١٣] الصَّغار كُلَّ كافِرٍ ذي شَمَم ، الذي كَمَّلَ برسالتِهِ الإيمان ، وبشَّرَتْ ، على تقدُّمِها ، بِه الأَزْمان ،

---

(٨) في سورة طه ٥٠/٢٠ ﴿ قالَ رَبُّنا الَّذي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى ﴾ .

(٩) في اللسان : الأُرويّة ـ بضم الهمزة ، وتكسر ـ : الأُنثى من الوعول . وتجمع جمعَ قِلّة على (أَراوِيّ) وجمعَ كثرةٍ على (أَرْوى) .

(١٠) مصام الفرس ونحوه : موقفه ومقامه .

(١١) غيابة كل شيء قعره ، كقعر البئر والْجُبّ .

(١٢) النُّون : الحوت .

(١٣) البَوّ : جلدُ الحُوار (ولد الناقة) يُحشى تِبناً أو حَشيشاً ، ويقرّب إلى أُمّ الفَصِيل لِتَرأم فتدرَّ عليه .

ومُـدَّت إليـهِ قَبْلَ مبعَثِـهِ الأَيْمان فتُبَّع[١٤] يَهْفُـو إلى نَصْرِهِ ، ويَـوَدُّ امتـدادَ عَصرِهِ إلى عَصْرِه ، وأَسحمةُ[١٥] يفخَرُ بما أَدرَكَـهُ من دَهرِه ، ويؤذن بغلَبَتِـهِ وقَهْرِه ، ويتقرَّبُ إلى اللهِ بعقـدِ صِهْرِه، وتـوفِيَـةِمَهْرِه ، ويردُّ على الكُفرِ كَيْدَ عَمْرِه[١٦] ، ويَبْرَأُ إلى الوَفاءِ من الغَـدْرِ في أَمْرِه ؛ ومَلِـكُ بَني الأَصفرِ[١٧] يودُّ أن يخلُصَ إليهِ ، ويغسِلَ عن قَدَمَيْهِ ، ويقطعَ بما كان من العِلمِ لَدَيْه ، أَنَّه سيملِكُ ما تحتَ رِجلَيْه ؛ والقِسِّيسُونَ والرُّهبانُ يُلقونَ إلى مـا أُنزِلَ عليـهِ

---

(١٤) تُبّع ، المقصود هنا ، هو تبّـان أسعـد بن كلي كرب ، ويُقـال لـه الرائش ، وكان ملكاً عظيماً شاعراً فصيحاً ، عارفاً بالنُّجوم . نقل الهمدانيّ أنه هو الذي آمن برسول الله ﷺ ولم يره .

(السيرة النبويـة ١ : ١٩ ، الاكتفـا ١ : ١٠٢ ، سبـل الهدى والرشـاد ٣ : ٣٩٠ ، المعارف ٦٣١ ، التيجـان ٣٠٥ ، الرّوض الأُنف ١ : ٢٤ ، الإكليل ٨ : ٢٨٠) .

(١٥) ورد اسمُه بالصّـاد (أَصْحَمـة) ملـك الحبشـة ، عـاصر النبي ﷺ ، وآمن بـه ، وكانت الهجرةُ الأولى إلى الحبشة ، في مُلكه ، معدود في الصّحابـة ، والتـابعين (لأنـه أسلم على عهد النبي (ﷺ) ولم يَرَهُ) . وصلى عليـه النبي ﷺ صلاة الغـائب ، وكانت وفـاتـه عام فتح خيبر .

(١٦) يعني كيـد المشركين ، وكان عمرو بن العـاص (ت ٤٣ هـ) يـومئـذ على الشرك ، وتكلّم في حضرة النجـاشي بـاسمهم . وكانت قريش قـد أوفـدت وفـداً يطلب من النجـاشي ردّ المسلمين من قريش عليهم ، فردّهم النجـاشي وحمى المسلمين (تـاريـخ الطبري ٣ : ٣٠) .

(١٧) هـو هرقـل ، صـاحب الشّـام قبـل الفتـح ، من الرُّوم (البيزنطيين) بعث إليـه رسول الله ﷺ ـ (فيمن بعث إليهم من ملـوك عصره وحكّـام زمـانـه) ـ يـدعـوه إلى الإسلام ، وحمل الرسالة إليه دحية بن خليفة ، قالوا : كاد هرقل يُسلم ، لكنـه خـاف الروم على نفسه وملكه ؛ وكان من قوله في الإقرار بنبوة النبي والثنـاء عليـه « لوددتُ أنّي عنده فأغسل قدميه » انظر (الطبري ٢ : ٦٤٨)

بالسَّمْع ، وتفيضُ لِما عَرَفوا من الحقِّ أعينُهُمْ مِنَ الدَّمْع[١٨] . صلّى الله عليه صلاةً تَقضي فرضَه ، وتَزورُ عنّا قبرَه المقدَّس وأرضَه ، وعلى الخلفاءِ الأُمراء ، والأَصهارِ الوُزَراء ، وعلى سائرِ العَشَرَةِ الأُثَراء ، الَّذين فازوا بذروَةِ الصُّحبة ، وميَّزَهُم بعُلوِّ الرُّتْبة ، وعلى زُمرَةِ صحابَتِه الغَرّاء ، وكتيبتِهِ الخَضراء[١٩] ، ممَّن هاجَرَ واستَنْصَر ، وآوى ونَصَر ، وعلى كَرِشِهِ وعَيْبَتِه[٢٠] ، وحُماةِ حَضْرَتِهِ وغيبَتِه ، الّذين يحبُّونَ مَنْ هاجَرَ إليهم[٢١] ، ويُؤثرونَهُم على أَنفسِهم[٢٢] ، ولا يستأثرونَ عليهم الَّذين حبُّهم آيةُ العِصمَةِ والإيمانِ ، وبُغْضُهم آيةُ النِّفاقِ والعِصْيان ، أُولئكَ أبناءُ قَيْلَةَ[٢٣] مُصَلّو القِبلتَيْن[٢٤] ، وأَصحابُ العقَبَتَيْن[٢٥] وَالباطِشونَ يومَ بَدْر وَالعاطفونَ يومَ

---

(١٨) في التنزيل العزيز ، في سُورة المائدة ٨٣/٥ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

(١٩) في حديث الفتح : « مَرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء » . يقال كتيبة خضراء إذا غلب عليها لبس الحديد شُبّه سواده بالخضرة . والعرب تطلق الخضرة على السَّواد .

(٢٠) كرش الرجل : بطانته وخاصّته . وفي الحديث « الأنصارُ كرشي وعيبتي » . والعيبة : موضع السرّ .

(٢١) في سورة الحشر ٩/٥٩ ﴿ والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجرَ إليهم ﴾ .

(٢٢) في سورة الحشر ٩/٥٩ ﴿ ويُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

(٢٣) بنو قيلة : الأَنصار : (وهي أم الأوس والخزرج) .

(٢٤) صلّى المسلمون أول عهدهم إلى بيت الْمَقْدِس ثم ولاَّهم اللهُ تعالى القِبْلَة واتَّجَهُوا إلى الكعبة .

(٢٥) بيعة العقبة الأولى ، والثّانية ، قَبل الهجرة .

حُنين ، الْمُسارِعونَ إلى الصَّوْت ، والمبايِعونَ على الْمَوْت ، عليهمْ أجمعينَ مردَّدُ الصَّلوات ، ومجدَّدُ التَّحِيّات والبَرَكات .

[٤٨/ب] فقد عَلَوا أنْ يُستَوْفى وصفُهم وتصنيفُهم ، أو يُبلَغ مُدُّهم ونَصيفُهم[٢٦] . وبعد : فإنَّ الألقابَ - وإنْ لَزِمَتْ كالأطواق الرِّقاب ، ولحقَتِ الأخلافَ والأعقاب - قد تُنكرُ على العِرفان ، وتَخْلَقُ إخلاقَ الأَجْفان[٢٧] ، وقد يَرْعاها الشّبابُ بنشوةِ عُقارِه[٢٨] ، وَيَنعاها المشيبُ بسَطوَةِ وَقارِه .

وما أَقبحَ بمَنْ جاوزَ السِّتِّين ، وأوهنَتْ الأيّامُ حَبْلَ عمرِه الْمَتين ، وقطعَتْ أو كادَتْ منه الوَتين[٢٩] ؛ أن يُوسَمَ على ساعتِهِ من الكِبَرِ بزُور ، أو يلقَّبَ بزرزور[٣٠] .

لا سيَّما من أُدرِجَ القرآنُ بين جنبَيْه ، وأُرهفَتِ الحِكَمُ من جانبَيْه ، وشهد كلَّ نادي خَيْرٍ ، وأنصَتَ لَهُ الجِلَّةُ كأنَّ على رُؤوسِهِمُ الطَّيْر[٣١] . ولما

---

(٢٦) المدّ ، والنَّصيف : مكيالان .

(٢٧) الأجفان جمع الجفن : غمد السَّيف .

(٢٨) العُقار : الخمر ، واستخدامها هنا مجازيّ .

(٢٩) في التنزيل العزيز : ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتين ﴾ الحاقّة ٦٩/٤٦

(٣٠) سبقت الإشارة إلى قضيّة النصوص الزّرزوريّة في هذه الرسائل . وانظر حاشية القطعة : [١] .

(٣١) في صفة الصحابة (رضي الله عنهم) : « كأنّما على رؤوسهم الطير » أي من السُّكون والوقار . يقال للرجل إذا كان حليماً وقوراً : إنه لساكن الطير . (النهاية ٣ : ١٥٠ ، والزاهر ١ : ٢٩٠) .

اشتعلَ الرأْسُ شيباً[٣٢] ، وأظهرت الأيامُ منه غيباً ، رأيتُ تَقَلُّدَ هذا اللّقبِ عَيْباً ؛ وأجمعْتُ عنهُ إلى غيرِه انتقالاً ، وقدّمتُ بين يدَيْ رفضِه مقالاً ؛ ليبلغَ الشاهدُ الغائبَ ، والدَّاني العازِبَ ، والطالعُ الغارِبَ[٣٣] ؛ وهذا ـ إنْ شاءَ الله ـ مباحٌ لا يُحْظَر ، وأمرٌ لا يتعقّبُه النَّظر ، فقَدْ تلتقي في البَعيرِ سِمات ، وللعَصا[٣٤] تفاريقُ وأشْتات ؛ ولا أَشقُّ على أحدٍ في عادَةِ لسانِه ، ولا أَزيد على أن أَنتفي من استحسانِه ؛ إذ كان مِنْ عُددِ الصِّبا وجُنونِه[٣٥] ، ومُلَحِ الهوى ومُجُونه ؛ وما جعلتُه غَراماً ، ولا نَسأْتُ به[٣٦] شَهراً حراماً ، ولعل التحوُّلَ عنهُ بابٌ من الحِذْق ، وزيادةٌ في الرِّزق ؛ ولعلَّ مَنْ يرى نباهةَ ما أَتحلاّه ، وحُسنَ ما أتقلّدُهُ وأتولاّهُ ؛ يضاعِف عندي جَدْواهُ ، ويطلق من إنعامِهِ ما كانَ لواهُ[٣٧] .

ما أحسنَ تَشاكُلَ الأُمور ، وما أَليَقَ اللَّعَس[٣٨] بالثُّغور ، وأَتقَنَ الحِكمَةَ في صيانَةِ اللُّبّ بالقُشور ، وَما أَبعَدَ الزُّرزور من الطّرطُور[٣٩] .

---

(٣٢) في التنزيل العزيز : ﴿ واشْتَعَل الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ مريم ٤/١٩

(٣٣) غرب الشيء : بَعُد وخفي .

(٣٤) العصا : الاجتماعُ والائتلاف .

(٣٥) يقال : كان ذلك الأمرُ في جِنّ صباه وجنّ شبابه .

(٣٦) معنى نَسأ في اللغة : أَخَّر ، وكانوا في الجاهليّة ربما أخَّروا الْمُحَرَّم إلى صَفر ، خَرْقاً لحرمتها ، وتبعاً لأَهوائهم . وفي التنزيل العزيز : ﴿ إِنَّما النَّسِيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ ﴾ التوبة ٣٧/٩

(٣٧) لواه عنه : صرفه .

(٣٨) اللَّعس : سُمرة (سواد) تستحسن في الشَّفة .

(٣٩) الطُّرطور من الرجال والقلانس (جمع قلنسوة) : الطويلُ الدَّقيق . والطرطور أيضاً : الوغد الضعيف من الرجال .

أَمـا إنّ فِطَنَ الهُـدهُـدِ[٤٠] مَمـدوحَـة وفيـه لهـذا الـزّيّ الـذي أحملـه مندوحة[٤١] ، ساقي سُليمـانَ ـ صلواتُ اللهِ عليـه ـ إذا عَطِشَ ، وسفيرُهُ مَهْما أرادَ أَنْ يبطِشَ[٤٢] ؛ جـاءَ من سَبَـإٍ بنَبـإٍ يقين[٤٣] ، وأنكَرَ سجـودَهم للشَّمسِ[٤٤] إنكارَ المُتَّقين ، وتخلَّصَ من العِقـابِ والعِتـاب ؛ وشـارَكَ في السُّرعَةِ الذي عندَه [٤٩/أ] عِلمٌ من الكِتـاب[٤٥] . وللهِ هو طَليعـةُ جَيْش ، ورائِـدُ عَيْش ، مـاأَخلقَ جنـاحَـهُ برَيْش[٤٦] ، وأَجـدرَ سـامِعَـهُ بِطَربٍ وطَيْش ، وأَحراهُ بِتَمزيقِ ما يلبسُهُ من يَمَنَةٍ أَو خَيْش[٤٧] .

[من السريع]

كَمْ نعمـةٍ سبَّبهـا الهُـدْهـدُ ومَعشَرٍ بعـد ضَـلالٍ هُـدُوا

ومَهْمَـهٍ تخفـقُ أَحشـاؤُه بجمرةٍ تَـذْكـو ولا تَخمُـدُ[٤٨]

يَغْرَقُ منـه الرَّكبُ في لُجَّـةٍ لهـا عَليهم لهبٌ مُـزْبِـدُ

---

(٤٠) الهُدهد ـ كما في الوسيط ـ جنس طيرٍ من الجَواثم الرّقيقات المناقير ، له قَنْزَعةٌ على رأسه .

(٤١) يقال : لك مَنْدُوحة عن هذا الأمر : سعَةٌ وفُسْحَةٌ .

(٤٢) يستخدمون ـ في الأندلس وفي أحيانٍ كثيرة ـ الأَداة (مَهما) في مكان إذا .

(٤٣) في التّنزيل العزيز ﴿ وجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يقِيْن ﴾ النمل ٢٢/٢٧

(٤٤) في التّنزيل العزيز ﴿ وجَدْتُهَا وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ للشَّمْسِ مِن دُوْنِ اللهِ ﴾ النمل ٢٤/٢٧

(٤٥) إشارة إلى الآية ٤٠ من سورة النَّمل ٢٧ : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ .

(٤٦) يقال : راش السهم ، إذا ركّب عليه الرّيش .

(٤٧) اليمنة نوع من ثياب اليمن . والخيش ثياب تُتّخذ من مشاقة الكتان ، من أردئه .

(٤٨) المهمه : الفلاةُ الواسعةُ لاماء بها ولا أَنيس .

يَشتفُّ[٤٩] حتّى كُــلَّ عينٍ رَنَتْ ويَتَّقي سَوْرَتَــهُ[٥٠] الفَرْقَــدُ

ذابَ دمـــاغُ الضَّبِّ مِنْ حَرِّهِ وظلَّتِ العقربَـــةُ تسجُـــدُ

شِنَـانُهم[٥١] شُنَّ لهـا غـارَةٌ فـالنـار من أحشـائِها تـوقَـدُ

فبينمـا المـوتُ محيـطٌ بِهِمْ إذ قيلَ : هـذا ـ فَرِدُوا ـ مَـوردُ ![٥٢]

أحيـاهُمُ اللهُ بـذي مِسْمَـعٍ يَـدْنـو لـهُ في الـوَهْمِ مـا يَبْعُـدُ[٥٣]

هــذا سليمـانُ على مُلكــهِ والجنُّ والإنسُ لــه حُشَّــدُ

والطَّيرُ في الآفــاقِ محشــورَةٌ والرِّيـحُ ؛ كلٌّ عـامـلٌ يجهَـدُ

لم يُفتَقَـدْ منهم سِـوى هُـدْهُـدٍ ومثلُـهُ في مثلِهـا يُفْقَـدُ

فجــاءَهُ من سَبَــإ بــالَّتي كالشَّمسِ كانَتْ أُختهـا تعْبُـدُ

فـاستبـدلَتْ مِنْ نـارِهـا جَنَّـةً نعيمُهـا متَّصِـلٌ سرمَــدُ[٥٤]

شرَّفَـهُ الله بمـا قصَّـهُ في وَحْيِـهِ والـوحيُ لا يَنْفَـدُ[٥٥]

---

(٤٩) اشتف ما في الإناء : تقصّاه .

(٥٠) السَّورة : الشدّة والحِدّة .

(٥١) الشِّنان جمع شَنّ : القربة الخَلَقُ الصغيرة ، يكون فيها الماء أبرد من غيرها .

(٥٢) موردُ الماء .

(٥٣) المِسْمَع : الأُذن : عُروة في داخل الدّلو بإزائها عُروَةٌ أُخْرى . يُقال : أخذ بمسمع المزادة .

ـ وفي وصف الهدهد ، في كتب التّراث العربي ، يُذكر أنّه يرى الماء في باطن الأرض . وفي الحيوان للدميري أنّه كان دليل سليمان عليه السلام على الماء . (وانظر ما في كتاب الدّميري المذكور ٢ : ٤٤٧ ـ ٤٤٩) .

(٥٤) السَّرمد : الدّائمُ الَّذي لا ينقطع .

(٥٥) في كتب التَّفسير تفصيل ، وأخبار عن نبي الله سليمان عليه السَّلام . وفيها من خبر =

هـل عرفَتْ بِلقيسُ معروفَـهُ ... وكيفَ لا ؟ كيفَ بهِ تجحَدُ ؟[٥٦]

ومَا الَّـذي يَنْقَمُـهُ خـالـدٌ ... من أُمَّـةٍ أَرْشَـدهـا هُـدْهُـدُ[٥٧]

وحِكمـةُ الرَّحمنِ مبثـوثَـةٌ ... وكلُّ مخلـوقٍ بـه يَشْهَـدُ

تبـاركَ اللهُ وسبحـانَـهُ ... مـا هِيَ إلاَّ نعمـةٌ تُحْسَـدُ

قـد قتلَتْ نمرودَ في ملكِـهِ ... بعـوضـةٌ كانَتْ لـه تُرصَـدُ[٥٨]

[٤٩/ب] لم يستطِعْ والأَرضُ في خَتْمِهِ ... أضعفُ مخلـوقٍ لَـهُ يَعْمِـدُ[٥٩]

تَغلغلَتْ في رأسِـهِ حِقبَـةً ... فلم تنَلْهـا حيثُ جـالَتْ يَـدُ

= (الهدهد) وغيره . وفي تفسير القرطبي (١٣ : ١٧٢) : نُهي عن قتل الهُدهد لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس . (انظُر تفسير سورة النَّمل في كتب التّفسير) .

(٥٦) بلقيس : ملكة سَبأ ، المذكورة في القرآن الكريم ، قال في شرح الرسالة الهزلية (٨٣) : كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ، ونقل عن ابن الكلبي : كان أبوها من عظماء الملوك .

(٥٧) يشير إلى طرفٍ من مفاخرة يَمن ومُضَر . روى ابن قتيبة في عيون الأخبار (١ : ٢١٧) قال ؛ فَخَر ناسٌ من بني الحارث بن كعب (من اليمانية) عند أبي العَبّاس السفاح فقال أبو العباس لخالد بن صفوان : ألا تكلم يا خالد ؟ قال : أخوالُ أمير المؤمنين وأهله . قال : فأنتم أعمامُ أمير المؤمنين وعصبته . قال خالد : ماعسى أن أقول لقوم بين ناسج بُرد ، ودابغ جِلد ، وسائس قرد ؛ دلَّ عليهم هُدهد وغرّقتهم فأرة وملكتهم امرأة ! (وانظر العقد ٣ : ٣٣٠ ، وزهر الآداب ٣ : ١٣) .

(٥٨) نمرود كان ببابل مُتَجبّراً ، وهو الذي حَاجّ إبراهيمَ في رَبّه . وفي بعض أخبار الطبري عن ابن الكلبي (١ : ٢٣٤) أن إبراهيم الخليل ولد في زمانه ، وأنه صاحبه الذي أرادَ إحراقه .

(٥٩) الْخَتْم : الخاتم . وهو أيضاً حِفْظُ ما في الكتاب (أي الرسالة) بعلامة توثقه . وكانوا قديماً يختمون بالطين . يريد الكاتب أنّ الأرضَ كانت في طَواعِيته وتحت سُلطته .

والله قــد عــاتَبَ في نَملــةٍ | نبيَّ صـدقٍ هـديُـهُ يُحْمَـدُ[٦٠]
فمجِّــــــدوا اللهَ ولا تحقِروا | جُنْـداً لــه مِنْ خلقِـه جُنِّـدوا
وهــا أَنــا الهُـدهـدُ إسميَّـةٌ | كانَ لَهـا في مـولِـدي مـوعِـدُ
فجـدِّدوا عنـدي بتجـديـدِهـا | عرْفـاً ، ثنـائي بعــدَهُ يَخلُـدُ
ويمِّنوا طـائرَهـا إنَّهـا | إنْ ساعَدَتْ جَـدْوَاكُمُ أَسعـدُ[٦١]
وقــد نــآني لقبٌ كانَ لي | مـعَ الصِّبـا هـذا وهـذا دَدُ[٦٢]
ودَّعني اللَّهــوُ وودَّعتُـه | إلاَّ بقـايـا هَـزَجٍ تُنْشَـدُ[٦٣]
وهِمَّــةٍ بــالخير معقــودةٍ | فـلا أَني أَرْكَـعُ أو أسجُـدُ[٦٤]
يـــا رَحِمَ اللهُ آمرأ رقَّ لي | مِنْ أَفْرُخٍ في قربِهِمْ أَبْعـدُ[٦٥]
قرطبــةٌ داري وفي غيرهــا | رِزقي ، فَـذا ظِـلٌّ وذا مَـوْرِدُ
هَـلْ فيكمُ من مُصْعَبِيِّ النـدى | تُضحي عَصا السَّيرِ بـه تُقْصَـدُ[٦٦]

---

(٦٠) روي أنَّ رَجُلاً استوقف المأمون ليسمع مِنْهُ فلم يقف له ، فقال : يا أمير المؤمنين : إن الله استوقف سليمان عليه السلام لنملةٍ ليستمع منها ، وما أنا عند الله بأحقر من نملةٍ وما أنت عند الله بأعظم من سليمان فقال : صدقت ، ووقف له ... إلخ الخبر

(الحيوان للدميري ٢ : ٤٣٧) .

(٦١) الْجَدْوى : العطيّة .

(٦٢) الدَّدُ : اللّهو واللعب .

(٦٣) الهزج : ضرب من الإنشاد فيه ترنُّم .

(٦٤) لا أني : لا أُقصّر .

(٦٥) أفرُخ جمع فَرْخ : وهو ولد الطائر . ويُستعار للطِّفل ، لبعض المناسبات .

(٦٦) مُصعب بن الزُّبير (٢٦ ـ ٧١) من الولاة ، الأبطال ، الأنجاد . ولي البصرة في خلافة أخيه عبد الله ، وضبط له أُمور العراق . واشتهر أيضاً بكرمه « وكان مصعب أحبّ =

قــــد رتَّلْتُ[67] ورجَّعْتُ[68] ، وترنَّمتُ[69] وسجَّعْتُ[70] ، وهـــدرْتُ وهَـدَلْتُ[71] ، ووَلْوَلْتُ[72] وعَنْـدَلْتُ[73] ، وقَصَـدْتُ وجُرْتُ ، وَحَوْلَ هـذا الرِّزقِ دُرْتُ ، وتَلوَّنتُ ألواناً ، ودوَّنتُ من مفـاخِرِكُمْ وَمـآثِرِكُمْ ديوانـاً ؛ ونفَّستُ في المــآتمِ والأَتراحِ ، وأَنَّستُ في المكارمِ والأَفْراحِ ، وٱستبــدلْتُ بلسـاني لِسـانـاً ، وتجـدَّدتُ حُسْنـاً أَو إحْسـانـاً ، فـارَقتكم زرزورَ إيقـاع وَإطراب ، وطلعْتُ عليكم هُدهُدَ إبـداعٍ وإغْرَاب . إذا سَتَرَ المـاءُ نفسَـهُ فلم يعرِضْهـا ، وبَسـطَ الْمَـوْتُ كفَّـهُ فلم يقبِضْهـا ، وبخـلَ الغمامُ بعَبرتِـه فلم يُفِضْها ؛ وضلَّ الخِرِّيتُ[74] الماهِرُ وَتـاه ؛ وأسلمَتِ الشِّفـاهُ الأَفْواه ؛ هـداني اللهُ إلى الخِبْءِ فأخرجتُهُ [٥٠/أ] وعَداني على الكَرْبِ ففرَّجْتُه ، وعَلى هذه

= أُمراء العراق إلى أهل العراق ، يُعطيهم عطاءين : عطاء للشتاء ، وعطاء للصيف » .
ـ يقال : ألقى عصا السَّير ، وعصا التسيار إذا عاد من السَّفر . وأصل الكلام من عـادة حمل المسافر (قديماً) عصا يستعين بها في رحلته . ثم استُعيرت للعبـارة عن ملابسـات السَّفر .

(٦٧) رتل الكلام : أحسن تأليفه ، وتأنق في تلاوته .
(٦٨) رجّع فلانٌ : ردّد صوته في قراءة أو أذان أو غناء أو غير ذلك ممّا يُتَرَنَّمُ به .
(٦٩) ترنم : رجّع صوته ، وطرّب به .
(٧٠) سجع الحمام (وغيره) صوت فيه ترديد .
(٧١) يقال لصوت الحمام : الهديل والهدير .
(٧٢) يكثر استخدام الأندلسيّين الولولة لصوت الطيور المغرّدة .
(٧٣) عندل (العندليب) صوّت .
(٧٤) الخرّيتُ : الدليلُ الحاذق بالدّلالة .

الفَطانة وَالنّبالة ، أعشى مَعَ القدَرِ عن الحبالَـة[75] ، ومـا أَدَّعي عِلمَ غَيب ، ولا أَبرَأُ من عَيْب ، ولا أعدَمُ من الرِّيش انتفاشـاً ، فـأُصبحَ خَفّـاشـاً[76] ، يشفعُ ليَ اللّيلُ فأَسري ، ويمنعُني الصُّبحُ فيُغري[77] .

وكيف تقلَّبْتُ ففي إنعـامكم أتقلَّب ، وعلى أَرجـائِكم أَنحَـطُّ وأَتصوَّب ، لا زلتم تُمْدَحون بكلِّ لسان ، وتَعُمّون الْحَيَوانَ بـالإحسـان ، وتَسمعونَ من القَوْلِ أحسنَه ، ويجرُّ الثناءُ إليكم رَسَنَـه ، ويُطيلُ الجـارُ في حِمى أَكنـافِكم وَسَنَـه ، وصلّى الله على مَنْ حَضَّ على الإنفـاق ، وحَبَّبَ معـاليَ الأمـورِ ومكارِمَ الأَخلاق ، مـا لبسَتِ الشَّمسُ حلَّـةَ الإشراق ، وعَقَـدَ اللَّيـلُ حبـوةَ الإطراق ، وزُرَّت على الحمامِ قلائدُ الأَطواق !

---

(٧٥) الحبالة : الْمَصيدة . يروى أَن نَجْدة الحروريّ (أو نافع بن الأَزرق) قال لابن عباس رضي الله عنهما : إنك تقول إن هُدهد سليمان كان إذا نقر الأرض عرف مسافة مـا بينـه وبين الماء ، وهو لا يبصر الفخّ دون التراب حتى إذا نقر الحبّة انضمّ عليـه الفخ . قـال : أجَلْ ! إذا جاء القدر عمي البَصر ! (الحيوان للجاحظ ١ : ٩٧ ، وثمار القلوب ٤٨٥ ، وحيـاة الحيوان ٢ : ٢٤٧) .

(٧٦) الْخَفّاش : حيوان ، يطيرُ ، معروف .

(٧٧) استفاد من قول أبي الطيب (ديوانه شرح الواحدي ٦٣٤) :

أزورهم وسـوادُ الليـل يشفـع لي … وأنثني وبَيـاضُ الصُّبـح يُغري بي

[٦٣]

وقالَ(☆) يرثي الوزيرَ الأجَلَّ أبا محمّد عبدَ الرَّحمنِ بنَ محمّدِ بنِ مالِك(☆☆) : رَحمهما الله : [من الطويل]

قضــاءٌ من الرّحمنِ ليس لَـــهُ رَدُّ ... وسَكرةُ مَوتٍ ليس من وِرْدِها بُـدٌّ(١)

وكأسٌ أَدارتها يــدُ العــدلِ بَيْنَنــا ... فيَشْرَبُهـا الْمَـوْلى كما يشرَبُ العَبْـدُ

سَقتْ أُمَّ عَمرٍو والّـــذين سقتْهمُ ... دِراكاً ، وكانت لا يُنَهْنِهُها الصَّـدُّ(٢)

---

[٦٣]

(☆) قصيدة رثاء في صديق حميم من أصدقاء الكاتب الشاعر .

(☆☆) أبو محمّد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافري ، الغرناطي . ترجم له لسان الدين وقال فيه : كان أحد وزراء الأندلس ، « لم يُرَ بعد مثله في الأندلس : ذاكراً للفقه والحديث ، بارعاً في الأدب ، شاعراً مُجيداً ، حلو الكتابة والشعر » . وكانت له آثار عُمرانية في غرناطة كانت ماثلةً أيام لسان الدين . وكانت وفاته سنة ٥١٨ هـ .

(قلائد العقيان : ١٦٩ ، والإحاطة ٣ : ٥٢٤) .

(١) سكرة الموت : غشيته وشدّته ، وفي التّنزيل العزيز في سورة قّ / ١٩ : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ .

(٢) يُشير إلى شعر في معلقة عمرو بن كلثوم (ويُروى أيضاً لعمرو بن أُخت جذيمة الأبرش) ، فيه :

صـــددتِ الكأسَ عنّـــا أُمّ عمرو ... وكانَ الكأسُ مَجراهـــا اليمينـــا

ومـــا شرُّ الثّـلاثـــةِ أُمّ عمرو ... بصـاحِبـك الّـذي لاتَصْبَحِينـا

قال التّبريزي في شرح القصائد العشر (٣٢٣) : أم عمرو هذه المذكورة تصدّ عنه الكأس . فلما قال عمرو هذا الشعر سقياه وحملاه إلى خاله جُذيمة . وانظر السّبع الطّوال : ٣٧٤

ـ ودراكاً : متداركة (سريعة) . وينهنهها : يكفّها ويزجرها .

وما أخطأَتْ خيرَ الثلاثةِ عندَها ... ولا قصَّرتْ عن خيرِهم عندَنا بَعْدُ[٣]

وشبَّ عنِ الطَّوق المعارِ فَردَّهُ ... وما اعتاضَ منهُ مِنْ شبيبتِهِ رَدُّ[٤]

ومِنْ قَبْلُ ما أرْدَتْ أَباهُ حياتُه ... وطوَّقَهُ من قبلِ تَطويقِهِ الْحَدُّ[٥]

وأمثَلُ ما قالُوهُ: فَرَّ لوجهِهِ ... وأَجفَلَ مذعوراً كما تجفلُ الرُّبدُ[٦]

وعُزِّزَ منه القارظانِ بثالثٍ ... فأصْبَح رَهْناً لا يَرُوحُ لا يَغْدُو[٧]

وساءَتْهُ من قبلِ المَسرّةِ نفسُه ... به وَهْوَ لغوٌ لا خَطاءٌ ولا عَمْدُ[٨]

وما كانَ إلاّ نَصلَ أَروعَ ماجدٍ ... تَجلّى لوقتٍ عن مضاربِهِ الغِمْدُ[٩]

---

(٣) الثلاثة : إشارة إلى ثلاثة نفر ، هم : عمرو المذكور (في الحاشية السابقة) ونديما جذيمة الأبرش : مالك وعقيل .

ـ وأورد الشاعر الكاتب هذه الإشارة تمثيلاً وتقريباً .

(٤) هو من المثل : « شب عمرو عن الطّوق » وله خبر مفصل في التواريخ وكتب الأمثال . (انظر أمثال العسكري ١ : ٥٤٧) .

(٥) أبوه عديّ بن نصر اللخمي . وله خبر مع جذيمة .

ـ والحدّ من الشيء منتهاه . يقول : إنّ الموتَ مكتوبٌ على المرء منذ ولادته ! وجعل عمراً مثلاً .

(٦) أجْفَل (الظليم : ذكر النعام) هرب وذهب في الأرض . والرُّبد جمع ربداء (المعزى وغيرها) السوداء المنقطة بحمرة وبياض . وقال في صفة نعامة :

« رَبْداءُ تنفرُ من صَفيرِ الصَّافِرِ »

(٧) (القارظان) يضرب بهما المثل في الذي لا يعود أبداً ، أو لا يكونُ أبداً . والقارظان مثنّى القارظ ، وهو الذي يجتني (القَرَظ) . ولكل واحدٍ من الرجلين القارظين خَبَرٌ (أمثال العسكري ١ : ١٢٣ ـ ١٢٤) .

(٨) اللغو : مالا يُحْتَسبُ في العدد في الدِّيَة (والبيع) ..

(٩) الأروع : الرجل الذي تعجبك شجاعته .

[٥٠/ب] وعمرو بن هند غالَـه نَفْثُ أرقمٍ — بكفّ ابن ليلى ، وَعْدُه بالرّدى نَقْـدُ[١٠]

وجَرَّ على هنـــدٍ عُقـوقـــاً ببِرِّهِ — فياليتَ ليلى لم تَرُمْ قتوَهـا هنـدُ[١١]

فــأُمِّنَ منـــه كلُّ شيءٍ يخـــافــهُ — وكم ذُعِرَتْ منـهُ المُلَملَمـةُ الصُّلْـدُ[١٢]

وكرَّت على الـزَّبـاءِ إثرَ جـذيمـةٍ — وحُمَّ لهـا من مثـل مـا جَرَّعَتْ وِرْدُ[١٣]

ولــو ملّكتْــهُ رأيَـــهُ يـــومَ بَقّـــةٍ — لما فاتَهُ من يومِ مكروهِها وَعْـدُ[١٤]

---

(١٠) الأرقم : أخبث الحَيّات وأطلبها للنّـاس (شبّـه الشـاعر السيف بـه) وليلى هي أم عمرو بن كُلثوم . ومعروفٌ أن ابن كلثوم قتل عمرو بن هند في خبر مشهور .

(١١) إشارة إلى خبر العَمْرَين ، ومقتل عمرو بن هند . وكان قـد دعـا عمرو بن كلثوم وأُمَّـهُ ليلى : « وأمَرَ عمرو أمّـه هنـداً أن تنحّي الخَدمَ إذا دعـا بـالطُّرَفِ وتستخـدم ليلى » فغضبت ليلى وصـاحت : واذلاّه ! يـالتغلب ! (استعظـامـاً لمَـا بـدر من هنـد من امتهـانهـا) ، ... فـوثب عمرو بن كلثـوم على الأمير ابن هنـد وقتلـه (انظر الأغـاني ١١ : ٤٨) .

- والقتو : الخِدمَةُ .

(١٢) كان يقال لعمرو بن هند مضرّط الحجارة لشدّته وبأسه (سرح العيون ٤٣١) .

- الململمةُ الصُّلد : صفة للحجارة (محذوفة للعلم بهـا) . والململم : المجتمع المـدوّر ، المضمومُ بعضه إلى بعض .

(١٣) الزّبّاء : اسمُها فارعة ، والزباء لقب لقبّت به لطول شعرها وكثافته وحُسنه (وبعضهم يسمّيهـا الزبّـاء) بنت مليح بن البراء ، أو بنت عمرو بن الظَّرِب . ملكـة مشهورةٌ في العصر الجـاهلي ، ملكت تَـدْمُر وبلاد الشَّام . وليت الحكم بعـد زوجهـا (وقيـل بعـد أبيها) ، انتقمت من جذيمة قاتل أبيها بحيلة وقتلتـه . ثم دَبّر قصير - المشهور في كتب الأمثال - حيلةً طويلة المدى ، أدّت إلى مقتلها .

- والزباء هي التي يسمّيها الإفرنج : زنوبيا .

- ومعنى حُمّ : قُدِر (سرح العيون : ٨٤) .

(١٤) بَقّة : مدينة على شاطئ الفُرات . وهناك جمع جذيمة أصحابه يشـاورهم في أمر الزّبّـاء =

وَمــا بلــغ الثـــأرُ المنيمُ قتيلَهـــا وهل تَبْلغُ الأنباءُ مَنْ دُونَهُ اللّحـدُ[١٥]

ولم تُحصِنِ الـزبّـاءَ قُنّـةُ شـاهـقٍ تُسـاميـهِ أَوهـامُ الخطـوبِ فيرتَـدُّ

ولا نَفـقٌ يستبطِنُ الأَرضَ غـامضٌ طَوتهُ كما يُطوى الضَّميرُ فما يبدو[١٦]

وجَرَّتْ على مَغْنى قصير ذيــولَهـــا ولم تُنجهِ منها العَصا وهْيَ تَشتَدُّ[١٧]

وإنْ خالَهُ من شدَّةِ الركضِ ناجيـاً فَما كانَ إلاّ بَيْنَ أَنيــابهـــا يَعْـــدُو

وأَينَ من الجعـــــــديّ آلُ محرّقٍ تولَّوا فلا سِبـطٌ يُعَـدّ ولا جَعْـدُ[١٨]

تـــذكّرَهُمْ والأَرْضُ منهم بَـلاقِـعٌ فلم يتمالَـكْ دمعــهُ وهُـوَ الجَلْـدُ !

= (حين دعته إلى ديارها ليتزوجّها) ونصحه قصير بألاّ يذهب فخالفـه . ثم سـألـه بعـد عن رأيه فقال : تركت الرأي ببقّة ! (معجم مااستعجم ١ : ٢٦٤ ، وأمثال العسكري ١ : ٢٣٤) .

(١٥) الثّأرُ المنيم : الذي فيه وفاءُ طِلبَتِه .

(١٦) في خبر الزبّاء أَنّها بَنَت على شاطئ الفُراتِ قصوراً ومدائن لا يسلكها سالـك .. وشقّت الفرات (تحته) أنفاقاً تفزع إليها إذا خافت .
- وقُنّة الجبل : أعلاه .

(١٧) هو قصير بن سعد اللَّخمي من أصحاب (وزراء) جذيمة الأبرش صاحب الحيرة .
- والعصا : اسم فرس قصير (أو فرس جذيمة) من الخيل العتاق .
(أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها للغندجـاني ١٦٧ . ونسب الخيل في الجـاهليـة والإسلام وأخبـارهـا لابن الكلبي : ٥٤ ، والحلبة في أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والإسلام للصـاحبي التـاجي : ٥٤ ، وأنسـاب الخيل لابن الكلبي (تحقيق أحمد زكي) : ٩٤) .

(١٨) يعني النابغة الجعدي وهو مخضرم مُعَمّر .
- والإشارة هنا إلى قول النابغة (شعره المجموع : ٣٦) :

نــدامــاي عنــد المنـــذر بن محرّق أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مُقْفرا

في جملة أبيات . ـ وقوله : بلاقع جمع بلقع : الأرض القفر .

ولم ينسَ حسّــانٌ لأَولادِ جَفنــةٍ أَواصِرَ إحسانٍ على الدَّهرِ تَمْتَدُّ[19]

ولم ينسَهُ ابنُ الأيهمِ النَّدبُ بالنّدى وَلِـلأَرضِ والإسـلامِ بينَهُما بُعْـدُ[20]

ولم يبكِــهِ إلاّ الـوفــاءُ ومَعشَرٌ كرامٌ على آثــارهم ينبتُ الْحَمْــدُ

ومــا أوحشَ الــدُّنيـا بِمَنْ أَنِسَتْ بــهِ ومن حَيثُ يأتي الأُنس يُستشعَرُ الوَجْدُ

وكم بينَ أطبـاقِ الثَّرى من مـوسَّـدٍ له الْمُقْرَبان : الْمُهْرُ والسّابحُ النَّهْدُ[21]

ومنظـورِ أَوبــاتِ السِّفــارِ كأنَّما هـلالٌ على فِطْرٍ أَهَـلَّ بــه السَّعْـدُ

رَقيقِ حَـواشي الحِلْمِ والعِلْمِ والنُّهى ولكنَّـهُ في كلِّ حــادثــةٍ صَلْـدُ[22]

أَخي عَزمـاتٍ لـو طُبِعْنَ صَـوارمـاً لقَصَّر عنهـا كلُّ مـا طبَـعَ الهِنْـدُ[23]

---

(١٩) هو حسان بن ثابت ، وكان في الجاهلية من مدّاح الغساسنة خُصوصاً . ومن شعره يتذكّر ذكرياته معهم قصيدة مطلعها (لمن الدار أقفرت بمعان) ديوانه ـ تحقيق عرفات ١ : ٢٥٥ ـ ومنها :

ذاك مغنًى من آل جفنةَ في الدهْــــرِ ، وحقٌّ تعاقبُ الأَزمانِ

(٢٠) هو جبلة بن الأَيهم (توفي سنة ٢٠ هـ) آخر أُمراء (ملوك) الغساسنة في بادية الشام . أُسلم بعد فتح الشام ، ثم ارتدّ لّما عامله عمر بن الخطاب رضي الله عنه معاملة المسلمين بلا مزيّة .

ـ وفي أخباره أَنه بعث إلى حسان مع وفد عربي وفد على الروم هديّة (وكان جبلة قد انحاز إليهم بعد تنصّره) فقال حسان : (ديوانه ـ عرفات ـ : ١ : ٤٣٩)

إن ابن جَفنةَ من بقيّة معشرٍ لم يَغْذُهُمْ آبــاؤهم بــاللُّـومِ

لم ينسني بـالشـام إذ هـو رَبُّها كـلاّ ، ولا متنصّراً بــالرومِ !

(٢١) النّهدُ من الخيل : الذي حَسُنَ جسمه مع ارتفاع ، وكَثُر لحمُه .

(٢٢) ضبط (رقيق) في الأصل بالضمّ . وهو يصحّ ، وجاريت نسق الأبيات الْمُتوالي .

(٢٣) طبع السَّيف وسنان الرُّمح : صاغه (صنعه) .

تــــألَّفَ من سِرِّ المكارمِ شَخْصُـــــه   فــلا نظرةٌ فيـــهِ لعينٍ ولا نَقْـــدُ

[٥١/أ] وأَبْلَج يَلْهُو بالمعَالِي براعَـةً   فَتَدْري المعَـالي أنَّ شِيْمَتَـهُ جِـدٌّ[٢٤]

حُلىً لم تَكُنْ لُبْسـاً لغيرِ ابنِ مـالـكٍ   وهَيْهـاتَ يَـأبى اللهُ ذلـكَ والمَجْـدُ

سَيُعْرِبُ عنـكَ الـدَّهْرُ أَنّـكَ فَرْدُهُ   وأَنَّـكَ لِلْعليَـا ومُـدّتِهـا حَـدُّ

وتَبْكيـكَ عَيْنٌ لم تَنلْ منـكَ نَظْرَةً   وتُوحِشُ أَرْضٌ ما رمـاكَ بهـا عَهْـدُ

ويَفْقِـدُكَ الإسـلامُ والبِرُّ والتُّقى   وهذا الكلامُ النَّثْرُ والنَّـائلُ السَّرْدُ[٢٥]

أَلَسْتَ من الأَقْيَالِ أَقْيـالِ حِمْيَرٍ[٢٦]   إلى كُلِّ فَيَّاضِ النَّدى سَيْبهُ عِـدٌّ[٢٧]

ومُنْتَجـعِ الأَكنـافِ مُرْتَبـعِ الـذّرا   بِمالِكهِمْ يَحْـدُو الرَّكائبَ مَنْ يَحْـدُو

لَعَمْرِي لَقـــدْ أَدّى نُعيمٌ وعُقْبَـــةٌ   إليكَ العُلاَ كفّاً يَصُولُ بهـا زَنْـدُ[٢٨]

إذا صدَرتْ عن ماجـدٍ عَنَّ مـاجـدٌ   محَـــاسِنُـــه شَتّى وسُـؤددهُ فَرْدُ

تَسَلَّمْتَهـا لَمّـا دنَتْ عن مُحَمَّـدٍ   أَبيـكَ أَبٌ لم يُخْـزِهِ الأَبُ والجَـدُّ

إذا حَلَّت الأنسـابُ غَـوْراً فَـإنّمـا   مَحلُّـك مِن أَعْلى ذَوائبهـا نَجْـدُ[٢٩]

ومـا المَجْـدُ إلاّ كَـوكَبٌ كُلّما سَرى   فمصعَـدُهُ سَهْـلٌ ومَسْلَكَـهُ قَصْـدُ

فَيـا قَمر العلْيَـا ويـا رائِـدَ الحَيَـا   ويا جَبَل الـدُّنيـا، أَمِثْلُـكَ يَنْهَـدُّ؟

عَـزيـزٌ عَلَيْنـا أَنْ تَحُـلَّ بِـوَهْـدَةٍ   وما كانَ حقّاً من منازِلكَ الوَهْدُ[٣٠]

---

(٢٤) الأَبْلَج وصف من بَلج الصُّبح: أضاءَ وأَشرق: وهي صفة معنويّةٌ يُمدح بها الرّجال الكرام.

(٢٥) يعني بالنائل: العطاء، المتتابع (الذي لا ينقطع).

(٢٦) فوق (حميرٍ) بالقلم نفسه (يَعْربٍ).

(٢٧) العِدّ (بالكسر والفتح): الكثير.

(٢٨) (نعيم) تقرأ أيضاً نقيم (؟).

(٢٩) النَّجْد: المكان المُشْرِفُ المرتفع.

(٣٠) الوَهْدَةُ والوَهْدُ: الأَرْضُ المنخفضة.

وأَنَّـــكَ مَهْما نَـوَّهَ القَـوْمُ للقِرى تُنادى؛ فلا بِشْرٌ لَدَيْـكَ ولا رِفْـدُ!

بعيـدٌ علَى أَنَّ الـدِّيـارَ قَرِيْبَـةٌ مُقيمٌ،وكم تـاهَتْ بـكَ الضُّمَّرُ الجُرْدُ![31]

ومـــا كُنْتَ إلاّ الغَيْثَ طَبّــقَ نَفْعُــهُ وسَـدّ خَصاصَ الأَرْضِ من وَبْلِـهِ سَـدُّ[32]

كذلـك مـا اخْتَصَّتْ بفقـدكَ بُقعَـةٌ وصَوْبُ الحيَا في كُلّ أَرْضٍ لهُ فَقْـدُ

وإن لِحِمْصٍ لـو علمتَ عصابَـةً[33] حَيَازِيْمُهُمْ من حَرِّ ثُكْلِكَ تَنْقَـدُّ[34]

وفي حَضْرَةَ الْمُلْكِ استَهلَّتْ مـدامِعٌ عَليـــكَ ولم تَظْلِمْ كما انتثَر العِقْــدُ

فَمَنْ لِبَنِي الآمـالِ أَنْضَتْهُم السُّرى ولَفّتْهُم النّكبـاءُ والليـلُ مُسْـوَدُّ[35]

[٥١/ب] ومَنْ لليَتـامى والأَرامِلِ أَصْبَحُـوا وقــد مَسَّهُمْ ضُرٌّ وقـــد شَفَّهُمْ جَهْــدُ

ومَنْ للعُنَـــاة البـــائسينَ يَفُكُّهُمْ وقَـدْ ضَمّهُمْ سِجْنٌ وأَوثَقَهُمْ قِـدُّ[36]

ومَن لِسَبيـلِ البِرِّ يُحْيِي رُسُومَهـا وقد أصبحَتْ سَحْقاً كما أخْلَقَ البُرْدُ[37]

مَكارِمُ قـد ضـاعَتْ ثغورُ حُقُوقِهـا فليسَ لَهــا من بَعْـدِه أَبـداً سَـدُّ

وهَـوَّن خَطْبَ الشَّامَتينَ مصـانِعٌ لهـا دونَ هـذا الحُرّ أَلْسِنَـةٌ لُـدُّ[38]

---

(٣١) الضُّمَّرُ جمع ضامِر (صفة للخيل) والجُرْد جمع أَجْرَد : السَّبَّاق .

(٣٢) الخَصاص (والخَصاصَةُ والخَصاصاء) : الفقر .

(٣٣) حمص هُنا : إشبيلية .

(٣٤) الحيازيم جمع الحَيْزُوم : ما اكتنف الحُلقوم من جانب الصَّدر .

(٣٥) السُّرى : سير الليل ، وأنضاه : أهزله . والنكباء ، ريح شديدةٌ باردة .

(٣٦) العُناة جمع العاني : الأَسير . القِدّ : القَيْد .

(٣٧) السَّحْق : الثوب البالي .

(٣٨) لُدّ جمع لدود : لدّه : خصمه . والمصانع جمع مصنع من صنَع إليه معروفاً : أسداه .

وبيتٌ بنَـاهُ فـوقَ أَفئـدةِ العِـدا ... إذا حاوَلُوا أن يَظْهَرُوا مَجْدَهُ رُدُّوا

أَسـاطِيْنُ خُرْسٌ نـاطقـاتٌ بفَضْلِـهِ ... مُخَلَّـدةٌ والفضْـلُ آيَتُـهُ الخُلْـدُ[٣٩]

أقـامَتْ صُفوفـاً أَو صُفـونـاً كَـأنّهـا ... لِـزُوَّار بيتِ اللهِ تحرسُهمْ جُنْـدُ[٤٠]

وعَـذْبٌ إذَا مـا ذاقَـهُ ذُو كشـاحَـةٍ ... تجَرّعَــــهُ حَرّاً ومَــوْرِدُهُ بَرْدُ[٤١]

وإنّ الـذّي سَقّى العبـادَ لِـوَجْهِـهِ ... مليٌّ بسُقْيَـا من شرائعهـا الشَّهْـدُ

لِتَشْكُرْ دمشــقٌ نِعْمَـــةً يمنِيَّـــةً ... إلى الصِّيْدِ من حَيِّ المَعافرِ تعتَدُّ[٤٢]

وتندُبْ فتَاهـا النَّـدْبَ غَيْرَ مُـدافعٍ ... إذا ثَوَّبَ الداعُونَ أَو طلَعَ الرَّنْـدُ[٤٣]

وتعرفْ لـه معروفَـهُ الشـامُ كُلّهـا ... وإنْ جَحَدُوا فالشَّمْسُ ليسَ لَها جَحْدُ

لقَـدْ رَدّ صَرْفَ الـدَّهْرِ عَنْهُمْ مكانُـه ... فَبينهُم منـــهُ وَبَيْن الرّدى سَـــدُّ

فَقُلْ للـذي يَبْغي مسـاعِيَ مَجْـدِهِ ... عَجزْتَ ولم يُبْلَغْ نَصِيْفٌ ولا مُـدُّ[٤٤]

ويـا حـاسِـديْـهِ قـد قضى لِسَبيْلِـهِ ... فهلْ عِنْـدَكُم في نَيْلِ سؤدده «عِنْـدُ» ؟

أفيقُـوا من الـدَّاءِ العُضَـالِ وسَلِّمُـوا ... فمـا نـارُهُ إلا لكُمْ ولـه الـزَّنْـدُ[٤٥]

سَقى الله قَبْراً ضَمَّـهُ كُـلّ ضـاحِـكٍ ... مِنَ الْمُزْن يَحْدُو عَيْنَ بارِقِهِ الرَّعْدُ

---

(٣٩) أساطين جمع أُسطوانـة : وهي العمُود . يعني شهـادة هـذه الأسـاطين في المسـاجـد من تدريس العلوم والقيام بحقّ الله تعالى .

(٤٠) صُفون من صفَن الفَرسُ : قام على ثلاث قوائم ، وطرف حافِر الرابعة .

(٤١) الكشاحة من الكاشِحُ : البُغض .

(٤٢) إشارة إلى أصل المرثيّ . والمعافر حيٌّ مشهور من أهل اليمن .

(٤٣) النَّدْبُ : الخفيف في الحـاجـة الظريف النَّجيب . والتثويب : تثنيـة الـدُّعـاء . وطلع الرّند : كذا في الأَصل ـ وقد يسلم .

(٤٤) النَّصيف ، والُمدّ : مكيالان .

(٤٥) الداء العُضال : الغالِبُ (الذي يُعيي الأَطباء) . والزَّنْدُ : العُود الذي يُقْدَحُ بِهِ النَّار .

ولا بَرِحَتْـهُ رَوْضَــةٌ نَفَحَــاتُهــا كَما فُتَّ مِسْكٌ أَو كما حُرِقَ النَّـدُّ[٤٦]

ولا زالَ في فَرْحٍ ورَوْحٍ ورَحْمَـــةٍ ومنهـا لـهُ عَرْشٌ ومنهـا لـه مَهْـدُ

وشَبَّ على تِلْـكَ السِّيـادَةِ أَحْمَـدٌ وإنْ شبَّ في قَلْبِ العَدُوّ له حِقْدُ !

[٥٢/أ] فَصانَ الذي شادَتهُ آباؤه له وأغنى الذي أغنَوا وسَدَّ الذي سَدُّوا[٤٧]

ودانَتْ له الـدُّنيا ودامَتْ بـهِ العُلا وسـاعفَـهُ حَـظٌّ وسـاعـدَهُ جَـدُّ

ولاقـاهُ مـا أَولاهُ من كلِّ صـالحٍ لأَمثـالـهِ إنْ أَنْصَفوا يُـوضَعُ الْخَـدُّ

مـآثِرُ فـاتَتْ عَـدَّ كلِّ مُحصِّـلٍ وأَنَّى لها والرَّملُ من بعضها عَـدُّ ؟

ومنهـا جِبـالٌ راسيـاتٌ مُنيفَـةٌ ومنهـا بحـورٌ زاخراتٌ لهـا مَـدُّ

سـأبكيـكَ لا أني قضيتُ مَـذمَّـةً فحقُّكَ لا يُقضى ، ولكنّهُ جُهْدُ ![٤٨]

ومـــا عَبْرَتي من عبرةِ ابنِ مفرِّغٍ وقَد فَضَّها في غَيْرِ مَحْمـدَةٍ بُرْدُ ![٤٩]

ولكنْ كما تبكي لِصَخْرٍ تُماضِرٌ مَـدامِعُ تُجْرِيهـا الأُخـوَّةُ وَالـودُّ[٥٠]

---

(٤٦) النّدُّ : نوعٌ من الطِّيب ؛ أو هو العَنبر .

(٤٧) يُلمح هنا إلى قول الحطيئة في آل بغيض (ديوانه : ١٤٠) :

أقلّـــوا عليهم لا أبـــــا لأبيكم من اللّوم أو سُدُّوا المكان الذي سَدُّوا

(٤٨) المذمّة : الحرمة والحقّ .

(٤٩) ابن مفرّغ : هو أبو عثمان يزيد بن مفرّغ الحميري شاعر غزل ، مدّاح هجاء . من شعراء القرن الهجري الأول توفي سنة ٦٩ هـ . وجُمع الباقي من شعره في ديوان .

ـ و(بُرد)المذكور هو غلامه . كان باعه وندم ، فذكره في شعره ؛ ومنه(ديوانه : ٧٥) :

لامتنيَ النفسُ في بُرْدٍ فقلتُ لهـــا لا تهلكي إثر بُرْدٍ بعـــده كَـــدا !

(٥٠) تماضر هي الخنساء ، وخبر بكائها أخاها صخراً ، مشهور جداً . وأمثلته من ديوانها كثيرةٌ .

وله[☆] برّد اللهُ ضريحَهُ :

أطـالَ اللهُ بقـاءَ الفقيـهِ الأجـلّ ، قَـاضي الجمـاعـةِ الأَعظمِ الأفْضَـل ، والسّـابـقِ في المكرُمـاتِ الأوَّل ، قَريـعِ الشَّرفِ[١] وصَريـحِ النَّسبِ الأَشهرِ الأَعْرَف ، ووارثِ أَرفـعِ المجـدِ عن أَرفـعِ السَّلَف ؛ ومـآثِرُهُ سَمَرُ الأمجـاد ، ومُنتجَعُ الروّاد ، وزَادُ الرَّكبِ إذا ضُنَّ بـالـزّاد . ولا زالتِ الـدَّولَـةُ العَليّـةُ تُخاشِنُ[٢] بازورارِهِ واعتزامِه ، وتُحاسِنُ باستبشارِهِ وابتسامِه .

عاقَدْتُهُ ـ أيَّدهُ الله ـ على نيَّةٍ من العَوْدَةِ قَائِمـة ، ونَفْسٍ بمعـاليـهِ صَبَّـةٍ هائِمة ، ولقـد صَـدَدْتُ وأَنـا أَستطيلُ اللَّحظـةَ دُوْنَـه ، وأَرى وَافِـداً عَليـه فأَتمَنّى أَن أكُونَه ، وماظَننتُ ـ ومُقَلِّبِ القَلْبِ في الصَّـدْر ـ إلاّ أَنّي مُوافِيـه ليلةَ القَدْر ، فأَبْطأَ بي حِرْمانُ فضلِها ، وأَنّي لم أُكْتَبْ من أَهلِها ، وعـاقَتْني دُيونٌ لاتُؤَدَّى ، « إلا مادمتُ عليها قائِماً »[٣] ، وحولَها حَائِماً وهلُمَّ جَرّاً .

وقـد واليتُ الخفر مُستمرّاً ، فـواللهِ مـاتـأَتّى منهـا إلاّ الأَقـلّ ، ولـو أَنَّ السُّيـوفَ تُسَـلّ ، ومـا عـامَلْتُ إلاّ أعيـانـاً ، وَلا اختَرْتُ إلا ذِمَماً وافِيَـةً

[٦٤]

(☆) رسالة إلى قـاضي الجمـاعـة (؟) ـ وهو بمنزلـة قـاضي القضـاة في المشرق ـ وكان مركزهُ عادةً في مدينة قرطبة .

(١) القريع : السيد الرئيس .

(٢) وزاد الركب لقب لأبي أُميَّة (الاشتقَاق : ١٥٠) . وخاشنه : خلاف لاينه .

(٣) استفاد من الآية الكريمة من سورة آل عمران ٣/٧٥ وفيها ﴿ إلاّ مادُمْتَ عَلَيْهِ قائماً ﴾ .

وأدياناً ، ولكنَّ الرَّعيَّة بَدا انجعافُها[٤] ، واستَساغَ ضبابَ المَطْلِ مَنْ كانَ يعافُها ، وخلالَ ذَلكَ عنَّتْ إلى مالَقةَ[٥] ـ حَرَسَها اللهُ ـ وجهةٌ تكشَّفَتْ [٥٢/ب] في جانِبِهِ الرَّفيع عن أنصعِ صَفاء ، وأخلَصِ وَفاء ، وأعْطَرِ ثَناء ، وأتَمِّ استنفار ، وأعزِّ أنصار . ولَقَدْ حرّكْتُ من أذِمَّةِ السَّلف ـ رضي الله عنهم ـ حُواراً[٦] ، ابتدرَهُ القاضِيان الأجلَّان مُعَظّماه ـ أدامَ الله عزَّهما ـ ابتِداراً ، وجَعلاهُ مركَزاً ومَداراً ، ولم أُبالِ وقد تركتُهما صَديقاً ، ولم أترُكْ للوِشايَةِ بينكُمْ طريقاً ، مِمَّن لامَ أو عَذَر ، وورَدَ أو صَدَر ، وربّما وجدَ على الحالِ الأثَر ، ولو قد سقى اللهُ تلكَ الحضرةَ المطَر ، وبَشّر بسُقْياهُ ذلك البَشَر ، ونشرَ الخِصْبَ فنَشَر ، وأخذت الأرضُ زُخْرُفَها ولَبسَتْ رداءَهَا الأخْضَر ، لَنفرَتْ بي نحوَهُ الشَّهباء[٧] ، ولم تَسبِقني إليهِ الأنباء ، وأمّا والأرضُ أُجاج ، والجوُّ زُجاج ، والسَّحابُ نافِرة ، والنجومُ سافِرَة ،

---

(٤) انجعف ، مطاوعُ جَعَفَ ، بمعنى : قلب وقلع .

(٥) مالقة (Malaga) مدينة على الساحل (في الجنوب الشّرقي من الأندلس) ، وأحد مرافئ الأندلس الكبرى . وكان في مالقة دار صناعة كبيرة ، وكان مرفؤها مركزاً لحركة تجارية واسعة . واشتهرت بصناعاتها الغذائية . وبالخزف الرفيع وكانت منتجاتها تصل إلى أقصى البلدان الإسلامية . ولا يزال اسم الأواني الخزفية على ألسنة الناس في دمشق والغوطة : المالقي نسبة إليها . ونسب إلى مالقة عدد من العلماء .

(٦) الأذمة (جمع : ذمام) وهو العهد والحق والحرمة . وفي العبارة استفادة من المثل العربي (حَرّك لها حُوارها تحنّ) يُضرب مثلاً لإغاثة الملهوف بقضاء حاجته ليسكن . والناقة إذا سمعت رغاء حوارها سكنت . والحوار : ولد الناقة (من وقت ولادته إلى أن يُفطم) . (أمثال العسكري ١ : ١٠٠) .

(٧) الشهباء : الفرس (الشهباء) .

والأَسْعـارُ في كلِّ يـومٍ مسـافِرة ، ومـؤونَـةُ العِيَـال ـ ولا إعـدادَ ـ وافِرة ، فـــالتَّخفُّفَ التخفُّف ، والتَّخلُّفَ التَّخلُّف ، والله ـ حلَّت نُعماه ـ يكشفُ أزمَةَ البلاد ، ويُحقِّقُ عزمـةَ الوَبلِ المرْتـاد ، ويُرسِلُـه كأَفواهِ الجِراح والمزادِ بقُدرتِهِ ورَحمتِهِ .

[٦٥]

وَلَهُ(☆) رحمةُ اللهِ عَلَيْه

أَنـا ـ أطـالَ اللهُ بقـاءَه ـ وإنْ لم أستَجِرْ في ظُـلامتي بـالْمُلـوك ، فقـد هَتَفْتُ مِنــهُ بـالأُملـوك[١] ، وإذا وَافــاني ارتمــاضُــه[٢] ، وحَضَرني إنكارُه وٱمتِعاضُه ، فجُرْحُ الزَّمانِ جُبار ، ودَرُّ الجاني لَدرِّ حفيظَتِهِ أَغبار[٣] ، وأمَّـا ذلكَ السَّيّد الذي غَضِبْنا لِحُرمتِهِ أَن تُبَـاح ، ولسُؤْدَدِهِ أَن يُظلَمَ هـذا الظُّلمَ البَواح[٤] ، فما أَرى إلاَّ أَنّ اللهَ ـ سبحانَـهُ ـ قـد جَعلَـهُ في كِفـايَـةِ عصمتِـه ، وكفالَةِ ذِمَّتِه . وقد أَبْكَى ـ ولَهُ الحمدُ ـ عَيْنَ الْمُبادِرِ بنَغْيِه ، وأَيقَـظَ عُيونَ الحـوادثِ إليـه بمـا نـامَ عن رَعْيِـه . وآخر من شَكْلِـه حـطَّ عليـهِ للبغي

[٦٥]

(☆) رسالةٌ جوابية ، فيها إجمال الردّ على رسالتين اثنتين ، تتناول أموراً متعددّة .

(١) الأُملوك : اسم جمع لمالك .

(٢) ارتمض من كذا : اشتد عليه وأَقلقه .

(٣) الجُبار : الهـدر . والأغبـار جمع غُبر ، وهو الغُبَّر : بقيـة كل شيءٍ وآخره . وغلبت على بقية اللبن في الضَّرع .

(٤) البواح: الظاهر المكشوف .

صحيفَة ، وأَشعَرَ أَهلَهُ فَرَقاً وَخيفَة ؛ خَفِيَ فما كان يَدْري كيفَ يهتَدِي إليهِ مَوتُه ، « فَدلَّ عليهِ حَيّةَ البَحْرِ[٥] صَوْتُه » ، وأَصبَحَ اللهُ أَمامَ ساريه ، ومَنْ ذا يُسابقُ قدرَهُ أَو يباريه ، ﴿ فَتلَّه للجَبيْن ﴾[٦] وتركَهُ آيَةً للسَّائِلين . [٥٣/أ] واللهُ يَشُدُّ وثاقَهُ ، وَيجعلُ إلى غير لِقاءٍ فراقَهُ ، وأَرجو أَن القَدرَ يتقرَّاهم[٧] ، ويَقصِدُهم بما يُقصِدهُم[٨] ويتحرَّاهم .

ووصلَ الكتابانِ الخَطيرانِ وأَقاما أَوَدِي ، وشدَّا زندي في يَدي ، وإنِّي لأَرجو بعدَها أَنْ أُعَمَّر ، وأستأصِلَ ما شبَّ ذلكَ الباغي وثَمَّر .

وأمّا ذلك القُطْر ، فإذا تأخَّر عنهُ القَطْر ، وألظَّ[٩] به مَحْل ، فَحقُّه ألاَّ يُشَدَّ إليهِ رَحْل ، وإنَّ الخروجَ عنه لَفَرْضٌ والْمُقَامَ بهِ بَسْل[١٠] ، على أنَّ الجَدْبَ خيرٌ من الذّلّ ، وإنّ البَعْضَ لتَبَعٌ للكُلّ ، وسأتربَّصُ مُرتاداً ، وأَنتظرُ مِن فضلِ الله تعالى مُعْتاداً ، وأُصحِبُ[١١] في يَدِ القَدَرِ مُنقاداً مُقتاداً . وقد أدْرَجْتُ إلى حضرتِهِ نَفْثَةً حضَرتْ فيمن نضَّرَ اللهُ عِظامَه ، ونَسقَ في الفائزينَ نِظامَه .

---

(٥) قالوا : حية الأرض ، وحيّة الوادي ، للدّاهية . (وانظر ثمار القلوب : ٥١٧) .

(٦) ﴿ فَتلّه للجبين ﴾ : من الآية ١٠٣ من سورة الصّافات (٣٧) . واستفاد الكاتب في قوله (وآية للسائلين) من الأُسلوب القرآني من سورة يوسف .

(٧) تقرّاهم : قصدهم وتتبّعهم .

(٨) أقصده : أصابه .

(٩) لظّ بالمكان : لزمه ولم يفارقه .

(١٠) البسل : الحرام .

(١١) أصحبه : انقاد له واتبعه .

والله يُمتعني وجَميعَ أوليائِـه بِسُؤدَدِهِ وعَلائِـه ، ويقـذفُ في نَجْرانَ[١٢] بأَعدائِه ، لِيَذُوقوا العَيْشَ الأَحَرَّ ، والخِزْيَ الأَمرَّ ، بحولِ اللهِ تَعالى .

[٦٦]

وله[☆] رحمه الله ، إلى الوزير أبي محمَّد بن مالك ، رحمة الله عليه :

أَنفذتُ هذهِ الخدمةَ إلى حضرَةِ الوَزيرِ الأَجَلِّ ، السَّيِّدِ الأَعزِّ الأَفْضَل : مكَّنَ اللهُ شِفـاءَه ، ومَهَّـدَ عـلاءَه ، عشيَّ يـومِ السَّبتِ ، وكنتُ فـارقتُـهُ - لا فَارقَهُ العَيْشُ النَّاضر ، ولا خَلا من إجْمالِهِ البادِي والحـاضر - وفي عَيْنِ الشَّمسِ ازْوِرار ، ولـلأُنْسِ انْحِسـار ، ولِلنَّفْسِ ببُعـدِه وقـدِ اسْتَشْعَرَتْـهُ انكِسار ، فَـ :

جَفَتْ عَيْني عَنِ التَّغميضِ حتَّى ... كأَنَّ جُفُـونَهـا عَنْهـا قِصـارُ[١]

ومَعَ ذلكَ فلَقَدْ بتُّ وَحْشـاً ، أُطـارِدُ مِنَ الكَرَى وَحْشـاً[٢] ، إلى أَنْ تنـادَوْا

---

(١٢) نجران : في مخاليف اليمن من ناحية مكّة : مدينة معروفة . وفيها كان إحراق أَصحاب الأخدود .

(معجم ما استعجم ٤ : ١٢٩٨ ، معجم البلدان ٥ : ٢٦٦ الروض المعطار : ٥٧٣) .

[٦٦]

(☆) رسالة إلى صديقه أبي محمد بن مالك . وقد سبق التعريفُ به في القطعة : ٦٣

(١) البيت لبشّار من قصيدةٍ لـه في الفخر بمضر ، وانتصـارهم لخلفـاء بني أُميّـة (الـديـوان ٣ : ٢٤٧) .

(٢) وحشاً (الأولى) أي منفرداً ، وجعل الكَرى (وَحْشـاً) لما قـاسى من الأرق ، فـالنوم ينفرُ عنه كالوحش ! (ويُقال بات فلان وحشاً إذا بات جائعاً) .

للإدلاج ، ورُفِعَتْ ظُلَلُ الأَحْداج[٣] ، فما هُوَ إلاَّ أَنْ خَرَجنا عَنِ البُيوت ، وأَنا لا أُحَدِّثُ نفسي بالثُّبوت ، فاسْتَقْبَلَنا من تلقاءِ لوشة[٤] منزلنـا المتيَّم ، ومحلّنا المحمودِ غير الْمُـذَمَّم ، نَسيمٌ يُخْبِرُ عن أَعْـدَلِ هواء ، ويشـافِـهُ السّقيمَ بـأعجَلِ بُرءٍ وشِفـاء ، كأَنَّـهُ بِـوَصـايـاهُ خَبّ ، وعن كريم سَجـايـاهُ هَبّ ، فَطُوبى لِمَنْ عليهِ تَدَلَّى وانْصَبّ ، وبينَ جوانِحِـهِ الْمَحْرُورةِ دَبّ ، لا جَرَمَ أَنَّهُ للحياةِ وَسيلَة ، وَللبُرْءِ حيلَة . فَما زِلْنا [٥٣/ب] من أَنْفاسِـه بين نَضْرَةٍ ونَعيم ، ومُسَايِرَ مَلإٍ بـالنَّشـاطِ زَعيم ، وكلّما قُلْنَـا قَـدْ هَـدأَ اسْتَطـار ، ومتى تَخيَّلْنا أنَّه قد سكَنَ ثار . ولَمّا نَدّى الأَحْشـاءَ ، وذهَبَ من تبريـدِ الجوانحِ حيثُ شئْنا وَشاء ، عَمَدَ إلى المِعَدِ فَنقّاها ، وإلى الشَّهوات السّاقطة فأَنهَضَهـا ورَقّاها ، بما أَحْيَى من ميّتِ الهِمَم ، وجاذَبَنـا في كلِّ نجـدٍ وغَوْرٍ من فُضول الرّيـطِ[٥] واللِّمم ، فلم نَشْعُرْ إلاَّ ونحنُ بـوادي الْحَمَّـة[٦] ، فيـا لَـهُ من وادٍ

---

(٣) أدلج : سارَ ليلاً . والأحداج جمع حِدج : مركب (للنّساء) مثل الهودج والمحَفّة .

(٤) لوشة (بالإسبانية اليوم Loja) : مدينة بالأندلس بين إلبيرة وقرطبـة كانت معـدودة في أقـاليم إلبيرة . وهي في غربي غرنـاطـة على الطريـق المتـد إليهـا من إشبيليـة . واستمرّت مدينة أندلسية إسلامية إلى أن سقطت بعد جهاد طويل وكفاح مرير سنة ٨٩١ هـ .

(معجم البلدان ٥ : ٢٦ ، الرّوض المعطار : ٥١٣ ، الآثار الأندلسية الباقية ٢٣٥) .

(٥) الرَّيـط (جمع ريطـة ورائطـة) ، وهي الْمُلاءة كلهـا نسـجٌ واحـد وقطعـةٌ واحـدة . والريطة : كل ثوب ليّن .

(٦) الْحَمّـة ، ويُقـال فيهـا الحـامّـة (وهو تحريف عن الأصل) ، وهي بـالإسبـانيـة اليوم Alhama في الجنوب الغربي من غرناطة (على نحو ٤٠ كم) .

(الروض المعطار : ٧٩ ، مشاهدات لسان الدين : ٩٢ ورحلة ابن بطوطة « صادر » ٦٧٠ ، نهاية الأندلس : ٢٠١ ـ ٢٠٢) .

جلَّتْ أَوصافُه ، وتعذَّرَ عَلى القلَمِ إِنْصافُـه ، سَلَبَ العَـذارى وسْواسَ حَلْيِهـا صَفْصَافُـه ، وأَصفقَ بـالإجمـاعِ على سُؤددِهِ خِلافُـه[☆] ؛ فَنَزَلْنـا عن الأكْوارِ نَتَـدافَعُ ونَتَـدارى ، في رمْلٍ كأَوراكِ العَـذارى ، قـد حَجبَتْـهُ كُلُّ شـابكَـةِ الغُصـون ، ودَرَأَتِ الشَّمسَ عن ظِلِّـهِ الْمَصُـون ؛ فلم أَتمالَـكْ أَنْ أَلْصَقْتُ أحشـائي ببَرْدِه ، والْتَحَفْتُ مَليّـاً ببُرْدِه ، والنّسيمُ في تَوالي هبوبِـه ونظـامِ سَرْدِه ، فكأَنَّما أَوْحَى هُناكَ إلى المعِدَة ، وقالَ للشَّهوَةِ كُوني قائمَةً عَلى عِدَة ، فَمِلْنـا ـ واللهِ ـ على كلِّ رَطْبٍ وَيـابس ، ومُطْلَـقٍ وَحـابِس ، فلَمْ نَرَ ـ والْحَمْدُ للهِ ـ ضَيْراً ، ولَمْ نَتَعَرَّفْ إلاَّ خَيْراً .

ثُمَّ رُحْنا إلى أَبي مَثْوانا[٧] الكريم ، نَتراءَى غُرَّةَ وجهِهِ الوَسِيم ، ونَستدِلُّ عليـه بِهـدايـةِ النَّسيم ، الوزيرِ الجليلِ ، العريقِ في السِّيـادَةِ الأَصيل ، أبي محمَّـد ابنِ أُختِـهِ الْمُخْولِ الْمُعَمّ ، الْمُحتـوي على الفَضْـلِ الأَعَمّ . فَبَيْنـا نحنُ نُحدِّقُ إليهِ العُيون ، ونَرجُمُ في لقائِهِ الظُّنون[٨] ، إذ يسَّرهُ لنا الجدُّ فَلقينـاهُ كِفاحاً[٩] ، وشافَهَنا بهِ قَطْرُهُ الأَرِجُ بديهَةً وافْتِتاحاً ، فنزلْنـا في رِيـاضِـه ، على ماءٍ يشفُّ صفـاؤُه عن رَضْراضِـه[١٠] ، وكَيْفَ لا وريحُ نَجْـدٍ تصقلُـه ، ومن ثَغْبٍ[١١] حَصِبٍ إلى ثَغَبٍ تَنْقُلُه ، لم يَعْهَدْ قـذاةً ، ولا احتمل لشـارِبِـهِ

(☆) الخلاف : صنف من شجر الصفصاف ، وليس به (متن اللغة) .

(٧) أبو مثواه أي صاحب رحلِه الذي نزل به وضافه . يُقال : من أبو مثواك ؟ أي على من نزلت ؟ والمثوى : النُّزُل (الفندق) .

(٨) يقال رجَمَ بالظنّ ، ورَجَّم به . (يتعدّى إلى الباء ، لهذا المعنى) .

(٩) كفاحاً : مواجهة .

(١٠) الرضراض : الحصا الصغار في مجاري الماء .

(١١) الثغْبُ والثّغَبُ : أكثرُ ما بقي من الماء في بطن الوادي .

غِلاً ولا أَذاةً ، يعطي شارِبَهُ وراشِفَهُ بعد التَّمنُّع ، ويَغْنَى بطَبْعِ بردِهِ عن التَّطَبُّعِ والتَّصَنُّع ، يستأذنُ عليه النَّسيمُ فيرِد ، وينظرُ إليه فَيَبْتَرِد . فما للوزيرِ الأجلِّ ، عن مثلِ هذا المحَلِّ ، وهو يناديه : هلُمَّ عن الْحَرُور إلى الظِّلّ ، لوِ ٱستطاعَ [٥٤/أ] لَسَعَى إِلَيْهِ ، ومَثُلَ بين يَدَيْه ، وجَلا وجوهاً من مَصالح جسمِهِ ونفسِه علَيْه ، ولَمَحا تلكَ الهواجِر ونفَّسها ، أَو قلب إلى نَفَسِه الْخَصِر[١٢] نَفَسَها ، وأَلبَسَها من نضرتِهِ ماأَلْبَسَها ، فيا بُعْدَ ما بَيْنَ الهَواءَيْن ، وبَيتٌ برُكبة خَيْرٌ من عَشَرَةٍ بالشّام[١٣] بَلِ العَيْن . وحَسْبُه ـ أَيَّدهُ الله ـ أَن السَّفَر يُخْتَارُ وَهْوَ قِطْعَةٌ مِنَ العَذاب[١٤] ، علَى ذلكَ الْجَمْرِ الْمُذاب ، والصَّحراءِ ذاتِ البِساطِ العَريض ، على القُصورِ البيض ، ولله دَرُّ العرب في مُنتداها ، وإيثارِها على الْحَضر مَبْداها[١٥] ، حَيْثُ الهواءُ لا يُحتَوَى ، والرِّياحُ لا تُحجَبُ ولا تُلْوَى ، تَجُرُّ ذيولَها على الأَزهار ، وتفضُّ النَّدى على أَردِيَةِ الأَسْحار ، وتَمسَحُ بأَنفاسِها وُجوهَ الكواكبِ وَالأَقمار ، وتخلعُ بُرْدَ اللَّيل على النَّهار ، فَصلاحُها طَبيعٌ ، ومَصيفُها

---

(١٢) الْخَصِرُ : البارد .

(١٣) سُمّي بركبة أكثر من موضع . والمكان المشار إليه عند الكاتب هو موضعٌ بالطّائف (معجم مااستعجم ٢ : ٦٦٩) وفيه : روى مالك في (الموطأ) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لبيتٌ بركبة أحبُّ إليّ من عشرة أبياتٍ في الشّام .

(١٤) أورد العجلوني من الأحاديث المشهورة « السَّفر قطعة من العذاب » قال : رواه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً بزيادة « يمنع أحَدَكم طعامه وشرابه ونومه ، فإذا قضى نهمه فليعجّل إلى أهله » ١ : ٥٤٩

(١٥) المبدى (من البادية والتبدّي) خلافُ الْمَحْضَر .

رَبيعٌ . طَالعتُهُ ـ أيَّده الله ـ أشتَهيـه[16] ، ولا أملـكُ عِنْـدَ كلِّ طيِّبـةٍ فوقَ تمنِّيه ، والله يُقِرُّ عيونَ الأَولياءِ بإفراعِهِ[17] وتعلِّيه ، ويَحوطُ الدِّينَ والدُّنيا فيه ؛ وسأُخاطِبُه ـ بحَوْلِ الله ـ من كلِّ مَنْهَلٍ ، وأدعو اللهَ لَـهُ من كلِّ مَعْلَمٍ ومَجْهَل . وكانَ من رَأْيي أَن يُظَلّلَ على ذلكَ الصّهريج[18] بشِراعٍ ، وَيُلقى عَليـهِ دُونَ الشَّمسِ أَحصَفُ[19] قِنـاعٍ ، فتَنعكس النَّـدوَةُ عَلى النَّـدوَة[20] ، ويَحُولُ بينَ الشَّمسِ وارتشافِها ، ويمنَع من شَفِّهـا[21] وٱشتِفـافِهـا ، ثُمَّ يُرش الشّراع فتَهْطُـل سماؤه وتَرتَـدّ وقـد رطَّبَ الهـواءَ مـاؤُه ، ويـزاد في سعـةِ حُلقومِ ذلك الأَسَد ، حَتّى يرمي العَرينَ بالزَّبَـد . ومـا إِخـالُ هـذا اليَوْمَ عندَكم إلاّ راحاً ، وسيكونُ لغلق الهواءِ العَذْبِ عنوانـاً ومِفتـاحـاً ، إنْ شـاءَ الله .

قد أَطَلْتُ ومَطَلْتُ ، وأَطنَبْتُ ومـا أَطَبْتُ ، وإنّما هي نَفْثَـةُ مَقْرورٍ ، أَو لَوْعَةُ مَحْرورٍ ، أمامُهُ مالم يستقبلْكَ وَراء ، ومحلُّـه مـالَمْ تُظَلِّلْـهُ عَراء . أَمَا واللهِ مـاأَنصفَـكَ الإخوان ، ولا كُوفِئَ ذلـك الإحْسـانُ ، مـالَنَـا نصحُّ وتسْقَم ، وتَشْقَى ونَنْعَم ، ونُسِيـغُ[22] وتَغَصّ ، ونُعَمُّ بـالكَـلاءَةِ وبـالشِّكايـةِ

---

(١٦) في الأصل : أشهيه .

(١٧) الإفراعُ : الصعود والعُلُوّ .

(١٨) الصهريج : حوض كبير للماء .

(١٩) حَصُفَ الشَّيءُ : كان مُحكماً لا خلل فيه .

(٢٠) الندوة : الأكلةُ بين الشربتين .

(٢١) شفَّ الشاربُ الماءَ : تقصّى شربه ولم يُسئر منه شيئاً (لم يُبْق) .

(٢٢) في الأصل : نصيغ (بالصّاد) .

تُخَصّ ؟ أَستغفرُ الله ! ما [٥٤/ب] منهم إلاّ مَنْ يفديـك ، وعلى صِحَّتِـهِ يُعـديـك[٢٣] ، ولكنَّ اللهَ آثركَ بـالتَّمحيص [وراكَ أَوْلى][٢٤] بـالتَّهـذيب والتَّخليص ، وَهُوَ ـ جلَّ جلالُه ـ يمنُّ علينا فيك بِهبَّةٍ شـافِيَـة ، ويُعيـدُكَ إلى معهودِ العافِيَة ، بعزّتِهِ وقُدْرَته .

[٦٧]

وَلَهُ[☆] مكاتَبَةٌ عَمَّنْ كلَّفَهُ ذلكَ ، رَحِمَهُما اللهُ :

أطالَ اللهُ بقاءَ الْحُرّةِ العُلْيا ، وَالسَّيِّدةِ العُظْمى ، وحازَ لها في الدَّارَيْنِ المحلَّ الأَسْمى ، وَلا زَالَتْ تُسدي إحساناً وتُولي نُعْمى .

كَتَبَ عبدُها وقد نَفَذَ مِنَ العَهْدِ الْمُطاعِ في حمله ما نَفَـذ ، وَأَخَـذَ رَوْعُ الهجومِ والبَغتَةِ من نفسِهِ وعيالِهِ وضعفَـةِ أهلِـهِ وأَطفـالِـهِ مـا أَخَـذ ، فكأَنَّهُمْ ما عَرَفوا مع هـذا البُؤْسِ نَعيمـاً ، ولا عَهِـدوا إلاَّ ثكلاً دائمـاً وحزنـاً مُقيمـاً ، ومـا لي جُرْمٌ اقتَرَفْتُـه ، ولا ذَنْبٌ عَرَفْتُـه ، إلاّ الاجتهـادُ في النَّصيحَـة ، والْمُحافظةُ على الأَعمالِ الصَّحيحَة ، وَنَفْسٌ بما له ومـا لهـا ـ أيَّـدَهمـا الله ـ جِدُّ شَحيحَة ، وأشكُرُ عندَها القائدَ الأَجَلّ ، أَبا حَفْصٍ ـ أعزَّهُ اللهُ ـ فـإنَّـهُ

---

(٢٣) أعدى فلاناً على فلانٍ : نصره وأعانه وقوّاه .

(٢٤) بقي من الكلمتين بعض الحروف من أَدْنى ، ورمّمتُ الكلامَ بما يوافق البعض الباقي .

[٦٧]

(☆) رسالة على لسان مَنْ كلّفه ، في خطاب إحـدى سَيّـداتِ البيت اللَّمتوني . وكُنَّ يسعينَ في حاجَةِ النّاس ، ويقبلن الخِطاب منهم . وكان الخِطاب إليهنّ بلقب « الْحُرَّة » .

تَناوَلَ أَمْري تناوُلاً رَفيقاً ، وكانَ عليٌّ في هذهِ الحالِ حنينَ النَّفْسِ رقيقاً ، وقد نَظَر في حِسابي ، واْستبطَنَ[1] جميعَ أسبابي ، فلم يجد ـ بحمد الله ـ دركاً[2] يردُّه ، ولا شيئاً يَنْتَقِدُه أو يعُدُّه ، وكتابه يُنبئُ عن الحقيقَة ، ويخبرُ بمأخَذي في هَذِه الطَّريقَة ، ولَوْلا أنَّ لي في براءَةِ ساحتي سُلواناً ، ومِنْ حُسْنِ عهدِها وشَرَفِ رَأْيِها ـ أيَّدَها اللهُ ـ شُفَعاءَ صدقٍ وأَعواناً ، لَقَضَتِ الرَّوعَةُ عليَّ ، وتعبت نَفْسِي ـ مملوكَتُها ـ إليَّ ، وكيفَ لا تنصَدِعُ كبِدي وتَنْفَطِر ، وتَجْري عَبْرَتي فتُمْطِر ، وورائي قرابَةٌ وتَبَع ، وبُنَيّاتٌ كزُغْبِ القَطا[3] أَرْبَع ، وأُمَّهاتُ أَوْلادٍ ضُيَّع ؟ فإلى مَنْ يَشتكين بمظلَمَة ، وكاسِبُهُنَّ في قعْرٍ مُظْلِمَة[4] ؟ وبمَنْ يهتِفْنَ لنَصْر ، وكافِلُهُنَّ في قَبْضَةِ أَسْر ، وتحتَ قَصْرٍ في قَصْر[5] ؟ بَل أَكِلُهُنَّ ونَفْسِي إلى مَنْ أخرجَنا من الظُّلُماتِ إلى النُّور ، ونقلَنا إلى الظِّلِّ مِنَ الْحَرور[6] ، وشرَّفَني وإيّاهُنَّ بالإسلام ،

(١) استبطن أمره : عرف باطنه (حقيقته) .

(٢) الدَّرك : اسم مصدر من الإدراك ، والتبعة ، يقال : ما لحقك من دَرَكٍ فعليّ خَلاصُه ، ومنه (ضمانُ الدَّرَك) في الفقه .

(٣) كزغب القطا (كفراخ القَطا الصّغار ، الّتي ما تزال في الزغب قبل الريش . وهو من قول الشاعر (حطّان بن المعلّى) في الحماسة (١ : ٢٨٦) :

لولا بُنَيّاتٌ كَزُغْبِ القَطا ... رُدِدْنَ مِنْ بَعْضٍ إلى بَعْضِ
لكانَ لي مضطرَبٌ واسِعٌ ... في الأرضِ ذاتِ الطولِ والعَرْضِ

(٤) من قول الحطيئة (ديوانه : ٢٠٨) :

ألقيت كاسبهم في قعر مُظلمةٍ ... فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عُمَرُ!

(٥) يقال قصَره إذا حبسه .

(٦) الْحَرُور : الْحَرّ ؛ والريحُ الحارّة . وفي سورة فاطر / ٢١ : ﴿ وما يَسْتَوي الأعْمى والبَصِيْرُ ولا الظُّلُماتُ ولا النُّورُ ولا الظِّلُّ ولا الْحَرُورُ ﴾ .

وعرَّفني بمُلوكِـهِ السّـادَةِ الأَعلام ، وأَسْلَمَني إلى الأميرِ الأَجـلِّ الهُمَـام ، وإلى الملكَةِ التي حازَتْ فَخْرَ الأَيّام [٥٥/أ] وتـأَخَّرَ عنهـا مَنْ تقـدَّمَ وتـأخَّرَ مِنَ الكِرام . فعلى اللهِ تعالى أَتَّكِل ، ثُمَّ إلى مجـدِهـا أَكِلُ مَنْ أَكِل ؛ فكلُّهنّ لَهـا رِقّ ، وحقُّها فيهنَّ وعليهنَّ حَقّ . وقَد خِفْتُ على نَفْسي من عظيمِ المشقَّة ، وبَعيدِ الشُّقَّة ، وضعفِ جسمي ، وقلَّة جرمي[٧] ، فإنْ غَلَب حَـذَر ، ونَفَـذَ قَدَر ، فَإليها ـ أيَّدها اللهُ ـ النَّظَر ، وباللهِ ثُمَّ بهـا أَسْتَـدْفِعُ فيهِنَّ مـا أَخـافُ وأَحْذَر .

وَالرَّغبةُ في كُتُبٍ كريمةٍ تَصْحَبُني إلى أَوْليائها ـ أيَّدهم اللهُ ـ لِيكونوا إليَّ عزّاً ، وأَتَّخذُهم مَعْقِلاً مَنيعاً وحِرْزاً . وتأمُرُ لي ـ أَيَّدهـا اللهُ ـ بكتـابَيْنِ إلى فلانٍ وفلان ، فَلي إلَيْهِما سَبَبٌ كريم ، وانقطاعٌ قَـديم ، على أَنَّـهُ لا وَسيلَـةَ أَعْظَم ، ولا سِلْكَ أنظم ، منَ الاتِّصال بمَجْدِها ، والتمسُّـكِ بعَهْـدِهـا ، واللهُ يصنَعُ لها وَعَلى يَدَيْها في عَبْدِها ، بعزَّتِه وقُدْرَته .

[٦٨]

وَلَهُ[☆] يرثي قينَةً رحمةُ اللهِ عَلَيْها :

[من الطويل]

أَلا عُـجْ على مثـوى الْحَبيبِ وسلِّمِ وخَيِّمْ فَـــإنَّ الرَّكبَ غَيْرُ مُخيِّمِ

---

(٧) الجِرْمُ : الْجَسَدُ .

[٦٨]

(☆) لم أجد النصّ أو قطعة منه في مصدر آخر .

وقُـلْ للَّتي هـامَ الفـؤادُ بِحُبِّهـا ... ألا في سَبيـلِ اللهِ نَفْسُ المتيَّمِ!

ومـا بَعثَ الوجـدَ الـدّخيـلَ كمنزلٍ ... بـهِ من مَعـاني الـوَجْـدِ كلُّ مترجَمِ

وَمـا أَبصَرَتْ عيني محـلاً حَلَلْتِـهِ ... ولا مَعْهَـداً إلاَّ سفكْتُ بـهِ دَمي

ولم تُبـقِ لي تِلـكَ المنـازلُ عَبْرَةً ... عَلَى أنَّ قلبي في المـدامـعِ يَنْهَمي

وَمَـا جرَّ هـذا النَّـوحَ إلاَّ ترنُّمٌ ... يُقِرُّ لـهُ بـالفَضْـلِ كلُّ تَرَنُّمِ

وَفَتّـانَـةُ الأَلفـاظِ في نَغَماتِهـا ... من السُّكرِ ما في البـابليِّ الْمُحَرَّمِ[1]

فَيـا أيُّهـا العِلْـقُ الـذي قَـدْ سُلِبْتُـهُ ... مكانُـكَ من قَلْبي مَكانُـكَ فَـاْعْلَمِ

وَشَخْصُـكِ في عَيْني ونَشْرُكِ في يَـدي ... وَصَـوْتُـكِ في سَمْعي وَذِكراكِ في فَمي

ليهنِئْك أَنْ سرَّتْـكِ حـالٌ تسوؤُني: ... سُهـادي وإطراقي وفَرْطُ تـأَلُّمي

وحَسبُ الّتي تبكي بأَجفـانِ شـادِنٍ ... بـأَنِّي أُبَكِّيهـا بـأَجْفـانِ ضَيْغَمِ[2]

أُقـاسي سَـوادَ اللَّيـلِ غير مُـوَسَّـدٍ ... وأَلْقَى بيـاضَ الصُّبْحِ غَيْرَ مُهَـوِّمِ[3]

---

(١) بابل مدينة قديمة (بالعِراق) . وقال يـاقوت : « اسم نـاحيـة منهـا الكوفـة والحِلّـة ؛ يُنسب إليها السّحر والخمر » .

(معجم ما استعجم ١ : ٢١٨ ، معجم البلدان ١ : ٣٠٩ ، الروض المعطار : ٧٣) .

(٢) الضّيغم : الأسد (صفة) .

(٣) هَوّم : نام نوماً خفيفاً فهو مُهوّم .

[٦٩]

[٥٥/ب] وَلَهُ فيها : [من مجزوء الرَّمل]

مَنْ لِلَيْـــلٍ يَتَـــأَلّى أَنَّـــــــهُ لا يَتَجَلّى[1]

وَلِنَـــوْمٍ بِـــالثُّرَيَّـــا لَـــجَّ[2] [أَلاَّ يَتَـــدَلّى][3]

بِتُّ أَرْعـــاهـــا نُجـــومـــاً كَـــوُجـــوهِ الغيـــدِ تُجْلى

كُلَّما عُطِّـــــــلَ نَجْمٌ لاحَ لي نَجْمٌ مُحلّى[4]

أَيُّهـــا الْمَـــدْفـــون في التُّرْ.....بِ وَفي قَلْبِيَ أَوْلى

غَيْرُ إحســـانِـــكَ يُسْلي وَسِـــوى حُبِّـــكَ يَبْلى

إِنَّما دَهْرِيَ نَجْـــــوى بِـــكَ لاتَنْفَـــكُّ تُمْلى

وَأَمَرُّ العَيْشِ عِنْـــــدي مَـــعَ تَـــذكارِكَ أَحْلى

رَخُصَتْ نَفْسي وَكانَتْ من نفـــوسِ النّـــاسِ أَغْلى

أَيُّهـــا العـــاذِلُ عُـــوفيـــتَ فَعَيَّرْتَ الْمُبَلّى[5]

أَنْتَ ذو قَلْبٍ سَليمٍ فـــاحْمَـــدِ اللهَ وَإِلاَّ !..[6]

---

[٦٩]

(١) تألّى : اجتهد وحلف . ويتجلّى : ينكشف .

(٢) لج في الأمر : تمادى فيه وأبى الانصراف عنه .

(٣) لم يظهر من الكلمتين غير جزء يسير من أدناهما .

(٤) أصل العَطَلِ : خلو المرأة من الزينة وعكسُه : الْحَلْيُ . يقول : كلما غاب نجمٌ ظهر نجمٌ آخر لامعٌ (فعلامات الليل تتجدّد ، هو طويل) .

(٥) الْمُبَلّى اسم فاعل من بَلّى ، استعمله الكاتب الشاعر بمعنى (بَلاه) الثّلاثي .

(٦) هذا من التّعريض اللطيف : يريد : وإلاّ ابتُليتَ أيضاً !

[٧٠]

وَقَال(☆) يَرْثي الوَزيرَ أَبا مُحَمَّد بنَ مالِكٍ(☆☆) رَحِمَهُما الله ونَضَّرَ وُجُوهَهُما :

[من الكامل]

إنْ كُنْتَ تُشْفِقُ مِنْ نُزوحِ نَواهُ ... فَهُنَاكَ مَقْبَرُهُ وَذا مَثْواه

قَسِّمْ زَمانَكَ عَبْرَةً أَوْ عِبْرَةً ... وأَحِلْ تشوُّقَهُ على ذِكْراهُ

واْعْدُدْهُ ما امتدَّتْ حَياتُكَ غائِباً ... أَوْ عاتِباً إِنْ لم يَزُرْ زُرْناهُ[1]

أَو نائِماً غَلَبَتْ عليهِ رَقْدَةٌ ... لِمُسَهَّدٍ لم تَغْتَمِضْ عَيْناهُ

أَوْ لَفْظَ نادرةٍ تَوَلَّى خَطُّها ... وأَقامَ طيَّ صدورِنا مَعْناهُ

أَوْ عارِضاً حَدَتِ الشَّمالُ بمُزْنِهِ ... وَالأَرْضُ مُلْبَسَةٌ بُرودَ نَداهُ

أَوْ كوكَباً سَرَتِ الرِّكابُ بِنُورِهِ ... فَمَضى وَبلَّغَها المحلَّ سَناهُ

فمتى تبعَّدَ والنُّفوسُ تحبُّهُ ... ومتى تغيَّبَ والقُلوبُ تَراهُ

لَمْ أَدْرِ إلاَّ بَعْدَ يَوْمِكَ في الثَّرى ... أَنَّ الزَّمانَ وَأَهْلَهُ أَشْباهُ !

فَالعيدُ ليسَ بسَيِّدٍ لسِواهُ ... والعَبْدُ ليسَ يفوتُهُ مَوْلاهُ

يَا واحِداً عَدَلَ الجميعَ وأَصْلَحَتْ ... دُنْيا الجميعِ وَدينَهُمْ دُنْياهُ

---

[٧٠]

(☆) اختار لسان الدين في الإحاطة (٣ : ٥٢٦) من هذه القصيدة الأبيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ١١ ، ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ . ولم أُشر إلى اختلافات الرّواية لِمَا أَصاب نصّ الإحاطة من تصحيف وتحريف .

(☆☆) سبقت ترجمة أبي محمد بن مالك في القطعة (٦٣) .

(١) يشير إلى خبر يجعل الموت غياباً ، أو سفراً طويلاً .

وَتَخلَّـــدتْ آثـــارُهُ وتقيَّـــدَتْ بـــالرّغْمِ في إنْســـانِ مَنْ عـــاداهُ

الشَّامُ شامُـكَ في يَـدَيْـكَ زِمـامُـها وَمَنِ ٱدَّعى لَمْ تُلْتَفَتْ دَعْـــواهُ[١]

طَـالَتْ أذاتُـكَ بـالْحَيـاةِ كرامَــةً وَاللهُ يُكْرِمُ عَبْـــدَهُ بـــأَذاهُ

[٥٦/أ] حَتّى خَلَصْتَ مِنَ الـذُّنوبِ كَمُرْهَفٍ أَبْـدى الفِرَنْـد صقـالـه وَجَـلاهُ

فَهُنــاكَ وَافَتْــكَ المنيَّـــةُ سَمْحَـــةً نَـزْعَ الْكَريمِ عَنِ الْكَريم قَـــذاهُ

والـذِّهن صـافٍ والفُـؤادُ مُشَيَّعٌ[٢] لا تستفـزُّ يَـــدُ الْحِمامِ نُهـــاهُ

لِشهـادَةِ التَّـوْحيـدِ بَيْنَ لِسـانِـه وَجَنـــانِـــهِ نـورٌ يُرَى مَسْراهُ

وَبِـوَجْهِــهِ سِيمى[٣] أَغَرَّ مُحَجَّـلٍ مَهْما بَـــــدا لم تَلْتَبِس سِماهُ

وَكَـأَنَّـهُ[٤] هُـوَ في الْحَيـاةِ سكينَــةٌ لَـوْلا ٱهتزازٌ في النَّـدى يَغْشـاهُ

قـــد أَطرقَتْ بتفكّرٍ عَينـــاهُ وتقلَّصَتْ لتبسُّمٍ شَفَتـــــاهُ

وكأنّــهُ لَحَـظَ العفـاةَ[٥] تـوجُّعـاً فَتـلازَمَتْ فَـوْقَ الفُـؤادِ يَـــداهُ

أَتُراهُ وكَّـلَ بـالعـواقِبِ هَمَّـــهُ حَسْبُ الجوادِ الغَمْرِ نَيْلُ مَداهُ !

ولَقَدْ مَضى لكَ مشهَدٌ غَصَّت بِهِ الـ ..... أَرْضُ الفَضـــاءُ فَهـــالَهُمْ مرآهُ

أَبْـدى رِضـا الرَّحمنِ عَنْـكَ ثَنـاؤُهُمْ إنَّ الثَّنـــاءَ عَـلامـــةٌ لِرِضـــاهُ

كلٌّ قَـدِ ٱستَبَقَتْ عَلَيْـكَ دُمـوعُـه وَالـوَجْـدُ يـــأمُره ولا يَنْهـــاهُ

---

(١) يريد : لم يُلتفت إلى دعواه .

(٢) الفؤاد المشيّع : الشجاعُ الجريء .

(٣) السّيمى : العلامة ، يُعرفُ بها حال الإنسان في الخير والشرّ ؛ أصلُها السّومى ، قلبت الواو ياء .

(٤) في الإحاطة : وكأنّما .

(٥) العفاةُ جمع العافي : كل طالب معروف .

مـاذا الَّـذي شَغَـلَ القلـوبَ بـهِ وذا ‌ ‌ لا يرتجيـــه وَذاكَ لا يَخْشَـــاهُ
مـــــاذَاكَ إلاَّ أَنَّـــــهُ فرعٌ زكا ‌ ‌ وَسِـعَ الجميـعَ بظلِّـــه وَجَنـــاهُ
عنْـدي عَليـكَ وأَنْتَ مجـداً مـالِـكٌ ‌ ‌ حُـــزْنٌ يَهُـــدُّ مُتَمِّماً أَدْنـــاهُ[٦]
وَتَحـطُّ شَخْصَكَ في الضَّميرِ سَجيَّةٌ ‌ ‌ غَرَّاءُ تَـــأْتي البرَّ مِنْ مَـــأْتـــاهُ
وَخـلائـقٌ تَـأْبى القَبيـحَ وكلُّ مـا ‌ ‌ يعتنُّ[٧] من حَسَنٍ فـلا تَـــأْبـــاهُ
فَـــاليـومَ أَوْدى كلُّ مَنْ أحْبَبْتُـهُ ‌ ‌ ونعى إليَّ النَّفْسَ مَنْ أَنْعـــــاهُ
مـاذا يُـؤمِّـلُ في دِمَشْـقَ[٨] مُسَهَّـدُ ‌ ‌ قـد كُنْتَ نـاظِرَ جَفْنِـهِ وَكَراهُ
يعتـــادُ قبرَكَ للبُكا أسفـــاً بِها ‌ ‌ قَـدْ كان أَضحَكَـهُ الَّـذي أَبْكاهُ
يـاتُرْبَـةً حَـلَّ الـوَزيرُ ضَريْحَهـا ‌ ‌ سقَّـاكِ بَـلْ صلَّى عليـكِ اللهُ
[٥٦/ب] وَسَرى إليـكِ وَمنْـكِ ذكرٌ سـاطعٌ ‌ ‌ كالمسـكِ عـاطرةً بـهِ الأفـواهُ

---

(٦) هما مالك بن نويرة ومتّم أخوه . ولهما أخبارٌ . وكان مالـك قـد قُتِل في حرب الردّة ، فأكثر متّم من البكاء عليه ، ووجد عليه وَجْداً شديداً . وكان مالك ومتمم شاعرين .
(الأغـاني ١٥ : ٢٣٩ ، الشعر والشعراء : ٣٣٧ ، سمـط الـلآلي : ٨٧ ، التعـازي والمراثي : ١٣ ، وثمـار القلـوب : ٣٤٨) .
ـ وقول الشّاعر (مجداً) استدراكٌ لطيف .
(٧) اعتن له الشيءُ ، وعَنّ : ظهر أمامه واعترَض .
(٨) دمشق هنا : غرناطة ، فقد سُمّيت إلبيرة (وغرناطة كانت قديماً قرية تابعةً لها) بـاسم دمشق منذ أنزل أبو الخطّار الكلبي جند دمشق (من طالعة بلج) بها .

[٧١]

وله ـ رحمَهُ الله ـ خُطبةٌ في الشكرِ عَلى نُزولِ الغَيْثِ بعدَ اتّصالِ القَحْط[☆] :

الحمدُ للهِ الّذي لا يكشِفُ السّوءَ سِواه ، ولا يَدْعو المضْطَرُّ إلاّ إيّاه ، نُنْزِلُ فقرَنا بِغناه ، ونعوذُ مِنْ سخطِهِ برِضاه ونستغفِرُهُ لِذنوبِنا ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ﴾[١] .

وأَشهَدُ أَنْ لاَإلهَ إلاّ الله ، وَحْدَهُ لا شرِيْكَ لهُ إلَهاً عَلا وَٱقْتَدَر ، وأَوْرَدَ عبادَه وَأَصْدَر ، وَبَسَطَ الرِّزْقَ وقدَّر .

وأَشهَدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه الّذي بشَّرَ وأَنْذَر ، ورغَّبَ وحذَّر ، وغَلَّبَ البُشرى على الإقْناط[٢] ، ودَلَّ على الصِّراط ، وأَشارَ إلى السّاعَةِ بِالأَشْراط ، ولَمْ يألُ[٣] أمَّتَهُ في الذَّبِّ والاحْتِياط ، صَلّى اللهُ عليهِ وعلى الوُزراءِ الْخُلفاء ، وَالبَرَرَةِ الأَتقياء ، وَالأَشِدّاءِ الرُّحَماء ، والأَصحابِ الزُّعماء ، صلاةً تملأُ ما بينَ الأَرضِ والسَّماء ، وَتُوافيهم في كلِّ الأَوقاتِ والآناء ، وتَضَعُ الثَّناءَ مَواضِعَ الثَّناء .

---

[٧١]

(☆) هي خطبة منبريّة في شكر الله تعالى على نُزول الغيث .

(١) من الآية ١٣٥ من سورة آل عمران ٣

(٢) في سورة الْحِجر ٥٥/١٥ ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ القَانِطِينَ ﴾ .

(٣) لا يألو : لا يقصّر . والأشراط : أشراط السّاعة : علاماتُها .

ولَّما لقحَتْ حَرْبُ الْجَـدْب عَنْ حِيـال[٤] ، وأَشْفَـقَ رَبُّ الصَّريمَـةِ[٥] والعِيـال ، وَتَنـادى الْجيرانُ للتَّفَرُّقِ وَالـزّيـال[٦] ، وَتَنـاوَحَتْ في الْهُبـوبِ ريحـا الْجَنُوبِ وَالشَّمال ، وتراوَحَتْ[٧] على القُلـوب راحَتـا اليمين والشِّمال ، وأُحْضِرَتْ أنفُسُ الأغنياءِ الشّحَّ[٨] ، وَوَدّوا ألاَّ تنشأَ مُزْنَـةٌ ولا تسُحَّ ، وتوهَّمَ خـازِنُ البُرِّ ، أنَّ صـاعَـهُ يَعْـدِلُ صـاعَ الـدُّرِّ ، وخفَّتِ الأَزواد ، ومـاجَتِ الأَذْواد[٩] ، والتقَتِ الرُّوّاد ، وانتجعت العــازِبَ القَصِيّ[١٠] ، فـــألقَتِ العِصِيّ ، وصَـدَرَتْ بِحَسَراتِهـا ، وقـد أسلَمَتْ حَزراتِهـا[١١] ، وآضَتْ[١٢] كلُّ قُنَّةٍ فَرْعاء ، وهضبَةٍ دَرْعاء[١٣] ، صفاةً وَهَباء ، وَنُقْبـاً وهِنَـاء[١٤] ، والصُّبْحُ

(٤) من شعر للحـارث بن عبـاد (جـاهلي) في بعض خبر حرب البسوس (الأغاني ٥ : ٤٠) ، وذلك قوله :

قرّبـا مربـطَ النعـامـة منّي لقحت حربُ وائـلٍ عن حِيـالِ

(٥) في الأصل هكذا الصَّريمة . وأظن المقصود الصّرْمـة ، وهي القِطْعـةُ من الإبل والشـاء ، اخْتُلِفَ في قدرها بما لا يقلُّ عن العشر ولا يتجاوز الخمسين .

(٦) (زيال) أحد مصادر فعل : زال ، ومن معانيه : ذهب وبرَح .

(٧) تناوَحت الرياح : اشتدّ هبوبُها . وتراوحت : تعاقبت .

(٨) شَحَّ بالشيء (وعليه) ضنّ بـه وحرص عليـه . وفي سورة النسـاء ١٢٨/٤ ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ .

(٩) الأذواد جمع الذَّود : القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العَشر .

(١٠) العازب : البعيد النائي .

(١١) الحزرة من المال : خيارُه .

(١٢) آض : عَاد . وآض الشيءُ كذا : تحوّل إليه .

(١٣) الفرعاء : ذات الشَّعر الغزير ، والـدَّرعـاء من الشـاء مـا كانت سوداء المقـدّم . استعـار الكاتب الصفتين للقُنّة والهضبة ، ووصفها بالْخِصْب والنّبات (بجامع السَّواد) .

(١٤) النّقب : الْجَرَبُ ، والْهِناءُ : القطران .

في كلِّ أُفْقٍ قِطْرٌ أو قِطْع[15] ، والأَرضُ كلُّها سَيْفٌ ونِطْع[16] ، والسِّعْرُ يشمِّر ذيلَهُ للنّفاق ، ويُضَمِّر خَيْلَهُ للسِّباق ، وجاءَ الجِدُّ وراحَ الْهَزْل ، وقُلْنا : هذهِ الشِّدَّة هَذا الأَزْلُ[17] ولِلْمُرجفينَ في المدينةِ عَجاجَةٌ ظنُّوها لاتُلبّد[18] ، وقِسِيٌّ نَحْوَ الغُيوبِ تُعْطَفُ وَتُكَبَّد ، فَما يسقطُ السّائلُ منهم إلاَّ على نابٍ يحرُق[19] ، وشهابٌ [٥٧/أ] يبرُق ، حتى إذا عقَّدوا الأَيْمان[20] ، وأَخَذوا بزعمِهمُ الأَمان ، وَقالوا لا يُطْمَعُ في الغَيْث ، وزُحَلُ في اللَّيث[21] ، وأَيضاً فإذا فارَقَ الأسَدَ ، أكَّدَ ما أَفْسَدَ ،

تَخَرُّصاً وأَحاديثاً ملفَّقَةً ... لَيْسَتْ بنَبْعٍ إذا عُدَّتْ وَلا غَرَبِ[22]

أَنْشَأَ اللهُ العَنانَ[23] ، وَقالَ لهُ كُنْ فكان ، فبينما النُّجومُ دراريُّها الأَعلام ،

---

(١٥) لِلْقِطر والْقِطع مَعانٍ ؛ ومما يليقُ بالسياق : الْقِطْرُ : النُّحاسُ أو الذائبُ منه . والقِطْعُ : السهم العَريض .

(١٦) النّطع : بساط من الأديم (من الجلد) .

(١٧) الأزل : شدّةُ الزمان ، وضيق العيش .

(١٨) المرجفون جمع المرجف : الخائض في الأخبار السّيئة وذكر الفتن . وفي التنزيل العزيز ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ في الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴾ الأحزاب ٦٠/٣٣ . ويقال : لَبَّد عجاجته أي كَفَّ عَمّا هو فيه .

(١٩) حرق نابه أو أنيابه : حكّ بعضها ببعض حتى سَمِعَ لها صَريف (صوت) .

(٢٠) في سورة المائدة ٨٩/٥ : ﴿ وَلَكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ ﴾ .

(٢١) إذا دخل فصل الصّيف قطعت الشمس ثلاثة بروج هي السّرطان ، والأسد ، والسُّنبلة . (الأنواء لابن الأجدابي : ١٠٣) .

(٢٢) من قصيدة أبي تمام في فتح عَمُّورية (ديوانه ١ : ٤٢) .

(٢٣) العَنانُ : السحابُ .

وأَغفالُها[٢٤] الَّتي لا تُحْمَدُ عندهُمْ ولا تُلاَم ، قد اختَلطَ مَرْعيُّها بالْهَمَل[٢٥] ، ولم تَـدْرِ الشَّـاءُ بـالْحَمَل ، ولا عَلِمَ الجـديُ بـالرِّئْبـال[٢٦] ، ولا أَحَسَّ الثَّوْرُ بالرَّامي ذي النِّبال ، إِذ غَشِيَتْها ظُلَلُ الغَمام[٢٧] ، وحَجَبَتْها أَستارٌ كأَجنحـةِ الْحَمام ، أَخَذَت عَلَيْها في الطُّروق ، مصادرَ الغروبِ ومواردَ الشُّروق ، فما منهـا إلاَّ مقنَّعٌ بِنَصيف ، أَو مزمَّـلٌ في بجـاد[٢٨] حَصيف ، لم تُتْرَكْ لـه عَيْنٌ تطرف ولا نقبـةٌ تطَّلِـعُ منهـا أو تُشْرِف ، فبـاتت بين دِرَرٍ[٢٩] متـداركـةِ السُّقـوط ، ودُرَرٍ متنـاثِرَةِ السُّمـوط ، وَدِيَمٍ منحلَّـةِ الْخُيـوط ، وجُيـوشٍ مَنْصورَةِ الأَعْلام ، ثـابِتَـةِ الأَقْدام ، وكتـائبَ صـادقَـةِ الْهُجـوم ، صـائِبَـةِ الرُّجـوم[٣٠] ، تطلُبُ المحلَّ بين التُّخـومِ والنُّجـوم[٣١] ، ومـا زالَتْ ترميـهِ

---

(٢٤) الدَّراريُّ من الكواكب : المضيئة ، والأغفال جمع غُفل (عنى بها النُّجوم التي لا شأن لها في رأي العين) .

(٢٥) في أمثـالهم : (اختلـط المرعيُّ بـالْهَمَل) يُضرب في اختلاط الأمر . والْهَمَـل : المهملة التي لا راعي معها . (أمثال العسكري ١ : ١١٠) .

(٢٦) في الكلام توريةٌ ، والمقصود : بُرج الحمل ، وبرج الأسـد (سماه الرئبـال) ، والسِّماك : الرامح .

(٢٧) ظلل جمع ظُلّة : أول سحابة تُظِل .

(٢٨) النصيف : كل ما غَطّى الرأس من خمار أو عمامة . والبجاد : كساءٌ مخطّط .

(٢٩) الدِّررُ جمع الدرّة ؛ يقال : « للسَّحابِ درّةٌ » أي صَبٌّ .

(٣٠) الرجوم جمع الرَّجم . جعل المطر كالرَّجم لِلْمَحْل .

(٣١) التُّخوم : الفصل بين الأَرَضين من المعالم والْحُدود . النُّجوم جمع النجم وهو مـا ظَهر على وجه الأرض من النَّبات ممّا لا يقومُ على ساق . والنجوم أيضاً مـا نَجم من العُروق أيـام الربيع تُرى رؤوسها كالمسالّ تشق الأرضَ شقّاً .

بأَحجارِه ، وتَحْتَرِشُهُ في أَجْحارِه[٣٢] ، وتَغْزوهُ في عِقْرِ دارِه ، حتَّى عفَّت على آثارِه ، وأَخَذَت للسَّهْلِ والْحَزْنِ[٣٣] بِثارِه .

فياأيُّها الْمُؤمنُ بالْكَواكِب ، اُنظر إلى الدِّيَمِ السَّواكِب[٣٤] ، واسبَحْ في لُجَجِ سيولِها ، وارتَعْ في مَجرِّ ذُيولِها ، وسبِّحْ باسمِ ربِّكَ العظيمِ الَّذي « قَذَفَ بالحقِّ على الباطِل » ، وأَعادَ الْحَلْيَ إلى العاطل ، فبرودُ الظَّواهِرِ مُخْضَرَّة ، وثُغورُ الأَزاهِرِ مُفْتَرَّة ، ومَسرَّاتُ النُّفوسِ مُنتَشِرَة ، والدُّنيا ضاحكةٌ مُسْتَبْشِرَة ، وأَرواحُ الأَدْواحِ جائِلَة ، وأَعطافُ الأَغْصانِ مائِلَة ، وأَرْواقُ الأَوْراقِ[٣٥] تفصَّل ، وأَجنحة الظلال تُرَاش وتوصَّل ، وخُطَباء الطّيرِ تروي وتُحَبِّر ، وشُيوخُ مُحارِبَ تُهلِّل وتكبِّر[٣٦] ، وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ يخضَعُ لجبروتِه ، ويَشْهَدُ لملكوتِه ، وتلوح الحِكْمَةُ ما بَيْنَ منطِقِه وسُكوتِه ، [٥٧/ب] فأَمَّا الخطاطيفُ[٣٧] فَقَدْ سَبَقَ هاديها ، ونَطَقَ

---

(٣٢) يُقال احترش الضبّ من جُحره : إذا اصطاده .

(٣٣) الْحَزْن : عكس السَّهل .

(٣٤) كانت العرب في الجاهلية تنسب المطر إلى أنواء الكواكب ، يجعلون الغيث من فعلها (النهاية : نوأ) .

(٣٥) الأَرواق جمع روق ، وهو من كل شيء أوّله ومقدّمه .

(٣٦) شيوخ مُحارب : الضفادع :
ـ وقد ورد النهي عن قتل الضّفدع ، ورووا في الأَخبار أنّ نقيقها تَسْبيحٌ .
(حياة الحيوان الكبرى ٢ : ١٠٢ والمستطرف ٢ : ١٣٢) .

(٣٧) الخطاطيف جمع الْخُطّاف : السّنونو .
والهادي : المتقدّم من كلّ شيء .

شـاديهـا ، وتراجَعَ شُكراً للهِ بـاديهـا ، فَعشٌّ يُرَمّ ، وَلَبنَـةٌ إلى أُخرى تُضَمّ ، وشَعْثٌ يُلَمّ ، وبَدأَةٌ تُوَفّى وَتُتَمّ ، وكأنّهـا حنّت نَحْوَ الْمَشـاهِـد ، وسـابَقَتِ اللَّقالِقَ إلى الْمَعاهِد ، فضلّت اللّقالقُ بَعْدَها نزاعاً[٣٨] وسقَطت على آطامها أَوزاعـاً[٣٩] ، وأجـدَّتْ قَطـاعـاً[٤٠] ، وأجـابَتْ أَمراً من الخِصْب مُطـاعـاً ، وحازَتْ مِنَ الحدائِقِ والبَساتِينِ إقطاعاً ؛ وَسَيُغَرِّدُ في رَوْضَتِـهِ الْمُكّـاء[٤١] ، ويضحِكُه هذا الوابلُ البَكّاء ، وترومُه فلا تَلْحَقُـهُ ذُكاء[٤٢] ، نَجَتْ بِـه مِنَ الأفنـان النّـاعِمَـة قِـلاص[٤٣] ، وأحصَنَتْـهُ من الْخُضْرِ التُّبَّعِيَّـةِ دِلاص[٤٤] ، فـالـوَيْـلُ لأَهْـلِ الأَقـوالِ المنكَرَات ، والنَّيْـلُ لأَهْـلِ الشّـاءِ والْحُمُرات[٤٥]

---

(٣٨) نزع نِزاعاً ونزوعاً : حنّ واشتاق .

(٣٩) آطام جمع أُطُم : الحصن ، والبيت المرتفع .
ـ والأوزاع : الجماعات .

(٤٠) قطعت الطير قطاعاً (بفتح القاف وكسرها) وقُطوعاً : خرجت من بلاد البرد إلى بلاد الْحَرّ .

(٤١) الْمُكّاء : طائرٌ صغيرٌ يزقُو (يصوّت) في الرّياض ، وله صفيرٌ حَسن ، معدود في القَنابِر .

(٤٢) ذكاء : اسمُ علم للشمس .

(٤٣) قلاص جمع قلوص : وهي ـ لغة ـ الناقة الفتيّة . يريد أنّ الأفنان حفظت الْمُكّاء ، فكأنّها نَجت به إلى مكانٍ قصيّ .

(٤٤) الدلاص : الدروع الليّنة . والتبعيّة : نسبة إلى التبّع : الظِلّ .

(٤٥) الْحُمرات جمع الجمع لكلمة حمار . (الحمار الأهلي والوحشي) . وهو من قول الشاعر (اللّسان والتاج) :
إذا غَرّدَ الْمُكّاءُ في غير روضةٍ ... فويلٌ لأهل الشاء والحُمراتِ

الْمَرْعى وَالسّعدان[٤٦] ، وأرض بكواكِبِ النَّوْرِ تَزْدان[٤٧] ، وبقاعٌ تَدِيْنُ الغَيْثَ كما تُدان[٤٨] .

أَذْكَرَها فذكَرَتْ ، وشكِرَتْ من أخلافِهِ فَشَكَرَتْ[٤٩] ، وعرَّفَها وما أَنْكَرَتْ ، كأنَّما أعداها من أُمِّ خارِجَة[٥٠] نَسَبٌ أو مِلْحٌ[٥١] ، قالَ لها : خِطْبٌ فقالت : نِكْحٌ ، فمثلت الأزاهِرُ بسَبيلِه ، وثبتَتْ في مَسِيلِه ، ونبتَتْ كاللَّحظةِ في شَطَّي خميلِه .

فمن نَرْجسٍ تَرْنو الرَّوابي بأَحْداقِه ، وتستعيْرُ الشَّمْسُ بهجَةَ إشْراقِه ، ويودُّ الْمِسْكُ نَفْحَةَ ٱنْتِشاقِه ، ويحسُدُ السُّنْدُسُ خُضْرَةَ ساقِه ، ويتمنَّاهُ الْحَمامُ بَدَلاً مِنْ أَطواقِه ، كُحْلُهُ ندًى يَتَرَقْرَق ، وَنَوْمُه أن لا يزالُ يُؤرَّق ،

---

(٤٦) السَّعْدان : شوك إذا أكلته الإبل غزرت عليه أكثر مما تغزر على غيره من المرعى . وفي أمثالهم : « مرعًى ولا كالسَّعْدان ! » ـ أمثال العسكري ٢ : ٢٤٢

(٤٧) الكواكب جمع كوكب ، وهو من الروضة : نَوْرُها .

(٤٨) في أمثال العرب : « كما تدين تدان » . أمثال العسكري ٢ : ١٦٨ ، وقارن بالنهاية لابن الأثير ٢ : ١٤٨

(٤٩) الأخلاف جمع الخِلف : ضرع النّاقة وكلّ ذات خفّ وظلف . وشَكِرت (بكسر الكاف) الناقة : أصابت مرعًى فسمنت عليه ، وشكِرَت الحلائبُ : امتلأت ضروعُها . والكلام على التمثيل والاستعارة .

(٥٠) أم خارجة هي عمرة بنت سعد ؛ ويُضرب (نكاح أم خارجة) مَثلاً في السُّرعة . كان يأتيها الخاطب فيقول : خطب فتقول : نِكْح ! (أمثال العسكري ١ : ٥٢٩ ، وثمار القلوب : ٣٣١) .

(٥١) المِلح : الْحُرمَة والذّمام .

وَمِنْ عَرارٍ[٥٢] بَنى مطـالِعَـهُ عَلى غِرار ، وكَلِفَتْ بـه السَّوارِي والغَـوادِي[٥٣] كَلَفَ عَمْرٍو بعِرار[٥٤] ، فجـاءَ كَسَـوالِفِ الغيـد ترِفُّ ، وكَـوَمِيضِ الثُّغـورِ يَعْبَقُ ويشِفُّ .

وَمِنْ أُقحوانٍ حُـذِي[٥٥] على الثَّنـايـا الغُرّ ، وسُبِـكَ مِنْ نـاصعِ الـدُّر ، يُقبِّلُـه النَّسيمُ فَيَعْبَق ، ويُصْبَحُ الْجَوُّ بمـاءِ نَضْرَتِـهِ وَيُغْبَـق[٥٦] ، ويَسْتَقْبِلُـهُ ناظرُ الشَّمْسِ فيشْرَقُ .

ومن بَنَفْسَجٍ كأطواقِ الـوُرْق ، أَوْ كاليـواقيتِ الـزُّرْق ، تَشَرَّفَ بـأَبـدع الخَلْـق ، وتـأَلَّفَ مِنَ الغَسَـقِ وَالفَلَـق ، تَلْحَظُـكَ من بَيْنِ أوراقِـهِ [٥٨/أ] نواظرُ دُعْجٌ بالأَجْفـانِ وُقِيَتْ ، وبـدُموعِ الكُحْلِ سُقِيَتْ ، نسيمُـهُ أَلْيَنُ مِنَ

---

(٥٢) العَرار : نباتٌ طيب الرائحة .

(٥٣) السواري جمع سارية والغوادي جمع غادية (السحابة تنشأُ ليلاً ، أَوْ صباحاً) .

(٥٤) عمرو هنا هو عمرو بن شأس الأسدي : شاعر مخضرم أدرك الإسلام وهو شيخ كبير ، وله صحبة ، يُكنى أبا عِرار ؛ وهو القائل فيه (ديوانه : ٧٠) .

أرادتْ عِراراً بـالهـوانِ ومن يُرِدْ ... عراراً لعَمري بـالْهَـوانِ فَقَـد ظَلَمْ

فـإنّ عِراراً إن يكن غيرَ واضِـحٍ ... فـإني أُحبّ الْجَـوْنَ ذا المنكب العمم

وكان عِرار ولـده من امرأة سوداء . وكانت زوجـة أُخرى لعمرو تعيّره بـه وتـؤذي عِراراً ، فقال في ذلك قصيدة منها هذان البيتان .

ـ وانظر أمثال العسكري ٢ : ١٨٧

(٥٥) حُذي : أي قُطِعَ وقُـدّر على مثـال . والعربُ تُشبّـه الثغر بـالأُقحوان . وقـد يعكسون التَّشبيه .

(٥٦) يُصبح (من الصبوح ، شراب الصباح) . ويُغبَقُ (من الغَبُوق : شراب المساء) .

الحَرير ، ونَفَسُهُ أَعْطَرُ مِنَ العَبير ، يفاخِرُ بهِ كانونُ البَرْد ، مُفَاخَرَةُ نيسانَ بالوَرْد .

وكلُّ رَبْوَةٍ قد « أَخَذَتْ زُخْرفَها وازَّيّنَتْ » من آياتِ اللهِ مابَيَّنَتْ ، كما تتـوَّجَ في إيـوانـه كِسْرى ، واستقبَلَتْـهُ وفـودُهُ تَتْرى ، وٱنقَلَبَتْ عَنْ حُسْنِ ناديهِ النَّواظِرُ حَسْرى[57] وكلُّ تَلْعَـةٍ مَـذَانِبُ نصوهـا تُسَـلّ[58] ، ومضـاربُ لا يُثْنَى غَرْبُها ولا يُفَلّ ، وأَراقِمُ[59] تَنْسـاب ، ولُجَيْنٌ يُـذالُ وَيُـذاب[60] ، على حَـافـاتِهـا نُجـومٌ من النَّـوْر مُشْتَبكَـة ، وجُيـوب على لَبَّـاتِ الغَـواني مُنْهَتِكَة .

فلَوْ أَفْصَحَت الظُّهور والبُطونُ ، وَنَطَقَتِ السُّهولُ والحُزون ، لَقالَتْ : ﴿ قُتِـلَ الخَرّاصُـونَ[61] الَّـذينَ هُمْ في غَمْرَةٍ سـاهُـوُن ﴾[62] فشُكراً لربِّنـا شُكراً ، وسُحقاً للَّذين بدَّلوا نِعمتَهُ كُفْراً[63] .

---

(٥٧) يقـال : حسَر البَصر : أعيي وتعب . وفي سـورة المُلـك ٤/٦٧ ﴿ يَنْقَلِبْ إليـكَ البَصَرُ خاسِئاً وهو حَسِيرٌ ﴾ .

(٥٨) التَّلعَـةُ : مسيـل المـاء من أعلى إلى أسفـل . والمَـذانب جمع مِـذْنَب : مسيـلُ المـاء إلى الأرض .

(٥٩) أراقِم جمع أَرقِم (ثعبان) يشبّه به عادةً مسيل الماء .

(٦٠) يُشبَّه الماءُ الصافي بالفضة (اللُّجين) .

(٦١) الخرّاصون : الكذّابون .

(٦٢) سورة الذّاريات ١٠/٥١ ـ ١١

(٦٣) استفاد الكاتب من الآية الكريمة ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّـذِيْنَ بَـدَّلُوا نِعْمَـةَ اللهِ كُفْراً ﴾ إبراهيم ٢٨/١٤

اللّهمَّ بارىءَ النَّسَم ، ودارِئَ القِسَم[٦٤] ، وناشِرَ الرَّحمةِ والنِّعَم ، ومُنْزِلَ الدِّيَم ، وباعِثَ الرِّمَم ، ومحيِيَ الأُمَم ، فإنّا نؤمِنُ بقَدَرِكَ خيرِه وشرِّه ، ونطوي غيبَكَ على غَرِّه[٦٥] ، ولا نتعرَّضُ لِنَشْره ، حتى تأذَنَ بنَشْره ، ونعتَقِدُ ربوبيَّتَكَ كلَّ الاعتِقاد ، ونبرأُ إليكَ من أهلِ المروقِ والإلحاد ، ونَسْتزيدُكَ من مصالِحِ العِباد ، ومنافِعِ البِلاد . رِزْقُنَا لَدَيْك ، ونَواصينا بيَدَيْك ، وتوكُّلُنا علَيْك ، وتوجُّهُنا إلَيْكَ . لا نُشْرِكُ في غَيْبِكَ أَحَداً ، ولا يَجِدُ عَبْدٌ من دُونِكَ مُلْتَحَداً[٦٦] ، تبارَكْتَ وتعالَيْت ، وأَمَتَّ الحيَّ وأحيَيْتَ المَيْت ، لا هادِيَ لِمَنْ أَضْلَلْتَ ولا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْت ، فاكْفِنا فيمَنْ كَفيت ، وتولنا فيمَنْ تولَّيْت ،إنَّك تَقْضي ولا يُقْضى عَلَيْك .

وتقرأُ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ الآية »[٦٧] .

---

(٦٤) دَرأَ الشّيءَ : دفعه .

(٦٥) الغَرُّ : كل كسرٍ متثنٍّ في ثوب أو جلد .

(٦٦) المُلْتَحد اسم مكان بمعنى ملجأ . وفي سورة الكهف ٢٧/١٨ : ﴿ وَلَنْ تَجِدَ من دُونِه مُلْتَحداً ﴾ .

(٦٧) سورة الحجر ٦٣/٢٢ . وتمام الآية الكريمة : ﴿ إنَّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ ﴾ .

[٧٢]

ولَهُ مَرْثِيَّةٌ(☆) في الْمُقْرِئ أَبي الْحَسنِ بنِ دُرِّي(☆☆) :

[من الطّويل]

١ عِتابٌ ومـا يُغني العتـابُ على الزَّمَنْ وشَكوى كما تَشْكو القِداحُ إلى السَّفَنْ(١)

٢ ومـا رَضيَتْ بعـدَ الغضـارَةِ أيكَـةٌ بِنَحْتٍ ولكنْ عـالَمُ الْكَـوْنِ مُمتَحَنْ(٢)

٣ [٥٨/ب] ولو أعفَتِ الأيّـامُ قِـدْحَ ابنِ مقبـلٍ لمـا اختـار كفّـاً تطَّبيـهِ على الفنَنْ(٣)

---

[٧٢]

(☆) نقل لسان الدين في ترجمة أبي الحسن بن دُرّي من القصيدة الأَبيات ١ ، ٢ ، ٨ ـ ١٦ ، ١٨ ، ٢٣ ـ ٢٥ ، ٣٧ ـ ٥٣ .

(☆☆) أبو الحسن علي بن محمد بن درّي ، مقرئ فقيه خطيب أديب ، من أهل طليطلة ، سكن سبتة وانتقل إلى غرناطة وخَطب بجامعها ، وروى الحديث ، ونقل عنه أيضاً ؛ وأقرأ القُرآن الكريم . قال فيه لسان الدين (الإحاطة ٤ : ١٠٢) : « كان من خيار الناس وفضلائهم ، وأهل المعرفة منهم » ووصفه بالخلق الكريم والعطف على المساكين والمشي للإصلاح بين النّاس . وكانت وفاته بغرناطة سنة ٥٢٠ هـ .

(بغية الملتمس ٤٠١ ، المعجم في شيوخ الصَّدفي : ٢٧٣ ، الغُنية : ٢٢٧ ، الإحاطة ٤ : ١٠٣) .

(١) القِداح جمع القِدْح : قطعة من الخشب تُسوّى بآلة حادّة ، وتخطّ فيها حُزوز مميّزة ؛ وكان القدح يُستعمل في الميسر . والسَّفن : كل ما يُنحَتُ به الشيءُ من فأس أو قدوم أو غيرها .

(٢) الغضارة : النَّضارة .

(٣) قِدْحُ ابن مُقبل يُضربُ مثلاً في حُسْنِ الأثر ، وقد قال فيه (ديوانه : ٢٨ ـ ٢٩)

غـدَا وهـو مجـدولٌ فراحَ كأنـه من الصـكِّ والتقليب في الكفِّ أفطَحُ =

٤ ومـا عــزَّ هــذا النَّبْـعُ إلاّ لِـذِلَّـةٍ   تُغــادِرُهُ في راحــةِ العين يُمْتَهَنْ[٤]

٥ ومـا أُلْبِسَ الرِّيشَ اللُّؤامَ كرامَـةً   وكم بــزَّةٍ كانَتْ لِـلاَبِسِهـــا كَفَنْ[٥]

٦ وقَـدْ كانَ مسُّ الرِّيحِ أخفى بِعِطْفِـهِ   مِنَ الـوَتَرِ الجـافي إذا عــزّهُ أَرَنّ[٦]

٧ ولِلْغَرَبِ الخــوَّارِ عيصٌ مــؤَشَّبٌ   يُصانُ بمـا فيـهِ ابتـذالٌ لمن فَطَنْ[٧]

٨ وَمـاذا عليـهِ والسَّلامَـةُ حظُّـهُ   بـأَنْ تتخطَّــاهُ النَّـوائِبُ والمِحَنْ

٩ فَلَيْتَ كريمـاً يُنعشُ النـاسَ خيرُهُ   يعمَّرُ فينـا عُمْرَ ثهلانَ أَو حَضَنْ[٨]

١٠ ولكنَّـهُ يَمضي كَظِـلِّ غمـامـةٍ   وَيبقى لئيمٌ شرُّه غَيْرُ مُــــؤْتَمَنْ

١١ « يودُّ الفَتى طولَ البَقـاءِ » وطولُـهُ   يُـوَرِّثُـهُ ثكْـلَ الأَحبَّـةِ والبَـدَنْ

١٢ وأيُّ ٱغتبــاطٍ في حَيـاةِ مُرَزَّإٍ   يروحُ على بَثٍّ وَيَغْـدو عَلَى شَجَنْ[٩]

= خَروجٌ من الغُمّى إذا صُــكَّ صكّــةً   بـــدا والعيــونُ المستكفّـــةُ تلمــحُ

(الصكّ : الضَّربُ بالقِداح . الأفطح : العريض . الغُمّى : الشدّةُ والضِّيقُ . العيونُ المستكفّة : الناظرةُ إليه وإلى غيره من القِداح) (وانظر ثمار القلوب : ٢١٨ وأمثال العسكري ٢ : ١٢٠) وتطّبيه : تدعوه وتستميله .

(٤) النَّبع : شجرٌ تتّخذ منه القِسيّ والسِّهام .

(٥) الريش اللُّؤامُ : ريش السهم الملتئمة (هي التي يلي بطن الريشة منها ظهر الأُخرى) .

(٦) أرنّ : صوّت وصاح .

(٧) الغَرَبُ : نــوعٌ من الشجر تســوّى منـــه السِّهـــام . العيص : الشجر الكثير الملتفّ ، والمؤشّبُ : المجتمع .

(٨) ثهلان : جبل باليمن ، وقيل بـالعـاليـة . والعرب تضربُ المثـل بهـذا الجبـل في الثقـل فتقول : « أثقل من ثهلان » .

ـ معجم ما استعجم ١ : ٣٤٧ ، ياقوت (ثهلان) ، والهمداني : ١٤٦ ، والروض المعطار : ١٥١ ـ

(٩) المرزّأ : الرجل يصيبُ الموتُ خيارَ أهله .

١٣ زِيادَتُهُ نقصٌ وجِدَّتُهُ بِلًى ... وراحَتُه كَرْبٌ وهُدْنَتُهُ دَخَنْ[١٠]

١٤ إذا فُوِّقَ السَّهمُ الْمُصيبُ فقَلْبُهُ ... ومَنْ صانَ فيهِ مِنْ أعزّتِهِ مِجَنْ[١١]

١٥ فَيا عجباً لِلْمَرءِ يَلتذُّ عيشَةً ... مُنْغَّصةً لُزَّتْ معَ الْمَوْتِ في قَرَنْ[١٢]

١٦ أرى كلَّ حيٍّ للمنيَّةِ حامِلاً ... فيا وَيْحَهُ مِمَّا تحمَّلَ واْحتَضَنْ

١٧ وإنَّ الفتى تِرْبُ الحوادثِ ناشئاً ... وكهلاً ولكنَّ الشَّقيَّ مَنِ اْستَشَنْ[١٣]

١٨ إذا زادَتِ الأيَّامُ فينا إساءةً ... نزيدُ على عِلْمٍ بِها ساءَ حُسْنَ ظَنْ

١٩ ونُلدَغُ من جُحْرٍ مِراراً فَنَغْتَري ... كأَنَّ لُعابَ القاتِلاتِ سَقيطُ مَنّ[١٤]

٢٠ ولو دَرتِ الأَنعامُ وَهْيَ رَوَاتِعٌ ... مِنَ المَوْتِ ما ندري لَمَا رأَتِ السِّمَنْ

٢١ فكيفَ على ذا الخَطْبِ نامَتْ عُيونُنا

وأَيْسَرُهُ ذادَ القَطاةَ عَنِ الوَسَنْ

٢٢ وأَوْدَعَ حيّاتِ اللِّصابِ لصابَها ... ورفَّعَ سِرْبَ العُصْمِ فَوْقَ ذرى القُنَنْ[١٥]

٢٣ وَلَمْ أَرَ مثلَ المَوْتِ حقّاً كَباطِلٍ ... وكلٌّ - فَيالله - بالموتِ مُرْتَهَنْ

٢٤ [٥٩/أ] أإخوانَنا والحَشْرُ أدنى لقائِكُم ... سلامٌ، تقدَّمْتُمْ ونحنُ على السَّنَنْ

---

(١٠) هدنةٌ على دخَن : صلحٌ على فسادٍ باطن . وقوله « زيادة نقص » معنىً مشهور .

(١١) فوّق السهمَ : جعَل الوتَر في فُوقِه عند الرَّمي .

(١٢) لُزَّ : قُرِن .

(١٣) استشن الرجل : هَزُل .

(١٤) في الأثر : « لا يلدغ المؤمن من جُحر مرّتين » .اغترى وزن افتعل من الإغراء . السقيط : الساقط (كالنَّدى) المَنّ : - كما في الوسيط - مادة راتنجيّة صمغية حلوة تفرزها بعض الأشجار كالأثل .

(١٥) اللصاب جمع لصب : كل مضيق في الجبل أو الوادي . والعُصم جمع الأعصم (من الظباء والوعول : ما في ذراعيه أو في إحداهما بياض) .

٢٥ أإخـوانَنـا لَمْ يَبْـقَ إلا تحيَـةٌ أزورُ بهـا تلـكَ المعـاهِـدَ والـدِّمَنْ

٢٦ أإخـوانَنـا هـل تسمَعُـونَ تحيَّتي ودونَكُمُ مـا يَحْجُبُ السِّرَّ والعَلَنْ

٢٧ فيا كبـدي مـاذا جَزيتِ ابنَ مـالِـكٍ[١٦]

ويـا عَبْرَتي مـاذا قَريْتِ أبـا الحَسَنْ ؟

٢٨ خليلا صَفـاءٍ في دِمَشْقَ تتـابعـا[١٧] على فترةٍ لم أخْـلُ فيهـا من الحَـزَنْ

٢٩ أَسَوْتُ بهذا جُرْحَ هـذا تعلُّلاً[١٨] وخادَعْتُ هذا القلبَ عن خيرِ ذي يَمَنْ

٣٠ فأفردَني بالعِبءِ والعِبْءُ فـادِحٌ وأسلَمَني للدَّهْرِ والـدَّهرُ ذو أَرَنْ[١٩]

٣١ وَلَـوْ فَقَـدَتْ رَضْـوى[٢٠] الـذين فَقَـدْتُهُمْ

أراحَ تـداعيهـا أُنـاسـاً من الظِّنَنْ[٢١]

٣٢ فَمَنْ مُسْعِدي في مُسْعِـدي غَيْرَ مؤْتَلٍ[٢٢]

وَمَنْ مُنْصِفي في مُنْصِفي ؟ لا أخـالُ مَنْ !

٣٣ وكانَ غياثَ النّاسِ في كلِّ شدَّةٍ وفرحـةَ مَنْ أوْفى وتَرْحـةَ مَنْ ظَعَنْ[٢٣]

٣٤ فكَمْ لهُما من مَكْرُمـاتٍ مَـواثِـلٍ وكم مِنْ أيـادٍ خـالـداتٍ ومِنْ مِنَنْ

---

(١٦) سبقت ترجمته في القطعة (٦٣) ، وكانت وفاة أبي محمد بن مالك سنة ٥١٨ .

(١٧) دمشق هي غرناطة ؛ وتعرف بدمشق الأندلس .

(١٨) أسا الجرحَ يأسوه : داواه .

(١٩) أرِنَ أرناً : نشط ومرح وبطر .

(٢٠) رضوى : جَبل (على تسع مراحل) من المدينة المنورة .

(٢١) الظِّنَن جمع ظِنّة : التّهمة .

(٢٢) أسعد فلاناً : أعانه . ومؤتل : اسم فاعل من ائتلى ومعناه : فَتَر وضَعُف .

(٢٣) أوفى على المكان وفيه : أشرف عليه . (وعكسها ظعَنَ) .

٣٥ وكَمْ فَرَّجا مِنْ كُرْبَةٍ مدلهمَّةٍ   وكَمْ حَمَلا مِنْ باهِظٍ يقطَعُ الْمُنَنْ[٢٤]

٣٦ إذا ما أَحسّا خَلَّةً لَطفا لَها   بما شاءَ شاكيها مِنَ الرِّفْقِ والطَّبَنْ[٢٥]

٣٧ أبا الحَسنِ اخْلُدْ في الجِنانِ مُنَعَّماً   جزاءً بما أسلَفْتَ من سَعْيِكَ الحَسَنْ

٣٨ يَطيرُ فؤادي رَوْعَةً فإذا رأى   محلَّكَ في دارِ الغِنى والرِّضى سَكَنْ

٣٩ وقد كنتَ ترتادُ المواطِنَ إذ نَبَتْ   فبوَّأَكَ الرحمنُ فردَوْسَهُ وَطَنْ

٤٠ وبِتَّ مُعنًّى بالجَلاءِ فَفُتَّهُ   وقد كانَ حاديهِ تشبَّثَ بالظَّعَنْ

٤١ ولَمْ يرضَ إلاّ الأَرْضَ هجرتَكَ الَّتي   تخيَّرها للأَوْلياءِ على الفِتَنْ

٤٢ وَفي مِثْلِها رقَّ الرَّسولُ تَحَزُّناً   لِسَعدٍ وقَدْ واراهُ أكْرَمُ مُدَّفَنْ

٤٣ وَلَوْ أنَّ عبدَ اللهِ خُيِّرَ في الثَّرى   عَلى قثم[٢٦] لاَخْتارَهُ وَلَما اغْتَبَنْ

٤٤ على أَنَّكَ المدعوُّ مِنْ كلِّ بَلْدَةٍ   هَلُمَّ فإنَّا دُوْنَكَ الحُجْبُ والجُنَنْ

٤٥ [٥٩/ب] سَيُرضيكَ من أَرْضَيْتَهُ في عِبادِهِ

وجاهَدْتَ فيهِ بالفُروضِ وبالسُّنَنْ

٤٦ وتبقى لِمَنْ أَبْقَيْتَ عهدَكَ إنَّهُ   لَهُمْ كلَّما استَهوَتْهُمُ رَوعَةٌ سَكَنْ

٤٧ وتحفظُهمْ حِفظَ اليتيمَيْنِ أُيِّدا   بِرَفعِ جدارٍ قد تَداعى وَقد وَهَنْ[٢٧]

٤٨ وَما ذاكَ بِرّاً بالْجِدارِ وعُلْوِهِ   ولكنْ لكنزٍ تحتَهُ كان مُختَزَنْ

---

(٢٤) المُنن جمع مُنّة ، وهي : القوّة .

(٢٥) طبَن الشيءَ ، وله وبه : فطن له .

(٢٦) في الأصل (معبد) ثم أضرب عنها بـ (قُثَم) .

(٢٧) إشارة إلى قصة اليتيمين ، حين صحب موسى عليه السلام العبد الصّالح في سورة الكهف ٨٢/١٨ ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ... ﴾ .

٤٩ أَبا حَسَنٍ إنَّ المدى بَعْـدَمـا بَـدا طويلٌ ولا يُعتدُّ في جَنْبِ مـا بَطَنْ

٥٠ وأَيْسَرُ وَجْـدي في فِراقِـكَ أَنَّـهُ سيبقى عليكَ الْوَجْدُ مابقيَ الزَّمَنْ

٥١ سَقى اللهُ والسُّقْيا بكفَّيْـهِ تُرْبَـةً مُبَـارِكَـةً ضَمَّتْـكَ أَمْرَعَ مـاهَتَنْ

٥٢ وَلا بَرِحَتْهـا دِيمَـةٌ مستَهِلَّـةٌ إذا رَكَضَتْها الرِّيحُ قامَ بها حَرَنْ(٢٨)

٥٣ وَلا زِلْتَ في رَوْضٍ وروحٍ وَرَحْمَةٍ وَمَغْفِرَةٍ تَتْرى عَلى ذلكَ الْجَنَنْ(٢٩)

[٧٣]

وَلَهُ ـ رَحِمَهُ اللهُ(☆) ـ:

أَطـالَ اللهُ بقـاءَ الرَّئيسِ الأَجَـلّ ، الْهُمام الأَوْحَـدِ الأَفْضَـل ؛ ملجـأ الْمَلْهُوف وحـائِـط الثّغْرِ الْمَخُوف والعـاطفِ حين لامِن عـاطفٍ في مَوارد الْحُتوف ، والنـاقِض لمـا رَصَّـهُ الأعـداءُ من الصفوف . مؤيَّـدَ العزَمـاتِ ، كاشِفاً للأَزمات ، منصُوراً بِرُعبِ ماأسْلَفَهُ في الكفرِ من الفتكَات(١) !

---

(٢٨) ركضه : رفسه . وحَرَن بالمكان : لزمه فلم يفارقه .

(٢٩) الجنن : القبر .

[٧٣]

(☆) رسالة إلى « رئيس » ذي منصب عال يتوسط لديه ليضمّ إلى ديوانه رَجُلاً وصفه بالشدّة والبأس ، وبأنه محاربٌ قديم . ولعل المخاطب من ذوي الصلة بالخدمة العسكرية .

(١) في الحديث : « نُصرت بالرُّعب مسيرة شهر » . قال ابن الأثير (النهاية ـ رعب ـ: كان أعداء النبي ﷺ قد أوقع الله تعالى في قلوبهم الخوفَ منه ...) .

كتبتُه والودُّ دائمٌ والدُّعاءُ قائمٌ . ومؤدّيه أَبو فلانٍ ـ سلّمه الله ـ وهو من قومٍ يَمُتّونَ بحُرمة ، ويُدلّون بسالفِ انقطاعٍ وخِدمة . وأَحبّ التشرّف بديوانه ، والْمُثول بإيوانه ، والتميّز بشِيَعِه الواردين مواردَ إحسانه . وإن كانت الحربُ هناكَ قد وضعت أوزارَها ، وكفت حَرَّها وأُوارَها فعهدُ الْكَفرةِ إلى انتكاثٍ ، وشَرُّهم وكيدُهم إلى انبعاث . والحازمُ ـ مثله ـ أَيّدهُ اللهُ لا يَغْتَرُّ بِمُوادعةٍ في طيّها أَدْراك[٢] ، وسكونٍ تحتَهُ حَراك !

ولأَبي فلانٍ ـ أَبقاه الله ـ نفسٌ حُرّةٌ ومَواقِفُ في الأَعداءِ مُرّة . واللهُ يُظهِرُ أولياءَهُ وينصرُ لواءَهُ ويكبتُ أعداءَهُ بِجُوده ومَجْدِه .

[٧٤]

وَلَهُ[☆] :

أطال اللهُ بقاءَ الفقيهِ الأَجلّ الأَمجد ، الزّعيمِ الأَكرمِ الأَوحد ، وسعدُه يتوَقّدُ ، [٦٠/أ] ومآثِرُه تتجدّد ، والأَيّامُ بما يهواه تتقرّبُ وتتودّد ، ولا زَال جَدّه يَرقى ويَصعد .

كتبتُه عن عهدٍ يحميهِ لألاؤهُ ، وتُعرَفُ سِياؤُه[١] ، ويشرق نُوره

---

(٢) الموادعة : الهدنة ، أو المصالحة .

ـ والأدراك جمع درك .

[٧٤]

(☆) يعرّف أحد الفقهاء بوزيرٍ رغب إليه في ذلك .

(١) السّيما والسّيماءُ : العلامَةُ .

وضِياؤُهُ ؛ وإنّه ـ أدامَ اللهُ نماءَه ، وحَرس مجدَهُ وبهاءَه ـ لابنُ[2] بيتٍ تخيّمُ بفنائه الآمال ، وتُرْجى عندَهُ الرَّغائبُ فَتُنال ، وتَترى[3] إليه الشّفاعات وتنثال . والوزيرُ أبو فلانٍ مُؤدّيه ـ أكرمه الله ـ انقطاعُه إليهم مَوْصُول ، ومثابُهُ متى عَرضه مقبُول ؛ وقد رَجعَتْهُ إليهم الرَّواجعُ[4] ، وأدّته نحوهم الْمَطالع . وله بتلك الحضرةِ سبَبٌ اتّبعه ، ولديهم تأميلٌ انتَجعه[5] ، وبَرْقٌ صادق غيثُه معَه ، ورغب في تَنبيهٍ يطرقُ ، ويحرّك من لسانه ويُطلق . وإنّ وسائله القديمة لتجادلُ عنه وتنطق ؛ لا زال عَلِيَّ الْمَراتب ، حَمِيَّ الْجَوانب ، سنيَّ المكارِمِ والمواهِب ، والسَّلام .

[٧٥]

وله(☆) ـ رحمهُ اللهُ ـ :

[من البَسيط]

عِندي إليك أَبا بكرٍ وإن ذهَبتْ بكَ الظُّنونُ صَباباتٌ وأَشواقُ

---

(٢) اللام في (لابنُ) للتوكيد .

(٣) يقال جاؤوا تترَى ، وتَتْرًى : أي واحداً بعد واحد بينهم فترات . واستعمال الكاتب للكلمة على أنها فعلٌ غير صحيح . ومادة (تترى) اللغوية هي (وت ر) .

(٤) من قول قيس بن ذريح (ديوانه : ١٠٦)

وأعمِدُ للأرض التي مِن ورائكم لِيَرْجعني يوماً عليكِ الرَّواجِعُ

(٥) انتجعه : قصده يطلب معروفه .

[٧٥]

(☆) رسالة إلى صديقه أبي بكر (؟) وفيها قضايا تهمها ، وتهم بعض أصدقائها .

وعَبرةٌ كلّما هَبّت يمـانيَـةٌ مُـدَّت إليكَ بها أيـدٍ وأحـداقُ
سَـل النَّسيمَ إذا حَيّـاك وافِـدُهُ عن الضّمير وفي الأشيـاءِ مِصـداقُ
يُخبرْكَ عَنّي وعـذراً في تلَهُّبـه ففيـهِ من نفَسِ الْمُشتـاقِ إحراقُ !

أُنبئُك ـ أعزَّكَ اللهُ ـ عن ليالٍ أنا شاهِدُها ، ومُصافاةٍ ربّما صدق شاهِدُها ، وما لي أستشهِدُ بنسيم ، وأقيمُ الأدلّة لِمُناجٍ للنفسِ قَسيم ، يعلمُ منها ماأعلم ، ويصابُ إذ تصابُ ويَسلم حين تسلم . نعم ! نَعِمت برؤياكَ عُيون ، وقُضيت بلقياكَ دُيون . عارِضْ ـ وأنتَ أمينُ نفسِك ، ومَدينُ وحشتك وأُنسك ـ وُدّاً بِوُدّ ، ووَجْداً بوَجد . فإنْ وجدتَ كما وَجَدْتُ[1] ، فقد أجدتَ وأَجدتُ ، وإن عَثرت ـ وحاشاكَ وحاشايَ ـ بريبٍ فانتقلْ ولا تُقِل . أهذا شأنُ من يُضمِرُ عُذراً ، ويشرحُ بالْمُداهنة صَدْراً ؟ لا بل تطاولُ البريء ، وتصميمُ الْجَريء ، وحلاوةُ غِبّ[2] الظَّفرِ الهنيء ؛ بجأشٍ سجيَّتُهُ [٦٠/ب] وطيئةٌ ولسانٍ لم تُلَجْلِجْهُ[3] خَطيئةٌ ، بلى إنّك لأَرْهفُ شمائل ، [وأَلْطَفُ وَسَائل][4] وبي مثل ما بك غيرَ أنك كنتَ السَّائل ، سبقْتَ بالفضلِ الْمُتاح إلى ثَنيّة الافتِتاح ، فرَسَمت الْمَناهِل ، ووَسَمْت الْمَجاهِل ، وسُمْتَ فكنتُ الْمُياسِر الْمُساهِل ، فأشرتَ إلى مَطْلَعك ، ونَبّهت . وما كنتَ خامِلاً على مَوْضِعك ، فترتّبَ الْجَوابُ ، وانزاحَ

---

(١) وجَدَ ، حَزِن ، ووجد به وجْداً : أحبّه .
(٢) غبّ كل شيءٍ : عاقبته وآخره .
(٣) لجلج فلانٌ : تردّد في كلامه ولم يُبِن .
(٤) كلمتان مطموستان في الأصل ، ولعلهما كما قدّرت .

الشكّ الْمُنجاب[٥] ، ولولا بَرْقٌ صَدع ، وصَوتٌ ثنَى نحوكَ اللِّيْتَ والأخدع[٦] ، للبثتُ حِقَباً ، ولم أَعرفْ لِسَناك مَرْقباً ، فإنّي تركتُك بعدِي على أَوْفاز[٧] ، وأثافِيّ حِفاز ، والرَّأيُ شَعاعٌ[٨] ، والأَملُ قَطُوفٌ ووَساع[٩] ، بما عميت أنباؤك ، واستَسَرَّ ضياؤك . فلا إيراءَ[١٠] لقادِحٍ ، ولا رِيَّ لجادِح[١١] ، حتّى كأن الجنَّ استَهْوَتْكَ[١٢] ، أو الأرضَ طَوَتك . فالآن حينَ شرقتَ بالسَّليط[١٣] ، وشرهتَ إلى مُناجَاة الْخَليط ، وألقَتْ إليكَ أَمانِيُّك بالإقليد[١٤] ، وظفِرْتَ بإشراف أبي الوليد[١٥] ؟ فأزحْ

---

(٥) انجابَ الظلام : انقشع وزال .

(٦) اللِّيتُ : صفحةُ العُنق . والأَخْدَع : أحد عرقين في جانب العنق ، وهما : الأخدعان . قال الصّمة القشيري ، ولعله منه أخذ الكاتب (ديوانه : ٩٤)

تلفّت للإصغاء حتى وجدتُني وجعتُ من الإصغاء ليتاً وأَخْدَعا

(٧) أَوفاز جمع وفز : المكان المرتفع . وحِفاز مصدر حافزه : جاثاه وداناه . وفي اللسان : « لقيتهُ على أَوفاز : أي على عجلة ، وقيل معناه : أن تلقاهُ مُعِداً ... ويُقال : نحنُ على أوفاز أي على سَفر » وفي مادة (ح ف ز) أيضاً معنى الحثّ والعجلة والإعجال .

(٨) الرأي الشَّعاعُ : المتفرّق المنتشر .

(٩) قطفت الدابة : أساءت السَّير وأبطأت . والوساع من النوق : الواسعة الخطو والذرع.

(١٠) إيراء مصدر أَوْرى ؛ يقال : أورى الزَّنْدَ : استخرج ناره .

(١١) الجادح : الذي يخلط السَّويق وغيره في الماء ونحوه بالمِجدَح .

(١٢) استهوته الجنّ : هوت به وأذهبته .

(١٣) السليط : الزيت .

(١٤) الإقليد : المفتاح . وقولهم : « قذفتُ بالإقليد إليه » يُضرب مثلاً في تسليم الشيء بأصله . قال أبو تمام (ديوانه ٢ : ١٤٦) :

إن سابقته الخيلُ في ميدانها قذفت إليه الخيلُ بالإقْلِيدِ

(١٥) أبو الوليد ؟

نوائبك ، وأَرِحْ ركائبك ، وأشْرِقْها بِدَمِ الوَتِين[١٦] ، واستمسك بذلك الحبل المتين ، واقرَأ ـ ولمعنى تقرأُ سُورةُ التّين ـ . وكنْ على أَحسنِ تقويم[١٧] ، وناهيك بذلك القَسَمِ العَظيم[١٨] ، أمـا إن الْمُقْسَمَ بـهِ لَجليلٌ ، وإن العِوَضِ ـ أبا بكرٍ ـ لقليل ؛ وسأُخبرك : أما الثَّغْرُ فكما علمتَ[١٩] : نفوسٌ على حَدِّ الظُّباةِ تَسِيلُ ؛ ورماحٌ ذُلُقٌ ، وغارة دُلُق[٢٠] . وآجالٌ قِصارٌ ، وريح يَلْقَاها إعصَارٌ . وأمّا نحن فكما أُلغِيَ في الدِّيةِ حُوار[٢١] ، لا يُشَدّ إلينا رحل ، ولا يُدرك بنا ذَحل[٢٢] . وأمّا إلبيرة[٢٣] فالرَّقطاءُ

---

(١٦) الوَتين : عرقٌ (شريان) في القلب إذا انقطع مات صاحبُه .

ـ وعبارة الكاتب من قول الشمّاخ (في مدح عرابة بن أوس) ديوانه : ٣٢٣

إذا بلّغتني ـ وحططت رحلي ـ   عرابةَ فاشْرَقِي بدمِ الوتينِ

(١٧) في سورة التين ٤/٩٥ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيم ﴾ .

(١٨) في سورة الواقعة ٧٦/٥٦ : ﴿ وإنَّهُ لَقَسَمٌ لو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ .

(١٩) من قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي من شعراء صدر الدولة العَبّاسية (في مجموع شعره : ٨٨) :

تسيلُ على حَدّ الظّباة نفُوسنا   وليست على غَيْر الظباةِ تسيلُ

(٢٠) الرُّمْحُ الذَّلِقُ : الحديدُ القاطع . والغارة الدلق : السريعة . ويقال : ذلق الغارةَ : شنَّها .

(٢١) من قول ذي الرّمّة (ديوانه ٢ : ١٣٧٩) :

ويهلكُ بيننا المرئيُّ لغواً   كما ألغيتَ في الدّيَةِ الْحُوارا

(لغواً : باطلاً . وألغيت أي أهملتَ وأسقطت . أي كما أبطلتَ الْحُوار في الدّية . والْحُوار لا يؤخَذُ في الدّية . والْحُوار : ولد الناقة ، يُسَمّى كذلك إلى أن يُفطم) .

(٢٢) الذَّحل : الثأر .

(٢٣) إلبيرة : إحدى مدن الأندلس ، ومركز كورة من كورها . بين القبلة والشرق من قرطبة قريبة إلى غرناطة ، بينهما ستة أميال . واضمحلّ شأنها منذ أوائل القرن =

الْمُبيرة[٢٤] ، وأمَّا الشَّرقُ فشَرَقٌ ، وحَربٌ وحُرَقٌ ، ومـا أَقُول رجْماً[٢٥] ، ولا أستكشِفُ عن الغيب نَجماً ، وإنَّما هو حَـدِيثُ الوقت ، وعُهـدَةُ نـاصحٍ لا يرجعُ بالمقت ، ولا أَحظُر حَظّاً ، ولا أَكُون على الْمُسترشِـدِ فَظّـاً ، قـد تُتاحُ المكاسِبُ ، ويؤخَذُ عن حِسبتها الحاسِب .

هذا صديقُنا الكاتب أبو إسحاق السَّهلي[٢٦] قد صَدق فالُـه ، وانثـالَت أنفالُـه ، فلا يخلُو يومـاً من نزعِ لبوس ، ونِهـابِ نُفوس . ولقـد [٦١/أ] ترشّـحَ للشُّكر والشّكم[٢٧] ، وقَعـدَ بِبَسْطَـةَ[٢٨] للحكم ، وفتـح بـابـاً في صَـدِّ البِرّ ، وجعله لهديّةِ السِّرّ ، فمن جفر أبرق[٢٩] ، إلى ديك أَفرق[٣٠] ، وأَرعن

= الخامس حين هجرها أهلها ونزحوا إلى غرناطـة فعمرت هـذه وخملت تلـك وخربت . وكان خروج أهلها بطلب من حاكم الكورة وما حولها من أُمراء بني زيري .

(معجم البلدان ١ : ٢٤٤ ، الروض المعطار : ٢٨) .

(٢٤) أباره : أهلكه .

(٢٥) الرجم : القول بالحدس والظن . وفي سورة الكهف : ٢٢ ﴿ رَجْماً بالغَيْب ﴾ .

(٢٦) أبو إسحاق السَّهلي (؟) .

(٢٧) الشكم مصدر شكم الوالي : رشا .

(٢٨) بَسْطَة : مدينة في جنوب الأندلس تبعد عن غرناطة بنحو ١٢٥ كم ، عَـدَّهـا الحميري في الروض المعطـار من كورة جيـان . ويكثر فيهـا التوت والزيتون وسـائر الثمار . وبهـا طرز الوطاء البسطي من الديباج الذي ليس له نظير . وكان لبسطة شـأنٌ كبير أيـام دولة غرناطة .

(معجم البلدان ١ : ٤٢٢ ، والروض المعطار : ١١٣) .

(٢٩) الجفر : ولد الشـاة إذا استكرش وأكل أو بلغ أربعـة أشهر أو ستّـة . والأبرق : كل شيء اجتمع فيه سوادٌ وبياض .

(٣٠) ذو الفرقين : الأبيض .

من الفِراخِ أَخْرَق[٣١] ، إلى ضَيْـوَن[٣٢] أزرق ، وعلى ذلـكَ مـا يلينُ منـه أَطبـاء[٣٣] ، ولا ينفـذُ لـه مَضـاء وإيمـاء . ونحنُ فيما شِئنـا من رِسْـلٍ[٣٤] حافل ، وألبان عُوذٍ[٣٥] مَطافل[٣٦] ، وَوِطابٍ[٣٧] قد مادَت بها الْجُـذوع ، وصَفِرَت[٣٨] لهـا الضُّلوع ، عكَفْنـا على خُـدورهـا[٣٩] وكأنّـا أيتـامٌ في حُجُورها[٤٠] ، وبُرّ[٤١] يلبكُ بشِهاد ، ويُترك من الزُّبد في مِهاد ، وأرائـك في أعلى نِجاد ، نلْتَفُّ من بردِ نسيمَها في بِجاد[٤٢] ، فهذي ـ وأبيكَ ـ العيشةُ

---

(٣١) من الرعونة والْخَرَق .

(٣٢) الضَّيْوَنُ : السِّنَّور : (الهر) الذكر أو دُوَيّبة تشبهه .

(٣٣) أَطْباء : جمع طِبْي : حلمات الضّرع التي فيها اللّبن (من ذي خف أو ظلف أو حافر أو سبع) .

(٣٤) الرِّسلُ : الرّخاء والخصب .

(٣٥) العُوذ : جمع العائذ : الحديث العهد بالنتاج (لسبعة أيام أو عشرة) يعوذ بـأمـه ؛ من ظباء وغيرها .

(٣٦) المطفل : ذات الطفل من الإنس والوحش .

(٣٧) الوطـاب : السِّقـاء يُحتقن فيهـا اللبن . والجـذوع جمع جـذع ؛ سـاق النخلـة ، وسهم السقف .

(٣٨) صفرت : خلت .

(٣٩) الخدور جمع الخدر : البيت إذا كانت فيه امرأة ، وكل ما واراك من بيت ونحوه .

(٤٠) الحجور جمع حِجر : وهو من الإنسان حضنه .

(٤١) البُرّ : القمـح . ويلبـك : يخلـط ، والشهـاد : العسـل ، وهـذا من قـول أميـة بن أبي الصلت (ديوانه : ٣٨١) :

إلى ردحٍ من الشّيزى مِـــلاءٍ   لبـابُ البُرّ يُلْبَـكُ بـالشّهـادِ!

(٤٢) البجاد : ثوب مخطط .

الرّاضيـة ، والأحكامُ المـاضيـة . والتماسُ مـا فوقَ هـذا إيغـالٌ[٤٣] ، وفضولُ العَيْش أشغالٌ[٤٤] . رَزَقنا الله نُفوساً مطمئنةً ، ولا أَعْدَمنا من لَدُنه فَضِيلةً ومُنَّةً[٤٥] ؛ بعزّته وقدرته . وأَمّا الكتُبُ التي أَعـددتَهـا ، ونَحْوِي وفـدتَهـا ، فواللهِ ما لَمَحْتُ لكَ قبل كتابكَ هذا من إشبيليـةَ[٤٦] كتـابـاً ، ولا برحت بغيب الأَيّام فيك مُرتاباً ، لا أَتحقّقُ لـك حِلاًّ ولا تَرحـالاً ، ولا أعلم لـكَ على الحقيقة حـالاً . ولِيَـأسي من الغرَضِ الـذي أَدْرَجتـه في هـذا الوقت لم أُعرض فيه بالتّـذكِرَة ، ولا عَرّضتُ بـأمورٍ غير مُسْفِرة ، وعنـدنـا رَجـاءٌ ، وعند اللهِ مَنٌّ وحِباءٌ[٤٧] :

والنفسُ راغبــــةٌ إذا رَغّبتَهــــا ⁂ وَإذا تُرَدُّ إلى قَليـــلٍ تقنَــــعُ[٤٨]

---

(٤٣) الإيغال في الشّيء : المبالَغةُ فيه .

(٤٤) من قول أبي الطيب (ديوانه بشرح الواحدي : ٧١١) :

ذِكرُ الفتى عمرهُ الثّـاني وحـاجَتـهُ ⁂ مـا قـاتَـهُ وفُضـول العَيْشِ أشْغـالُ

(٤٥) المنة : القوة ، وخصّها بعضهم بقوة القلب .

(٤٦) إشبيلية : من مُدن الأندلس الكبرى ، على نهر الوادي الكبير . كانت تُنازِعُ قُرطبـة في مكانتها في العِلم والثّقافة والْمَعاش . وكانت من قديمٍ عاصمةَ البِلاد . ثم نقلهـا الْمُسلمون إلى قرطبة . وعادت لإشبيلية مكانَتُها السّياسيـة مع دَولـة الْمُوَحّـدين . وهي مـدينـةٌ عظيمـة الخيرات يحيـطُ بهـا سَهلٌ فسيحٌ فيـه الزّيتونُ وأنواع الثمرات . قـال في الروض المعطار : جُلّ تجار أهلها الزيت يتجهزون به إلى المشرق والمغرب بَراً وبحراً . سقطت إشبيلية سنة ٦٤٦ (معجم البلدان ١ : ١٩٤ ، الروض المعطار : ٦١) .

(٤٧) الحِباءُ : مايحبو به (الرجل) صاحبه ويكرمهُ به .

(٤٨) البيت لأبي ذؤيب الهذلي (المفضليات : ٤٢٢) .

ولا بـدَّ لي من مُتـابعــة بِرِّك ، والإيضــاحِ لي عن جَلِيَّــةِ أمرك . وكيفَ صَدرت ، ومتى انحدرتَ ، والسّلام .

[٧٦]

وله[☆] ـ رحمه الله ـ :

ياساداتنا وكبراءنا وأَعِزَّتَنا وظُهَراءَنـا[١] الّـذين نَبْـأَى[٢] لِمُصَـافـاتِهم ، ونعترفُ في كلّ حالٍ بِمُوالاتهم ، ونستدفع الخطوبَ بمُسـاهمتهم ومُوَاسـاتهم ، لاتَرقَّتْ[٣] إليكمُ النُّوبُ ، ولا أَلَمّت بساحَتِكم الكُرَب ، ولا زالت الأَيّـام في مَبرَّتكم[٤] تـدأَبُ ، وبمـا أَحببتُمْ تَتشَبَّثُ وتَتَسَبَّب ، وعن مَكْرُوهكم تَتجـافى وتَتنكَّب .

[٦١/ب] كتبناهُ ـ كتب الله في كل صَالِحَةٍ آثارَكم ، وكافَأَ عَنّا إجْمالَكُمْ وبِـدَارَكُمْ[٥] ، وشكَرَ قُربَكم وجِـوارَكُم ـ وقـد وصَلت الكُتُبُ الخَطيرة ، والمسـاهَماتُ المَشكـورَةُ المبرورةُ في وَفـاة الفقيـهِ أبي إسحـاق ابننـا البَرِّ بكم ـ كان ـ أزْلَفَهُ اللهُ بِرضوانه ، وتغمَّدهُ برحمته وغُفرانه ، ولا شَكَّ عنـدنـا في

[٧٦]

(☆) رسالة إلى جماعة عَزّوه بوفاة ابنه الفقيه أبي إسحاق [إبراهيم ؟] يشكر لهم تعزيتهم .

(١) الظَّهيرُ : المعين .

(٢) نبأى : نفخر ، ونتعاظم .

(٣) تَرقّى ورَقِي : صَعد .

(٤) المبَرَّة : مصدر ميمي من البرّ .

(٥) بِدار ومُبادرة ، مصدر : بادَرَ : أسرع .

تـألّمكم لِفقـدانـه ، فقـد كان لكمْ ـ حيث كان لنـا ـ تـوقيراً لـذوي الفضـل وأهله ، وبرّاً بلِدَتِهِ ومِثله[٦] ، يُنْزِلُكم على منازلِ الإجلال ، ويتقدّم براً بكم في كل حال .

وإنَّ فقـدان مثلـه من برَرةِ الأَبنـاء ليهيضُ[٧] ، وإن العَبراتِ عَليـه لَتفيضُ ، وإنَّ الصّبرَ إلاّ مـا وقى الله لَيغيضُ[٨] ؛ قـارَض الله احتفـاءَكم[٩] ، وكافأ وَفاءَكم ، وحَمى أكنافكم وأرْجاءَكُم ، كما أنّا نسكنُ لـه إلى مَغفرةٍ من الله تَعالى واسِعة ، ورَحْمَةٍ لأَشتاتِ الرِّضى جـامِعَـة ؛ فقـد كان على هَـدْيٍ صالح ، وطريقٍ من العَمل واضح ؛ فالأَنفسُ عن مـالِـه تَطيبُ ، ورحمـةُ اللهِ ممن أَحسن قريبُ[١٠] . وما عندَنا ـ واللهُ المُسْتعانُ ـ إلا مانَدبْتُم إليـه ، وحَضَضْتم عَليـه ، من إجمـالِ صبرٍ ، واحْتِسـابِ أَجرٍ . وتَيقُّن أنّ سبيلَـهُ سبيلُ الجميع[١١] ، وكلُّ شملٍ فإلى تَفريق وتَصْديع . جعلكم الله وإيّـانـا ممن يـديم الادّكار ، ويُـوَالي الاعتبـار ؛ ويقـدر بقيَّـةَ العمرِ حَـقّ قَـدْرِهـا ، ويتأهّبُ للأَيّام بأُهْبَتِها وصَبْرِها .

---

(٦) اللِّدَةُ : التِّرْبُ : (الذي ولد يومَ ولادتك) .

(٧) هاضَ (العظم) كسره . ويقال أيضاً : تماثَل المريضُ فهاضَهُ كذا .

(٨) غاضَ الماءُ : نزل في الأَرض وغاب فيها . واستَعْمَل الكاتب الغيضَ مجازاً .

(٩) قارَضه : جازاه خيراً .

(١٠) في سورة الأعراف ٥٦/٧ : ﴿ إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيْبٌ مِنَ المُحْسِنِيْنَ ﴾ .

(١١) هذا قَريبٌ من قول قَطريّ بن الفُجاءَة (شعر الخوارج : ٤٣)

سبيـلُ المَـوْتِ غـايَـةُ كلِّ حَيٍّ ... فَـداعِيـهِ لأَهْـلِ الأَرْضِ دَاعِي

[٧٧]

وله(☆) :

ياسَيّدي الأَعلى ، وَوَليِّيَ المشكُورَ بما أَولى ، والوفيّ الّذي منذُ أَقبل مانكَص ولا وَلّى ؛ لازلتَ بالمـآثر تَتحلّى ، ومن عَلِيّات المفاخر تتجلّى ، ودُمت في عزة قَعْساء[١] رَاهِنَة تُتَملّى ، ما اعْتَمدكَ ـ أَدام اللهُ عِزَّكَ ـ في مُلمّة ، ولا خبَط إليكَ بذمّة ؛ كذِي حسَبٍ يَرُوقُ ، ونَسبٍ يعلُو الأَنسابَ ويَفُوق ، وكريمٍ لهُ في العُروقِ الصّالحاتِ عُروق .

وإنَّ الفقيه الزكيّ ، والحُلاحِل[٢] الحُلوَ الذكيّ أَبا فلان ـ أدامَ اللهُ عِزَّهُ ـ صدَر عن حَضرةِ الأَميرِ الأَجلِّ ، الملكِ السَّيِّد الأَفضل . [٦٢/أ] [أَبي فُلان ، أَيَّدَهُ اللهُ ، وحرَسَ مَجْدَه وعُلاه . والثّناءُ على آلائِها هِجّيراهُ[٣] ، وشِعَارُه][٤] والإقرارُ بنَعْمائها إعلانُه وإسرارُه ، وحركتُه وقرارُه ؛ فكلٌّ نادي فضلٍ ، ومَجمعِ سُؤدد وحَفلٍ ، روضَةٌ من شُكرهِ

---

[٧٧]

(☆) رسالة إلى أحد (الأولياء) يخبره بورود أحد الفقهاء عليه ، ويوصي به .

(١) عزّة قعساء : ممتنعة ثابتة .

(٢) الحُلاحِلُ : التامّ ، والسيّد في عشيرته ، والشجاع الركينُ في مجلسه .

(٣) هِجيّراه : دأبهُ وعادته وديدنه .

(٤) هذا السّطر في رَأس الورقة [٦٢/أ] مشوّه من أثر الماء ، وهو مُسْتَجلى من بقايا الحُروف .

تَعْبَقُ ، وزهرَةٌ عيونُها بالنَّدى تَترقرق[٥] ، وتُصبَحُ بما ٱحتسبَتْ من الرِّيِّ وتُغبَق .

ولمّا أعلمني أنه قد انْتَحى ذلكَ الأُفق زائِراً ، وأمَّه عامِداً إليهِ جائِراً ، ورمَاهُ بِعَزْمِهِ مُنجداً غائراً ، شهدتُ له بِمَنابه[٦] المحمُود ، ومَقامِه المتَعالَم المشْهُود ؛ وما ارْتقى تلكَ الثنيّةَ وأوفى على ذُراها ، وحَمِدَ عند الصَّباح وقد سَرى نحوَك سُرَاها[٧] ، إلاّ وقد تَخلّيتَ بحاجتهِ وشددت قواها ، فَلَكَ بَدْءُ المكارم وثُنياها[٨] ؛ وما كنتَ - أدام الله عزك - لِتُضيع حقّاً أدْلى به « ثاني اثنين » ، والتَقَتْ عليه البَتُولُ وأبُو السِّبطين[٩] « ولا يَذهبُ العُرْفُ بين اللهِ وبين هذين »[١٠] . صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم ، والثَّناءُ العاطِرُ يُحْدَى إليهم[١١] ، ولا أوْكَدَ من حقٍّ أكّدهُ القُرآن ، وأسَّسَهُ الإيمان ، وأوجبَهُ على عبادِهِ الرَّحْمن .

---

(٥) هذا قريبٌ من قول ابن زيدون (ديوانه : ١٣٩)

نلهُو بما يَستميلُ العينَ من زَهرٍ   جالَ النّدى فيه حتّى مالَ أعناقا
كأنّ أعيُنَهُ إذ عاينَتْ أرقي   بكتْ لِما بي فجالَ الدَّمْعُ رَقْراقا !

(٦) المنَابُ : المرجع .

(٧) من المثل : (عِند الصَّباحِ يَحْمَدُ القَومُ السُّرى) : أمثال العسكري (٢ : ٤٢) وقد سَبَق .

(٨) في الأساس : هما بدء قومهما وثنيانُهم أي أوّلهم في السِّيادة والذي يليه .

(٩) البَتُول : السيدة فاطمة الزَّهراء . وأبو السبطين الإمامُ عليّ رضي الله عنه .

(١٠) من قول الحطيئة (ديوانه ٢٨٤) :

مَن يفعلِ الخَيْرَ لا يعدمْ جَوازِيَهُ   لا يَذهبُ العُرْفُ بين اللهِ والناسِ !

(١١) يحدى : يُساق .

لا زلتَ لأَمثالها مُجْتَبِياً ، وبِجمالها مُرتَدياً ، وعلى أَبناءِ السَّلف الصَّالح مُجْدِياً .

وأَقرأُ عليكَ - أَعزّكَ اللهُ - سَلاماً عاطراً عَبقاً ، بودّي وشَوْقي مُتَّسِقاً ، ودُمْتَ مُصطحباً بالمسرَّاتِ والمعْلُوَاتِ(١٢) مُغْتَبِقاً !

[٧٨]

[٦٢/ب] **بِسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد نبيّه وسَلّم(☆)**

كتَب الوزيرُ الكاتبُ أبو محمّد عبدُ المجيدِ بنُ عَبْدُون(☆☆) إلى ذي الوزارتين الأَجلّ الكاتب أبي عَبْدِ اللهِ بنِ أبي الخِصال ، رحمةُ اللهِ علَيهما :

أنا مع عِمادي الأَعظم - أَدامَ اللهُ عُلُوَّهُ - كغريبٍ طواهُ الجهْدُ ؛ فآواهُ

(١٢) المعْلاَةُ ، والمعْلُوَات : الرِّفْعَةُ والشَّرف .

[٧٨]

(☆) البداية بالبسملة والصّلاة على النبي الكريم إشارة إلى أول كرّاسة أُخرى من مخطوطة الكتاب .

(☆☆) عبد المجيد بن عبد الله بن عَبْدُون الفِهري اليَابري ، نسبة إلى يابِرة في الأندلس : كاتب ، شاعر ، وزير . استوزَره بَنُو الأَفْطَس أَصْحابُ بَطَلْيَوس ، حتى نهاية دولتهم . ثم خدم في دولة المرابطين .

ومن شعره المشهور قصيدة في رثاء دولة بني الأَفطس ، تدعى البَسَّامة ، أولها :

الـدَّهْرُ يَفْجَعُ بعدَ العينِ بالأَثرِ فما البُكاءُ على الأَشْباحِ والصُّوَرِ ؟

وكانت وفاته سنة ٥٢٩ هـ .

(الصّلة ٣٨٢ ، المغرب ١ : ٣٧٤ ، قلائد العقيان ١٤٥ ، الذخيرة ٢/٢ : ٦٦٨ ، صلة الصلة ٤٢ ، فوات الوفيات ٢ : ٣٨٨ ، بغية الملتمس رقم ١٥٦٧ ، التكملة ٤٠٧ ، خريدة القصر ٢ : ١٠٣) .

من تهامَة[1] وَهْدٌ[2] ، ومـالَـهُ بريحِها العَقيمِ ولا بَحْرِهـا المقعـد المقيم عَهْـدٌ ، فَرقَصتْ[3] بهِ من سَرابِهـا المغرقِ وشَرابِهـا المحرقِ ، في حَمّـام ؛ فـأشرفَ من ذلـك الجحيم ، وَضَرَمِـه لـولا تَنفيسُ الرَّحيم ، عنـه بكَرَمِـه على الحِمَـام ، فوَأَل[4] إلى ربوةٍ من رُباهـا ، وسـأَل جبـالَ فـارانَ[5] عن مَهَبِّ صَبَـاهَـا ، ليلتقطَ من أنفاسِها بوسَاطةِ نَجْـد ، بَرداً يُهـديـهِ إلى حَرِّ الوَجْـد[6] فحيتـه ببَليلٍ[7] من نَسيمِها العَليل ؛ فأَحيَتْهُ . وأنا ماقصدتُ فيما خاطبْتُ به إليكَ لآخذَ عليكَ بفضلِ الابتِداءِ ، وإنّما قَصدْتُ سَبيل الاقتِداء ، واتَّبعْتُ دليلَ الاهتداءِ ، وأَردْتُ أن أستنيرَ بأَضوائك ، وأستثيرَ من سَمائكَ نُجوماً تَهدِيني في غَسَقِ الظَّلام ، أَوْ رُجوماً تُعدِيني على مُستَرقِ سَمعِ الكلام[8] ، فإن سَمَح

---

(١) تهامة : من الجزيرة العربية أرض واسعة معروفة منها مكّة المكرمة .
(معجم البلدان ١ : ٦٣ ، والروض المعطار : ١٤١ ، وصفة جزيرة العرب) .

(٢) وكلمة وَهْد تعني : المكان المنخفض .

(٣) الرّقص : الخَبب ، و : رقص البعير رقصاً إذا أسرع في سيره .

(٤) وَأل : لجأ وخلص و : وأل إلى المكانِ : بادَر .

(٥) في معجم البلـدان : فـاران كلمـة معرّبـة ، وهي من أسماء مكّـة المكرّمـة (معجم البلـدان ٤ : ٢٢٥) .

(٦) من قول ابن الدُّمينة (ديوانه : ٨٥) :
ألا يـا صَبـا نجـد متى هجت من نجـد لقـد زادني مسراكَ وجـداً على وَجْـدِ

(٧) ريح بليل : باردة مع مطر .

(٨) في سورة الحِجر ١٧/١٥ ـ ١٨ : ﴿ وحَفِظْنَاهَـا مِنْ كُلِّ شَيْطَـانٍ رَّجِيْمٍ . إلاّ مَن اسْتَرَقَ السَّمْعَ فأَتْبَعهُ شِهَابٌ مُبينٌ ﴾ .
ـ والرجوم جمع رجم : اسم ما يُرْجَمُ به .

عِمادي بالجَواب ورَجْعِه ، غالَطتُ فيَما حصلَ منهُ لَديّ ، ووصَل إليّ : الحَمَامَ في سَجْعِه[٩] ، والأَنصارَ في حَسَّانها[١٠] ، والإعصارَ في نيسانِها[١١] ، وَطيّئاً في وَليدها وحَبيْبها[١٢] ، وسَعْداً في خالِدها وشَبيبها[١٣] ، وخَرقتُ بما أعارَ من مَراحٍ ، وأثَارَ من ارْتياحٍ ، جَيْبَ مُخارِقٍ طَرباً[١٤] ؛ ولم أَدَعْ لأبي العتَاهِية[١٥] في ثقيلهِ المُغْرِبِ ولا في خَفيفهِ المطرِب أَرباً !

---

(٩) يُضرب بسجع الحمام المَثَلُ في الإطراب والشَّجى (ثمار ٤٦٧) .

(١٠) حسّان بن ثابت الأنصاري أشهر شعرائهم في زمانه .

(١١) نيسان هو الشهر الرابع من السنة الشمسية واسمه الرُّومي إبريل . وفيه تكثر العواصِفُ ، وتكون السُّيول ، والأمطار الغزيرة السريعة (وهذه تُرافق العَواصِف غالباً) .

(١٢) الوليد بن عبيد (البحتري) وحبيب بن أوس (أبو تمام) .

(١٣) لعلّه يشير إلى خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني وإلى شبيب بن يزيد بن نعيم الشَّيباني . أما خالد فهو ابن يزيد بن مزيد بن زائدة بن عبد الله بن مطر . وهو قائد مشهور رثاه أَبو تمام . وأما شبيب فهو ابن يزيد بن نعيم بن قيس بن الصُّلب ، الثائر الخارجي المشهور أيام العباسيين . وكلاهما من بني مرة بن هُمّام بن مرّة بن ذهل من شيبان . أَمّا بنو سَعد فهم بنو سَعد بن مرّة بن ذُهل (جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٣٢٦ ـ ٣٢٧) وتكونُ نسبة خالد وشبيب إلى بني سعد وَهْماً من الكاتب .

(١٤) مُخارق ، أَبو المهنّأ بن يحيي الجَزّار : كان إمام عصره في الغناء . توفي سنة ٢٣١ (الأغاني ١٨ : ٢٥٣ ، النجوم الزاهرة ٢ : ٢٦٠)

(١٥) أَبو العتاهية إسماعيل بن القاسم : شاعر عبّاسي مشهور (١٣٠ ـ ٢١١) وله ديوان مطبوع . وكان شعره مما يُغَنّى به « وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب » ـ مقدمة الدّيوان : ٢٤ ـ .

وطويتُ كشحاً عن أغاريدِ عَبيد[١٦] ، وأَضربْتُ صفحاً عن أناشيدِ لَبيد[١٧] ، وطالَبْتُ بلغاءَ العَصْرِ ، بالمثَلِ المضروب في جَمل مصر[١٨] وقلتُ لهم : هذه القَارةُ فرامُوها ، وأَنْصِفُوا ، وهذهِ الغَايَةُ فَرُوموها ، أَوْ نَصِّفُوا[١٩] . وإنْ كانَت تُومَةُ البَواهِرُ[٢٠] ماانحلَّتْ [٦٣/أ] في دُرْجِهِ ، ونُجومِه الزَّواهِرِ ماحلَّتْ في بُرجِه . وإن كَفّي من جَنى ثمارِهِ لَصِفْرٌ ، وإن طَرفَي من سَنى أقماره لقَفر ، وإنّي من ضَنِّهِ عليَّ بِدُرَّةٍ من بحرِه ، أو نفثةٍ من سِحْرِه ؛ لبين ظَنَّيْن : لم أحصلْ من تحقيقها معهُ على أثرٍ ولا عَيْن ؛ أحدهما : أَنَّني قلتُ إنه أجْرى اسمي على خَلَدِه ، فلم يجِدْني في أَندادِه ولا من بَلدِه ، فقال : وما أَنا وفُلان ؟ وهل هو إلاّ من الغرب ، وإن كانَ بزعمِه في الصّميم من العُرْب ، وهَل الغَربُ في الأَقطار ، إلا كالّلاحقِ بينَ الأَسْطارِ ، والآخر رُبَّما يقولُ مالاتَقْبَلُهُ العُقول : إنّي لأنظرُ من فلان

(١٦) هو عَبيدُ بن الأَبرص الأَسدي : شاعر جاهلي قديمٌ مَعَمّر ، يُعدّ في أصحاب المعلقات . وله ديوان مطبوع . ترجم له أبو الفرج (الأغاني ٢٣ : ٤٠٤) وأورد ماغُنّي به من شعره . « واشتهر عبيد بوصف العواصف والأمطار » ـ مقدمة الديوان : ١٨ ـ .

(١٧) لبيد بن ربيعة أحد الفرسان الأشراف الشعراء . شاعر مخضرم . أدرك النبي ﷺ ، وله صُحبة . وله ديوان مطبوع . توفي سنة ٤١ هـ . وهو أحد أصحاب المعلّقات .

(١٨) جَمل مصر : ؟

(١٩) من المثل العربي : « قد أَنْصَفَ القارةَ مَنْ راماها » ـ أمثال العسكري : ٥٥/١ ـ والقارة قبيلة من الهون بن خريمة (سُمُّوا قارةً لاجتماعهم والتفافهم) .

(٢٠) التُّومة : اللؤلؤة ، والقرط الذي فيه حبّة كبيرة . والجمعُ : تُوْم ، وتُوَم (بسكون الواو وفتحها) .

بأَحدّ من بَصَرِ الزَّرقاء[٢١] ، إلى أجلَّ مِن خَطَرِ العَنْقاء[٢٢] . وينشدُ قول أبي العلاء بن سليمان ، شاعر مَعرّة النُّعمان[٢٣] :

« أَرى العنقاءَ تكبرُ أنْ تُصَادا »

وأنا أُقسِمُ بالرَّبيعِ المطِرِ وائتلافِ أوانِه ، والبقيعِ المزهِرِ واختلافِ ألوانِه ، والشَّبابِ ودَولته ، والمِضراب[٢٤] وصَولته ؛ والمثاني إذا اتّسقت[٢٥] ، والقَناني وما وسَقت[٢٦] ، وإن أقسمتُ من بعضِها بيَمين ، لاأَتَلَقّى رَايَتَها بشمالٍ ولا يَمين[٢٧] .

إنّ اسْمِي في البُلَغاء والفُهَماء ، كاسم العَنْقاءِ في الأَسماء : اسمٌ ما وقَعَ على

---

(٢١) زرقاءُ اليَمامة : تضربُ بها العَربُ المثل في جودةِ البَصر وحِدَّة النَّظر . قيل : اسمها اليَمامة . وهي امرأةٌ من جَدِيس ، قالوا : كانتْ تُبصِرُ الشّيء من مَسيرة ثلاثة أيّام !
(ثمار القلوب : ٣٠٠ ، أمثال العسكري ١ : ٢٤١ في « أبصر من زرقاء اليمامة » ، المستقصى ١ : ١١ ، وانظر حاشية الأعلام ٣ : ٤٤) .

(٢٢) العَنْقاء : طائرٌ خُرافي . وقيل هو طائرٌ ضخم . وقالوا فيه : بل هو اسمٌ بلا مُسَمّى !

(٢٣) البيت لأبي العلاء المعري (سقط الزند ٢ : ٥٥٣) من قصيدة في ٦٠ بيتاً ، وتمامه
أَرَى العنقاءَ تكبرُ أنْ تُصَادا   فعَانِدْ مَنْ تطيقُ له عِنادا

(٢٤) في المعاجم : المضراب ماضُرِب به . وأظنه اسم آلة للموسيقا (؟) ما يُضرب به العود ؟

(٢٥) المثاني جمع المثنى : من أوتار العود (الثاني بعد الأول) . ومعنى اتّسقت : انتظمت .

(٢٦) القناني : وعاء من خيزران أو قضبان ، قد فُصِل داخِلُه بحواجز بين مواضع الآنية (توضع فيه الآنية) .
- ومعنى : وَسقت : ضَمّت وجَمعت .

(٢٧) من قول الشمّاخ (ديوانه : ٣٣٦)
إذا ما رايَةٌ رُفعت لمجْدٍ   تلقّاها عَرابَةُ باليمين

مُسَمّى ، ولفظٌ مادلّ على مَعنى ؛ فأَين أَقعُ ممّا يُريد ، وكتابي بين يَدَيْ حَمْدِي أَو عِتابي بريد ، ينفضُ تَهائِمَ ظُنوني[28] ، وينقضُ تمائمَ جُنوني .

وله الرّأيُ العالي في الجَواب ، على خَطأٍ كنتُ من ظنّي أو صواب ؛ إن شاء الله عزّ وجلّ .

ومن سَلامِي على عِمادي الأعظم وإمامي ، أَحْفَلُه وأحْفاهُ ، وأجْزَلُه وأَوفاه . والسّلامُ الأتمّ الأعمّ عليه ، ورحمةُ الله .

[٧٩]

مُرَاجعَةُ ذِي الوزَارَتَيْنِ الأَجَلّ : أبي عبد الله ـ رحمه الله[☆] :

السَّيّد الأَوحد ! أتمَّ الله بالسيادةِ ومُضاعَفِ الزّيادة صلاحَهُ وعُلوّه ، وعَمّ بالسّعادةِ والخيراتِ الْمُعادة روَاحَهُ وغُدوُّه ، في فَوْتهِ ، وبُعْدِ صَوْتهِ ؛ الّذي لا يُجحد كالطّامِحَةِ السَّحوق[1] ، الجامحةِ عن اللُّحوق : تَنطّقَتْ بأَعلى الهِضاب[2] [٦٣/ب] وتمطّقت[3] بأَحلى من الرُّضاب ؛ فابتَسمت عن

---

(٢٨) التّهائم من مادة (و هـ م) بمعنى الظنّ وما يَقعُ في الخَلَد .

[٧٩]

(☆) جوابُ رسالةِ ابن عَبدون السّابقة (ذات الرقم [٧٨]) . والرّسالة في الريحان والرّيعان ٨٣/ب

(١) الطّامحةُ السَّحُوق : صفتان للفَرَس . يقال : طَمح الفرس : رفع يديه . والسحوق : الفرس المرتفعة الطويلة .

(٢) تنطقت أرضهم بالجبال : أحاطت بها .

(٣) تمطّق : تذوّقَ وتلمّظ ، وصوت باللّسان وغار الفم الأعلى ، وذلك عند استطابة الشيء .

طُرَفِ لماها ، ثمّ اعتصمت بطَرفِ حماها . وأَقسَمَتْ بشَرفِ مُنْتَماها ، لَتَمُـدَّنَّ صـاعـدةً إلى الأَفلاكِ في غُلوائهـا ، ولَتَجـدَنَّ قـاعـدةً على السِّماك عَـذَب[٤] لـوائِهـا ، ولتكاثِرَنَّ السَّماءَ من قِنـوانِهـا[٥] الأَفـوافِ وصِنـوانِهـا[٦] الأَلفـاف بسَواكبِ نِطـافٍ[٧] ثَرَّةٍ ، وكـواكب قِطـافٍ برّة[٨] يَـودُّ مُسْتَرِقُ سِرَارِهـا[٩] لو يحترقُ بـأَنوارِهـا ؛ ويتمنّى مُرتقِبُ سُجـومِهـا[١٠] ، أَن يُعنى بتَصَـوُّبِ[١١] نُجومِها ، ويُمنى بتذوُّبِ رُجومِها . فلمّـا طـالتْ كُلّ مـا عـالت[١٢] يَـداهـا ونالت ـ حسَب ماآلت ـ مـداهـا ارتَـدّتْ فـاخِرةً إلى الْحَضيض ، ومَـدّت سـاخِرةً بِطرْفٍ غَضيض ؛ فَبَصُرَتْ في البيـد بـذات الْهَبيـد[١٣] واسطـةً في

---

(٤) العَذَب جمع العذبة : الطَّرَف من كل شيء .

(٥) القُنوان (بـالضم والكسر) العِـذْقُ ؛ وهو من الرطب كالعنقود من العنب . وفي سُورة الأنعـام ٩٩/٦ : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَـا قِنْوانٌ دَانِيَـةٌ ﴾ . والأَفواف (جمع فُـوف) وهي في اللُّغة : ثياب رِقاق مُوَشّاة .

(٦) صُنوان (بالكسر وتضمّ) مثنى صنو وهو المثل . والألفـاف جمع لفيف : ذوات أشجـار كثيرة ملتفة متداخلة وفي سورة الرَّعـد ٤/١٣ : ﴿ وَجَنَّـاتٍ مِنْ أَعْنَـابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٌ وَغَيْر صِنْوَانٍ ﴾ . وفي سورة النبأ ١٦/٧٨ : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَـاتـاً وَجَنّـاتٍ أَلْفافاً ﴾ .

(٧) النطاف جمع نطفة : الماء الصّافي قلَّ أو كَثُر .

(٨) القِطاف جمع القِطف وهو العنقود (ساعة يُقطَف) .

(٩) سرار الشهر آخر ليلة من الشَّهر .

(١٠) سجم سُجوماً : سال .

(١١) تصوّب : انحدرَ وجاء من علٍ . وقصد بتصوّب النجوم .

(١٢) عال الشيء : ارتفع . وفي الريحان والريعان : غالت (بالمعجمة) .

(١٣) الهبيد : الحنظل (أو حَبُّه أو شحمه) .

الْمَهْوى البعيد ، باسطةً ذِرَاعَيْها[١٤] بالصَّعيد ، فَبادَتْها عالمةً بِقُصورها ، ونادَتْها ظالمةً بِغُرورها ؛ أيّام الصَّراية[١٥] : أَنتِ صاحِبَةُ الرَّايةِ فاظْهَرِي بنضارَتِكِ لِمُستَواي ، واشْهَرِي بزيارَتِكِ مَثْوَاي ، وانظُري إيّاي ، ثم افتري عن مثلِ جَناي فقالت : ياسُبحانَ اللهِ ! لَشَدَّما مَدحتِ فأَطريت ، ولجدّما مزَحْتِ فأَزْرَيتِ . أَمّا أَنتِ فأصْلٌ في التُّخوم[١٦] ثابت ، وفرعٌ في النُّجوم نابت . أُكْلُكِ[١٧] نَجيعٌ[١٨] ، وثُكلُكِ وجيعٌ . وَرَدَ الكتابُ بِتفضيلك ، وانفردَ المؤمنُ بتمثيلكَ ، هُزَّ جِذعٌ مِن جُذوعكِ لابنِ البَتُول فتهافتَ وارْجَحَنَّ[١٩] ، وبُزَّ ثانٍ موقف الرَّسُول فَتخافتَ وحَنّ[٢٠] . لوشئتِ بِما أُودِعتِ من الفِطَنِ ، وأُوسِعْتِ من الإعْجَاز

(١٤) في سورة الكهف ١٨/١٨ : ﴿ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ .

(١٥) الصَّراية : الحنظلة إذا اصفرت ، نقيع الحنظل . وفي الريحان : الضَّراية مصدر ضَري : لهج بالشيء . وفي الريحان أيضاً : بزيارتك أمّ مثواي .

(١٦) التُّخوم : الفصل بين الأرضين من المعالم والحدود .

(١٧) النّجيع : الدَّم .

(١٨) الأُكل جمع الأُكلة : الطُّعمة .

(١٩) إشارة إلى الآية الكريمة من سورة مريم ٢٥/١٩ : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾ .

وابن البتول هو نبيُّ الله عيسى عليه السلام . ومعنى تهافَتَ : تساقط ؛ وارجَحَنَّ : مال واهتزَّ .

(٢٠) إشارة إلى حديث حنين الجذع ، قال القاضي عياض في الشفا (١ : ٥٨١) والْخَبرُ به متواترٌ ، قد خرّجه أهلُ الصحيح ؛ وفيه عن جابر رضي الله عنه : « كان المسجدُ مسقوفاً على جُذوع نخل فكان النبي ﷺ إذا خطَب يقومُ إلى جذع منها .. فلما صُنِعَ له المنبرُ سَمِعنا لذلك الجذع صَوتاً كصوتِ العِشار » .

الْمُستَبطن ، لانتميتِ في البَشرِ ، وأُوتيتِ بكل مُـؤدَمٍ مُبْشرٍ[٢١] ، ورَميت مَعْشَراً كِراماً بِمَعشر !

وأَمّـا أنـا ـ ومـا أَنـا ! ـ فَقرينـةُ اجْتثـاث ، ورَهينـةُ انتِكاث ، أَصلٌ لاانشَمَرَ[٢٢] ولا استَقـلّ ، وفرعٌ لاأَثمَرَ ولا أَظـل ، وخُطبـانٌ[٢٣] شَـوْبُهـا خُطوب ، وقُضبـانٌ ذَوْبُهـا سَلَعٌ بـالمنيّـة مقطُـوب[٢٤] ، وخـدٌّ تربٌ يَحرجُ بتعبيسِه الرّغام[٢٥] ، وحَدٌّ ذَربٌ يخرج من خِيْسِـهِ الضِّرغـام[٢٦] . فخرجت الحَنْظَلـةُ من الغَمرة ، وقَطعَت بـالحُجّـة لِســان التَّمْرَةِ ، أو كالغَضنفرِ الرِّئبـال ، المزَعْفرِ[٢٧] أَبي الأَشْبَـال ، تميّـز مِنَ الحَرد[٢٨] ، [٦٤/أ] [وتَحَيَّـزَ كالسَّيفِ[٢٩] الفردِ ، بِمَـذْرُوبَـةٍ[٣٠] كالنِّبــال[٣١]] فـاستَنْفَر بما عَفَّر مَن في

(٢١) المؤدَمُ الْمُبَشَرُ : من جَمع لين الأَدمة وخشونة البشرة ، ويكنى به عن الحاذق المجرّب .

(٢٢) انشَمر للأمر : تهيّأ له ، وجدّ فيه واجتهد .

(٢٣) خُطبـان : نبتَـةٌ شـديـدة المرارة . والحَنظـل يصفّر وفيـه خطـوطـاً خُضر . (وكلمـة خُطبان بضم الخاء وقد تُكسر) . في الرَّيحان : « دُونها سلع .. » .

(٢٤) السَّلَعُ : نَباتٌ ، أو شَجرٌ مُرّ ، أو ضَرْبٌ من الصَّبر . ومقطوبٌ : ممزوج .

(٢٥) حرج الغبار يَحْرَج : ثار فانضمّ إلى حائـطٍ أو سنـد . وفي المخطوطـة ضبطت بـالكسر (يحرجُ) . والرغام : التُّراب .

(٢٦) الذَّربُ : القاطع الماضي . والخِيْسُ : موضِعُ الأسد (والأجمَة) . وفي الريحان : جنسه .

(٢٧) المزَعْفَرُ : الأَسد الورد . والغضنفر والرئبال من أسمائه . وأبو الأشبال : كنيتُه .

(٢٨) الحَرد : داء .

(٢٩) الفَرد المنقطـع القرين (بسكـون الراء وفتحهـا وكسرهـا) . وهـو من قـول النـابغـة الذبياني (ديوانه ١٧) :

من وحش وجرةَ مُـوْشيّ أكارِعـهُ   طـاوي المصِيْر كسيفِ الصَّيْقـلِ الفَرِدِ

(٣٠) المذروبة : من ذرب الحديدة إذا أحَدَّها فهي مذروبة . .

(٣١) استجليت بعض الكلام من رأس الصفحة ثم ضبطته على نسخة الريحان والرَّيعان .

السُّهولِ والجبال حتّى إذا أخرسَ بما افترسَ كلّ ناد ، وأترعَ بالبسَالةِ والأنفُسِ المسَالةِ كلَّ واد ، مرَّ بزئيرِهِ المُجرِس ، على الهِجْرِس[٣٢] وقد عاذَ من شَفقِه بنَفَقِه[٣٣] ، ولاذَ من خُوارِهِ بوِجارِهِ[٣٤] فأنشأ يُبهرِجُهُ[٣٥] في الاعتِزال ، ويَستَدرِجُه للنِّزال : فقال : هذا تنويهٌ ، تحته تَمْويه ، وإجلالٌ في طيّه إخلال ! دَأبُ أُسامةَ أن يَختِلَ ويُريع ، ودأبُ ثُعالةَ أن يَرُوغ ويَزيغ[٣٦] ، وسأُساهِلُكَ إذا استَوى كاهِلي وكاهِلُك ، وأُساعِدُك متى التقى ساعِدي وسَاعِدُك ، ثم تكمّى[٣٧] في الإهاب ، وانفصلَ عما أصّلَ كالشِّهاب . وأنا فما أَردت ، بما أوردت من مَثلٍ ، في بدلٍ ، ضربتُه ، ولا خلوتُ بما جَلوتُ ، من تَحاجٍّ في احتجاجٍ قرّبْتُه : إلا لأَعْتَذرَ في النُّكول[٣٨] ، ويعتبر الشُّكولُ بالشُّكول . وإلاّ فمنْ عَذيري منهُ ؟ ما نَبذَ بالعُقم ، حتى أخذَ بالفُقْم[٣٩] ، ولا تحدّى بالمعجز ، حتى أَبدى صفحة المستنجِز . فياوَحشة من جاوَرهُ بفِلّ ، وحاوَرَهُ بكلامٍ لم يخرجُ من إلّ[٤٠] .

---

(٣٢) الهِجْرِس : الثعلبُ أو ولده .

(٣٣) الشّفق : الشفقة .

(٣٤) الوجار : جحر الضبع والأسد والذئب والثعلب ونحو ذلك .

(٣٥) بَهْرَج الكلام وغيره : زيّفه .

(٣٦) أُسامةُ : من أسماء الأسد . وثُعَالة : الثعلب .

(٣٧) تكمّى : تغطى .

(٣٨) نكل نكولاً : نكص .

(٣٩) الفقم : الفَم (أصل معنى الفقم : الفك . وهما فقمان) والكلمة بفتح الفاء وضمّها .

(٤٠) الإلّ : العهد . والفِلّ : الأرض المجدبة . وفي هامش الصفحة : « الفِلُّ : الأرضُ التي لم تُمْطَر » .

وما كنتُ أَخْشى أن يَسْقُط بي العَشاءُ على ما لا أشاء[41] فأَصبحَ كالعاشي للقَيْنِ عَثر بحجْلَيْهِ[42] ، والماشي للحَيْن عَبر برجْلَيْه . تَاللهِ إنها لَوهْيةُ عِثار لا تُرْقَعُ ، ودُجْيَةُ غبارٍ بها أتبرقع . إن صمَتُّ[43] ـ وحُقّ ـ فما أَنفع ، وإن نطقتُ ـ ولا نُطقَ ـ فَأَين أقعُ ؟ وعلى ذلك فَلأَنْ أَقضي مُغتصّاً ، خيرٌ من أن أمضِيَ مُنحصّاً[44] .

كلا ! إنّ أَبا بِشر ضَجِرَ فَجرِض[45] ، وأَبا نَصْرٍ رَهِبَ فَهرَب ، وأبا حَشْر يئس فَيَئِس ، فكلا جانِبَيْ هَرْشى طريق[46] ، وأمامي حيثُ آمَنُ وأَخْشى فَريق . فأمّا استهداؤه ـ أيّدهُ اللهُ ـ إيّاي وهو ـ في عقدِنا وعقدِه ـ الإمامُ الأَعظمُ ، والجِهْبذُ[47] الذي على نَقْدِه يُنثر الكلامُ ويُنظَمُ ، فَندهَةٌ تُطوى بِها الأَمصار عَجلاً ، أو شدهةٌ [٦٤/ب] تُزوى[48] لها الأبصار خَجلاً . وكيفَ والشَّمسُ لا تُحْدى على أَمْتٍ ركابُها ، ولا يُهدى إلى سَمْتٍ

---

(٤١) في أمثالهم : سَقط العَشاءُ به على سرحان (أمثال العسكري ١ : ٥١٤) .

(٤٢) القين : العبد . والحِجلُ : القيد . والماشي : القاصد . وفي الرَّيحان : الغاشي .

(٤٣) الدُّجية : الظُّلمة . وفي الريحان : لئن صَمتّ ... ولئن نطقت .

(٤٤) في أمثالهم : أفلت وانحصّ الذَّنَبُ : يُضرب لمن أشفى على الهلاكِ ونجا .

(٤٥) جَرِض : اغتصّ .

ـ أبو نصر بشر الحافي (توفي سنة ٢٢٧) سمع الحديث سماعاً كثيراً ، وروى ، ثم اعتزل فلم يحدّث إلى أن مات (وتوفي ببغداد) . (من المعارف : ٥٢٥)

(٤٦) في أمثالهم : « كلا جانِبَيْ هَرْشى طريق » (أمثال العسكري ٢ : ١٤٨) يُضرب مَثلاً للأمر يَسْهُل من وجهين .

(٤٧) الجهبذ : النقّاد (كثر استخدام الكلمة في أيام الدولة العباسية لخازن المال) .

(٤٨) زوى ما بين عَينيه : قطب وعبس .

طلوعُها وإيابُها ، بل نصبُ الماهرِ الخِرّيت[٤٩] ، وحسبُ السّاحر العِفريت أن يلتبسَ بحَياتِها ، ويقتبسَ شعلةً من إياتِها[٥٠] ، فإذا ضَنَّت بالمحيّا السَّافر ، وألقت يَدَها في كافرٍ[٥١] ، عطف على ما أسأَرت في قَعب الهلال ، وانصرفَ إلى ما مجّت في وجْهِ بَدْرِ الكَمال ، أو كحَلت به طرف كل نجم ساهر ، من سناها الباهر ، فاستنبط من الغَزالة[٥٢] ، خفيَّ الدَّلالة . فلها الفضلُ ساريةً وساربةً[٥٣] ، والشُّكرُ غائبةً ونائبةً . وإنّي لأَرْفَعُه فيما يضعهُ عن رفثةِ المُفَاكه[٥٤] ، وأستَميْلُه فيما يُنيلُه إلى نَفْثَةِ المشاكِه[٥٥] ، وأَستَعْفيهِ من مَسيرٍ تكلُّفهُ جهراً في فِتْرٍ ، وأعتفيه لحسيرٍ[٥٦] خلَّفَهُ دهراً في سِتر ، ثم عثَرَ عليه أَهدى من قطاة[٥٧] بأَخرة ، ونبذ إليه بملتقطاتٍ مُدَّخرة ، تُنزل الأَعصمَ من اليَفع[٥٨] ، ولو اعتصَم بالمصَامِ الأَرفع ، تسري

---

(٤٩) الخِرّيت : الدليلُ الحاذقُ بالدلالة . وفي الريحان : الماهر الحريث .. والساهر الخرّيت .

(٥٠) إياة الشمس : ضوؤها ، وشعاعُها ، وحسنها .

(٥١) الكافرُ : الظُّلمة . والكافر البحر ؛ وفي الأساس : غابت الشمس في الكافر ، وهو البحر . ـ قال لبيد (ديوانه : ٣١٦) :

حتى إذا ألقت يـــداً في كافر وأجنّ عورات الثغورِ ظلامَها

(٥٢) الغزالةُ : الشمسُ عند طلوعها . وفي الريحان : عطفت ... وانصرفت .

(٥٣) سرب في الأرض يسرُبُ سُروباً : مضى فيها ، وذهب ، فهو سارب . وفي التنزيل العزيز الرعد ١٠/١٣ ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ .

(٥٤) فاكهَهُ : مازَحه .

(٥٥) المشاكه : المشابه . وفي الريحان : وأستميله بما يُمينه .

(٥٦) الحسير : الكليل المتعب .

(٥٧) من أمثالهم : أَهْدى من قَطاة (أمثال العسكري ١ : ١٦٧) .

(٥٨) من معنى قديم متداول قال المجنون (ديوانه : ٩٤) :

=

في أذن الموقور[٥٩] فَتُعْجِبُ ، وتَجري في عينِ الضَّريرِ فَلا تَحتجب .

سَحبت سَحبان[٦٠] فَما أبان ، وشَرِقت منها نفسُ إياسٍ[٦١] بغُصّة ياس ؛ وتركَتْ عبدَ الحميدِ[٦٢] غيرَ حَميد ، ولبسَ لها ابنُ العَميد[٦٣] ثوبَ عَميد ، ورآها ابنُ هلالٍ[٦٤] أبعدَ من الهِلال ، وقال لها الصّاحب[٦٥] : ما أنا لكِ بصاحب !

وأمّا شاعِرُ المعَرّة[٦٦] ، ومُشاعِرُ كواكبِ المجرَّة ، فهي عَنقاؤُه التي

= وأدنَيْتني حتى إذا مـــافتنتني ... بقول يحلّ العصمَ سهلَ الأباطِحِ

وقال رَبيعةُ الرقيّ :

قلتُ شعراً يُنــزلُ الأعــ ... ـصَمَ من رأسِ الصَّيــاصِي

(٥٩) الموقور : المصابُ بالصَّمم .

(٦٠) سَحْبان : هو سحبان وائل الذي كان لسناً بليغاً ويضرب به المثل في البيان والفصاحة .

(٦١) إياسُ : هو أبو واثلة إياس بن معاوية ، يعد مثلاً في الذكاء والفطنة والفراسة ، توفي سنة ١٢٢ هـ .

(٦٢) عبد الحميد بن يحي الكاتب : أحد كتاب الترسل المشهورين بالبلاغة في أواخر العصر الأموي ، قتل سنة ١٣٢ هـ .

(٦٣) ابن العميد : كاتب مترسل بليغ ووزير لركن الدولة من بني بويه ، وتوفي سنة ٣٦٠ هـ . والعميد : المريض .

(٦٤) الصَّابي : أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي ، كان كاتب الإنشاء ببغداد لعز الدولة البويهي ، ويعد في البلغاء المترسلين ، ولم يسلم ، توفي سنة ٣٨٤ هـ .

(٦٥) الصاحب : هو إسماعيل بن عباد ، وأطلق عليه لقب الصاحب لصحبته ابن العميد ، كان بليغاً كاتباً مترسلاً ووزر لمؤيد الدولة البويهي ولغيره ، توفي سنة ٣٨٥ هـ .

(٦٦) أبو العلاء : أحمد بن عبد الله بن سليمان الشاعر المشهور المتوفى سنة ٤٤٩ هـ .

أكبَرها أن تُصاد[٦٧] ، وآثَر على مُعاندتها الاقتِصاد ، فَمَن يَتعـاطـاهـا بعـدَهُ وقد أُفحِم ، ووَقَذهُ العَجْزُ حتى رُحِم[٦٨] ؟ وأنّى لي بِمَن شُيّع بنانُـه بِجَنـان أَمّـار ، وشُعشِعَ بَيـانُـه بلسـانِ ابنِ عَمّـار[٦٩] . ومنطقٍ كوَشْي اليَمْنَـةِ[٧٠] ، ومُنتَطِقٍ بما شاءَ من أيْدٍ ومُنّة . فإنْ أبى ـ وحاشـاهُ ـ إلاّ اعتـداءً ، وشَفتْ منه ـ وما أراه مُسَائِلَني ـ داءً ، وتَسدّى[٧١] لِـدَخيلـة رَيْث ، وتَصـدّى نحو مَخِيلـةِ غَيث ، فسَأتَقـدّمُ خَطـأ وخَطـلاً ، وأُقْـدِمُ مكرهـاً لا بطـلاً[٧٢] . ومـا كل مـاشيـةٍ برحلٍ شملال[٧٣] ، ولا كلُّ نـاشئـةٍ محلٍ انسكابٌ وانهِـلالٌ [٦٥/أ] وأَخْلَفُ من سَحابةٍ مُمْحِل صُبـابـةُ منتحِلٍ عَرِيَ من لَبُوسِهـا[٧٤] ،

---

(٦٧) من بيتٍ لأبي العلاء . انظره في القطعة السّابقة .

(٦٨) وقذه : ضربه ضرباً شـديـداً ، وأراد هنـا أن العجز أضعفـه حتى استرخى وأشرف على الموت كالموقوذ .

(٦٩) ابن عمار : هو ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار الأندلسي الشاعر المشهور ، كان شاعر زمانه ، وكان ملوك الأندلس يخافون من لسـانـه ، وزر للمعتمـد بن عبـاد ، قتل سنـة ٤٧٧ هـ . وله ديوان مطبوع .

(٧٠) اليمنة : اليَمَن ، ويقال فيه أيضاً الْمَيْمَنة ، ووشيء اليمن مايصنع فيه من ثيـاب كثيرة الألوان .

(٧١) تسدّى الأمر : علاه وأخذه من فوقه ، قهره .

(٧٢) من المثل المشهور : « مُكره أخوك لا بَطل » . (أمثال العسكري ٢ : ٢٤٢) .

(٧٣) الشملال : (الناقة) السريعة .

(٧٤) السطر الأول من الورقة ٦٥/أ مشوّه من آثار الطَّمس المعهودة في هذا الموضع من أوراق النسخة المخطوطة . وقد استجليت المثبت استجلاءً وقدّرتها من سياق المعنى أيضاً .
ـ ثم راجعتُ الكلام على ما في الريحان . وفيه : « غيّر من لبوسها » .

وكَلَّف نفسَهُ ما لَيْسَ مِنْ سُوسِها[75] ؛ فأردَاهُ وَخِيمُها ، وغلبَتْهُ على النَّفْسِ سجيّتُها وخِيمُها[76] ؛ فإن مطَلْتُ فعَن عُسر ، وإن أطلتُ ففي غَيْر يُسر . رُبّ كريمٍ في الأَعِزّةِ مَطلُول[77] ، وغريمٍ كغريمِ عَزَّةَ ممطُول[78] ، عَلَّلَتْهُ بمطالع سَعْدٍ ، وذَلّلته بمَطامِع وَعْدٍ ، ومَنَّتْهُ فأَصْبَتْهُ ، وأَدْنَتْهُ حتى إذا سبَتْهُ ، بقولٍ يأذَنُ[79] له الجمادُ ، ويشْقى به الْجَواد ، ويُحْدى به الطَّوْد فينقادُ وينآد[80] ، فلما سرَت فيه الأَريحيّة ، وكَرَبت تَشْفِيه التَّحيّة ، حُلِّئَ[81] فخانَهُ الأمل ، وحُيّيَ مكانَهُ الْجَمل[82] . وعلى ذلك فما شَكا جفاءً إذ أخلَّت ، ولكنْ بكى وفَاءً حيثُ حَلَّت[83] ، وسَوّغَها صَفاءً

---

(٧٥) السوس : الطبع .

(٧٦) الخيم : الأصل . ومعنى الفقرة التالية من الحديث : « مَطْلُ الغنيّ ظُلم » .

(٧٧) مطلول : من طُلّ دَمُه : هُدر .

(٧٨) يشير إلى شعر لكثير عزّة ، وخاصة قوله ـ وهو بيت مُفْرَدٌ ـ (الديوان : ٥٠٧) :

لو أنّ الباخلينَ ـ وأنت منهم ـ رأَوْكِ تعلّمُوا منكَ المِطالا !

ـ ومَطله : سوَّفه وأجَّلَهُ . ومثله قوله (الديوان : ١٤٣) :

قضى كل ذي دَيْنٍ فوَفّى غَرِيَمَهُ وعَزّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غَرِيمُها

(٧٩) يأذن : يسمع . وفي الريحان : ودَاولته بمطامع وَعد .

(٨٠) ينآد : يجدُ مَجهوداً ومشقّةً .

(٨١) حُلّئ (عن الماء) : مُنع وطُرد .

(٨٢) يشير إلى قول كثيّر عزّة (الديوان : ٤٥٣) :

ليْتَ التَّحِيّة كانتْ لي فأَشكُرَها مكان (يا جَمل) حُيّيتَ يا رَجُلُ !

(٨٣) يشير إلى بعض شعر كثيّر عزّة ، وخصوصاً في تائيته المشهورة (في الديوان ٩٥ ـ ١٠٣) ؛ ومطلعها :

خليليَّ هذا رَبْعُ عَزَّةَ فاعْقِلا قَلُوصَيكما ثم ابكيا حيثُ حَلّت

ما استحلّت[٨٤] .

فأمّا ابنُ حُسَين أَحمد[٨٥] ، فَجَارُ أَيْنٍ لا يُحْمد[٨٦] ، تَأمَّل بعينٍ مُمْهاة[٨٧] ، وتحمّل إلى مَهاة[٨٨] ، واشْتَمل بصاحبٍ غيرِ غَزلٍ ولا عِزهاة[٨٩] . فبعدَ خَطفة سُفورٍ لا تُبارى[٩٠] قَدراً ، وَوقفةٍ كأظفورِ الْحُبارى قِصراً[٩١] ، ثاب من النَّعيم إلى الشَّقاءِ انفلاتاً ، وجَابَ إلى غَيرِ اللّقاءِ فَلاةً ، فَما صاحِبُه المرفّعُ لِتَرَقّيه ، الْمُدَفَّعُ بين تَراقِيها وتَراقِيه ، بأخشنَ حدّاً ، ولا بأَخْونَ عَهْداً . ولئنْ ناء ، بما ساء ، أبُو صخر[٩٢] فلقَدْ

---

(٨٤) يشير إلى قوله (ص ٩٥) :

هَنيئاً مريئاً غير داءٍ مُخامرٍ ... لِعَزَّة من أعراضِنا ما استَحَلَّتِ

(٨٥) هو أبو الطّيب (أحمد بن الحسين) المتنبي ؛ المتوفى سنة ٤٥٣ هـ .

(٨٦) الأين : الحيّة الذكر . وفي الأصل : « فجاري أين » . وأثبت نصّ الريحان .

(٨٧) العين المهاة : السائلة الدمع .

(٨٨) المهاة : بقرة الوحش (وتُشَبّه المرأة بها في المِشية والعَينين) . (الْمَهاة : كناية عن خولة ؟؟) .

(٨٩) العِزْهاة : العازف عن اللهو والنساء . ونذكر هنا قول المتنبّي ، ولعله هو المقصود من إشارة الكاتب (ديوان المتنبي : ٦٨٢) :

وللخَوْدِ مِنّي ساعةً ثم بَيْننا ... فلاةٌ إلى غيرِ اللقاءِ تُجابُ

وقوله : « واشتمل بصاحبٍ ... إلخ » يعني المتنبّي نفسه .

(٩٠) السُّفور : السَّفر .

(٩١) الأُظفور : الظُّفر . وفي الريحان : كوقفة أُظفور ومن كناياتهم عن القِصَر : أقصرُ من إبهام الْحُبارى . (المضاف والمنسوب : ٤٨٣) قال الثعالبي : وفي بعض شعر المولدين :

☆ أقصرُ من أظفورِ عُصفور ! ☆

(٩٢) أبو صخر : كنية كثير عَزّة الشاعر . وفي الريحان « ناء بما شاء » وهو تصحيف .

باءَ ، بما شاءَ ، من فَخر ، ولِشَيءٍ ما حازَ البَراعَة ، أخو خُزاعة[٩٣] ، ووُقِفت عَليه رقّةُ النَّسيب ، وصُرِفَت إليه رِبقةُ التَّشْبيب .

وأنا أُجلّ السيّدَ الأَوحدَ ـ دامَ عِزُّهُ ـ أن يَقْدَح زَنداً شَحاحاً[٩٤] ، ويَجْدَحَ[٩٥] صَلْداً لا مُتفَجّراً ولا سَحّاحاً[٩٦] ، فيحدُو بثِفَال[٩٧] ، ويشدُو على أثفال[٩٨] ؛ ومن لم يُناجز على تَفِئة[٩٩] ، ولم يُحاجز إلى فِئة ، ولا نَجا طمَعاً بعِقاب يوم ، فليُمْسِكْ طَبَعاً[١٠٠] بإعْقابِ لُوْم ولَوْم ، وما لِقرْنِه لا يُحِيدُ حقيقة ، وهو الوحيدُ إذا ركبَ طريقة ، ومَن الرَّديف[١٠١] وقد رَكِبَ هِزَبْراً[١٠٢] ، ومن يَستَطيعُ مَعه صَبْراً ؟ ولئن واقعتُ في التَّوقّف عُقوقاً ، ودافعتُ بيد التعسُّفِ حُقوقاً استوجَبْتُ عنه [٦٥/ب] ظُلماً عَبْقَريّاً ، فإنّي لأَرجُو منهُ حِلْماً مِنْقَرِياً[١٠٣] ، وإذا كان التَّوَقّفُ

(٩٣) أخو خزاعة : يريد به كثير عزة أيضاً لأنّ نَسبه في خزاعة .

(٩٤) الشّحاح من الزَّند : الذي لا يوري .

(٩٥) يجدَح : يريد أنه يستسقي صخراً أصم صَلْداً لا ماء فيه .

(٩٦) سحّاحاً : صَبّاباً دائم الهطل ، يريد أنه لا ماء فيه ولا خير منه يرجى .

(٩٧) الثفال : الجلد الذي يبسط تحت رحى اليد ليقي الطحين من التراب والتشتّت .

(٩٨) أثفال : جمع ثفل وهو الحبُّ (والخبز والتّمر) أو ما يؤكل من الطعام سوى اللبن .

(٩٩) على تَفئة : يقال أتيته على تفئة ذلك : أي على حينه وزمانه أو على إثره .

(١٠٠) طَبَعاً : الطّبعُ : الشين والعيبُ والدنس . واللُّوم : اللُّؤم . واللَّوم : معروف .
ـ الْمُحَاجَزة : الْمُسَالمة : ضِدّ الْمُنَاجَزَة . وفي الريحان : بأَعقاب لُوم ولَوم .

(١٠١) الرَّدِيفُ : الذي يركبُ خلف الرجل على الدابة .

(١٠٢) الهزبر : من أسماء الأسد .

(١٠٣) حلماً منقرياً : أراد به حلم الأحنف بن قيس الذي يُضرب به المثل ، إلا أنه نسبه إلى قومه بني منقر من تميم . (وانظر المضاف والمنسوب : حلم الأحنف : ٨٩) .

لانْحِسَـار ، ولم يكن الْمَطْلُ[١٠٤] عن ظهر يَسـار ، فحمل العَتب عِـلاوَة ، وأنا من الذَّنب فالجُ بن خَلاوة[١٠٥] ، ولو أطَقْتُ بَراعة الكِتـاب ، ووقفْتُ مُتَطـارِداً في رَجْعِ الجـواب ، مُستَمِـدّاً من تِلقَـائِـه لِـدُرَرٍ تُلفـظ ، وغُرَرٍ تُحفَظ ؛ ولو نال وَفْدُهُ من إرجائي نيل البَرِم[١٠٦] ، وسالَ نقْدُه بـأَرجـائي سيـلَ العَرِم[١٠٧] ، فشرقْتُ بعُجـابِـه[١٠٨] ، وغرقْتُ في عُبـابِـه ، لكنتُ مغبُوطاً لا مغبُونـاً ، ومحبُورَاً لا مَحْسُوراً[١٠٩] ، بل على منهج أُسوةٍ واضح ، ومَدرجٍ قُدْوةٍ عن راكبهِ ناصِح .

هـذه مفـاخرُ أَخـذتْ على فيض المعين مـداه ، وقَبضتْ من سَيب الْمُعين مابَسَطتْهُ يداه ، فـأَلزمت الشّحَّ ، وقيل : يـا مـاءُ لا تَسِحْ ولا تَسُحّ[١١٠] ، ولو أرسلت ينبوعَـهُ ، وتركتـه ونُبـوعَـهُ ، لبطـلَ عنـاءً وشقـاءً ، وتعطّـل رشـاءً وسِقاءً ؛ وفهقت[١١١] هنالك غُدرانٌ ورِداهٌ[١١٢] ، وصافحتْهُ أَيمانٌ وشفاه .

---

(١٠٤) المطل : التسويف والمدافعة في الدَّيْن وغيره . والإشارة إلى الحـديث المشهور : « مطل الغني ظلم » . (الفتح الكبير ٣ : ١٣٦) .

(١٠٥) تقول العرب في المثل : أنا منه : فالجُ بن خلاوة . أي بريء خالٍ .

(١٠٦) البرم : الضَّجر السؤوم . وفي الريحان : من أرجائي .

(١٠٧) سيل العرم : هو الذي كان سبباً بانهيار سدّ مأرب في مملكة سبأ اليمنية .

(١٠٨) شرق : أخذته شرقة أي غصة كادَ يموت منها .

(١٠٩) محبوراً : مسروراً . ومحسوراً : شديد الندامة على مافات .

(١١٠) سـاح المـاء (يسيحُ) إذا جرى على وجـه الأرض . وسحَّ : إذا سـال (المـاء) من فوق واشتدّ انصبابه وتَتابع . وفي الريحان : « يا ماءُ لا تَسُحّ » .

(١١١) فهقت : امتلأت .

(١١٢) رداه جمـع ردهـة : وهي الحفرة أو النقرة في الجبـل أو في صخر يستنقـع (أي يجتمـع) فيها الماء .

وهذا موسى عليه السلام رُفع في العِلم إلى نِهاية ، وشُيّع بآية[113] ، فتقبّل ماأتاه ، وتَحمّل بفتاه[114] ، وتجهّز بحوت في منحوت[115] ، فكان شأنه في البحرِ عَجباً ، ونِسْيانُه للذِّكر سبباً[116] ، فاشتدّا عند تذكارهما للبُغْية قنصاً ، وارْتَدّا على آثارِهما قَصَصاً[117] . فلمّا انتحَاهُ الْخَضِرُ[118] بسرائر من الْغَيْبِ مُشْكِلات ، وظواهرَ للرَّيب مُحْتَمِلات[119] ، أخَذ عليه في إظهارِه لبدائِعها ، وإيثارِه بوَدائِعها ، ميثاقَ الحِلْم ، إلى أن يُشهدَهُ مصداقَ العِلم[120] ، عَجِل إلى فرْطِ الإنكارِ ، وذَهِلَ عن شَرط الادّكار[121] ،

---

(١١٣) في الصّحيحين أن موسى عليه السلام قام خطيباً في قومه فسئل أيّ الناس أعلم ؟ فقال أنا ! فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه . فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب كيف لي به ، قال تأخذ معك حوتاً فتجعله في مِكْتَل فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ » إلخ (انظر القرطبي في تفسيره ١١ : ١٠ ـ ٤٥) . ويراجع تفسير (سورة الكهف) في التفاسير المعتمدة .

(١١٤) أي الذي كان معه يخدمه . وأطال المفسّرون في اسمه وحقيقته .

(١١٥) الحوت : السمكة . والمنحوت : السفينة .

(١١٦) أي نسيان الحوت .

(١١٧) في الآية ٦٤ من سورة الكهف ١٨ : ﴿ فَارْتَدّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ .

(١١٨) الخضر عليه السلام نبيّ أو عبد من عباد الله الصالحين ، رافقه موسى عليه السلام ورأى معه بعض الأعاجيب من الغَيْب .

(١١٩) ظَواهر الرَّيَب : يعني خَرْقَ السّفينة ، وقَتل الغلام ، وإقامَة الجدار .

(١٢٠) يعني أن الخضر عليه السلام قد أبان له الحكمة من أعماله التي بدتْ له مُريبة .

(١٢١) الادّكار من ادّكر (على وزن افتعل) من ذَكر . وأراد بشرط الادّكار ماحكي في القرآن الكريم على لسان الخضر عليه السلام : ﴿ قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ . الكهف : ٧٠/١٨

ولولا إسراعٌ وَهَب في تلك الحكم رَيْثاً[١٢٢] ، وإقشاعٌ أَذْهبَ من تلكَ الدِّيَم غَيْثـاً ، لـدرَّتْ أخلافُ القَصَص ، واستَمرّت آلافٌ من القِصَص ، ولو صَبَرَ لابْتَلى العَجب ، واجْتَلى من أسرَارِ الغيبِ مـا احتَجَب[١٢٣] ، وتلـكَ ليلـةُ القَـدْرِ تراءَى بهـا إعـلان ، فَـدُفِعَت ، وتـلاحى فـلانٌ وفـلانٌ فَرُفِعَت ، فحسبي أن أنذُرَ[١٢٤] للرّحمن صَومـاً ، [٦٦/أ] وأَشكرَ للزّمـانِ يومـاً ، وأَفِرَّ من هذا الْمَرامِ الْمُتَباعد العَويص ، والْمَقامِ القاعدِ بـالْحَرِيص إلى مَلامِ أَبي الشِّيْص[١٢٥] ، وأَخْشَعَ لِحفاظِه ، وأَسْمعَ اللُّغة التي يَلَـذُّهـا سَمعي حُسْنـاً ولو ضُمِّنَتْ ما يُجْري دمعي حُزْناً من أَلفاظه . وأَهلاً بعتابه وإن جَرح ، وحَلا لكتـابـه حيثُ سَرَح . فـلا عـارَ بِـزَنْـدٍ كَلَمَـهُ سِـوارُه[١٢٦] ، وحَـدٌّ ثَلَمَـهُ غِرارُه[١٢٧] ؛ فإنَّما هي آثارٌ ، بل أنوار ؛ صـدَرت عن عينِ الأَوان وصَـدرِه ،

(١٢٢) (في أمثال العسكري ١ : ٤٨٢) : « رُبّ عجلَةٍ تهبُ رَيْثاً ! » .

(١٢٣) يريد : لتتابعت من الخضر عليه السلام العجائب .

(١٢٤) في سورة مريم ١٩ : ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾ . الآيـة ٢٦ .
وقوله : « تَلاحَى ... » إشارة إلى حديث ليلة القدر : « تَلاحى رَجُلان فَرُفِعَت » .

(١٢٥) أبو الشيص محمد بن عبد الله بن رزين الخزاعي شاعر من شعراء صدر الدولة العباسيـة توفي سنـة ١٩٦ هـ . (انظر مقدمة شعره المجموع : أشعار أبي الشيص الخزاعي ـ جمعها وحققها عبد الله الجبوري ـ بغداد ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) .
والكاتب يشير إلى قول أبي الشيص ، وهو من مشهور شعره (الديوان : ٩٢ ـ ٩٣)
أَجِـدُ المـلامـةَ في هـواكِ لـذيـذةً   حُبّـاً لـذكرِكِ فَلْيَلُمْني اللُّـوَّمُ

(١٢٦) من قول أبي الطيب (ديوانه بشرح الواحدي : ٥٧٥)
بنـو كعب ومـا أثّرت فيهم   يـدٌ لم يُـدْمِهـا إلاّ السّـوارُ
وانظر عبارة ابن زيدون (هل أنا إلاّ يدٌ أدْماها سِوارُها ، وجبينٌ عَضّ بـه إكليلُـه ؟) في تمام المتون : ٦٥ ، وشرح العبارة ثَمّة .

(١٢٧) الغِرارُ : المثال الذي تُضْرَب عليه النعال لِتُصلح .

بـل عن شمسِ الـزَّمـان وبَـدْرِه . استشرفَ سـاهِرَ نَـوئهـا السَّمَرُ الرّاقِـد ، وحَسَدني باهر ضوئِها السُّهـا والفَراقِـد[١٢٨] . حـاسَنْتُ بهـا الْحَمَامَ في نضرةِ أَجْيَادِها[١٢٩] ، والأَيام في خُضرةِ أعيادِها ؛ والمبانيَ في إيوانها ، والمغـانيَ في شِعْبِ بَوَّانِها[١٣٠] . وساجَلْتُ ربيعةَ في دَغْفَلِها[١٣١] وأَبي بَصيرِها[١٣٢] ، وتميماً في هَمّامِها[١٣٣] وجريرِها[١٣٤] وهُذَيْلاً في أبي ذُؤَيبِها[١٣٥] وأَبي كَبيرِهـا[١٣٦] ، وخـزاعـةَ في دِعبلِهـا[١٣٧] وكُثَيِّرِهـا[١٣٨] ، وحَكَمـاً في أَبي نُـواسِهـا[١٣٩] ،

---

(١٢٨) الفرقدان : كوكبان قريبـان من القطب يهتـدي بها المسـافرون (في الصحراء وغيرهـا قديماً) . والفراقد جمع الفَرْقد .

(١٢٩) يعني طوق الْحمامـة : وأجيـاد جمع جيـد . وعيـد أخضر : جـديـد . والإيـوان إيـوان كسرى .

(١٣٠) شعب بوّان : بأرض فارس أحـد متنزّهـات الـدنيـا موصوف بـالْحُسن والنزاهـة وكثرة الشجر وتدفق المياه (معجم البلدان ١ : ٥٠٣) .

(١٣١) دَغْفَل بن حَنْظلة بن زيد الشَّيباني : نسّابة العرب (توفي سنة ٦٥ هـ) .

(١٣٢) أبو بصير ميمون بن قيس (الأعشى) من بني قيس من شعراء الطبقة الأولى .

(١٣٣) همام بن غالب بن صعصعة (الفرزدق) الشاعر المعروف (توفي سنة ١١٠ هـ) .

(١٣٤) جرير بن عطية بن الخطفي الشاعر المشهور (توفي سنة ١١٤ هـ . وقيل غير ذلك) .

(١٣٥) أبو ذؤيب الهذليّ : خويلد بن خـالـد شـاعر مخضرم من الفُحول . شـارك في الفتوح ، وتوفي سنة ٢٧ هـ .

(١٣٦) أبو كبير الهذلي : عامر بن الْحُلَيس ، مخضرم ، دخل في الإسلام . وله شعر كثير .

(١٣٧) دعبل بن عليّ الْخُزاعي (١٤٨ ـ ٢٤٦) شاعر عَبّاسي هَجّاء .

(١٣٨) كثير عزّة ، كثيّر بن عبد الرحمن الْخُزاعي (توفي بـالمـدينـة سنـة ١٠٥) شـاعر أموي مشهور .

(١٣٩) أبـو نُـواس الحسن بن هـانئ ، الحكمي ولاءً ، عَبّـاسي مشهـور (تـوفي ببغـداد سنـة ١٩٨ هـ) .

وحَنيفـةَ في عَبّـاسِهـا[١٤٠] ، وتغلبَ في كُلثـومهـا[١٤١] وأَبي فِراسهـا[١٤٢] ، ومُـزَيْنَـة في مَعْنِهـا[١٤٣] وإيـاسهـا[١٤٤] ، وإيـاداً في قسّهـا[١٤٥] وأبي دُوادِها[١٤٦] ، وحَرْباً في عُتبتها[١٤٧] وزيادها[١٤٨] ، وعُقَيلاً في تَوْبَتِها[١٤٩] وبشّـارِهـا[١٥٠] ، وأَسـداً في عمرهـا[١٥١] وعِرارهـا[١٥٢] ، ويَشْكُر في

---

(١٤٠) العباس بن الأحنف شاعر غزلٌ (توفي سنة ١٩٢) .

(١٤١) عمرو بن كلثوم شاعر جاهلي (توفي نحو سنة ٤٠ ق.هـ) . وهو من تغلب .

(١٤٢) أبو فراس الحارث بن سعيد ، الحمداني ، من تغلب أيضاً . فارس شاعر مشهور توفي سنة ٣٥٧

(١٤٣) معن بن أوس الْمُزَني مخضرم عُمّر طويلاً في الإسلام ، توفي سنة ٦٤ في المدينة .

(١٤٤) إياس بن معاوية الْمُزَني قاضي البصرة ، يُضرب به المثل في الفطنة والذكاء . توفي بواسط سنة ١٢٢ هـ .

(١٤٥) قسّ بن ساعدة الإيادي حكيم خطيب مشهور . رآه النبي ﷺ في عكاظ . توفي نحو سنة ٢٣ ق.هـ .

(١٤٦) أَبُو دُواد جارية بن حجّاج الإيادي شاعر جاهلي .

(١٤٧) عُتبة بن أبي سفيان أمير مصر مِنْ قِبَل أخيه معاوية وكان فصيحاً مهيباً . وهو في خطباء بني أمية . توفي سنة ٤٤ بالإسكندرية .

(١٤٨) زياد بن أبي سُفيان أحد الأمراء الولاة ، ومن دهاة العرب . توفي سنة ٥٣ هـ .

(١٤٩) توبةُ بن الْحُمَيِّر ، شاعر من عشاق العرب ، خطب ليلى الأخيلية فردّه أَبُوها . بقي على حبه وتشبيبه بها إلى وفاته سنة ٨٥ هـ . ولليلى فيه شعر ورثاء .

(١٥٠) بشار بن بُرْد العقيليّ ولاءً (٩٥ ـ ١٦٧) .

(١٥١) عَمرو بن شأس مخضرم أدرك الإسلام وأسلم وشهد بعض الوقائع في الفتوح . من فحول الشعراء . توفي سنة ٢٠ هـ .

(١٥٢) عرار هو ابن الشاعر عمرو بن شأس كان فصيحاً شريفاً سيّداً . وكان أبوه يحبه وله فيه شعر . ولعرار خبر مع عبد الملك بن مروان (ينظر ديوان عمرو بن شأس : ١٢ ، و ١٠٢) .

حَارِثِها[١٥٣] وسُوَيدها[١٥٤] وهَوازِنَ في تَمِيمها[١٥٥] ودُرَيدها[١٥٦] ، وطيِّئاً في طِرِمّاحها[١٥٧] وزَيْدِها[١٥٨] .

واستَنْـزَلْتُ بما بَعث من جَـذَل ، ونَفثَ من سِحْر بين عُـذْر وعَـذَل أَبا عَبّاد[١٥٩] عن مُدُنِه ، واستقبلتهُ بما يَضْرِبُ عَلى أُذنه ، ويَسْتَجْهِلُه في واواتِه ، ويُذْهِلُه عن مُتَخَيّره ومُنَمْنَماته ، ويُبَرْقِعُه بغُباره ، ويَقْطَعهُ عن مقطع أنفاره ؛ بأغراض عَفّتْ على الغَريض[١٦٠] واستهلاله ، وألوتْ بابن سُرَيج[١٦١] وأَرمالِه . وحطَّتْ ابنَ جَامع[١٦٢] عن درجةِ الإجماع واستبدّت

---

(١٥٣) الحارث بن حلّزة اليشكري من أصحاب المعلّقات . جاهِليّ .

(١٥٤) سويد بن أبي كاهل اليشكري شاعر من المخضرمين . توفي بعد سنة ٦٠ هـ .

(١٥٥) تميم بن أبيّ بن مقبل : شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم . وكان يبكي أهل الجاهلية !

(١٥٦) دريد بن الصّمة شاعر ، فارس ، جاهلي ، أدرك الإسلام وهو في أرذل العمر ، ولم يُسلم ، وقتل يوم حنين على دين الجاهليّة .

(١٥٧) الطرمّاح بن حكيم الطائي من فحول الشعراء الإسلاميين ، تبع رأي الأزارقة من الخوارج (توفي نحو سنة ١٢٥) .

(١٥٨) زيد الخيل سماه رسول الله ﷺ زيد الخير وهو زيد بن مهلهل من أبطال الجاهلية وفرسانها ، أسلم وتوفي سنة ٩ هـ .

(١٥٩) أبو عَبّاد لعله ثابت بن يحيى كاتب المأمون (تهذيب تاريخ دمشق ٣ : ٣٧٢) .

(١٦٠) الغريض لقب لمغنّ من أشهر المغنّين في صدر الإسلام ، وكان يضرب بالعُود وينقر بالدفّ .

(١٦١) عبد الله بن سُرَيج من أشهر المغنين في صدر الإسلام ، وكان يضع الألحان أيضاً ، وهو أول من ضرب على العود بالغناء العربي في مكة .

(١٦٢) إسماعيل بن جامع السهمي من أكابر المغنّين والملحنين . اتصل بالرشيد وحظي عنده .

دونه بالأبصار والأسماع . تُسلي أَبا دُلَف[١٦٣] عن جِنَانِه وتُرسِلُ من يَد أبي نُواس عِنان عِنانه[١٦٤] ! وتُلهي أَبا عَمْرو عن الزَّوْراء[١٦٥] ، وتقذفُ بابن عَادِياء عن عادِيهِ[١٦٦] الأقدم بالعَراء ، وتَطيبُ بها نفسُ [٦٦/ب] إسحاق[١٦٧] عن سليم ومُضَر الْحَمْراء !

فأُقسِمُ بالدَّجْنِ وتَقْصِيرِه[١٦٨] ، والدَّنِّ وعَصِيْرِه[١٦٩] ؛ والألحاظ

---

(١٦٣) أبو دلف العجلي : القاسم بن عيسى من الأمراء الأجواد الشجعان الشعراء . وكان ممدّحاً يقصده الشعراء ويجزل له العطاء . و (جنان) كان يذكرها أبو دلف في شعره . (انظر مثلاً الأغاني ٨ : ٢٤٦) .

(١٦٤) عنان الناطفيّة : جارية لرجل من أهل بغداد (هو الناطفي) وكانت ذكية شاعرة . لها مع العباس بن الأحنف وأبي نواس وغيرهما أخبار كثيرة .

(١٦٥) أبو عمرو هو أُحيحةُ بن الْجُلاح الأوسي ، شاعر جاهليّ من دُهاة العرب وشُجعانهم ، وكان سيّد الأوسِ في زمانه . وكان ذا حصون ومزارع وبساتين . والزوراء اسم مال (بستان) له ، وفيه يقول :

إني أُقيمُ على الزَّوراءِ أَعْمُرُها إنّ الكريمَ على الإخوانِ ذو المالِ !

(١٦٦) ابن عادياء هو السموأل بن غريض . شاعر جاهلي حكيم . وهو صاحب حصن الأبلق . وله أَخبارٌ في زمانه . وفي الريحان : « تقذف ابن عادياء عن عادة الإقدام ... » .

(١٦٧) إسحاق ؟

(١٦٨) يُشير إلى قَول طرفة (ديوانه بشرح الأعلم الشنتمري : ٣٤) :

وتقصيرُ يوم الدَّجن والدَّجْنُ معجبٌ ببهكنةٍ تحتَ الطِّرافِ الممدَّدِ

(الدَّجْنُ : إلباس الغيم السّماء . والبهكنة : التامة الخلق الحسنة . والطِّرافُ : البيتُ من أدم . والممدّد : المشدود بالأطناب) .

(١٦٩) من قول حسان بن ثابت (ديوانه ١ : ٧٥) .

كلتاهُما قلبُ العصيرِ فعاطِني بزجاجةٍ أَرْخاهُما للمفصلِ !

ـ وفي الريحان : فأقسم بالخدودِ وما نسَقَت ، والنُّهود إذا بَسقت والأَلحاظِ ... » .

وما حَرَسَت[١٧٠] ، والألفاظِ وما غَرست[١٧١] ؛ والغدائِر وما أظَلّت[١٧٢] ، والبَشائر إذا أَطَلّت[١٧٣] ؛ والنّواسِم ومَريض طروقها[١٧٤] ، والمبَاسم ووَميض برُوقِها[١٧٥] ، وزرقِ نطف الحِياض[١٧٦] ، وحديثٍ كقِطَعِ الرِّياض[١٧٧] ؛ على مِثْلِها من خَمائلَ أُحْمِلَت بالنَّوْرِ[١٧٨] ، وغلائلَ نشّرت في النَّجد والغَوْرِ[١٧٩] ، ويَوْمٍ غاب عُذّالُهُ عن الأفراح ، وليلٍ شابَ قَذالُه

---

(١٧٠) في الباب الأول من الزهرة للأصفهاني (١ : ٨) قال بعض الحكماء : رُبّ حرب جُنيت من لفظة ، وربَّ عشقٍ غُرِس من لحظة . ولأبي نواس شعر في هذا المعنى .

(١٧١) من قول جميل بثينة (ديوانه : ٢٤)

وأول ما قاد المودّة بيننا ... بوادي بغيضٍ يابثينُ سِبابُ !

(١٧٢) من بيت النابغة (ديوانه : ٩٦) :

وبفاحمٍ رجلٍ أثيثٍ نَبْتهُ ... كالكرمِ مالَ على الدِّعامِ الْمُسْنَدِ

ويشبهه قول امرئ القيس (ديوانه)

غدائره مستشزرات إلى العُلا

(١٧٣) البشائر جمع البُشرى .

(١٧٤) من قول ابن الدُّمينة (ديوانه :...) :

ألا ياصبا نجدٍ متى هِجْتَ من نجدِ ... لقد زادَني مَسْراكَ وَجْداً عَلى وَجْدِ

(١٧٥) من قول عنترة (ديوانه :) :

فوَدِدْتُ تقبيلَ السُّيوفِ لأنها ... لمعتْ كبارقِ ثغرِكَ الْمُتَبسِّمِ

(١٧٦) من قول زهير (ديوانه بشرح الأعلم الشنتمري : ١٣) :

فلما وردْنَ الماءَ زُرقاً جِمامهُ ... وضَعْن عصيَّ الحاضرِ الْمُتَخيِّمِ

(١٧٧) من قول بشار (ملحق ديوانه ٤ : ٥٥)

وكأن رَجْعَ حديثها ... قطعُ الرياضِ كُسين زَهْرا

(١٧٨) النور : الزهر الأبيض الذي يكون للشجر والنَّبات .

(١٧٩) الغلائل جمع الغِلالة .

بنُجـوم الراح[١٨٠] ، وعَقيرٍ مَجْرُوح[١٨١] ، وعَفير مَطْرُوح[١٨٢] ، ورُوْحَين انتظما ـ لُطفـاً ـ في رُوح[١٨٣] ، وأبـاريـقَ تَمُجُّ الرحيـق[١٨٤] ، وتُشَـجُّ بـالرّيقِ[١٨٥] الرِّيق ، مُـدّت بِسَـوالِف الظِّبَـاءِ في هَبّاتهـا ، وشـدّتْ أزرارَ الحبَاب على لَبّاتِها ؛ والقيـانِ إذا عَمـدْنَ ، فـأَصْلحْنَ وأفْسَـدْنَ ، وتَنـاهَبْنَ الدُّرَّ ، وتَجـاذَبْنَ السِّحْرَ ؛ وحِسَـابِ أوتـارٍ ، تُلْقِيـه يمينٌ على يَسـار ، بكل خَفيفٍ ذي حَفيف[١٨٦] ، صَؤُولٍ صَخُوبٍ ، ذي فـؤادٍ كأفئـدة السَّامِعيـهِ مَنْخُوب[١٨٧] :

عَطَـوْنَ بـهِ حَتَّى جرى في أَديمِـه أَصـابيـعُ من لبـآتِهُنَّ و طِيْبُ[١٨٨]

يَمين برٍ لا يَمِيْنُ ، ولـو ذهبت فيهـا الشّمالُ واليَمِين ، وأليّـة[١٨٩] دون

(١٨٠) القَذال : جماع مؤخّر الرأس من الإنسان .

(١٨١) العقير : الجريح من : عَقَرَه : جرحه .

(١٨٢) وعفره : مرّغه (في التراب) .

(١٨٣) من قول أبي نُواس (ديوانه ٩٢) :

مـا زلتُ أستـلُّ روحَ الـدَّنّ في لُطفٍ وأَسْتَقي دَمــهُ من جَـوفِ مجروحِ
حتّى انثنيتُ ولي رُوحـانِ في جَسـدٍ والـدنُّ منطرحٌ جسماً بـلا روحِ !

(١٨٤) من قول أبي نواس (ديوانه : ٤٣)

لكنمـا العيش في اللـذّات متكئـاً وفي السَّماعِ وفي مـجِّ الأبـاريـقِ

(١٨٥) شجّ الخمر بالماء : مزَجها .

(١٨٦) الخفيف : العُود ، والحفيف : الصوت .

(١٨٧) نخب الشيء : نزعه . ونخب الصّقرُ الصَّيْدَ : انتزع قلبه .

(١٨٨) عَطا الشَّيء : تناوله .

(١٨٩) الأليّة : اليمين . والمثنويّة : الاستثناء ، والغمُوس : الكاذبة .

مَثْنَوِيّة غَمُوس ، يُعِي فَتْقُها الرّاقع ، وتذرُ الدِّيارَ بَلاقع[١٩٠] . بل أُقسم بالأَصَادِق والفجرِ الصَّادق وارتماءِ البَوارقِ ، و « السَّماء والطَّارق » ، لا بل : « بِرَبّ المغارب والْمَشارق » ، قَسماً لا يكونُ حنثاً ولا مَنْدَماً : إنَّ قَدَمكَ فِي البَلاغةِ والتَّحْبِيرِ لأَرْسى مِنْ ثَبير[١٩١] ، ومن كُلّ جَبلٍ أَشَمّ كَبِير . وإنَّكَ لأَثْبَتُ في الإحسان من حَسَّان[١٩٢] ، ومن آل جفنةَ في غسَّان[١٩٣] ؛ ومن ربيعة في كنانة ، وحارِثَةَ في غُدانة[١٩٤] ؛ ومن زياد في ذُبيان[١٩٥] ، وبِسطام في شَيْبان[١٩٦] ، ومن شَهل في زِمّان[١٩٧] .

فما مَعْنى الانتفاء والانتِفَال ، بعد الاحتفاء والاحتِفال ؟ . ولو قال الغَمامُ الهاضِبُ[١٩٨] : « أنا جَهام » ونادى الحُسامُ القَاضِبُ[١٩٩] : « إنّي كَهام » لقيل : ياسَكوبُ ! قد قامتْ بثنائكَ السُّهول والأَوعار ،

---

(١٩٠) البلاقع : الخالية من كل شيء ، وفي الحديث : « اليمين الكاذبة تَدَعُ الديار بلاقع » .

(١٩١) ثبير : جبل ، وهو المشرف بمكة على حق الطارقيين (معجم البلدان : ٧٣/٢) .

(١٩٢) حسان بن ثابت الأنصاري .

(١٩٣) آل جفنة ملوك الشام قبل الإسلام من الغساسنة ، من اليمن .

(١٩٤) هو حارِثَةُ بن بَدْر الغُدَانّي (أَبو العنبّس) ، تابعي ، له شعر ، وله أخبار في الفتوح (توفي سنة ٦٤)

(١٩٥) هو النابغة الذبياني واسمه زياد .

(١٩٦) يعني بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني (توفي نحو ١٠ ق . هـ) سيّد شيبان وفارس من فرسان الجاهلية ، يُضرب المثل بفروسيّته .

(١٩٧) شهل هو شهل بن شيبان الحنفي شاعر جاهلي قديم ، وهو معروف بالفند الزّمّاني .

(١٩٨) هضبت السَّماءُ : مطرت . والجهَام : السَّحابُ الذي لا يُمطِرُ .

(١٩٩) الحسامُ القاضب : القاطع . والكهَامُ : الذي لا يقطع .

ويا رَسُوبُ ![200] قد شهدتْ بمضائك النُّدوبُ والآثار . فإلى أَيْنَ ياأسِيرَ كمالهِ وضِيائه ، وقَصير جَمالِهِ وبَهائه ؟ [٦٧/أ] أما علمتَ أَنّ الأَقْمارَ لا تبرحُ[201] مِن هالاَتِها ، ولا تنزحُ عن حَالاتِها[202] ؟

أمّا الظَّنُّ الْمُستَبْهِمُ الذي رَجَّمهُ ، والغَيب الْمُستعْجِمُ الذي عجَّمهُ ، فلولا أَنّها أنفاسٌ . حَصَرتْها أَنْقاسٌ ؛ وأَوهامٌ ، صوّرتَها أقلامٌ ؛ فتخالُ منها كل حَرفٍ ، شَخصاً ينطقُ بلسانٍ وينظرُ بطَرْف ؛ لقلتُ : حديثُ نَفْسٍ لَفَّهُ التَّجاوزُ في مُلاءَتِه ، وصَرَفَهُ الملكُ عن حِفْظِه وكَلاءَتِه . وكيفَ يُظَنّ بي احتقارُ الغَرْبِ[203] ، وهو مَطلع نجومِ العُرْب . ولو لم أكنْ إليه مُنْحَازاً ، ومن سواه مُمتازاً تَشهدُ بذلكَ الخُدودُ السَّاطِعة ، والخُطوطُ الْمُتَقاطِعة ؛ وأَنواءٌ من هنالكَ تَسْتقلّ ، وتُوافينا وقد كادَتْ تكِلّ ، وتُجاورُنا فلا تَسْتَهِلّ . فَبِكُمْ تُفتتح وبنا تُخْتَم وعنكُم تنزحُ وعندنا تخيّم . وأَقلّ حُقوقها أَنّا جميعاً بها نَرْتَضِعُ من خِلف[204] ، ونرجعُ إلى أُخوّة أَو حِلف ؛ لَمَا حُطَّ لي ـ إلا في تلكَ الدِّمن ـ رَحل وإلاّ فهوَ دَيْنٌ على الزَّمن بل ذَحْل[205] . وما يُلائمني من الأوطانِ حيثُ يطْلُعُ قَرْنُ

---

(٢٠٠) السكوب صفةٌ للسحاب الماطر . والرَّسُوب : السيفُ يغيبُ في الضّريبة .

(٢٠١) برحَ مَكانه : زال عنه .

(٢٠٢) نزح : بَعُد .

(٢٠٣) يعني غَرْبَ الأَندلس . وابنُ عَبْدون من (يَابُرَة) وهي من كورِ باجّة الأندلس .

(٢٠٤) أي من ضرع . وفي الرَّيحان : « فبكم تُفتتح وبنا تُختتم » .

(٢٠٥) الذَّحل : الثأر .

الشَّيطان[٢٠٦] . ولو لم يتعرَّف الغَرْبُ بأقطارِه الرَّحِيبة وأَمْطارِهِ الْمُصيبة ، وأَطْرارِهِ[٢٠٧] الخَصِيبة ؛ ولم ينزله مَنْ نزلَهُ من الصُّدور الأَعاظِم ، والبُحور الخضارِم[٢٠٨] ، والسُّيوفِ الصَّوارم ، واللُّيوثِ الضَّراغم ؛ لكفاهُ شرفاً ممدودَ رواقِ السَّناء ، آخذاً بآفاقِ السَّماء ، أَنّه بِهِ لِعُطاردَ فَلك ، وأَنْ ليسَ وراءَهُ في اتّقاد النُّبْلِ واعتقاد الفضل مَسْلك . وَلْيَهْنِئ العَنْقَاءَ أَنّ عَدمها حَقَن دَمها . وإذَا صِيْدَ الفَرا[٢٠٩] ـ وكلُّ الصَّيْدِ في جَوفِه ـ فما يُؤمِّنُها من خَوْفِه ؟.

كَلَّفَني ـ أيَّده اللهُ ! ـ شأوَ استطاعَتِه ، ولولا حَقُّ طاعَتِه ، الذي لا أَدينُ بإضاعَتِه ، لَما أَلْمَمْتُ ببِضاعَتِه ؛ ولآثَرْتُ السُّكوتَ رِقْبَةً ، ولم أَنطِقْ حِقبة . وكَمْ حَطَطْتُها عن المَراقي ، ورَدَدْتُهَا وَراءَ التَّراقي ، وصَرفْتُها إلى غيرِ التّلاقي . وخالَجَتْنِيها عَذارى أُمورٍ[٢١٠] ، وبناتُ صدُور[٢١١] ، سَكَنَّ الجَوانحَ بدلَ الخُدور .

---

(٢٠٦) إشارة إلى المرويّ : « الشمسُ تطلعُ بين قَرْنَيْ شَيْطان ، فإذا طلعت فارقَها ، فإذا ارتفعت فارقها » .

ـ ومقصد الكاتب الإعراضُ عن الشّرق ، وتفضيل الغرب .

(٢٠٧) الطُّرّة من الوادي والنّهر : شفيرهما (الطرف والحاشيةُ منها) .

(٢٠٨) الخَضارِم جمع الخِضْرِم : الكثير الواسع من كل شيء .

(٢٠٩) من المثل العربي : « كل الصّيد في جوفِ الفَرا » . (أمثال العسكري ٢ : ١٦٢) .

ـ قوله « وليهنئ العنقاء .ن الخ » يشير إلى أنه طائرٌ خُرافيّ .

(٢١٠) يعني : الأُمور الطارئة .

(٢١١) يعني : الهواجس ، وما يعترضُ . وفي الثّمار : ٢٧٥ : هي ما يُضمره الإنسانُ من الخير والشرّ .

وأنا أبرأ إليهِ من فُؤادٍ مَفؤودٍ ، وضَميرٍ مَزْؤود[٢١٢] ، وبديهةٍ بَكِيَّة[٢١٣] ، ورَويّةٍ غيرِ رويّة :

[٦٧/ب] وكَلّفني خوفُ ابنِ عبدونَ رَدَّها
فـأَرْجـأتُهـا حَـوْلاً كَريتـاً[٢١٤] ومَرْبَعـاً
وقد كانَ في نفسي ورَأيي اطِّراحُها
فلم أَرَ إلاّ أَنْ أُطيـعَ وأَسْمَعَـا

وإذا مُتِّعتُ ببقـائـه ، ولقيتُ الكمـالَ بلقـائـه ، ووقَـع وَبْلـهُ يَرتـادُ ، وارتفعَ بَيْني وبينَـهُ الإسنـاد ، واستَـدْرَكَ لي اليومُ فـائتَ الأَمْس ، وأغْنَتْ عن زُحَـل طَلْعَـةُ الشَّمْس[٢١٥] ، فـالـزَّمـانُ في هَـواي مُسـارع ، ولرضـايَ مُضارِع ، وبِمُرادي [بدرٌ][٢١٦] تِمّ طالع ، وعَلى الأعادي خَصمٌ ضالع .

متّعَ الله المجـدَ بسنـاه ، وأَطْلـعَ العَهْـدَ الـذي أَطْلَعَـهُ وأَدنـاه ، وحَرَس رِياسَتَهُ وعُلاه ، ونفسَ نفَاسَته وشَرّف حُلاه . فـاعْلُ عُلُوَّ الشَّمْس ، وأَصْبِحْ في السُّرورِ وأَمْس ؛ تَهمْي عليـكَ النّعمُ والسُّعـود . ودُمْ حتى يعـودَ أمسِ لِعلمي أَنّهُ لا يَعُود !

وسلامُ الله يُهْدى اتّصالاً ، ويَنْـدى بُكَراً وآصـالاً ؛ ويتفَـاوحُ طِيبـاً ،

---

(٢١٢) يقال : فأده : إذا أصاب فؤاده . زأده : أَفزعه .

(٢١٣) يقال : بكؤ فلان : إذا قَلّ أو ضعف كلامه خِلقَةً . ونقلها الكاتب إلى البديهة .

(٢١٤) الحول الكريت : التامّ .

(٢١٥) يشير إلى قول الشاعر ، وهو المتنبي (ديوانه بشرح الواحدي) :

خـذ مـا تراه ودع شيئـاً سمعت بـهِ
في طلعةِ الشمسِ ما يُغنيـكَ عن زُحَلِ !

(٢١٦) في الأصل فراغ بمقدار كلمة واحدة . ولعله فراغٌ من أثر ترميم فإن الصّورة لم تُفصح .

ويتنـــاوَحُ في ذُراكَ خَطيبـــاً ، ويَتَراوحُ سُرىً وتَـــأْوِيبـــاً ، على إمـــامي الأَسْمى ، وغَمامِي الأَهْمى : ورحْمَةُ اللهُ وبركاته تتابَعُ وتَحْمى[٢١٧] .

[٨٠]

ولَهُ[☆] ـ رحمه الله ـ :

إن نـأَيْتُ ـ أطـال اللهُ بقـاءَهُ ومكّن علاءَهُ ـ نِيّـةً ، عن عَمل ؛ ووَلَـج مُحِبٌّ من بابِ أُمنيّة ، وأَمل ؛ فَرُبّ نِيَّةٍ على رِضاهُ عقَـدْتُهـا ، وأُمنيّـةٍ إلى عُلاهُ وَفَدْتُها . ومَنْ تَقـدَّمَ ضميرُه وفؤادُه ، وهـاجَرت ثِقتُـهُ واعتِقـادُه ؛ فلا عَليه أَن يتأخَّرَ قِرطاسُه ومِدادُه .

بيدَ أنّي علمْتُ فَرط تَخَفِّيهِ ، وتوسّع مكانِ القَوْلِ فيه ؛ وأَنّي في ذلـك ـ إن تَكَلَّفْتُهُ ـ قَصِيرٌ أُطَـاولُـه ، وضَعيفٌ أُقـاوِيـه . فتركْتُ جـانِبَـهُ المرِيع مـا تركَني ، ولم أَتحَرَّك إلاّ بـالْمُـوالاة لمـا هَـزّني مِن سَرْوِه[١] الْمُسْتَـذيـع وحرَّكني . ولَسْتُ أَسومُـه فيما أَرُومُـه سَوْمَ مَن صَلّى القِبلتين[٢] ، ولا أَجْرَ

(٢١٧) في الأصل بعد انتهاء الرسالة هنا قوله « كملت المراجعة » .

[٨٠]

(☆) **رسالةٌ فيها تزكيـة لرجل لم يسمّـه واكتفى بنعتـه (الوزير الكاتب) . وفيهـا توصيـة بتقريبه والعناية به .**

(١) السَّرْو : المروءةُ في الشَّرفِ ، أو السخاء في مُروءة .

وقول الكاتب : قصيرٌ أطاوله من قول المتنبي (ديوانه بشرح الواحدي : ٥٤٠)

أفي كلّ يـــومٍ تحت ضبني شُـــوَيعرٌ   ضعيفٌ يقـــاويني قصيرٌ يطـــاولُ

(٢) يعني السـابقين إلى الإسلام الـذين أدركوا القبلـة الأُولى (القـدس الشريـف : الْمَسْجِـد الأَقْصى) .

مَن انتظَم الهِجْرَتين[٣] ، بـل حَسْبي أن أكـونَ مِمَّنْ أَكْـدى في الْمَتْـح[٤] ، وجاءَ يَسْعى بعد الفَتْح[٥] ، لا ، بل أُلقي بِيدي كُلَّ الإِلْقاء ، وأَتّسِمُ بِسِماتِ الطُّلَقاء[٦] ، وأَسْتأنِفُ تَوْبةً تُزْلِفُ[٧] ، ودِيمةً من العَمَلِ لا تُخْلِف ، وحـالاً من الإخْلاصِ والاختِصَاص [٦٨/أ] بهِ لا تَخْتَلِفُ .

هذا ـ أدام الله [عِزّكَ] صَدْرٌ صدّرتُ فيه بنَفْسي ، واستأثرتُ بـه على شقيـق هَـواي وابنِ أُنسي ، الـوزير الكاتب (أَبي فـلان) مُجمـل ذكرك ومُجزِلُ شُكرك ـ أَعَزّه اللهُ ـ ولو صَدقْتُهُ كُنْـهَ وُدّه ، وجَزيتـهُ بِوَافي عَهـده لَتزحزَحْتُ لهُ عن ذروتهِ ونَجْـدِهِ ؛ لكنْ قـدّمتُ ذِكري فِـديـةً وارْتِيـاداً ، وجَعلْتُـه إلى ذكرِه سَببـاً واستِطْراداً . فـإنْ جَرَت السَّوانِحُ[٨] كنتُ بَشيراً ، وإن تَعرَّضتِ البَوارحُ ناديتُه : « وراءَكَ ! »[٩] مُشيراً . وحاشـا لمجْـدِه من هـذه الأخيرةِ مـعَ وَفْـدِه . وإنّي لأَقْطَـعُ على الأُولى تَحقيقـاً ، وأُؤمنُ بِهـا

---

(٣) يعني الذين ظفروا بأجر الهجرتين : الأُولى إلى الحبشة ، والثانية إلى المدينة المنورة .

(٤) يقال : أكدى إذا بلغ الكُدية وهي الأرضُ الصُّلبة . والمتح : جذب رشاء الدّلو .

(٥) في الحديث : «لا هِجْرَة بعد فتح مكّة» رواه البخاري . وهو في الفتح الكبير ٣ : ٣٥٠

(٦) إشـارة إلى حـديث الفَتْـح ، المشهور في كتب السنن ، والسّيرة والتّـواريـخ ؛ وإلى كلمته ﷺ : « اذهَبُوا فأنتم الطلقاء » .

(٧) أزلفَه : قرّبه وقَدّمه .

(٨) السَّانِحُ : الطّائر الذي يُوليك ميامنه . يُتَبَرَّك به . وضدّه البارح . وفي أمثالهم : من لي بالسانح بعد البارح ؟ أي بالمبارك بعد الشؤم .

(٩) يُشير إلى الآية ١٣ من سورة الحديد : ٥٧
﴿ ... قيل ارجِعُوا وراءكم فالتمسوا نُوراً فَضُرِب بينهم بسورٍ ... ﴾ .

تَصديقاً ، ولا أرى لِسواهَا هُنـاكَ مَسْلكاً ولا طَريقـاً . وكيفَ ؟ ، وهـذا الفاضِلُ يُدلُّ بِفَضلٍ ، ويُـدْلي بِنُبْل ، وينتظِمُ انتِظـامَ الـدُّرَّةِ في سِلْكِـه ، ويَسيرُ تحتَ لوائِه ويتحصّلُ في مِلكه ، ويَنُوبُ عنهُ إن استَنابَـهُ ، ويُروي في أعَاديْه ظُفْرَهُ ونابَهُ ، ويطأُ بسَاطَهُ ويَعمر جَنابَـهُ ، ويلزمُ في غيرِ صُغْرٍ ولا مَضْيَعةٍ بابَه . وأَرَبُه وأَرَبي لـه ، وهو الحُسَـامُ إن يَخْتَبِرْ حـدَّه ، فـإمّـا نَفـاهُ[10] وإمـا أَعَـدّه . أنـا عَلى يَقينٍ من إعـدادِه ، ليَـومِ جِـلادِه ، وتَحلِّي عاتِقِه بنجـاده[11] ، وعلى ثِقَـةٍ أَنْ يُورِدَهُ مُهَج الأعمـالِ ، ويُمْطِيَـهُ ثَبَج[12] هذه الأَمْوال : وإنّما هو وُرودُ اقتضاءٍ وانتِقاد ، لا ورودُ اقتنَاءٍ واعتِقاد .

ومنـذُ تَقَلَّصت الظّـلالُ ، وشُمِّرَت الأذيـالُ ، وشـالَتِ الأَمـواهُ[13] ، وعصَبَ[14] بِغبْطِـك[15] الرِّيـق وذَبلت الشِّفـاهُ : انـدمجتْ فـائـدةُ النَّفـع ، وانطوتْ بينَ القَبْضِ والدَّفع . وليسَ لهُ معَ التّحقيق والتّجميل ، ولوغٌ إلاّ في هذا القلِيل ، وإن تَقدَّم من لا يُؤَخّر ، وقامَت دونَ من اسْتُنِيْبَ مَـدافِعَ أُخَر ؛ فتوضعُ المواسـاة تَعْـدِيلاً ، ويَتجـافَوْن عن بعضِ حُقـوقهم قَليـلاً .

---

(١٠) نفَى الشيء : نحّاه وأبْعَدَه .

(١١) النّجادُ : ما وقع على العاتق من حمائل السَّيف . أو حمائل السيف نفسها .

(١٢) الثَّبج من البحر : أعالي موجه ؛ (والثبج من كل شيء : معظمه) .

(١٣) شوَّلت المياه : قلّت .

(١٤) عصب الرّيقُ فاه : أيبسه .

(١٥) الغبط مصدر غَبط فلاناً : إذا تمنّى مثل نعمتـه (من غير أن يريـد زوالهـا أو تحويلها عنه) .

واستَغْنى عن هذا التّطويل بأن يَأوي إلى[16] ظلّك الظَّليل ، ويَستَقرّ في رأيِكَ الجَميل ؛ فهو أعمّ له إحاطةً ، وأتَمّ حِفظاً وحِياطة .

وبَالي إلى الْمُراجعة الخَطِيرة مُنصَرِف ، والفُؤادُ بين الجَوانح مُسْتَشرف [٦٨/ب] فإنْ رأيتَ ـ دامَ عِزُّك ! ـ تمهيدَهُ وتَسْكينَهُ ، وآثرتَ إقرارَ الوُدّ وتَمْكينه ، اعْتلَقْتَ حَجِيّاً[17] باعْتلاقِكَ قَميناً ، وسخَوْتَ على من لا يَزالُ بكَ شَحِيحاً ضَنيناً ، إن شاء اللهُ .

وأُقْرِئُكَ ـ أَدامَ اللهُ عِزَّكَ ! ـ سَلاماً عاطِراً ، عَالياً مُتواتِراً ؛ ثم السَّلامُ الأَوْفى على عِمادي الأَعلى ، ورحمةُ الله وبَركاتُه .

[٨١]

ولَهُ(☆) أيضاً في الزُّرْزُور رَحِمَهُما الله :

الحمدُ لله الّذي صدَرتْ عن حِكمتِه الأَشْياءُ ، وقامَتْ بأَمرِه الأَرضُ والسَّماء ، وبيَدِه الفضْلُ يُؤتيه مَن يشاءُ ، مُميت الأَحياء ، ومُحيي الأَموات ، ومُسَخّر الأَوقات ، ومُقَدّر الأَقوات : تكفَّل بالأَرزاق ، « فلا تَقْتُلوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إمْلاَقٍ ... »[1] ؛ فوعْدهُ مَأتِيٌّ ، وأَمْرهُ حَتْمٌ مَقْضِيّ .

---

(١٦) رسمها في الأصل : إلاّ .

(١٧) هو حَجِيٌّ بكذا : أي جدير . ومثلها : قَمين .

[٨١]

(☆) رسالة في الزُّرزوريّات . (يُنظَرُ ما في حاشية القطعة الأُولى من رسائل هذا الكتاب) .

(١) في سورة : الأنعام ١٥١/٦ ﴿ ولا تقْتُلوا أَوْلادكُمْ مِنْ إمْلاق ... ﴾ .

﴿ وَالَّـذي قَـدَّرَ فَهَـدَى ﴾[٢] ، ولم يترك شَيئـاً سُـدى ، فـأَرسـل رُسُلَـه تَتْرى[٣] ، وأَعقَب ببُشرى بشرى ، وأردفَ بـأُولى أُخرى ، حتّى وَضحت الدّلالة ، وخُتِمتْ بخاتِمها الرُّسل والرِّسالة ، صَلّى الله عَليهم عامَّة ، وعَليهِ وعلى آله خَاصَّة ؛ صلاةً تامَّةً ، مااتَّسق بَدْرٌ ، وانطبقَ على قَلْبٍ صَدْر .

رَحِمَ اللهُ امرأ برزَ فلم يَحْتجِب ، ورَأَى العَجَب فعَجِب ، وأنصَت لِيسْمَع ، ووعَى وجمع :

وهُلْـكُ الفَتى أَلاَّ يُرَاحَ إلى النَّـدى   وألاّ يَرى شَيْئاً عَجيباً فيَعجبـا[٤] !

مهلاً ! فإنَّما هو متْبوعٌ وتابع ، وقائِلٌ وسامِعٌ ، وثلاثةٌ لا رابِعٌ[٥] !

رجُلٌ أَوى إلى اللهِ ، فـآوَاهُ الله ، ورجُـلٌ استَحْيي فـاسْتَحْيي اللهُ منـه ، ورجلٌ أعْرَض فأَعْرَض اللهُ عَنـه[٦] . كنْ أَحـد الرَّجُلين فتهـدى ، ولا تكن الثّالث فَترْدى .

---

(٢) سورة : الأعلى ٣/٨٧

(٣) سورة : المؤمنون ٤٤/٢٣ ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنا تَتْرَى ﴾ .

(٤) البيت من قطعة في الأمـالي (٢ : ١٨١) رواهـا عن ثعلب لعلي بن الغـدير الغنوي . وأورد الجاحظ بيتين منها ، فيهما هذا البيت لحسّان بن الغدير مرّة ، ولعليّ بن الغدير مرّةً أُخرى (البيان والتبيين ٢ : ٢٤٢ ، ٢ : ٣٤٣) .

(٥) كذا في الأصل ، ولعلّه : « ثالث ثلاثة لا رابع » . على أنّه ـ عندي ـ غيرُ مؤوّل .

(٦) روى الإمام أحمد في مسنده (٣ : ٢١٩) : « .. من حديث أبي مرّة أن أبا واقـد اللّيثي حدثهُ قال : بينما نحن معَ رسول الله ﷺ إذ مَرّ ثلاثةُ نفر فجاء أحدهم فوجـد فُرجـةً في الحلقة فجلس ، وجلس الآخر من ورائهم ، وانطلق الثالث فقال رسول الله ﷺ : ألا أُخبركم بخبر هؤلاء النَّفر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : أما الذي جاء فجلس فآوى =

إليَّ ـ لَعَمْرِي ـ قَصْدُ كُلِّ عَجِيبة ومِنّي اسْتَفَادَ النّاسُ كُلَّ غَريبة فاشْكُروا اللهَ كما هَداكُم للخَيْر ، وعلَّمَكُم مَنطِقَ الطَّير . فها أنتم تَزْجُرون سَنِيحها[٧] ، وتَفْقَهُونَ تَسْبَيحها !

لعلّك امتريت[٨] ، وقلت : زُورٌ ما حَكَيت ؛ كلاّ ! ما هو زُور ، إنّما هو زُرْزور ؛ عَلَيْهِ اللَّيل مزرُور ، رشَّتْهُ النجومُ بأندائِها ، وذرَّت عليه من صَفائِها ؛ فهو مُنَمْنَمُ الدّواج[٩] بديعُ الائتلافِ والازدِواج ، يباسِطُكم البَعيد والقريب ، ويطارِحُكم المستَعْمَل والغَريب ، [٦٩/أ] يلقطُ الإحسان حَبّاً ، ويُضْمِرُه حُبّاً ، ويلفظه لؤلؤاً حَبّاً !

لا جَرَمَ أنَّهُ سابِقَ الحَبشة[١٠] ، المصَلّى بعدَ أَنْجَشَة[١١] . يَحْدُو القُلوبَ إلى تُقَاها ، وينفُث على الذُّنوب برُقاها[١٢] ، ويَكحلُ العُيونَ بألذّ من كراها ، ويَسْري إلى الأَرواح بأَلْطَف من سُراها ، بنغمة تُغني عن الزَّمْر ،

= فآواه الله ، والذي جلس من ورائكم فاستحى فاستحى اللهُ منه ، وأما الذي انطلق ، رجل أعرض ، فأعرض الله عنه » .

(٧) زجر الطير : أثارها ليتين بسُنوحها ويتشاءم ببُروحها . والسّانحُ والسَّنِيحُ : الطائر الذي يمرُّ من مياسرك إلى ميامنك . وعكس السانح : البارح .

(٨) امترى في كذا : شكّ .

(٩) الدُّوّاج (والدُّوَاج : بلا تشديد) نوع من الثياب . استعاره الكاتب لريشِ الزُرزُور .

(١٠) أي سابق أَهل الحبشة . واشتهر من أَغْربة العرب عدد من العَدّائين .

(١١) أنجشه : مولى للنبي ﷺ كان حادياً . وله قال ﷺ : « رُوَيْدَكَ يا أَنْجشه بالقَوارير » ؛ يعني النِّساء . وقوله « المصَلّى » : هو في الأصل في حلقة السّباق بعد المجَلّي .

(١٢) الرقية : العُوذة ، وجمعها رُقى .

وتعدِلُ حَلاوَة النَّهي والأمر ! فالأيّامُ معهُ [أنس ، وأجر][13] واللّيالي شَفقٌ وفَجر .

إن رَفثَ استَغْفَر ، وإن وَشَّح كَفَّر[14] ، وإن أَسْهَل أَحْزَن ، وإن لانَ اخْشَوشن . فما شِئْتَ من ضاحكٍ باك ، ومعافىً شاك ، ومن قُلوبٍ قاسية ترفّ ، وأذهانٍ صدئةٍ تَشفّ ، وحُباً[15] وَهَى عقدُها فانحلَّت ، ونفوسٍ « ألقت ما فيها وتَخلَّت » ، وأيدٍ قد فَتحت أغلاقَها ، وأسلمتْ أعلاقَها ، عن صَبوح أُرَقّقُ[16] وأظُنّك لا تُحَقّق . كلاّ ما سَرّحتُ بفَنَدٍ[17] ، ولا عَرَّضتُ بِصَفَد !

أما إنّ الحديثَ شُجون ، والعَيْش مُجون ، والمَذاهِبُ تتشَعَّبُ ، وربَّ جِدٍّ ساقَهُ اللَّعب[18] ، واللُّهى[19] لِلَّهاة كالتَّسبِيح بالسّهاة[20] . تلك

---

(١٣) استجليت الكلام تقديراً لخفائه في الصُّورة .

(١٤) وشّح من فنّ التوشيح . وأكثره في الغزل والصَّبوة وما إلى ذلك . والتَّكفير ، أو المكَفّرات قصائد وقطع وموشحات ـ أيضاً ـ في التّوبة والتّقوى والزّهد .

(١٥) حُبا جمع حُبوة .

(١٦) في أمثالهم : « أَعن صبوحٍ تُرَقّق ؟ » (أمثال العسكري ١ : ٢٩): يُضرب مثلاً للرّجل يُريد الشّيءَ فيعرّض به ولا يصرّح عنه !

(١٧) الفند : الخطأ ، والكذب . والصَّفد : العطاء .

(١٨) في الأمثال المولدة عند الميداني ١ : ٣١٨ « رب مزحٍ في غوره جِدّ » . وقال أبو نُواس :

صار جِدّاً ما مزحت بِه ... ربّ جِدٍّ جرّه اللعبُ !

(١٩) اللُّها : العطايا جمع لُهْوَة . واللَّهى جمع اللّهات (المعروفة من الحَلق) . ومما يجري مجرى المثل قول المحْدَثين : « اللُّهَا تفتحُ اللَّها » .

(٢٠) في كتب اللغة : السَّهواء : ساعة من الليل وصدرٌ منه .

تستَفْتِحُ مُقفلاً ، وهذه تَستَدْرِكُ مُغفلاً .وإن أَنطقَني نوالُكم نطقتُ ، وإنْ صَدَقني إحسانكم صَدقت ، فَحَلِّ لِساني ، واحْلُلْ عُقدةً من لِساني . رحم اللهُ الأَنصار ، أَينَ الواحَدُ الذي لا يعدِلُه الألف ، والصُرَّةُ تعجزُ عَنْها الكَفّ ؟ !

رُوَيدك ! لا لومَ حَتّى تُطربَ القَوم ، فَرفِّعْ من وَرِيدك ، وهاتِ بعضَ أَغارِيدك ، فإنَّ عَلَيْكَ الأَصوات ، وعليهِمُ الإنصات . وفي ذلك أقول :

[من البسيط]

هل كنتَ تعلَمُ قبل اليومِ زُرزورا ... يُهدي لكَ السِّحْرَ منظوماً ومَنْثُورا

مُنَغّمَ الصَّوتِ ، مَنْ يأْذَنْ لِنَغْمَتهِ ... لم يقترحْ بعدَها بَمّاً ولا زِيْرا[21]

من أينَ أُقصى ، ولي من كُلّ قاصيةٍ ... شَدْوٌ تركتُ بهِ المحزونَ مسرورا

ورُبّ مُولِي جَميلٍ قد سَجعتُ بهِ ... وكان لولا افتضاحُ الشّكرِ مَسْتُورا

وليلةٍ كحَلتْ مِنّي نواظِرَها ... بحكمةٍ مَلأتْ أَجفانَها نُورا

كَفأتُ[22] ظَلماءَها منها بسَاطِعَةٍ ... شَقَّت عن الصُّبح جَيْباً كان مَزْرُورا

[٦٩/ب] للهِ تلكَ فكَمْ من أنْفُسٍ ربقَتْ[23] ... وأَعيُنٍ غادَرتْها نَحْوها صُورا

---

(٢١) البمُّ والزير من أوتاد العُود .

(٢٢) كفأها : طردها .

(٢٣) ربَقه : ربطه بالرِّباق (حبل ذو عُرى لربط الدّواب) .

ذَخِيرة خَبَأْتُها الصَّالحاتُ لكُمْ والعِلْقُ ما زالَ مَخْبُوءاً ومَذْخُورا

مَهْلاً ! فما نَحْنُ إلاّ مِثْلُكُمْ أُمَمٌ تُسَبِّحُ اللهَ تَغْرِيداً وتَصْفِيرا

نَغدُو خِماصاً لأَرْزاقٍ مُقَدَّرةٍ[٢٤] فَنقتَضِي فضلَ رزقِ اللهِ مَوفُورا

مِن كُلِّ أرْقَطَ[٢٥] عنوانُ السُّهادِ بهِ يُقَطِّعُ اللّيلَ تَوشِيْحاً وتكفِيرا

ما زالَ مُغرًى بِبُرِّ البَرِّ يُكرِمُه إذا غَدا البُرُّ مَجْفُوّاً ومَهْجُورا

إذا نَثْرتَ لَه حَبّاً تتبّعَهُ لَقْطاً ، وأَوْدَعَهُ صَدْراً وتامُورا[٢٦]

هذا ـ وأَبيكَ ـ العذبُ الزُّلال ، والسِّحْرُ الْحَلال ، وعَفْوُ القَرِيحةِ ، وسُلافة الفِطَنِ الصَّرِيحَةِ ، وطَلٌّ يُؤذِنُ بوَابل ، وسهمٌ تقدَّم قبل ذَابِل[٢٧] . صدَر عن صدرٍ لم يَوْهَل[٢٨] ، ولهاةٍ لم تُبلل . فكيف إذا خالطته بشاشَةُ السّماحِ ، وغدا أثيثَ الْجَناح[٢٩] ؟ لا جرم أنّه ينثر الحِكَم ، ويُناجيكم بلسان أكثم[٣٠] ، ويتتَبَّعُ الشِّعر عَرُوضاً عَرُوضاً ، ويجعلُ لكلِّ قافيةٍ نَصيباً مَفْرُوضاً :

---

(٢٤) في الحديث ، رواه أيضاً في النّهاية « .. يرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بطاناً » .

(٢٥) الأَرقط : ما كان في لونه سواد يشوبهُ نقط بياض .

(٢٦) التامور : القلب ، وقيل فيه أقوال أُخَر .

(٢٧) الذّابل : الرُّمح (صفةٌ غالبةٌ) .

(٢٨) وَهِل : ضعف ، وفزع .

(٢٩) الأثيث من الشعر : الغزير الطويل .

(٣٠) أكثم بن صيفي (توفي سنة ٩ ق.هـ) حكيم خطيب جاهليٌّ . ضرب بحكمته المثل . قصد النبي ﷺ في مئة من قومه يريدون الإسلام فمات في الطّريق .

[من مخلّع البسيط]

جنـــاحُ زُرزوركَ الفَصيـــحِ إليـــكَ يهفُـــو بكلِّ ريـــحِ

أَقْبَـــلَ يَعْشُـــو[31] إلى كريمٍ تهـــزُّهُ نشـــوةُ الْمَـــدِيـــحِ

وقَلّما يكـــذبُ ارتيـــادٌ[32] دَعـــا إلى وجْهِـــكَ الصَّبيـــحِ

وهـــل لِبَـــاغِي النّـــدى وقـــوعٌ إلاّ على نَيلِـــكَ الصَّريـــحِ

فضلُـــكَ في الفـــاضلينَ طُرّاً فضـــلُ الْمُعَلّى على الْمَنيـــحِ[33]

مَنْ قـــاسَ منهمْ إليـــك فَرْداً قـــاسَ سَقِيمـــاً إلى صَحيـــحِ

يـــا حِيلـــةَ البُرْءِ إنَّ دائي منـــكَ لَيُشْكى إلى مريـــحِ

وكم تَلظَّيت من أُنـــاسٍ أَشكـــو إليهِمْ شَكـــوى الجريـــحِ

فـــاسْلَمْ ولا زَالت اللَّيـــالي دونَ مَـــدى عُمْرِكَ الفَسيـــحِ

وقـــلْ نعَمْ إذ سَنَحْتُ يُمْنـــاً تُضِفْ سَميحـــاً إلى سَنيـــحِ[34]

الخِطـــابُ [٧٠/أ] أَفْرادٌ ، والجمـــعُ مُراد ، وكُلُّكم يَمُنّ ، ويعمـــدُ إلى أحسنِ ماأَظُنّ ، وما منكم إلاّ مَن يتوجَّـهُ الخطـابُ إليـه ، ويروقُ المـديحُ عَليه ، ويستجيبُ إلى داعِيه ، ويَخالُ أنِّي أَعْنيه :

---

(٣١) عشا إلى النار : رآها ـ ليلاً ـ فقصدها ..

(٣٢) في الحديث : « إن الرّائد لا يكذبُ أَهْلَهُ » .

(٣٣) الْمُعَلّى : سابِعُ سهامِ الْمَيْسرِ (له سبعة أنصباء عند الفوز ، وعليه سبعةٌ إن لم يَفُز) . والمنيح : قِدح بلا نصيب .

(٣٤) كانوا يتفاءلون بالسانح من الطير (أو السّنيح) . وقد مرّ في شرح هذه القطعة .

لو كانَ في الألْفِ منكُم واحدٌ فدَعوا مَنْ سيِّدٌ؟ خالَهُمْ إيَّاهُ يَعْنُونا ![٣٥]

إن لُقِيَت الأُسعدُ لُقِيتُم، وإن سُقِيَ كِرامُ النَّاسِ سُقِيتم[٣٦]، أَحسِنُوا الملأَ فكلكم يَروى، وأَنّى بقبسَةٍ عنكُم تُزوى؟ وأين يعدلُ عنكُم حُرُّ الكَلام، وأنتُم مِلْحُ الأَنام، وحَسناتُ الأَيَّام؟

[من مجزوء الرجز]

يا سادَتِي إنّ النّدى	أقربُ مغروسٍ جنى
تَغْرُسُه في لحظةٍ	وقبلَ أُخرى يُجْتَنى
ما المرءُ إلاّ ذِكْرُه	فَخلِّدُوا حُسْنَ الثَّنا
ولقّنُوا زُرزورَكُمْ	شُكرِكُمُ لِيَلْقَنا
وزَوِّدُوا ضَيفَكُمُ	ذِكراً جَميلاً حَسَنا
وأنْطِقُوهُ بالَّتِي	في نَشْرِها نَيْلُ الْمُنى
تُخرسُ عنكمْ أَلسُناً	لُدّاً وتُذكي أَلْسُنا[٣٧]
إنّ لكمْ في جُؤْجُؤي[٣٨]	حبّاً وحُبّاً أوطنا
أنا الّذي أشدُو بِكم	في كُلّ أُفقٍ مُعْلِنا !

---

(٣٥) من قول بشامة بن جزء النهشلي (الحماسة ١ : ١٠٧) :

لو كانَ في الألْفِ مِنّا واحدٌ فدعَوْا من فارِسٌ؟ خالَهم إيّاهُ يَعْنُونا

(٣٦) من قوله من مطلع القصيدة المذكورة آنفاً :

إنا محيُّوك يا سَلمى فَحيِّينا وإن سَقيتِ كِرامَ النّاسِ فاسْقِينا

(٣٧) لُدّ جمع أَلَدّ : الخصم الشحيح الذي لا يزيغ إلى الحقّ . وتُذكي من أَذْكى . يقال : أذكى فلانٌ النار : أوقدها والحربَ : أضرمَ نارها . وأورد الكاتب العبارة على المجاز .

(٣٨) الجؤجؤ : الصّدر ، والجمع جآجئ .

وَرُبَّما حَدَّثْتُكُمْ عَن عَرفاتٍ ومِنى
وطُفت بالبيتِ الذي طُهِّرَ من كُلّ خَنا[٣٩]
مُقْتَنِياً من وُدّكُمْ أنْفس عِلْقٍ يُقْتَنى
وداعِياً جَهدِي لكُمْ دونَ فُتورٍ أوْ وَنى
ويرحَمُ الله امرأ على دُعائي أمّنا[٤٠]

هذا جَنًى فيه خيارُه[٤١] ، وأملٌ عليكُمْ مَدارُه ، وإليَّ الطّاعَةُ ، ومنكُم [٧٠/ب] الاستطاعة . فأَقْرِضُوا اللهَ أحسنَ القَرْضِ ، ومَكِّنُوني من وُجوبِ الفَرْض ، لأَضَعَ الأوزارَ ، وأكونَ أوَّلَ زرزورٍ زَار ، وأحُلّ حيثُ لاأَحْذَرُ شَرِكَة ، ولا أعدمُ بَرَكة . وبين يديه أُحجِيةٌ تحتجبُ غيرَ إيماء ، و « تَمْشِي على استحياء » ، فأَجِيلُوا أَذْهانَكُمْ ، واستخبِرُوا أذهانَكُم :

[من السريع]

كم مُقْلَةٍ من مُقَلِ الْحُور تَبسمُ بين التّينِ والطُّورِ
كحلاءُ دَعْجاءُ[٤٢] ولكنّها تنظرُ مِن «نورٍ على نُورِ»[٤٣]

---

(٣٩) الْخَنا : الفحش .

(٤٠) قال : آمين .

(٤١) من قول عمرو بن عديّ ابن أخت جذيمة الأبرش . وكان جذيمة قد نزل في أرضٍ وأمر أصحابه باجتناء الكمأة ، وكان بعضهم يستأثر ببعض مايعجبه ، وكان عمرو يأتي بجناه (مايجمعه) دون نقص وهو يقول :

هذا جناايَ وخيارهُ فيه إذ كل جانٍ يدهُ إلى فيه

(أمثال العسكري ٢ : ٣٦٠ ، واللسان ج ن ى) .

(٤٢) العين الدَّعجاء : السَّوداءُ الواسِعَةُ . والكاتب الشاعر يدير الكلام على (الزيتون) .

(٤٣) من الآية الكريمة : ﴿ نورٌ على نُور ﴾ في سورة النور ٣٥/٢٤ .

مِسْكِيَّـةٌ عَرْفـاً[٤٤] ولـونـاً فـإنْ	تَرقرقَتْ سـالَتْ بكافُـور
تلـكَ الّتي بـوركَ في رِسْلِهـا[٤٥]	فـانبجَسَتْ بـالعَبَـقِ الْجُـوري[٤٦]
«تُنْبِتُ بـالـدُّهنِ» وصِبْغٍ لـهُ[٤٧]	لـدونـةٌ في كُـلِّ حُنْجُـورِ[٤٨]
صَـافِي ضَمير الغَيبِ ذِي رونَـقٍ	من ريقَـةِ الْجَـوْنَـةِ مَقْصُـورِ[٤٩]
سُبْحـانَ مَنْ أَبـدعَـهُ كَـوكبـاً	مُلْتَمِعـاً من قطـعِ دَيْجُـورِ[٥٠]
يـا جَنّـةً أَرَّقنِي حُبُّهـا	هـلْ لـكِ في نَفْثَـةِ مَصْدُورِ؟
مـا تَـأمُرينَ اليـومَ في وامِـقٍ[٥١]	يُـدنيـكِ من قَلْبٍ وتـامـورِ؟
يـا حَبَّـذا دَوْحُـكِ من نـاعِمٍ	مُستصحَبِ البَهْجَـةِ منظُـورِ
يرفُـلُ في سُنـدسِ أبرادِهِ	إذا تَعرَّى كلُّ يَخْضُـورِ
إنْ كُفِرَ الكَرْمُ فمـا زلتُ ذا	جَيْبٍ على الإيمـانِ مَـزْرُورِ
تلـكَ يُـوَلّيهـا الْخَنـا أهلُهـا	وخُطَّـةُ الإسرافِ والـزُّورِ[٥٢]

---

(٤٤) العرف : الريح الطيبة .

(٤٥) الرِّسل : الرخاء والخصب .

(٤٦) « جُوْر » مدينة يُنسب إليها الورد . يقول : انبجست بعبقٍ كعبق الورد الْجُوري .

(٤٧) في سورة المؤمنون ٢٣/٢٠ : ﴿ وَشَجَرةٍ تَخْرُجُ مِن طُوْرِ سَيْناءَ تنبتُ بـالـدُّهنِ ﴾ وهي شجرة الـزيتـون ، والـدهن زيتُهـا . قرئ تُنْبِتُ (بضم التـاء) وتَنْبُتُ . وضبطهـا في المخطوطة كما أثبت . (تراجع وجوه القراءة في تفسير القرطبي مثلاً ، في ج ١٢ : ١١٥) .

(٤٨) الْحُنجور : الحلقُ ، وجوف البُلعوم .

(٤٩) الجونة : الشمس .

(٥٠) الـديجور : الظّلامُ . تلتمع حبّـة الزيتون ، وتتلألأ ، وهي سـوداءُ في لـونها ، كالليـل البَهيم .

(٥١) الوامق : المحبّ .

(٥٢) لأن العِنَب ، ثمر الكرم ، قد ينحو به بعض الناس إلى الشراب المحرّم .

وأنت طُهرٌ وأمـــانٌ لَنـــا　　من كُـلّ مَخْشِيٍّ ومَحْـــذُورِ
أُنسُ بُيـــوتِ اللهِ إن أوحشَتْ　　وبُعْـدُهــا من كُـلّ مَحْظُـورِ
فـــأَشْرَف الخيرُ الّــذي لم يـزَلْ　　ذَا شرَفٍ في الــدَّهْرِ مَــذْكُـورِ
أفِضْ عَلينـا من جَنـاكَ الّـذي　　فـاضَ بِبَحْرٍ فيـكَ مَسْجُـورِ[٥٣]
حِلفِيَ أَوْلى من دِنـانٍ غَـدا　　سَعْيُــكَ فيهــا غَيْرُ مشكـورِ
هـلْ لـكَ في ذي كَبـدٍ رَطْبَـةٍ[٥٤]　　تُصْبِـحُ فيهـا جِـدَّ مـأجُـورِ؟!

هذا ـ أعزّكم الله ـ غرضٌ أُعجِلَ عن تَمامه ، وزهرٌ لم يخرجْ من أكامِـه ...[٥٥] [٧١/أ] أبدى لكم صَفاءه ...[٥٦] وراءه . وهـذه الفرائـد أنس خرائـد[٥٧] ، لا يستَـدْرِجُها إلاّ الإحسـان ، ولا يبرزهـا إلاّ « الْخَيْراتُ الحِسَـان »[٥٨] ، ومثلُكم جَعل المعروفَ نَقداً ، وتابَعَهُ سَرْداً .

آواكم اللهُ إلى كنَفِه ، ولا أعْدَمكم مضاعَفَ عِوَضه وخَلَفِـه . ولِلْمَجـالِس حَـدّ ، وقـد سبـقَ بـالـتَّـوشيـح والتَّكْفِير وَعْـد . وربّ كريم الاهتزاز ، مُسْتشرفٍ إلى الإنجاز ، قد مطِلَ بحظّه من الإمتـاع ، وأجمَل في الاستِماع .

---

(٥٣) البحر المسجُور : المتلئُ .

(٥٤) روى الإمام أحمد في مسنده (٢ : ٣٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . في خبرٍ ساقه أنه ﷺ قال : « في كل ذي كبدٍ رطبة أجر » .

(٥٥) نحو ثلاث كلمات مطموسة من رأس الورقة ٧١/أ .

(٥٦) كلمة مطموسة .

(٥٧) الخريدةُ من النساء : البكر ، أو الخفرة الْحَيِيّة ، الشابّة .

(٥٨) في سورة الرحمن ٧٠/٥٥ ـ ٧٢ : ﴿ فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسَانٌ . فَبِأيِّ آلاء رَبّكما تُكَذِّبان . حُوْرٌ مَقْصُوراتٌ في الخِيامِ ﴾ .

فليُصِخْ راشِداً ، فقد صادَف الْمُنْشِدُ نـاشِـداً[٥٩] ؛ وليَكْرَعْ في حِيـاض[٦٠] ، وليَرْتَعْ في بَسـاتين رِيـاض ، ولْيَنْثُر الْحَبّ ، ولْيُعِـدْ مـا استحَبَّ ، إنْ شـاءَ الله .

[٨٢]

ولَهُ[☆] إلى ابْنِ عُبَادَة مِنْ جيّان ، رحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِما :

[من الطويل]

إذا ما جَهدْتُ النَّفْسَ أبلغتُ عُذْرَها ولا لـومَ في أمْرٍ إذا بُلِـغَ العُـذْرُ
لعمركَ مـا الشَّكْوى بـأمرِ حَـزامَـةٍ «ولا بُدَّ من شَكوى إذا لم يكن صَبْرُ!»[١]

الأُمْنِيَّةُ ـ أيَّدك اللهُ ـ خُدَعـة[٢] ، والنَّفسُ طُلَعَـة[٣] ، لا يَرُدُّهـا مظهَرٌ

(٥٩) يقال أنْشَدَ الضالّة : استرشد عنها . والناشِد : الْمُعَرِّف . وقيل العكس أيضاً : فالناشد طالب والْمُنشِد : المعرّف . وقال أبو دواد الإيادي (اللسان ص ي خ ، ن ش د) :
ويُصيخ أحياناً كما اسـ ـتمع المضلُّ لصوتِ ناشد
(٦٠) من قولهم : كرَع في الماء ، وكرع في الإناء .

[٨٢]

(☆) رسالة إلى ابن عبادة (؟) من مدينـة جَيَّـان ، بعث بهـا مع أخيـه (لم يسمّ أخـاه) ، وقد صدرت الرسالة من مدينة فاس بعدوة المغرب .
وأطال الكاتب الحديث عن الأُمنيّة التي تحفزُ الإنسان ، وتقذفُ به في أقصى الأرض .
(١) يُقال : حَزُمَ حَزْماً وحَزامةً وحُزمة : صار عاقلاً مميّزاً ذا حكمة .
(٢) الْخُدَعة : من يخدع الناس كثيراً .
(٣) الطُّلَعة : التي تكثر التطلّع إلى الشّيء .

تَعلوه ، ولا يذودُها شَجرٌ تَبْلُوه[٤] ، ولا تهولُها مهلكةٌ تَغُولُها ، ولا تَثنيها مجاشِمُ تَثْنِيها ، تَسْتَخِفُّها كلُّ بارِقةٍ ، وتستَقِيدُها كلُّ طارِقة ، ويدعُوها الهوى فتَبْتَدِرُ ، ولعلَّ مُورِدَهُ لا يُصْدِر .

أَجلْ ! إنَّها لا تَسْأَمُ احتِمالاً ، ولا تُبصرُ عاقبةً ولا تحذَرُ مَآلاً ، إلى اللهِ أَشْكُوها نَفْساً قليلةَ الهُدوء ، أمّارةً بالسُّوء : « تعبَ جِسمي في مُرادها » ، ولعبتْ بهِ في ضَلالاتِ ارتيادِها . تَعْساً لها ، فكمْ من حَليمٍ سَفَّهت ، وكريمٍ أخجلتْ وجَبهت ، وحادثةٍ من مَرْقَدِها نبّهت ، وسبيلِ رُشدٍ تنكّبتْ ، وسليلِ مَجْدٍ عثَرت ونكَبت . هذه الخِلالُ ذهبتْ بخَلّهِ وخَمْرِه ، وأبو مسلم فرغتْ من أَمْرِه[٥] ! والبَرامِكَةُ الصِّيدُ ، هَشيم أو حَصِيد . وذاك ابنُ زَيَّاتِها[٦] ، أكلةٌ في لَهَواتِها ، ومحتسبٌ في سبيلِ شهَواتِها ، وما ضَرَّها لو فَدَتْهُ ، ونصيحتَها أورَدتْه ؟!

أعوذُ باللهِ من شَيطانها ، وأستَعْديه على نشاطِها ورَيْعانِها ، وغلوها [٧١/ب] وإمعانِها ، وأستكفُهُ ما جَمحَ من عِنانِها !

حملتُ ـ أعزّك الله ـ عَليها حَمْلَ مُدَجَّج[٧] ، وتعامَيْتُ عَمَّا لها من الْحُجَج : فما لَها تقديمٌ ولا تأخير ، وهل هي إلا مشيئةٌ وتَسخير ! لا حَت

---

(٤) مقتبسة من قول أبي نواس ، وقد سبق في هذا الكتاب :

لا أذودُ الطّيرَ عن شجَرٍ قد بلَوْتُ الْمُرَّ من ثَمرهْ !

(٥) أبو مُسلم الْخُراساني .

(٦) الوزير الكاتب محمّد بن عبد الملك الزيّات .

(٧) هذه الكلمة غير واضحة ، مبتورة الأعلى : وهي مستظهرةٌ استظهاراً .

آيةً ، ورُفِعَت غايَة ، ونُصِبت رايَة ، ونَثرت لها الرّزق فاكهةً وحَبّاً[☆] ، وأرَتْها الصَّبا مَهبّاً . فكان في حقّها أن تتحوَّلَ إلى شقّها ، وتسقطَ على رِزقها ، فسقطَت حيث سَقطتْ ، ولقَطت ما لقَطت ، حتّى إذا انتهى العَفْوُ ، ونَفِدَ من تلك السُّلافة[٨] الصَّفْو ، وَبُثّت حبائلُ ونُصِبت شَرَك ، ولم يَبْقَ إلاَّ ما التِقاطُه واسْتِراطُه[٩] دَرَك ، عرَضت سراحَها[١٠] ، ونفضَتْ جنَاحها ، لا جرَمْ ! إنّها أجدّت ابتِكاراً ، وغادَرت القُلوبَ لِهَواها أوْكاراً ، وألزمت الأكارمَ شوْقاً وتذكاراً ؛ فكم صَدْر تركتْهُ يَزفرُ ، « وكم مثلها فارقَتْها وهي تصفِرُ » .

وإنّي ، ولو ضَنّ الأميرُ بإذنه على الإذْنِ من نَفْسي إذا شئتُ قادِرُ

كلاّ ! لعمْرُ اللهِ لقد أَذِنَ ، ويعلَمُ اللهُ أَيّنا غُبِن ، بيدَ أنِّي أشكُر نَداهُ ، وأقُولُ : لا تَرِبَتْ يَداهُ ! ، فما عَدمْتُ منه إقْبالاً ، ولا شاهَدْتُ إلاّ كَرماً وإجْمالاً . فَمَنْ شاءَ فليشددْ إليها غرَض رحلِه ، ولْيَنَلْ مثلَها من مِثلِه .

ألمعتُ لكَ ـ أعزَّك اللهُ ـ بالغَرضِ ، وقضيْتُ بعضَ الْمُفْتَرض . وأخي ، مُكْبِرُكَ ـ أبقاهُ اللهُ ـ يُوسِعُكَ من حَالي شَرحاً ، ولا يُبقي لكَ بَرْحاً . وما هَزَّني ـ عَلِمَ اللهُ ! ـ إلى ذلك الأُفق غِنى تخيّلْتُه ، ولا ظهورٌ تأوَّلتُه ؛ بل كانَ المقصدُ أن أُمهِّدَ للانتِقال ، وأنظرَ لتلكَ الحَال ، وأرتادَ لمنْ ورائي ، وأحتاطَ على صُبابَةِ إنائي ، وأُفْلِت بِرَمَقي وذَمائي . وإذ لم

(☆) من قول بشار المشهور (ديوانه : ١١١) : يسقط الطّيرُ حيث ينتثرُ الحبُّ ... الخ .

(٨) السُّلافة : أول كلّ شيء يُعصر ؛ والخمر أول ماتُعصر .

(٩) اسْتَرطَه في حَلقه : أي سارَ سَيْراً سَهلاً (فانْسَرطَ) .

(١٠) السَّراح : السّهولة . وفي أمثالهم : السَّراحُ من النَّجاح !

أَقْضِ ذلكَ عاملاً ، فقد آثرْتُه عاطِلاً . وها أَنا بفاس[١١] لا أَرى هناك مُرتجعاً ، ولا أتصوّر مَطمعاً ، وأنتُم هناكَ أرْكانُنا ، وإيمانُكم في التّعاضد إيمانُنا .

نفع الله بهذه الغُرْبَةِ ، ولا فجعَنا بتلك التُّرْبَةِ ، بِعزّته .

[٨٣]

ولهُ[☆] ـ رحمةُ اللهِ عَلَيْه ـ :

يا سيِّدي الأَعلى ، ومُعْتَمدي الأَقوى ، وحُسامي الأَمْضى ، وهُمامِي الأَرْضى ، ومَن أطَال اللهُ بقاءَهُ [٧٢/أ] للخطّةِ فاصِلاً ، وللخلّةِ وأسبابِها وَاصِلاً ، وعلى الشُّكر والأجرِ ... ...[١] حاصلاً .

مِثْلُك ـ أعزّك الله ـ يُعْتَامُ[٢] بالْخَطيرِ النَّفيسِ ، وتَزُورُه عِتاقُ العِيس ، قد قَطعتْ نِياطَ مَفازِها[٣] ، ونَصلتْ نُصولَ[٤] السِّهامَ منْ

(١١) يعني مدينة فاس بالمغرب . انظر مقدّمة التحقيق عن حياة المؤلّف ، ودراستنا عنه في (ابن أبي الخصال : رئيس كتاب الأندلس) في سلسلة (أعلام الفكر) .

[٨٣]

(☆) رسالة حملها الحاج الفقيه أبو عبد الله بن جابر عن الكاتب ومعه منه أيضاً رسالةٌ أُخرى شفهيّة . وهذه رسالةٌ تزكية وتوصية .

(١) كلمتان غير ظاهرتين في أعلى الورقة ، في آخر السَّطر .

(٢) يُعتام ـ بالبناء للمجهول ـ : يُقصد . والعرب تقول : (مثلك يفعل كذا) أي أنْت أهل له .

(٣) المفَازُ : هو الفوز ، والمفازة : الصَّحراء .

(٤) نَصل السَّهمُ : خرج .

أجْوَازِهـا[٥] ، تحمـلُ ثنـاءً كالرَّوضِ على أعجـازِهـا ، وتُخبركَ عن عِراقهـا وحِجازها ، فكيفَ ارتياحُك لِمَن امْتَطى المحـذُور ، وألْقى التَّفَثَ[٦] ووفى النُّذور ؟

تلوحُ البَرَكـةُ على جَبينـه ، وينمُّ عَبقُ الزَّكَنِ[٧] على يمينـه . لا جرَم ! إنّك تستَقْرِي منهُ البيتَ والْحَرم . وتأخذُ عنهُ سُنّتـه وشرعَـهُ ، ومَسـاحتَـهُ وذَرْعَه . وتَرى بسمعكَ مَسـافـة الطريق ، ومخـافـةَ السّيـد والبطْريق[٨] ، وتشهدُ لَيالي التَّشْريق[٩] . وكيفَ نُفِضَت الأحلاسُ بـالعَشِيّ[١٠] ، وسـالَت الأباطِحُ بأعنـاقِ الْمَطِيّ[١١] . وإن تغلغلَ القولُ إلى طـابـة[١٢] ، وتَشوّقت أنبَاءَها الْمُسْتَطابة ، وافاكَ الوصفُ ينشعِبُ وينسَرِبُ ، ورمَتْكَ بأفلاذهـا

---

(٥) أجواز جمع جوز : وسط الطّريق .

(٦) التّفث يكون في مناسك الحجّ ، وهو ما كان من نحو قصّ الأظفار وحلق الرأس ورمي الجمار والذبح والنّحر وإذهاب الشعث والوسخ . وفي سورة الحج ٢٩/٢٢ : ﴿ ثمّ ليقضوا تفثهم ﴾ .

(٧) الزّكن : الظن الصائب ، والحدس والفطنة .

(٨) البطريق : المختال المزهُوّ . ولقب للقائد من قواد الرُّوم .

(٩) لَيالي التّشريق : هي ثلاثةُ أيام بعد يَوْم النَّحر ، وفيها أواخرُ مناسك الحج .

(١٠) الأحلاس جمع الحِلْس ، وحِلْسُ البيت : ما يبسَطُ تحت حُرّ المتاع (كالحصيرة التي تفرش تحت السّجادة مثلاً) .

(١١) اقتباسٌ من بيتٍ من قطعةٍ مَشهورة ، سَبقت الإشارة إليها ، وهو :

أخَذْنا بأطرافِ الأحاديثِ بينَنا ... وسالَتْ بأعناقِ الْمَطِيِّ الأباطِحُ

(١٢) طابة : من أسماء المدينة الْمُنَوّرة .

يَثْرِب[١٣] ، وجــاء القَبْرُ والشَّفيــع ، والمــلأُ العَــالي الرَّفيــع ، والحِمى والنَّقِيع[١٤] ، والآطام والبَقِيع[١٥] ، وضِرَار وقُبـاء[١٦] ، والقَصْرُ ، والنَّخْلُ ، والْجَمّاءُ[١٧] ، وانثالَتْ عليكَ بِنُجومِها السَّماء .

صَلّى الله على مَن أمَّتْــهُ الـوُفـودُ ، ولــه الحـوضُ الْمَـوْرُودُ ، والمقــام المحمُـود . وعلى تلـك الأجـداثِ الطّـاهِرَة ، والعُصبــة الـزَّاهِرَة ، والمــآثِرِ السَّـاهرة . وإن نـازعتـك نفسـك نفسَ أمَـدُهـا ، وعَلتْ يَـدُهــا إلى ذاتِ البَرابِي والأهرام[١٨] ، والآثار العِظام ، حيثُ ألقي السّحرةُ ساجِدين[١٩] ، وانقَلب الكفَرةُ صاغِرين ؛ عَنَّ الفَيُّومُ[٢٠] وخَراجُـه ، والنِّيـل وأدْراجُـه ،

---

(١٣) أفلاذ جمع فِلـذة ، وهي القطعة ؛ ويكثر أن تستعمـل مـع (الكبـد) . وفي حـديث غزوة بدر : « هذِه مَكَّةُ رمَتْكُم بأفلاذِ كَبِدها » .

(١٤) النَّقيع : موضع تلقاء المدينـة النّبويـة المنوّرة ، بينـه وبين مكـة ثلاث مراحل ، وكان عمر رضي الله عنه حَمَاهُ . (الرَّوض المعطار : ٥٧٩) .

(١٥) الأطام جمع الأُطم : القصر أو كُلّ حِصْنٍ بُنِي بالحِجارة .
ـ وكانت الآطامُ بالمدينةِ كثيرة .

(١٦) مسجدُ قُبـاء أوّل مسجـد بُني في الإسلام . (السّيرة ١ : ٤٩٤) . أمـا (ضرار) فـإشـارة إلى مسجد الضّرار بالمدينـة : كان أنشـأه بعض المنـافقين ، وفي التنزيل العزيز ـ التوبـة : ١٠٧/٩ ـ ﴿ مَسْجِـــداً ضِرَاراً ﴾ . ولــــه خبرٌ معروف في كُتب السّيرة ، والتفسير ، والتواريخ . (السيرة النبوية ١ : ٥٢٣) .

(١٧) أسماء مواضع .

(١٨) البَرابي في مصر : أبنيةٌ عجيبةٌ فيها تماثيلُ وصُوَر . والأهرامُ : المعروفة في الجيزة بمصر .

(١٩) في سورة الأعراف ١٢٠/٧ : ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ .

(٢٠) الفَيُّوم بمصر ، معروفة . (الروض المعطار : ٤٤٣) .

والتِّمساحُ وأنيابُـه ، والأَفْضَلُ وحُجّـابُـه[21] ، والقـاهِرةُ والشِّيعـة ، وعَبيـدُ العَصـا وبنو اللّكيعـة[22] ، والسُّفنُ والانحِـدار ، والإسكنـدريَّـةُ والْمَنـار . وإذا اجْتَمعَتْ ـ أعـزّكَ اللهُ ـ هـذهِ الأشخـاصُ في شَخْصٍ ، واطَّردَتْ لـكَ نُصوصُهـا في نَصٍّ ، وزادتْـك عَفـواً في غير بَحث ولا فَحْص ، فَما هُـوَ إلاّ حَظٌّ أقْبَل ، وزَمَانٌ لِنُبلكَ تَنَبَّل .

[٧٢/ب] وجُملةُ هذا وَشرْحُه ، ونَسِيمُـهُ وبَرْحُـهُ ، يُنـاوِلُكَـهُ ـ ولـك الـدَّعَـةُ والتَّرفيـهُ ـ الـوَزيرُ النَّبيـهُ ، والحـاجُّ الفَقيـه ، أبُـو عَبْـدِ اللهِ بنُ جَابر[23] : مُعَظِّمُكَ وصَديقي وصفيّي وجـاري ـ أعزَّهُ اللهُ ـ فـإنَّـهُ أحْسَنَ النِّيابَةَ ، واتَّخذَ البَيْتَ أمْناً ومثابَةً ، وجاوره حولاً كَريتـاً[24] ، وغـادرَ في أرجائِه ثنـاءً عـاطِراً وصِيتـاً . ثمّ عَقَّبَ بعـد حجّـه المبْرُور ، بزيـارةِ القَبْرِ الْمَعْمُور[25] ، والإنـاخَـةِ في مَحـلِّ الرَّحْمَـةِ والنُّـور . وقـد كانت لـهُ بِمصرَ

---

(٢١) الأفضل هـو أبـو القـاسم أحمـد بن بـدر الجمـالي (شـاهنشـاه) الملقب بـالملـك الأفضـل (٤٥٨ ـ ٥١٥) من وزراء الدولة العُبَيْديّـة (الفـاطميـة) بمصر « كان داهيـةً ، فحل الرَّأي ، شهماً ، جيّـد السيـاسـة . استـوزره المستنصر ، ومـات غيلـة بتـدبير من الآمر بأحكام الله سنة ٥١٥ لأمر نقمه عليه » .

(٢٢) عبيدُ العَصا : يُضْرَب مَثلاً للقوم إذا استُذِلُّوا ؛ وهو اسمٌ لكلّ ذليلٍ وتابع .
ـ وبَنُو اللُّكيْعَة أي بَنُو اللّئيمـة . ووقع في كلام الحجّاج : « يـا أهلَ الشقـاقِ والنّفـاقِ ومساوئ الأخلاق . يا بَنِي اللكيعة ، وأولادِ الإماء ، وعَبيدِ العَصا ! » .

(٢٣) أبو عبد الله بن جابر (؟) .

(٢٤) اقتبس من الآيـة الكريمـة من سورة البقرة ٢ : ١٢٥ . والكريت من الشُّهـور والسنين والأيام : التامّ .

(٢٥) المقام النبويّ الشريف .

إقامةٌ اتّصلت أيّامُها ، فلاحتْ لهُ آثارُها وأعلامُها ، وعنده من كُلّ نادِرةٍ مُستفادة ، وطَريقةٍ مُستعادَة ، ما يخرجُ عن العادَةِ ، ويُوفي على الإرادة .

وقد عَلِمْتَ - دام عِزُّك - مالَهُ ولِسَلَفِهِ - رحمهُ الله - من تحرّك ونباهَة ، وأثرة ووَجاهة ، يَشْهدُ لديها الصَّغيرُ والكَبير ، ولا يَدْفَعُه عنها العِيرُ والنَّفير .

ومِثْلُكَ وجَّه برَّهُ وسَنّاهُ ، وقَرَّبَهُ وأدْناهُ ، واشْتَمل بمُراعاتِه في عَوارِضهِ وحاجَاتِه على مَطْمَحِه ومَرْمَاه ، وقامَ له الْمَقام الّذي أمَّلهُ ورَجاه ؛ إن شاءَ اللّهُ عَزَّ وجَلّ .

[٨٤]

ولَهُ(☆) - رَحِمَهُ اللّهُ - :

أطالَ اللّهُ بقاءَ الوزير الفَقيهِ القاضي الْجَليل ، ذي القَدْر النَّبيل ، والذِّكْر الْجَميل ، والمجْدِ الأَثيل ، والبَيْتِ الْمُعْرِض في المكَارِم الْمُسْتَطيل ؛ وجنابُه بِديم النِّعَم خَضِلٌ ، ومغَانُه بوفُود السُّعودِ مُسْبِلٌ هَطِلٌ[1] ؛ وأَيّامُه تتَبارى في مَعالٍ لهُ تبنيها ، وحُظوظٍ تُدنيها ، والقدرُ متأنّقٌ فيها .

---

[٨٤]

(☆) رسالة مرافقة لرسالة أُخرى « مُدْرجة » لم يفصح عمّا فيها هنا . وهذه الرسالة المقتضبة هي كالمقدّمة لتلك ، والرابطة فيما بينه وبين المخاطب ، ولم يُسَمّه .

(١) المغان من أغان السحابُ السماءَ أَلْبَسها . وفي العبارة استفادةٌ من قول الأعشى (ديوانه : ٥٧) :

ما روضة من رياضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خضراءُ جادَ عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ

مثلكَ ـ أدامَ اللهُ عِزَّكَ ـ من السَّادة ، الْمُتَهَيِّئين لِدَرجات المجد والسِّيادة ؛ الْمُعرقين في الوَجاهَةِ ، الْمُشرقين من مَطالِع النَّباهةِ ؛ إذا تَبوّؤوا ذُروةَ علاءٍ ، واقتَعَدُوا غارِبَ سَناء ؛ وانتظَمُوا مع النُّجومِ في سِلك سَماء ، فإنّما حازُوا تُراثَ آباءٍ فآباء . وتلكَ سبيلُه في خُطّة القَضاءِ التي هامَت بمَعاليه ، ومَثلت ضارعةً بناديه ، وتشبَّث به تشبُّثَ العاطِل بالْحُلّي والْمُظلم بالصُّبْحِ الْجَلِيّ ، والعاطِش بالْمَنْهَلِ الرَّوِيّ ؛ حتّى رقَّ [٧٣/أ] لها الزّمانُ ، فاطمأنّت لها الدّارُ واستَقَرّ بها الْمَكان . فَهنيئاً لكَ من هانئٍ بأروع فازَت بعلوّ هِمَمه وأَصْبَحتْ في ذِمَمِه ، وعَزّتْ بِكَرمه : فالعدْلُ لباغيهِ مُتاحٌ ، والحقُّ لِسائله مُباح ، ولئن عَمّت هذه النّعمة أُمَما ، وشفَت صُدوراً ونفت لَمماً . فإنني لمخصوصٌ منها بفضل مَزِيّة ، وحِصّة على الْحِصَص عَلِيَّة ؛ لِما يَجْمَعُنا من أَذِمَّة تُربي على النَّسب وتَرْجحُ وَزْناً بأَواصِر الْحَسَب . ولِذلكَ ابتدَرْتُ الْمُساهَمة ابْتِداراً ، ورَفَقْتُ بما بَيْنَنا نداءً وشعاراً . واللهُ يُعَرِّفُه ويُعَرِّفُنا بركةَ ماقلّده ، ويُطيلُ مُدّتَهُ ويَفسَحُ أَمده . وبي إلى مُطالَعَتِه ظمأ بَرْحٌ ، وشَوْقٌ لا يأتي على جُملتِه تَفْسِيرٌ ولا شَرح . وفي الْمُدْرجَةِ[2] أمرٌ يعنيني ، وشأنٌ أَلِيْهِ وَيَليني .

ولولا أَنَّهُ بالنُّصح مَشُوبٌ ، وبِصَريح الرَّأي والْحَزْم مَجْنُوب لزهدتُ فيه مُجَرّداً ، ووجَدْتُ عنهُ مسكباً فسيحاً ومُعَرّداً . واللهُ يُعَرِّفُه السَّداد في القَوْلِ والعَملِ ، ويُبَلِّغُه أقْصى العُمر والأَمل ؛ بعزّته وقُدرته .

---

(٢) الْمُدْرجة : في (تكملة الْمَعاجم العربيّة ١ : ٤٣٢) : ـ ورقة مستطيلة يُكتبُ فيها وتُلَفُّ لفّاً . وكأن الكلمة من الإدراج في الحديث ، ومنه : الحديث الْمُدرَّج .

[٨٥]

وله(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

يـا سيّـدي الأعلى ، وعَتـادي الأزكى ، ومُعْتَمـدي الأَقـوى ، ومَنْهَلي الأَروى ، ومَن أطـالَ اللهُ بقـاءَهُ وشرَفُـه مُقتبَسٌ ، والتكثُّرُ بـه مُلْتَمَسٌ ، ومَجْـدُهُ عن الأكفـاءِ لا يُخْطَرُ ولا يُحْبَسُ : الـوزير الكاتب الجليـل ، والخطير الحسيبُ المثيل أبو محمّد بن جُزَي(١) وافِـدُ عُلاَك ، ومُقْتَبِسُ سَنـاك ـ أَعـزَّهُ اللهُ ! ـ شخَص نحـوَكَ بعـد استشـارةِ أَنْعمَهـا ، واستِخَـارةٍ روّاهـا وقَدَّمها ، وثِقَةٍ بجَلالتك مَهَّدها ووَطَّأها ، وطيرِ يُمْنٍ من إسعافِكَ زَجَرَها سَعْداً واستَنْبَأها ؛ لِيَخلطَ مَجْدَهُ بمَجْـدِكَ ، ويَقْتَـدِحَ سقطـاً سـاطعـاً من زَنـدِكَ . وإذا وافـاكَ فقـد بلـغَ الْمَـدى ، ووَجَـد على النّـارِ الْمُحَلَّق والندى(٢) .

ولَمّـا كانَ أَمراً فيـه للهِ ـ سُبحـانَـهُ ـ رِضىً وهُـدًى ارتقيتُ العَلَم ،

---

[٨٥]

(☆) رسالةٌ إلى مخاطَب : لم يسمّه من أهل الفضل والمكانة يزكي فيه أحد الكتّاب الوزراء هو : أبو محمد بن جُـزَيّ ، ويرفع من شأنه ، ويسأله الإسعاف فيا قصد إليه . والموضوع المتوقّع يتعلّقُ بخطوبة .

(١) أبو محمد بن جُزَيّ (؟)

(٢) من قول الأعشى في مدح المحلّق بن خَنْثَم بن شدّاد بن ربيعة : (ديوانه : ٢٢٣ ـ ٢٢٤)

تُشَبّ لمقرورَيْن يَصْطَلِيـانهـا ... وباتَ على النَّارِ النَّدى والْمُحَلّقُ
لعمري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ ... إلى ضوءِ نـارٍ في يَفـاعٍ تُحَرَّقُ

وناديتُ سُؤددكَ العَمَم ، وأَعْمَلْتُ الخـاطِرَ والقَلم ؛ وقليلٌ أَنْ أعملَ في هـذا الْمُهِمَّ الْجَليل الرِّكاب والقَدم !

[٧٣/ب] والحمدُ للهِ الذي جَعل من الْمَاءِ نَسباً ، ووصَلَ بينَ الأكفـاءِ حَسباً ، وسبَّبَ إلى الالتِئـامِ والانتِظـام سَبباً . وهـو الْمَسْـؤولُ ـ جَلّتْ قُدْرَتُهُ ـ ونُعْماهُ أَن تقرنَ الخِيرة بما يُمْضِيـه ، ويكتب سَعْيَنـا فيما يُرْضِيـه . وأَستَغْفِرُه وأستَهْدِيه ، لا وُدَّ إلاّ فيه ، ولا قَضاء إلاَّ ما يَقْضيه ؛ والسلام .

[٨٦]

[وله ـ رحمه اللهُ ـ] :

أَنبـاءُ البِرّ ـ أَدامَ اللهُ عِزَّك ـ تُهْدَى ، وشَهـادةُ الثَّنـاءِ تُؤدّى ، والشكرُ خيرُ ما يُجَهّزُ ويُحْدى .

وافى هذهِ الْحَضْرَة الكاتبُ أَبو عبـدِ اللهِ بنُ أَبي الحبـاب ـ أكرمَـهُ اللهُ ـ فَعَطّر بذكركَ الأَنْدِية ، وأَوْعَبَ من تَوفيقكَ وتَسْدِيـدك الأَدْعِيـة ، وبَثّ من شَرفِ مَناهِجكَ وكرَمِ مآخِذكَ ما أصغى إليه كلُّ ليت ، وأُحْرِقَ بهِ كُلُّ عِفريت . وجَزاؤُه أن يعلمَ له ما أَهْداهُ ، وأَحمَهُ وأَسْدَاه .

والسلام .

[٨٧]

وله(☆) إلى الوزير أبي الحسين بن سراج(☆☆) - رحمة الله عليهما - معتذراً من المقامة القرطبيّة المنسوبة إليه :

مـا كنتُ أشتمُ قـومـاً بعـدَ مَـدْحِهِمُ ... ولا أُكَـدِّرُ نُعْمى بَعْـدَمَـا تَجِبُ

---

[٨٧]

(☆) هـذه رسـالـة اعتـذر فيهـا الكاتب (ابن أبي الخصـال) إلى صـديقـه الـوزير الكاتب أبي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج عمّا نسب إليـه من تـأليف المقـامـة المعروفـة بالمقامة القرطبيّة . ونصّها في (رسائل أندلسيّة) ومنهـا في الريحـان والرَّيعـان ٨٨/أ - ٨٩/أ .

- والمقـامـة القرطبيّـة : مقـامـة أنـدلسيـة صيغت في قرطبـة - كما يبـدو - وبطلهـا : « عليّ بن هشـام » يرتحـل من المشرق إلى الأنـدلس للتعرّف على الأدب والأدبـاء في الأندلس بعد أن سمع عن الأندلس بلاداً وطبيعةً وأهلاً وسُكّاناً . ويسأل في بلنسية عن شيخ الأدب فيـدلونـه على الشيخ أبي محمّد البطليوسي ، وفي طريقـه إليـه يلقى رجلاً وصاحباً له فيسألهما عنه فيقعان فيه بكلام مقذع .

وقد نسبت المقـامـة إلى ابن خـاقـان وإلى ابن أبي الخصـال . وقـد تنصّل منهـا ابن أبي الخصال . وليس معقولاً أن تكون من إنشاء ابن خاقان فقد ألف في ابن السّيد رسـالـة مطوّلة أثنى عليه فيها كثيراً .

انظر رسائل إخوانية : ٢٦ ، وعصر الطوائف والمرابطين .

- والمقامة القرطبية في مخطوطة : « رسائل أندلسيّة » : من مكتبـة طلعت ٤٦٥٠ ، في الورقة [٢٧/ب إلى ٣٠/أ] . وبعدها رسالة الانتصار في الردّ على صاحب المقـامـة لأبي جعفر بن أحمد . وانظر هذه الرسـائل مطبوعـة في (ابن أبي الخصـال : رئيس كتّـاب الأندلس) في سلسلة : أعلام الفكر .

(☆☆) أبـو الحسين سراج بن أبي مروان عبـد الملـك بن سراج القرطبي أحـد أعيـان العلمـاء =

أطــالَ اللهُ بقــاءَ الــوزير الأَجَـلّ أَبي الْحُسَين : مَــلاذي ومَفْــزَعِي ، ومَشْعَرِي الْمُقَدَّس ومَشْرَعي ؛ ومجْدُه عَمَمٌ ، وحَاجُـهُ أَمَمٌ ، وسِرْبُـه حَرَمٌ . ولا زالَ مُتَنافَساً في فَضْلِه ، مُتنافَراً إلى عَدْلِه .

مَنْ يُسِّر فيه ـ أيّده اللهُ لِلْحُسْنى ، وفازَ من لِقائه بالْحَظّ الأَسْنى ـ فَلَـهُ ماتَمَنّى ولا يُلَقّاهَا إلاّ ذو حَظّ عَظيمٍ[1] ، و « مَنْ أَتى اللهَ بقلْبٍ سَلِيم »[2] .

وإنّي مع عَـدم الاستِطَـاعـة ، ومُـزْجى[3] البضـاعـة ، أَتَـوَهَّمُ سُقُـوطَ الفَرْضِ ، وأُخْلِـدُ إلى الأَرْضِ وأَحِلُ الأَمْرَ مَحْمَـل العَرْض . وَدُونـه ـ أَيَّـدَهُ

= والأُدباء . ولأبيـه نبـاهـة قبلـه ، وهو من أُسرة قرطبيـة مشهورة . قـال ابن بسّـام في الذخيرة : « وإليه في وقتنا هذا ـ رأس السنـة المتّمـة لـ ٥٠٠ هـ ـ بحضرة قرطبـة شدُّ الأقتـاب ، وإنضــاء الركاب في الاقتبــاس منــه ... » . وفي المعجم لابن الأَبّــار (ص ٣٠٦) « كان أبو الحسين من أكمـل أهـل عصره مروءة وصيـانـة ، وأوسعهم مـالاً وجـاهـاً وأكثرهم مهـابـة . يجتمع إليـه للسّماع في الأربعين والخمسين من رؤسـاء الملثّمين ومهرة الكتاب كأبي عبد الله بن أبي الخصال ... » .
وكانت وفاته سنة ٥٠٨ هـ .

(الذخيرة ٢/٢ : ٨٢١ ، والمعجم لابن الأبـار : ٣٠٥ ، والمغرب في حلي المغرب ١ : ١١٦ ، وقلائـد العقيـان : ٢٠٢ ، وأخبـار وتراجم أنـدلسيـة : ١٣٢ ، والــديبــاج المــذهـب : ١٢٦ ، وترتيب المــدارك ٤ : ٨١٥ ، وخريــدة القصر ٢ : ٤٨٤ ، والمطرب : ١٢٣ ، ومعجم الأدباء ١١ : ١٨١ ، وبغية الوعاة : ٢٥١) .

(١) من الآية الكريمة : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاّ ذُو حَـظّ عَظِيمٍ ﴾ . فُصّلت ٤١/٣٥

(٢) من الآية الكريمة ٨٩ من سورة الشُّعراء ٢٦

(٣) البضاعة الْمُزْجاة : القليلة التي يدفعها كل تاجر رغبة عنها . والعبارة قرآنيّة (يوسف ١٢/٨٨) .

اللهُ - مهابَةُ إجلال تُنْئيه ، وكرمُ خِلالٍ يُـدْنيـه ؛ فـأَنَـا بينَهُما عَصِيٌّ طَيِّعٌ ، هذا يجيءُ بي وهذا يَرْجِع !

لا جَرَم أَنّي أفقرُ إليه من جَفْنٍ إلى كَرى ، ومن أُذنٍ إلى بُشْرى ، ومن جُذَيْمَـةَ إلى نَـدِيم[٤] ومن مُصْعَب إلى إبراهيم[٥] ، والقـارِظ إلى الإيـاب[٦] ، ودُرَيـد إلى الشَّبـاب[٧] بـلْ من الشِّمال إلى اليَمين [٧٤/أ] ، والأَنف إلى العِرْنين[٨] . وسـأَستَـأنفُ إنْ قَبِلَ وأستـدرِكُ ، وأَخبُّ إلى عَلائِـه وأبْتَـرِك .

---

(٤) هو جذيمة الأبرش ، وحين وفد عليه رجلان من العرب هما مالك وعقيل ابنـا فـارج ، وردّا عليه ابن أُخته عمراً ، سألهما ما يطلبان فسألاه أن يجعلهما نديميه ففعل وحَبـاهُما . ولهما خبر . ثم قتلهما . وفيهما قال متّم بن نويرة في أخيه مالك :

وكنّـا كنـدمـاني جـذيـمة حقبـة ... من الدهر حتى قيل لن يتَصـدَّعـا

(شرح المفضليات : ٥٣٥) .

(٥) مصعب هو مصعب بن الزبير صاحب العراقين ومـا وراءَهمـا أيّام أخيـه عبـد الله بن الـزُّبير (عـاش مصعب من ٢٦ - ٧١ هـ) . وإبراهيم المقصود بـإشـارة الكاتب هـو إبراهيم بن الأَشتر . كان عبـد الملـك بن مروان قـد بعث إليـه - كما بعث إلى نفر من وجوه أهل العراق - يـولّيهم ويمنّيهم ويعـدهم إن هم انفضّوا عن مصعب . ووفى إبراهيم لمصعب وأطلعه على رسالة عبـد الملك بن مروان إليـه ، وفيهـا « إن بـايعتني ولَّيْتُـكَ العِراق » . فكان من القلة الذين وفوا لِمُصْعَب ، ولم يكن في طبقته من أنصار مصعب من يكافئه .

(راجع سير أعلام النبلاء ٤ : ١٤٠ - ١٤٥) .

(٦) إشارة إلى المثل العربي : « إذا ماالقارِظُ العَنَزِيُّ آبـا » : يُضرب مثلاً للغـائب لا يُرْجى إيابه (أمثال العسكري ١ : ١٢٣) . وقد مَرّ في هذا الكتاب .

والقارظ : الذي يجتني القرَظ : ورق السَّلَم . وهما قارظان ...

(٧) هو دريد بن الصمّة . وقد ذكر شبابه في شعره كثيراً . (يراجع ديوانه ط دمشق) .

(٨) العرنين : ما صَلُب من عظمه (غضروفه) .

وأَتَوَسَّل بتشيعٍ في مجدِه عالٍ ، وأَمُتُّ بمنافَسَةِ مَعال .

فـلا تُلـزِمَنّي ذنـوبَ الـزَّمـانِ   إليَّ أَسـاءَ وإيّـاي ضَـارا !

وهلْ هُوَ إلاّ نقصانٌ يُقْعِدُ عن كَمال ، وحِرمان يُبْعِدُ من نَوال ؟ أَرُوحُ وأَغْدُو ، أَتَجَنَّبُ روضةً وأجيل أَعْدُو .

أَسْتَغفرُ اللهَ مِن غُربةٍ ركبْتُ مَطَاها[9] ، ووَصَلْتُ خُطَاها ، وأَثَرْتُ قَطَاها[10] . أَنْضَتْ شَبابي بل نَضَتْهُ ، وسَلّت مَشيي وانتضَتْه . وأَبْقَتْ عَلَيَّ دَرَكاً ، وَبَوَّأَتْني دَرَكاً . فَها أَنا طَلِيحٌ أو جَرِيحٌ . فضاعَت أَثناءَها الْحُقوقُ ، وبئسَ الاسمُ العُقوق .

نعم ـ أَدامَ اللهُ سَعْدَكْ ـ تَحوُّلاً إلى الكافِ[11] ، وإسناداً من الاعتِراف بحقِّكَ إلى كافٍ !

وعيـدُ أَبي قـابوس في غير كُنْهِـهِ   أَتـاني ودُوني رَاكِسٌ فـالضَّواجِعِ[12]

فانطَوَيْتُ على حَرِيق ، وتَعلَّلْتُ بِرَحيق ؛

وفضيلـةُ الرَّاحِ الخُروجُ بـأَهْلِها   عَنْ عـالَمٍ هـوَ بـالأذى مَجْبُولُ !

فما سَلِمْتُ عَلَى ذلِكَ من ظُنونهم ، ولا غِبْتُ من عُيونهم ، وأَنّى لي بالسَّلامةِ من كاشِحٍ يُغري ، ويَدٍ تَرْميني من حيثُ لا أَدري . يَمْنَحُني الفَصاحةَ ضِراماً ، ويَمْنَعُنيها بَرْداً وسَلاماً . إنْ مَرّ بهِ ذِكري غمزَ وغمص ،

---

(٩) الْمَطَا : الظَّهر .

(١٠) يشير إلى المَثل المشهور : « لوتُرِكَ القطا لنام » . (أمثال العسكري ٢ : ١٩٤) .

(١١) تحوّل إلى الكاف لخطابه مباشرة . والاعتراف إلى كافٍ (اسم فاعل من كفى) .

(١٢) البيت للنابغة الذبياني (ديوانه ٣٢ بشرح الأعلم الشنتمري) .

أو ادُّعِي لي مِنهـا حَـظٌّ نَفسَ ونَقص ، أو قُرِيءَ لـه قبض قَرأَ قَبص ! مـا هـذِهِ المَقـامَـةُ إلاّ قِيـامَـة حَشَرت الكِرام ، وحـاشَت[13] ومـا اسْتَثْنَت ولا حـاشَت[14] ! أَصـابَت وأَشْوَت[15] ، وصَـابَتْ وأَخْـوَتْ[16] ؛ وعَمّت لِتَخُصّ ، وناجَت لِتُعْلِن وتَقُص . والمُنـاجي لبيبُ « وقـد يُؤذى مِن المِقَـةِ الحَبيب » .

اللّهُمَّ طَهِّرْهـا من دَنسِ الـدِّعْوة ، واجْعَلْني فِيها مُسْتَجابَ الـدَّعْـوَة ، حتّى نَدْعُوَها لأبيها[17] . ونَتّبعَ الأَقْسطَ عِنـدكَ فيهـا . أَوْلى لهـذا المتَوَهّم ـ ساءَ ما حَكَم ، ويا بُعْدَ ما تَوهّم ـ

[أَيُّهـا المنكِـحُ الثُّرَيّـا سُهَيـلاً] عَمْرَكَ الله كيفَ يَلتقيـان ؟[18]
[٧٤/ب] هِيَ شامِيّةٌ إذا ما اسْتَقلّت وسُهَيْـلٌ إذا اسْتَقَـلَّ يَمانِ

مَنَـع الجـارَ سَقَبـاً[19] ، وادَّعى لأَبي طريفٍ عَقِبـاً[20] . ومـا يَنـامُ أبـو

---

(13) حاش (الدواب) جَمعها وساقها .
(14) استثنت من الاستثناء . وحاشت من معنى حاشى يُحاشِي .
(15) أصابت الشّوى لا المَقْتَل . والشّوى : الأَطراف . ويستعمل في كل ما أخطأ غرضاً وإن لم يكن له مقتل ولا شوى .
(16) أَخوى الزند : لم يَورِ .
(17) أي حتى يردّ المقامة إلى قائلها .
(18) البيتان مشهوران ، وهما لعمر بن أبي ربيعة . ديوانه : ٤٩٥ . وقد سارا مشار المَثل في كل أمر اختلف طرفاه .
(19) السَّقَبُ : القُرْب . وفي الحديث : « الجارُ أحقُّ بسقبه » قال ابن الأثير : يَحْتَجُّ بهذا الحديث مَنْ أوجب الشُّفعة للجار وإن لم يكن مقاسماً .
(20) أَبوطَريف عديٌّ بنُ حاتمِ الطَّائي . نقل الجاحظ : خبراً له بعد أن فقئت عينهُ وقُتل ابنه .

سفيان عن زياد[٢١] ، ولا يُترك في ثَقيفٍ ثَمرُ الفُؤاد . هيهاتَ هيهات ! يَدُلُّ على الفَجْرِ سَناه ، ويُعرب عن الشّجر جَناهُ وتفضح الشّناشِنَ أَخْزَم[٢٢] وتنسُب الحكَمُ أَكْثَم[٢٣] . وما هُوَ بمُطَاعٍ ثَمّ أَمِين[٢٤] . وما أنا على غَيْبِ السِّيادَةِ بظَنين[٢٥] ، ولا سِيّما وقد افْتَتَح بمَن افْتَتَح مَنْ وُوزِنَ فَرجح وسَعى فأَنْجَح ، ومَلكَ فأَسْجَح[٢٦] . وأَشفى[٢٧] فعَفّ وكَفى وكَفّ . وثَنّاه بمَنْ أَتى مَأتاهُ ، وتَقيَّل[٢٨] في الفضْلِ أَباه ، وتَخطّاهُ إلى صِنْوٍ كَماءِ المزْن ورَوْضِ الحَزْن . تجافى جَنْبُه عن المضاجع[٢٩] ، وطَلّق الدُّنيا غير مُراجِع . وتجاوَزَهُ إلى ابنِ عَمٍّ عَم ، وكثيرٍ في المكَارِم جَم .

---

(٢١) زياد بن أبي سُفيان . استلحقه معاوية بنسبه بعد أن صحّ لديه - في الأخبار وشهادة الشُّهودِ - أنه لأبي سفيان . وكانت نسبته في ثقيف . أمه سُمَيَّة ، وكانت مولاةً للحارث بن كلدة الثّقفي . (سير أعلام النبلاء ٣ : ٤٩٤) .

(٢٢) من المثل العربي : شنشنة أعرفها من أخزم . (أمثال العسكري ١ : ٥٤١) .

(٢٣) أكثم بن صيفي التميمي حكيم من حكماء العرب المعدودين في الجاهلية . خرج سنة ٩ هـ يريد الإسلام فمات في بعض الطريق وأسلم قومه . وفيه نزلت : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ .

(٢٤) استفاد في الأسلوب من الآيات الكريمة ٢٠ - ٢٢ من سورةالتكوير .

(٢٥) الظنين : المتهم .

(٢٦) أسجح : أحسن العفو . يُقال : ملكتَ فأسجحْ ؛ ومنه قول جميل بثينة (ديوانه ١٧٨) .

أبثينُ إنك قد ملكت فأسْجِحي وخذي بحظِّكِ من كريمٍ واصلِ

(٢٧) أشفى على الأمر : أشرف ، ولا يكاد يُقال (أشفى) إلاّ في الشّر .

(٢٨) أصل :تقيّل : نام في القائلة . يريد : له فضلٌ كبيرٌ .

(٢٩) جفا جنبه عن الفراش : تباعد عنه ، ومثله : تجافى . وفي سورة السجدة ١٦/٣٢ ﴿ تَتَجَافى جُنُوْبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ ﴾ .

خلَع على السِّيادةِ عُمره ، وقلّدها أَمْرَه ، وقنع بالكفاف ، وعافَ الدِّرَّةَ حاشِكَةَ الأَخْلاف ، وهجر مراتِبَ وخُطَطاً ، وأَبى إلاّ أَنَ يكون أُمَّةً وَسَطاً . ثمّ جاءَ بالجِلَّةِ لَفيفا ، فنكّر مَعْروفاً ، ومنع الصّرف مَصْرُوفاً . وما ذالَهُ في مَصُونٍ أَذالَه[٣٠] ، ومَنْ أجاءَه ، إلى قَبيح جاءَهُ . ومن جَرّه ، إلى هجر أَجَرَّه . ومَنْ قادَهُ إلى القَادة ، وسامَهُ هُلْكَ سامَه[٣١] ! ولو وُفّقَ لأَسَرّ ما أشرّ ، وعَشى ولم يَغْتَرّ . ولَما توجَّه إليّ بينَ يَدَيْ الوزير الأَجَلّ منها ظنٌّ أَخطأ ، ووَهْمٌ أَسْرَع فَأَبْطأ . لا تَقْبَلُه حَالي ، ولا يفرغُ لهُ بَالي . أدْرَجْتهُ أَثناءَ تَنصُّلي ، ووَصَلْتُه بتَوسُّلي إلى عَلائه وتَوصُّلي .

لِيَعْلَم أَنّي لا أُظَنُّ بِمِثْلها وأَنْ ليسَ إهداءُ الخَنا مِن شماليا[٣٢]

ولم يخفَ على ذي بَصرٍ نمطُها ، ولا يغيبُ مستنبطها ؛ وكيفَ ؟ وهناكَ فِطنةٌ تَخْلُصُ بين الماءِ واللّبن ، وتُفرّقُ بين الصَّحيح والحَسن . فلْيُصْرَفْ هذااللجامُ إلى من عَلكَهُ ، وليُنَطْ[٣٣] هذا الدَّمُ بمنْ سَفكه ؛ فَليسَ المزنيُّ من جَرير[٣٤] ، ولا ابن الزُّبير من ابن الزَّبِير[٣٥] .

---

(٣٠) أذاله : امتهنه . وذال : تبختر .

(٣١) هو سامة بن لؤي . وقد ذكرناه في حواشي هذا الكتاب بأطول من هذا (انظر الفهارس الفنيّة) .

(٣٢) البيت في قصيدة لصخر بن عمرو بن شريد (أخي الخنساء) ولصدره رواية مختلفة ، وهو في الأغاني (١٣ : ٣٨٨) .

أبى الشّتْمَ أني قد أصابُوا كريمتي وأنْ ليسَ إهداءُ الخَنا من شِماليا

(٣٣) ناطه به : علّقه به . وهو يعني المسؤولية .

(٣٤) نسبة جرير بن الخَطفى في تميم .

(٣٥) عبد الله بن الزُّبَير بن العوام الصحابي المشهور ، وهو قرشي . أمّا عبد الله بن الزَّبير فهو شاعر إسلامي ـ معاصر لعبد الله بن الزُّبير ـ وهو أَسَدِيّ .

والوزيرُ الأَجَلُّ ـ أدامَ اللهُ سَعْدَه ـ يحجبُ عَن إدراكـهِ عَيْبي ويَحْرُسُ بكَرم نثـاهُ غَيْبي ، ويَضَعُني [٧٥/أ] حيثُ وضعْتُ نَفسي من تَـأميلـه ، ويَعودُ عَليّ بِحُسْنِ تأويلـه لا زالَ الزَّمَنُ بسؤدده مُمَتّعـاً ، والـدَّهْرُ ببقـائِـه مُشَيّعاً .

[٨٨]

ولَهُ أَيْضاً(☆) ـ نَفعَهُ اللهُ ـ :

إلى الرَّؤُوفِ الرَّحيم ، الرَّسُولِ الكريم ، ذي الْخُلـق العَظِيم ، والْحَسب الصَّميم ؛ والصَّفح الْجَميل ، والْمَنّ الْمُوفي على التَّـأميل . صَريح الصَّريح ، ورقُوء(١) دَم الـذَّبيح ؛ المخصُوص بـالْمَقـامِ الْمَحْمُود ، والْحَوضِ الْمَـورود ؛ وخَطيب الأَنبِياء ، وإمامِهم في اليوم الْمَشهود . المكينِ الأمينِ الـذي لَيسَ « على الغَيب بِضَنين »(٢) . النـازل عَنْ خَيرِ الظُّهـورِ إلى خيرِ البُطـون .

---

[٨٨]

(☆) رسالةٌ بعَث بها الكاتب ، مع قاصدٍ حاجّ إلى الدّيار الْمُقَدَّسة يُبـدي فيها أشواقه إلى الحرمين الشّريفين ودعـاءه الله تعـالى أن ييسّر لـه أَداءَ الفريضـة والصَّلاة في الحرم النّبويّ ، وأداء مناسك الحج والعُمرة .
وقد أكثر الأندلسيون من توجيه مثل هذه الرّسالـة ، والالتفـات بـالخِطـاب إلى مقـام رَسُول الله ﷺ .

(١) الرُّقوء بضمّ الرّاء : مصـدر رقـأَ (الـدمع والـدم) إذا جَفَّ . والرَّقُـوء (بفتـح الراء) : دَواءٌ يُوضع على الدم فيسكن . ويقال : فلانٌ رَقُوء بين القوم : أي مُصلح .

(٢) ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ التكوير ٢٤/٨١

والمَترَدّد من الأَب الأَقصى إلى الأَب الأَدنى بينَ كُلّ مَصُونةٍ ومَصُون . الذي تَسَلَّمَهُ الآتي عن الماضي أمانةً حَملها من كُلِّ سَلفٍ خِيارُه[٣] ، ونُوراً عُرِفت في جباهِ السُّؤددِ سِيَماهُ وآثاره ؛ إلى أَن أَذِن اللهُ سُبحانَهُ فظهَرت أسرارُه الكامِنَةُ ، وأدتهُ إليه صَلواتُ اللهِ عليهِ الطاهرة آمِنَة . الذي « جُعلت لهُ الأَرضُ مَسْجداً وطَهُوراً »[٤] ، وأُحِلَّتْ لَهُ الغَنائِم ، وكانت « حِجْراً مَحْجُوراً »[٥] و « نُصِرَ بالرُّعبِ » سِنينَ وشُهوراً[٤] . وأُوتي « جوامِعَ الكَلِم »[٦] فانتظمت لفظتُه سُطوراً . وبُعث « إلى الأحمرِ والأَسودِ »[٤] فضْلاً كانَ لَهُ مَذْخُوراً . ونُسِخت بملّتِه الْمِلَلُ : إما مُؤمناً وإمّا كَفُوراً . وأنزلَ عليه الفُرقان هُدًى ونُوراً . فأَحْيا نُفوساً وشَفى صُدوراً . الذي وجَبت نبُوَّتُه وسِتْرُ الغَيب عَليهِ مُنسَدِل . وآدَمُ ـ صَلواتُ اللهِ عليه ـ في طينتهِ مُنجدل . لَبِنَةُ التّمام التي انْعَقد بها

---

(٣) إشارة إلى ما روي عن النبي ﷺ ، وأنه « خيار من خيار من خيار » .

(٤) روى الإمام أحمد (المسند ١ : ٣٠١) من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أُعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ نبي قبلي ولا أقولهنَّ فخراً : بُعثت إلى الناس كافّة : الأحمر والأسود ، ونُصِرتُ بالرُّعب مسيرة شهر ، وأُحِلّت لي الغنائم ، لم تحلّ لأحد قبلي ، وجُعلت لي الأرضُ مسجداً وطَهُوراً ، وأُعطيت الشَّفاعة ، فأخّرتها لأمّتي ، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً » .

(٥) من الآية ٥٣ من سُورة الفُرقان ٢٥ . وحِجْراً محجوراً : أي حَرامٌ ممنوعة .

(٦) من حديث أنس رضي الله عنه : أُعطيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً . (ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢ : ١٧٢) من حديث عبد الله بن عمرو : « أُوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه ... » .

التَّأسيسُ ، ويتيمةُ النظامِ الّتي ادُّخِرَ لَهَا الوضعُ النَّفيسُ ؛ إمامُ وفدِ الرَّحمنِ وفَرَطُ ورّادِ[7] الإيمان . الذي نكَلتْ عن بَسَالَتـهِ الضِّراءُ[8] ، وسلّمتْ لَـهُ في الْخَفَرِ العَذْراء . واعْتَرفَت لواقِحُ الرّياح لِيَمينه ، واعْتَرفت لوائِحُ الصّباح من نُورِ جَبينـه . الآخـذ بـالْحُجزاتِ[9] ، الوَارد بـالْمُعْجزات . الّـذي سَلَّمَ عَليـه الْحَجرُ[10] والتـأَمَ إليـه الشَّجَر ، وانشـقَّ لِبُرهـانِـه القَمر ، وحَنَّ إلى حَضْرتـه الجِـذع الْمُنقَعِر . وأَنْبَـأَهُ بِسَـوْرَتِـهِ [٧٥/ب] السّمُّ الْمُستَعِر[11] . ونَبعَ من أَنامِلِه الماءُ ، وأَجابت بدَعْوَتِه ثم انجابَت السَّماء : أَبي القـاسم خِيرَة الخير ، وسيّـد البَشر ، الْمُصطفى من أكرمِ العِتَرِ[12] ، جـاشِم الْمَجـاشِم ، وذُؤابة هـاشِم . هـامَـة العَرب ، ومُنتهى مَجْـد الأَبْعَـد والأَقْرب . الحـاشِرِ

---

(٧) روى الإمـام أحمـد في مسنـده (٤ : ١٤٩) من حـديث عقبـة بن عـامر أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فصلّى على أهل أُحد صلاتـه على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقـال : « إني فَرَط لكم وإني شهيـدٌ عليكم ، وإني والله لأَنظُر إلى الحوض ... » إلى آخر الحديث .
ـ وفي النّهاية (٣ : ٣٣٤) من الحديث : « أنا فَرَطُكم على الحوض » أي متقدّمكم إليه ، يقال فرط يفرط ... فهو فَرط إذا تقدَّم وسَبَق القوم ليرتادَ لهم الماء ...

(٨) الضِّراء جمع الضرو ، وهو الضّاري من السِّباع .

(٩) في مسند الإمام أحمد (١ : ٤٢٤) من حديث ابن مسعود « ... ألا وإني ممسكٌ بحجزكم أن تهافَتُوا في النار كتهافت الفَراشِ والذُّباب ... » .

(١٠) في هذه العبارة وفيما يتلوها يراجع (الشفا للقاضي عياض) الباب الرابع في خصـائصـه ﷺ وكراماته ، ١ : ٤٧٩ وما بعدها .

(١١) السَّورة : الحِدّة . والْمُستعر : من استعرت النّار : التهبت واتّقدت .

(١٢) العِتْرَةُ : نسل الرّجل وأقرباؤه من ولـد غيره ، أو ولـده وذريتـه وعقبـه من صلبـه أو رهطه وعشيرته الأدنون مّمن مضى وغَبر .

العـاقِب ، ذي الْمَجْـدِ الثّـاقِب ، وزُهر المـآثِر والمَنـاقِب . الّـذي فـازَ الْمُحْسِنون بطاعَتِه واستُنْقِذَ الْمُذنبُون بشفاعته . صَلّى الله عَلَيْهِ ، حِسَاب كَرامَتِـه لـديـه ، وكِفـاءَ مـا يُـدْني منـهُ ويُقَرِّبُ إليـه . مِن عَتِيقِـهِ المعلنِ بتَصْـدِيقِـهِ ، الـدّاعي في قُربِـه ، الْمُستَشْفي بريح تُرْبِـه الْمُسْتَشْفِع بـهِ إلى رَبِّه ، المؤمنِ بما آمَن بهِ ، من رسُلِهِ وكتُبِهِ : فُلان بن فلان .

كتبتُه يا واضعَ الإصرِ والأَغلال ، ورافعَ رايـاتِ الهُدى على الضَّلال ، ومُبـدلنـا بـالظِّلّ من الحَرُور[١٣] ومُخْرِجنـا « من الظُّلمـات إلىالنُّـور »[١٤] ومُرْوِينـا من الرَّحيق المَخْتُـوم[١٥] ، والحَـوْضِ الـذي آنِيَتُـه بعَـددِ النُّجـوم . ومُحظينـا بـالنَّظرِ إلى الحَيِّ القَيُّـوم ؛ عن دمـعٍ يسفـح ، ونفَسٍ يلفـح ، وصَدْرٍ بـأشواقِـه ملآن يطفَح ، وعَرْفٍ عَليـك من الصَّلاةِ والتّسليم ينفَح : وأَسفٍ إليك يتلهّبُ ، وزفرَةٍ بأحنـاءِ الضُّلوع تجيءُ وتَـذْهَب ، وحُشـاشَـةٍ بعوائقِ البُعْدِ عنكَ تُنْهَبُ .

وكيف لا أَقضِي حُزنـاً ، ولا أُرسلُ دُموعَ الـوجْـدِ والتلَهُّفِ مُـزنـاً ؟ أَم كيفَ أَلذُّ حياةً ، وأؤملُ نَجاةً ؛ ولم أَعْبُر إلى زيارتكَ لُجّـة ، ولا مَومـاةً ؛ ولا أَخْطَرْتُ في قصدك نفْساً أنتَ مُنْقِذُها ومُحْيِيهـا ، ولا مَثُلْتُ بمعـاهِـدِكَ المشَهّـدةِ ، ومَشـاهِـدك المطهَّرةِ أُحيّيهـا . ولا نَـزلتُ عن الكُـور[١٦] كرامـة للبُقْعَةِ المقَدّسةِ التي ثَوَيْتَ فيها .

---

(١٣) إشارة الآية الكريمة : ٢١ من سورة فاطر ٣٥ .

(١٤) اقتباس من الآية الكريمة: ٢٥٧ من البقرة : ٢ .

(١٥) إشارة إلى الآية الكريمة ٢٥٠ من سورة المطففين : ٨٣ .

(١٦) الكور : رحلُ البعير أو الرَّحْلُ بأداته .

فـوا أسفـا ألاّ أَخُبّ[١٧] إلى ذَراكَ[١٨] مُسْتَقبِـلاً ، وألاّ أُكِبّ على ثَراك مُقَبِّلاً ، وألاّ أُصافِـحُ من تِلـكَ العَرَصـاتِ مـدارِسَ الآيـات[١٩] ، ومَهْبِـطِ الوَحْيِ والمُنـاجـاة . حيث قُضِي فَرضُ الصَّوم والصَّلَوات ، [٧٦/أ] حيثُ انتَشَر التَّنزيل ، وسَفَر بالوَحْيِ جِبريل ، وبَرزَت خَبِيّةُ الـدَّهر ، وأُوثِرت بليلة « خير من أَلْف شهر » أَسَفاً لا يَعْفُو رسْمَهُ ، ولا يَمحُو نَدْبَهُ ووسْمَـهُ إلاّ الوقوفُ بِحَرم اللهِ وحَرمك ، والتَّوسُّل هناكَ إلى كَرمِه بكرمك .

اللّهمّ كَمَا جَعلتَني من أُمَّتِه، واستَعْمَلتني بِسُنّتِـه ؛ وشَوّقْتَني إلى آثـارِه ، وشَغَلْتَ قَلبي بتخيُّلِـه وتَـذْكارِه ؛ وأَريْتَني تلـك المعـالِمَ المنيفـةَ خَيـالاً ، وخَططتَ منها في الضَّمير مِثالاً ؛ وأَشهـدْتَنيهـا ملْءَ ٱلسَّمعِ والفُؤادِ جمـالاً : فاشْفِ بِمَرْآها بَصَراً ضريراً ، واكحَلْه بسناها « يَرْتَـدّ بَصيراً » . واجْعَل لي فيها مُعَرّساً ومَقَيلاً . وضَعْ عنّي من شَوْقِها إصراً ثقيلاً .

اللهمّ يَسِّرْني الى قَصْدِه ، وأَعِدني بالقُرْبِ على بُعده ، واعْمُرْ بِي مـا بَيْنَ قَبْره ومِنْبره[٢٠] ، ومَبْداه ومَحضره ، ومُصَلاّه ومَنْحَره .

---

(١٧) الخَبَب : نوعٌ من العَدْو .

(١٨) الذّرا: الكنف .

(١٩) في ديوان دعبل الخزاعي : ٧١ .

مدارسُ آيـات خلتْ من تلاوة	ومنزلُ وحي مقفر العرصـاتِ
لآل رسول اللهِ بالخيف من مِنىً	وبـالركن والتعريف والجَمراتِ

(٢٠) في حـديث أَبي هُريرة رضي الله عنـه : « مـا بين بيتي ومنبري روضـة من ريـاض الجنة » .

اللهمّ شَرِّفْني بِقَضاء الفَريضة ، ومَضاءٍ في تِلكَ الأَرضِ الأَرِيضة[٢١] .
اللهمّ لا تَحْرِمْني طِيبَ طَيْبَة ، وأنِخْ هذه الشَّيبة بِبابِ بَني شَيْبَة[٢٢] واغسِلْها هناكَ من ذُنوبها وخَطايَاها ، وفِرْ من ثَوابِكَ الجَزيل حظُوظها وعَطاياها ، وعُجْ إلى خاتم أَنبيائك صُدورَ مَطاياها . وهَبْ لي عَزْمَةَ من أَطاع ، وبَسْطَةَ مَن استَطاع ؛ وادْفَعْ عنّي الضَّررَ والضَّرورة ؛ ولا تُمتْني حِلْسَ البَيْتِ صَرُورة[٢٣] .

لو أُوتِيْتُ يا رَسُولَ اللهِ سُؤْلِي ، لسَبَقْتُ إليك كِتَابي وَرُسولي ؛ لكنْ قَلّ الوَفْرُ ، واستقلّ[٢٤] السَّفر ، وغادروني حَرَضا[٢٥] ولسهام الأَسى والوجْدِ غَرضاً . أُتْبِعُهُم نفساً لا يَؤُوب ، وقَلْباً يستخِفُّه القَلَقُ والوُثُوب . وأَتشبَّثُ بهم تشَبُّثَ الأَسيرِ بالطَّليق ، وأَلحَظُهمْ لَحْظَ السَّقيمِ للمُفيق ، وأَتعَلّقُ تَعلّقَ الغَريق . فلم أَملِكْ - يا رسول الله ! - إلا رُقعةً تَشْكُو بثَّ التَّبْريح[٢٦] ، وتَحِيّةً خفيفةَ المَحْمَلِ طيِّبةَ الرِّيح ؛ تتأرّجُ بأرجائكَ ، وتتدَرَّجُ إلى قَبُولك ورجائك .

---

(٢١) أرض أريضة : زكيّة .

(٢٢) باب بني شيبة هو باب السَّلام . ومنه يدخل الحاجّ أول ما يَدْخُل إلى البيت الحرام ، وتطالعه من ثمة الكعبة المشرَّفة .

(٢٣) حلس البيت : ملازمه . والصّرورة : الذي لم يحجّ .

(٢٤) أي تحمّلوا وسافَرُوا .

(٢٥) الحرَض : الكالُّ المُعْيِي ، المُضنى سُقماً .

(٢٦) يقال : برّح به الشوق : جهده .

[٧٦/ب] فأتوسَّلُ بكَ يارسولَ اللهِ إلى مُصْطَفيك بالرِّسالةِ والوَسيلة[٢٧] ، ومختصِّك بالدَّرَجةِ الرَّفيعة والفَضِيلة ، ومُؤتَمنكَ على إقامَةِ حَقِّه ، ومُبْتَعِثِكَ بالْهُدى والنُّور إلى جميعِ خَلْقِه ؛ ليُسعِدَني بجوارِكَ ، ويُكرمَني بحُلولِ دارِ هِجْرَتِك وأَنصارِك ، وأَفرَغ بعد حُقوقِه من حُقوقِك . وأُلِمَّ بصِدِّيقكَ وفارُوقك ، وأُعَرِّج على الصِّهرَيْن : أَبي عمرو ذِي النُّورين ، وأَبي السِّبطين الحسَن والْحُسَين . وأَندُبَ الشَّهيدَ المقْتُول ، وأُعَزِّي الزّهراءَ البَتُول[٢٨] .

وأَقِفَ بحوارِيّك[٢٩] المودُود وأَسَدِ الأُسُود ، وبابنِ عبيدِ اللهِ ذي الجودِ والفَضْلِ الْمُبين[٣٠] وبالأَمينِ حقّ الأَمين[٣١] وبِقَرِيْعَيْ زُهْرَةَ في التُّقى والدِّين[٣٢] وبِسَعيد ذي[☆] الفضل الْمُبين .

وأَقضي حَقّ الأُمّهات ، والأَزواجِ الطَّاهِرات ، وسائرِ أَهل الكرامات ،

(٢٧) في حديث الأذان « اللّهم آتِ مُحمّداً الوسيلة ... » : الوسيلة في الأصل ما يُتَوَصَّلُ به إلى الشيء ويُتَقرَّبُ به وجمعها وسائل ، والمرادُ به في الحديث : القُرْبُ من الله تعالى .

(٢٨) البَتُول : لقب فاطمة الزّهراء لانقطاعها عن نساء زَمانِها فضلاً وديناً وحَسَباً ؛ أو لانقطاعها عن الدُّنيا .

(٢٩) حواري النبي ﷺ : الزبير بن العوّام ، رضي الله عنه .

(٣٠) طلحةُ بن عبيد الله أحد العَشْرةِ الْمَشْهُود لهم بالْجَنَّة ، رضي الله عنه .

(٣١) أَمين الأُمّة : أَبو عبيدة بن الْجَرَّاح .

(٣٢) هما سعد بن أَبي وقّاص ، وعبد الرّحمن بن عَوف. ينتميان في بني زُهْرَة من قريش . رضي الله عنهما .

(☆) سعيد بن المسيب صهر أبي هريرة رضي الله عنه ، وكان فقيه الفقهاء في زمانه .

وأَتقَرّى[٣٣] منـازل السُّعَـداء ، ومَشْهـدَ سَيِّـد الشُّهَـداء[٣٤] . وأدعو رَبَّـك في جَبَلٍ أحبَبْتَهُ[٣٥] وأحَبَّك . وأَحُطّ بوارثِ الرَّأي والرَّاية ، وصاحِبِ السُّقْيـا والسِّقـايَـة ، وحـائِـز العُقْبى والغَـايـة[٣٦] . وأَعْتَمِـد عِصْمَـةِ الْهَـلاّك ، وأَبـا أَبي الأملاك حَبْر العِلْم والتّـأويل وفـاتِـحُ أَغْـلاقِ التَّنْـزيـلِ وبَحر النَّـدى الْجَزيل[٣٧] .

طالعْتُكَ يارسولَ اللهِ بنِيّتي ، وأَعملتُ في قصدِكَ أُمنِيّتي ، واستـأنَسْتُ برجـاءٍ يُعمل إليـكَ مَطِيّتي ، ويحلّ عِقـالَ عَزْمتي وطيّتي[٣٨] . وغير عَزيـزٍ على من شَفَّعَك في القِيامة ، وأقطعك دارَ الْمُقامة ، وأَعطـاك لواءَ الْحَمْـدِ والْكَرامة : أَن يَجْمَع لي بكَ بين الشَّفـاعَتين ، ويُؤتيني في الـدنيـا بِلُقْيـاك وفي الآخرة بسُقياكَ الْحُسْنَيَيْن .

اللهمَّ بَلّغْ عَنّي الْمُبلِّغَ الأَمين ، والرَّسُـولَ القَـويّ الْمَكين مـاأُظْهِرُه من محبّتـه وأُبطِنُـه ، وأُسِرُّه وأُعْلِنُـه ، وبَيّنْ عَنّي مـالا أَستطيـعُ أُبيّنـه . اللهمَّ اشهَدْ بِصَلاتي عَليه وسَلامِي ، ومَحبّته فيه وإلمـامي واشـدُدْ وَسيلتي لَـديْـه وذِمَـامي . وصَـلّ اللهمَّ عَليـه وعَلى أَصحـابـه أعـلام الإسـلام ومَصـابيـح

---

(٣٣) أتقرّى : أتتبّعُ .

(٣٤) سيّـد الشهـداء : حمزة بن عبـد المطلب ، ودفن حيثُ استُشهـد عنـد أُحـد ، رضي الله عنه .

(٣٥) إشارة إلى الحديث عن جبل أحد : « هذا جَبلٌ يُحبُّنا ونحبّه » (مسند أحمد ٣ : ٢٤٠) .

(٣٦) يعني العَبّاس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، رضي الله عنه .

(٣٧) هو عبد الله بن عَبّاس ، حبر الأُمّة ، رضي الله عنه .

(٣٨) الطيّةُ : المنزلُ الذي تنتويه .

الظّــلام ، وعَلى أهــلِ قُربــاه ومن نصرَه وآواه [٧٧/أ] وعلى أزواجِــهِ الصّالحاتِ الصَّابِرات السّائحـات[٣٩] صَلاةً تُبـاري وتُفـاوِحُ ثنـاءَهم وتُغـادي وتُراوِحُ فِناءهم : يَتضوّعُ شَذَاها بِقُبورِهم ، ويَسْطَعُ نَشْرُها عليهم ، إلى يَوْم نشُورِهم ، مشفوعاً عَبَقُها بالدَّوام والتّمام إلى دار السَّلامِ .

ثمّ سَلامُ اللهِ عَـددَ خلقـه ، ورضى نفســه ، على نبي رحمتــه ، ووليِّ عصمته ، المخصوص بتمام نِعْمَتهِ الْمَكينِ عندَ رَبِّه ، الْمَغْفُورِ لهُ مـا تقـدَّمَ ومـا تـأخَّرَ من ذَنبـه ؛ ورحمَـةُ اللهِ وبَركاتُـه ، وأَنْهـارهُ وجَنّـاتُـه ، ورَوْحُـهُ ورَيْحانُه ، ومَغْفِرَتهُ ورِضوانُه ، صَلّى اللهُ عليه وسلّم .

[٨٩]

وله مُعارضَةٌ لِمَلْقى السَّبيل[☆] :

[حرف الألف]

الإنســانُ يُسيءُ ، ويعجِبُـه الأجـلُ النَّسِيءُ ؛ يُــذْنِبُ ولا يَفيء ، ولا يُبالي ما يُفيءُ[١] :

---

(٣٩) السائح : الصّائم ، الملازم للمسجد (والعبادة) .

[٨٩]

(☆) ملقى السَّبيـل رسـالـة لأبي العـلاء المعرّي راوح فيهـا بين الشعر والنثر ، ورتّبهـا على الحروف الهجائية .
وقد عارض عـددٌ من الكتـاب الأنـدلسيين والشعراء رسـالـة ملقى السَّبيل لأبي العلاء وهذه واحدة من المعارضات الأندلسيّة .
وملقى السَّبيل من آثار المعرّي المطبوعة .

(١) نسأَ الشَّيء : أخّره . ومنه نسأ في أجله . وأفاء : رجَع . وفاء الغنيمةَ : أخذَها فَيْئاً .

[من مجزوء الكامل المرفّل]

وَيُرِيــدُ أن يُجــزى بـإحــ.....ـسـانٍ على النَّفْسِ الْمُسيئَـةْ
ويُحِبُّ تعجيــلَ الثَّــوا.....بِ، وعَقْـدُ تـوبتِـهِ نَسِيئَـةْ
لَيْست تَفيءُ وهمُّهـا.....في كل غُنْمٍ أنْ تُفيئَـهْ

[حرف الباء]

غَرَّتْها النِّهاب ، ودَبَغَتْ وقد حَلِمَ الإهـاب[٢] ، رُبَّ مَهيبٍ لا يُهـاب ، ومَرِيدٍ[٣] أحْرَقَهُ الشِّهاب ، وذاهِبٍ بنفسِهِ أعْجَلَهُ الذَّهابُ :

[من الرَّجز]

غَرَّتْـكِ يـا مَغْرُورةُ النِّهـابُ ..... دَبَغْتِ لَمّـا حَلِمَ الإهـابُ
رُبَّ مَهيبٍ وَيْـكِ لا يُهـابُ ..... ومـارِدٍ أحْرَقَـهُ الشِّهـابُ
وَذاهِبٍ أعْجلَهُ الذهابُ !

[حرف التاء]

أبْطَأتِ فَخُلِّفتِ ، وكَلِفتِ بغيرِ ما كُلِّفتِ ، وأَلِفْتِ ضِدَّ مـالَـهُ أُلِّفتِ ، رُدِّي ما أسْلَفْتِ ، وإن أخْلَفْتِ فقد أُخلفتِ[٤] :

---

(٢) النِّهابُ : النَّهبُ ، والغَنيمة . وحَلِمَ الأديمُ أي وقع فيه الْحَلَمُ وهو القُراد . ومعنى حلم الأديم أيْ فَسَد . ومنه المثل : « كدابغة وقد حلم الأديم » (أمثال العسكري ٢ : ١٥٨) . وهو شطر بيت من شعر للوليد بن عُقبة . والإهـاب : الجلد المغلّف لجسم الحيوان قبل أن يُدْبغ .

(٣) مَرِيـد (وزن فَعيـل) بمعنى مـارد ، وهـو المتجرّد للفَسـاد . وفي سـورة الحـج ٣/٢٢ : ﴿ ويتَّبع كل شيطانٍ مريد ﴾ .

(٤) كلف بالأمر : أحبّه وأُولع به .

[من السّريع]

تَخلَّفي صـــــــاغرةً إنَّني ... أراكِ أبطــــــأتِ فخُلِّفْتِ

كَلِفْتِ بـالشرِّ وعفتِ الّــذي ... مِنْ صـالـحِ الأعمـال كُلِّفْتِ

ليتـكِ إذْ لم تـألفي خطّـةً ... مُنجيـــةً لم تـــكُ أُلِّفْتِ

رُدِّي على الـدَّهرِ عَـوارِيَّـهُ ... قـدِ اقتَضى مـا كُنتِ أسْلَفْتِ

أخْلَفَــكِ الخيرُ وأخلفتِـــه ... فــلا تَلُــومي حيثُ أُخْلِفتِ

[حرف الثاء]

[٧٧/ب] لا تَحــزَنْ للـوَارِثِ ، وتَخفَّفْ للكارِث ، فنعم حَرْثُ الحارِث[٥] :

[من السّريع]

أَسْخَنُ عينٍ[٦] قلَّبَتْ طَرْفَهـــا ... عَيْنُ مَريضٍ أبصَرَتْ وارِثـــا

احمـلْ على فَضْـلِ الغنى راضياً ... أوْ كارهــاً لا تـــدَّخرْ كارِثـــا

واحرُثْ لأُخراكَ فَكُــلُّ امرِئٍ ... يَلقى الّـذي كانَ لَـهُ حـارِثـا

[حرف الجيم]

أَمِتِ الْحَرَج ، وانتظِرِ الفَرَج ، وَثِقْ بـالرِّزْقِ ولو عَرَج ، فـالـذِّكْرُ إذا تأرَّج ، عَقب من دَرَج[٧] .

---

(٥) كرَثـه : اشتـدّ عليـه ، وسـاءه ، وبلغ منـه المشقّـة . وتخفف من الشيء : تركـه طلبـاً للخِفّة . وحَرَث : كسب وجَمع .

(٦) سَخِنت عينه : لم تقرّ (كناية عن قلق أو همّ أو شرّ) .

(٧) عرج الشيء : ارتفع . تأرّجَ الطِّيْبُ : فاح . دَرَج فلان : مات (ومضى لسبيله) .

[من مجزوء الكامل]

لا تَحْرَجنَّ فـــــإنَّما عَيْشُ الفتى مَـــوْتُ الْحَرَجْ
وإذا يئِسْتَ فــــلا تَبُتَّــــتَ اليـــأسَ وانتظرِ الفَرَجْ[8]
والرِّزقَ أجْمِـــلْ فيـــه إنَّ الرِّزقَ يـــأتي لَـــوْ عَرَجْ
أرَجُ الكريم بـــــذكرِهِ والـــذِّكْرُ يُخلِـــدُهُ الأَرَجْ
فئـــةُ الفَتى رَيْعــانُـــهُ[9] رَيْحــانُــهُ مَهْمَـا دَرَجْ!

[حرف الحاء]

يا ذا العَجَب الفادِح ، والهَوى القَادِح[10] ، والحِرْص الكادِح ، أَرَضيتَ عن زورِ المادِح ، وَغُرورِ الصّادِح[11] ؟

[من السريع]

مَهْلاً فلو أَحْسَسْتَ لم تَسْتَطِـعْ تنفُّســاً من عُجْبِـك الفـادِحِ
إذا تـــزكَّيْتَ كما تـــدَّعي فــلا تُعَرِّجْ بِهـوًى مَـــادِحِ
قـــد فرغ اللهُ ولا حُجَّـــةٌ لِمُلْحِفٍ في حِرْصِهِ الكادِحِ[12]
لـــو نظَرَ المرءُ إلى عَيْبِـــهِ لم يتسـوَّغْ كَـذِبَ المـــادِحِ
أوْ خَطَرَ المـوتُ على بـــالِــهِ لكانَ في شُغـلٍ عنِ الصَّـادِحِ!

---

(٨) أي لا تجعل اليأسَ باتّاً .
(٩) ريعان كل شيء : أوّله وأفضله .
(١٠) قدح الشيءُ في صدره : أثّر فيه .
(١١) صدح : رفع صوته بالغناء ، وغيره .
(١٢) ألحفَ السائلُ : ألحَّ . وفي التنزيل العزيز : ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلحَافاً ﴾ سورة البقرة ٢٧٣/٢

[حرف الخاء]

أينَ مَنْ أداخَ ، ورحلَ وأَناخَ ؛ وُعِظَ فما أَصاخ ؛ وأَفلَ سعدُه وَباخَ[١٣] ، وتَرَكَ العَيْشَ النُّقاخ[١٤] :

[من مخلّع البسيط]

هَلْ كانَ عِنْدَ المُديخِ عِلْمٌ ... بَمنْ يُديخُ الذي أَداخَا

لَمْ يبقَ منهُ سِوى حديثٍ ... في حيثُ ماسارَ أَوْ أَناخا

كم قَرعَتْ سَمْعَهُ اللّيالي ... بكلِّ وعظٍ فما أَصَاخا

أَوحشَ مغناهُ بَعْدَ أُنْسٍ ... لَّما خَبا سَعْدُهُ وَباخا

[٧٨/آ] ولّى على غُلّةٍ[١٥] وبَرْحٍ[١٦] ... وأَسْلَمَ البارِدَ النُّقاخا

[حرف الدال]

ودَّ وَقَدْ جَاد ، لَوْ كان أَجَاد ، وتَمّنى إِذ فَاد[١٧] ، لَوْ فُدِيَ بما أَفاد ، فَهلاَّ أَطابَ الزادَ ، وٱسْتَوْفَرَ وزاد ؟

[من مخلع البسيط]

ودَّ وَقَدْ جادَ لَوْ أَجادا ... وَفَضَّ شَمْلَ الغِنى وجادا

ثُمَّ تمنَّى إِذ فادَ جَهْلاً ... بأَنْ يُفادى بما أَفادا

طُوبى لِمَنْ في الجَميلِ زادا ... واتَّخَذَ الطَّيِّباتِ زادا

---

(١٣) باخ : سكن وفَتَر .

(١٤) النُّقاخ : الخالص من كُلّ شيء ؛ والماء العذبُ الصَّافي .

(١٥) الغلّةُ : شدة العطش وحرارته .

(١٦) البَرْح : الشدّة .

(١٧) فاد هنا : مات . في الأساس : مافاد فَيْداً حَتى بلَغ رِزْقُه النَّفاد : أي ما مات .

[حرف الذال]

العمرُأَحذّ[18] ، والسَّيْرُ يُغذّ[19] ، والسَّابِقُ يَبُذُّ ولا يُبَذُّ[20] ، والعَوائِقُ وَكْفٌ والآمالُ تُرَذُّ[21] ، والحُزْنُ مَثْنى والسُّرُوْر يُفذّ[22]

[من الوافر]

لَقَدْ أَوْدى بكَ العُمْرُ الأَحذُّ ... وَسَيْرٌ لو شَعَرْتَ لَهُ يُغَذُّ

وإنَّ السَّابقين ولَسْتَ منهُمْ ... لَهُمْ حُضرٌ يَبُذُّ ولا يُبَذُّ

رَأَيْتُ عوائقَ الأيَّامِ وكْفاً ... ولا رِيٌّ لآمالٍ تُرَذُّ

كَفى حَزَناً بأنَّ الحُزْنَ مَثْنى ... وأَنَّ سرورَ هذا الدَّهرِ فَذُّ

[حرف الراء]

الحازِمُ إذا وَرَدَ صَدَر ، وإذا رأى فُرْصَةً ٱبْتَدَر ، لا يَعافُ الكَدَر ، ولا يُسْخِطُ القَدَر ، ويعفُو إن قَدَر :

[من المنسرح]

للهِ مَنْ لم تَنَمْ حزامتُهُ ... مَهما يَرِدْ في مُلِمَّةٍ صَدَرا

إذا رأى فرصةً قدِ ٱبْتَدَرَتْ ... قامَ لها في الرِّكابِ وٱبْتَدَرا

وليسَ شيءٌ إليهِ مِنْ كَرَمٍ ... أحبَّ من عَفوِهِ إذا قَدَرا

---

(18) الأَحذُّ : السريعُ النفاد .

(19) أغذَّ السير (وفي السَّير) : أسرع فيه .

(20) بَذّ : غلب وسبق .

(21) وكف المطر جاء غزيراً . وتُرَذُّ من رذَّت السماء رَذاذاً (المطر الضَّعيف) .

(22) ويُفَذّ يكون فَرْداً ، أو يُجعل فرداً .

يُـؤْثِرُ بـالصَّفْـوِ ذا مـودَّتـهِ عَنْ طيبِ نَفْسٍ ويَشْرَبُ الكَدَرا
إنْ جَرَّ مـا لا يُريـدُهُ قَـدَرٌ أبْـدَى رِضـاهُ وأكْرَمَ القَـدَرا

[حرف الزاي]

العَجبُ من ذي ٱغترارٍ وٱعتزاز ، يعلَمُ أنَّـهُ على وِفـاز[٢٣] ، وأنَّ الظُّلْمَ إلى قِصاصٍ وتَجـاز[٢٤] ، وأنَّ اللّهَ بمثقـال[٢٥] الـذَّرَّةِ مُجـاز ، كيف يُخـالفُ الحقيقةَ إلى مَجازٍ ، ويطمحُ أَمَلُـهُ والموتُ مُوازٍ ؟ ألا إنَّـهُ في حبـائِلِ المنيَّـةِ ناز ، كعُصفورةٍ في مِخْلَب باز[٢٦] :

[من الوافر]

[٧٨/ب] عَجِبْتُ لـذي اغترارٍ واعتزاز وذي سَفَرٍ أطـلَّ على وِفـاز
تبَسَّطَ في الـذُّنوبِ وفي الْخَطـايـا ويَشْهَـدُ بـالقِصاصِ وبـالتَّجـازي
يُجـاهِرُ بـالكبـائِرِ عَـدْلَ رَبٍّ على مثقـالِ ذرّتِهـا مُجـازِ
مُنـافٍ للحقيقـةِ مُستريـحٍ إلى خُـدَعِ الإحـالـةِ والْمَجـازِ
تخطَّى الأرْضَ آمـالاً طِـوالاً ومُهْلِكُـهُ يُحـاذي أو يُـوازي
تُقَـدِّرُ وَيْـكَ أنَّـك منـهُ نـاجٍ وإنّـكَ في حَبـائلِـهِ لَنـازِ
ومـا الإنْسـانُ مَهما حَـادَ عَنْـهُ سِـوى عُصْفُـورةٍ في كفِّ بـازِ!

---

(٢٣) الوفاز جمع وَفز : العجلة . قال الشاعر ـ رواه الزمخشري ـ يخاطب الموت :

وهـذا الخلـقُ منـكَ على وِفـازٍ وأرجلهم جميعـاً في الركابِ

(٢٤) تجازى دَيْنَهُ : تَقاضاهُ (والمصدر : التجازي) .

(٢٥) إشارة إلى مـا في سورة النسـاء ٤/٤٠ : ﴿ إنّ اللّهَ لا يظلِمُ مِثْقـالَ ذَرَّةٍ ﴾ أي زنـة ذرّة . ووردت الكلمة في سور أُخر .

(٢٦) نازٍ من فعل نَزا أي وَثَب . والباز : ضربٌ من الصُّقور .

[حرف السين]

يا ناعمةَ الْخَمْسِ ، عَهِدْناكِ بالأَمْسِ ، تُحْجَبِينَ عَنِ الشَّمسِ ، وتَدْمَينَ مِنَ اللَّمْسِ ، وَتَرْتَاعينَ مِنَ الهَمْسِ ، فما حالُكِ في الرَّمْسِ ؟

[من السّريع]

بـالله يـا نـاعمـةَ الْخَمْسِ أَحُلْتِ[٢٧] عَنْ عَهْدِكِ بالأَمْسِ ؟
قُوموا ٱنظروا كَيْفَ ضَحا ظلُّهُ[٢٨] مَنْ كانَ محجوبـاً عَنِ الشَّمْسِ ؟
وكَيْفَ عـاثَ التُّرْبُ في أَنْمُلٍ قـد كُنَّ يَدْمَين مِنَ اللَّمْسِ ؟
كَيْفَ استطاعَ القبرَ في رَوْعةٍ[٢٩] مَنْ كانَ يرتـاعُ مِنَ الهَمْسِ ؟
حالُكِ فينا قبْلُ معلومَةٌ إيهٍ[٣٠] ! فما حالُكِ في الرّمْسِ ؟ !

[حرف الشّين]

واللَّيْل إذا يَغْشَى ، والصُّبْحِ إذا فَشا ، والبَرْقِ إذا تَمَشَّى ، إنَّ العُيونَ لَتَعْشَى[٣١] ، وإنَّا لنَأْمَنُ ما نَخْشَى ، ما أَبْطَرَ الْمُصْرِمَ إذا أَمْشَى[٣٢] ، وأعْمى عَيْنَ الحكيمِ إذا ٱرْتَشَى :

---

(٢٧) حال عن عهده : تحوّل وتبدّل .

(٢٨) ضحا الظِّلُّ : صار شمساً .

(٢٩) استطاع الشيء : أطاقه .

(٣٠) إيهٍ (بالتنوين) للاستزادة من حديثٍ (أو عملٍ مّا) .

(٣١) غشي الليل : أظْلَم . وفي سورة الليل ١/٩٢ : ﴿ وَاللَّيْلِ إذا يَغْشى ﴾ . وفَشا الصُّبح : ظهر وانتشر . والعَشا : سوء البصر لَيْلاً . ومنه لقب : الأعشى .

(٣٢) المصرم : المفتقر . أمشى : صارَ ذا ماشية . وبطر النعمة : كُفرها .

[من الطّويل]

أما والنُّجومِ الزُّهْرِ واللَّيْلِ إذ يَغْشى وغُرَّةُ فجرٍ في مــــآخرهِ تُغْشى
وبَرْقٍ تمشّى في فروعِ غمــامــةٍ فأذهبَ من أعطـافِهـا كلَّ مـا مَشّى
لقد رانَتِ الدُّنيـا على كلِّ مُقْلَـةٍ[٣٣] فحارَتْ وهل يُهدى إلى قصدِهِ الأعشى
وَنِمْنـا على مَسْرى الْخُطوبِ وربَّما توقَّتْ سَوامٌ رُتَّـعٌ بَعْضَ مـا تَخْشى[٣٤]
ومـا داؤُنـا إلاّ غِنىً بَعْدَ حـاجـةٍ كأنَّـك لم تَنْظُرْ إلى مُصْرِمٍ أَمْشى
[٧٩/أ] [فـلا تَقْتَبِسْ] مِنْ مُرْتَشٍ نـورَ حكمِـهِ فقـد عَمِيَتْ عَيْنُ الحكيمِ الـذي يُرْشى

[حرف الصّاد]

ذَهَبَتِ الفُرَص ، وَبَقِيَتِ الغُصَص ، وَتُرِكَتِ العَـزائِمُ والرُّخَص[٣٥] ، فأَيْنَ الملجأُ والْمَخْلَص ؟ متَى رأيتَ الشَّبـابَ يُقْتَنَصُ ، هَيْهاتَ ؛ فـاتَـكَ القَنَصُ ، فاليومَ تَظمأ وتَخْمَصُ[٣٦] :

[مجزوء الكامل]

ذَهَبَتْ بلـذَّتِهـا الفُرَصْ وَبَقِيتَ تَشْرَقُ بـالغُصَصْ
وَخَرَجْتَ عن حـدِّ الـدِّيـا.....نَـةِ في العَـزائمِ والرُّخَصْ

---

(٣٣) رانَ الشيءُ فلاناً (وران عليه ، وبه) غلبه وغطّاه .

(٣٤) السوام جمع السائمة : الرّاعية من الماشية .

(٣٥) الرُّخص جمع الرخصة : التسهيل في الأمر والتيسير ، والرّخصة في الشرع : ما يغيّر من الأمر الأصلي إلى لين وتخفيف كصلاة السفر ؛ وهي خلافُ العزيمة ، وفي الحديث : « إن الله جلّ ثناؤه يحبّ أن يؤخذ برخصه كما يحبُّ أن تؤتى عزائمه » .

(٣٦) القَنص : المَصيد . وخمَص الجوعُ فلاناً : أضعفه (وجعله ضامر البطن) .

وَظَلِلتَ تطمعُ في الْخَلا ص وليس مِثْلَكَ مَنْ خَلَصْ
وَخضبتَ[37] تَقْتَنِصُ الشَّبا بَ وليس مِمَّا يُقْتَنَصْ!
فَلْتَقْرَعنَّ السِّنَّ مِنْ نَدَمٍ فَقَدْ فاتَ القَنَصْ
واليومَ تَظمأُ فَوْقَ ما لم تَحْتَسِبْهُ مِنَ الخَمَصْ!

[حرف الضاد]

طوبى لِمَنْ وفَّى الفَرْض، وَأَحْسَنَ القَرْض[38]، وخافَ العَرْض[39]، وتأمَّلَ السّماءَ والأَرْضَ، وشَدَّ الرَّحْلَ والغَرْض[40]، وحاسبَ نَفْسَهُ فلم يَرْضَ:

[من السَّريع]

طوبى لِعَبْدٍ أكْمَلَ الفَرْضَا وأَحْسَنَ النِّيَّةَ والقَرْضا
يَعْرِضُ بَلْواه على رَبِّهِ ويَحْذَرُ المَوْقِفَ والعَرْضا
مُسْتَصْحِبَ العَبْرَةِ مهما رَنا إلى السَّماءِ ٱبْتَدَرَ الأَرْضا
إنْ لم يَنَلْ صالِحَةً وادعاً شَدَّ إليها الرَّحْلَ والغَرْضا
كَمْ ساءَ ظناً بالَّذي سَرَّهُ وحاسبَ النَّفْسَ فَلَم يرضا

---

(٣٧) خضب الشيء: غيّر لونَهُ بالخِضاب.

(٣٨) في سورة البقرة ٢٤٥/٢ ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾.

(٣٩) في سورة الحاقة ١٨/٦٩ ﴿ يومئذ تُعْرَضُونَ لاتَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ ﴾: أي: للحساب والجزاء.

(٤٠) الغَرْضُ: حِزام الرَّحْل.

[حرف الطاء]

ياسائلَ الشَّطَطِ ، ونائلَ الخُطَطِ[٤١] ، وقائلَ الهُجْرِ والغَلَط ، أَما خَشِيْتَ مِنَ اللَّقط[٤٢] ؟ فكَمْ بَحْرٍ تَدَفَّقَ مِنَ النُّقَط :

[من مجزوء الكامل]

ياسائلاً سَفَهَ الشَّطَطْ ... إِذْ نالَ زائلةَ الخُطَطْ

هَلا صَرَفْتَ الفَضْلَ مِنْ ... هُجْرِ المقالَةِ والغَلَطْ[٤٣]

وَخَشيتَ مُلْتَقِطاً عليـ ... ـكَ موكَّلاً بالمُلْتَقَطْ

لاتحقِرَنَّ صغيرةً ... إِنَّ البُحورَ مِنَ النُّقَطْ ![٤٤]

[حرف الظاء]

[٧٩/ب] الظَّالمُ يَفيظ[٤٥] ، وهُوَ على نَفْسِهِ حَفيظ ، ولا يُذهِبُ

---

(٤١) هنا : نائل الخُطط ، وفي الشعر (بعده) : زائلة الخطط ، وهو المقصود أي ياسائل زائل الخطط . والخُطّة هنا بمعنى المنصب العالي . وقد ورد قولُهم مثلاً : « خطّة القضاء وخطة الوزارة » في النصوص الأندلسية (يراجع دوزي في تكملة المعاجم العربية ١ : ٣٨٠) .

(٤٢) اللّقط : كل نُثارة من سنبل أو تمر (يُترك فيلتقطه المحتاجون إليه) وإنّما يُترك لقلّة شأنه . وقصد الكاتب إلى الذُّنوب والهفوات الصغيرة التي تكثر فتجتمع فتكون ذا شأن .

(٤٣) الهُجْر : القَبيحُ مِن الكلام .

(٤٤) قريب من قول القائل :

لاتحقِرَنّ صغيراً في معاملةٍ ... إنّ البعوضةَ تُدمي مقلةَ الأَسَدِ

(٤٥) فاظَ : مات .

كَيْدُه ما يَغيظ ، [يَحْظى الوَشيظ][٤٦] ويُحْبَسُ ذو الجَدِّ الحَظيظ[٤٧] ، لا يَسْتَوي الرَّؤوفُ والفَظُّ الغَليظ :

[من المنسرح]

ذُو الظَّلْمِ في ظُلْمِهِ يَفيظُ وَهْوَ على نَفْسِهِ حَفيظُ
غِيْظَ على كَيْدِهِ ولكِنْ لم يُذْهِبِ الكَيْدُ ما يَغيظُ
فاْعمَلْ ولا تَتَّكِلْ لِدارٍ يحظى بها المُلْصَقُ[٤٨] الوَشيْظُ
وتَحْبِسُ الماجِدَ المفدَّى وَهْوَ على رَغْمِهِ حَظيظُ
لا يَسْتَوي الرَّاحِمونَ حَقّاً وَالفَظُّ حَيْزُومُه[٤٩] الغَليظُ

[حرف العين]

استفزَّتْكَ الخُدَع ، واْستَقادَتْكَ البِدَع ، والموتُ لا يُبْقي ولا يَدَع ، أَنْفُ العَزيزِ يُجْتَدَع[٥٠] ، ويُسْتَنْزَلُ الأَعصَمُ الصَّدَع[٥١] .

[من المنسرح]

حتَّى مَتى تَسْتَفِزُّكَ الخُدَع وَكَمْ وَكَمْ تَسْتَقيدُكَ البِدَعُ
تأمُلُ والموتُ وَيْحَ نَفْسِكَ لا يُبقي على آمِلٍ ولا يَدَعُ
ياشامِخاً عِزَّةً بِمَعْطِسِه مَهْلاً فأَنْفُ العزيزِ يُجْتَدَعُ

---

(٤٦) الوشيظُ : واحد الوشائظ وهم السفلةُ من النّاس .
(٤٧) الحظيظ : من حَسُن حَظُّه .
(٤٨) المُلْصَقُ واللّصيقُ : الدَّعِيّ .
(٤٩) الحيزوم : الصّدر ، أو وسطه .
(٥٠) كناية عن إذلاله .
(٥١) الأعصم صفة للظبي أو الوعل ، وهو ما كان في ذراعيه أو في إحداها بياض . والصَّدَع : الفتيّ الشابّ .

لا عِصْمَـــةٌ لِلْمَنيـــعِ مِنْ قـــدَرٍ　　　لم يعتصِمْ مِنْـهُ أعْصَمٌ صَـدَعُ !

[حرف الغين]

خلِّ جَنْبَيْـكَ لِبـاغٍ ، وتجوَّز بِبَـلاغٍ[٥٢] ، ولا تَسْمَـعْ لِـلاغٍ ، ذي قَلْبٍ مُراغٍ[٥٣] ، بَيْنَ يسارٍ وفَراغ[٥٤] :　　　[من مجزوء الرمل]

خَـلِّ جَنْبَيْــكَ لِبَــاغٍ　　　وتجـــوَّزْ بِبَــــلاغِ

واستمـعْ مـــاأنـــزلَ اللَّــــــــهُ ولا تسمَــعْ لِـــلاغِ

لا يَـــزِغْ قلبُـــكَ واْهْجُرْ　　　كلَّ ذي قلبٍ مُراغِ

فَقَـــديمـــاً أَفْسَـــدَ المَرْ　　　ءَ يَســـــارٌ في فَراغِ !

[حرف الفاء]

المَرْءُ على نَفْسِـهِ يُسْرِفُ ، والنَّفسُ طُلَعَـةٌ تَسْتَشْرِف[٥٥] ، تُسرُّ بيومٍ من عُمرِهـا يَغْرِف ، واللَّحـدُ يَحْرُقُ نـابُـهُ وَيَصْرِف[٥٦] ، وإلى اللهِ المرجِـعُ والمصْرِف ، أَيُنكِرُ كتابَهُ أم يَعْرِف ؟

---

(٥٢) باغ اسم فـاعل من بغى . والبلاغ : مـا يُتَبلَّغُ بـه . وتجوْز الأمر : قبلـه على مـا فيـه . وتجوّز بكذا : اكتفى به .

(٥٣) اللاغ = اللاغي اسم فاعل من لغا يَلْغُو لغْواً . ومُراغ : اسم فاعل من أَرْغَى وأصلـه من رُغاء الناقة وهو ضجيجُها .

(٥٤) يشيرإلى بيت لأبي العتاهية في أرجوزته ذات الأمثال (ديوانه ٤٤٨) :

إن الشبــاب والفراغَ والجِــدَة　　　مفســـدة للمرء أيّ مفســـدة !

(٥٥) طُلَعة : التي تُكثر التطلّع إلى الشيء . واستشرف الشيء : رفع بصره ينظرُ إليه .

(٥٦) حَرَق أنيـابـه يحرُقها : حـكّ بعضهـا ببعض حتّى سُمِعَ لهـا صَريف . وصرَف نـابـه : صوّت . قصد في الأمر : توسَّطَ : لم يُفرط ولم يُفرِّط .

[من المتقارب]

متى يَقْصِـــــدُ المرءُ في غيرِهِ إذا كانَ في نفسِـــهِ يُسْرِفُ ؟

أَرَى النَّفسَ إن بَلَغَتْ غــايــةً سَمتْ بَعْــدَ ذلــكَ تستَشْرِفُ

وكيفَ تُسَرُّ بيـــــومٍ يَمُرُّ وَمِنْ عُمرِهـا أَبَــداً يَغْرِفُ ؟

[٨٠/أ] وَلا بُـدَّ لِلْجَنْبِ من وَجْبَـةٍ إلى مَلْحَـدٍ[٥٧] نـابُـهُ يَصْرِفُ

ومَنْ كانَ مُسْتَيْقنـــاً أَنَّـــهُ إلى ربِّـــهِ الرَّجْـعُ والمَصْرِفُ

فما حالُـه عِنْـدَ وَضْعِ الكِتَـابِ أَيُنكِر مــا فيــهِ أَمْ يَعْرِفُ ؟

[حرف القاف]

العَمَلُ رياءٌ وَنِفاق ، والجَزاءُ لما قدَّمْتَ وِفاق[٥٨] ، وليسَ لِغَيْرِ الطَّيِّبِ عند اللهِ نَفَاق ، تاللهِ إنَّ هذهِ الوُجوهَ لَصِفاق[٥٩] :

[من الطويل]

لقَـدْ خَسِرَ السَّـاعي إلى غير ربِّـهِ نِفاقاً ، وَهَلْ بَعْـدَ الرِّيـاءِ نِفـاقُ ؟

سَتَلْقى الـذي قـدَّمْتَـهُ وذَخَرْتَـهُ وِفــاقــاً ، أَلا إنَّ الجَـزاءَ وِفـــاقُ

تجهَّـزْ بـزادٍ صـــالـحٍ أو بِسَيِّءٍ فليسَ لغيرِ الطَّيِّبــاتِ نَفَـــاقُ !

بـأَيِّ وجـوهٍ ترتجي فَضْـلَ ربِّنـا وَلكِنْ وجـوهُ المـذْنِبينَ صِفـاقُ !

---

(٥٧) المَلْحَدُ : اللَّحْدُ .

(٥٨) الوفاق الملاءمة . وفي سُورة النَّبأ ٢٦/٧٨ ﴿ جَزاءً وِفَاقاً ﴾ .

(٥٩) صَفُقَ الوجْهُ : وَقُحَ فهو صفيق (ج : صِفاق) .

[حرف الكاف]

لا حُجَّةَ ولا دَرَك[60] ، لِمَنْ شَهِدَ المعْتَرَك وأَرْجَأَ التَّوْبَ وتَرَك ، أَعجَز أَنْ يكونَ كالعصفور اجْتَنَبَ الشَّرَك ؟ حتى غَلَبَ سكونُه الحَرَك ، وأَناخَ الموتُ بَعِيْرَ عُمْرِه فبَرَك ؟ !

[من السّريع]

مَـــا لِابْنِ سِتِّينَ على رَبِّــهِ ... إنْ وَرَدَ النَّـارِ غـداً مِنْ دَرَكْ

قَـدْ أَعْـذَرَ اللهُ إليـهِ وَلا ... عُـذْرَ لِشَيْـخٍ شَهِـدَ المعْتَرَكْ[61]

لَمْ يَتْرُكِ الـذَّنْبَ ولكنَّـهُ ... قَـدْ تَرَكَ التَّـوْبَـةَ فيما تَرَكْ

كَبَـا لِفيـهِ وَيَـدَيْـهِ وكَمْ[62] ... عُصْفُـورَةٍ لم تَعْتَلِقْهَـا الشِّرَكْ

حرَّكَـهُ الـدَّهرُ وإنَّ الَّـذي ... حرَّكَـهُ أَسْكَنَ مِنْـهُ الحَرَكْ

حَـدا بَعِيرَ العُمْرِ حَتَّى إذا ... حَـلَّ بِـهِ المـوْتُ مُنِيخـاً بَرَكْ

[حرف اللام]

خَـابَ مَنِ ٱحْتَمَـل[63] ، وَحَـالَفَ الإدْلاجَ والعَمَـل ، أَنْضَى الجَمَـل ، وشَقِيَ الحامِلُ ومَنْ حَمَل ، وبَلَغَ البَيْتَ ولم يَبْلُغِ الأَمَل ،

خَـابَ من التَّوفيـقِ لَمّـا ٱحتَمَـلْ ... مُحَـالِفـاً إدلاجَـهُ والعَمَـلْ

---

(٦٠) الدَّرَكُ اسم مصدر بمعنى الإدراك .

(٦١) يُقال : أعذر فلانٌ أي ثبتَ له عُذْرٌ .

(٦٢) كبا : عثر ، وانكبَّ على وجْهه .

(٦٣) احتمل الشيءَ والأمر : حمله وصابره عليه .

هـوَى إلى البَيْتِ ـ هـوَتْ أُمُّـهُ ـ[٦٤] لسُمْعَــةٍ أَنْضى عَلَيْهَــا الجَمَـلْ[٦٥]

يَشْقى بـــهِ الحــامِـلُ لكنّــهُ أَشْقى مِنَ الحَامِلِ مَنْ قَـدْ حَمَـلْ

لَمْ تَبْلُـغِ البَيْتَ خُطـا بــالِـغٍ أَخْلَفَـــهُ فيـــهِ بُلـوغُ الأَمَـلْ

[حرف الميم]

[٨٠/ب] الشَّيْبُ قَد وَعَـظَ ونـادى مِنْ أَمَم[٦٦] ، لا نـاطق أَوْعَـظُ مِنْ صامِتٍ في فُروعِ اللِّمَم[٦٧] ، ونـذيرٌ مِنَ اللهِ [قـامَتْ بـهِ الحُجَّـةُ] البَيْضـاءُ فَـوْقَ القِمَم ، يـا عَـوْضُ[٦٨] لَقَـدْ عُضْتَـهُ حَمامَـةً من حُمَم[٦٩] ، وبـادَرْتَ ـ وما تأنَّيْتَ ـ الحُلى بالغَمم[٧٠] ،

[من السّريع]

قَـدْ وَعَـظَ الشَّيْبُ ونـاجـاك بَـلْ نـــاداكَ فَلْتُصْـغِ لَـــهُ مِنْ أَمَمْ

لا نــاطــقٌ أَوعَــظُ مِنْ صــامِتٍ قـــامَ خَطيبـــاً في فُروعِ اللِّمَمْ

---

(٦٤) هوت أُمُّه ـ دعاءٌ عليه ـ أي مات فثكلته أو هلكت أُمُّه . اقتبس من القارعة ١٠١ : ٩

(٦٥) يقال : مـا فعَلـهُ ريـاءً ولا سُمْعَـةً . والسّمعـة (وهي بفتح السين وضمّهـا وسكون الميم ، وبفتحها) : ما نوّه بذكره ليُرى ويُسمع !

(٦٦) الأمم : القُرب .

(٦٧) اللّمم جمع لِمّة : شعر الرأس المجـاوز شحمـة الأُذن . (يعني الكاتب الشـاعر : الشّيب ؛ لأنّه يبدأ عادة من تلك الجهة) .

(٦٨) عَوْض : الدهر والزمان .

(٦٩) حمم : الفحم . بَدّله الزمان حمامة بيضاء من فحمة سوداء !

(٧٠) الحُلى جمع حِليـة (مـا يُتزيَّنُ بـه) والغمم من غمّ : سـال شعره حتى ضـاقت جبهتـه وقفاه ، وهو من العيوب !

هـــذا نـــذيرُ اللهِ قـــامَتْ بـــهِ ... حُجَّتُـــهُ البَيْضـــاءُ فَــوْقَ القِمَمْ
يـاعَـوْضُ مـاأَعْجَـلَ مـاعُضْتَـهُ ... حمـــامَـــةً نـــاصعـــةً مِنْ حُمَمْ
بـــادَرْتَ أَمراً لَمْ تَخَفْ فَـوْتَـــهُ ... هـلاّ تـــأَنَّيْتَ الحُلى بـــالغِمَمْ ؟

[حرف النون]

ياساكنَ القَصْرِ تـذكَّر الجَنَن[71] ، ومَكْرَ اللهِ لا تَـأْمَنْ ، لا جُنَّـةَ[72] إلاّ التُّقى والبرُّ فـلا تُفْتَنَنْ ، لـو نَطَـقَ مَيْتُ لقـالَ وجـدتُ البرَّ أَوقى الجُنَن ، وَضَعْتَ مُنَّتَكَ[73] في كُفْرِ المِنَن ، إنْ كان سيئُك معجزاً فلا تُحسِنَن ، وإن أَمِنْتَ الموتَ فلا تَحْزَنَنْ ،

[من السّريع]

يـــا ســـاكنَ القَصْرِ على غِرَّةٍ ... تـــذكّرِ المـــوتَ وسُكْنى الجَنَنْ
أَمِنتَ مكرَ اللهِ يغشـــــاكَ في ... لَيْلِك أَو يـومِـكَ ؟ لاتَــأْمَنَنْ !
لا جُنَّـــــةٌ للنَّـــارِ إلاَّ التُّقى ... والبرُّ فـــالْـــزمْـــهُ ولا تُفتَنَنْ
لـــو نطـــقَ المَيْتُ لنـــاداكُمُ ... إنِّي وَجَـــدْتُ البرَّ أَوْقى الجُنَنْ
وَضَعْتَ مـــاأُعْطِيْتَ من قُـــوّةٍ ... وَمُنَّـــــةٍ في كُفْرِ ربِّ المِنَنْ
إنْ كانَ مـــــاأَسْلَفتَ من سَيِّءٍ ... قـــد أعجـــزَ اللهَ فـــلا تُحْسِنَنْ
وإن أَمِنْتَ المَـوْتَ فَـاْفْرَحْ بمـا ... أُعطيتَ في الـدُّنيـا ولا تَحْـزَنَنْ !

---

(71) الجنن : القبر .

(72) الجُنة : ما يستر وما يقي .

(73) المنّةُ : القوّة . والمِنَن جمع مِنّة : الإحسان والإنعام .

[حرف الواو]

الملوكُ الَّـذينَ ٱعتلَـوا ، في حُفَرِهمْ قـد هَـوَوْا ، مـالَهُم - وَقَـدْ طبَّقـوا الأَرضَ - انزَوَوْا ؟ ما بالُهُمْ في الثَّرى بَعْـدَ النَّضْرَةِ قـد ذَوَوْا ؟ لم يَلْوُوا حَقَّ اللهِ وكَمْ غَريمٍ لَـوَوْا[٧٤] . أُنظرْ إلى دَارِهمْ خـاليـةً خـاويـةً إذ خَـوَوْا[٧٥] ، وأْوِ كُـلَّ مَنيـعٍ أَوَوْا[٧٦] ، إنْ لَمْ تعتَبِرْ بهم فستجتـوي[٧٧] من العَيْشِ ما ٱجتوَوْا :

[من السّريع]

[٨١/أ] إنَّ السَّلاطينَ الَّـذينَ ٱعْتَلَـوْا	في حُفَرٍ هـاوِيَـةٍ قَـدْ هَـوَوْا
نـادهم : مـالَهُمُ بَعْـدَمـا	قد طَبَّقُوا الأَرْضَ مَضَوْا وٱنْزَوَوْا ؟
مـا بـالُ أَغصـانِهِمُ ذبَّـلٌ	ومـالَهُمْ تحتَ الثَّرى قـد ثَـوَوْا ؟
لَمْ يُلْـوَ حـقُّ اللهِ إذْ جـاءَهُمْ	وكَمْ غريمٍ قبلَـهُ قـد لَـوَوْا
أُنظرْ إلى دارِهِمُ بعـدَهُمْ	خـاليـةً خـاويـةً إذ خَـوَوْا !
وَٱدْخُـلْ بـلا إذنٍ ولا رِقْبَـةٍ	وَٱعْـلُ ذُرى كُـلِّ منيـعٍ أَوَوْا !
إنْ لم تُفِـدْ من حـالِهِمْ عِبرةً	فـٱهْوَ هَـواهُمْ واجْتَـوِ مـا ٱجْتَـوَوْا

[حرف الهاء]

وَازِنْ بَيْنَ الهـوى والنُّهى، وٱعلَمْ أنَّ « إلى ربِّـكَ المُنْتَهى »[٧٨] ، والنَّـارُ

(٧٤) لواه حَقه : مطله .

(٧٥) خوى البيت : هلَك أهلُه وهو قائم بلا ساكن .

(٧٦) أوى فلانٌ المنزلَ (وأوى إليه) نزله بنفسه وسكنه . و : أو ، فعل أمر من أوى .

(٧٧) اجتوى الطعام : كرهه ، ولم يوافقه .

(٧٨) في سورة النَّجم ٤٢/٥٣ : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المنتهى ﴾ . أي انتهاء الخلائق ورجوعهم .

محفوفَةٌ بالشَّهواتِ[٧٩] فَخُذْ أو فَذَرْ مِمَّا يُشْتَهى ، أَجْرأُ من اللَّيْثِ مَنِ اجْتَرَأَ على اللهِ فيما نَهى ، يَرى الأَمْرَ جِدّاً و يَلْهُو مع مَنْ لَها ، لو صَدَقَتْ عَيْنُكَ لَما تيَّمَتْكَ المها[٨٠] ، ولو كُنْتَ ذا دَهِيٍّ[٨١] لتهيَّأتَ لدَفْعِ ما دَهى ، أما إنَّ الحَريصَ لَيَبيعَ النُّهى باللُّهى[٨٢] ، و يَعْيَى عَنِ البَدْرِ و يُتْعِبُ لحظَهَ في السُّهى ![٨٣]

[من المتقارب]

تقَدَّمْ هوى أو تأخَّرْ نُهى ... فإنّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهى
وقد حُفَّ بالشَّهوات الجَحيمُ ... فَخُذْ أَوْ فَذَرْ كلَّ ما يُشتهى
وأَجْرَأُ من كُلِّ ذي لِبْدَةٍ ... جَريءٌ عَلى اللهِ فيما نَهى
يَرى الأَمرَ جِدّاً ولا يَمْتَري[٨٤] ... وَيَلْهو ـ على العِلْم ـ فيمن لَها
ولو صَدَقَتْ عَيْنُهُ قلبَهُ ... لَما تَيَّمَتْهُ عُيونُ المهى !
ولَوْ كان ذا مِرَّةٍ[٨٥] داهياً ... لدافع عن نفسِه ما دَهى !

---

(٧٩) أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والدارميّ في سننه من حديث أنس رضي الله عنه « حُفَّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشّهوات » . المسند ٣٨٠٢ ، وسنن الدارمي ٢ : ٣٣٩ .

(٨٠) المها جمع المهاة .

(٨١) دهيّ وزن فعيل من الدَّهاء .

(٨٢) النُّهى جمع نُهية : العقل . واللُّهي جمع لُهية : العطِيّة .

(٨٣) السُّها نجم صغير خفيٌّ في السماء (من بنات نعش) .
ـ والكاتب يشير إلى المثل العربيّ : « أريها السُّها وتُريني القمر » . ويُتَمثَّل به في الخطأ (أمثال العسكري ١ : ١٤٢) .

(٨٤) لا يمتري : لا يشكُّ .

(٨٥) المِرَّةُ : العقلُ أو شِدَّتُه ؛ والقوّة .

وقد يُذهِبُ الحِرْصُ عقلَ اللّبيـ......ـب حتّى يبيعَ النّهى باللُّهى
ويَعْيي عَنِ البَدْرِ في تمِّهِ ويُتْعِبُ ألحاظَهُ في السُّهى

[حرف اللام ألف]

عَمَرتَ دياراً وحِلَلا[٨٦] ، وعالَيْتَ فَوْقَكَ حُلَلاً ، وأرْسَلْتَ حُجُباً وكِلَلاً[٨٧] ، [٨١/ب] أجْرَيْتَ غِلاً وغَلَلاً[٨٨] ، وسَقَيْتَ نَهَلاً وعَلَلاً ، وعَلَّلْتَ فوائِدَ وعِلَلاً ، وتجلَّلْتَ الذَّنْبَ فادحاً جَلَلاً[٨٩] ، فأصْبَحْتَ كأطلالِكَ طَلَلاً ، هَيْهاتَ ! إنَّ الصِّراطَ لا يَحْمِلُ زَلَلاً ، والنّاقِدُ بَصيرٌ لا يَقْبَلُ خَلَلاً :

[من البسيط]

خرَّبتَ دارَ مُقامٍ كنتَ تنزلُها فما عَمَرْتَ ديارَ الهُون والحِلَلا
فاليومَ تخلعُ ما عالَيْتَ من حُلَلٍ إذْ لم تُظاهِرْ مِنَ التَّقوى بها حُلَلا
لا يَحْجبُ الموتَ ما أرْسَلْتَ من حُجُبٍ ولا يُكِلُّ وإن كلَّلتها كِلَلا
يا جامِدَ الدَّمْعِ لو أنصفْتَ كُنْتَ حرىً أن تُجْرِيَ الدَّمعَ لا أن تُجري الغَلَلا
لا تفرحَنَّ بما أوتيت من سعةٍ فهي الغُلولُ وإنْ سمَّيتها غَلَلا
ولو دَفعتَ بنفسٍ أنْتَ مهلكُها أوردتَها نَهَلاً في الأجْرِ بل عَلَلا
أما وربِّك والأوزارُ عاثرةٌ لقد تجلّلتَ ذَنْباً فادحاً جَلَلا
ماذا يروقُكَ مِنْ دارٍ كأنّكَ قَدْ أصْبَحْتَ تمثُل في أطلالِها طَلَلا ؟

---

(٨٦) الحِلَلُ جمع الحِلّة : المجلس والمُجتمع .
(٨٧) الكلل جمع كِلّة : ستر رقيق .
(٨٨) الغِلُّ : العداوة والحقد الكامن . والغَلَلُ : شدّة العطش وحرارته .
(٨٩) الْجَلل : الكبير العظيم .

بَلْ كَيْفَ يَثْبُتُ مَنْ زَلَّتْ بِهِ قَدَمٌ على الصِّراطِ وما إنْ يحملُ الزَّلَلا ؟
أم كيفَ تَرْفَعُ مُخْتَلاً تقدِّمُهُ إلى بصيرٍ بِهِ لا يقبَلُ الْخَلَلا ؟

[حرف الياء]

الحادي الخطيئة قد حُدي ، والعادي مُنِعَ وعُدي ، أين النَّادي الذي ٱنْتُدي ، واليَعْسُوبُ[٩٠] الذي بِهِ اقتُدي ؟ قتل وما وُدِي[٩١] ، ورِيحَ به أو غُدي ، لا يَسْمَعُ إن دُعي ، ولا يُجْدي إذا ٱجْتُدي[٩٢] :

[من السَّريع]

حَدا وما خفَّضَ في سُوقِهِ واعتَسفَ الْمَجْهَلَ حتَّى حُدِي
لَمْ تَبْكِ لِلعادي سماءٌ ولا أرْضٌ فَيَا خَيْبَتَهُ إذ عُدِي !
وذاكَ نادِيهِ على رَغْمِهِ كأنَّه من وحشةٍ ما ٱنْتُدي
وكلُّ يَعْسُوبٍ غدا قدوةً يودُّ يَوْماً أنَّه ما ٱقْتُدي
[٨٢/أ] طُلَّ كما طُلَّت دماءٌ بِهِ فَما وَداها وَهْوَ ذا ما وُدي[٩٣]
كالرَّبعِ لا يُصْغي صَداهُ إلى داعٍ ولا يُجْدِي إذا ما اجْتُدِي !

---

(٩٠) اليَعْسُوب : رئيسُ القَوم وكبيرهم ومُقَدَّمُهم .
(٩١) وُدِي القتيل : دُفعت دِيَته .
(٩٢) اجتُدِي : طُلب منه الجدَا (العطاء) .
(٩٣) طُلَّ دم القتيل : هدر ، ولم يُثأر به ، ولم تؤخذ ديتُه .

[٩٠]

وَلَهُ(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ :

إلى بعثةِ الإيمان ، ووَفْدِ الرَّحمن ؛ وركبِ القُفول ، ورُوّادِ الرَّسُول ، ومُلَبّي دعوة الخليل ؛ الفارّين من اللهِ تَعالى إليه ، المتوسلين بهِ عَليه ؛ التّاركين في رِضاه للأَهل والأوطان ، الْمُرغمين ـ بتَهليلهم وتكبيرهِمْ ـ أنْفَ الشّيطان . الّذين هجَرُوا ـ في اللهِ تعالى ـ كَراهُمْ ، وحَمدوا الصّباح سراهم[1] ؛ ولم تَثْنِ عزائمهم ثمراتُ الأكباد[2] ، ولا اطّبَتْهُم[3] فِتَنُ الأزواج والأولاد ؛ ولا راقَهم طِيبُ الثّمار والظّلال ، ولا عَداهم عن لَفْحِ الهجير بَرْدُ العذبِ الزُّلال[4] .

سَعِدُوا بالمقدُور ، وبلغُوا حاجةً في الصُّدور ؛ ونَالُوا من تلك الْمَشاهد الْمُعَظّمة هَواهُم ، وقضوا من مِنىً أَقْصى أوطارَهم ومُناهم . وسالت الأباطِحُ

---

[٩٠]

(☆) رسالة مشابهة للرسالة ذات الرقم ٨٨ في الغَرض والمقصد .

(١) من المثل العربي : « عند الصّباح يحمد القومُ السُّرى » . (أمثال العسكري ٢ : ٤٢) .

(٢) يقال للولد : ثمرةُ القلب (المضاف والمنسوب : ٣٤١) .

(٣) اطّباه : دعاهُ ، واستماله .

(٤) من قول أبي تمّام في المعتصم من قصيدته المخلّدة (ديوانه ١ : ٦٢) :

عداك حَرُّ الثغور المستضامة عن ... برد الثغور وعن سلسالها الْحَصِبِ

بأعناقِ مطايَاهُمْ[٥] . وزاروا تُربةَ الشّفيع ، وحَلّوا بمُناخِـه العَبِقِ الرَّفيع ؛ وصَدَرُوا عنهُ بالثّواب المُحْتَقب[٦] ، والفَخرِ الباقي على الحِقَب .

من أخيهم القـاسي الفُـؤاد[٧] ، الرّاسي الـوسَـاد ، الـذي زادَ مَــداهُ على مَداهُمْ ، ونقَصَ هُداه عن هُـداهم ، وعـايَن تَقرُّبَهُم وازدلافَهُم[٨] ، وأقـام في دار الغُرور خِلافَهُم ، وثَقُل حينَ خَفّوا ، وكدر لما صَفَوا وشَفُّوا .

كتبتُ يـا رَكب الهُـدى والراكِبينَ للسَّبيلِ الأهْـدى والْمُستقبلينَ العَلَمَ الْمُقْتَـدى أمِنْتُم صُروفَ الرَّدى ، ووُقيتُمْ صُنـوف العِـدى ، وقَرُبَت عليكمُ الشُّقَّةُ والْمَدى . وقد أخَّرَني عنكُم حظٌّ أو حَدٌّ[٩] لا ينبغي له أن يتعَـدّى ، وعاوَدَني الشَّوقِ والتَّدَلُّهِ سُدَى[١٠] . وكانت في نفسي لُبـانَـةٌ[١١] أذْهَلني عنهـا شَرَقُ العَيْن ، وغَصَصِي بمـوقفِ البَيْن . وعبرةٌ تجـودُ وأُخرى تخنُـق ، وزفرةٌ لا تكـذِبُ وثـانيـةٌ تَصْدُق . وبعـدَ ثـالثـةٍ مــا ادّكرتُ وعرفتُ من نفسِي

---

(٥) من الشعر المشهور :

ولـمـا قضينـا من منى كل حـاجـةٍ	ومسّح بـالأركانِ مَنْ هـو مـاسِـحُ
أخذنا بأطراف الأحـاديث بيننـا	وسالت بـأعنـاقِ المطيِّ الأبـاطِحُ

(من قطعة في ثمانية أبيات رواها الشريف المرتضى . تراجع حاشية الشيخ أحمـد محمـد شاكر في الشعر والشعراء ١ : ٦٦ في نسبة الأبيات ومصادرها) .

(٦) احتقب الشيء : ادّخره .

(٧) الكاتب هنا يعني نفسه .

(٨) ازدلف إليه : دنا واقتربَ .

(٩) قوله « قربت الشقة » اقتباس من التوبة ٩ : ٤٢ والْحَدّ : المنع . وفلان محدودٌ : محروم !

(١٠) الوَنى : التعب ، والكلال . والتدلُّه : التحيُّر .

(١١) اللُّبانة : الحاجة (من غير فاقة ولكن من نهمة) .

مـا أنكرت . واستَـدْركتُ [٨٢/ب] حـاجـةً لا تُثقِـلُ كاهِـلاً ، ولا يـزالُ الرّكبُ بهـا آهـلاً ؛ تـأتَمُّ الهُـداةُ بـأرَجِهـا ، وتمشي الحـداةُ على ذَميلهـا ومَدْرَجِها ، تُخَيَّرُ في الأحياءِ ، وتَأْبى إلا خاتمَ الأنبياء . فهل أنتُم للأمـانـةِ مُؤَدُّون ، ولأخيكُمْ بالدُّعاءِ لَهُ في تلـكَ الْمَواقِف مُمِـدُّون ، وبلسـانِ ضميرهِ مُتكَلِّمـون ، وبتحيَّتِـهِ على خـاتمِ الرُّسُـلِ ﷺ مُسلِّمُـون ، ولِتُربتـهِ عنـهُ بشِفاهكم مُصافِحُون ؟ لا جرَمَ ! إنّكُمْ له نـاصِحُون ، وبمـا حَمّلكم مُعْتَنُونَ ، وللوَفاءِ مُؤْثِرُون ، وبـالبرّ في وِجْهَتِكُمْ الميمونـةِ وارِدُون وصـادرون ، ولكلّ غايةٍ في الفَضْلِ مُبتدرون . وُقيتُم يا إخوتي وَعْثـاءَ السَّفر ، وسُوءَ الْمُنقلب وكآبـةَ المنظر ، وعُـدتم بـالْحُسْنى والظَّفر ، والغُنم الأوفى الأوْفَر . وفُـزتُمْ بكرامـةِ الأَبَـدِ ، وعُوفيتم في الأهـلِ والـوَلـد ، ولا خَـالفتكم إلى من خَلَّفْتُمْ نـائبـة ، ولا شـابتْ مَوارِدَكُمْ شـائِبـة . وقـد أدْرَجْتُ قِطَعـاً ربّما ترنَّمَ بهـا شادٍ ، وطَرِب بها حادٍ . فهيَ أمـانـةٌ إلى أن تُوضَع بـإزاءِ التُّربَـةِ الأَرِجـة ، والرَّوْضَـةِ البَهِجَـة ؛ إن شـاء الله . وسَلّم اللهُ الرّائـحَ الغـادِيَ الْمُتَـوالي على صِفْوَتي[١٢] وأعضادي ومَظَنَّةِ تَعْويلي واعتمادي ، ورحمةُ اللهِ .

[من الخفيف]

يـا رسـولَ المليـكِ نفسي تفـوقُ ... وذُنـوبي مثبّطـاتٌ تعـوقُ

كم تَعَرَّضْتُ للقبُـولِ ولكنْ ... ليسَ للـزّائفِ الْمُبَهْرَجِ سُـوقُ !

كلّما قلتُ قـد خلصتُ إلى البرْ ... رِ ادّعـاني بشـاهِـدَيْـهِ العُقـوقُ

وبَعيـدٌ أن تستجيبَ إلى الرُّشْ ... دِ قلُـوبٌ للغيّ فيهـا حقـوقُ

---

(١٢) ضبطها بكسر الصاد . والكلمةُ مثلثة الصّاد . وأعضاد جمع عضُد .

قَيَّـدَتْني الـذُّنـوبُ بـل أسكرتني فصَبُـوحٌ لا يَنقضي وغَبُـوقُ ![13]

لم يَرُعْنِي المشيبُ بـل لم يَرُعْنِي وهـو من صِبْغَـةِ الرَّدى مخلـوقُ

كلَّ يـومٍ على المَفـارقِ منـهُ كلُّ سيفٍ منـهُ الحِمامُ مَـذُوقُ

[٨٣/أ] مـاعتـذاري من بعـد خمسينَ ولَّتْ

مثـلَ مـا أوْمَضتْ ببحرٍ بُروقُ

رأسُ مـالِ الحَيـاةِ لمْ أسْتَفِـدْ منْـ ـهُ سِوَى حَسْرَةٍ وذكرى تشـوقُ

وعلى ذاكَ فـالرَّجـاءُ مُقِيمٌ مـا تَراخَتْ عنّي وعنـهُ غُلـوقُ[14]

يـا شفيعَ الحسـاب كنْ بي شَفِيعـاً قَبْلَـهُ رُبَّما تُسَـدُّ الفُتـوقُ

ولـدَى الرّكبِ مِن صَلاتي وشـوقي وسَـلامي مُبَشّراتٌ تَرُوقُ

فَلَعلّي أفـوزُ منـكَ بردٍّ فيـهِ حَـادٍ إلى ذَراك يَسُـوقُ

إنّ رَدَّ السَّـلامِ منـكَ عَلِمْنـا ـهُ وأدّاهُ صـادِقٌ مَصْـدُوقُ

فعلى أحمـدٍ صَـلاةٌ وتَسْليـ ـمٌ هـو المِسْـكُ طِيبُـهُ مَنْشُـوقُ

رحمَ اللهُ مَنْ دَعـا لأخيـهِ حيثُ يُرْجى للمبطئين لُحـوقُ !

[من مجزوء الخفيف]

☆ يـا رسـولَ الإلَـهِ هـلْ أنـا في الرّكبِ مُغتـدِي ؟[15]

ليتَ شعري تلهُّفـاً مِنْ شـجٍ عنـك مُبْعَـدِ

هـل أقُـولنْ لِمُقْلتي وهيَ بـالـدَّمـع ترتـدي

---

(١٣) الصَّبُوح : شراب الصباح . والغَبُوق : شرابُ العَشِيّ .

(١٤) غَلِقَ الرَّهْنُ : استحقّه المرتهِنُ ولم يقدر الراهِنُ على فكّه . واستعاره الشاعر الكاتب للفُسْحَةِ في الأجل .

(١٥) انتقل من قافية إلى أُخرى فُجاءة .

والسُّرى قــد رمت بهــا　　في حِمى ذلــك النَّــدِيّ

اجْــزَعِي أوْ تجَلَّــدِي　　هــذِهِ دارُ أحْمَــد

هــذِهِ تربــةُ الهُــدا......ةِ فَضِلّي أو اهتَــدِي

أين دعــواكِ في الهَــوى　　اصــدِري عنــهُ أوْ رِدِي

ربّ دمــعٍ أرَقْتُــه　　في ظـــلالٍ وفي دَدِ(١٦)

وسَــوامٍ سَرحْتُــه　　في حِمى الله مُعْتَــد

لسْتِ مني ولست منــ......ـكِ متى خُنْتِ مَــوْعِــدي

فــاسْتِمِــدّي حُمْرَ الــدُّمــو......ع مِن القلْبِ تُمْــدَدِي

وانضحي عنــك مــا مضى　　واغسِلِي اليــومَ بــالغَــدِ

[من مجزوء الكامل المُرَفَّل]

☆ يــا صــاحِبَيَّ رَشَــدتُما　　وهُــدِيتُما قصْــدَ السَّبيــلْ

ووُقِيتُما ولَقِيتُما　　يُمْنَ المُعَرَّسِ والمَقيــلْ

وتكفّلت بكُما السَّــلا......مَــةُ في النُّــزولِ وفي الرَّحيــلْ

وغَنيتُما مَغْنى بـــلا......لٍ حين حَنّ على غَليــلْ(١٧)

وخَطَطْتُما في (إذْخِرٍ)　　عَبَــقَ النَّسيمِ وفي (جَليــلْ)

ومَــدَدْتُما في (شــامــةٍ)　　لحظَ العُيونِ وفي (طَفيلْ)(١٨)

---

(١٦) الدَّدُ : اللهو واللعبُ .

(١٧) هو الصحابيّ الجليل بلال بن رباح ، مؤذّن رسول الله ﷺ ، عاش زماناً في الجاهلية وتوفي سنة ٢٠ هـ (في أحد الأقوال) بالشام ، في داريّا .

(١٨) إشارة إلى شعر لبلال أنشده حين خرج إلى المدينة . وفي ترجمته : لَمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة وُعِكَ أبو بكر وبلال فكان أبو بكر إذا أخذته الحمّى يقول ... وكان بلال إذا =

[٨٣/ب] ووطِئْتُما ظهرَ (الصّفا) وقطعتما (بطنَ المسيلْ)
وسَعِدتُما وحَظيتما بلزومِ (مُلْتَزَمِ) الخَليلْ
ووَرَدْتُما من (زَمْزمٍ) سِرّ المعين السّلسَبيلْ
وجَنيْتُما ثَمَرَ المنى بِـ(ـمنى) من الأَجْرِ الجَزيْلْ
ومسَحتما (الأركان) مسْحَةَ قافِلٍ بَرِّ القُفولْ
وتركتُما تلكَ المَشاهِدَ شاهداتٍ بالجميلْ(١٩)
ونَحَوْتُماهَا نحو (طَيْبَةَ) عامِراتٍ بالذَّميلْ(٢٠)
مِن كُلّ مُحْصَدةِ الجَديْلِ(٢١) لِشَدْقمٍ أَوْ للجَديلْ(٢٢)
غلبتْ علَى الشَّجْوِ الحَمامَةُ فهيَ أَوْلى بالهَديلْ(٢٣)
وتَوَسَّطتْ أَحياءَ مُهْرةَ فهيَ في شَرَفِ القَبيلْ(٢٤)

= أقلع عنهُ يرفعُ عقيرته ويقول :

ألا ليتَ شِعْرِي هل أبيتَنَّ ليلةً بِوَادٍ وحَوْلي إذْخِرٌ وجَليلُ
وهل أردَنْ يوماً مياه مَجَنَّةٍ وهل يَبْدُوَنْ لي شامَةٌ وطَفِيلُ ؟

(سير أعلام النبلاء ١ : ٣٥٤)

(١٩) هذه الأعلام من المَشاهد والمَناسك التي يمرّ بها الحاجّ ، ويؤدي فيها الشّعائر .

(٢٠) طيبة : اسم المدينة المنوّرة .
ـ والذميل : من ذملَ إذا سار سيراً ليّناً .

(٢١) الجديل : الزمام المجدول من أدم . وأحْصَد الحبلَ : أحكم فتله . ويقال : هي مجدولة الخَلق .

(٢٢) شدقم والجديل من أسماء خيل العرب المشهورة .

(٢٣) الهديل : صوت الحمام . والهديل ـ في أساطيرهم ـ فرخٌ كان على عهد نوح عليه السلام فمات ضيعةً وعطشاً . فيزعمون أنه ليس من حمامةٍ إلا وهي تبكي عليه .

(٢٤) مهرة بن حيدان أبو قبيلة (وهم حيٌّ عظيمٌ) . وإبلٌ مهريّة منسوبة إليهم .

وعِدادُها فيما يسيـرُ وإنَّها مما يَسِيلْ[25]
من ساءَ هَيْلاً فهي لا تنفكُّ مُحْسِنةً تهيلْ[26]
فتخالُها من شوقِها تهفُو إلى ذاتِ النَّخيلْ[27]
وكأنَّ تُربةَ أحمدٍ ونسيمَها الأَرِجَ العليلْ
يقتادُها من طِيبِها ويَدُلُّها أَهْدى دَلِيلْ
حتّى إذا كنتُمْ من الـقَبْرِ الْمُبَارَكِ قِيدَ ميلْ[28]
فقَعُوا عن الأكوار وقْـعةَ خاضعِ الذِّفْرى ذليلْ[29]
وتَشحَّطا في تُربَةٍ كتشحُّطِ الصّادي القَتيلْ[30]
هل تذكرانِ أخاكُما يا صاحِبَيْهِ كما يقولْ ؟
وتؤدّيانِ صلاتَهُ وسلامَهُ عند الرَّسُولْ
وتؤمّنانِ وتَدْعُوا نِ لهُ مظنّاتِ القَبُولْ
أَمْ تنسَيانِ فَرُبَّما ذَهِلَ الكثيرُ عن القَليلْ !
بَلْ تذكرانِ ورُبّما ذُكِرتْ لِساكِنِها الطُّلولْ
لازِلْتُما مادُمْتُما للعِزِّ في ظِلٍّ ظليلْ
وجَمعْتُما شرفَ الإيـابِ إلى مَدى العُمرِ الطَّويلْ

---

(٢٥) من المجاز : سالت عليه الخيل .

(٢٦) يقال : هالَ الرّمل ـ ونحوه ـ هَيْلاً : دفعه وأرسله دون أن يرفع يده عنه .

(٢٧) ذات النخيل : المدينة المنوّرة .

(٢٨) أي قَدْر مِيل .

(٢٩) الأكوار جمع كور : رحل البعير ، أو الرحل بأداته . والذِّفْرى من الحيوان والإنسان : العظمُ الشاخِصُ خَلْفَ الأُذن .

(٣٠) تشحّط في دمه : اضطرب ، وتَمرَّغ . واستعارها الشاعر الكاتب للتراب أيضاً .

[٩١]

ولَهُ(☆) أيضاً ـ دامَ عِزُّهُ ـ :

الْخُطَطُ النّبيهةُ ـ أطالَ اللهُ بقاءَك ومَكّن عَلاءَكَ ـ علائقُ حِراسَةٍ وضَنانة ، وعقائلُ نفاسَةٍ وصِيانة . فالعِلْقُ الْمُمَنَّعُ قد يُؤخذ غَصْباً ، والعقيلةُ الجليلةُ قد تغْدُو لغيرِ الأكْفاءِ نَصْباً . هذهِ سيّدةُ الأراقِمِ[1] بُخست على غيرِ ذَنْب ، وأنكحَها فقدُ أراقِمِها في جَنْب . ورُبّ مُهرةٍ[2] عربيّةٍ

---

[٩١]

(☆) رسالةٌ في قاضٍ ـ وإليه ـ كان قد نُحّي عن رتبة القضاء ثم أُعيد إليها .

(١) الأراقم هم : جُشم ، ومالك ، وعمرو ، وثعلبة ، ومعاوية ، والحارث : أولاد بكر بن حبيب ... بن تغلب بن وائل . والكاتب ، هنا ، يشير إلى قول مهلهل أحد شعراء تغلب (الأغاني ٥ : ٤٣ واللباب ١ : ٣٤) :

أنْكحَها فَقْدُها الأراقِمَ في جَنْبٍ ، وكانَ الحِباءُ من أدَمِ !

والمقصودة بالحديث ابنتهُ . وكان ـ حين لَحِقَ بأرْضِ اليمن في بعض أخبار حرب بكر وتغلب « البسوس » ـ قد اضطر إلى تزويج ابنته هذه ثَمّة ، فأنشد قطعة منها البيت السّابق ، وبعده :

لو بأبانينَ جاءَ يخطُبُها ضُرِّجَ ما أنفُ خاطبٍ بدمِ !

(وجَنْب : حيّ باليمن من مذحج . وأبانان جبلان « انظرهما في معجم البلدان ٦٣ » والمخطوبة عند ياقوت هي : مَيّة أخته) .

(٢) كذا في النص (مهرة) مؤنث الْمُهر : ولد الفرس . وأظُنُّها مَهيْرَة . يقال هذه مهيرة وهذه سُرّية وهن مهائر أو سراريّ . ومعنى مهيرة ذات مهر ، فهي حُرّة وليستْ من السراريّ .

سؤددها رَغد ، أمست يقتادها وَغـد . أُريـدَ بهـا أشيـاءُ لا تُريـدُهـا فيلينُ أخْدَعُها[٣] ووريدُها !

وما زالت خطّـةُ القضـاء تضيقُ عليهـا بعـدكَ سَعـةُ الفَضـاء ، وتُقلِّبُ وَجْهَها في السَّماء لِتُوَلّى قِبْلَةً تَرْضاها[٤] وتُحَلّى عِصْمَةَ ماجدٍ يَجْمَعُ فَوْضَاهـا [٨٤/أ] وتنوحُ على ذلكَ النِّصابِ الرَّفيع أحَدَّ نَوح ، وتَبكي مِمّن تقلَّدَهـا بكاءَ الخزّ من روح[٥] . وتستوحِشُ وحقّ لها من جُفاةٍ أجلافٍ، وتُنكر بعد محاسنِ الجيادِ مَسـاوِئَ أظلاف . وتتلَفَّتُ نحوكَ تَلَفُّتَ الصِّمّـةِ إلى الْحَيّ[٦] ، وتَنْـدَمُ نـدامـةَ مَنْ تَركَ الرّأي بـالرّيّ[٧] ، وتحنُّ إليـك حنينَ من طرَحَـهُ اغتِرابُه ، وبَـان عنـهُ تُرابـه ، وفـارَقَـهُ أُلاّفُـه وأتْرابُـه ؛ فلَمّـا أنحَتْ عليهـا النَّوائب بترافيها[٨] ، وأذِنَ اللهُ ـ سبحانَهُ ـ بتَـدارُكِهـا وتَلافيهـا ، اشتـدّت

---

(٣) الأخْدَعُ : عرقٌ في العنُق وهو شعبة من الوريد . وهما أخْدَعان : عرقـان في الرَّقبـة . وقول الكاتب « فيلينُ أخدعها » كناية عن الغلبة والانقياد .

(٤) استفاد الكاتب من الآية الكريمة ١٤٤ من سورة البقرة ٢ : ﴿ قَـدْ نَرَى تقلُّبَ وجهـكَ في السَّماء فلنولّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها ... ﴾ .

(٥) من قول حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري في زوجها روح بن زنباع :

بكى الخـزُّ من رَوْحٍ وأنكر جِلْـدَهُ   وعَجّت عَجيجاً من جُذام المطـارِفُ

وقـد هجتْ زوجهـا الثـاني . قـال ابن حَزم : وكانت شـاعرةً مُجيـدة مُكثرة (جمهرة ابن حزم : ٣٦٤) .

(٦) هو الصِّمَّةُ القُشَيريّ أحد شعراء العرب الغَزليين ، لـه خبر مشهور مع ابنـة عَمّـه . وأكثر في شعره من ذكر (رَيّا) حتى عُرِف بها . وقد جمع شعره في ديوان لطيف .

(٧) ينظر أمثـال العسكري ١ : ٢٣٢ ، قـولهم : « ببقّـة صُرِم الأمر » وفيـه (١ : ٢٣٤) : « تركت الرأي بثني بقّه » وهو من قول قَصِير .

(٨) من قولهم : ترافؤوا على الأمر : تواطَؤوا .

الأزمَـةُ فـانفرَجَت[٩] ، وأخلصتْ دعـوتهـا فعرجت ؛ وتعَلَّقَتْ بشهـابهـا الثّـاقب ، وخَيّمت في مَغْنى المـآثِر والمنـاقِب ؛ وألقَتْ هنـاكَ عَصـا تَسْيارِها[١٠] ، واستقَرّت في بُحْبُوحَةِ دارِها ، وأصبحَتْ ثابتةَ الأسـاس[١١] ، مُحْصَـدةَ الأمراس[١٢] ، يعلُـو أمْرُهـا ويَطـوَل ، وتَـزولُ الرَّاسيـاتُ ولا تَزُول . ولِمَ لا تَأنَسُ الخطّةُ بأَوطانٍ فيها حَبَتْ ودَبت[١٣] ، ومعاهد في أكْنافِها اكتَهلت وشَبَّت . رِحَابُها للعُفاة رِكاب ، وآفاقُها شموسٌ وسَحاب . وبُكَرُها قولٌ فَصْلٌ ، وحُكْمٌ عَـدْل ، وآصالُها نـائلٌ سَحٌّ وفَضل ، ومُنـاخٌ سَهْلٌ ومَرْحَبٌ للزائرين وأهل . أشهد لو خَرّ القضاء من العَيُّوقِ[١٤] أو ضلّ ضلالَ التّائهِ الْمَعُوق ، لما سَقط إلاّ عليكُم ولا اهْتَـدى إلاّ إليكُمْ ولا اسْتَلم إلا أيمانكم ، ولا عَلِمَ إلا إيوانَكُمْ . ومن يكُ فيها خارجيَّ الوَلايـة[١٥] ، مُلتقى طَرَفَي البِداية والنّهاية ، فَلَكُمْ عاديهـا الأقـدمُ وتِلادُهـا الـذي لا يُعـدم :

---

(٩) ومن هذا قولهم : « اشتدّي أزمَةُ تنفرجي » .

(١٠) من قولهم : « ألقى عصا التَّسيار » وقد تكررت الإشارة إليه .

(١١) في شعر سُديف (الأغاني ٤ : ٣٤٧) :

أصبح الْمُلْـكُ ثـابتَ الآسـاسِ   بـالبهـاليـل من بني العَبّـاسِ

(١٢) الأمراس جمع الْمَرَسة : الحبل . وأحْصَد الحبل فَتَلَهُ فتلاً مُحْكماً . ويقال : رأيٌ مُحْصَدٌ أي سديد .

(١٣) من حَبَا الطفلُ يَحْبُو . ودَبَّ : مشى على هينته ولم يُسْرع .

(١٤) العَيُّوق : كوكب أحمر مضيء بحيال الثريّا في نـاحيـة الشمال لا يتقـدّمُهـا ويطلع قبل الجوزاء . (وغرض الكاتب من ذكر العَيُّوق هنا المكان البعيد السَّحيق) .

(١٥) خارجيّ الولاية ، الخارجيّ هنـا : الـذي يخرجُ ويشرفُ بنفسـه من غير أن يكون لـه قديم .

قِلال مَجـد[١٦] ، فرعت آصـاصـا[١٧] ، وعزّة قَعْسـاء لا تُنـاصى[١٨] ، وقِلادة تُحيط بطَلَى[١٩] الدَّهر ، ثلاثـة كالشّمس والبَـدْرِ والبَحْر ، نُسِقُوا في سِلْـكِ الْجَلالـة ، ووَرِثُوا الْمَجْـدَ لا عَنْ كَلالـة[٢٠] . شفى السُّؤدد بِنَـداهم مَحْلَـهُ وحَوّل القَضاء إليهم عن [آل] أبي بُرْدَة[٢١] رَحْلَه .

فهنيئاً لك أيَّتُها العقيلَةُ بأَوْبَةٍ : وَطْأتُهـا على البَـاطِل وأهْلِـهِ ثقيلـةٌ . فاسْلُكِي أيّامَـك ذُلُلاً ، واتّخـذي مَفْرِق الْحَقِّ سُبلاً[٢٢] . واختـالي في حُسْنِ البِـزَّة وجُرّي أذيـال العِـزّة [٨٤/ب] وأبْلِي وأخْلِقي[٢٣] دَهْراً جـديـداً ، واقتَرِحي مَزيـداً ، إن وجـدتِ مَـزيـداً ! فلقـد قـاسيتِ ألَمَاً ووصَبـاً[٢٤] ، ولقيتِ من سَفركِ نصَبـاً[٢٥] . وانعَمِي بمـا شَقِيت واذكري مَنْ لقي من الْجَفاءِ مِثْلَ ما لقيت .

---

(١٦) قُلّة كل شيءٍ : أعلاه .

(١٧) الآصاص جمع الإصّ والأُصّ : الأصل ، أو الكريمُ منه .

(١٨) ناصاه : نازعه ، وباراه .

(١٩) الطَّلَى : الأعناق (أو أصولها أو صفحاتها) .

(٢٠) تقول العرب : لم يرثه كلالةً ، أي لم يرثه عن عرض بل عن قُربٍ واستحقاق .

(٢١) كلمة (آل) مطموسة اللاّم ، وأظنّها كذلك .

- أبـو بردة اسمـه عـامر وهـو ابن أبي مـوسى الأشعري (تـوفي ١٠٣ هـ) وكان قـاضي الكوفـة . وابنـه بلال بن أبي بردة والٍ وقـاضٍ أيضـاً (توفي ١٢٦ هـ) . وجـدّ الأسرة أبو مُوسى صحابي جليل ولي الولايات وفتح الفتوح وتسلم منصب القضاء أيضاً .

(٢٢) استفاد من الآية الكريمة : ﴿ فاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّك ذُلُلاً ﴾ النّحل ٦٩/١٦

(٢٣) قوله : وأبلي وأخلقي دهراً ... دعاء بطول العُمر والنسأ في الأجل .

(٢٤) الوَصَب : المرض .

(٢٥) في التنزيل العزيز : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً ﴾ الكهف ٦٢/١٨

متّعكِ اللهُ بأكفائك ، وشكرَ لكِ كَرم عَهْدِك وصَفائِك . ولا رَماكِ بَعْدَها بِفُرقة الأحباب . ولا زالَ زَمانُك غَضَّ النَّضارةِ والشَّباب ، أخْضَر البُرْدَةِ والجِلْباب . طالعتك ـ أدامَ اللهُ عزك ـ وسُكوني إلى هذا الصَّنيعِ الْجَميلِ والفتحِ الجليل : سكونُ مَنْ قارَع عنهُ الْحُسَّاد ، وجَاهرَ فيه الأضْداد ، وسامرَ الأرق والسُّهاد !

[٩٢]

ولَهُ :

وماسرَّ قلبي مُنْذُ شَطَّتْ بِك النَّوى نَعِيمٌ ولاأُنْسٌ ولامُتَصَرّفُ !
ولاذُقت طعْمَ الماءِ إلاوَجَدْتُهُ سوى ذلكَ الماءِ الذي كنتُ أَعْرِفُ

شكا مولايَ وأَميري، الملتبسُ هَواهُ بقلبي وضَميري ـ مُتّعَ بالأَحباب ولافُجِعَ بالشَّباب ـ هَمَّاً كقَدْرِهِ عالياً ، ودَمْعاً في الحوادث غالياً ، وقلباً رُبَّما مالَ بهِ طَرَبُ النّشوان، ورُبَّما أخذَتْهُ العِزَّةُ بالسّلْوان . وكلما ذلك[١] من السَّرِيّ خُلق ، وللكِرام في التجَلّدِ والاستِغْرَام طُرق .

هذا أَبو قَابُوس[٢]قَسم النَّعيمَ والبُوس . احْتَدَم فَفَرى الفَرِيّ[٣] ، وتَنَدَّم

[٩٢]

(١) هكذا في الأَصْل . وقوله : دمعاً غالياً من شعر أبي فراس المشهور .

(٢) الأمير الذي كان له يومان : يوم بؤس ويوم نعيم ، قيل هو المنذر بن ماء السماء وقيل : النعمان الثالث وقيل غير هذا . (تراجع التفصيلات في المفصّل للدكتور جواد علي ٣ : ٢٣٧) .

(٣) فرى الشّيء : صنعه . والفِريّ : الشّيء العجيب .

فَبَنى الغَرِيّ[٤] .

وهذا ذُو القُروح[٥] أمر التي وُسِمَت بحبّه ، وقَدحت بِسهمَيْها في أَعشارِ قَلْبه[٦] أَن تحلّ معقودَ أَسْبَابه ، وتَسُلّ ثيابها من ثيابه[٧] . ولقد بَكى صاحِبُه لمّا رأى الدَّرْب[٨] ، وفارق العُرْبَ ، فنَهى الدَّمع وكَفّ الغَرْب[٩] .

وهذا ابنُ الحُسَين[١٠] المتجمّل بِنَسَبه ، قد حَذا حذوهُ وتأَدَّب بأدبه ؛ غَدر غَدْرةً وفَحش فحشةً ، ثم سَهِرَ بعدَ رحيلِهِ وَحْشةً ! وإلى الثّانيةِ

---

(٤) الغَرِيّ في اللغة : البناء الجديد . والذي بناه الأمير : الغَرِيّ ، أو الغَرِيّان ولهما خبر مشهور . فقد كان غضب ، وهو سكران ، على نديمين له فأمر بهما فَدُفنا حَيّين ، ثم ندم فبنى عليهما بناءين مُرتفعين ، وأَمَر الناس أن يمرّوا بينهما ؛ وجعل لهما في السّنة يومين : يذبح في يوم بُؤسه كُلّ من يَلقاه ويُغرّي بدمه البِناءَين ، ويُحسن في نعيمه إلى كلّ مَنْ يلقى من النّاس ، وقطع هذه العادة بعد حادثة وفاءٍ معروفة فترك عادته وهجَر الوثنيّة أيضاً .

(٥) ذو القروح : امرؤ القيس بن حُجر ، الشاعر الجاهلي المعروف .

(٦) يشير إلى قوله في المعلقة (ديوانه : ١٣) .

وما ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلاّ لِتَقْدَحي ... بِسَهْميكِ في أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

(٧) يُشير إلى قوله أيضاً (ديوانه : ١٣) .

وإن كنتِ قدْ ساءتكِ مِنّي خليقَةٌ ... فَسُلّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ

(٨) يشير إلى قول امرىء القَيس من قصيدته الرائية (ديوانه : ٦٥ ـ ٦٦) .

بكى صاحِبي لَمَّا رأى الدَّرْبَ دونَه ... وأيقنَ أَنّا لاحقانِ بقَيْصَرا

فقلتُ له : لا تبكِ عَيْنُكَ إنّما ... نُحاوِلُ مُلْكاً أو نموتَ فَنُعْذَرا !

(٩) الغَرْبُ : عرقٌ في العين يسقي ولا ينقطعُ .

(١٠) في الأصل (ابن الحَصَين) ، وصوَّبتُه كما ترى .

ـ وهو أحمد بن الحسين ، أبو الطيب المتنبّي .

ما انثنى رَسَنُه ، واستمرَّ مَرِيرُه وارعَوى وَسَنُه . هذا وهو يُمْسِي بِرَغْمِه لِفَقْدِ السَّقامِ[11] شاكياً ، ويُفارق برغْمِهِ شيبَهُ موجَعَ القَلْبِ باكِياً ![12]

وإذا قـدّمتُ من تَعتَّى ومَلَـك ، وأَرْدَفتُ من تَفَتَّى[13] وتَصَعْلَـكَ [٨٥/أ] [فقـد ....مورد في[14]] التَّمثيل ، وانتصَب كُلُّ خَطير جَليـل . وأَنـا أُخْبِرُ مَولايَ وَأَمِيري عن قلبٍ بعـدَهُ مختلف الشُّجون ، ودمـعٍ منبعثِ الشُّؤون ؛ وعَينٍ « بعيـدةِ مـا بينَ الجُفـون » . إذا هَمّت بـالإغفـاءِ وَعظَهـا الشَّوق في الجَفـاء ، فنفضت مـا بـهِ تمضمَضَتْ من سِنَـة[15] ، وسَفحْتـهُ سَفْحَ نُطفَةٍ أَسِنَـة ! وليلٍ « كَموْج البَحْرِ » وهُمومٍ كالأَسِنّـة سُـدّدت إلى النَّحْرِ ؛ وفكرٍ كَجمْرِ الغَضا ؛ وذكرٍ موكّلِ الأَنفاسِ بما مَضى ، قـد انقضى كلُّ شَـأْن وامتدادُها ما انقضى . وإن زماناً بتأنيسِ مَولاي فَجع ، وعادَ في هبةِ قُربـهِ ظـالمـاً ورجَع ، لَزمـانٌ مُستوفٍ للقَطيع ، مُتـأَنّق في سُوءِ الصَّنيـع ؛ فطِنٍ بتفريق شملِ الأُلاّف ، بَطِنٍ[☆] بتمزيق مُلاءةِ الاتّصـالِ والائتِلاف . فبحقّ اللهِ ما أَعلَمه بما يضرُّ وأَهداه ، ولشَدّ مـا سَبق سيفُـهُ وبطشَتْ يَـداه . فـإذا

---

(١١) من قول أبي الطيب (وهو من شعر الصِّبا) الديوان بشرح الواحدي : ١٩٢ :

وَشِكيَّتي فَقْـدُ السَّقـامِ لأَنَّـهُ   قَـدْ كانَ لَمّـا كانَ لي أعْضـاءُ !

(١٢) من قول أبي الطيب في أول قصيدة له يمدح بها كافوراً (الديوان : ٦٢٤) :

خُلِقْتُ أَلوفـاً لـو رحلتُ إلى الصِّبـا   لفـارقت شيبي موجعَ القَلْبَ بـاكِيـا

(١٣) تَفتّى : صار من (الفتيان) ، وتَصعلَك : صار من (الصعاليك) .

(١٤) هنا أَربع كَلمـات في رَأس الورقـة ٨٥/أ ، غـابت واحـدة تقريبـاً ، وأثبتُّ سـائرهـا كما تَبيّنتُها .

(١٥) تمضمضت العينُ بالنُّعاس : دَبَّ فيها . والسِّنةُ : الوسَنَ .

(☆) يُريد : « فَطِن بطنٍ » على الإتباع ، ثم زاد في الكلام .

نحنُ بَعد الاتّصال والاتّساق بَدَدٌ في الآفاق ! فيا لَهُ من غادرٍ ليسَ لَهُ لواء . فَتكَ وفتكُه فينا سَواء . بيدَ أنّي النّازحُ مُسقطهُ ، المُفضي إلى غيرِ لقاءٍ مَهبطه . ضلالاً لِخطبهِ حيثُ أمّ ، وقطعاً بصَرْفه عن أملٍ ما تمّ . لقد رامَ ظُلماً فأنعم ، وحاوَل هَدْماً فأقامَ ودعَم . وأرادَ أن يُتْهِمَ بركابي فأَنْجَد ، وجهدَ لِيعدم آرابي فأَوْجَد ، واعتَمد الجَوْرَ بي فَقصد[١٦] ، وهَمّ أن يُخطِىء بسهمي فأَقْصَد[١٧] !

أقسم بمن أعشاه بقَدَره ، وأحاط بورْدِه وصَدَره ، لقد وَلاّني قِبْلَةً أرْضاها[١٨] ، وأَوْلاني مِنَّةً أكادُ لَهُ أَرْعَاها . وكيفَ أَعْتَرِفُ لهُ بِمِنّةٍ[١٩] وقد كان طوى كشحاً على مُستكنة ؟ ![٢٠]

نعم ! غالِطهُ في قَبُول دَعْواه ، واتْرُكهُ وما نَواه ، واصْفَح للوَزير الأَجَلّ ـ أيّده الله ـ وقد حَلّ بي ذَراه ، وبَوّأني مَثوى الأعزّة مَثواه ، عَمّا اعْتَقدهُ وجَناه واغفِر لهُ سبق خَطاياه ، ولا أَستَثْني ما المُهَلّبيُّ استثناه[☆]

---

(١٦) القَصْدُ في الشيء : ضد الإفراط ؛ والقصد هنا ضد الجَوْر (لأنه إفراطٌ أيضاً) .

(١٧) أقصد السهم : أصاب فقتل .

(١٨) استفاد من الآية الكريمة : ﴿ فلنولّينّكَ قِبْلَةً تَرْضاها ﴾ البقرة ١٤٤/٢

(١٩) المِنّة (بكسر الميم وضمّها) ، وهي (بالفعل) : الإحسان والإنعام . وهي (بالقول) : اعتداد المرء بما فعل من الإحسان على المحسن إليه .

(٢٠) استفاد الكاتب من قول زهير بن أبي سلمى في المعلقة (ديوانه : ٢٢) .

وكانَ طَوى كشحاً على مستكنّةٍ فلا هو أبداها ولم يتقدَّمِ

أي على أمر أكنّه (أخفاه) في نفْسِه . والمقصود بالشعر حصين بن ضمضم .

(☆) المهلّبي هو أبو محمد الحسن بن هارون بن إبراهيم .. ابن أبي صفرة المهلّبي الوزير ، وزر =

وأَقُول في الشَّبابِ الـذي أَبـاده والشَّيْبِ الـذي أَفـاءَهُ وأَفـاده : جنونٌ وَلّى وذَهب ، ووقـارٌ اسْتَوْلى وتـأَهَّب . ويـا عَصى التَّسيـار شُغِلَتْ بـالمَخـاصِر[☆] أَيمـان ! ويـا لَفْحَ الهَواجِرِ وَقَتْنـا وأَظلّتْنـا أَفْـدان . ويـا وَجْنـاء لستُ من ابنِ ضِرار[٢١] ولا أَجْزِيكِ جَزاءَ سِنّمـار[٢٢] انْعَمِي وخَلاكِ ذَمّ[٢٣] . وشـأنـك لاطيّةَ ولا أَمّ[٢٤] . فاخلعي أَوزارَكِ كما خُلِعت أَوثان ، وحُلّي حيثُ للعنبرِ

= لمعزّ الدولة البويهي : أديب كاتب شاعر . (٢٩١ ـ ٣٥٢) .
وإشارة الكاتب إلى قول المهلّبي :

رقّ الـزمـانُ لفـاقتي	ورثى لطـول تحرُّقي
فـأنـالني مـا أرتجيـ	ـهِ وحـادَ عَمّـا أَتقي
فـلأَصفحنْ عَمّـا أتـا	هُ من الـذنـوب السُّبَّـقِ
حتى جنـايتـه بمـا	صنـع المشيبُ بمفرقي !

(راجع أخباره في كتب التاريخ ، وانظر خاصة وفيات الأعيان ٢ : ١٢٤) .

(☆) المخاصر جمع المِخْصَرة : ما يأخذه الرجلُ بيده من عصا أو سوط أو ما شابه .

(٢١) الوَجْناء : الناقة (الصلبة الشديدة) . وابن ضرار هو الشمّاخ بن ضرار الذبيـاني وهو شاعر مخضرم له ديوان مطبوع ، وترجم له ابن حجر في الإصابة .
- وإشارة الكاتب إلى قول الشمّاخ (ديوانه : ٣٢٣) يخاطب ناقته وهو يمدح عرابة بن أوس .

إذا بلّغتني - وحملتِ رَحْلِي - عرابـةَ فـاشْرِقي بـدم الـوتينِ

(٢٢) في أمثال العرب القديمة (جزاء سنّمار) ، وهو يضرب مثلاً لسوء الجزاء (أمثال العسكري ١ : ٣٠٥) .

(٢٣) خلاك ذَمّ أي سقط عنكَ الذمُّ : دعاءٌ له .

(٢٤) الطيّةُ : من طوى البلادَ : قطعها . والأَمُّ : القَصْدُ .

الـوَرْد عنـان ؛ في مَعـافِر[٢٥] حيث المِسْـك : عفرُ المَبـارِك[٢٦] ، والرَّوضُ مَعاطِفُ الهِجان الأَوارِك[٢٧] . والبِدَرُ[٢٨] قِرىً يُبْتَدَر .

[٨٥/ب] ونهرٌ وارِدُه لا يُـذادُ[٢٩] ولا يُنْهَر . غَبَـط مـولاي وأميري بتُربه ، وغَبط وما ظَلَم في جواره وقُربه . وكيف لا يُغبط مَنْ (رِضوانُ) جارُه ، والفِرْدَوْسُ دَارُه ، والنُّجومُ سُمّـارُه ، والسَّعـدُ سِيماهُ وشعـارهُ ؟ فلا عذرَ إن لم تَسْرِ قوافيه وأَشعارُه ! لكنّ القريحـةَ هنـد[٣٠] لا تُسعـد ولا تُنجز مـا تعـد ! وعَلى ذٰلـك فَسـأمريهـا مرْيَ النّـزُور[٣١] ، وأَحلبهـا عُلبـة الضَّجُور[٣٢] ، وأُبلغ النفسَ عُذرها فأنجح نجحَ المعْذُور[٣٣] . بل أهزُّ مولايَ فأستعينُ بَنانَهُ ، وأستعيرُ لسانَهُ ، وأَحيدُ عن عدنـان وأميلُ إلى عُـدْثـان[٣٤]

---

(٢٥) المعافر أبو جبل من القحطانية اليمنية (يراجع مثلاً جمهرة ابن حزم : ٤١٨ ، ٤٨٥) .

(٢٦) العفر : الغبار .

(٢٧) الهجـان من الإبل : الخـالصـة اللون والعتق (وهي أكرم الإبل) ، الأوارك التي تـأكل الأَراك .

(٢٨) البَدَرُ جمع البَدْرة : كيس فيه نقد معدنيّ (ذهبي) فيه ألفٌ ، أو أكثر من ألف .

(٢٩) ذاده عن الأمر : منعه .

(٣٠) استفاد من قول عمر بن أبي ربيعة (ديوانه : ٣١٢) :

ليتَ هِنْـداً أَنجـزتنـا مـا تعـدْ وشفَتْ أَنْفُسَنـا مّمـا تَجِـدْ

(٣١) النَّزْور : القليلة اللبن (الحليب) . و : مَرَى الناقة أي مسحَ ضرعها لتدرّ .

(٣٢) الضَّجُور : الناقة السيّئة الخلق . والعُلبةُ : وعاء يُحْلَبُ فيه .

(٣٣) من قول عروة بن الورد (ديوانه : ٤٠)

ليبلـغ عـذراً أو يصيبَ رغيبـةً ومبلغ نفسٍ عُذْرَهـا مثـلُ مُنْجِـح

(٣٤) (عُدثان) من القحطانية اليمنية ، وقد سبق الحديث عنه .

تقرّباً منهُ ومن حَسّان[٣٥] ، فأَصرفُ في شُكرِه ذٰلكَ الإحسان ، فقد تكثّر ابن الزُّبَيْر بِمَعْن[٣٦] ، ومن جَعله القُدوة أَمِن من جَدْبٍ وطعْن . بعيشكَ الّذي يهنأُ المجدُ بخلودِه ، وتتجَمَّلُ الدُّنيا بخضرة بُرودِه ، إلا ما نَصَرْتَني على هذه الآلاء ، وأَمْدَدْتَني بشُعلةٍ من شُعَلِ ذٰلك التَّوَقُّدِ والذَّكاء ، فأتعَلّق بطرَفٍ من المكافأة والجَزاء : فقد وقَفْت حَسيراً[٣٧] وارتهنتُ بهذه النّعمةِ أَسِيراً . وأنا أعتذرُ إلى مَوْلاي من ذهنٍ خامِدٍ خامِل ، وخاطرٍ حائنٍ حائل[٣٨] ؛ إن استَتْبَعْتَهُ تقاعَسَ ، وإن أَيْقظْتَهُ تَبَلّد وتناعس . ولقد نَدَبْتُه من حينِ ورُودِ خطابهِ الخَطير إلى المَراجعة ، وهَزَزْتُهُ قبلُ إلى المطالعة ؛ فأَخْلَد إلى الأَرض[☆] ، وانسلخَ من مُجازاةِ ذٰلكَ القَرْض . وبعدَ لأْيٍ ما انبعَثَ ، ورامَ من النظم والنّثر سبيلاً قد توعَّر وتَوعَّث[٣٩] واشتدَّ في أثر تلك الأَبياتِ المخزُوميّةِ طمَعاً في التَّشبُّثِ برذَاياه[٤٠] ، والتعَلّق بما قاربه ودَاناه . فَبَعُدَ مَناط ، ولمْ يقْطع نِياط[٤١] ؛ وكانت النِّيَّةُ لو استَمَرَّت والعزيمة لو استَقَرّت ، على تفريغ هذه الكلمةِ بشكوى الارتجال ،

(٣٥) حسان بن ثابت الأنصاري ، وهو من الخزرج ، وينتمون في القحطانية اليمنيّة .

(٣٦) المعن لغة القليل (من المال) وتدل على الكثير (ضِدّ) ، كأنه يشير إلى خبر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه والشاعر عبد الله بن الزُّبير الأَسدي .

(٣٧) الحسير : الكليل المُتْعَب .

(٣٨) الحائن فاعل من (حان) إذا لم يوفق للصّواب . والحائل : المتغيرّ .

(☆) في سورة الأعراف ٧ : ١٧٦ ﴿ ولكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ .

(٣٩) توعّث : تَعَسّر سلوكه .

(٤٠) الرذايا جمع الرَّذِيَّة : المهزول الضعيف (من كل شيء) .

(٤١) المَناط : المتَعلّقُ . والنياط : عرقٌ متصل بالقلب من الوتين إذا قطع مات صاحبه .

وما كُلِّفْنَاهُ من هذه الحـال ، فـاعْتَرَضَ أثنـاءَ القول شكرُ هـذا الطَّوْل[٤٢] ، وغلبَ الدُّهن على الذِّهن ، وتُرِكَ الحُبُّ لِلحَبّ والإبـاءُ للأَبّ[٤٣] ؛ والهِمَّـةُ للإِمّة[٤٤] ، وسـأدّكِرُ بَعـد أُمَـة[٤٥] . والنفسُ [٨٦/أ] (٠٠٠٠٠٠)[٤٦] متى انطـوتْ على سريرة ، واستظهرت في كتمانهـــا بكلّ مَرِيرة ، ظهرت في الفَلتـات ، وبَرزت من خِـلال الغَفَـلات ؛ وأَعجــزت الحَــزْمَ ، وهَتكت الإِصْرارَ والأَزْم[٤٧] .

وحَسْبُكَ بالحَجّاجِ وسيفِه : يَقْطر أَرواحاً ومُهَجـاً ؛ وحَيْفِـه : لم يتْرُكْ للخَـواطِرِ مسلكاً ولا مَنهجـاً ؛ فضحت كاتبـه العَـلاقـة ، وكادت تَعتلقــه العلاقة ، فانتشلَ بالحقيقةِ ، والموتُ عُريانُ الطّريقة[٤٨] !

---

(٤٢) الطَّوْل : مَدُّ اليد بالعطاء ؛ والفَضل .

(٤٣) الأَبُّ : كل ما انبتت الأَرضُ .

(٤٤) الإمّة : النعمة وغضارةُ العيش .

(٤٥) استفاد من الآية الكريمة ﴿ وادَّكَرَ بَعْدَ أُمّةٍ ﴾ يوسف ٤٥/١٢ . والأُمَّةُ : الحين .

(٤٦) هنا كلمتان غير واضحتين .

(٤٧) الأَزم : الصَّمت .

(٤٨) إشارة الكاتب هنا إلى خبر عن كاتب للحجاج لم يقع إلينـا اسمُـه (إعتاب الكُتّاب : ٥٩) وكان قد سها في كتاب كتبه عن الحجاج إلى عامل فأدرج فيـه عبـارة (مرّت ولم تسلّم) أي جارية كانت عند الحَجّاج كان الكاتب يعرفهـا . فردّ العـامل على الرسالـة وزاد (دعها ولاتبال) جواباً عن تلك العبارة ! واستخبر الحجاج من كاتبه عن حقيقة الأمر ، فصدقه ، ونجا من عقوبته . وكان الحجاج إذا صُدِق لم يعـاقب بشـدّتـه ! وفي نصّ الخبر « أن كاتبـاً للحجـاج عَلِقَ جـاريــة كانت تقف عليــه وتمرّ بين يــديــه ، وعلقته٠٠٠ » .

وهـذا المـأمون ومعـه جَلالَـةُ الخِلافـة ، وفَطِنٌ كعَتيقِ السُّلافَـة ، قرأَ عارضه وهو طيَّان البَطْن خميص[٤٩] ، فترای له ثَرِيدٌ وخَبيص[٥٠] ! فَحـارَ إنسانهُ وجارَ لسانـهُ ؛ فتعرَّدت[٥١] بـه النَّفْسُ تَعْرِيـداً ، وأصْبَح (يزيـد) ثريداً يُرْبَك[٥٢] ، و (حمص) خبيصـاً بـالشِّهـادِ[٥٣] يُلْبَـكُ !! ورُزِقَ من حيثُ الحِرمـان ، وأطعمتـه الإسـاءَة لاالإحسـان ! حتىّإذا اتجّـه شِبَعُـهُ وريُّه ، وابتَدنت[٥٤] لهـاتـهُ ومَرِيُّـه ، مرَّمرَّ النَّجم الثـاقب ، وجَرى جَرْيَ الغـالبِ العـاقِب ، اعترَض هـذا (الفَضْـل)[٥٥] والقطـعُ بــهِ وصَـلَ ، لأَنّ المعيشةَ للحياةِ أَصل .

وهاتِ فطارِحْني حديثَكَ ، وباسِطْني قَدِيمَكَ وحَـدِيثـك . هل يـدنُو هذا البعادُ ، وهل لكَ إلى دارِ الخلافة معَاد ؟

وإذا استـوت في البـلاد الفِرْقَـةُ ففيم الفُرقـة ؟ وكما نَعِمْنـا بِبَهْجَتِهـا ولألائها ، فَلِمَ لانَصْبِرُ على لأُوائها ؟!

---

(٤٩) خميص الحشا : ضامر البطن . وطيّان البطن مثلها ، يكني عن جوعه .

(٥٠) الثريد والخبيص من ألوان الطعام .

(٥١) عَرَّد : ترك القصْدَ من الطريق .

(٥٢) يُربك : من رَبَكَ الثريد : أصلحه وهَيّاه
ـ يريد أنه صحّف (يزيد) إلى (ثريد) ، و (حمص) إلى (خبيص) من جوعه !

(٥٣) لبكـه : خلطـه . والخبيص : حلواء معمولـة بـالتّمر والسَّمن . والشِهـاد : جمع الشهـد (العسل) . وانظر لهذا المعنى ص ٢٩٤ ح ٤١

(٥٤) بَدُن وبَدَن : ضَخُم بدنه ، وسَمنَ .

(٥٥) الفضل بن سهل وزير المأمون ، وصاحبُ تدبيرهُ (١٥٤ ـ ٢٠٢) .

أما أنت فَسَتَحْدُوك أشجارٌ مُظِلّة ، وَجَنّةٌ مُغِلّة ، وشُموسٌ وأَهِلّة ؛ فَدَهْرُك دَهر ، ولك حَوْلٌ وشَهر ، ومَهِيْرَةٌ ومَهْر[٥٦] ؛ وباغٍ لا يَهْجَعُ ، وخانٌ يُنتَجع ، وَمَبَرَّةٌ مُبْتَدرةٌ وحُظْوَةٌ عند رَبّ المَدَرة[٥٧] . وأمّا أنا : فما لي وللغَوْغاء ، والدِّمْنَةِ البَوْغاء[٥٨] ؟ إنْ سلوتُ لم أَعَنَّفْ عنها ، وإن حَنَنْتُ قيل حَنّ قِدْحٌ ليسَ مِنها[٥٩] . ما لزمتُ الوزيرَ ودمشق ، ونائِلَهُ الْمُتَدارك المشْق[٦٠] ، لم أَنْصَب ولم أَشْق . لا تكلّمني في طِيْبِ الغوطة ، والخَيْراتِ المبْسُوطَة [٨٦/ب] فباب جَيْرُون[٦١] خيرٌ من باب ركنِ الأُرون[٦٢] ، والزّاوية ذات النَّهر ، والحدائق الخُضر ، أَوْلى من النَّخل والقَصْر . بَهْجَةٌ أَقْتَصِرُ عليها وأُعَوِّذُها من العائن[٦٣] ، وأُوثرك بحظّي من البَلاطِ والقَرائن . وسأتَفَرَّدُ بمعيشةِ آلِ زَيْد ، دونَ التي أَشمَتَتْ بي أَهْلَ فيد . وأتجافى عن السَّخينةِ والخَطِيفة ، لآلِ أَبي قطيفة . وأنشد إنشادِ أبي حازِم : « أَبلغ بني حازم ٠٠ » وهنا أفل الكلام وطلع رقيبه وهو السلام .

---

(٥٦) المهيرة : المرأة الحُرّة ذات المهْر .

(٥٧) المدرةُ واحدة المدَر : القريةُ المبنيّة بالطين واللّبن .

(٥٨) البوغاء : التراب عامّة .

(٥٩) من المثل العربي : « حَنّ قِدْحٌ ليس منها » أمثال العسكري (١ : ٣٧٠) وقد سبَق .

(٦٠) المشق : الجذبُ والسُّرعة .

(٦١) باب جيرون : من أبواب دمشق .

(٦٢) الأُرون (عند ياقوت : أرون ١ : ١٦٤) ناحية بالأندلس من أعمال باجة .

(٦٣) العائن : الذي يحسد ويعين (من الإصابة بالعين) .

[٩٣]

ولَهُ(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ :

أطـالَ اللهُ بقـاءَ الفَقيـهِ الأَجَلّ ، المشـاور الأكبر الأفضل ؛ ذي السُّؤدد العَميم والخُلق الكريم ، والعهـد المستوي الأَديم ، في عِزّةٍ منيعـةِ [الحَرَمِ](١) والحَريم ، موصولةِ الحديثِ بالقَـديم ؛ ولا زالَ هضبـةَ مجـدٍ وعَلاء وسماءَ نِعَمٍ وآلاء . إجمالُه ـ أدامَ اللهُ عِزَّهُ ـ مُطَّرِد ، واهتِبالُه مُتَّسِقٌ منسَرِد ، وسَبْقُه في كُلّ فضيلـةٍ « قيـد الأَوابـد مُنجرد »(٢) وإنّ كتـابَـهُ الخطيرَ وافـاني فصيحَ المغَاني ، أَنيقَ الأَلفاظِ والمعاني ، وثيق المعَـاقِـد والمبـاني ؛ مُتَنـاسب الفَضلِ الباهر ، مُستوي الباطنْ والظاهر ؛ فذهبتُ بشُكري حَيثُ تلكَ الأَغراضُ ذَهَبَت ، واعْتَرفْتُ لكلِّ يَـدٍ عَليّـةٍ بمـا كتَبَت وتَجـافَيْتُ عن نَفْسِي حَقّـاً ، وصَيَّرْتُها لمالكيها رِقّاً !

وتركتُها ـ دام عِزُّهما ـ اعتماداً للأَخْلَصِ ، يقسِمانِها على قَدْرِ الحِصَص ؛ ولَيْتَها ـ وقد أَكفَلْتُهما إيّاها ، وبَوَّأْتُها من قَبُولِهم مَثواها ـ باءَت من ذلـكَ الإجمالِ بشِسْعٍ(٣) ، أَو عَدلت واحِدةً من تِسع ! وما عَلَيَّ إلا أَن أَقُوْدَهـا قود

---

[٩٣]

(☆) جوابٌ عن رسالة أحد الفقهاء المشاورين .

(١) كلمة (الحرم) مقترحة ، ظهر شطرها الأولّ في المخطوطة ، وتشوهت بأثر ماء .

(٢) من قول امرئ القيس في المعلقة :

« بمُنْجَرِدٍ قَيْسِ الأَوابِدِ هَيْكَلِ » .

(٣) الشّسع قِبالُ النَّعل . واشتهر في أَمثـالهم وأَقوالهم « بُؤ بشسع كليب » أمثـال العسكري ١ : ٢٢٦ وقد سبق في هذا الكتاب .

المسَلِّم لها بنسع[٤] . وإذا بَلغتكُم فَقَدْني ، وخَلا الـذَّمَّ راحلـةً مِنكم تُـدني ! فأَمّا يَدُكَ البَيضاء ، وفَعْلَتُكَ الغَرّاءَ ، فطوقُ الحَمامَةِ ختماً ، ولَزُومَةٌ للجيـدِ [٨٧/أ] [حتماً][٥] أشهـد أنَّـهُ يَزِيْنُ ولا يَصِمُ ويَبقى بَقَـاءَ الـدَّهرِ لا يُخلـع ولا يَنفصم وبالله تَعالى في حَمْلِ هذهِ المنّـة أَتـأَيّـدُ وأعتصِم . وسـأكون لهـا بالشُّكرِ عَديلاً ، وأهتِفُ به كلمّا دَعَتْ هَديلاً[٦] . والرَّغبَةُ أن ينسَـدِلَ على هذه النِّيَّةِ المستَشعرة سترُ الكِتمـان ، وأُعْفى فيهـا من الإظهـار والإعلان ، حتى ينتشرَ بوُصـول (فـلان) سِرّ ذلـك المطـويِّ ، وتعلنـه ثنـايـا المخـارِمِ وأَيْدي المطيّ[٧] .

[٩٤]

ولَهُ[☆] ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ :

أطالَ اللهُ بقـاءَ الوزير الأجلّ الفقيـهِ الأفضل ، وارثِ الْمَجْـد الْمُؤَثّل والسُّؤدد الأغرّ الْمُحجَّـل ، الْمُتَلَقّي لكلِّ مَـأثُرَةٍ بـاليَمين ، الْمُنقطـع في

---

(٤) النِّسعُ : سيرٌ يُضْفَرُ عريضاً ، تشدّ به الرحال ويُجعل زماماً للبعير وغيره .

(٥) هنا كلمة مطموسة تماماً . والمثبت مقترح .

(٦) الهديل ذكَر الحمام .

(٧) المخارم جمع المَخْرِم : الطريق في الجبل .

[٩٤]

(☆) رسالة من الكاتب إلى أحد الوزراء من أصدقـائـه يخبره بوصول رسـالتـه الجوابيـة على رسالة سابقة كان الكاتب قد بعث بها إليه .

ـ وقول الكاتب « المتلقّي لكل مأثرة » من قول الشماخ (ديوانه : ٣٣٦)

إذا مـا رايـةٌ رفعت لمجـد تلقّـاهـا عرابـةُ بـاليمين

المكارِمِ والمـآثِرِ عن القَرين . ولا زالَ فصيحَ مغـاني الْمَجْـدِ ، مُـذَلَّلَ مجـاني الْحَمد .

الشُّكر ـ أدامَ اللهُ عِـزَّكَ ـ يَنْـزُر[1] ، واللّسـانُ يَقْصُر ، والعبـارة عَمَّـا أجِدُه من وُدّكَ وأعتمدهُ مِن توفيةِ حقّك لا تَحْصُر . ووافاني الكتابُ الكريم الذي فاتَ البُلَغاء لَفظـاً ومعنى ، وتضمّنَ الوفـاءَ ظَهراً وبَطنـاً . لا جَرَم ! إنهُ من الدّهر أمـانٌ وللحيـاة وطيبهـا ضَمان ، ولِسعَـةِ القَول لو كانَ لسـانٌ قائلٌ مظنةٌ ومَكان . ففَدَتْ يَدَيْ كاتِبيه كلُّ يدٍ مُقَبَّلـة مُفـدَّاة ، وكانَـا من رَيْبِ الْحَوادثِ بِمَنْجاة ؛ ولا زالَ الجودُ إليهما يأرِزُ[2] والسِّيـادة بهما تحتَمي وتحتجِز[3] .

ورأيت في تـأخُّرِ المراجعـةِ العُـذْرَ لائحـاً ، ونَشْرَ الصِّـدْقِ صَـائكاً فـائحـاً[4] . ولَعَمْرُ اللهِ مـا ارتَبْتُ في ذلـك بريبٍ ، ولا حَـدّثتْ نفسي إلاّ بـأجْمَـل ظنٍّ وأحْسَنِ غَيْب . وقـد كان عِنـدي لـو أنَّ حـادثـةً زَحَمت ، وضَرُورةً أَلْجـأَت وأفحمت ، أن أذمُرَ[5] ولـو لمْ يقـع إذنٌ ، ولا ظفرتْ بالاستِدعاءِ أُذن ؛ ثقـةً واستِنـامَـةً ، وطيبَ نفسٍ وسَلامـة . ومـا قَـدَّمْتَـهُ ـ وصَل اللهُ تَقـديمَـكَ ـ من ذِكْرٍ في ذلـكَ البِسـاط فقِلادَةٌ في الْمَنـاط[6] ،

---

(١) من النَّزْر : الشيء القليل .

(٢) أرَز إليه : التجأ .

(٣) احتجز به : امتنع .

(٤) صاكَ به الطيبُ والزعفران : لزق به .

(٥) ذمر : حَضّ وحَرَّض ، و (شَجَّع ولام في وقت واحد) .

(٦) الْمَناطُ : موضعُ التّعليق .

وسِمَةٌ يَبْقى شَرْطُها إلى الأشْراط[٧] !

ومثلُك وِطاءٌ للصَّنيعة ، ومهْدٌ لأوليائـه في تِلْكَ الـذِّروةِ الْمَنيعـة ، وما أخْتارُ على ذلك الجوار [٨٧/ب] نَفِيسـاً ، ولا أعتَمِـدُ بَعْـدَهُ مَرْؤُوسـاً ولا رئيساً .

[٩٥]

وله[☆] ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ :

[من الرَّمل]

أيهـــا الســـاطـــعُ نَشْراً وأَرَجْ ... كيفَ يَسْتَأذِنُنـا من قَـدْ وَلَـجْ ؟

كيفَ يَسْتـــأذن من مَسْكَنُـــهُ ... في عيـونٍ ونفُـوسٍ ومُهَـــجْ ؟

ما على المسكِ ولا البَدْرِ ولا الصّـ ... ـبحِ من إذنٍ إذا الصُّبْحُ انبلَـجْ !

إنّما أنتَ مَتى تُهـــدِي شَـــذًى ... في سنًى بـــالقلبِ والرُّوحِ امتزجْ

وافَتْني لِسَيِّدي وظَهيري ـ لا زالت هِمَّتُه تعلُو الهِمَم وتَفُوتُها ، ونَفـاسَتُـه تغْذُو النُّفوسَ وتَقُوتُها ـ رُقعةٌ خلَع عليها سَنـاهُ ، وعُنِيتْ بحوكهـا يُمنـاه ، فجاءَت كالْحُلَّةِ يُضاحِكُ الشمسَ إبريزُهـا[١] ، ويُحـاسِنُ الرَّوْضَ تَفْويفُهـا

---

(٧) الأشراط أي أشراط السّاعة (يعني إلى آخر الزمان) .

[٩٥]

(☆) رسالة إخوانيّة جوابيّة عن رسالة لأحد أصدقائه يخبره بوصولها . ويغلب على النصّ الغَوْصُ الوجدانيّ .

(١) الإبريز من الذّهب : الخالص .

وتطريزُها[٢] ؛ بدائع ينحطُّ عن ذروتها البَديع[٣] ، ويقتبسُ من جُذوتها الأشْقَرُ الصَّديع[٤] . سامَرَها الأدب مُعيناً ، وخامَرَها الطَّبْعُ مَعيناً ، فجلاها حُوراً عِيناً ؛ فَلِلّهِ طِرْسُكَ وما نسَق ، وبِرُّكَ لقَد عَلا وبَسق !

وأهلاً بك من عريقٍ سَبق ، وسَليلِ خَطّيٍّ صَدق . لشَدَّ ما استَوْلَيْت على مَداك ، واستَوَيْتَ إلى سَماءِ مُنْتَداك ، وتقيّلْتَ أباكَ[٥] ، وطعنتَ في ثَغرِ النُّحورِ عِداك . ولعاً لك من مُنتمٍ إلى سابقٍ لم يَلحَقْهُ عِثار ، ولا شُقَّ لهُ غُبار . لا تُرَعْ ! فمِن الشّعاب تحتفل فتزخرُ الأنهار ،

وأوَّلُ قُرَّحِ الخيل المِهار[٦]

وحَبَّذا مُنْتَماكَ ! لقد ذَكَّرَ جِواراً ، وحَرَّك من عهدنا الماضي حُواراً[٧] . لا جَرَم ! إن عَهْدي لكَ ناضِرٌ ، وإنّهُ بك على الغَيْبَةِ القَصِيَّة حاضر ، ويا ماء مَنْ أنبأكَ أنّي صَادٍ[٨] ، ويا صبحُ قَد كانت عَيني لكَ بِمرصاد . ومُحالٌ أن يستأذنَ على النَّفسِ مُناها ، وعلى الكبد الحرى ريّها وبُشراها ، وعلى العَين السّاهرة كَراها وسناها :

---

(٢) المفوّف من الثياب : الرقيق أو مافيه خيوطٌ بيض .

(٣) يعني أبا الفضل بديع الزمان الهمذاني . وسيرد عنه خبر في القطعة [بعد التالية] .

(٤) الصَّديع : الفجر .

(٥) تقيّل أباه : أشبهه وعمل عمله .

(٦) القُرّح جمع القارح وهو من الخيل مابلغ خمس سنوات . والمِهارُ جمع الكثرة للمُهر .

(٧) في أمثال العرب : « حرك لها حوارها تحِنّ » (أمثال العسكري ١ : ١٠٠) .

(٨) صاد اسم فاعل من صدي : عطش .

[من البسيط]

أنتَ الكرى مُـؤنسـاً عيني وبعضُهمُ مثلُ القَذى مانعـاً عيني من الوَسَنِ

[٨٨/أ] ورَعى اللهُ داعِيـاً إلى البِرّ دَعـا ، ورَحِمَ مَنْ نَبَتَ على دِمْنَتِـه[٩] الْمَرْعى .

وأقرأُ عَليكَ سلاماً هو المسكُ فتيتاً[١٠] ، والدرّ نظِماً وشَتِيتاً . يُواليـك مَقِيلاً ومَبِيتاً ، ويُطاوِلُكَ العُمْرَ كَريتاً[١١] ؛ إنْ شاءَ اللهُ عَزَّ وجَلّ .

[٩٦]

ولَهُ(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ :

أطـال الله بقـاءَ الفقيـهِ الأَجَلّ ، الإمـام الأفضل : الـذّي بـهِ الاقتـداء والاكتفاء ، وإلى هَدْيِهِ الوقوف والانتِهاء ، محفوظاً عليه دينُـه ، ملحوظـاً في الحادثاتِ ثبُوتهُ ويقينهُ ، ولا زالت سُنَنُ الدّين مُقتبسة منـهُ ، مـأخوذة عنــه ، ﴿ إنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَـادِهِ العُلَمَـاءُ ﴾[١] وإنمـا يُـورِدُ الأُمــورَ ويُصْدِرُها الحُلَماء ، وحَسْبُ أَمثالِنـا من الأتبـاع ، ومَن نزلَ في الجِبِلّـة عن

---

(٩) الدّمنةُ : آثار الدار والناس . وتستخدم لمعنى القبر .

(١٠) الفتيت وزن فعيل من فتّ الشيء إذا كسره ودقّه .

(١١) الكريت من السنين والشهور والأيام ، التّام .

[٩٦]

(☆) تعزية بوفاة (أبي بكر) ابن أحد الفقهاء .

(١) سورة فاطر ٣٥ / ٢٨ .

تلك السَّجايا الكريمة والطّباع ؛ أن نأتمَّ بهمْ ، ونَقْتدي ، ونستَهْدِيهم ولا نَهدي . بلى ! إنّ للهِ - جلّ وعَلا - في مأدُبته أدْباً[٢] ، وأمْراً ماضِياً ونَدْباً ، حيثُ يقولُ وهو خَيْرُ الحاكِمين : ﴿ وَذَكِّرْ فإنّ الذّكْرى تَنْفَعُ المؤمِنينَ ﴾[٣] .

وبَلَغني المصابُ الذي فَدَح ، وأوْرى زَنْدَ الحزن وقدَح ؛ بثمرةِ الفُؤاد ، وفلذةِ الأكباد ؛ ونور النّاظر ، ورُوح الخاطر ؛ وسرّ الضّمير ، ومَشْرعِ العَذْبِ النّمير ؛ وشفيع الكرى ، ومُستحثِّ مَطايا السُّرى ؛ ورَيْحانة الشمّ والذّكرى ، أبي بكر ابنه المرتجى ، وابن الذينَ سَبقتْ لَهُم الحُسْنى[☆] ، وتُهوديتْ بِطُلوعهم البُشرى . نَضّر الله أعْظُمَهُ وأوْصَالَهُ كما جعَل برضاه ورحماه اتّصاله ، فيكتبه لا على قَدْرِ السِّنّ بل على قَدْرِ النّدبِ المسن ، بل على قَدْر المخيلةِ والأصل ، واعتقادِ الْمَزيّةِ والفَضْل .

ونَالني من التّألُّم بذهابه وخبوّ شِهابِهِ ، واستِسْرار هِلاله[٤] غِبّ الطّلُوع ، واختطافِ خَيالِه من بينِ الضُّلوع : ما أيْسَرُهُ يُذكي الحُرَق ، ويُعْدِي الأرَقَ . وذلك أقلُّ ما يُوجبهُ الاسْتهامُ[٥] ، ويَقْتَضِيه [٨٨/ب] الإنجادُ في حُبِّهِ والإتْهام . ولئن كان المصابُ به عَظيماً والخَطْبُ بفقدانه

(٢) نقل ابن الأثير (النهاية ١ : ٣٠) حديث ابن مسعود : « القُرآنُ مأدبة الله في الأرض » يعني مَدْعاته .

(٣) سورة الذاريات ٥١ / ٥٥ .

(☆) اقتبس من سورة الأنبياء ٢١ : ١٠١

(٤) استسَرّ الهلال آخر الشهر : خفي ودخل في السِّرار (آخر ليلة من الشهر القمري) .

(٥) استهم القومُ : اقترعوا . (كأن الكاتب يريد معنى المشاركة) .

جَسيماً ، فَلقد أَحسْن اللهُ إليه وإلى أَبو يه ، بما اختـارَهُ لـهُ وأَوردَهُ عَليـه ؛ من كرامَةِ الأَبد ، ونفاسةِ الجَدّ الأَسْعَد ؛ خِلْواً من الأَوزارِ ، خالصـاً لِتلـك الـدّار ؛ طـاهراً من العُيوب ، بريئـاً من الـذُّنوب ، جَعَلَـهُ اللهُ لهما فَرَطـاً صـالحـاً[٦] وذُخراً رابحـاً ؛ وأَنجـز لهما فيـه وَعْـدَ الحَـقّ ، وثـوابَ الصِّـدْقِ ؛ وتكفَّل لهما بعاجِل المعُوضة ، وآجل المثُوبة ؛ وربَـط على قُلوبهما بـالصَّبر ، وأَمّنهما من نـوائبِ الـدّهر ؛ وبـارك لهما فيما أَعطى ، ومتّعهما بمـا أَبْقى ، وخَارَ لهما فيما قَضى ، ونفَعهما بالتَّسليم والرِّضا .

طالعتُ الإمامَ الأَجَلَّ ـ وصَل اللهُ توفيقـه ـ والفؤادُ أَعْشـارٌ[٧] ، والنوَّمُ غِرارٌ ؛ والدّنيا خدعٌ واغترار . فعُذْراً في التَّقصير عن حَقّه الجَليل الخطير . لا زالَ في حِرْزٍ وأَمَنَـةٍ ، وأُحـدوثـةٍ رائعـةٍ حَسَنـة . ودام ركنُ الـدّين بـه وَثيقـاً ، ومَغنى العِلْم زاهراً أَنيقـاً ؛ ولا عَـدِم سـداداً قَـائمـاً وتوفيقـاً ، بحولِ اللهِ تَعالى . والسَّلامُ الأَحْفَلُ على الإمام الأَجلّ ، ورحمةُ اللهِ وبَركاتهُ .

---

(٦) الفَرَطُ : الـذي يموت ولم يبلغ الحلم من الأولاد . وفي النهـايـة : (ف رط) : ومنـه الدُّعاء للطفل الميّت : اللهمَّ اجْعَلْهُ لَنا فَرطاً .

(٧) الأعشار : المكسّر (المقسوم) على عشر قطع . وقـد أَوردَ الأعلم الشنتمري شرحين اثنين لقول امرىءالقيس في المعلقة (ديوانه : ١٢٠)

وما ذرفَتْ عَينـاكِ إلاّ لِتَقْـدَحي ... بِسهْمَيْـكِ في أَعشـارِ قلبٍ مُقتَّـلِ

[٩٧]

وَلَهُ(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ مقَامَةٌ عارض بها الْحَرِيرِيّ(١) في بعض مقامَاتهِ(٢) :

قال الحارثُ بن هَمَّام(٣) :

لَمّا نَضَوْتُ ثِيابَ الغِرِّ الغَمْرِ(٤) ، وارتَقَيْتُ قَليلاً في دَرَجِ العُمر ، وزَرَّتْ عَلَيَّ الشَّريعةُ جُيوبَها ، وطوَّقَتْني الفَرائضُ لُزومَها ووجوبَها ؛ وأسْلَمني السِّرُّ إلى الْجَهر ، وبَرزتُ إلى الدَّهر ، فتعاطاني مَذِلاً(٥) ،

---

[٩٧]

(☆) في جُملة آثار ابن أبي الخصال عدد من المقامات ، هذه واحدة فيها ، وهو يجنح فيها إلى أسلوب الحريريّ . على أنّ منحى الكاتب ونهجه الأُسلوبي متّسقٌ مع ما اختار من الطّرائق والأساليب .

(١) هو أبو محمد القاسم بن عليّ بن محمد بن عثمان الحريريّ البصري (٤٤٦ ـ ٥١٦) ولد بالمشان (بليدة فوق البصرة) وتوفي بالبصرة . أديبٌ كاتبٌ مشهور ، له عددٌ من المؤلّفات منها درّة الغواص في أوهام الخواص وملحة الإعراب ، وقمة كتبه مقاماته ، وقد طبعت مراراً وشرحها لغويون وأدباء كثيرون . وكان لمقامات الحريري صدىً كبير في الأندلس فدرسوها وشرحوها ، ومن شرّاحهم : الشريشي الأندلسي . وعارضها السّرقسطي الإشتركوبي في مقامات (مطبوعة) . وهذا ابن أبي الخصال يعارضها أيضاً .

(٢) موضوع المقامة قريب من المقامة التفليسية من مقامات الحريري (١ : ٤٠٤) .

(٣) اعتمدَ الحريريّ أيضاً اسم (الحارث بن همّام) الذي اعتمده الحريريّ في مقاماته .

(٤) رجل غَمْر : لم يجرّب الأُمور .

(٥) المذِل : القلق الضجر .

وتَعاوَرَني مُبْتَذِلاً . وما زال يَسْفَعُ بالنَّاصِيَةِ[٦] ، ويشاقُّ في كل قاصيـةٍ[٧] ، حتى دفعت إلى الفَـدّادين[٨] أهـل الفَخْرِ والْخُيَـلاء ، فـألفيتهم كما قـال زُهَير[٩] :

وفيهمْ مَقامـاتٌ حِسـانٌ وُجوهُهمْ وأنـديَـةٌ يَنْتَـابُهـا القَـوْلُ والفِعْـلُ
على مُكثِرِيهم رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهمُ وعنـدَ الْمُقِلّين السَّماحَـةُ والبَـذلُ

[٨٩/أ] قال : فبينـا نحن بخُنـاصرة[١٠] إذْ نشـأتْ بَحريّـة[١١] فَجعلت تسحُّ ولا تَشحّ ، وطفقَتْ تُرِيقُ ولا تَسْتفيق ، وتثجم ولا تنجم[١٢] ؛ فما أخذت أخـذت في الـذُّهول حتّى قَضَتْ حَقَّ الوُعورِ والسُّهول ، ولم تبـق لـلأرض غُلّة ترتشف بلّـة . ثم انجابَت عن السَّماء انجيـابَ الرِّداء ، وسَـالت الأنهـارُ

---

(٦) يقتبس من الآية الكريمة من سورة العلق (٩٦/١٥) .

(٧) يشاق : يعادي . قاصية : ناجية .

(٨) الفدّادون : أصحاب الفدادين ، وهذه جمع فدّان : الثوران يُقرن للحرث بينهما .

(٩) ديوان زهير (بشرح ثعلب) : ١١٣ - ١١٤ وبينهما في الدّيوان بيتان آخران . المقامات جمع مقامة وهي المجالس ، وسميت المقـامـات لأن الرجل كان يقوم في المجلس فيحض على الخير ، ويصلح بين الناس .

(١٠) خُناصرة : بلدة قديمة من أعمال الأحصّ من ولاية حلب بـالقرب من قنّسرين . وقـد ذكرها عديّ بن الرقاع في داليّته المشهورة بقوله :

وإذا الرَّبيـعُ تتـابعَتْ أنـواؤه فسَقى خُناصِرة الأحَصّ وجـادَهـا

وكان عمر بن عبد العزيز والياً بها لعبد الملك بن مروان ولسليمان بن عبد الملك .

(الروض المعطار ٢٢٢ ، ومعجم ما استعجم ٢ : ٥١١ ، ووفيات الأعيان ٦ : ٣١٢) .

(١١) أي سحابة بحرية .

(١٢) ثجمت السّماء : أسرع مطرهـا ودام . أثجمت السماء ثمّ أنجمت ؛ أي أمطرت بسرعـة ثمّ أقلعت .

وما مَتَعَ النَّهار[١٣] ؛ فأفاض الحاضرُ في شُكر من أفاضَها ، وصَدَّقَ مخايِلَها وإيماضَها[١٤] ، وأنشَأنا نَعجبُ من سُرْعَةِ إحيائها ، ووشْك انجلائِها ، والقولُ في هذا النَّحو يتعلَّق ، والجماعة أثناء ذلكَ تتحلّق ؛ وصاحِبُ البيتِ الْحَرِيد[١٥] يركضُ ركْضَ البَريد طرَباً بالسُّقيا ، وتَبرُّكاً بهذهِ اللُّقيا ؛ فآضَت القِلادَةُ وِشاحاً ، والسّقط مِصْباحاً[١٦] ؛ والفِتْرُ باعاً ، والأُفْحُوصُ مِرْباعاً[١٧] .

ولما استَقرَّت الْحَلْقَةُ وارتَصَّ بُنيانُها ، وثبَتت أركانُها ؛ واندَاحَت هالَتُها ، وأوشكت إهالَتُها ، وأَنْصتَ السَّامع للقائل ، وتَطلَّعَ المجيبُ للسَّائل ؛ تَوسَّطها هِمٌّ في هِدْم[١٨] ، وشيخٌ في خَيْش ؛ قد تنكَّر للعيان ، وطمَس أعلامَ العِرْفان ؛ فحدجَتْهُ العُيون ، وخَلَجتهُ الظُّنون ؛ فبينَا نحنُ نتأمّلُ أسمالَهُ ونقول : أربَّ مالَه[١٩] ، إذ رفَع صَوتاً جهْوَرِيّاً ، ونَضْنَض لِساناً عبقريّاً[٢٠] ، بكَلامٍ عَذب الْمُجاجَة ، خُسروانيّ الدّيباجة ؛ يكتنفهُ

---

(١٣) متع النّهار : ارتفع وطال (قبل الزوال) .

(١٤) أومض البرق : لمع لمعاً خفيّاً .

(١٥) الحريد : المعتزل المتنحّي .

(١٦) آض : عاد . السّقط (مثلثة السين) الشرارة تتطاير من قدح الزّندين .

(١٧) الأُفحوص : حفرة تحفرها القطاة أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها . والمرباع : المكان ينبت نبته في أول الرَّبيع .

(١٨) الهِمُّ : الشّيخ البالي الفاني . والهِدْمُ : الثَّوب البالي أو المرقّع .

(١٩) أربّ الشيء : لزمه وأحبّه وملكه .

(٢٠) نضنض لسانه : حرّكه .

السَّداد ، ويأذَنُ له الجماد ، فدارَ في الحلقةِ مُصمتاً ، وأشار إلينا مُسْتنصِتاً ، فَكُلٌّ أرمّ[٢١] ، وقطَع ما كان بهِ هَمّ .

ثم قال :

أيهـا الْجَمْـعُ الأرِيض[٢٢] ، والسُّـؤدد[☆] العَرِيض ، والنَّفَر البِيض ، والنَّـائـل الْمُسْتَفيض ؛ والهِمَم السّـاميـة والْحَفـائـظ الـدّاميـة ، والسُّيـوف الماضِية ، واللُّيوث الضَّارية ، والقُروم الْمَصـاعب ؛ والوشيج الزَّاعِب[٢٣] : حقاً إنكم لقطبُ الرّجاء ، ورَحا الهَيْجـاء ، وكشفُ الغَمّـاء ، وجَلاءُ العمى والعَماء ؛ أما والذي كَلأكم وأنْبتَ كَلأكم ، وملأ بـالْخَيْراتِ مَلأكم : إنّ للنِّعَمِ لَشُكراً هـو أوسـعُ غـايـة ، وأرفَـعُ رَايـة ، وأرقُّ أنْفـاسـاً ، وأَضْفى لبـاسـاً [٨٩/ب] ، وأعلى مظـاهر ، وأزكى بواطِنَ وظَـواهر ؛ وأربـح مَسـالـكَ ، وأنجحَ مآلك[٢٤] ؛ وأسرعُ قَبُولاً وأبعدُ ذُبولاً . كلاّ ليس الهِناءُ بالـدَّسِّ[٢٥] ، ولا النِّداءُ بالهَمْس ؛ ورئمانُ العُلوق غُصَّـةٌ[٢٦] في الْحُلوق ، قـد شكرتم قَولاً

---

(٢١) أرمَّ : سكت .

(٢٢) أرض فلان : صار خيّراً متواضعاً ، فهو أريض .

(☆) لعله : السواد العريض .

(٢٣) القرم : الفحـل . المصعب : الفحـل يُعفى من الركـوب . الـوشيـج : شجر الرّمـاح . الزاعب : زاعب رجلٌ أو موضع تنسب إليه الرماح ، وحقه أن يقول : الزاعبيّ .

(٢٤) مآلك جمع مألكة : رسالة .

(٢٥) دس البعير لم يبالغ في هنائه (طليه بالقطران) من الجرب .

(٢٦) الرئمان (مصـدر) المحبّـة والعطف . والعلوق جمع العلق : النفيس من كل شيء يتعلق به القلب .

فاشكروا طَوْلاً ، وأثنيتم لَفْظاً فاثنُوا لـدى البِرّ والصّلـة لَحْظـاً ؛ وبـادِرُوا بـالْحَسَنـاتِ قبل فَـوْتها ، وانظُروا إلى رحمـة اللهِ كيف يُحيي الأرضَ بعـد مَوتِها[٢٧] . ألا واثِقٌ بـالْخَلَف ؟ ألا مُقْتَـدٍ بـالسَّلف ؟ ألا يَـدٌ تَطُول ؟ ألا حُرٌّ يَنُول ؟ ألا مُعْـطٍ من يَسـار ؟ ألا مُـواسٍ من قُصَـار ؟ ألا مُـؤثِرٌ من إقْتار ؟

يا يَنـابيع النَّـدى ، ومصـابيح الهُـدى ، ومَفـاتيح الْجَـدا[٢٨] ، وحيـاة الحيـاة وردَى الرَّدى . مـا هـذا الْجُمودُ والأكفُّ التي لا تجـود ، ومنكم عُهـدَ الْجُـود ؛ مــا لكم عن زاهــدٍ راغب ، وجــاهــدٍ لاغِب ، وأبي كل أُزَيْغِب ساغب[٢٩] ؟ عَهدي بهم منذ ثلاثٍ يتناغَون سهداً ، ويتضاغَوْن جهداً[٣٠] ، ومن قبل ما علقَ جناح رحمة بأبٍ يَحُفّهم ، وأنهجَ شعار رأفـة كان يَلُفّهم ، فصفِرت وِطَابُهم[٣١] ، واصفَرّت أكُفّهم ؛ فما بقـاؤهم ؟ وكيفَ لِقـاؤهم ؟ آهٍ آه !!..

قال الحارث : فَعلمنا أنه يكني عن عِرْسه ، ويومئ إلى قَرارة غَرْسِـه . ثم جعَل الشيخ ينتَحِبُ ، ويستقيـد الـدمـع فيصحب[٣٢] ؛ ولا مَغِيض إلاّ

(٢٧) اقتباس من الآية الكريمة من سورة الروم (٣٠/٥٠) .

(٢٨) الْجَدا : العطاء .

(٢٩) لغب لغبـاً : تعب وأعيـا . وأزيغب : تصغير أزغب من فعل زغب : نبت زغبـه وهو الريش الصّغير والشعر الصغير أيضاً . وساغب : من سغب : جاع مع تعب .

(٣٠) تضاغى وضغا : صاح من الألم ونحوه .

(٣١) يقال صفرت وطابُه : لم يبق له حلوبة يحتقن لبنها .

(٣٢) أصحب : ذلّ وانقاد .

الخيش ، ولا داء إلاّ العيش . قـال : فلم تبـق قَلنسـوة إلا زُحـزحت ، ولا عَبْرَةٌ إلا سُفحت ، ولا مُبْهَمـةٌ من الصُّرَرِ إلاّ فُتِحَت ، فطلـع سعْـدُه الغـائب ، وانثـالت عليـه الرَّغـائب ؛ فمـا شبّهت مطرَ عَطـائِهم إلا بمَطرِ سَمائهم ، والشَّيـخ يتَلقَّفُ ولا يَتَـوَقَّفُ ؛ ويلتقـطُ مـا يسقـطُ ؛ ويـدّخر ولا يؤخّر ؛ ويصطفي مـا يعتفي ؛ ويحتوي ولا يجتوي ، ويلتوي طَـوراً ثم يستوي !

قال : فما زلتُ أرمُقُه ، وسهامُ العَطاءِ تَرْشُقه ، وأتوسَّمُه وتلـك النّوافل تَتقسَّمُـه ، حتى تعلقت عيني بخَلل إزاء خَـدِّه ، أَذْهَلـه الطمـع عن سَـدِّه ؛ فأثبتُّ عَيْنَه ، وعرفتُ مَيْنَـه[٣٣] ، وأثرت [٩٠/أ] الضّغينـة بيني وبينـه ؛ ومـا ألهـاني عنـه ـ والظَّنّ يَرْجُمـهُ ، وحَركاتُـه تَرْسُمـه ـ إلاّ طُروح نَـواه ، ونُزوحُ مَثواه .

هَيهـات هَيهـات ! أين الحِمى من حِماه ، أَبـالجَنـاحِ قطَـع، أم في السَّحابِ وَقع ؟

قال : ولّما نزفَ عُمر اليوم ، وحسر مَـدُّ القَوم ؛ ظَلّ يعكِمُ ويَشْكُمُ[٣٤] ويَصُرُّ وينْفُث[٣٥] فيما يَصُرّ ، ويَشُـدُّ على تلـكَ الأَعـلاق بُخـلاً ويعقِـدُ ولا يَـذْكُر حَـلاًّ[٣٦] ، فمـا استَـوْعى خِرَقَـه ، ولا أَوْكى سُحْتَـهُ وحُرَقَـه ، إلاّ

(٣٣) المين : الكذب .

(٣٤) عكمَ المتاع : شدّه بثوب ؛ وذلك بأن يبسط الثوب ويجعل فيه المتـاع ثم يشـدّه . وشكم الفرس وضع الشكيمة في فمه .

(٣٥) ينفثُ للرُّقية .

(٣٦) أصل هذا الكلام مَثَل : (العسكري ٢ : ٢٤٧) وفيه : يا عاقدُ اذكُرْ حَلاًّ .

ونفْسُ اليَـوْم زاهقــة[٣٧] ، وفَترةُ الظَّلمـاء راهِقــة ، والكَـواكبُ قَتيرٌ في حَبـاب ، أو تَرقيشٌ على ظهرِ حُبـاب[٣٨] ؛ والجماعَــةُ قــد استردتهــا ذات الغروب ، وفـارقتـهُ فراق المَحْرُوب[٣٩] ، معتـاضـةً ممّـا نَزع من لِبَـاسهـا ، مُستريحةً من طُولِ احتِباسهـا ؛ والشَّيخُ لا يزحلُ عن مقـامـه ، ولا يحـطُّ - على كثافة الظَّلماءِ - من لثامِه ؛ فلمّا رأى سَوادِي[٤٠] قائمـاً ، وفِعلي دَائمـاً ، قال : أيُّها السَّوادُ الغَريب ، والشّخصُ المريب ! أمرٌ مّا أَقْعَـدك وأَفْردَك ، فهل يُصْـدِرُك من أوردك ؛ أَطليعـةُ فُتّـاك أم رَذِيّـةُ نُسَّـاك[٤١] ؟ وتوقّف وهمـاً ، ثم انتَزعَ من كِنـانتـه سَهْماً ، وقـال : انتسِبْ وإلا فـاحتسِبْ[٤٢] ! فقلتُ له : استأنِسْ بأودّائـك[٤٣] ، وفِرْ سِهـامَـكَ لأَعـدائـك[٤٤] ، أَوَإنّـك ياأبا زيد لذو أَيـدْ[٤٥] ، من يَجْعل الضّرغـام إلى السَّخْلِ ؟ ومتى كانَ حكم

---

(٣٧) وعى المتاع والزّاد : حفظه في وعاء . وأوكى على (القربة) شَدّها بالوكاء ، وهو خيط تشد به الصُّرّة . السحت : ماقبح وخبث من المكاسب .

(٣٨) القتير : رؤوس مسامير حلق الدرع تلوحُ فيها . والحَباب : النفاخات التي تعلو الماء وغيره . والترقيش : الزخرفة والنقش . والحُباب . (بضم الحاء) حيّة .

(٣٩) المحروب : الذي سُلب ماله كلّه .

(٤٠) السواد : الشخص .

(٤١) رَذِي يرذى رَذاوةً : ضَعُف .

(٤٢) انتسب : ذكر نسبة (عرّف بنفسه) . يقال : احتسب فلانٌ ولده إذا فقده كبيراً والكاتب يُريد : « انتسب وإلا عرضت نفسك للهلكة » .

(٤٣) أودّاء جمع وديد وهو المحب .

(٤٤) فِرْ : كثر . وهو فعل أمر .

(٤٥) ذو أيد : ذو قوّة .

اللهِ في كرب النَّخـل[٤٦] فَرقٌ لمن لا يَعْرُفـك وتطَـامَنْ لمن يَسْتَشرفُـك[٤٧] ، فألقى نَبْعَتَهُ[٤٨] وقام يَجُرُّ ذَيله ؛ ويقول : إنّك لابْنُ هَمّام منذُ اللَّيْلَه !

يـاحـارِ لاأُرمَيَنْ منكم بـداهيـةٍ لم يَلْقَها سُوقةٌ قبلي ولا مَلِكُ[٤٩]

ثم اعْتَنقني وُدّاً ، واستحال الهَزْلُ جِدّاً . فقلتُ له : إنَّك بمنزلـةِ لصوص وفي خَصاصةٍ وخُصوص ، وبأَعْيُنهم مـا قَنْفَشْت ، وتحت تَحْصِيلهم مـا جَمعت وقمشت[٥٠] ولا آمن هُجومهم ، ولا أَضمنُ رُجـومَهُم[٥١] [٩٠/ب] فَحـوِّلْ إلى منزِلي رحلـك ، وأنزلْ بي مَحَلَّـك ، فعنـدي خِصبٌ يملأ لَهَوَاتـك ، وصِرْفٌ تأتي على شهواتك .

قـال : فـأخـذْنـا في مُنتقلـه ، وتعـاونّـا على ثِقلـه ، فـأَوردنـاهُ الجواء وأَودَعْناه الاحتماء ؛ وقدّمتُ استجماماً لأنسه وظيفةَ عَنْسِه ؛ لأُزيحَ عـازب

---

(٤٦) الكَرَب جمع كَربـة وهي أُصول السّعف الغـلاظ التي تيبس فتصير مثـل الكتف . وفي شعر جرير ، يقوله للصلتان العبدي حين فضل الفرزدق عليه :

أقـولُ ولمْ أملِـكْ سَـوابِـقَ عَبْرَةٍ متَى كانَ حُكْمُ اللهِ في كربِ النَّخْـلِ ؟

يعيّره بأن قومه يلتقطون التّمر الذي يُلتقط من أُصول الكرب

(ديوان جرير ، والبيت وخبره في أمثال العسكري ٢ : ٢٦٤ واللسان (كرب) .

(٤٧) استشرفه : علاه وفضله ، وتطامن : تواضع .

(٤٨) النبعة مفرد النبع : شجر تتخذ منه القسي والرماح . والنَّبعةُ : يعني : قوسه .

(٤٩) البيت لزهير بن أبي سلمى (ديوانه : ١٨٠) والخطاب للحارث بن ورقاء الذي سلبه إبله وعبده يساراً .

(٥٠) قنفش الشيء : جمعه سريعاً . وقمش الشيء : جمعه من هاهُنا وهاهُنا .

(٥١) الرجوم (جمع الرجم) : ما يُرجم به من حجارة وغيرها .

فِكَره ، وأَستبدَّ بسمعهِ وبَصره ، وأستمدّ من حكايتهِ وخَبرِه ، فقال : تا اللهِ لقد أجَدت ، ولكنْ أيْنَ ما وَعدت ؟ لعلّك الغارُّ الغَابن ، والتّامِرُ اللابن[٥٢] ؛ فقلتُ : البيتُ بإيثارك ، والنُّزولُ على اختيارك ، وما تَشِذُّ لك نِيّةٌ عن هذهِ البَنيّة ، ولا تتَخطّاكَ أُمنِيّة - إلا المنية - فجئتهُ بتَمرٍ كأَخفافِ الرِّقاع[٥٣] وماء كخفافِ الطِّباع ، ونبيذ مطلق وحابس[٥٤] ، ولحمٍ جَنِيٍّ ويابس ؛ وعَسلٍ مُصَفّى ، ولبن بلبنٍ يُقفّى ؛ بين غابٍّ وناضِر[٥٥] ، وحازر وماضر[٥٦] ، ورَثيئةٍ[٥٧] تُنْهِبُ الرَّثْيَة ، وتُجلي الغَشْيَة .

وجمعتُ له في ذلكَ المجاز ، بينَ طُرَفِ العِراق وتُحَف الحجاز ، فأحالَ على ما سَبق ، واستَحال فيما استَتْلى واستلحق ؛ وعلى ذلك فَكُلاًّ استطَاب ، ومِنْ كلّ أصاب ، وبالأَشْقَين ما كانَ العِقابِ[٥٨] . فلَما كَلَّ

---

(٥٢) العبارة من بيت للحطيئة في هجاء بعضهم (ديوانه ١٦٨) وهو :

أغررتِني وزعمتَ أنّك … لابِنٌ بالصيّف تامِرْ

(٥٣) في الأصل : كأخفاف الرّفاع .

(٥٤) الحابس (والحبيس) : الوقف .

(٥٥) الغابّ ، يقال غبّ الطّعام والتّمر : باتَ ليلةً .

(٥٦) الحازر : الحامض أو فوق الحامض لبناً أو غيره . والماضر : الذي يحذي اللسان (يقرصه) قبل أن يروب .

(٥٧) الرثيئة : اللبن الحامض .

(٥٨) تضمين لقول امرىء القيس (ديوانه : ١٣٨) .

وقاهُم جَدُّهم ببني أبيهم … وبالأشقين ما كان العقابُ

مِحْفَرُهُ ، وحفي مِشْفَرُه ، وصَديء مِحوَرُه[٥٩] ؛ وراز ما حاز ، وقَلْقَل ما نَقَل ، وسبَر ما هَبَر[٦٠] ؛ وتفهَّمَ ما التهم ، ووَقف على ما نقَف[٦١] ، وعَرف ما غَرف ؛ وحقَّق ما طبَّق ، وامتَحن ما طحن ، تَسخَّطَ ما اسْتَرط[٦٢] ، وتَنقَّم ما التقم ، وسَبَّ ما عَبّ ، وذهب إلى الكلام : فما قَطف ولا خَبّ[٦٣] ، فقال : ياسُبحانَ الله ! ماهذا[٦٤] المأقط إلا كما قال الأُرَيْقِط[٦٥] :

أتانا وما دَاناهُ سَحْبَانُ وائلٍ ... بَياناً ولا عِلْماً بما هو قائلُ
فَما زالَ عَنهُ اللَّقْمُ حتّى كأنَّهُ ... مِن العِيِّ لَمَّا أنْ تَكلَّمَ باقِلُ !

إنَّ الجوعةَ لَمَجْهَدَةٌ ، وإنّ البِطنة لَمفسدة : فَليتَ الهضْمَ إلى العَيْن ، وقدر الكفايةِ في اليَدين ، فلا يجمعُ طِرف ، ولا يَسمح إلاّ بالقدر المحتمل

---

(٥٩) المحفر : ما يُحْفَرُ به . والمشفر للبعير كالشفة للإنسان .والمحور : الحديدة التي تدور عليها البكرة .

(٦٠) هبر (له من اللحم هَبرةً) : قطع .

(٦١) نقفَ (الشيء) : ضربه واستخرج ما فيه .

(٦٢) استرطه (سرطه أي بلعه فانسرط) .

(٦٣) قطف : أخذ بسرعة . وخبّ أسرع .

(٦٤) في الأصل : مالهذا . وأظنها : ماهذا . ـ والمأقط : موضع القتال .

(٦٥) الشاعر هو حُمَيد الأرقط . والبيتان من خمسة أبيات (وهما الأوّل والخامس) ، رواها في اللسان (بقل) عن ابن برّي . وذكر صاحب اللسان الشعر بمناسبة اسم (باقل) ، وفيه أن باقلاً كان عيّياً فَدْماً ، وإيّاه عنى (الأُريقط) في وصف رَجُلٍ ملأ بطنه حتى عيّ بالكلام .(اللسان « بقل » والبيان والتبيين ١ : ٦ . ولحميد ترجمة في معجم الأدباء ١١ : ١٣ ، وسمط اللآلي ٦٤٩ ، وخزانة الأدب) .

كفّ ؛ فكيف الخلاصُ بين عينٍ لا تُملأ ، وشَهوةٍ لا تُكلأ ؟

فَخفّضتهُ رُوَيْداً ، واستَنزلْتُه ختْلاً وصَيْداً ، وغرضي ـ لولا أنْ يُنكِرَ حفْوة[٦٦] ، ويَستشعِرَ جَفْوة ـ أَن تُكشف السَّاق ، ويمتدّ به ذلك المَساق[٦٧] ؛ [٩١/أ] فأَضْمَر التَّفصّي[٦٨] ، وأبى ألاّ يُفْضِي ولا يُصْغِي ، ثم قال : يا ابن هَمّام ! ما أحوَجنِي إلى نَوْمَةٍ تَفَترّ عن قَومه ، تشُبُّ من نَشاطي ما هَرم ، وتُوجد من أُنسي ما عُدِم : فلا ضَيرَ في إرجاء المطلوب ، ولا خيرَ في إكراه القلوب . فقلتُ : أَهلاً بما رفَّهكَ ، ولا حبّذا ما أَتْعبك ونَفَّهك[٦٩] ! أنا براحتكَ أَسعَد ، ومِن نَصَبك أَبعد !

ثم أشرت لهُ إلى مرقد أَثيرٍ ، وفِراشٍ وَثِير ؛ فانتبذ قَصيّاً ، ثم تَفادى مَلِيّاً ، وقال : أَخِرَقُ السُّرْفَة ، وخُرْقُ التُّرْفَة[٧٠] ؟ أَما والله لو قبلته برّاً وظللت عليه مُسْبَطِرّاً لَما حَسِبْتُني إلاّ مُخَدَّرة تنتظر مَنْ يلهُو بلعبها ويقعد بين شُعَبها . السُّهادُ ولا هذا المهاد ! والأَرقُ ولا تلكَ السّرق ! ؛ والمحاش ولا ذلك الفِراش[٧١] ! ، كِلْني للبَداوة وحَمْل الإداوة[٧٢] ، ما عَرف

(٦٦) حفاه وحفا به : أكرمه ، وأعطاه .

(٦٧) استفادة من الأسلوب القرآني (من سورة القيامة) : ٧٥/٢٩ـ٣٠ .

(٦٨) تفصّى : تخلّص وتفلّت من دين أو بليّة أو غير ذلك .

(٦٩) رفّهه : ألانَ عيشه وأخصبه . ونفّهه : أتعبه (يقال : نفّه ناقته إذا أتعبها حتّى أعيت) .

(٧٠) السُّرفة : دودة القزّ . والتُّرفة : النعمة وسعة العيش .

(٧١) المهاد : الفراش . والسّرق : الحرير (الواحدة سرقة) . والمحش : ما يوضع فيه الحديد كالكيس ونحوه .

(٧٢) الإداوة : المطرة والركوة . (إناء صغير من الجلد يتخذ للماء) .

جَفني إلاّ الخَطْفَةَ العَجْلى ، ولا عهد جَنْبي إلاّ الحرّة الرَّجْلى[٧٣] .

فَدُرتُ معهُ حيثُ دار ، وتركتُه وما اخْتَار : فاستنَد إلى كُوره[٧٤] لِما اعتقد مِن بُكوره ؛ وأراني أنّه نامَ ، وعلى نَومي حام ! فما خففت إلا والليل قد توازنت كِفّتاه ، وتعادلَت ضفّتاه ، وأُلْقِيَ عليَّ نومٌ أخْمَد حسّي ، وأخذ بِنَفسي ؛ فلم أَنتبهْ إلا وجَيْبُ النَّسيم نافِح ، ونهرُ الفَجر طافِح ؛ وصافِي النجوم طافئٌ ، ودمعُ باكي الليل راقِىء[٧٥] ! ، والتفتُّ إلى أبي زيد فإذا ليسَ إلاّ عَراءٌ ، وأرْضٌ وسَماء ؛ فَكأنَّ الجنَّ اسْتَهْوَتْهُ ، أَو الأَرْض طوَتْه ! فقُلت : من فَعلاته ، واللهِ : رُبَّما خانَ الأَصادِق ، وعند النَّوى يكذِبُكَ الصَّادق !

ثم تأمَّلْتُ مَقعده ، وتَتبَّعتُ مَرقده ، فإذا رُقْعَتُه الّتي لا يَكادُ يُخِلُّ بإثباتها ، ولا يُخلينا من عاداتها ؛ وفيها :

يا حارِ يا ذا البرِّ والشِّـ	ـيَم العِذَابِ المسْتساغَهْ
اعذُرْ أَخاكَ فليس من	تِلْكَ الرَّفاهة والرَّفاغَه[٧٦]
ما العيشُ إلا بُلغَةٌ	وأَخوك لا يَعْدُو بَلاغَهْ
ولقد رحلتُ بِسُحْرَةٍ	والّليلُ يُلْبسُني صِباغَهْ

---

(٧٣) الحرّة : الأرضُ الغليظة ذات الحجارة النخرة السود كأنها أُحرقت بالنار ؛ والرجلاء (والرَّجْلى) من الحِرار : الخشنة الكثيرة الحجارة فلا يُستطاع الركوب فيها .

(٧٤) الكور : رحل البعير أو رحل بأداته .

(٧٥) رقأ الدّمع : سكن ، وجف بعد جريانه .

(٧٦) الرّفاغة : السّعة والخِصب .

وشَـوى[٧٧] المطيّــةِ في خِضــا ...... بٍ ظَــلّ يُلثِمُني رزاغَـــهْ[٧٨]
مُتحرّســـــاً متمرّســــاً بطريـــدة العيشِ المرَاغَـــهْ[٧٩]
والعجْــزُ أنْ طـــالتْ يَــدِي وتَقـــاصَرَتْ لابن المراغَـــهْ !
وأنـــا الّــــذي علمتْ مَعَـــدٌّ ...... في الفَصـــاحَـــةِ والبَـلاغَـــهْ
[٩١/ب] إنْ كانَ عَطَّـلَ مَشْهَـدِي دَهْرِي وأَلْـــزَمَني فَراغَــــهْ
فلقـــدْ عمرتُ بِكُـــلِّ مَـــا يُخْـــزيــهِ فُنْـدُقَـهُ وبَـاغَـهْ[٨٠]

وَإلى ذلِكَ

[من الكامل]

الـــــوَفْرُ مُحْتَقَبٌ ومُحْتَضَنُ والـوَعْــدُ إن وافيتـــه حضَنُ[٨١]
عِنــدي إلى نجـدٍ وسَــاكِنِــه شَــوْقٌ يُجَرُّ ببعضِـــهِ الرَّسَنُ
لا صَبْرَ لي يـــاحـــارِ عَنْ رَشـــأٍ عِنـدي الْجُفـونُ وعنـدَهُ الـوسَنُ !
إن كانَ قَسَّمَنِي ؛ وقِسْمَتـــــهُ ضِيْـزى : لَـه روحٌ ولي بَــدنُ ؛[٨٢]
فَعــذابُــهُ عــذْبٌ لعــاشِقِــهِ وقبيحُـــــهُ في عينـــــهِ حسَنُ

---

(٧٧) الشوى : يدا الدّابة ورجلاها .
(٧٨) الرّزاغ : الوَحَل .
(٧٩) الرِّياغ : الخِصب ، والرِّيغ : الغبار .
(٨٠) الباغ (فارسية) : الرَّوضة ، والحديقة .
(٨١) حضَن : جبل بنجد . وفي المَثَل : « أَنْجَدَ مَنْ رأى حَضَن » .
ـ واحتقب الشَّيءَ : ادّخره واحتمله .
(٨٢) قسمة ضِيْزى : أي جائرة .

يـــا حـــارِ لـــولاهُ لَما ابتـــدَرتْ … من مُقْلَتيَّ مَـــدامِـــعٌ هُتُنُ[83]

ولَما انتجعتُ العُرْبَ عن شَحَـــطٍ … من دُوْنِهـــا الأَهـــوالُ والفِتَنُ

ومَهـــامِـــهٌ كالبَحْرِ لا أَثَرٌ … فِيهـــا لِمُقتفِرٍ ولا سَنَنُ

لـو ســارَ فيهـا النجمُ ظَـلَّ بِهـا … حَيْرانَ لا شـــامٌ ولا يَمنُ !

دِيَـــةُ الفَتى أَلفٌ وليسَ لـــهُ … إنْ ســارَ في أَرجـائِهـا ثَمنُ !

والمرءُ كُـلّ المرءِ مَنْ أَخـــذتْ … مِنْـهُ الخطـوبُ وعَضَّـهُ الـزَّمنُ

ثبْتٌ فـــإنْ عَنَّ الغَرامُ لـــهُ … لَعِبتْ بـــهِ الأَطـلالُ والـــدِّمَنُ

لا كالْمُرَفَّـــهِ في بُلَهْنِيـــةٍ[84] … يـــا ويلَـــهُ إنْ لَـــزَّهُ قَرَنُ[85]

رَابِي الْمَجَسَّـــةِ[86] مُتْرَفٌ رَهِـلٌ[87] … لم يَبْرِهِ سَفَرٌ ولا سَفَنُ

وإلى ذلك :

[من الكامل]

يا حـــارِ إنَّ أمـــانـــةً مَعْصُوبـــةً … بك تَستهِلُّ بها على أهل الحِمى[88]

شُكراً كما انبعَث النَّسيمُ بِسُحرةٍ … وأقـامَ في زهر الرُّبـا مُتَلَـوِّمـا

مُتَــزيّـــداً من بِشرِهـــا ، متزوداً … من نَشْرِهـــا ، متخيّراً مُتَحكّما

حتّى إذا سلبَ الحـدائـقَ طِيبَهـا … وافى فعـاجَ على الـــدِّيـــارِ وسَلّما

(٨٣) هتنت السماءُ ؛ انصبّت . فالسحابُ هتونٌ ، والسحب هُتُن . وتشبّه بها المدامع .

(٨٤) البُلَهْنِيَةُ : الرّخاء وسعة العيش .

(٨٥) لُزّ الشيءُ : قرِن .

(٨٦) المجس والمَجَسَّةُ : الموضعُ الذي تجسّه بيدك . و (رابي المجسّة) كناية تنعمه وسمنه .

(٨٧) رَهِلٌ من رَهِل اللحم إذا اضطرب واستَرْخى .

(٨٨) يقال : استهلّ فلان إذا رفع صوته بذكر الله عند نعمةٍ أو رؤية شيءٍ يُعجبه .

للهِ دَرُّهُم وليسَ لغيرِهِ بُهَمُ الهِياجِ، الفارجون الْمُبْهَما[89]

من كُلّ ماضٍ قد تردَّى مثله حَذواً، فلا يدرى الْمُهنّدُ منهما!

[٩٢/أ] قومٌ إذا صَفِرَ الزَّمانُ من النَّدى مَلؤُوا الزَّمان سماحةً وتكرُّما

متأخّرٍ عن كلّ موقفِ سُبَّةٍ وإذا تعرَّضَهُ الوشيجُ تَقدّما[90]

تِرْبُ القناةِ السَّمْهَرِيّة بسطةً وتَأوُّداً، وتأيّداً، وتحطّما

مُتَسابقون إلى العُلا فكأنّهمْ في حَلبةٍ رَفعتْ قَتاماً أدهما[91]

في قِمَّةِ المجْدِ الأثيلِ وإنَّهُمْ لأَعَزُّ من شُهْبِ الكواكبِ مُنتمى

أسباطُ مَلْحَمةٍ، دَعائمُ سُؤددٍ حازُوا المآثِرَ والفخارَ الأقْدَما

جَرَت السَّوانحُ لي بيُمْنِ لقائِهمْ فسَرَيْتُ لا ألوي علَى مَنْ عَتَّما[92]

فتَحسَّسُوا من وجهَتي وتنسَّمُوا أمري، فقلتُ لهم: سَقطتُ مَع السَّما!

ما زِلْتُ أخدعُهمْ وينخدِعُونَ لي ويَرَوْنَ تَقْديمَ الصَّنائِع مَغْنَما

فظلِلْتُ أحصبُ بالمطارفِ واللُّهى أرأيتَ مُرْتَجِسَ(☆) السَّحابَ إذا هَما؟!

وكأنّما أنهابُهم وثِيابُهُمْ نَفَلٌ أفاءَتهُ الجيوشُ ليُقسما

فَصَدَرْتُ عنهم بالّتي في بَعْضِها ما يُحْسِبُ النفسَ اللَّجُوجَ وما ومَا

فَلأُلبِسَنَّهمُ ثَناءً خالداً يَبْقى على عَقبِ الزَّمانِ مُنَمْنَما!

---

(٨٩) بُهَم جمع بهمة: الشّجاع ... والمبهم من الأبواب: المغلق، المصمت لا باب له، الذي لا يُهتدى لفتحه.

(٩٠) الوشيج: الرماح.

(٩١) الأدهم: الأسود.

(٩٢) من معاني عَتّم: تأخّر.

(☆) ارتجست السماء (ورجست): رعدت شديداً.

قال الحـارثُ بن هَمَّـام : فهتفْتُ بـالْحَيّ هَتْفـةً ضمّتهُمْ من أقـاصِيهِم ، وحَشرتهم على بكرةِ أبيهم ؛ فلَمّا انْتَدَوْا ، وأخَذُوا مجـالِسَهُم واحتَبَوْا ، قلت لهم : « أمـانـةُ غَـاديكم وثمرةُ أيـاديكم ! » فقـالوا : لـكَ الفِـداءُ ، وعليـكَ الأداء ؛ فما هو إلاّ أنْ خامَرَتْهُم الأنيـات ، وضـاحَكتهُمْ تِلـكَ الإيـاة[٩٣] : حَلُّوا الْحُبَا ، وسَلُّوا الظُّبي ؛ وتعلّقُوا بـالجِيـاد ، وتشوَّفُوا إلى الجِلاد ، فكأنّ الخمرَ تَمشّت في نُفوسِهِمْ[٩٤] ، ولعبت بأعطافهم ورُؤوسهمْ !

قـال : فـوقفتُ سـادِراً[٩٥] ، ثم ولَّيْتُ مُبـادراً ؛ وتركتُهم تهـوي بهمْ أرْيَحيَّـةُ الهِمَم ، وتُسـاوِرُهم نَشْـوَةُ الكَرم ، وتُجـاذِبُهم فُضـولُ الرَّيْـط واللّمم[٩٦] . ولَمّـا حَصَبْتُهم بـالهَيْجُمانَـة[٩٧] ، وانفصَم عن عُنقي طـوقُ الأمانة ؛ عُجْتُ إلى السّرُوجيّ صدر الأرحَبِيّ ، ولَبـان الأعوجيّ[٩٨] ؛ فما [٩٢/ب] زلتُ في خبر ألتقطهُ ، وغيثٍ أهبطـهُ وزهر أعتبطُـه ، أصـافِحُ مُقلـةً بِمَبْسِم ، وأخصِفُ حـافراً بِمَنْسِم[٩٩] ، حتّى مَخَضْتُ عن زُبْـدَتِـه

---

(٩٣) إياةُ الشمس : ضوؤها ، وشعاعُها .

(٩٤) تضمين لبعض بيت أبي نواس (ديوانه : ٢٠٨) في وصف الخمرة :

فتمشّت في مفـــاصلهم كتمشّي البُرء في السَّقَمِ

(٩٥) سدِرَ : لم يهتمّ ، ولم يُبال ما صَنع .

(٩٦) الرّيـط (جمع الريطـة) : كل ثـوب لين رقيـق . واللّمم : طرفٌ من الجنـون ، أو كالْجُنون ، يلمّ بالإنسان ويعتريه .

(٩٧) الهيجمانة : اللؤلؤة .

(٩٨) الأرحي من الأرحبيـات : نوقٌ مشهورة . والأعوجي من الأعوجيـات : منسـوب إلى فرس مشهور .

(٩٩) خصف : رقع . والمنسم : الخفّ (خف البعير) .

حَقِينَه[100] ، واقتدَحْتُ من زنادِ الشّكِّ يَقينَهُ ، وإذا هو بالكَرْخِ[101] ، قد استَمْجد من العَفار والْمَرْخِ[102] :

وما ظنُّكَ بالْحَلْفَا ءأدنَيْتَ لَها النَّارا[103] ؟!

فأعرضْتُ عنه حتى امتحش[104] الإنْفاقُ عائرةَ سُحْتِه[105] ، وأتاه الإخفاقُ من فوقه ومن تحته ، ولم أزلْ ألْمَحُه بعيون الرَّصَد ، وأجتذبُ أخبارَهُ بالسَّبب الْمُحْصَد ، إلى أن أُعلمت أنه أُدرجَ في حُبٍّ[106] ، وأُلقي في غيابات جُبّ ؛ وأنّه بعد الصِّيانةِ مُمْتَهن ، وبما شربَ مُرتهن ؛ فخرجْت أبوعُ[107] الفَضاء ، وأُبادر القَضاء ؛ فلم يَرُع الْخَمّارَ إلا هُجومي ، وانكدارُ رُجومي[108] ، فثار إلى الكلام ، وألقى بالمودّةِ والسَّلام ! وأخذَ يفاوِهُ ويُفاكِهُ[109] ، ويُثني ولا يُشاكِهُ[110] ؛ فقلت : الثَّناءُ بعد التّجارب ،

(١٠٠) الحقين ، يُقال : حقن اللّبنَ في السّقاء : صبّه ليُخرجَ زُبدته ؛ فاللبن هنا حقين .

(١٠١) الكرخ : محلّةٌ ببغداد .

(١٠٢) من المثل العربي (في أمثال العسكري ٢ : ٩٣) : « في كل شجرةٍ نار واستَمْجَد المرخ والعفَار » . والمرخ والعفار : شجرتان تكثر نارهما .

(١٠٣) الحلفاء : نوع من النبات .

(١٠٤) امتحشته النار : أحرقته .

(١٠٥) العائرة : الكثرة .

(١٠٦) الْحُبّ : وعاء كالزير والْجَرّة .

(١٠٧) باع الفضاء : قاسه بالباع .

(١٠٨) انكدر في سيره : أسرع وانقضّ . والرجوم (جمع الرَّجم) : ما يُرجم به من حجارة ونحوها .

(١٠٩) يُفاوه من الأفاويه (أنواع الطّيب) ويُفاكه (من الفاكهة) : والكلام على المجاز .

(١١٠) المشاكهة : المشابهة .

والْمَدْحُ غِبّ المآرب ، لا يُعجبني الملَقُ ، والزُّور الْمُخْتَلَق ، ولا أثقُ بكلِّ وَاعِدة ، ولا أهيمُ بِصَلِفٍ[111] تحتَ راعِدَة ! يا هذا لا يَسبقْ سَيلُك مطرَك ، ولا يتقدَّمْ فَجْرُك سَحَرك . اعلَمْ أنَّك قد تبرَّأت منكَ البَراءة ، وأسلمَتْكَ الْجَراءة ، فَدَمُك مُتاع[112] ، وحياتك - إلاّ ما وقى اللهُ - مَتاع !

فلَمّا صَكَّهُ القولُ وبوادِرُه ، دارت عَيْناه ورجَفتْ بوادِرُه[113] ؛ وأقْبَل يَتنَقَّلُ من ذنبٍ لا يتحَصَّل ، وينتفي ويَتنَصَّل ، ويعلُو ويستَفِل ، ويقول : ليسَ من العَدلِ سرعةُ العَذل ؛ ما أتيتُ بِنُكر ، ولا أذنَبْتُ إلاّ ذَنْبَ صُحر[114] . وهل عَدَوْتُ أنْ لقيتُكَ بالبُشرى وحدّثتك - والحديثُ جانبٌ من القِرى[115] - ودامَجْتُكَ[116] الثّالثة الأُخرى . أنشدك الله ! هل أحسَسْتَ في عِزم إقبالي فُتوراً ، أو رأيتَ في سَماءِ بِرّي فُطوراً[117] ؟

---

(١١١) الصَّلِفُ : السّحاب الصلف : كثير الرعد قليل الماء .

(١١٢) تاع الماء : سال وانبسط على وجه الأرض . وتاع دمه : خرج .

(١١٣) بوادر جمع بادرة : وهي ما يبدر من حِدّةٍ في الغضب قولاً أو فِعلاً . والبادرة (في العبارة التالية) إحدى البادرتين في الجِسم : لحمتان فوق الرثغاوين : أي عصبتي الثدي ، وأسفل الثندوة .

(١١٤) « ذنب صُحر » يُضرب به الْمَثَل في عقاب مَنْ لا ذنب له . وصحر امرأةٌ ولها خَبَرٌ في كتب الأمثال وكتب الأدب (ثمار القلوب : ٣٠٧) ، وقال خفاف بن ندبة :

وعباسٌ يدبُّ لي الْمَنايا ... وما أذنبتُ إلا ذَنْبَ صُحْرِ!

(١١٥) من قول الشاعر :

أُحَدّثُه إن الحديثَ مِن القِرى ... وتعلَمُ عَيني أنّهُ سوفَ يَهْجَعُ !

(١١٦) دامجه على كذا : وافقه . ويلاحظ الأسلوب القُرآني .

(١١٧) اقتبس الكاتب من الآية الكريمة من سورة الملك : ٣/٦٧ . والفُطور : الخلل والوهن .

قلت : اللّهمَّ : لا ! قـال : فَقُمْ حتى تعرفَ عـادَتِي ، وتقف عنـدَ إرادتي . فانتَهى بي إلى إيوانٍ في بُستان ؛ كأنّما رُصّع بالْخُدود ، أو اقتُطِعَ من جنـان الْخُلـود ؛ وإذا الرّيـاحين تنضّـد ، والأزاهر تخضَـد[١١٨] ، وأزرارُ الْحَبـاب على لُبّـاتِ الأبـاريـق تُعْقَـد ، وكأنّما خرّت هنــاك أسلاك ، أو انتثَرت أفلاك ! [٩٣/أ] فما شئتَ من بَدْرٍ قد انْتَهى ، ووليدٍ كالسُّها[١١٩] ، وشمسٍ تَسْتَلِبُ النُّهى ؛ من كلِّ مُتَفضّلٍ تُعشي محاسِرُه[١٢٠] ومُتبذّلٍ تبـدو محَـاسِنُـه يضَعُ السّهـامَ مواضِـعَ القَتـل ، ويقتـادُ القلـوب بِكُـلّ مُغـار الفتـل[١٢١] . فكاتَمْتُه هِزّة ارتياحي ، وانضمّت على النَّبْلِ جِراحي ؛ وغالطْتُه جهـدي ، فتحيَّر بين رَغبتي وزُهـدي ، ثم قـال : لعلَّ هـذا مِمّـا يَفْثَـأ الغضب[١٢٢] ، ويستـلُّ ذلــك الحِقـد الْمُقْتَضب ؛ ويقضي مَــذمّــة ، ويكـون لفـؤادك مَجَمَّة[١٢٣] . فقلت : لا أعصبُ ضَرْعك ، ولا أُبْطرك ذرعك[١٢٤] ؛ وشرعي

---

(١١٨) خضد الغُصن وغيره : كسره ولم يُبن ، وقطعه .

(١١٩) السُّها : نجمٌ في السّماء معروف .

(١٢٠) من حسَر الشيء : كشفه .

(١٢١) من قول امرئ القيس (ديوانه : ١٨) :

فيــالـك من ليـلٍ كأنّ نجـومـه ... بكلّ مُغار الفتل سُدّت بيـذبل

والْمُغار : شديد الفتل (أي بشيءٍ مفتولٍ كالْحَبل ونحوه) .

(١٢٢) فثأ الغضب : سكّنه وكسر حِدّته .

(١٢٣) مجمّة : راحة . من أجَمَّ ...

(١٢٤) أبطره : حَمّله ما لا يُطيق . والذَّرع : الوُسْعُ والطاقة .

(١٢٥) شرعي : حسبي . في المثل : شرعك ما بلغك المحلّ .

(١٢٦) لسبه بلسانه : آذاه بكلامه ، وأصله من لسب العقرب أو غيرها (اللّدغ) .

مـــــــــا لا يحضُره شَرعي[١٢٥] ، وحَسْبِي مـــــــــا لا يُعْقِبُ لَسْبي[١٢٦] ؛ وجَرْعِي[١٢٧] مـا لا يوجب قَرْعي ؛ فقـال : إنمـا أنت على الإسـلام بمـدينـةِ السَّـلام[١٢٨] ، والـدّيلميُّ أمير[١٢٩] ، والمهلبيّ وزير[١٣٠] ؛ والحِسْبَـةُ إلى ابن الْحَجّاج[١٣١] ، واللّهو على مِنْهاج ، فلا تقيّة مع ابن بقيّـة[١٣٢] ، ولا ضيعـة مع ابن قريعة[١٣٣] ، ولا خيفة مع أبي حنيفة[١٣٤] ؛ فأخلِـدْ إلى مـا خَلّـد ، وقلِّدْهُ ما تقلّد ؛ وانظم هذا الشمل الشتيت ، ووَلِّ الْمَلامةَ مَنْ شِيت !

فقلتُ : أما وقد استَمرّ احتجاجُك ، واستحرّ لجـاجـك[١٣٥] ؛ وضربت

---

(١٢٧) من جرَع : بَلع .

(١٢٨) هي بغداد .

(١٢٩) الدّيلمي : هو عضد الـدولـة فنّـاخسرو (٣٢٤ ـ ٣٧٢) أمير الأمراء ، أحـد متغلّبي بني بو يه على الخلافـة العبـاسيّـة ، وأول من لقب بـ (شـاهنشـاه) في الإسلام . ومـدحـه المتنبي وذكر لقبه .

(١٣٠) المهلّبي : هـو الحسن بن محمـد المهلّبي (ت ٣٥٢) من كبـار الـوزراء ، ولقب بـذي الوزارتين لأنه وزر لمعز الدولة البو يهي والمطيع العباسي .

(١٣١) هو الحسين بن أحمد ... ابن الحجّاج الكاتب الشـاعر العبـاسي المشهور (ت ٣٩١) من شعراء الخلاعـة والمجون ولـه في الجدّ شعر جيّـد . وكان تولّى حِسْبَـةَ بغـداد وأقـام بهـا مُدّة .

(١٣٢) ابن بقيّة : هو محمد بن محمد بن بقيـة (٣١٤ ـ ٣٦٧) وزر لمعز الـدولـة البو يهي والمطيع العَبّاسي وكان وزيراً من الأجواد .

(١٣٣) ابن قُرَيعة : هو محمد بن عبد الرّحمن (ت ٣٦٧) قاضي بغداد « اشتهر بسرعة البـديهـة في الجواب على جميع ما يُسأل » . وكان مختصاً بالوزير المهلّبي .

(١٣٤) أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت (٨٠ ـ ١٥٠) ، أحد الأئمة الأربعة .

(١٣٥) استحر : صار شديداً . اللجاج مصدر لجَّ في الأمر : لازمَهُ وأبى أنْ ينصرف عنه .

إمـامـاً بـإمـام ، وجـدَعت بحلالٍ أنفَ حرام(١٣٦) ؛ فلولا عَوْجـاء لكانت في النفس منهـا حَـوْجَـاء(١٣٧) ؛ ولـولا حَـزّة تَثنيني ، لكانت مُلَحُـك تَطَّبيني(١٣٨) . أترُضيك شَربةٌ معها غُصَص ، ومسرَّةٌ للمَساءةِ فيها حِصَص ؟ ماجعلَ اللّهُ لرجلٍ من قلبين(١٣٩) ولا تسَعُ هالـةٌ بَـدْرَيْن ، ولا يَجْمَعُ غِمْـدٌ سيفين(١٤٠) .

فقـال : الحمـدُ للهِ الـذي أَعلن نَجْـواك ، وبَيّن شكـواك ؛ وعَرَّضني لِـذمـامِـك ، وجَعلني موضعَ إلمـامـك . فلو بيـعَ رضـاكَ : ببيض النِّعَم ، وحُمر النَّعَم(١٤١) ، وطـوق عَمْرو(١٤٢) ، وقُرطَي مـارِيـة(١٤٣) ، وقَـوسِ حـاجب(١٤٤) ، ودِرْع قَيْس(١٤٥) ، وعِمَّـة

(١٣٦) جَدع : قطع ، والأكثر أن يقال في الأنف .

(١٣٧) العوجاء : العجفاء من الإبل أو الضّامرة . والحوجاء : الحاجة .

(١٣٨) الحزّة : الحالة . وحزّ في صدره : حاك . واطّباه إليه : دعاه ، واستماله .

(١٣٩) اقتباس من الآية الكريمة في سورة الأحزاب : ٤/٣٣

(١٤٠) الهالة : ما يُرى من سطح مُستدير حول القمر .

(١٤١) حُمر النعم : كرائم الإبل ، يضرب بهـا المثل ، فيُقـال : مـا يسّرني بـه حمر النعم . وممّا أورده الثعالبي لنفسه (نقلـه في ثمـار القلوب : ٣٤٧) : « قول : نعم ! أحسنُ من حمر النَّعم ، تحمل بيض النِّعم » .

(١٤٢) طوق عمرو يُضرب مثلاً للشيء يكبر عنهُ الإنسان .

(١٤٣) ماريّة هي أم ملوك الغسـاسنـة . و (قُرطـا مـاريـة) يُضرب بها المثل : « خـذه ولو بقرطي مارية) .

(١٤٤) هو حاجب بن زرارة . وكان قد رهن قوسه عند كسرى .

(١٤٥) قيس هو قيس بن معد يكرب . ولم تكنْ لـه درعٌ . وإنمـا درعُـه بـأسُـه ، وفيـه يقول الأَعشى : =

أبي أُحيحة[١٤٦] ، لما فاتَ طِلابي ولا تخلَّص من أَسبابي !

فقلتُ : الخطبُ أَيسرُ ، والمَدى أقصر ! فقال : عَجِّلْ بتصريحك وجَلِّ الرِّغوةَ عن صَريحك[١٤٧] ، وجَنِّبْني خلْعَ المطيعِ[١٤٨] ، ولكَ فيما دونَهُ حُكْمُ المستطيع . فقلت : هو بعَينِك ، وأَسيرُ دَنِّك ودَيْنِك ! فقال : بَيِّنْ عَرْفَتَك ، وعَيِّنْ فِرْقَتك . فقلت : رَبُّ اللّسَن وصِنْوُ الحَسن[١٤٩] ، وسيّد بديعِ الزَّمن ! فقال : هذا إِشكال ، وهُنا من هذا الضَّرْبِ أَشكال فقلتُ : شَمْسُ الآداب ، وقَمرُ الكُتّاب [٩٣/ب] قال : فتَمادى بذِكره وتوارى في فِكره ؛ واضْطرَب وحَاص[١٥٠] ، وشقّ ما كان خَاص[١٥١] . وقال : المرءُ أَعْلَمُ بشانِه ، وأَبصر بِزَمانه ؛ بالتّهاته[١٥٢] اغْتَريت ، وفي السُّمَّهِ[١٥٣]

= وإذا تجئُ كتيبةٌ ملمومَةٌ خرساء يخشى الذائدون نهالها
كنت المقدّم غير لابسِ جُنّةٍ بالسيف تضربُ معلماً أَبطالها

وفي حماسة المرزوقي خبر عن تفضيل عبد الملك بن مروان لشعر الأعشى هذا على مدح كثّير عزّة (٢ : ٧٤٨) .

(١٤٦) أبو أحيحة هو سعيد بن العاص : كان إذا لبس عمامة لم يلبس قرشيٌّ مثلها حتى ينزعها .

(١٤٧) من قول العرب « وتحت الرغوة اللبنُ الصريح » : أمثال العسكري (١ : ٢٧٠) .

(١٤٨) هو المطيع العباسي الفضل بن جعفر (٣٠١ ـ ٣٦٤) خلع نفسه بدعوة من سبكتكين وبايع لولده الطائع لله .

(١٤٩) هو الحسن البصري وكان من البلغاء الفصحاء .

(١٥٠) حاص : رجع ، وراوغ وتخلّف .

(١٥١) خاص ـ هنا ـ بمعنى خاط .

(١٥٢) التّهاته : الأباطيل والتّرهات .

(١٥٣) السمّه : من أسماء الباطل والكذب .

جريت ؛ فقلتُ : أُعيذك من حَوْرٍ بعدَ كَوْرٍ[١٥٤] ، وعَدْلٍ يُنْسَخُ بِجَور ؛ ومَعْلُوَةٍ[١٥٥] طأطأتَ لها ذُروتك ، ومَكْرُمةٍ ضربتَ عليها جروتك[١٥٦] ، أن تصبح بعد قُوّتها أنكاثاً[١٥٧] ، وأخلاقاً رِثاثاً . لاتُبطلْ عملَكَ ولا يكن مَثلُ السّوءِ مَثلَك ، فقال : آرْضَ من المركب بالتّعليق ، ومِن هذه العِصْمة بالتّطْلِيق ، وتمتّعْ بذا اليومِ القَصيرِ الأَنيق ؛ واحتكمْ في شَرْوَاهُ[١٥٨] ، واعدِلْ عنهُ إلى سِواه ؛ فتلكَ ثَنيّةٌ لاتُرتقى ، وأُمنيّةٌ لاتُلتقى . بل سيَثُوبُ إن ثابَ جُذيمة[١٥٩] ويؤوبُ إذا آب خُزيمة[١٦٠] . وأقبلَ

---

(١٥٤) في الحديث عن الدّعاء « نعوذُ باللهِ من الحَوْر بعد الكَوْر » أي من النُّقصان بعد الزّيادة ، وقيل من فساد الأُمور بعد صَلاحها (النّهاية : ح و ر) .

(١٥٥) المَعلاةُ والمَعْلُوَةُ : كسب الشرف أو مكسب الشرف .

(١٥٦) الجِرْوَةُ في أَصل اللُّغة : النّاقة الصّغيرة . ويُقال ضربَ على كذا جِروَتَهُ أي : وطّن نفسه ، وصبر عليه .

(١٥٧) اقتبس من الآية الكريمة سورة النحل ٩٢/١٦ . والأنكاث جمع النِّكث . وهو الغَزْلُ يحلُّ فتْلُه فيعودُ كما كان قبل الفتل مفرّقَ الأجزاء ...

(١٥٨) الشَّروى : المِثل .

(١٥٩) هو جذيمة الأبرش (والوضّاح) وكان على ثغر العرب من قبل أردشير بن بابك ، خَطب الزَّبّاء بنت عمرو وكانت على الشام والجزيرة من قبل الرُّوم . ولها معه خبر ... ينتهي بقتله .

(١٦٠) في كلام الكاتب إشكال . وهو يشيرُ إلى المثل المشهور « إذا ماالقارظ العنزي آبا » (أمثال العسكري ١ : ١٣٢ ، وفصل المقال : ٤٧٣) . وفيه أن خُزَيمة بن نهد عشق فاطمة بنت يذكُر . وخرجا يوماً يجتنيان القَرظ ، فمرّا ببئر فيها نحل ، فتدلى يَذْكر ليشتار العسل فرفع خزيمة الحبلَ ، وقال ليذكر إنه لا يخرجه إلاّ إذا زَوّجه فاطمة فأَبى من ذلك ، فتركه فمات في البئر . وضُرِب به المثل في الذي لا يؤوبُ . وهناك =

يَتهاتَفُ[161] ويشْمَخ ويانَف ، فقلتُ : هَذا سَيْلٌ لا يثنيهِ إلاّ رَعْنٌ ، وكلبٌ لا يَظأره إلاّ طَعن[162] ، وصَمَّمْتُ مستقتِلاً ، وأجمعتُ مُجاهرةً إذْ لم أجِدْ مَخْتِلاً ؛ فأنْحيَتُه بالبَوائقِ[163] وانتحَيْتُه بالعَوائق ؛ وقلتُ : إنّك قد رُميتَ بحجَر الدَّهر ، وقاصِمَةِ الظهر ، وصُهبِ السِّبال[164] ؛ وسُودِ الأكباد ، والدّاهيةِ النَّآد[165] ، أسيرُك لا يُحجز في عِكم ، ولا يُسْتَر في خُصم[166] ، ولا يُضطهد في حُكم ، وإنّك فيما تَرُومهُ لكَمنْ « رامَ أسْبابَ السَّماء » ، و « قبضَ على الماءِ » ؛ فتأهبْ لعاقبةِ المكر ، وراغيةِ البَكْر[167] ، وفِراق السَّلامة ، وحُلول الندامة ! قال : فَذُعِرَ كالمنكُوز وجَحَّرَ كالكُوز[168] . فإلى حين مااستفاقَ ، وقد بعث الإشفاق . وكأنما لَسَعتْهُ نُوْب ، أو أُفْرِغَ علَيه ذَنُوب[169] . وأَقْتشَع عارِضُ تِلكَ النَّخوة ، عن

= عنزي آخر له خبر ، ذهب ولم يرجع فقال الشاعر « وحتى يؤوب القارظان ... الخ » . فالذي لم يؤب هو (يذكر) ، وليس (خزيمة) .

(١٦١) تَهاتَفَ : تضاحك هُزْءاً . (وقيل بل الفعل هنا تَهانَف) : متن : (هـ ت ف) .

(١٦٢) الرَّعن : أنف الجبل المتقدم ، والجبل الطويل . ومعنى ظأره : عطفه .

(١٦٣) البائقة : الغائلة والدّاهية .

(١٦٤) صهب السبال كناية عن العدوّ (الأساس) والصُّهبة لون (حُمرة في سواد) والسبال جمع سبلة الشعر .

(١٦٥) نأدته الداهية : فَدَحَتْه وبلغت منه .

(١٦٦) العِكم (بكسر العين) الحبل يُعكَم به . والخُصم من الفِراش والعِدل : ناحيته وجانبه .

(١٦٧) يقال : سمعت راغية الإبل أي أصواتَها . والبكر : ولد الناقة .

(١٦٨) نكزته الحيّة : لسعته بأنفها .

(١٦٩) النُّوب : النَّحل . والذَّنوب : الدلو العَظيمة .

معـاجمَ وَخِمَـة ومكاسِرَ رِخـوَة(١٧٠) ، فتمثلَ في حُسن المتـاب ، وبَصْبَصْنَ إذْ حُدِين بـالأَذْنـاب(١٧١) ؛ وأقبل يستنزلُ ويَتَرَضّى ، ويَسـأَلُ التّجـاوز عمّـا مضى ؛ ويقـول : قـد أخّرتُ مـاأَخَّرْتَ ، وهجرتُ مـاهَجرتَ ! فقلت : لاأَطلُبُ أثراً بعـد عَين(١٧٢) ، ولا أُلْسَـعُ من جُحرٍ مَرَّتين(١٧٣) . وَفَ البِرّ ، وأرِغْ لي حُـوارِي أَقِرّ(١٧٤) . فقـــال : لاحَرجَ فيما قَضيت(١٧٥) ، ولا ردَّ لِما أمضيت . ولعمرُ اللهِ مـاخَلا لغيركَ جَـوّي ، ولا رِيم إلاّ بَـوّي(١٧٦) ، ولا تَخطّى سُلافَة عَفوي(١٧٧) ، ولا خـاضَ إلى كَـدِري صفوي [٩٤/أ] ثم قـال خَفّفِ الـوَطْءْ(١٧٨) وسِرْ حتى تُخرج هـذا الخبء ! فَجِئنـــاهُ ، وعلى غِرّة

---

(١٧٠) معاجم من عجم الشّيء إذا اختبره . وخمة هنا : رديئة .

(١٧١) من المثل العربي (في أمثال العسكري ١ : ٢٢٥) : « بصبصْنَ إذْ حُدِين بالأذنـابِ » . قـال في اللسان : البصبصة تحريك الذنب ، والإبل تفعل ذلك إذا حُدِي بها .
ـ ويضرب المثل للرجل إذا غُمِزَ أذعنَ !

(١٧٢) الأثر : بقيّة الشيء . وما يُقابل العين في قولهم : أثرٌ بعد عَين .

(١٧٣) من قـولـه ﷺ : « لا يُلسَعُ المـؤمن من جحر مَرّتين » . وهـو في أمثـال العسكريّ (٢ : ٣٨٦) .

(١٧٤) من المثل العربي (أمثال العسكري ١ : ٩٩) « أَرغوا لها حوارها تقرّ » . ويضرب مثلاً لإغاثة الملهوف بقضاء حاجته ليسكن . والحوار ولد النّاقة . والنـاقـة إذا سمعت رغـاء حوارها سكنت .

(١٧٥) استفـاد الكاتب من الأسلوب القرآني في الآيـة ٦٥ من سـورة النسـاء (٤) . ومن الدُّعاء : لا رادّ لما قضيت .

(١٧٦) البوّ : ولد الناقة .

(١٧٧) سلافة كل شيء : خالصه .

(١٧٨) يذكر بقول المعرّي :

خفف الـوطء مـــاأَظُنُّ أديم ... الأَرضِ إلا من هذه الأجساد

فَجِئْناه ؛ وإذا هُو يترَنّمُ بِهذه الأَبيات مَحْزُوناً . ويقرَعُ جانب الدَّنّ قَرْعاً مَوْزُوناً :

[من البسيط]

مَثْـوايَ في الـدَّنِّ مَثْوى الـدّرِّ في الصَّـدَفِ
والسَّيفِ في الجَفْنِ والإصباحِ في السُّـدَفِ[١٧٩]

لم يَرْتَفِعْ عن عَوادِي الدَّهرِ ذُو قَـدرٍ ... لو كانَ كيوانَ في مَجْـدٍ وفي شَرَفِ[١٨٠]

فالشمسُ يَسْتُرهـا دَجْنٌ ، ويحصُرهـا ... واللّيثُ في غابةٍ ، والبدرُ في كلفِ[١٨١]

والعلمُ في الظنِّ لا تـأتيـكَ نُكْتَتُـهُ ... إلا إذا مـا رَمى منهـا إلى هَـدفِ

حتّى إذا ظفرتْ كفُّ اليقينِ بهـا ... جـاءَتْ بنورٍ من الظَّلْماءِ مُقْتَطَفِ

من كانت الشَّمْسُ والأَنـوارُ أسوتَـهُ ... فَما يَبيتُ على وَجْـدٍ ولا أَسَفِ

للهِ أُمّي التي لَمّـا رأَتْ كِبَري ... دَرَّتْ عَليَّ وآوَتْني إلى كَنَفِ

تَسَلَّمتْنِيَ عن أُخْرى مبـاركـةٍ ... باتتْ تَرِفُّ عَليها تُرْبَـةُ الجُرُفِ[١٨٢]

ومـا الّتي أَرضعَتْني أمسِ في صِغَري ... فـوقَ التي أَرْضَعتني اليـومَ في خَرَفي

جـادَتْ بـدِرَّتِهـا حتّى إذا نـزفتْ ... سكّنتُ أَحشاءَها من شِدَّةِ الشَّغَفِ

يـا ذِمّـةً عصفتْ ريـحُ النَّوالِ بهـا ... إنّي على ثِقَـةٍ من عـاجِلِ الخَلَفِ

يا راهبَ الدَّيرِ سَقِّ الناسَ من شِيَمِي ... فإنّهـا نُطَفٌ[١٨٣] مـا شئْتَ من نُطَفِ !

---

(١٧٩) المثوى : الإقامة . والسدف جمع السدفة : الظلمة .

(١٨٠) كيوان : زُحَل .

(١٨١) الدَّجْنُ : السّحاب . الكلف : شيءٌ يعلو الوجه كالسمسم .

(١٨٢) الجُرف : ماأكلته السيول من الأرض ، ومن أسفل شقّ الوادي فأشرف أعلاه .

(١٨٣) النطفة (والجمع نطف) : الماء الصَّافي .

ليسَ التي عُتّقتْ في نـاصِـعٍ أَرِجٍ مثل التي عُتّقت في الغَـارِ والخَزَفِ
هي السُّلافُ[١٨٤] التي يُجْنيك دائرهـا ماشئتَ من مبسمٍ عـذبٍ ومُرْتَشفِ
معنى الـزَّمـان ومَغنى كُـلِّ شـاردةٍ من كُـلّ مُتَّفَـقٍ فيـهِ ومُختَلفِ
إنّي لأَخْشى التي تَخْشى وإن ذهَبتْ
نَفْسِي فقـدْ ذهَبتْ جُرثـومَـةُ السّلفِ[١٨٥] !

ذرني أُؤَدّي[١٨٦] إلى قَـوْمي أَمـانَتهُمْ ثمّ ارتَهِنّي وكِلْني للنَّـوى القـذَفِ[١٨٧]
اللهَ في حَسبٍ عِـدٍّ فـإنْ ذهَبتْ أَحْسَابُ قومٍ فقدْ أَشفَوْا على التَّلَفِ

قال : فسرى فينـا حُسن ذلـك المسموع ، وانْحَلَّ نظـامُ الـدُّموع ؛ فما آذَنـه بمكاننـا [٩٤/ب] إلاّ قَطْرُ أَجفـانِنـا . ثم قـال : والرّيـاحِ والغَمامِ ، والحَياة والحِمام ، والحبِّ ذاتِ الأَكْمام[١٨٨] ، والأَخوالِ والأَعمام ، إنّي لأَجدُ ريح ابنِ هَمّام ! قال : فلمّا أخذتُ في استِقائه ، وتوسّطَ مَسافة ارتقائـه ؛ استَغْرَب ضَحِكاً ونـازعني الحبـل مُمسِكاً ؛ وقـال : لعنَ اللهُ الشيّطـان ! عَرض لي في هذا المكان ، بالمثل السّائح ، في المـاتح والمـائح[١٨٩] . فعلمتُ

---

(١٨٤) السُّلاف والسُّلافة : الخُمرُ أوّل ماتُعصر ، أو ماسال من غير عصر .
(١٨٥) الجرثومة : الأصل .
(١٨٦) الياء مثبتة من الأصل .
(١٨٧) القذف : البعيد ، يقال : نَوى أو نيّةٌ قذَفٌ .
(١٨٨) اقتبس من الآية الكريمة من سورة الرحمن ١١/٥٥
(١٨٩) في أمثـال العسكري (١ : ١٦٣) قـولهم « أعلمُ بهـا من غَصّ بهـا » . ثم قـال : والفُرس تقول : المائح أعلم بمقدار المـاء في البئر من المـاتح . والمـائح : الـذي ينزل البئر إذا قلّ الماء . والماتح الذي يستقي من غير بكرة .

ماشاءَه ، وكدتُ أسلم رشاءه ! فقلتُ : قاتلك اللهُ تَروثُ مَنْ يَحُشُّك[190] وتَغُشُّ مَنْ لا يَغُشُّك . فقال : ماهو بأوّل غيظٍ كظمْتَه ، وحِلمٍ انتظَمْتَه . ثم قال - وقد هَلَّل وهَوّل[191] ، ولاذ ثانٍ وبعد أوّل - : كيفَ خرجتَ من بطن أمٍّ تفرّق كلَّ شَمل ، ولا تُطْرِق[192] بحَمْلٍ ؟ فقلت أجلٌ تأخّر ، وأخ شمّر . قال أجَلْ أجل ، وبَجل ثم بَجل[193] ، فلما أيْقَن بالنَّجاة وعُدّ من أهل الحياة ؛ نهضَ نُهوضَ مُنبعث ، وسَلَّم غيرَ مُكترث ، ثمّ قال : رحم اللّهُ أبا خالد ! بليّةٌ كبليّة ، وأُمنِيّةٌ كأُمنية . فَفِهمَها الرَّاهب ، وعَدل بهِ إلى ديماس[194] وأتاه ببخور ولباس ، وقال : حاجَتُك أن تدَعَ رفَثك ، وتُلقي نفثك[195] ، وتَنْفِي خَبثك . قال : فدَخل حُمَمَة ، وخَرج ضُرَمَة[196] ! قد توقّدت أَسِرَّتُه ، وتحدّدت شِرَّتُه ، وتمثّل[197] :

(١٩٠) في أمثال العرب (العسكري ١ : ١١) : « أحشُّك وتروثني ! » حَشّ : جَزّ الحشيش .

(١٩١) هلل : قال : لاإله إلا الله . هَوّل الأمر : جعله هائلاً !

(١٩٢) ضبطها في الأصل تُطرِق . ويقال في هذا طَرَّقت بحَمْل .

(١٩٣) بَجلْ بمعنى نَعمْ .

(١٩٤) الدّيماس : الحَمّام .

(١٩٥) عنى بالرَّفَث : ماأوجب الاغتسال .

- وفي الأصل كما أثبت - نفثك (بالنون) . وأطمئن إلى قراءة ، التفث (بالتاء) .

(١٩٦) دخل حُمَمة (أسود اللون من اتساخ بدنه وثيابه) وخرج ضُرَمة (مبالغة في وصفه بالتضرّم - كالتوقّد) .

(١٩٧) البيت من حماسيّة لجابر بن ثعلب الطّائي (المرزوقي ١ : ٣٠٥) يقول : إذا اقتنيتَ بعد فقرك واكتسيت بعد عُريك فكأنك ماكنت قطّ فقيراً ولا عُرياناً .

[من الطويل]

كأنَّ الفَتى لم يَعْرَ يـومـاً إذا اكْتَسى ولم يَـكُ صُعلوكاً إذا مـا تَموّلا !

ثم اجْتَذبنا الرّاهبُ إلى مامَهّد من فرشِه ، ورَفعنا على عرشِه ؛ فألقَينا على غاربِ الهَمّ حَبْلَهُ ، ونَعِمْنا بيومٍ جَبَّ ماقبلَهُ ، وبَيّن على سائرِ الأَيّام فَضْلَه . فقلتُ : ياأَبا زيد ! إنّ لهذه الأَيّام أَوابدَ كأَوابد الوَحشِ فَقَيِّدْها بالسِّهام ، وخلّدْها في الأَوهام ؛ واعْقِلْها بالمأثور ، ووَكّل المنظومَ بالمنثور ؛ لِيُعْرَف يومُنا بسِيماه ، ولا يَشتبه بهِ سِواه ؛ فإنْ أَشكلَ نِجارُه[198] ، لم تُشكل نارُه ؛ وإنْ ذَهب زمانُه ، لم يذهب مكانُه ؛ فالحُلّةُ يَحميها تَطْرِيزُها ، ويَنفي عنها الخَبث إبْرِيْزُها[199] فإنْ خَلا بهِ مارِقٌ ، أَو خلصَ إلى حوزةِ سارق ؛ فإنّما هو دَجّال يحاسِنُ حَوَراً بعَوَر ، ويُماتن صلابَةً بِخَوَر[200] . وإذْ نَصَرَتْهُ يُسرى صافِية خَذلتْهُ يُمنى طافية . وأنكره [٩٥/أ] الصَّدْرُ ولم تَعرفْهُ القافية ! . قال : فحَمِي تَلَهُّباً ، وأطْلع في سماء القِرْطاس شهُبَاً !

[السَّريع]

وصاحبٍ ما مِثْلُهُ صاحِبٌ جَلْدٍ على مَرّ اللّيالي صَبُورْ
لمْ أَلْقَهُ في العُسر إلاّ انْثَنى يُسْراً وأجْلَت كُربتي عن حُبورْ
وكيف لاأشكرُ مَنْ جَدُّهُ ووُدّه أجهضَ عنّي الثّبورْ؟

(١٩٨) النّجار : الأصل .

(١٩٩) الإبريز : (الذهبُ) الخالص .

(٢٠٠) الخورُ : الضعف .

من بعــدِ مــا صَيَّرني أُكْلــةً ضُمّتْ عَليهــا لهـواتُ القُبــورْ
وكم لــهُ - يَكلــؤهُ اللهُ! - مِنْ تِجــارةٍ في مِثلهــا لا تَبُــورْ
أتــاحَــهُ اللهُ وقــد كادَ أنْ يغلق رَهْني[٢٠١] عنـد أهل الزَّبُورْ!
حَتّى اقتسَمْنــا خُطَّتَيْ فرقــةٍ لــهُ مقــامٌ، ولِرَحْلي عُبــورْ
واعْتَرضَتْ دجلــةُ مــا بَيْنَنــا كانَ الغُمَيصاءَ وكنتُ العَبُورْ[٢٠٢]

قال : فأقَمْتُ وعبَر ، وأتْمَمْتُ وقَصر[٢٠٣] ؛ وكانتْ تلكَ خاتمةَ القَول ، وزادَ الْحَوْل !

[٩٨]

وله[☆] - رحمه اللهُ - :

أطـالَ اللهُ بقـاءَ الوزيرِ الفَقيـهِ الأجـلّ القَـاضي ، مـوطّـأةً أكنـافُـه ، مقرطسَةً[١] أغراضُه وأهدافُه ، عتيدةً أنصارُه وأحْلافُه ، مُباهيةً بِهِ خُلطاؤه

(٢٠١) غَلِقَ الرَّهْنُ : استحقّه المرتهنُ ، ولم يقدر الرّاهِنُ على فكّه .
(٢٠٢) الغُميصاء : إحدى الشِّعريين من نجوم السَّماء . ويُقال لها الغَمُوص ، وأُختها : الشِّعرى العَبُور .
(٢٠٣) قصَر : إشارة إلى قصر الصلاة ، ويكون القَصْر في السَّفر إذا كانت مسافته بالمقدار الشَّرعي .

[٩٨]

(☆) في هذه الرسالة ، توصية والتماس رعاية ، رفعها الكاتب إلى أحد الفقهاء القُضاة (ولم يسمّه) مساعفة لمؤذّن يُكنى أبا إسحاق ، وهذا المؤذن يمتّ بقرابة إلى الفقيه القاضي أبي سعيد ، ولم يزد على ذكر كُنيته .
(١) قرطس فلانٌ : أصاب القِرْطاس أي الهدفَ المنصوب .

وأُلاّفه ؛ ولا زالَ مَثوى العائِل الْمُضطَرّ ، ومأوَى الطّارِقِ الْمُعْتَرّ[٢] .

المـؤذّنـونَ ـ أدامَ اللهُ نَصرك ـ قـد ورَد فيهم الأَثرُ المرويُّ ، والْخَبرُ الواضِحُ الْجَلِيّ ، وهم ـ وإن كانُوا في الأُخرى أطولَ النَّاسِ أعْناقـاً[٣] ـ فَهُم في الدُّنيا أضيقُ النّاسِ أرزاقاً ، وأضعَفُهم أذماءً[٤] وأرْماقاً . مـأكَلُهم رَشحٌ ، وشرابُهم على الشّهـامـة في النّهـامـةِ نشحٌ[٥] ، ونـومُهم غِرار ، وليلُهم حراكٌ وليلُ النّاسِ سكونٌ وقَرار ، يحدونَ الشّفَق ويسيرونَـهُ ، ويَرْبَؤُونَ الفجرَ[٦] فَيُثيرونـه ؛ ويحلُّونَ عُقَـدَ الشّيطـان ، ويُرسلون على العُتـاةِ الْمَرَدةِ رُجومَ السُّلطان ، ويحصرون الدّهر السّـارِب إلى التّحريـد[٧] والأوزان . فما تعبرُ بهم ساعةٌ ، إلاّ ولهم عليها سِمَةٌ أو طـاعَـةٌ ؛ ولا يَمضي من الليل هَـدْءٌ[٨] إلا ومنهم في ذكرِ اللهِ تعالى عَوْدٌ وبَدْء ، [٩٥/ب] فكلّهم يكلأُ اللَّيْلَ ويتَمَلْمَلُ

---

(٢) المعترّ : الفقير ، المتعرّض للمعروفِ من غير أن يسأل .

(٣) روى الإمام مسلم ، وابن ماجه ، والإمام أحمد ، حديثاً بهذا المعنى ، وفي المسند (٣ : ١٦٩) من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أطول الناس أعناقاً يوم القيامة المؤذنون » .

(٤) أذماء جمع ذماء وهو بقية الروح في الجسد ، أو قوّة القلب .

(٥) يقال : رشحت الظبيةُ ولدها باللبن القليل (جعلته في فمه قليلاً قليلاً) .
ـ ونشَح الشارب : أي شرب دون الريّ .

(٦) الرَّبيء والربيئة : الطليعة الذي يرقب العدو (من مكان عالٍ) لئلا يدهم قومه . والمقصود : يرقبون الفجر .

(٧) حَرّده : منعه .

(٨) الهدء من الليل : الطائفة منه .

تَمَلْمُل السَّليم ، ويَتَعارّ[٩] ـ والنّاسُ في سَكراتِ السُّباتِ ـ عرارَ الظّليم[١٠] . وهذهِ مَنْقَبَةٌ لهم بها مرتبةٌ عاليةٌ ومَرْقَبة ؛ ورُبّ قتيلٍ جَنح من نَجِيّ ، وغريقٍ من الظلماء « في بحرٍ لُجّيٍّ »[١١] ، يكيد بنفسه[١٢] حَذراً ، ويلفظُ حشاشته سَهراً ؛ قد ثَوَّبَ[١٣] بهِ منهم داعٍ ، ونفى قاتِلَهُ بالأذان ناع . فقام مُنتعشاً ، وهبَّ مَسْرُوراً بهشاً[١٤] ، قد أيْقَنَ بالنّجاة ، وظفرت يَدُه بساحلِ الحياة . أوَ ليست نفساً من طَلَّها طَلّ نجيعاً[١٥] ومن أحياها : فكأنّما أحيا النّاسَ جَميعاً[١٦] ؟

والمؤذِّنُ أبو إسحاق ـ مُؤَدِّيها ، سَلّمَهُ اللهُ ! ـ مُختصٌّ من هذهِ الفضيلةِ بِسماتٍ مَشْهورة ، وأصواتٍ مَذكورة ، ونَغماتٍ كنغماتِ أبي مَحذورة[١٧] ؟

---

(٩) تعارَّ فلانٌ من الليل : سهر ، وتقلب على الفراش (ليلاً) ولا يكون إلاّ يقظة مع كلام وهَرْتٍ أو تمطٍّ .

(١٠) الظليم : الذكر من النعام . وعرار مصدر عَرّ إذا صاحَ .
ـ ويلاحظ انتقال الكْاتب في العبارة من (تعارَّ) في الفعل إلى (عرار) وهو مصدر عَرَّ . فكأنه قصد إلى جمع الْمَعْنَيين .

(١١) اللجّي : الواسع اللج . وفي سورة النور ٢٤/٤٠ : ﴿ أَوْ كَظُلُماتٍ في بَحْرٍ لُجّيٍّ ﴾ .

(١٢) كادَ بنفسه : جادَ بها .

(١٣) ثَوَّبَ الداعي : دعا مرّة بعد أُخرى ، أو قال في أذان الفجر : « الصَّلاةُ خيرٌ من النَّوم » مرّتين عوداً على بدء .

(١٤) بهش إليه : ارتاح .

(١٥) طلَّ دمُه : أُبطل . والنجيعُ : الدم .

(١٦) في سورة المائدة ٥/٣٢ : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاها فَكَأَنَّما أَحْيا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ .

(١٧) أبو محذورة هو أوس بن مِعْيَر بن لوذان الْجُمَحي : صحابيّ جليل ولاّه رسول الله ﷺ الأذان بمكة فتوارثه بعده ولده إلى انقراض آخرهم في أيام الرشيد . (قاله ابن حزم في

ويَمُتّ إلى بساطِ القاضي الأجل أبي سعيد ـ أدام اللهُ توفيقَهُ ـ بخدمةٍ وسِدانةٍ ، وتبذّل بين يَدي كلّ ذي قدرٍ مِنكم وصيانة . وهذا ذِمامٌ عند مثلك من الزُّعماء والجلّة العُظماء : يُدْني من البِرّ ، ويُسَنّي حَظّه من البُرّ . فلولا عَدمُه[18] ، لَمَا سَعت قَدمُه ؛ ولولا أمعاؤه لما طال نِداؤُه ودُعاؤه ! وقد تقحّم نحوكَ لَفْحَ الهَجير ، وألقى بيدِ المُستغيث المستجير ، ولغيره زكاةُ جَمال وجِمال ، وله فضلةُ جاهٍ أو مال ، ووراءَهُ عِيالٌ ، وأُمُّ عيال . لا زلت تجبرُ مهيضاً[19] ، وتعتقدُ في أعناقِ الرجال النِّعَمَ بِيضاً ، بحولِ الله .

وأقرأُ عليكَ ـ دامَ عِزُّكَ ـ أعمَّ السَّلام نشراً ، وأذكاهُ فَوْحاً ، وأنداهُ بِشْراً . ثم السَّلامُ المردَّدُ المؤكّد عليك ورحمةُ اللهِ وبركاتُه . وبمثلِهِ أخُصُّ جميعَ قرابتكَ وأدانيك ، وأهْلَ حَضرتكَ ونادِيكَ ، أعَزَّهُمُ الله !

الجمهرة : ١٦٣) وفي طبقات ابن سعد (٣ : ٢٣٤) : كان لرسول الله ﷺ ثلاثة مؤذنين : بلال وأبو محذورة وعمرو بنُ أمّ مكتوم . فإذا غاب بلال أذن أبو محذورة وإذا غاب أبو محذورة أذن عمرو بن أمّ مكتوم . ولأبي محذورة رواية . (ينظر أيضاً أسد الغابة ، والاشتقاق ١٣٣ ، وتاج العروس ح ذ ر) .

(١٨) يقال : العُدْم ، والعُدُم ، والعَدَم : أي الفقر .

(١٩) يقال : عظم مهيض إذا كسر بعد الجبر . ويستعار لمعنى مجازي فيقال : فلان مهيضُ الجناح .

[٩٩]

ولـه(☆) ـ رحمـه اللهُ ـ من كتـابٍ إلى الـوزير الكاتب أبي بكر بن أزراق(١) ـ رحمه الله ـ مراجعة : .

ورَدني للسّيد الأوحد ـ أطالَ اللهُ بَقاءَه ـ كتابٌ كقِطَعِ الْجُمان ، ولُمَعِ الزّمان ، ومآرب الشّباب ، وتَواصُلِ الأحباب .

منه في وصف الْخَطّ :

خَطٌّ للقُلوبِ مُختط ، وللأبصارِ محلٌّ ومَحطّ . لا جَرم ! إنّـهُ أولى من تلـك بـالصُّـدور ، ومن هـذي بـالنّور [٩٦/أ] ، ولفـظٌ قـد شربَ الشّمول سائغاً ، ولبسَ القَبُول ضافياً سابغاً .

لـو شـاءَ أن يـذهبَ في صخرةٍ   لسَهّـلَ الْحُسنُ لـهُ مَـذهَبـا

سرى إلى الأُنسِ فـاستهَبَّـهُ ، وطلـعَ على الأمـلِ فـأشبَّـه ، وشـامَ الخـاطِرَ

---

[٩٩]

(☆) فصول من رسالة جوابيّة .

(١) ترجم ابن سعيـد في المغرب (٢ : ٢٨) لأبي بكر محمّد بن أزراق ، وقـال إنـه استوطن مدينة وادي آش من عمل غرنـاطـة ، واختـار شيئـاً من شعره . وأسرة بني أزراق أسرة كبيرة كانت ذات شأن في القرن السادس ـ كما ذكره في ترجمة رجل آخر منهم ـ ودارهم مدينة وادي الحجارة .
ونقل المقرّي بعض أخبار بني أزراق وأشعارهم (انظر حـاشيـة محقق المغرب ٢ : ٢٨ ، ونفح الطيب مثلاً ٣ : ٤٢٠) غير أنها وردت في النفح جميعاً بـاسم بني أزرق . ولا شـك في أن المـذكور هُنا (ابن أزراق) .

فانتَضاه ، وسَامَ الماطلَ فقَضـاه ، وأغنى الفِكَر وهي عُـدْمٌ ، واستَنْزَل الفِقَرَ فمنها عُصم .

ومنها :

ومِثلُـه سَبَق وهـدَى ، وطرَق وتحـدّى ، وافتتـحَ لِيَختم ، وبَـدأ ليتمّ . ومِثلي أذنب لِيَستغفر ، وجَنى لِيَعتذر !

أجلْ ! أعزّك اللهُ : التنصُّلُ شريعةٌ ، ومن الذُّنوبِ وَسيلـةٌ وذَريعـة . وإذا كان العفوُ لها ثمراً فَسأغْرِسُها شجَراً ، وأجْتَنيهـا آصـالاً وبُكَراً ، كلاّ ! ما كُلُّ ذنبٍ أجنى عفواً ، ولا كُلّ كَدَرٍ سَقى صَفْواً . لكنّكَ غريبُ مَعـدِنِ السّيادة ، فَرْدٌ في خَرْقِ العادة .

ولو جـازَ أن تُحْوى عُلاكَ وَهبْتَهـا ولكنْ من الأشياء مـا ليسَ يُوهَبُ

وفي ذكر النّوى :

فأما النّوى وتبريحُها ، فأنا جريحُهـا ، ونـاهيـكَ بِجُروحٍ لم ينزلْ فيهـا قِصاصٌ ، ولا تناولَها منهُ عمومٌ ولا اختِصاص .

ومنه في ذكرها :

فبي سارتْ ، وإيّاي ضَارَتْ ، فأما أنت ـ هُنيْتَ ! ـ فديمـةٌ تشتـاقهـا الغُلَـل[٢] ، وبُرءٌ تفتقرُ إليـه العِلَـل . لا زالَ الـوبْـلُ يرتـادُكَ ، والسُّرورُ يعتادُكَ بِعزّته .

(٢) الغُلـل جمع غُلـة وهي خرقـة تُشـدّ على رأس الإبريـق . والغلـل جمع غُلّـة : حرارة العطش .

[١٠٠]

ومِنْ أُخرى(*) :

إلى الوزير الفَقيه الكاتب أَبي عبد الله بن الرَّفَّاء[١] ، جَواباً عن فُصولٍ منها تـذكيرٌ بعيـادةٍ لم تَتَّفِق وإشـارةٍ إلى غُلام تكَتّبَ في حَضرتي بِغَيبتي ، ورجع دونَ لِقاء ؛ كان أَوّلَه شعراً رُوجِعَ عَليه ، وعلى سائر الكِتاب :

للـــدَّهرِ في نكَبـــاتِــــه تَنزيــلُ ... والخَطْبُ جـارٍ ، والحِمامُ نَـزيــلُ
فـإذا تَجـافَتْ عنــكَ في فتكاتِــهِ ... فكثيرُهـــــا فيما وَفيْتَ قَليــــلُ
ولئن مَضى عهـدُ التَّـداني فـانقَضى ... وكـذا الحَيـاةُ فما انقَضَى التّـأميـلُ
ولِقـاؤُنـا إلاّ يكنْ في وَجهــهِ الـ ... ـمَعْشُـوقِ غُرّةً انَّـــهُ تحجيــلُ !

[٩٦/ب] نعم ! أَدام اللهُ سناءَكَ ، وأكّد بالفضائلِ اعتناءَك . الـدُّنيـا ـ ولك الكرامةُ ـ سِجَاح[٢] ، قَريبـةُ الإسجَـاح[٣] . بَينـا هي تقُودُ مَجْراً ،

[١٠٠]

(*) فصول من رسالة الكاتب إلى الفقيه الكاتب أبي عبد الله بن الرّفاء .

(١) أورد المقرّي (النفح ٤ : ١٠٧) شعراً لابن الرفّاء ، ولم يزد في تسميته على هذا .

(٢) في صدر هذه الرسالة إشارة إلى خبر الدعيّين الكذّابين : سجاح ومسيلمة .
ـ سَجاح بنت الحارث التميمية : شاعرة ، متنبّئة ، ظهرت لها دعوةٌ أيام الردّة على عهد أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه . ووافق حركتها حركة أُخرى لمسيلمة الكذاب ، فالتقيا واجتنبا أن يقتتلا وتزوّجا ! أقامت قليلاً مع مسيلمة ثم تركته يلقى مصيره المُهلك ولحقت بأخوالها في الجزيرة ثم أسلمت ، وسكنت البصرة وتوفيت سنة ٥٥ هـ .

(٣) أسجح : أَحسن العَفْو .

وتـؤمٌ حَجْراً[٤] ، إذْ غـازَلَهـا العلـق[٥] ونـازلهـا الشَّبـق فـألقَتْ إزارَهـا ، وَوضَعت الحربُ أَوزارَهـا ! وعلت اليَمامـة ، وغَلب أَبو ثُمامـة[٦] ! فلا غَروَ ـ أعـزّكَ اللهُ ـ أَن تُقْبـل إذا صَـدّت وتُعرِضَ إذا تصَـدّت . ومن شَرَح باضطرابها صَدراً ، ولم يُقم لهـا قَـدْراً استمتَع بخِلافِهـا ، وارتَفع عن تحصيل أَخْلافِهـا[٧] . ومـا زلتُ أَروضُ النّفسَ في إحـداثِهـا ، وأُؤذنهـا بـانتقـاضِهـا وانتكاثِها . حتى بَسطتْ أكنافها كلَّ البَسط ، ووَزنتُها بميزان القِسط .

ومنها في ذكرى الفِراق :

وأما الفِراقُ ـ وأَشهـدُ ـ فهو مـا أَعهـد ! هو تَوأَمي لو أَنّ بَيْنـاً يُولـد . قَـاتَلـهُ الله ، فَمـا أَبقى حَبْرَةً[٨] ، ولا غـادَر عَبْرَةً . وليتَـهُ اقتَنع ورَضِي بمـا صنَع ! وأَينَ يُريد وأَنا البَريدُ . وقد أَصفَحني[٩] عن المـآرب ، وصـافح بي

---

(٤) الجر : الجيش العظيم . الحَجْر : اسمُ قصبة اليَمامة .

(٥) العَلَقْ : الهوى يكون للرجل في المرأة .

(٦) أبو ثمامة كنيـة مُسيلمـة بن ثمـامـة الحنفي الوائلي تنبّأ ، وضرب بـه المثل في الكـذب فقالوا : (أكذب من مسيلمـة) . امتـدّت فتنتـه إلى سنـة ١٢ هـ ، حيث خرج جيش يرأسه خالـد بن الوليـد فقضى على حركتـه ، وسقـط مسيلمـة قتيلاً ، وكان قـد ادّعى النبوة وسأل النبي ﷺ أن يقاسمه الأَرْض !
ـ ورويت حكايات عن لقاء مسيلمة وسجاح وأنه بدأ بالحديث عن دعـاواهمـا الكاذبـة وانتهى بما يطيقان من حاليهما !

(٧) أخلاف جمع خلف وهـو ضرع النـاقـة ، وكل ذات خُفّ وظلف ، أو حلمـة الضّرع ... واستعمال الكاتب للعبارة مجازيّ .

(٨) الحَبْرَةُ : النعمة وسعة العيش .

(٩) أصفح : أمال ورَدّ .

أَيدي المشارقِ والمغارب .منها : أَستعدي اللهَ على جَوره ، وسُرعـة دَوْره . فـإنّني من فَجـآيـةِ الطّـوارق في عِـداد البـوارِق[10] : أَدنى دارِي وَمِيضٌ ، وأَقربُ عَهدي بالأَحبّةِ تَغْمِيض .

ومنها في ذِكر الكِتاب :

وإنّ كتـابَـك الكريم ، وافى فـأَعْربَ عن مَجْـد ، وهَبّ هُبـوبَ صَبـاَ نَجْد[11] . فكَرعتُ في تَسنيم[12] واستشفيتُ بنسيمٍ . وحقّ لِمَا صَدرَ عن تلكَ الشِّيم أن ينوبَ عن البَارِد الشَّبِم .

ومنها في ذَكْرِ الحَال :

وأما الحَالُ فما عَدَتْ ماسَرَدْتَ ، ولا خـالفَت مـاأَوردتُ . وقـد كنتُ أَتَوَقّى في العيادة بعضَ الزّيادة ، فأَقلنّي فيها احتمالُك ، وأَقالني إجمالُك . وما أعذرُ نَفسي بذلك المانع ، ولا أتَمَسَّكُ به تَمسُّكَ القَـانِع . فقـد كانَ من الحَقّ أَن آتيها أَعثُر في الحديد وأَرسُف في القُيود[13] ، وأَرد ورودَ الحشر بين سائقٍ وشهيد[14] . لكني ـ أعزك الله ! وقذتني[15] النوائب قدعـاً ، وضقت

(١٠) البوارق جمع البارقة : السَّيفْ (وسحابة ذات برق) .

(١١) يلمح الكاتب هنا قول ابن الدُّمينة (وقد مرّ في هذا الكتاب) :

ألا يـاصبـا نجـد متى هِجْتَ من نَجْـدِ؟ لقـد زَداني مَسْرَاكَ وجْـداً على وَجْـدِ

(١٢) التسنيم : الماء يتنزّل من العالي (والتسنيم عينٌ في الجنة تنزل ماؤها من عُلو) .

(١٣) رسف : مشى مشيَ القيّد .

(١٤) في سورة قَ ٢١/٥٠ ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائقٌ وشَهِيْدٌ ﴾ .

(١٥) وقذه : ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت ، وقدعه : كفّه ومنعه بيده أو لسانه .

بالشامتين ذرعاً ، فإني في الخطُوب لَمُعْرِق ، وما أَنا بالمشي في القَيدِ أَخْرق . بَلى للصَّدمة الأُولى(☆) رَوعة ، وللخَيبةِ بعدَ الظَّفَرِ لَوْعة .

[٩٧/أ] ومنها في ذِكْرِ الغُلام الّذي صَرَفه :

وأَنّى لي ـ أدامَ اللهُ عِزَّك ـ في تلكَ الحال وقد أَدْبَرتْ آدابُها ، وانبتَرَت أَسْبَابُها ، بِغُلامٍ عَليمٍ يطلعُ ببُشرى « ويُيَسّر لليُسرى » ، لكنّه بَرَاقشُ(١٦) فضح بجهلِه ، وجنى على أهلِه ، والنِّصَبُ(١٧) ـ أيّدكَ الله ـ يَطّرِدُ مَقْدُورُها ، ويتناسَب محذورُها ، ومثلُك صَفَح في أمثالِها ، ومرَّ غافلاً على أغفالِها(١٨) ، وتَمثَّل لها بأَمْثَالِها :

وكنتُ إذا ما حاجَةٌ حالَ دونَها ... نهارٌ وليلٌ ليسَ يَعْتَذِرانِ
حَمَلتُ على ظَهرِ القَضاءِ مَلامَها ... ولم أُلزمِ الإخوانَ ذَنْبَ زَماني

وأمّا الحالُ فخيرُ حال ، صَبرٌ واحتمال ، ورَجاءٌ في اللهِ وآمال .

(☆) في الحديث : الصبرُ عند الصدمة الأُولى ؛ قال ابن الأثير أي عند قوّة المصيبة وشدّتها .

(١٦) بَراقش : كلبة ضرب بها المثل فقالوا : « أشأم من براقش » ، و « على أهلها دلّت براقش » ، وذلك أنها نبحت جيشاً فدلّتهم على قومها ، فأصابهم الاجتياح ! (أمثال العسكري ٢ : ٥٢) .

(١٧) النِّصَبُ جمع النَّصْبَة . أورد دوزي في معجمه (تكملة المعاجم ٢ : ٦٨٤) المفردة نَصْبَة والفعل نصب في عبارة « ونَصَبَ الطالع » . ويُقال في توقع الخير للأمير وشبهه : (سعيد النَّصبة) أي ميمون الطّالع . فالنَّصْبَة ـ في هذا الاستعمال الذي درَجَ عند المولّدين ـ ما كانوا يزعمونه من العلاقة بين النُّجوم وبين الإنسان اعتباراً بأُمورٍ شتّى .

(١٨) غافل اسم فاعل من غفل . وأغفال جمع غُفْل (الذي لا يُرجى خيره ولا يُخْشى شرُّه) : الذي أُغْفِل .

وهذه جملةٌ قد وَضَحَ لكَ معقولُها ، وإن فُعِلتِ الأُخرى فَسأقولها ، واللهُ عزَّ وجلَّ يُجملُ العُقْبى ، ويصنع الصُّنع المجتَبى ؛ لا ربَّ غيرُه .

[١٠١]

ومنْ(☆) مُداعبَةٍ إلى صاحِبِ المظالم ابن طاهِرْ(١) :

لَولا أنّ مَلاذِي ـ أعاذَ اللهُ جلالَه وأعادَ اقتِبالَهُ وأعزَّ مكانَه وأهانَ زمانَه ـ أخذَ عليَّ مَوثقاً ، وقد جعَل البعدُ بيني وبينَهُ مَوبقاً(٢) في إعلامي مَجْدَهُ بما تَجَرَّد من أَنبائي بعدَه ، لتثاقلتُ هيبةً ، وتواريتُ غيبة .

[١٠١]

(☆) قطعة من رسالة مباسطة ومداعبة .

(١) أبو عبدالرَّحْمن محمد بن أحمد بن إسحاق بن طاهر ، من الوزراء ، الرّؤساء ، الكُتّاب ، استبدّ بأمر مُرْسية يدبرّها ، وكان يكتب عن نفسه ـ كما كان الصاحب بالمشرق يكتبُ عن نفسه ـ وثارُ أهل مرسية به واستعانوا بالمعتمد فأرسل ابن عَمّار (فاستبد بها ابن عَمّار إلى حين) وانتقل إلى بلنسية ، حيث حماهُ أبو بكر بن عبد العزيز ، وأنقذ حياته . وعُمّر ابن طاهر نَيّفاً وتسعين عاماً . وتوفي سنة ٥٠٧ . ولابن بسام كتاب في ابن طاهر ، ولكنه مفقود . (الذخيرة ٣/١ : ٢٤ ، وبغية الملتمس الرقم ٢٣ ، قلائد العقيان ٥٨ ، المغرب ٢ : ٢٤٧ ، الذيل والتكملة ٥ : ٥٩٠ ، الحلة السيراء ٢ : ١١٦ الخريدة ٢ : ٣١٣ ، العجب : ١٨٠ ، أعمال الأعلام ٢٠٢)

قول الكاتب المؤلف : « ومن مداعَبَةٍ ... » قلت : أورد ابن بسام في ترجمة ابن طاهر ما نصُّه : « وله رسائل تشهد بفضله ، وتدلُّ على نُبله ، ولاسيّما إذا هَزَل ، فإنه يتقدّم على الجماعة ، ويستولي على ميدان الصناعة » .

(٢) الموبق : المحبس ، وكل حاجز بين شيئين . وفي العبارة اقتباس من يوسف ١٢ : ٦٦ والكهف ١٨ : ٥٢

لكنّني أُوثرُ رضاه ، وأُقدّمُ على كلِّ حال ما يَراه . وإنِّي مررْتُ على بَلدي فأوهى جَلَدي ، وأرهقَني صَعُوداً[3] وأخلقَنِي قِياماً وقُعوداً ، فقد كانَت الأَخبارُ ترامَتْ إليهِم ونَعَتني حقّاً لَديهم ، فكلُّهم ناظرٌ مُتَوسِّمٌ ، وباكٍ متبسِّم إذا توهَّم الخَطرَ ٱستعبَر ، وإذا عايَنَ السَّلامةَ ضحك واستبشَر . ومنهم مَن دَفع العِيانَ ، وقال : ما هكذا كانَ ، وما جازَ الرَّيبُ لولا الشَّيبُ ! وناهيكَ ـ أيَّدك اللهُ ـ مِن قومٍ يُنكرونَ الأَنوار ، ولا يَعرفونَ النَّهار ، قد تزَاورَ عنهمُ المشيبُ[4] ، واحتقرتْهم الخطوبُ ؛ وغمَّضوا عن وقائعِ الزَّمن ، وخَلَوا من الهمِّ خلوَّهم مِنَ الفِطَن ، ونزلوا الحضيضَ بدلاً من القُنَن[5] ؛ وحاشاهم أَنْ تكونَ لهم مَخَطّا ، أو تجدَ الأحداثُ لهم حَطّا ![6]

إنَّ الرِّياح إذا ما استعصَفَت قَصَفت عيدانَ نجدٍ ولم يَعبَأْنَ بالرَّتَمِ[7]

[٩٧/ب] أَستغفرُ اللهَ من هذا اللَّمم ، إنَّهم لأَهلُ مكارمَ وهِمَم ؛ وجبالٍ شُمٍّ ، وقَنًى صُمّ ، وبرٍّ جَمٍّ ، ضيفٌ يُرضى وغريم يُقضى ، وشهادةٌ تُلقى

---

(٣) التعبير قُرآني ، في سورة المدّثر ١٦/٧٤ ـ ١٧ ﴿ كَلاّ إنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنيداً . سأُرْهِقُهُ صَعوداً ﴾ .

(٤) تزاورَ : مال وتنحّى ، وفي سورة الكهف١٧/١٨ ﴿ وتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عن كَهْفِهِمْ ذاتَ اليَمِينِ ﴾ .

(٥) القنن جمع القُنَّة : قنة كل شيء أعلاه .

(٦) خَطّ برجله الأرض : مَشى .

(٧) الرَّتَمُ والرَّتيمَةُ : خيطٌ يُعقد على الإصبع أو الخاتم لتستذكرَ بها الحاجة وكان الرجل إذا سافر عقد غصني شجرة برتيمة ؛ فإذا رجع فرآها منحلّة زعم أن امرأته خانته !

وإناءٌ لا يُصغى[٨] ، هذي المكارمُ لا قعبانِ من لَبَن[٩] ، كلاّ إنَّهم لأهلُ شاءٍ لا أَشاءٍ[١٠] وأَصرام لا صرامٍ[١١] ، وأَنعام لا إنعام ، وأَشعار لا إشعار[١٢] من كُلِّ صَرُورة[١٣] ، ليس من الإنس إلاّ في الصورة :

[من الطويل]

أُولئك قومي بارك الله فيهمُ على كلِّ حالٍ ما أَعفَّ وأَكرما

باسَطتُكَ - أيّدكَ الله - في قومي وما أَسخو بأَعراضِهم ، ولا أسمحُ باعتِراضهم .

وأَمّا الكتابُ الكريمُ فتأدَّى ، كالرَّوضِ سرى ، والنجم بلْ أَنورُ وأَهدى ؛ فَراقَ ملمَحُه ، وأشرقت لُمعُه ولُمحُه ؛ ووقعَ الإصفاقُ[١٤] ، وللخاسرِ الخيبةُ والإخفاقُ ، وعَيْنَي مَعْقُودَةٌ . بِما تشرفُ به - أيّدك اللهُ -

---

(٨) أصغى الإناء : أماله ، وحرفه على جنبه ليجتمع ما فيه . (أي إناء مملوء) .

(٩) من قول أمية بن أبي الصّلت (ديوانه ٤٥٩) :

تلك المكارمُ لا قعبان من لبن شِيبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أَبوالا !

(١٠) أشاء النَّخل : صغاره ، الواحدة أشاءَة وأَشاء .

(١١) أصرام جمع صِرم : أبيات مجتمعة منقطعة عن النّاس ؛ أو جماعة ينزلون بإبلهم ناحية على ماء .

- والصِّرامُ : للنَّخل : أوانُ إدراكه وجَزّه . ويُطْلَقُ على النّخل نفسه .

(١٢) أشعار جمع شِعر . وإشعار مصدر : أَشْعَر .

(١٣) الصَّرورة : الذّي لم يتَزوج ، لم يأت النسّاء .

(١٤) أَصْفق القوم على كذا : أجمعوا عليه .

من عَودٍ يُحْمَد ، وفضلٍ يُجَدّد ؛ واختصاصٍ من مراجعةٍ كريمةٍ تُصَدّق دعوايَ ، وأقولُ لها : « يابُشرايَ » !

لا زالتْ آثارُكَ لي واضِحَةً ، ونجوى القلوبِ ناضحة .

[١٠٢]

وَمنْ مُفاتَحَةِ إخْوان(☆)

اعْتِذاراً من نُفوذٍ قبل وداعٍ وخجلٍ(☆☆) من احتفالِ برّ :

[من الطويل]

منَ البرِّ ما لا يُستطاعُ احْتِمالُهُ ، ... ويَحْسُنُ في حكمِ الصَّفاءِ اعتزالُهُ
هو الغيثُ مهما جاوز النَّفْعَ ضائرٌ ... وحسبُكَ منه ما يعُمُّ نَوالُهُ
وما البُردُ إلا ما استقلَّت ذيولُهُ ... ولا العِقدُ إلاّ ما أَحاط اشتِمالُهُ
ولما أبيتُم غيرَ ما في طباعِكمْ ... منَ الكَرَمِ الضَّافي عليكم كمالُهُ
وأَنْفَرْتُمُ شُكري وأخرستُمُ فمي ... بِمُنْهَلِّ فصلٍ لايَغِبُّ اتصِّالُهُ
أحلتكُمُ يَومَ الوَداعِ على النَّوى ... ليُعرِب عَنّي منزلي وسُؤالُهُ

لشيءٍ ـ أدامَ اللهُ عِزّكم ـ ما كرَّه العَذْبَ خَصَرٌ[1] ، وحَبَّبَ الليلَ قِصَرٌ ، وهذَّب الطويلَ مُختَصَرٌ ، ولذلكَ شُمِّرتِ الذُّيولُ ، وسُمّرتِ[2] الخيولُ ،

---

[١٠٢]

(☆) فصول من رسالة إلى بعض أصدقائه .

(☆☆) في الأصل : (وحجل) بالمهملة فالمعجمة التحتيّة ، ولعلّ الكلمة « وخجلاً » .

(١) خَصِر خَصَراً : بَرد واشتدّ بَرْدُه .

(٢) سَمر الإبل وسَمّرها : أهملها وخلّاها .

وأُرهفتِ النّصولُ ، وكَفَتْ من الرَّوضِ نَفْحَة ، ووَفَتْ بالُحسن صَفحَة وُميّز الجنسُ بواحد ، وقيّد الحَقُّ بشاهد [٩٨/أ] وكلفت بالوفاءِ فلقَةُ نَبْع[٣] ، وأَلْوَتْ بالعزاءِ رِمّةُ رَبع[٤] ، واقتصرَ البرقُ على اللَّمح ، وَنابَ السَّهمُ عنِ الرُّمْحِ . وقد كنتُ أيّامَ تردُّدي بحضرتِكمُ الحاليةِ بثواقِبكمُ ،العاليةِ بمآثركُم ومناقِبكُمْ ـ أدام الله حراستها وحِفْظَها ، كما أجزل بنفاستِكم خَطَّها ـ أقنعُ بتنسُّمكم ، وأتقلّى من تَجشُّمكم ، وأَرْفَع خطاكم البِّرة عن قَدَري وأَراها تقعُ في حُرِّ وجْهِي أَو على بَصَري ، لا جَرَمَ أَنّ لها فوقَها خَتماً أَجدُ بالتوَهُّم وَسْمَهُ ، وأعلم بالتألُّم خَطَّه ورسَمَه . ولَمّا تظاهَرَتْ عليَّ المِنَنُ وغَلق أَخيذكم[٥] المُرْتَهنُ ولَّى بَادياً ، وأَبقَ[٦] متفادِياً ، وتسلَّل لِوَاذاً[٧] ، واتّخذ الفرار ملاذاً ، فلا طالب أوشكُ من اهتبال ولا قِرنَ أفتكُ من إجمال ، ولعلّكم ـ أنهلكم السُّرورُ وعَّلكم ـ قد فرَّطتم في جنبي ، « وتفرَّقت بكم السُّبل » في عَتبي ، وإنه لموضعُ احتمال ، وموطنُ نظر واستدلال ، وأَولاكم بالصَّواب والقَصْد ، مَنِ ٱحتالَ للوُدِّ ، وأبقى على العَهْد .

---

(٣) ألمّ بمعنى قول جرير (ديوانه)

أتذكر إذ تودّعنا سليمى ... بفرع بشامة سُقِيَ البشامُ

(٤) هذا كثير في الشعر ، ومنه قول امرئ القيس (ديوانه ٩)

وإن شفائي عبرةٌ إن سفحتها ... وهل عند رسم دارس من مُعَوّلِ ؟

(٥) الأخيذ : الأسير . وغَلِق الأسير : لم يُفْدَ .

(٦) أبق (العبد) : استخفى ثم هرب .

(٧) لاذ لواذاً ولِوذاً ولياذاً (إليه) : لجأ إليه وعاذَ به .

وَمنْها : إنّما وقَعَ وِفاقاً ، لا نِفاقاً ، وتجافياً لاتَنافيا ، وإلاَّ فكيفَ أَختارُ على الرِّزقِ حِرماناً وأعتاضُ مِنَ الرِّبح خُسراناً ؟ !

[١٠٣]

وَمِن(*) أُخرى إلى ذِي الوزارَتَيْنِ الكاتِبِ أبي محمّد بنِ الحَاج(**) في هَذا المَعْنى :

أطالَ اللهُ بقاءَ الهُمامِ الأوْحَد ، ذي الصِّيت الأبعد ، والقَدْرِ الأصْعَد ، والمجدِ المؤثَّل ، والفضل الممثَّل ، للعيون يَرُوقُها ، والنفوسِ يَشوقها ؛ وللمكارمِ يُفيدُها وللمحاسِنِ يُعيدُها . من بَنى ـ أعزَّك اللهُ ـ في السّيادة بناءَك ، واعتنى بالمحامدِ اعتناءَك ، واستولى على أمدِ الفضائِلِ استيلاءَكَ ، واستوى في قضايا النُّبْلِ استواءَك ، لم يُخَف منه في قضيَّةٍ جَنَف[1] ،

---

[١٠٣]

(*) رسالة إخوانيّة من الكاتب إلى كاتب ذي خطَر سياسيّ في بعض مراحل حياته (انظر الحاشية التالية) .

(**) أبو محمد عبد الرحمن بن جعفر بن إبراهيم ، عُرِف بابن الحاج ، أديب كاتب ، من أُسرة سريّة في بلده (لورقة) . ولَمّا ضعف أمر المرابطين تَولّى إدارة أُمور (مُرْسِيَة) مدّة من الزّمن لم يعيّنها الضبّي . ونص ابن سعيد نقلاً عن والده أنه بُويع من أهل (لورقة) وامتنع من ذلك حتّى أعْفَوه ، فقد خاف عاقبة الأمور (ولورقة من مدن مملكة تُدمير : مرسية) . وكان ابنُ الحاج أديباً شاعراً كاتباً ، ولأبيه أبي الحسن جعفر شهرة أدبية أيضاً . وقد نسك الأب ، ثم الابن وزهدا بعد حياة حافلة . (بغية الملتمس ٣٤٩ ، قلائد العقيان ١٤٣ ، المغرب ٢ : ٢٧٦) .

(١) جنف : مال وجار .

ولا ازْدَهاهُ في نَصَفةٍ أنَف . وحاشى لحِلمـه أن يُستفَزّ ، ولصبره أن يُعَزّ[2] ، وفي إحـاطتِـكَ الـوافيـةِ أنَّ النَّـوى تُضجِرُ ، وأن الْمُسـافِر في سـوءِ الْخُلُـق يُعْذَر ، فمهما أتَتْ منهم نبوَة ، أو استخفَّتْهُ جَفْوَة ، وضع العذرُ إصْرَهـا[3] ، واحتمِـلَ الصَّفـحُ وِزْرَهـا . [٩٨/ب] ولـمـا ٱنحصرْنـا إلى مـوقفِ الـوداعِ ، وٱنفصلْنا على عِدَةِ الاجتماعِ ، نظرتُ فـإذا أقـدارُكم عنـدي تَجلُّ ، وقـدري يدقّ عن ذلك ويقلّ . وكانَت في اللَّيلِ فَضْلَةٌ ٱشتملتُ بردائها ، وٱنـدرَجتُ في أثنائها ، شحّاً على المراتب أن تُذالَ[4] ، وصيانةً لها أنْ تُبذَلَ إلاّ في حقِّها وتُنَال ، لكيلا يَسُومَكم مثلَها سائِمٌ ، ويلومَ من الجِلّة فيها لائِمٌ .

ومنها إشارة إلى الخطاب الأوّل :

وقد خاطبتُ الجملةَ بخطابٍ أسنَدْتُه إلى بيانِـك ، وأيَّـدْتُـه بلسـانـك ، ووضعته في جوارِك وأمانِك ، ولا محالـةَ أنَّ التوفيقَ أرشـدني ، وأنَّ الرأْيَ الوثيقَ فيكَ ظاهَرَني وأنجَدَني .

---

(٢) يُعَزّ : يغلب .

(٣) الإصر : الثقل .

(٤) أذاله : أهانه وابتذله .

[١٠٤]

ومن أُخْرى[☆] ، مداعبة :

[من الطويل]

أَلاَ عِمْ صَباحاً أيُّها الطَّلَلُ البالي[١] !

وأعْزِز عليَّ أنْ أضربَ هـذا لِوُدّك مثـلاً ، وأدعـوه ـ على قُرب العهـدِ ـ طلـلاً ، لقـد انتكثَ عَهْـدُنـا عن كثَب ، و « آلَ مـا كانَ من عُجْبٍ إلى عَجَبِ » ، « ولنْ يلبثَ الواشُونَ أن يَصْـدَعُـوا العَصـا » ! فَسَقى اللهُ ـ أبا الْحَسَنِ[٢] ـ أيّامَ صفائك ما يَسُرُّها ، ومَنَّ بعطفةٍ تُعِيدُهـا وتَكُرُّهـا . ذلـك إذا انْجلَت هــذه العَمايـــة[٣] ، واتَّفَقَتْ وِلايـــة ، « وللهِ في كُـلِّ شَيْءٍ آيَةٌ ... »[٤] .

واهاً ! أيْنَ ذاكَ النظامُ وما نَسَق ، والزَّمانُ وما وَسَق[٥] ؟! لقـد وَلّى

---

[١٠٤]

(☆) فصول مختارة من رسالة .

(١) صدر بيت لامرئ القيس ، ومطلع قصيدة له (في ديوانه : ٢٧) وتمامه :

☆ وهل يَعِمَنْ مَنْ كانَ في العُصُرِ الخالِي ☆

(٢) أبو الحسن (؟) .

(٣) العَماية : الغواية واللّجاج .

(٤) من قول أبي العتاهية (ديوانه : ١٠٤) :

وفي كل شيءٍ لـــه آيـــةٌ ... تـــدلُّ على أنَّـــهُ واحِـــدُ

(٥) وسقه : ضمّه وجمعه وحمله .

حَميداً ، وذهَبَ فَقِيداً ، « كَذا كلُّ أيّامٍ يَعُدْنَ ذواهِباً » ، مَـذاهبَ شتّى ، وسير لا يُحْصَرُ بـ (حَتّى) ، وإخـوانٌ فَرّقَتْهُمُ النَّـوى أيْـدِي سَبـا[٦] ، بين شمال وصَبـا . صَفِيّ حَـجَّ[٧] ، وآخر جَلَّـح[٨] في الإقـامَـةِ ولَـجّ ، وعَـزمَ أنْ يَفْجَعنا بأُنسهِ ولا يزيّنَنا بنفسه !

هذه ـ أعَزَّك الله ! ـ فقرةٌ من فِقَر الأعرابِ تُسْتَعْمَلُ في هـذا البـاب ، وثالثٌ تولّى بِرُكْنِـه ، واقْتَصَر على مَكِنِـه[٩] ، ومُخـالفـة وَكْنِـه[١٠] ، يَكْتُمُ إيمانَهُ ، ويَتَّخِذُ جُنَّتَـهُ أيْمانَـهُ[١١] ؛ ورابعٌ أشرفَ على خَطر ، ولم يَرْبَعْ على وَطَر[١٢] . ذاق الموتَ لا مُشْتَهياً ، فاتَّعظَ مُنتَهياً :

يُبـاشِرُ الأمْنَ دَهْراً[١٣] وهـو مُخْتَبَـلٌ ... ويَشْرَبُ الْخَمْرَ حَوْلاً وهـو مُمْتَقِـعُ[١٤]

أستغفرُ اللهَ ! قَدْ أزْمَع أوبةً ، وشَرَع تَوْبَة ، ومَأمول نسيجُ وَحْدِه قـد أُدْرِجَ [٩٩/أ] في لَحْـده . عَلّمني الاقتصـادَ فقْـدُهُ ، وأعْـدَمَنِي السُّلْوانَ وَجْـدُه . ولا أسْتَسْقِي لِثَراهُ غَيْرَ نَداهُ :

---

(٦) ذهَبُوا أيدي سَبا : أي تفرّقوا تفرّقاً لا اجتماع معه .

(٧) الصفيّ : الحبيب المُصافي .

(٨) جَلّح : أقْدَم ومَضى .

(٩) المكْنُ والْمَكِنُ : بيض الضبّ والجرادة ونحوهـا . واستعير المكن للطير في مثل قولهم : « أقرّوا الطّيورَ على مكَناتِها » .

(١٠) الوكن : عش الطائر في جبل أو جدار ، واسم لكل وكر .

(١١) في سورة المجادلة (٢٢/٥٨) : ﴿ اتَّخَذُوا أيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ .

(١٢) من رَبَع : وقَفَ وتحبّس .

(١٣) (الأمن) هكذا من النصّ .

(١٤) امْتُقِعَ : تغيّر لونه من حزن أو فزع .

وإنْ فـــارَقَتْنِيَ أمطـــــارُهُ فـأكْثرُ غُـدْرانِهـا مـا نَضبْ

ومنها :

وَمَـا حَنَنْتُ مَـذَلَّـة ، ولا عَـدِمْتُ في هـذه الهَـواجرِ ظُلَّـة[١٥] ، أَلتحفُ بُرُودَها ، وأَرتَشِفُ بَرُودَها[١٦] ، وأَعافُ إلا أَن يُجَأجَأَ بي[١٧] وُرودُها ، أمَـا وقديمِ ذِمامِك ، وكريمِ لياليكَ وأيَّامِك ، لقـد فـارقتُ ضَنينـاً ، وَغـادرتُ في المنهـلِ مـاءٍ مَعينـاً ، وأُقسمُ لا شَرِبْتُـهُ مَقْطُوبـاً[١٨] ، ولا عُـدْتُ إلاّ مَخطوباً ،

ومنها : هذه المَناديحُ[١٩] فيحٌ ، وعَصا التَّسْيارِ طريحٌ[٢٠] ، إن حَلُمْتَ قرعتُ لـكَ[٢١] إذكاراً أوحَلِمْتَ أيقظتُـكَ إنكاراً ، وَفيهـا لمنِ استَطـارَ واستشرى ، « مآرب أُخرى » ، وإن عُدتَ إلى الأُولى ، عـادَتْ إلى سِيرَتها الأُولى ،

ومنها : فأخبرني أعزَّكَ الله كيفَ سـاغَ خلافُـك ، وترجَّحَ انحرافُـك ، وصلُحَ وقد أمعَنْتَ في كَرَمِ العَهْدِ انصرافُك .

---

(١٥) الهواجر جمع الهاجرة . والظُّلَّةُ : كل ما أظلَّ من شجر وغيره .

(١٦) بُرود جمع بُرد (ثوب) أورده الكاتب على المجاز ، والبَرُود : البارد .

(١٧) جأجأ بالإبل : قال لها جيء جيء ، يدعوها إلى الشرب .

(١٨) قطب الإناء : ملأه . وقطب الشراب : خلطه .

(١٩) الأرض المندوحة : الواسعةُ البعيدة .

(٢٠) من قولهم « ألقى عصا التسيار » : أَقام .

(٢١) من قول الحارث بن وعلة :

وزعمتَ أنـا لا حُلـومَ لنـا إنّ العصـا قُرِعت لِـذي الحلمِ

ومنها : فقَدْ كانَ القَبُولُ مُرصِداً ، والطـالِبُ مقتَصِداً ، فقَنِعَ بخُلَّبٍ كاذب وآلٍ واثِب[٢٢] ، وكيف دارَ الأَمرُ فَلَــكَ الخلـق الغمُر ، والجــلالُ والقَدْرُ ، والفؤادُ والصَّدرُ .

ومنها : في ذكر صديقٍ سُئل عنـه : فـإنَّـه حيثُ المنيَّـةُ مُتْهِمَـةُ الهُجوم ، والحُتـوفُ مُنْقَضَّـةُ الرُّجـومِ ، والسُّيـوفُ دَاميـةُ اللِّحـاظِ ، والحُروبُ دانِيـةُ العِظاظ[٢٣] .

[١٠٥]

وَلَه من أُخْرى[☆] إلى ذي الوزارَتَيْنِ أَبي بَكر بنِ القَصيرَة[☆☆] رَحِمَهُما اللهُ :

ولا زالَ لِلآئذ حَرَماً آمِناً ، وللخائفِ رِدءاً كامِناً ،

---

(٢٢) الآل : السَّراب . واثب : فاعل من وثب .

(٢٣) العظاظ : الشدّة في الحرب .

[١٠٥]

(☆) فصول من رسالة .

(☆☆) أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي ، عُرف بابن القَصِيرة ، من أهل مدينة ولبة من عمل أُوْنَبه . كان من مشهوري أهل زمانه بارعاً في العُلوم مقدّماً في الكتابة والشعر وحُسن الخطّ . اعتنى به ابن زيدون وأدخله في جملة كتاب المعتضد بن عباد ـ على امتناع منه سابق عن الخدمة السُّلطانية ـ ثم استمرّ مع ابنه المعتمد . وخملت حاله في أول دولة المُرابطين ثم قرّبه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

وكانت وفاته سنة ٥٠٨

ووصف عبد الواحد المرّاكشي في المعجب : ٢٢٧ ـ ٢٢٨) أسلوب ابن القصيرة فقال فيه :

« كان على طريقة قدماء الكتّاب من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير =

ومنها :وافيتُها نِضْوَ تـأويبٍ[1] وسُرىً ، وجَريحَ ثكلٍ وأسىً ، وطريحَ « لعلَّ » و « عَسَى » ؛ آمـالٌ سـارَيْتُها نُجومـاً ، فـانقضَّت عليَّ رُجومـاً ، وشَمَمتُها نسيماً ، فَلفَحتني سَموماً[2] ، وشِمْتُها بروقَ مُزنٍ ؛ فأمطرَتني حَريقَ حُزنٍ :

[من الطويل]

خطـــوبٌ إذا لاقيتُهُنَّ رددْنَني جَريحاً كأنّي قَد لَقيتُ الكَتَـائِبَـا !

ومنها : ولمـا صَـوَّحَ[3] الرَّوضُ ، وهُـدمَ ذلـك الحـوضُ ، استرجَعَتِ الأَمصارُ نُزّاعَها ، ونفضَتِ الآمالُ أَطماعَهـا ، وأَضحى الإيـابُ أوفَرَ مغنَم ، والسّلامـةُ مـع الخيبـةِ أجـزلَ نَفـل مُقْتَسم ، وهـا أنـا قَـد أَلْقَيْتُ العَصَـا في جوارِه[4] ، وحَلَلْتُ أملاً وتَعْويلاً بدارِه ، فرأيَهُ في اعتنـاءِ [٩٩/ب] كريمٍ يُذَمّ لي ، ويتكفّل كفالة الضّامن بي .

ومنها : فالحالُ تَقْضِي الآنَ شدّاً ، إن مدّ لي مِن فضْلِه مَدّاً ، ليعلم أَنّي

= التفاتٍ إلى الأسجاع التي أحدثها متـأخّرو الكتّـاب ، اللهم إلاّ مـا جـاءَ في رسـائلـه من ذلك عفواً من غير استدعاء .. » .

(الذخيرة ٢/٢ : ٢٣٩ ، المغرب ١ : ٣٥٠ ، المطرب ٨١ ، الصلة ١٠٤ ، إعتاب الكتـاب ٢٢٢ ، المعجب : ٢٢٧ الوافي بالوفيات ٣ : ١٢٨ ، المحمّدون من الشعراء ٣٥٨ ، خريـدة القصر ٣ : ٣٨٣ ، نفح الطيب ٤ : ٣٦١ ، الإحـاطـة ٢ : ٥١٦) .

(١) النّضو : المهزول ، والتأويب : السَّير نهاراً . والسُّرى : السير ليلاً .

(٢) السّموم : الريح الحارّة .

(٣) صوّح النبت : يبس حتى تشقّق .

(٤) إلقاء العصا : كناية عن النُّزول .

من إجمالِـه ـ أيَّـدَهُ اللهُ ـ على حـالٍ مُسْتَصْحَبَـة ، ومـادَّةٍ غيرِ مَنْـزورَةٍ ولا مُسْتَنضَبَة ؛ وقدْ أَولاني القاضِيانِ أيَّدَهُما اللهُ ما رَجَوتُ تقييدَهُ بشكرِه ، وإثبـاتَـهُ في صَحيفـةِ ذِكرِه ، ليشرُفُ في إنهـائِـه مُنتَهاه ، ويكرُم بتنـاوُلِـهِ العالي جَناه ، ويَتَّسِقَ دُرّاً في نظـامِـهِ ، ويصيرَ شَهـداً في طريقِ كلامِـه ، ورُضابِ أقلامِه ، وحَسْبي من تقريرِ ذلك لـديها ، وتمكينِـه عِنـد كِلَيهما ، مـا يجزي المـاضيَ ، ويقتَضي الآتيَ ، ويجمـع بين الطَّرَفينِ ، ويستـولي عَلى حَـدِّ الزَّمـانَين ، لا زالَ جـاهُـهُ شمسـاً تمتـارُ[٥] الكواكبُ نورَهَـا ، وتَرتقب الأَزاهِرُ طلوعَها وذُرورَها[٦] ، في مواهب لا تُرتَجَع ، وملابِسَ من الكرامـةِ لا تُخلَع ، بحول الله .

[١٠٦]

وَمِنْ أُخرى صَدْرٌ في صِلَةِ رَحِمٍ[☆] :

أُولو الأرحام ـ أعلى اللهُ في مراتِبِ الموفَّقينَ قَـدْرَك ، وأجرى على سُنَنِ الصَّالحين أمرَك ـ فيما يَنْشـأُ بينَهم من تَنَـافٍ وتنـازُعٍ ، ويَؤُولونَ إليـه مِن تكافٍ وتـوازعٍ[١] ، ويتَعـامَلُونَ بـه من تـواصُـلٍ وتعـاطُف ، وتراحُمٍ

---

(٥) الميرة في الأصـل ـ للطعـام ، وامتـارَ الميرة جَمَعهـا . واستخـدمهـا الكاتب مجـازاً لمعنى تقتبس .

(٦) ذرّت الشمسُ ذروراً : ظهرت أوّلَ شُروقِها .

[١٠٦]

(☆) قطعة في الوعظ ، من رسالة .

(١) وَزَع الإنسانَ وغيرَهُ : كفّه ومنعه وحبسه .

وتلاطُف ، كالرَّوضة الْمُعْشِبَة ، والدَّوحَة الأشِبَـة[٢] ، إن تُرِكت ومطـارحَ الهـوَى ، وتشعُّبِ المـوادِّ والقُـوَى ؛ هَـانَتْ من حيثُ عَـزَّت ، وجفَّتْ من حيثُ أثَّتْ[٣] ، وإن صافَحَتْها يدُ التَّهـذيبِ ، ومرَّتْ عليهـا مُـدَى التَّلقيحِ والتَّشـذيبِ ؛ استوَتْ على سُوقِهـا ، وطمَحت في بُسوقهـا ، وتمَّ نَشْـؤُهَـا ، واعتمَّ زهوُها ، ونمت عَرْفاً ذكيّاً ، واسَّاقطت « رُطَباً جنيّاً » .

[١٠٧]

وَمِنْ أُخْرى في إهْداء طِيب[☆] :

أعَـزَّك الله ، لَمَّـا كانَ ألطفَ المعـاني مَـأْخـذاً ، وأقربَهـا إلى الأرواحِ خُلوصاً ومنفَذاً ، مـا هبَّ نَسيمـاً ، وسَرى شَميـاً ، وتنـافَسَتْ فيـه الأنفـاسُ نَشقاً ، وتبارَتْ بِهِ سَبقـاً ، واستخفَّتْـهُ نَقلاً ، ولم تحملْ منـهُ ثقلاً . تجهَّزتُ إليكَ بلَطيمةٍ[١] ، وفأرةِ مِسْكٍ[٢] تاجرٍ بقَسيمـة ، مسـكٌ يحملُ أرَجَ الثُّغور ، ودَعَجَ العُيون الحور ، كأنَّما تـألَّفَ من خِيلانِ[٣] الْخُـدودِ ، وحَلَمِ النُّهـود[٤]

---

(٢) أشِبَ الشجر : اشتدّ التفافُه ، وكَثُر حتى لا مجازَ فيه .

(٣) أثّ النباتُ : تكاثفَ والتفّ .

[١٠٧]

(☆) من رسالة موجهة إلى رجل مجهول الاسم ، والصّفة .

(١) اللطيمة : وعاء المسك .

(٢) فأرة المسك : وعاؤه الذي يجمع فيه ؛ وهو من قول عنترة (ديوانه : ١٩٥)
وكأنَّ فـأرةَ تـاجرٍ بقسيمـةٍ — سبَقتْ عـوارضهـا إليـكَ من الفمِ

(٣) الخيلان جمع الخال : شامة أو نكتة سوداء في البدَن .

(٤) الْحَلَمَة وتُجمع على حَلَم .

[١٠٠/أ] نَبَتَ بين الغدائِرِ السُّود ؛ أو نَضَحَتْهُ ليـالي الوِصـالِ طلاًّ ، وأجْنَتْـهُ سُدَفُها ظِلاًّ ؛ يشقُّ بـالوَهْمِ ، فيرسخُ رسوخَ الفَهْمِ ؛ ويعلقُ بـالأيمـانِ ، فيثبتُ ثبوتَ الإيمان ؛ وسيوجَدُ له في السَّرائر يوم تُبلى[٥] ، شَذًى لا يَبْلَى .

وألويٌّ[٦] من اللُّـدونَـة مَلـويّ ، كأنَّما جمـعَ من اللَّعَسِ[٧] ، أو تـولَّـد من تمنِّي الأنْفُسِ ، يَغنى بـالنّفَسِ عن القَبَس ، يروي عن الْخُلـد فيشـوق ، ويحدّث فيَسوق ، كأنَّ أبا البشَر[٨] صافحَ عيدانَه ، وحمّلهـا العَرْفَ أمـانَـة ، فهي تبرأُ إليكَ من عُهدَةِ حَمْلها ، وتُؤدّيها منكَ « إلى أهلِها » .

وكافورٌ[٩] ، لهُ فَضْلٌ غيرمَكفُور ، كأنما أُشْرِبَتْـهُ الكواعبُ عَلَقـاً ، فلفظَتْـهُ نُحُورُهَا عَرَقاً ، وأسقطتْهُ أغصانُ القدود ورَقاً ، وقد غادرفي الثُّـدِيِّ حُجومـاً ، وأثْمَرها نُجوماً ، كأنَّهُ عن رِضَاكَ تَبسَّم ، أومن صفائِكَ تجَسَّم .

وجاديٌّ[١٠] جـادَتْ بـه الشمسُ وقـد جـادَتْ ، وأهـدَتْـهُ ومـا كادَتْ ، تسلَّمَتْهُ صُبْحاً ، وأسلَمَتْه جُنْحاً[١١] ، وعصبَتْهُ[١٢] عقاراً ، وأدَّته نُضاراً[١٣] .

---

(٥) في سورة الطارق (٩/٨٦) : ﴿ يَوْمَ تُبْلى السَّرائرُ فَما لَهُ من قُوّةٍ وَلا نَاصِرٍ ﴾ .

(٦) الألوى : شجرة تنبت حبالاً تعلق بالشّجر وتتلوّى عليها . وألويّ : نسبة إليها .

(٧) اللَّعَسُ ، واللُّعْسَةُ : سواد مستحسنٌ في اللّثة والشفة .

(٨) آدم عليه السَّلام .

(٩) الكافور : طيبٌ معروف .

(١٠) الجادِيّ : الزَّعفران : ولونه أحمر ضاربٌ إلى الصُّفرة . وقوله جـادَت بـه أيْ (نثرتـه إلى الناس) وقوله : (وقد جادت) أي والشمسُ في آخر رمق من مغيب ذلك اليوم .

(١١) الجِنْحُ والْجُنْحُ : من غروب الشمس إلى وقت اللَّيل .

(١٢) في المخطوطة (عصبته) بالعين المهملة ، وأظنّه (غَصَبَتْهُ) بالغَين الْمُعجمة .

(١٣) العُقار : الْخَمر (وضرب من الثياب أحمر) . والنُّضار : الذهب .

ونَدٌّ ليسَ له نِدٌّ[14] ، من قُلوبِ الطِّيب مستَمَدّ ، قد جُمعَ جَمْعَ التكسير ، وخُلص تخليصَ الإكسير[15] ، إن فُضَّ منــه مثقــالُ الــذَّرة عَمَّ الثَّقَلَيْن ، وفضل عن الدَّارَيْن ، كأنما فُتِقَ بذكائِك[16] ، أو سُرقَ من ثنائِـك ، أجَلْ ! إنَّها أخلاقُكَ عُرِضَتْ عليك ، وبضاعَتُك « رُدَّتْ » إلَيْك ، وأنتَ في قبولها كالنَّحلِ يَجني من شَهْدِهِ ، والجارحِ يأكُلُ من صَيْدِه !.

[١٠٨]

وَمِنْ أُخْرى في إهْداءِ سَفَرْجَلَةٍ مِنْ نَوعٍ حَسَنٍ[☆] ، تقدّم وصفهُ قبل :

وقد بعَثْتُ منهُ ما يقومُ مقـامَ الشَّـاهـد ، ويَنُوبُ عن ثَـدي النَّـاهِـد ، فَدُونكَهَا محلّقةَ البَدْر ، مُخَلّقةَ الصَّدر ، فَشمَّ أنفاسَهَا ، وانزعْ لباسَها ، فقـد لَبسَتِ الْحُسنَ باطنـاً وظـاهراً ، واسْتَوفت الطّيبَ أوّلاً وآخِراً ، كأنَّهـا من شمائِلـكَ طُبِعَتْ ، أو مِنْ فَضـائِلـكَ أُلِّفت وجُمعَتْ ، كـلاّ إنَّهــا بــذكرِكَ غُذِيَتْ ، وعلى سَجَاياكَ حُذِيَتْ .

ومنها : من كلّ ساهرةِ[1] الشَّذى ، قـائمـةٍ عن الأذَى ، دَوْحُهـا لَـدْنٌ ،

---

(١٤) النّدُّ : ضربٌ من النبات يُتبَخَّرُ بعوده . والنِّدُّ (بالنُّون المكسورة) : المِثْلُ والنَّظير .

(١٥) الإكسير : مادّة مركبة ، كانوا يزعمُون أنّهـا تُحَوّلُ المعـادن الْخَسيسـة إلى معـادن ثمينـة (الذهب) وهو أيضاً (الإكسير) : شرابٌ في زعمهم يطيل الحياة .

(١٦) فتَق الدُّهْنَ وغيره : طيّبه وخلّصه بِعُودٍ (طيّبٍ) وغيره ، ومنه المسكُ الفتيق .

[١٠٨]

(☆) من رسالة أفاض فيها في وصف السفرجلة ، وتفنّن .

(١) الأرض السَّاهرة : السريعة النبات .

وفَوْحُها عَدْن[٢] ، من وسائطِ السّلوك ، ونُدَماءِ الْمُلوك ، لو ألفاها جُذَيْمَةُ لاستَغنى [١٠٠/ب] عن مالكٍ وعَقِيل[٣] ، أو ظفِرَ بها بِلالٌ لسلا عن شامة وطَفيل[٤] ، ولم يعبأ بأذخر وجليل[٥] ، أما إنّها لو حلَّت نَدِيّاً ، وتمثَّلَتْ « بَشَراً سَوِيّاً » ، لنَطَقَتْ بالصَّواب ، وأتتْ بالحكمةِ و « فَصْلِ الخِطاب » ، ونثرت في الطبّ دَقائق ، ووضعت في الزّهْدِ رَقائق ، وَلِمْ لا وهيَ تَهدِي للإيمان ، وتدلُّ على الجنَان ، وتحكي طوبى طيباً ، كما أشبَهَ نجيبٌ نجيباً ، وحَسْبُك بها أولى ثَانِيَتُها النَّفْسُ ، وواحدة مُيِّزَ بها الجِنْسُ ، وهاكَها قد تعرَّضَتْ لقَبولِك ، وانفردَتْ كما انفرَدْتُ في تأميلك ، ولا غَرْوَ فالأنف مُتَّحد ، والقلبُ مُنفَرد ، واللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ يَزيدُكَ مِنَ الطيِّبات ، ويَخُصُّكَ بالبركات ، ويُبقيكَ للْمَكْرُمات ، بِعِزّته وقُدْرَتِه .

---

(٢) العَدْن : الإقامة . وبه سمّيت جَنّات الخلُود (جَنّة عدن أي جَنّة إقامة) .

(٣) جُذيمة الأبرش ، ورد ذكره كثيراً في هذا الكتاب متناً وحواشي . و (مالك) و (عقيل) كانا قد جاءاه بعمرو ابن أُخته ، وسألاه منادمته فاتخذهما نديمين أربعين سنة ، حتى فرّق الدّهر بينهما وبينه . قال أبو خِراش الهذلي ، وذكر هذين الرجلين (ديوان الهذليّين ٢ : ١١٦) :

ألم تعلما أنْ قد تفرّق قبلنا ... نديما صفاءٍ: مالكٌ وعقيلُ ؟

(٤) شامَة وطَفيل جبلان « مُشرفان على مَجنَّة ، وهي علَى بريدٍ من مكّة المكرّمة » ، وإشارة الكاتب إلى قولِ بلال ، رضي الله عنه :

ألا ليت شِعري هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادٍ وحولي إذْخرٌ وجليلُ

وهل أرِدَنْ يوماً مياهَ مَجَنّةٍ ... وهل يبدوَنْ لي شامةٌ وطفيلُ

(الروض المعطار : ٣٩٦ ، وأصله في معجم مااستعجم « شامة » و « طفيل ») .

(٥) إذخر (وفي معجم مااستعجم ١ : ١٢٨ : أذاخِر) ثنيّة بين مكة والمدينة .

[١٠٩]

وَمِنْ كِتاب(☆) إلى بعْضِ القُرَشِيِّينَ المرْوانيِّيْنَ(☆☆) جَواباً عَنْ كِتابٍ افتتحَهُ بشعرٍ أُجيبَ عنهُ في رويِّهِ وقافيتِهِ وسائِرِ ما ٱتَّصلَ بهِ منْ نثرِهِ ، وذَكَر فيهِ بَعضَ سَوابقِ الخَيْل :

[من الكامل]

يا مَنْ يَعِزُّ على النُّجومِ نظامُهُ ... حَسَداً فَيفدي الحاسِدُ المحسودا

رُعْتَ الكواكَبَ بالكواكبِ زينَةً ... وهدايَةً وإنارَةً وسُعودا

يهنيكَ ميراثُ الزَّمانِ فإنَّهُ ... ببقائِهِ تَرِثُ الزَّمانَ خُلودا

أَمْ أنْهَبَتْكَ بهِ العَذارى حُسْنَها ... فجلوتَهُ للناظرينَ خُدودا

أَمْ كُنْتَ تعلَمُ سَلْوَتي فبعثتَهُ ... سَكَناً لأَيّامِ الغَرام مُعيدا

أَوْ كانَ عندك أنّ عِندِيَ غُلَّةً ... فَرفَفتَ منهُ ألى الوُرودِ بَرُودا(١)

أَمْ شئْتَ تشريفاً لعُمري بعدَهُ ... فجعلتَهُ والفضلَ ينشأُ عيدا

مَنْ لي بتكليفِ الشَّريفِ فإنّني ... كُلّفتُ شأواً في القَريضِ بَعيدا

من بعدِ ما أعفيْتُ منهُ خواطري ... وركِبْتُ من فكري إليهِ قعودا(٢)

[١٠٩]

(☆) رسالة جمع فيها الشعر إلى النثر .

(☆☆) كنيته (أبو يحيى) كما في الورقة [١٠١/ب] وستأتي .

(١) رفَّ له : سعى في خدمته . والبَرود : البارد .

(٢) القعود : ما يقتعده الرجل للركوب والحمل . لا يكون إلا بكراً ذكراً . (وأنثاه قَلوص) .

ونشَرْتَ من أُصُــــلِ المشيب عَمائِماً وَطَـوَيتَ من بُكَرِ الشبــاب بُرودا

[١٠١/أ] / مَنْ ذا يُساجِلُه تليدَ بَلاغَـةٍ خيرُ البَـلاغَــةِ مــا يكــونُ تَليــدا

ريَّــانُ من مــاءِ البَيــانِ يَمُجُّــهُ والغُرْبُ قـد جَفَّت وحَفَّتِ عُودا[٣]

نَظَمَ الخـلافَـةَ في طريـقِ بيـانِـهِ سَرْداً كما نَظَمَ الحِسَــانُ فَريــدا

واستـلَّ فيـه كُـلَّ مــاضٍ لَهْـذَمٍ مــا ضَرَّه ألاَّ يكــونَ حَـديــدا[٤]

مِنْ كلِّ مَنْ يَغْنَى بَغْربِ لِســانِــه عَنِ غَرْبِ كُـلِّ مهنَّـدٍ تَجْريــدا

قـومٌ لهم فَصْلُ الخِطـابِ وحِكْمـةٌ نَيطتْ عَلى نَحْرِ الـزَّمـانِ عُقـودا[٥]

مُثْرٍ منَ الأَمـلاكِ فَخْراً إنْ يَشَــأ ضَـاهى بهمْ شُهْبَ السَّماء عَـديـدا

نَسَبٌ كأنَّ عليـهِ مِنْ شمس الضُّحى نـوراً ومن فَلَـقِ الصَّبـاحِ عَمُـودا

يــا مَنْ سَقــاني من سـلافَـة نَثْرِهِ صِرْفـــاً وغَنَّى شِعرُهُ تَغْريـــدا

وٱستـلَّ لي عَهْـدَ الرَّبيــعِ فشِمْتُـهُ في طِرسِـهِ غضَّ الفِرَنْـدِ جَـديـدا[٦]

مــا شئتَ من معنىً صقيـلٍ نـوْرُه قـد أُلبسَ التَّـذهيبَ وَالتَّجسيـدا[٧]

ينشـقُّ عنـه الحِبْرُ نُـوراً ســاطعـاً كالنَّجمَ أتلَـعَ في الـدُّجُنَّـة جيـدا[٨]

عَلِـقَ الفَـؤادُ بــهِ كأنَّ مِـــدادَهُ أَمْسى بمحض سَـوادِهِ مَمْـــدودا

---

(٣) مجّ الشراب . طرحه من فمه قريباً أو بعيداً .
ـ وحفّت الأرضُ : يبسَ . بَقْلُها لفقد الماء .

(٤) اللهذم : القاطع من الأسنة والأنياب .

(٥) ناط الشيءَ بغيره ، وعليه : علّقه .

(٦) الطِّرس : الصحيفة .

(٧) ثوبٌ مُجسَدٌ : مصبوغ بالزَّعفران أو العُصفر .

(٨) أتلعت الحسناء : رفعت رأسها تتعرّضُ للناظرين .

وكأنَّما الخَيْـلانُ كانَت ذَوبَـةُ أو نـازَعَ الحَلَمَ العَذارى الغيـدا[9]
أو جَرَّ فيه المسكُ فضلَ ذُؤابَةٍ تَرَكتْ بأسطُرِهِ رُسوماً سُودا
سَاعِدْ فَقَدْ هَبَّ النَّديمُ وربَّما حَلَّ ارتياحُكَ فِكْرَهُ المعْقودا

نعَمْ أَيَّد اللهُ الشريفَ مَحْيَا نَفْسي ، ومَجْنَى سُروري وأُنْسي ، إجابةَ نِزاع، وتَسَوُّرَ انتِزاع ، وأين لي عُدُولٌ عن مَسْلَكِه ، وخروجٌ عن إحاطةِ فَلَكِه ؟ لا جرمَ أَنِّي في قبضَتِه رَهين ، وتحتَ شُعاعِه دَفِين ، وبمَوْجِه مُلتَطِم ، وبُغبارِه مُلْتَثِم ، ومَنْ لي بانْسِكابٍ[10] ، وإسبالِ سبالٍ[11] وإخطارِ الخطَّار[12] ، وتوجيهِ الوجيه[13] ، وتبريزِ العَسْجَدِيّ[14] وعَصَا الأزدِيّ[15] ونعامةَ بنِ عُبَاد[16] ، وابن النَّعامة[17] لابن شَدّادَّ

---

(٩) الحَلَمُ : جمع الحَلَمة ، وهي الثدي (القسم المعروف) .

(١٠) سكاب : فَرس عبيدة بن ربيعة من تميم (أسماء خيل العرب وأنسابها للغُندجاني : ١٢٤) وسمي بهذا الاسم أكثر من فرس (أسماء خيل العرب... ص : ١٢٩) .
ـ والاسم : سكَاب مثل سَحاب . ويُقال أيضاً : مثل شدّاد .

(١١) لم يرد غير (سَبل) . (الغُندجاني : ١٢٣ ، وابن الكلبي (ط بغداد) : ٢٧ ، والحلبة للصاحبي التاجي : ٤٧

(١٢) الخطّار اسم لأكثر من فرس مشهور ، مثل : فرس حذيفة بن بدر ، وبشر بن عمرو (الغُندجاني : ٨٦ ، ٨٧) .

(١٣) الوجيه اسمُ لأكثر من فرس مشهور (الغُندجاني : ٢٥١ ، ٢٥٥) .

(١٤) العسجديّ : فرسٌ لبني أسد (الغُندجاني : ١٦٧) .

(١٥) العصا من الأسماء المشهورة المكررة للخيل العتاق . ومنها عصا جذيمة الأبرش وعصا شبيب الطائي ، وعصا عوف بن الأحوص..الخ (الغندجاني : ١٦٧ ـ ١٦٩) .

(١٦) النعّامة : فرس أُبيّ بن خلف أو مسافع الضّمري . وانظر استدراكات محقق أسماء الخيل وأنسابها للغنُدجاني : ٢٤٤ ، و ٢٥٠ ، وارجع إلى ٢٤٣ ـ ٢٤٤) .

(١٧) في كتاب الغندجاني ٢٥٠ ابن النعّامة فرس لعنترة بن عمرو بن معاوية .

[من الكامل]

[١٠١/ب] لا أسألُ الركبانَ عَنْكِ تَوقُّعاً
حَسبي وحَسْبُـك ظبيُ ذَاكِ المضْمَرِ[18]

وَلَقَـدْ أَحيـدُ عَنِ السُّرورِ وَرُبَّما ... وَقفَ البَشيرُ بـهِ وُقـوفَ الْمُنْـذِرِ
لَمْ يلْـقَ لي أمنٌ فقـد غـادرْتِني ... أَرتـابُ مِنْ حَـذَرٍ بمـا لم أَحـذَرِ
يـا نَبْـأَة وَلَجَتْ عَليَّ مسـامِعِي ... رُفِعَ الحَجابُ وإذْنُهُ فَتَسوَّري[19]
سِيَّانِ أنتِ لـدَى الفُؤادِ وَطَعْنَـةٌ ... خَلصَتْ إليـهِ من الكَميِّ المغْتَري[20]
قد كنتُ آنَفُ من حَـديثٍ مُفتَرًى ... فودِدْتُ أنَّكِ من حَديثِ المفْتَري
أَوْ لَيْتَـكِ ٱسْتـوطَنْتِ برزخَ ظنَّـةٍ ... بينَ اليَقينِ وبَين شـكِّ المُمْتَري[21]
وإذا وجـدتَ تمتّعـاً في بـاطِـلٍ ... جـاءتـك كلُّ حقيقـةٍ في عَسْكَرِ
سكنَ الفضاءَ وأَسْفَرَتْ عَـزمـاتُـهُ ... عن مصرعِ الـدُّنيـا وثُكلِ الأَدْهُرِ
قـادَ الجيـادَ إلى الجيـادِ وإنَّما ... قـادَ النُّفـوسَ إلى الحِمَـامِ المحْضَرِ
فتكشَّفَتْ هَبَـواتُهـا لعيـونِنـا[22] ... عن واضحٍ طلْـقِ الأَسرَّةِ أزهَرِ[23]

---

(١٨) هذه القصيدة تذكر بقصيدة مشهورة لابن هانىء الأندلسي (ديوانه ١٦١) : ومطلعها :
فُتقت لكم ريـحُ الجِـلادِ بعنبر ... وأمـدَّكُمْ فَلَـقُ الصَّبـاحِ المُسْفِر
وقد تداول الأندلسيون هذه العَرُوض إعجاباً ومعارضة .

(١٩) النبأة : الصوت الخفيّ ، أو الخفيف .

(٢٠) غَري فُلانٌ : تمادى في غضبه .

(٢١) امترى في الأمر : شكّ .

(٢٢) الهَبوة : الغبرة والجمع : هبوات (يعني غبار المعركة) .

(٢٣) يقال زهر الوجه أي تلألأ وأشرق ، فهو أَزْهر ، وهي : زهراء .

بَطَشَ الرَّدى منه بمُغتالِ الرَّدَى ... فأُديلَ عَدْلاً قَسْوَرٌ من قسْوَرِ[٢٤]

قَدَرٌ رَمى قَدَراً وكلٌّ صائبٌ ... إنَّ السِّهام إلى السِّهام لَتَنْبَري

أنّى يَحِيدُ الموتُ عن مُتَعَرِّضٍ ... للموتِ مفتضِحِ الشُّعاعِ مُشَهَّرِ

حَسَرَ الدِّلاصَ وفوقهُ من بأسِهِ ... حَصْدَاءُ موثَّقةُ العُرى[٢٥] لَمْ تُحْسَرِ[٢٦]

هَاتا لِداوودٍ وتِلْكَ لِرَبِّهِ ... فاختارَهَا وَ سَخا بذاكَ المِغْفَرِ[٢٧]

إيهٍ أبا يحي وأنتَ عُطاردٌ ... إلا تكُنْهُ فأنتُما من عُنْصُرِ

أَنْفِسْ بنفسٍ في الحِفاظِ كريمةٍ ... أَمْسَيتَ بائعَها وربُّكَ مُشترِ

أَحْيَيْتَها فأَمَتَّها مُتَطَهِّراً ... صلّى الإلهُ عليكَ من مُتَطهِّرِ

أَنْتَ الخَبيرُ عن الجِنانِ وإنَّهُ ... لولا المهابَةُ قُلتُ شَوقاً : خَبِّر !

إلاَّ تُخَبِّرْني فإنَّ « براءةً » ... قَدْ أخبَرَتْ واللهُ أَصدَقُ مُخْبِرِ[٢٨]

---

(٢٤) أُديل فلان من فلان : نُصر . والقسور : الرّامي ، والصياد ، والأَسد ، واستعير هنا للشجاع .

(٢٥) حسر الدّلاص : أي خلع الدرع (وهي الدرع الليّنة) . والحصداء من الدروع : الصلبة الشديدة المحكمة .

(٢٦) في الأصل (لم تحصر) . ولم أجد معنى مناسباً لفعل (تحصر) هنا بالصّاد . وأظن الناسخ سها وكتب الفعل بالصاد بدل السِّين . وفي البيت ردَّ للصدر على العَجُز ، وحبكٌ للمعنى .

(٢٧) يقال في الدّرع إنها نسج داود . والمغفر : زرد من الدرع يكون تحت القلنسوة .

(٢٨) إشارة إلى الآية ١١١ من سورة براءة (التوبة ٩) : ﴿ إنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤمِنْينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... ﴾ .

[١٠٢/أ] [قَدْ فُزتَ][29] بالحُسْنَى وثَمَّ زيادةٌ
قـــد أُبهمتْ لَـــكَ فـــاْقترِحْ واْستَفْسِرِ

قـد كانتِ الـدُّنيـا تَضيقُ بَهمَّـةٍ ... لـكَ لَمْ تَجِـدْ مِن فَوْقِها من مَظْهَرِ
فـالآنَ قـد غَصَّت بـأولِ نفحـةٍ ... بهرَتْ مُنـــاكَ بُجْمَـلٍ ومُفَسَّرِ
أمـا عِـدَاك فـإنَّهم قـد سَلَّمـوا ... من كافرٍ حَنِـــقٍ ، ومَنْ لم يَكْفُرِ
مَـالَتْ عليهمْ مَعلَـواتُـكَ مَيْلَـةً ... خَضَعُوا لها لَيْسَ الصَّباحُ بمُنكَرِ[30]
أتُراهُمُ يَرْجُـونَ منـــكَ تطـوُّلاً ... أم يَحْـذَرُون ومَنْ يَمُتْ لا يَحْـذَرِ
لا بَـلْ هُـوَ الإجْماعُ مَنْ يَتَعَـدَّهُ ... فكأنَّما اْستهـــواهُ خَبْـــلٌ مُعْتَرِ
وَلَقَـدْ ذَكَرْتُـكَ والهُمُومُ تنُوشني ... سَهَراً يُـــذكِّرُني بـوَقْـعِ السَّمْهَري
واللَّيـلُ قـد لَبسَ الحِـداد كأنَّما ... دَهَمَتْـهُ حـادِثَـةٌ بفَقْـدِ المشْتَري
وكأنَّما فَطرَ المســامعَ أَعيُنـــاً ... بظَـلامِـهِ فـالأُذْنُ عَيْنُ المبْصِرِ
وكـــأنَّني من جنْحِــهِ في زاخرٍ ... أخشى الرَّدى من مَـوجِـهِ المتَنَمِّرِ
يَبْـدو بـهِ حَبَبُ النُّجومِ وتـارةً ... يَخْفى بمضطربِ الـدَّيـاجي أَكْـدَرِ
وكأنَّ شخصَـــك في الضَّمير سريرةٌ ... أَوْ مُنيَــةٌ تَـأبَى على المتصـوِّرِ
يُـــدنيــه قُرْبُ العَهْـدِ حتى رُبَّما ... نـاجيتُـه تَرحـاً بمـا في مُضْمَري
لـو حَـلَّ لي ذاكَ النَّجيعُ ذَخرْتُـهَ ... مُتَمسِّكاً منـــه بِمِسْـــكٍ أَذْفَرِ[31]

---

(٢٩) مـا بين معقوفتين محوّ تقريباً من السطر الأول من الورقة [١٠٢/أ] ، وهو مستظهر مقدّر .
- وفي سورة يونس ٢٦/١٠ ﴿ لِلَّذِيْنَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ .

(٣٠) المعالي واحدها معلاة ، ومَعْلُوَة .

(٣١) يقال : مسك أَذفر وذفر : جيّد إلى الغاية .

وكفى بقبركَ أنَّ تربَـةَ أرضِـهِ مَفْتـوقَـةٌ من مِسكَـةٍ أَوْ عَنْبَرِ

يـا غَيثُ يمِّمْ راشِـداً سَرَقُسطَـةً[٣٢] واسكُبْ دموعي في السَّحاب المُطِرِ

وانشُرْ على أُفُـقِ المصَلّى رحمـةً واجرُرْ بهـا ذَيْـلَ الرَّبيعِ الأَخضَرِ

فَهُنـاكَ لو تَـدْري أَخٌ لـك بـل أبٌ إنَّ الغَمامَ لَمُغْرِقٌ في الأَبْحُرِ

لا تُنكرِ النُّعمى كـلانـا ثـاكلٌ فتعـالَ أُعْـذِرْ في البُكاءِ وتُعْـذِرِ[٣٣]

لـكَ في دُمـوعِ العـالمينَ ذخيرةٌ وبكلِّ عَينٍ ديمـةٌ فـٱسْتَغْـزِرِ

[١٠٢/ب] وإذا تناوَحَتِ الرّيـاحُ فعندنـا
نَـوْحٌ يُفرِّق شَمْلَهُنَّ ويَمْتَري[٣٤]

وَإذا نفَرْنَ ففي الصُّـدور ضَمائرٌ وعـلامَ نُضمِرُهـا إذا لم تُظهَرِ

كنْ يـا فـؤادي رَحْمَـةً من عَبْرةٍ تَـدْمَى ولا تـكُ قَسْوةً من جَـوْهَرِ

فـاللهُ قَـدْ ذَمَّ الـذينَ قَستْ قُلـو.....بُهمُ ومـا يَـذْمُمْ بمقْلِيَـةٍ حَرِ[٣٥]

أَوَلسْتَ ممَّـا أنبتَتْ آلاؤهُ فـأَثِبْ صَنـائعَـهُ ثـوابَ المثمِرِ[٣٦]

كم نعمـةٍ هبَّت عليـك نَسيمُهـا أَسْرى وأَلطَفَ من خَيـالِ البُحْتُري[٣٧]

---

(٣٢) سرقسطة . Zaragoza عاصمة الثغر الأعلى بالأندلس . سقطت سنة ٥١٢

(٣٣) أعذر : أبدى عُذراً .

(٣٤) تنـاوحت الريـاح : اشتـدّ هبـوبُهـا . وامترت الريـحُ السحـاب أي استخرجت مـاءه واستدرّته .

(٣٥) إشـارة إلى أكثر من آيـةٍ في هـذا المقصـد ، في البقرة ٧٤/٢ والأنعـام ٤٣/٦ والحـديـد ١٦/٥٧ . والمقلية : الكراهية .

(٣٦) الآلاء : النِّعَمُ .

(٣٧) اشتهر أبو تمام بحديث الطَّيف في الشعر ، وتـابعـه البحتري ، وكَثُر هـذا في شعره حتى قيـل : طيف البُحتري أو : خيـالـه . وعرض الشريف المرتضى في كتـابـه (طيف =

وخلائِقٍ زُرقِ النِّطافِ وردتَها أَصْفى وأبرَدَ من مَعينٍ كَوْثَرِ[٣٨]
يا مَوْرِداً ولّى وأَعقَبَ غُلَّةً في الصَّدْرِ مُنْذُ وَرَدْتُها لم أَصْدُر
أَسْتَوْدِعُ الرَّحمن منكَ ذَخيرةً قَبَضَ الزَّمانُ بها يَدَيْ مُسْتَأْثِرِ

[١١٠]

وَمِنْ تَعْزِيَةٍ في قَيْنَة :

الدنيا ـ أعزَّكَ الله ـ جَفَاءٌ ومَبرَّة ، ومساءَةٌ ومسَّرة ، وسالٍ وعاشِق ، وقالٍ[١] وَوَامِق ، ومَيْتٌ ومَولود ، ومَعْدومٌ ومَوجود ، ولقاءٌ وفِراق ، وغنمٌ وإيْرَاق ، أناتُها إعْجال ، وخُطوبُها ٱرتجال ، وحُروبُها سِجال :

ومَنْ ظنَّ ممَّن يُلاقي الحروب بألاَّ يُصَابَ فقد ظنَّ عجزاً

وأَنَّ أَولى مندوبٍ ، بِجرُوحٍ مؤلمةٍ ونُدوبٍ ، وثُكلٍ يشنُع ويشيع ، وَحُزن لا يرعَوِي ولا يريع[٢] ، وأسىً يَستولي على النفوس ، ويَنثرُ أفلاكَ الكُؤوس ، ويقلبُ نِصَبَ التَّأْنيس : مَنْ كانَتِ القُلوبُ تستلم بَنانَهُ[٣] ،

= الخيال) لنماذج من خيال البحتري (ص : ٢١ وما بعدها) . ومنه قول البحتري عن الخيال واصفاً لطافة طروقه :(ص : ٣٠) .

أهوى فأسعف بالتحية خلسة والشمس تلمعُ في جناح الطّائر

(٣٨) الماء المعين : الجاري (كالنهر) . والكوثر : الكثير (الغزير الماء) .

[١١٠]

(١) قال اسم فاعل من قلى : كره وأبغض . و وامق : اسم فاعل من ومق : أَحَبّ .
ـ والبيت مستشهدٌ به من شعر الخنساء (ديوانها : أنيس الجلساء : ٤٨)

(٢) راع يريع رُواعاً : رجع إلى موضعه .

(٣) من قولنا استلم الحجر الأسود : تناوله باليد أو بالقُبلة ومسحه بالكفّ . والكلامُ مُستعار .

والأسماعُ تعبُد إحسانَه ، والسِّحر يستمدُّ من نغَمه ، ويُعتَدُّ من عَبيدِهِ وخَدَمِه ، في حيث تعز الخدود ، ثُمَّ تهونُ وتقشعرُّ الجُلود ، ثم تلينُ والدَّهرُ يَسخُو بأنسِه فيُغضي أدباً ، ويرضى أرباً ، واللَّيْلُ يجودُ بنفسِه فيقضي طَرَباً ، ويمضي هَرَباً ، فمن نَشاوى آذان ، وقتلى إحسان ، وصرعى مثالثَ ومثان ، وثقيلٍ أوّلٍ وثان ، تلعب بهمُ الأَلحان ، لَعِبَ الشمائل بالأَفنان ، عن الشَّمائلِ والأَيْمان .

ومنها : إنَّك أصِبْتَ بساطعةٍ [١٠٣/أ] قَمرِيَّة ، أوساجعةٍ قُمْرِيَّة ، انقضَّت عليها المنيَّةِ عُقاب ، فخضعَتْ للأنس رِقاب ، وَحطَّ عن الوحشةِ نِقاب ، فلا كبِدَ إلا مَفطورة ، ولا أُذنَ إلاّ موقورة(٤) ، ولا سلوةَ إلاّ مَحظورة . أشهدُ لَقَدْ فضّتْ دَمْعِي وختَمَتْ على سَمْعِي ، ونُعِيَ لي بنعيها السُّرور ، وعاودني بيومها المحْذُور ، على جرحٍ ما اندَملَ بَعْد ، ولا طالَ به العَهْد .

ومنها : وقَد كان جنابُك ـ لا رِيعَ حِماهُ ، ولا ذُعِرت مَهَاه ـ لنا ـ معشَرَ الشائِمِينَ لبَرْقِك ، المُنْتَجعينَ لوَدْقك(٥) ـ مَألفَ كرا[ما]ـة ، ودَارَ مقامَة ، يسعد فيها النُّطقُ والحَال(٦) ، ولا يحفِزُ الأضيافَ عنها تِرْحال ، لو حلَّتْها رَقاشِ لنسيَتْ عَمْراً وطَوْقَه(٧) ، أو أَلَمَّتْ بِها الخَنْساءَ لسَلَتْ صَخراً

---

(٤) موقورة : ثقيلة السَّمع .

(٥) الودق : المطر .

(٦) يأخذ من قول أبي الطيب (ديوانه بشرح الواحدي : ٧٠٤)

لا خيل عندكَ تُهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم تُسعد الحالُ

(٧) هي رقاش ابنة مالك بن فهم بن غنم أخت جذيمة الأبرش . تزوجّت عديّ بن نصر ، وأعقبت منه أبنها عَمْراً . وهو الذي قرّبه جذيمة وطوّقهُ . ولها خبرٌ مسطورٌ .

وشوْقه[٨] ، أو شاهَدَها مُتَمِّمٌ لما أَبَّنَ هالِكاً ولا نَدَبَ مالِكاً[٩]

ومنها : فَخَالَفَنا إليهِ دَهْرٌ يَنْقُضُ ما تَمَّم ، ويدارك ما تيَّم .

ومنها : وإن نفذَ فلمشيئةٍ وتسخير ، وإن أَوْدَى فبالبزِّ[١٠] الأخير ، وإن كانَ لا أخيرَ في بزِّك ، ولا صغير ممَّنِ انتمى إلى جَلالتك وعِزِّك ، لكن كما ينسب الوِرْدُ من الخِمْس[١١] ، والخِنصر من الخَمس ، والقُرحة[١٢] من الغُرَّة[١٢] ، والدينارُ من البدرة[١٣] ، والله عَزّ وجْهُه يعوّضك منها ثواباً ، ويجعلُها بينَكَ وبين الرَّزايا حِجاباً ، ويقطَعُ بها عنكَ عُلَقَ[١٤] الأحداث ، وألسنة الأَجداث ، وَيُخلِي من دُيونِها ذِمَمَك ، ويرفعُ عن تقاضيها هِمَمَك ، حتّى لا يكونَ لها مَدى الدَّهرِ قِبَلَكَ دَرَكٌ[١٥] تتعقّبُه ، ولا حَظٌّ تترقَّبُه . في ازديادٍ من مواهِبك ، واعتلاءٍ من مراتِبك وتأتٍّ من مَطالِبك .

---

(٨) خبر الخنساء ورثائها في أخيها (صخر) مشهورٌ .

(٩) المقصود هنا متممّ بن نويرة ، وأَخوهُ مالك . وكانا شاعرين . وكان مالك فارساً سيّداً في قومه . وقتل في حرب الرّدة في خبر له مع خالد بن الوليد رضي الله عنه .

(١٠) البَزّ من بَزّ الشيء : انتزعه .

(١١) الخِمْسُ : أن ترد الإبل الماء في اليوم الخامس من وُرودها السَّابق فيكون بين الوردين ثلاثة أيام .

(١٢) القُرحة : بياضٌ بين عيني الفرس مثل الدرهم الصغير فما دونه . والغرّة : بياضٌ أكبر من الدرهم في وسط الجبهة .

(١٣) البدرة : كيس فيه مقدارٌ من المال يُتَعَامَلُ به ، ويقدّم في العَطايا .

(١٤) العُلَقُ : الجمع الكثير .

(١٥) أي حتى لا يكون لها ماتُدركه .

[١١١]

وَمِنْ أُخرى(☆) إلى طَبيبٍ تَناوَلَ عِلاجاً :

إنْ كانَ ـ أعزَّك اللهُ ـ فيما يَسنَحُ من فوائـدِ العُمر ، ويَطرأُ من مواهبِ الـدّهر ، ومـا يَرتفعُ قَـدْراً عن مُجـازاة ، ويرجُـحُ فضـلاً بكل مُـوازنَـةٍ وموازاة ، فما كان للحياة قواماً ، وللصحّة سدّاً ونظاماً ، وللعافيـة وبَرْدِهـا مستَديماً ، ولأمورِ الدّين [١٠٣/ب] والدُّنيا مُقيماً .

أجل ـ أعزَّك الله ـ إنَّها نفس تعلَقُ بها الْحَوادثُ سَريعاً ، ومن أحْياها فكأنَّما أحيا النَّاسَ جَميعـاً(١) ، أمـا إنّهـا لاتُحْلَبُ من دَرَّة ، ولا تُنحَتُ من ذَرَّة ، ولا تُنـالُ كسبـاً ، ولا تُستَفـادُ غَصْبـاً ، ولا يَصنَعُهـا الإسكاف فيما يَصنَع ، ولا يطبَعُهـا القَيْنُ فيما يَطْبَـعُ(٢) ، ولـذلِـكَ قـالَ أبـو فِرعـون التَّميمي(٣) :

ومـا بيَ شيءٌ في الـوَغَى غيرَ أنَّني ... أخـاف عَلى فَخَّـارَتي أنْ تَحَطَّما

وَلو كُنتُ مُبْتاعاً مِن السّوق مِثْلَها ... لدَى الرَّوع مـا بـالَيْتُ أنْ أتَقَـدَّمـا

---

[١١١]

(☆) رسالة إلى صديق له طبيب .

(١) من معنى الآية الكريمة في سورة المائدة ٣٢/٥

(٢) طبع السيف والسّنان : صاغه .

(٣) البيتان من أربعة أبيات غير منسوبة في العقد (١ : ١٥١) وهما لأبي دلامة في الأغاني ١٠ : ٢٨٠ وهما في التذكرة الحمدونية ٢ : ٤٨٥ منسوبـان لأبي دلامـة أيضـاً ، وفي غرر الخصائص الواضحة : ٣٦٠ له ، وفي مجموعة المعاني : ٤٣

وقالَ أبو دُلامَة[٤] :

وَمــا ليَ إنْ أطَعتُــكَ من حَيــاةٍ   ومــا ليَ غَيْرُ هــذا الرَّأْسِ رَاسُ !

ومنها : وإنَّ مَنْ أنشطَها من عقالِها[٥] ، وبالَغَ في شَحْذِها وصِقالها ، ورتَّب من تزاحُمِ الأضدادِ تخفيفَها ، وهذَّبَ من دَرَن الأخلاطِ جَلاءَها وتنظيفَها[٦] ، حتى شفَّ جوهرُها ، وخلصَ خُلوصَ التِّبرِ عُنصُرُها ، وأشرقَتْ شمسُها بعد الكُسوف ، ونَديَ زهرُها بعدَ الجفوف ، وانبعثَتْ قُواها الخامِدَة ، وتوقّدت جُذاها الهامِدَة ، وتحرَّك من شَهواتِها ما سَكَن ، وظَهَر من فِطَنِها ما بَطَن ، فآضَتْ[٧] لا تحجبُ إدراكها فحمةُ لَيْل ، ولا تمحُو اقتفارَها هَجْمَةُ سَيْل ، تردُ ماءَ الغيثِ في مُزنِه ، وتقطفُ عازبَ[٨] الحِلْمِ في حَزْنِه ، وتَغْشى الأسرارَ في أكامِها[٩] ، والحفائظَ[١٠] في آجامِها ، والحادِثاتُ في أوْهامِها ، والخواطرُ في أوْكارِها جاثِمَة ، والعزائمُ في

---

(٤) هذا البيت ثاني بيتين في حماسة أبي تمام (٤ : ١٨٤٠) أوردهما في باب المُلَح . ولم ينسبها . ونسبها التبريزي إلى حبيب بن المهلب ، والمبرد في الكامل إلى حبيب بن أوس . واحتمل التبريزي أن يكونا للأعور الشني ، وهما في التذكرة الحمدونية (٢ : ٤٨٥) بغير عزو ، وفي غرر الخصائص : ٣٦٠ ونسبها إلى حبيب بن عوف .

(٥) أنشط الدابة من عقالها : أطلقها منه .

(٦) الجلاء : الصقل .

(٧) آض : عاد ورجع .

(٨) عَزَب الشيءُ : بَعُد وخفي ، فهو عازب .

(٩) كُمّ كل نَوْر : وعاؤه . والأكام هنا مستعارة .

(١٠) الحفائظ جمع الحفيظة : الغضب والحميّة .

مكامِنِها جاثية ، لمسترقٌّ لها إلاّ أن يَرِقّ ، ومُرتهنٌ لحياتها إلاَّ أن يَمُنّ ويُطلِق ! بلى إن سمحَ بفدائِها ، وطابَ نفساً عَن ولائِها ، فيَدٌ بَيْضاء تُستَلَم ، ودِيَة غرَّاء إليه تُسلَّم .

فإن تجافيتَ ـ أعزَّك الله ـ عن البدرَة ، فعفوٌ عَنْ قُدْرَة ، وسَخاءٌ بحقٍّ قد وَجَب ، ودَيْنٌ في الذِّمم قد ترتَّب ، ونُزولٌ على حكمِ الشَّرعِ ، في استباحَةِ البُضْعِ ، واستحلال العضوِ وتكليفٌ يُحذي على الوُسع[11] ، وتثوّبٌ عن أجزاءِ التأليفِ ، وتفضلٌ بوضعِ العِلمِ الشريفِ . وقد وجهتُ عمّا اختصَّ بي من الأدويةِ الفاضِلة ، والأشربَة [١٠٤/أ] المواصِلة ، ما يكونُ قبولُه زائداً في امتنانِك ، وإحساناً مع إحْسانِكَ إن شاءَ الله .

[١١٢]

وَمِنْ أُخرى(☆) مُقْتَضَبَة في مُداعَبَةِ عَلى لِسانِ بَغْلٍ :

أدامَ اللهُ لكَ رفعَةَ الحال ، وبَسْطَةَ الإقبال ، وعادة الإجمال ، ولا زِلتَ يشكرُكَ صامتٌ وناطِق ، وصاهِلٌ وناهِق[1] ، وبَطيءٌ وسابِق . قد علمتَ ـ أعزَّك اللهُ ـ فضيلةَ البِغال ، واضطِلاعَها بالأثقال ، وأنها في

---

(١١) أحذى فلاناً : أعطاه مّا أصاب من غنيمة أو قسمة .

[١١٢]

(☆) رسالة مُداعبة .

(١) الصهيل : صوت الخيل ، والنهيق : للحمير ، وإشارة الكاتب لطيفة ، فالبغل متولّد منهما .

الكِتابِ العزيزِ مذكورَة[٢] ، ولتقريبِ الشقَّةِ البَعيدَةِ مَذخورَة ، تسيرُ سيرَ الأفلاك ، وتختصُّ بركابِ الأملاك ، لا سيَّما ما اكتُنِزَ خلقه اكتِنازي ، وأُفرغ في قالبي وصُنِع في طِرازي ، كالبيدقِ[٣] الصَّدريّ ، والشَّوذَقِ اللَّبْليّ[٤] ، فلا تثبتُ له مسافة ، ولا تنحلّ منه حَصافَة[٥] ، ولا يأخُذ منهُ ضُمور ، ولا يخونُه في النَّشاطِ ضَمير ، قَد قُدِّر أحسنَ التَّقدير ، وصُوِّر أجملَ التَّصوير ، ولم يَضْطرِبِ اضطرابَ البَعير . يكادُ ينخرطُ معَ السِّهام ، ويخطرُ معَ الأوْهام ، ويُتصوَّر لرشاقةِ الْحَجم ، في نجومِ الرَّجم . كأنَّه في دائرةٍ بُركار[٦] ، أو هَالة أقمار ، يقذَفُ منه الرَّكضُ بجَنْدَلةٍ ملمومَةٍ ، وينظرُ منهُ البصَرُ في مرآة مصقولَة .

ومنها : هذهِ ـ أعزَّكَ اللهُ ـ نُكتٌ من صِفاتي ، ونُبَذٌ من وَصَفاتي ، وعندي إلى ذلك أدَبٌ أتميَّزُ به من الجنسيّة ، وأرتفعُ عن الأعراقِ الحِماريّة ، فقد قالَ الأوّل :

وكيفَ يجيءُ البغلُ يوماً بخصلَةٍ   تَسُرُّ وفيهِ للحِمارِ نَصيبُ[٧]

---

(٢) في سورة النحل ٨/١٦ : ﴿ وَالْخَيْلَ والْبِغالَ والْحَميرَ لتَرْكَبوها وَزِينَةً ﴾ . واضطلع الحِمل به : احتمله ونهض به .

(٣) البيدق : طائر من الجوارح في حجم الباشق لا يصيد إلا العصافير .

(٤) الشّوذق : الصقر أو الشاهين . ولبلة : مدينة في غرب الأندلس ، غزيرة المياه كثيرة الينابيع مشهورة بأنواع الشّجر والثمر . (الروض المعطار : ٥٠٧) .

(٥) الحصافة : الإحكام .

(٦) البركار : الفرجار (الآلة الهندسية المعروفة) .

(٧) لم يورده في (القول في البغال) ، ولا في الحيوان ، ولا في حياة الحيوان .

كـذبَ في هـذا الإطـلاق ، وأسْرَف في الإغراق ، أمـا إنّي أخـذْتُ عنـه الطَّهارَة والقنوع ، لا العجزَ ولا الخشوع ، وتجرَّدْتُ من شعـارِه ، وبَرِئتُ مِنْ صَوْتِهِ وإنكارِه[٨] .

وجملةُ قولي : إنَّ فضائِلَهُ عِندي ، ونقائِصَهُ عنـدَه ، لم تَنْقُلْهـا أعراقي ، ولا قَبِلَتْهـا أخـلاقي ، وستخبر فترى سَيْراً تحسَبُـه جـامِـداً وَهـو يَمُرُّ مرَّ السَّحـاب[٩] ، ويَقْطَـعُ ظهرَ الأصحـاب ، بجدٍّ كالهَـزْل ، وبَـذلٍ في ظـاهرِ الْمَنْـع ، كأنَّـك فـوقَ سَفينَـة ، أو على ظَهْرِ سَكينَـة[١٠] ، وفي هــذهِ ذِكْرى وَبَلاغ ، إن كان لِشَحجي[١١] مَسَاغ !

[١١٣]

[١٠٤/ب] **وَمِنْ أُخْرى إلى عَيْنٍ مِنَ الأَعْيانِ**[☆] :

مُهنَّأً تظاهُرُ النِّعم ، مسوَّغاً توافُرُ القِسَم ، ولا زالَ السَّعـدُ في عِـدادِه ، والغَيْثُ من رُوَّادِه ، والحمـدُ من قُصَّـادِه ، والـدَّهرُ من خَـدَمِ مُرادِه ، مَنِ

(٨) إشـارة إلى الآيـة الكريمـة في سـورة لقمان ١٩/٣١ : ﴿ إنَّ أَنْكَرَ الأَصْـواتِ لَصَـوْتُ الْحَميرِ ﴾ .

(٩) استفاد من الآيـة الكريمة في سورة النمل ٨٨/٢٧ : ﴿ وَتَرى الْجِبـالَ تَحْسَبُهـا جـامِـدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ ﴾ .

(١٠) السكينة : ريح خجوج أي سريعة الْمَرّ .

(١١) شحج البغل (والحمار) ردّد صوته ورجّعه .

[١١٣]

(☆) قطعة من رسالة .

ٱعتلقَ مجدُه ـ أيَّدَهُ الله ـ ٱعتِلاقي ، وٱتَّسق في نِظام التَّشَيُّعِ له ٱتِّساقي ، وأسعَدَهُ الحظُّ لديه بعرفانٍ ، وبأمنه بعَهْدِ وَلاءٍ وأمانٍ ، فحسبُه لمحةٌ من سناه مُشرِقة ، ونفحةٌ من شذاهُ عَبِقة ، يَعْشُو إلى نورِها اللاَّمع طارقاً ، ويهتدي بِنَشْرِها السَّاطع ناشِقاً .

ومنها : ولولا أنَّه ـ أيَّده الله ـ حين يعُدُّ فخاراً أو بَأْواً[1] ، قَرُب على الرَّاجينَ شَأْواً ، ففازوا بأفضاله عفواً ، لَمَا ارتقتْ هِمَّةٌ إلى مناطِه[2] ، ولا حَظِيت شفةٌ بمصافَحَةِ بساطِه ، لكنَّه ـ أدامَ اللهُ سَعْدَه ـ دَنا دُنوَّ الشَّمس ضياءً وشعاعاً[3] ، وحاذاها عُلوّاً وارتفاعاً ، وناسبها في السَّعدِ تمكُّناً وجاهاً ، وأشبهَها في الفَضائِلِ وما عَهِدَت أشباهاً ، كلاّ ؛ إن حَسَبَه أنصع ، ومعروفهُ أوْسَع ، وأفعاله في المكارم أوعى وأجْمَع ، منها أيادٍ لم يُقاوِمْها جزاءٌ فَيُذيلُها[4] ، وَمِنَنٌ لم يُقابِلْها ثوابٌ فيُحيلُها ، وزكاةُ شرفٍ لا تُباعُ بعَرَضٍ ، ولا تتوجَّه منَ الدُّنيا إلى غَرَض ، وهِمَّة تفرضُ العواقبَ على بُطْئها وأينها[5] ، وتَبيتُ أُخْرى اللَّيالي تحت دَيْنها ، إذ كلّ جانٍ يَقْطِف الغَد قبلَ نباتِه[6] ، ويرثُ اليومَ في حياتِه ، واللهُ ـ عَزَّ وجهُه ـ يملِّكه زمامَ دَهرٍ حالفَهُ مُعاقداً ، وميَّزَهُ بعُلوِّ الْمَحلِّ ناقِداً .

---

(١) بأى بأواً : فخر وتعاظم .

(٢) المناط : موضع التعليق ؛ يقال : هو منّي مناط الثريّا : شديد البُعد .

(٣) من قول البحتري (ديوانه : ١٢٤٧)

كذاك الشمسُ تبعدُ أن تُسامى ويدنوا الضوء منها والشُّعاعُ !

(٤) أذاله : أهانه وامتهنه .

(٥) الأين : التعب والإعياء .

(٦) جان : اسم فاعل من جنى الثمر وغيره : اقتطفه .

ومنها : ولَمّا تَقدَّمتِ البُشْرى بإيابه الـذي طـالَما ٱستشرَفَتْـهُ[٧] القلوبُ في الصُّـدور ، وٱبتسمَتْ نحـوَه الأمـانيُّ ٱبتسـامَ الثغـور ، وشكا إليـهِ السَّماحُ شكوى الْمَوْتور[٨] ، وتقلَّدَتْهُ المآثرُ تقلُّدَ الثَّائرِ المنصور ، أيقنتُ أنَّ اللَّيـاليَ لاتفوتُني بنبْل ، ونـذرت نفوسَهـا أين مـاثُقِفَتْ إلاّ بحبْـل ، وهُـوَ ـ أيَّـدهُ اللهُ ـ عِصْمَةُ اللائِذِ ، وهذا مقامُ المستجيرِ العائِذِ[٩] .

ومنهـا : وفي إحـاطتِـهِ الوافيـةِ أنَّ الممـدَّحَ ، والـزعيمَ المرشَّـحَ ، رئيسيَ ومعظِّمَه كان ـ كرَّمَ اللهُ مصرعَهُ ، وشرّف مآبَهُ ومرجعَهُ ـ بـاكَرَتْـهُ المنـايـا باحتضارِها ، وسَرَدَتْهُ الأيّامُ في أخبارِها ، [١٠٥/أ] ورفعَتْـهُ الكواكبُ في أسمارِها . ولَمَّا أنجزَ اللهُ فيـه صـادِقَ وَعْـدِه ، وبوَّأهُ كَنَفَ سَعْـدِه ، وانبتَّتْ تلكَ العلق ، وزوى عنِّي نورَه الفَلَق ، وعجت من مالِ[١٠] على يباب ، رَضيتُ من الغنيمةِ بالإياب[١١] .

ومنهـا : ولـولا أنْ أشُـقَّ عليـهِ بتَطْـويلي ، وأعـدلَ منَ الاقتصـادِ عن

---

(٧) استشرف الشيء : رفع بصره ينظر فيه .

(٨) الموتور : الذي قُتِل له قتيلٌ فلم (يثأر له) .

(٩) في الحـديث : إن الله تعـالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قـامت الرحم فقـالت هـذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلـك وأقطع من قطعك ؟ (صحيح مسلم ٢٥٥٤) .

(١٠) في الأصـل : (وعجتُ من مـال) بفراغ يسير قبـل مـال . وأظنـه : من الرمـال أو ما يشبهه .

(١١) من قول امرئ القيس : (ديوانه : ٩٩) ؛ وانظر أمثال العسكري ١ : ٤٨٤

وقـد طـوفتُ في الآفـاق حتى رضيتُ من الغنيمـة بـالإيـاب

سبيلي ؛ لامتـدَّتِ الصُّعَـدَاء بنَفَسي ، ونـازعتني البُرَحـاءُ فضلَ مَرَسي[١٢] ، لكنِّي أُجِلُّهُ ـ أيده الله ـ عن الإطالَة ، وأرَجِّح حُجَّة الإحالَـة ، فـإن فرَغ لاستيفاءِ القَوْل ، وأوسَعَني جـانِبَ الطَّوْل ، نفَّس حيـاةً ، وزحزحَ وفـاةً ، إنْ شاءَ الله .

[١١٤]

وَلَـهُ عَنْ بَعْضِ الْمُرابِطينَ[*] إلى أميرِ الْمُسْلِمينَ عليِّ بنِ يوسُفَ[١] رَحْمَـةُ اللهِ عَلَيْهِمْ :

أطالَ اللهُ بقاءَ أميرِ المسلمينَ ، وناصِرِ الـدِّين ، مؤيَّـداً بجُنودِه ، مُعـانـاً بتَوْفيقِهِ وتَسديـدِه ، ولا زالَ عَـدْلُـه يُنْعِشُ الأُمَم ، وسَعـدُهُ يُنهضُ الهِمَم .

---

(١٢) البُرَحاء : الشدّة . والْمَرَسُ : الحبل .

[١١٤]

(*) رسـالـة كتبهـا ابن أبي الخصـال عن أحـد الـولاة من المرابطين إلى أمير المسلمين علي بن يوسف يخبره فيه ببعض مجريات الأمور السياسية والعسكرية والإداريّة .

(١) عليّ بن يوسف بن تاشفين ، أبُو الحسن ، أمير المسلمين ؛ ثـاني أمراء دولـة المرابطين في المغرب والأندلس (٤٧٧ ـ ٥٣٧) . ولي خلافة أبيه بعـد وفـاتـه سنـة ٥٠٠ . وحكم إلى وفاته سنة ٥٣٧ . وكانت سيرته مرضيّـة . وغزا العـدوّ في الأنـدلس وكانت لـه معـارك منصورة . وأثنت كتب التواريخ على سيرته . وظهر في أيّامه محمـد بن تومرت داعيـة دولة الموحّدين المتلقب بالمهدي . وتغلّب الموحـدون على دولـة المرابطين في عهـد ابنـه من بعده .

كتبتُ ـ أدامَ اللهُ تـأييـدَه ـ من قرطبـةَ[٢] ـ حرسهـا الله ـ لِستٍّ بَقِينَ من جُمادَى الآخرة ، وقبل بثلاثٍ وافَيتُها من الوجهـةِ التي صحبَتني ومَن معي فيهـا يُمنُ أمْرِه ، واكتنفَتْنـا عِـزَّةُ نَصْرِه ، بعـدَ أن أودعْنـا حصنَ أُرلِْيَـة[٣] ـ حماهُ الله ـ قوتاً موفُوراً ، ومِرفَقاً كثيراً ، وحطَّتْ عندهُمُ الأسْعـارُ ، وعَمَّ الاستبشـارُ ، وتَسلَّم أبـو الخيـار مسعـودٌ[٤] الـدَّليـل ـ سلَّمـه الله ـ الحِصْنَ وٱحتوى عَلَيه ، وصارَ أمْرُهُ إلَيه .

ووافينا فُلاناً ـ أبقاهُ الله ـ قَدِ ٱستاقَ غنيمـةً ظـاهرة ، وجملـةً من البَقَرِ وافِرَة ، وقتـلَ مِن العَـدُوّ ـ قَصَمَـهُ اللهُ ـ عَـدَداً وقضَى وَطَراً ، وَشفَى وَحَراً[٥] ، فتيمَّن الناسُ هناكَ بولايةِ الأمير أبي يحيى[٦] ـ أعزَّهُ الله ـ وبقيادَةِ هذا القائدِ الّذي ٱقْتَرنَ الفتحُ بمَأْتاهُ . وكانَت ، مقـدَمَنـا هـذا الحِصْنَ خَيْلُ

---

(٢) قُرطبة : مدينة أندلسية قديمة فتحها المسلمون سنة دخولهم الأندلس واستمرّت مدينة إسلامية إلى أن انهارت دولة الموحّدين ، وعجز ابن هود عن ضبط أمور مناطق مختلفة من البلاد فسقطت سنة ٦٣٣ . وأبرز معالمها الباقية المسجد الجامع ، الخالد على الأيام . وكان المسلمون قد نقلوا الحاضرة من إشبيلية إلى قرطبة فكانت عاصمة الدَّولة أيام الدولة الأموية المروانية . ثم كانت عاصمة بني جهور أيام الطوائف . وبقيت لها مكانتها الإدارية والعلمية والحضارية إلى منتهى أجلها .

(٣) حصن أُرلِْيَة (ضبطه في الأصل : بضم الهمزة وكسر الرَّاء . وسكت عن اللام فهي ساكنة) .

(٤) أبو الخيار مسعود (؟)

(٥) الوحر : الحقد .

(٦) الأمير أبو يحيى هو أبو بكر بن أبي عبد الله محمد بن الحاج داود المشهور بالحاج (توفي سنة ٥٠٣ شهيداً) . انظر ترجمته في القطعة [١٣] .

طُلَيطلـةَ[٧] ـ بـدَّدهـا اللهُ ـ مُجْتَمعـةً فـوقـذَهم[٨] الرُّعبُ وشملهُمُ الصَّغـار والرُّغم . وتحقَّقْنا هناكَ أنَّ مواشيَ تلكَ الجبـالِ ، قـد أخـذَتْ في الانبسـاط والإسهال ، والدُّنُوِّ مِنَ الوادي طلباً للخِصْبِ وتحوُّلاً من البَرْدِ إلى الدِّفْء . واللهُ يجعلُها للمسلمينَ طُعْمَةً ويزيدُهم بها قوَّةً بعزَّته .

وأنباءُ العدوِّ ـ قَصَمَه اللهُ ـ الآنَ خامِـدة ، وعَزائِمُهُم هـامِـدة ، وأيـديهِمْ جَـامِـدة ، استـأْصَـلَ اللهُ بِحَـدِّ [١٠٥/ب] أميرِ المسلمينَ نِعَمَهُم ، وقَطَفَ قِمَمَهُم ، وأداخَ بـلادَهُم ، وانْتَسَفَ طـارِفَهُم وتِـلادَهُم . وألفَيْتُ الْحَضْرَةَ ـ حَرَسَهـا اللهُ ـ وقـد أخـذَ السُّرورُ من أهلِها كلَّ مـأخَـذ ، وسرى فيهم كلَّ مَسْرى ومَنْفَـذ ، بـولايـةِ الأميرِ أبي يحيى ـ أعـزَّه الله ـ وكثر الـدُّعـاءُ لأميرِ المسلمينَ ـ أيَّده الله ـ بما جدَّدَ لديهم من حُسنِ نَظَرِه ، وخلعَ عليهم من جَمالِ سِيَرِه ، ولقِيتُـه فلقيتُ كلَّ مـا أبهَج ، وكانَ وفقـاً لِمَـا انتشر ، ومُشـاكِلاً لمـا اسْتذَاعَ وظَهر . تَمَّم اللهُ النعمة ، وظاهَرَ عليـهِ الكفـايَـةَ والعِصمَـة . ووَافتني كُتبُه الكرام بما بَلَّغَ الأملَ ، وحَسَم العِلَل ، وأنا ممتثلٌ في كلِّ معنًى ما يحدُّه ، مجتهدٌ فيما يقيمُ ذلك الثغر ويسدُّه ، إن شاء الله عزّ وجلّ .

---

(٧) طليطلة : مدينة قديمة ، في وسط الأندلس إلى الشَّمال ، حصينـة ، عنـد نهر التّـاجو . كانت دار المُلك حين دَخلها طـارق . وهي مـدينـة زراعيـة في أرض خصبـة ومياهٍ وفيرة . وكانت طليطلـة أيـام عهـدهـا الإسـلامي وبعـد سقـوطهـا في أيـام الأنـدلس الإسلامية مركزاً من مراكز الترجمة ونقل الثقافة الإسلامية إلى أوربـة والعـالم القـديم . فرّط بـالمـدينـة حكامها أيـام دول الطوائف من بني ذي النون وتواطؤوا مع ألفونسـو السـادس فـاحتلهـا سنـة ٥٧٨ . وكان سقوطهـا سببـاً في دخـول المرابطين الأنـدلس ، واجتهدوا طويلاً في استردادها .

(٨) وقذه : ضربه حتى استرخى وأشرف على الموت ، وصرعه .

[١١٥]

وَلَهُ(☆) إِلَيْهِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ تاكُرُنّا(١) :

أطالَ اللّهُ بقاءَ أميرِ المسلمين ، وناصر الدّين ، حامل الكَلّ ، وجابر الفَلّ(٢) ، مبسوط الرَّأفَة ، منشور الرّحمة ، ولا زال ينتظمُ من الصّالحاتِ ما دقَّ وجلّ ، ويَرْحَمُ غنيّاً افتقرَ وعَزيزاً ذَلّ(٣) . أنا ـ أيَّد اللّهُ أميرَ المسلمين وناصِرَ الدّين ـ رجلٌ من أهلِ البُيوتاتِ(٤) قد أدركَتْني الحاجَة ، وبلَغت مِنّي مبلغَها الفَاقة ، وقيّدني الهَرَمُ ، وزمانَةٌ عُراها لا تُفْصَم . انسدَّت عليَّ السُّبُل ، وضاقَتْ بي في المعيشَةِ الحِيَل ، وليسَ لي بَعْدَ اللّه إلا فَضلُه ، ولا يَسَعُني إلاَّ عدْلُه . وكانت لأبي وأسلافي بتاكُرُنّا من عَمل قُرْطُبَة أملاكٌ مشهورة ، وأُصولٌ معلومَة ، جَلَوا عنها في الفِتنَةِ(٥) إلى شَرْقِ

[١١٥]

(☆) رسالة عن رجل من أهل تاكُرُنا يسأل أمير المسلمين إسعافه بردّ بعض أملاك أهله مِمّا أهملوه أيام الفتنة ، ووضع يده عليه بعض النّاس .

(١) تاكُرُنّا : مدينة قديمة قريبة من إسْتِجَة . ومن أشهر مدن إقليم تاكُرُنا مدينة رُنْدَة . وكانت تاكُرُنا هي حاضرة الإقليم ثم خربت وذهبت شهرتُها .

(الروض المعطار : ١٢٩ ، والمغرب في حلى المغرب ١ : ٣٣٠) .

(٢) الكَلّ : الضعيف ، والفل : الكسر .

(٣) من العبارة المشهورة : ارحَمُوا عزيز قوم ذلّ .

(٤) سمّوا الأنساب بيوتات فقالوا : بُيوتات العرب . والكلمةُ جمع بُيوت ، وهذه جمع بيت .

(٥) الفتنة : عبارة عن فترة سياسية مرّت بها الأندلس عامة وقرطبة وما حولها خاصة باضطراب البلاد حين طلب شنجول أحد أبناء الحاجب المنصور من الخليفة الأموي =

الأندلُس ومَضَوْا لسبيلهمْ غيرَ مُفَوّتين لَها ، ولا خارجينَ عنهـا ، وهيَ الآنَ فيما يُنسَبُ إلى المُستخْلِص . والرَّغبـةُ إلى أميرِ المسلمين ـ أعلى اللهُ أمرَه ـ في أن يعمِرَني[٦] منهـا الـزَّوجَين اللَّـذَين ثبتـا في العقـودِ المرفـوعـةِ إلى نَظَرِه الكريم وحِيزاً بما أوجبَهُ مُقْتَضى النَّظرِ لي بتوقيعِـهِ العـالي ، أسـدُّ بهما خُلّـةَ فقري ، وأستعينُ على دَهري ، وأنتظرُ تحتَ سترِه وإنعـامِـهِ يَوْمي : فـإنِّي هـامـةُ اليـومِ أو غـد[٧] ، فـإنْ رأى أميرُ المسلمينَ ونـاصرُ الـدِّين ـ أدامَ اللهُ تـأييـدَه ـ أن يرحَمَ كَبْرَتي ، ويرقَّ لضَعفي ووحـدَتي ، ويُسـدِيَ إليَّ ما لا أزالُ له شـاكراً ، ويقـدمَني على الله الـذي [١٠٦/أ] يصنعُ لـهُ الجميلَ شاكراً ؛ «أقْرَضَ اللهَ قرْضاً حَسناً» وتعوَّض جنَّتَـهُ ونِعمَ الثوابُ ثمنـاً . ومن يحضرْ بسـاطَـه الكَريمَ من خَـدَمَتـه وكُتَّـابـه ـ حفظَهُمُ الله ـ [يعلم][٨] سلفي ، ويشهـد بسـابقتي ، ويتحقَّق حـاجَتي ، واللهُ يـوفّـق أميرَ المسلمين وناصرَ الدين ، إلى ما يجدُه لديـه مُوَفّراً ، يومَ تجـدُ كلُّ نفسٍ مـا عَملَتْ من خيرٍ مُحْضَراً[٩] ، ويبقيهِ رَؤوفاً بالمؤمنينَ عطوفاً على المنقطعين بعزّته .

= المستضعف (هشام المؤيّد) أن يولّيه الخلافة من بعده ففعل . فثارت ثائرة الأُمويّة ، واندلعت الفتنة وشارك فيها أقوام مختلفون خربت على إثرها معالم قرطبـة واضطربت أحـوال النّـاس مـدّة طـويلـة ، وهـاجَر بعضهم عن مـواطن الفتنـة ، وظهرت دول الطوائف تباعاً . وكانت بداءة خراب الأندلس عامّة واضطراب أحوالها .

(٦) أعمرَ فلانٌ فلاناً داراً : جعلهـا لـه على سبيل العَمْرى ، أي أن يقول مثلاً : هـذه الـدار لك عُمْرَكَ ، فإذا مِتَّ رجعَت إليَّ . أو هي لك عمري فإذا متُّ رجعت إلى أهلي .

(٧) هو هامةُ اليومِ أو غد : مُشْفٍ على الموت .

(٨) مكان الكلمة فارغ ، وهي مُقترحة .

(٩) من الآية الكريمة : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾ آل عمران ٣٠/٣

[١١٦]

ولهُ إليْهِ(☆) عَنْ رَجُلٍ مِنَ الفُقَهاءِ بِقُرْطُبَة :

أطالَ اللهُ بقاءَ أميرِ المسلمينَ وناصرِ الدّين ومهّدَ بـهِ دولـةَ العزِّ المكين ، والحرزِ الأمين ، ولا أخلاهُ من التسديـدِ المعين ، والتوفيقِ الواضحِ هَـديُـه المستبين ، بحولِهِ لا ربَّ سواه ، في علمِ الله سبحانَه أنَّا نلتزمُ من طاعـةِ أميرِ المسلمينَ ومحبَّتِهِ بظهرِ الغيب ومناصحتـه في السرّ والْجَهر ، ونستصحِبُ من عادةِ الدُّعـاءِ لـه بتـأكيـد حفظِـهِ وحراستِـه ، وتخليـدِ ملكِـهِ ورئـاستِـه ، وإمتاعِ الدّينِ والدُّنيا بجلالتِه ونَفاستِه ، ما هوَ عندَنا الحقُّ المتعيَّن نُبْديه ، والفرضُ المترتّب نؤدِّيه ، وأمرُ اللهِ الموجَبُ عَلَينا نمتثله ونَحتـذيـه ، وبحُكم ملتَزَمِنا من هذا النَّهج الذي قامَت أدلَّتُـه وشهودُه ، ووضحَ وضوحَ الصُّبحِ عمودُه ، نحرصُ ألاَّ يُلِمَّ بحضرتِـه الكريمـةِ من ذكرِنـا ، ولا ينمي إليهـا من أمرِنـا ، إلاَّ مـا يقرِّرُ ولاءً ، ويكرِّرُ انقطـاعـاً وثنـاءً . ولم نَـزَلْ في كنف إحسانِه ، وظلِّ سلطانِه ، نستـديمُ نعمتَـه الشـاملـةَ بـالشُّكر ، ونشـايعُ في نَوافذِ أموره مشايعـةَ الإخلاص والبرّ ، سـالكينَ مسلـكَ أسلافنـا ـ رحِمَهُمُ الله ـ من طاعةِ أُولي الأمر ، قانعين بما ٱنسدَلَ علينا مِنَ الكَفـافِ والسِّتر ، لم نستزِدْهُ ـ أعلى اللهُ أمرَه ـ أُثرة(١) ، ولا ٱبتغَيْنا فوقَ ما قَسَمَ لنـا من سوانِحِ الحظوظِ المقتبسَةِ من دولتِـه العليّـة رُتبـة ، إلى أن نفـذ كتـابُـه الكريمُ إلى

---

[١١٦]

(☆) رسالة إلى أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين .

(١) الأُثْرَةُ : المكرمة الْمُتَوارثة .

ٱبنِنا محمَّدِ بنِ عبدِ الرَّحمن طاعتِه ، مضمَّناً من توليتِـه القضـاءَ بفلانـة مـا لَم تتقدَّم فيه عندنا رويَّـة ، ولا عقـدت على التَّوطِئَـةِ لـهُ مسعـاةٌ ولا نِيَّـة ، فغشينا من ذلك أمرٌ ٱشتَبَهَ قصـدُه ، وكَبُر قبولُـه وردُّه ، لكنْ [١٠٦/ب] عَدَلنا الْحُكْمَيْن ، ووزَنّا الْحُرمتين ، فتركنا ـ بحكمِ طاعتِـه ـ الصُّغرى التي ما تَوَقَّعناهُ على ٱبنِنا هذا من مطايبات تلحقُه ، ومقدمات تسبِقُه ، إذْ كانَ هناكَ مَنْ يرى أنَّ الأمرَ أمرُه لا يُنتزَع ، والمكانَ مكانُه لا يطـاعُ فيـهِ سواهُ ولا يُسمَـعُ ، للكُبرى التي فيهـا مُـوافقـةُ الجفـاءِ ومحـاضَرةُ السُّمعـة والرِّياء ، بما يَتَأوَّلُ من الاستِعفاء ، واعتقدْنا ، مع عِلمِنا ، أنَّا لا نُؤتى من قِبَله ، وأنَّه لا يَعدو حَذْوَنا في نظرِهِ وعمَلِه ، وأنّـه سيَـأوي من أميرِ المسلمينَ ونـاصرِ الـدّينِ إلى رُكنٍ شـديـد[☆] ، ونصرٍ عَتيـد ، وغوثٍ غيرِ بَعيـد ، فلم يَنْشَبْ أن وردَ مِن صَرْفِه مالَم نجهَلْ أنّ الله تعالى قد خارَ لنـا ولـه فيـه ، ومنَّ بتدارُكِنـا وتَلافيـه ، من مَخـاوِفَ كانت ظنونُنـا المشفِقَـة تَستنشِفُ[٢] عُقبـاهـا ولا تَتَحـدَّثُ بسواهـا ، ولمـا أُعجلَ عن الاختبـار ، وصُرِف قبـلَ التجرِبَةِ والسِّبـار[٣] خِفنـا ، بل تحقَّقْنـا ، أنَّ ذلـك لسِعـايـة سـاعٍ استحلَّ ماشاءَ من قرفِه[٤] ، وأدرَكَ ماأمَّل من تـأخيرِهِ وصَرْفِـه ، وإلاَّ فلم تكنْ ثمَّ مُهلَة يظهَرُ فيها صَلاحٌ ولا فساد ، ولا عملٌ يلحقُ عنـه خُرقٌ ولا سَـداد ،

(☆) استفاد من الآية الكريمة : ﴿ قَالَ لَو أنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أو آوِي إلى رُكْنٍ شَـدِيـدٍ ﴾ هود ٨٠/١١

(٢) استنشف وزن استفعل من (نشف الماءَ ونحوه) .

(٣) يقال : سبر الْجُرح : قاس غوره بالمسبار ، وسبَر فلاناً خبره ليعرف ماعنده .

(٤) قرفه بكذا : اتّهمه .

وبلى لقَدْ ظهَر ما سَكَنَ أهلُ الخيرِ إلَيه ، وشكروا اللهَ تعالى ثُمَّ أميرَ المسلمينَ عَلَيه ، ولا مِرْيةَ أنَّ لأميرِ المسلمينَ - أيّده اللهُ - أن يتصرَّف في وُلاتـه ، ويعودَ فيما يقضيهِ النَّظرُ من هِباتِه ، ولو علِمنا أنَّ هذا الرأيَ رآهُ ، وأمرٌ من تِلقائِه أمضاهُ ؛ لما زِدْنا على التّسليمِ ، والإسنادِ إلى الرأيِ الكريم ؛ لكنْ أشفَقْنا مِمَّا أشفَقَ منهُ الصّالحونَ من تَغَيُّرِ صفاتِهم عندَ وُلاتِهم ؛ فقديماً خافُوا من دَرْكِ الظنّةِ ما خِفْناه ، وعافوا من انتقاصِ حظِّ الكرامَةِ ما عِفْناه ، قال شُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَة[٥] - رَحِمَهُ الله - كذا ، وقال زِيادٌ[٦] كذا . ولذلك ما خاطَبْنا أميرَ المسلمينَ - أيّده اللهُ - ليَعْلَم أنَّ الغَضاضَةَ مرتَفِعةٌ عنّا ، بعيدةٌ ممّن نُعِي عليهِ منّا ، وأنها ممَّن اختلقَها عليه أخلَق ، وبمِغْلقِها المسرِفِ على نفسِهِ أغْلَق . ولا رغبةَ إلاّ في استِدامَةِ رَأيهِ الْجَميل ،

(٥) شُرَحبيل بن حسنة : هو شُرَحْبيل بن عبد الله بن الْمُطاع بن الغِطريف الكِنْدي ، حليف بني زهرة ، صحابي من القادة يعرف بشرحبيل بن حسنة وهي أُمّه . أسلم بمكة وهاجر إلى الحبَشة . شهد المغازي وسفر للنبي ﷺ إلى مصر ، وكان أحد قواد الجيش الإسلامي (أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه) في الشام وافتتح الأردنّ .
- وفي أخباره أن عمر رضي الله عنه لما قدم الجابيةَ عزَله ، واستعمل معاوية مكانه فقال شرحبيل : أعن سخط عزلتني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، ولكني أردت رجلاً أقوى من رجل . وتوفي في طاعون عمواس . ولادته سنة ٥٠ ق . هـ (راجع الأعلام ٣ : ١٥٩) ووفاته سنة ١٨ هـ .

(٦) زياد بن أبيه ، أو ابن عُبيد . واستلحقه معاوية ، فقالوا : زياد بن أبي سفيان . قال الذهبي : كان من نبلاء الرجال رأياً وعقلاً وحزماً ودهاءً وفطنة ، كان يُضرب به المثل في النبل والسؤدد . وكان كاتباً بليغاً كتب للمغيرة بن شعبة ولابن عباس . وولي لعلي بن أبي طالب ومعاوية .
- توفي سنة ٥٣ هـ .

[١٠٧/أ] واستحفاظةِ عهدِ مِثلنا من أهلِ الانقطاعِ والتّأميل ، ونـاولنـا ما يُشبِهُ مَحلّه الأعلى في حُسنِ التّأويل ، إنْ شاءَ اللهُ عزَّ وجَلّ .

[١١٧]

وله ـ رَحِمَهُ اللهُ ! ـ إلى أخيه الأَمير الأَجَلّ أبي إسحاق[1] ـ رحمةُ اللهِ عليه ـ في جانب الفقيه الحافظ أبي عليّ[2] ـ نضَّرَ اللهُ وجْهَهُ ـ :

أطالَ اللهُ بقاءَ الأَمير الفَقيهِ الأَجلِّ حـائزاً لأَسْمى المراتبِ فـائزاً بـأَعْلى

---

[١١٧]

(١) هو أَبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ، أَحدُ قـادَةِ المرابِطين وولاتهم المشهورين أيّام أبيـه يوسف ، وأخيـه عليّ (خلَفَ عليٌّ أبـاه سنـة ٥٠٠) . رَبِح في معـارك كثيرة واشتهرت أيامه في ولاياتِه ، وحسنت أحوال البِلاد ، واطمأنّت النفوس . وجَرت عليه هزيمة كُتُنْدَه ـ ويقال فيها قتنده ـ سنة ٥١٤ ، وهي التي استشهد فيهـا شيخـه أبو علي الصَّدفي . وفي أَخباره أنه نكب سنة ٥١٥ بعد إحدى الوقائع ، ولم يعد له ذكر في كتب التاريخ بعد هذا العام .

وعُرِف إبراهيم بن يوسف بمحبّة العلم وأهله ، وسمع من أبي علي الصَّدَفي وغيره . ومدحه الشُّعراء ، وفيهم ابن خفاجة .

(قلائد العقيان : ٣ ، مطمح الأنفس ، المعجم لابن الأبّار ، المُغرب ، الإحاطة ، نفح الطيب ، وفيات الأعيـان ، الحلل الموشّية . والإعلام بمن حَلّ مَرّاكش وأغمات من أعلام)

(٢) أَبو علي الصَّدَفي ، ويعرف بابن سُكّرة ، وابن فِيْرُّو ـ ومعنى هذه الكلمة بـالأَعجميـة : الحديد ـ ؛ وهو :

الحسين بن محمد بن فيرُّه ، من أهل سَرَقُسْطة ، من بلاد الثغر الأَعلى بالأنـدلس . تنقّل في البلاد ، ورحل في طلب العلم ، ودخـل المشرق من ٤٨١ إلى ٤٩٠ ، وذكره الحـافظ ابن عسـاكر فيمن دخـل دمشـق (في تـاريـخ دمشـق) : وأدّى فريضـة الحـج ولقي=

المآثِر والمناقِب ، ولا زالَ بالعِلم وحامليه مُهتبلاً ، وعلى أَهْلِ الفضل والدّيانةِ مُشتملاً .

كتبتُ ـ أعْلى اللهُ أمرَكَ ، وشدَّ بتقواه أَزْرَك ـ عن إكبارٍ لقدرك أعتمدُه ، وثناءٍ عاطرٍ أُرَدّده ، وشكرٍ دائمٍ أُحدِّدُه . واللهُ ـ عَزَّ اسمُه ـ ينهضُ بحقوقِ إجْمالك ويفسَحُ أمَدَ يُمنكَ وإقبالك . كانَ ـ أَيَّدكَ اللهُ ـ يَنْتَهي إِلَيْنا ويتَّصِلُ بحضْرَتِنا من استِنْفارِ الفقيهِ الحافِظِ الإمامِ أبي عَلِيّ ـ وَفَّقهُ اللهُ ـ للرِّحْلَة عن تِلْكَ الحَضْرة الّتي استَأْثَرت بهِ على البلاد ، وانضمّتْ عليه انضمامَ الجوانحِ على الفُؤاد ما أُكبِرُهُ حيناً ، ثم أَمُدُّ إلى تلقِّيهِ ـ لو صَدَق الأَمل فيه يميناً ؛ ليكونَ لنَا بهِ السَّبْقُ ، وليأخذ منهُ الغَرْبُ مثلَ ما أخَذ الشّرق ؛ على ما كان يَعْتَرِضُني في هذه الأُمنية ـ لو صَحّت ـ من إشفاقٍ

= العلماء . ولي أبو علي القضاء وكان مُقَدَّماً ، مقصوداً من بلاد الأندلس والمغرب . وقال الضبي في ترجمته : إمام ، محدّث ، زاهد ، كثير الرّواية . ولم يكن بشرق الأَندلس في وقته مثله في تقييد الحديث ، وضبطه ، والعلوّ في روايته مع دينه وفضله وورعه وزُهده .

وقد قرّبه المرابطون ، وأكرموه ، ورفعوا مكانته ـ كما يستحقّ ، وكما هو أهل لذلك ـ وشارك في حملات الجهاد للدفاع عن وطنه ولاسترداد ما ضاع من مدن الأندلس ، وسقط شهيداً في وقعة قتنده سنة ٥١٣ في ربيع الأول منها .

من مؤلفاته التّعليقة الكبرى في الخلاف . وله تقييد شرحه القاضي عياض بكتاب المعجم .

(بُغية الملتمس ٢٥٣ ، وأزهار الرياض ٣ : ٥١ ، وشذرات الذهب ٤ : ٤٣ ، والصلة : ١ : ١٤٤ ، ومرآة الجنان ٣ : ٢١٠ ، وكشف الظنون ١٧٣٦ ، والوافي بالوفيات ١١ : ١٠٩ ، ومختصر تاريخ دمشق ٧ : ١٧٣ ، وهدية العارفين ١ : ٣١١) .

على أُلآفِه ، وارْتِياضٍ من حالٍ تجري بخلافِهم وخِلافِه ، وكُلّ ذلكَ لا أُصدِّقُ بإفْراجِكَ عنهُ ، ولا أُحقِق إيثاركَ بما مَنحكَ اللهُ منه . ولّما تظاهرَ الخَبَرُ باحتمالِه واتّصلَ الأثَرُ بانفصالِه وافى فلان - أَبقاه الله - فتلقّينا الجَلِيَّة من عندهِ ، وأكذبَ الإرجافَ بِضِدّه . وَحكى من حالِك - أيّدَكَ الله - ما شدّ ، وتحويلك عَزْمَهُ عندما جَدّ ، ما لاقَ بسُؤددك وعَلائك ، وأَقَرّ نفوسَ أَوليائك ؛ ورضِيَهُ الرّحْمنُ ، ومُلِئَ منهُ الزّمان ، وسارَتْ بهِ الرُّكبان - فهنيئاً لك - أَعْلى اللهُ قَدْرَكَ - ما وَفّقكَ اللهُ إليه وحَملك بُعد الهِمَّةِ عَليه . فأشهدُ إنّها لَمَأثُرَةٌ لِهمَّتِكَ العَلِيَّةِ أُخّرِت ، ومكرُمَةٌ لِدَوْلَتِكَ السَّعيدة ذُخِرَت . وليسَ مثلُه أَسلَمهُ نظامك ، وأَخرجتْهُ أَيّامُك . وكيفَ ؟ وما زلْتَ بالعُلَماءِ مُعتنياً ، وللفُضَلاءِ مُقتنياً ، وبأمثالِه من الصّالحينَ مُحتَفِياً ؟ هَيْهَاتَ مجدك بهم أَضَنُّ واللهُ عليكَ وعليهم [١٠٧/ب] بكَ أَمَنّ . ومن كَانَ لأميرِ المسلمين رضي الله عنه - فَرْعاً فلن يستبدل بِشرْعَةِ الكريم شرعاً [ولن يُؤثر] إلاّ ما أثَرهُ سَجيّةً راسخةً وطَبْعاً . عمرَ اللهُ بالعُلَماءِ سلطانكَ ، وفسَح لهم أَرجاءَك وأعطانك ،وجعل أوطانهم أوطانَك ؛ بعزته .

تَعَيَّنَ - أعْلى اللهُ ذِكركَ - إعلامُك بموقعِ هذه الفَعْلَة الكريمة والحَسنَةِ الخالدةِ المقيمة من نُفوسِ الجُمهور وما [حبوْتُم ؟][3] بها من الغَبْطَةِ الشّامِلة والسرور ، وما أُلقيَ عليكَ بِها من مَحبّتهم ، ورُزِقْتَهُ من شُكْرِهم

(٣) في هذه الصفحة كلمات ظهر بعضها وخفي بعضها من أثر التَّصوير . واستظهرتها من السياق ومن بقايا الحُروف .

ومــودّتهم ، لتَرى أَثركَ الكريم حيثُ أَشرقَ ، وذكرك الجَميــل كيف عَمَّ وطبَّق .

لا زالتْ حَضرتُـكَ محطّ البركاتِ ومَسْجَع صـالح الـدّعواتِ ومَقرّ أهـلِ الوَرع والإخْباتِ[٤] [بحول] اللهِ ومَجْدِه .

[١١٠]

وله[☆] إليه أيضاً[١] ، في جَانِب الشَّيْخِ الْمَذْكُور[٢] - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ - :

أطالَ اللهُ بقاءَ الأمير الأجلّ ، العَزيز جارُه ، الكريمِ جوارُه ؛ مؤيّـدةً شِيَعُـهُ وأَنصـارُه ، منتظمــةً للصّــالحينَ دارُه . ولا زالَ يُلحِفُهم جَنــاح الاحتِفاء ، ويقيّدُهمْ بِسَوابغِ النَّعماءِ مـا يَسْتـذيعُ عنـه - أيّـده اللهُ - مِن عُلوّ هِمَمِه ، ويَسْتفيضُ من كَرَمِ شمائِلَه وشِيَمِه وتحفّيـه بـالعُلمـاءِ ، ورغبَتِـه في الفُضَلاء ؛ وضَنانتـه بمن حَلّ منهم في قُطرِهِ ، وانتظمَ في سلـكِ أَمْرِه . قـد خلَّد حُبَّه في الصُّدور ، وأَهْـدى إليـه حَمْـدَ الجمهور ؛ فجميعهم بـهِ مُنطَلِقُ اللِّسان ، مُعْتَرِفٌ لهُ بالإحْسـان ؛ لا يـألُو ادّعـاءً ولا يَسْـأمُ تشيّعـاً وثَنـاءً . وهذه الإشَارةُ إلى ما أَظهرَتْهُ هِمَّتُه ، وأسفرتْ عنهُ عَزْمَتُه ؛ في جهةِ الفَقيـهِ الحافظِ الإمامِ أَبِي عليّ - وفّقَهُ اللهُ - من الْمُحافَظـة على فَضْلـه ، والتمسّـكِ

(٤) أَخبت : تَواضَع وخَشع .

(☆) رسالة إلى الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين بمناسبة احتفائه بأبي علي الصّدفي .

(١) إلى الأمير أبي إسْحاق بن يوسف (انظر القطعة : ١٠٩)

(٢) هو أبو علي الصدفي (انظر القطعة : ١٠٩)

بجبله ؛ والرغبَة في قربه ، والاقتباسِ من عِلمه . وما كانَ الأَميرُ - أيّده اللهُ - ليضيعَ حَظَّهُ من بَركتهِ ، أو يُخْلِيَ نفسَهُ الزّاكيةَ من مُشاهَدَتِه ، أو يعطّلَ حضرته من رِوَايَتِهِ ، أو يُؤثر غيرَهُ بِهَدْيِهِ الصّالح وهدايته . وكيفَ وهو لإمارَتِهِ الْمُباركة جَمال ، ولملكِهِ العالي تَمام وكَمال ؟ وإنّهُ لتمدُّ نحوَهُ الأَعناق ، وتفتقرُ إليه العِراق ؛ وتُضْرَبُ إلى علمه الأكباد ، وتَشتاقُ إلى شَخْصِهِ [١٠٨/أ] البِلاد .

فالحَمْدُ لِلّهِ الذي آثرَ الأميرَ السَّعيدَ بِمَثواه ، وبوَّأه أَعلى المنازِلِ من نفَسهِ وذَراه[٣] ، وأنزله على حُكْمِهِ وهَواه . لا جَرم إنّ رضى اللهِ فيه مُوافِقٌ لِرضاه ؛ فلذلكَ اختَصَّهُ به وأَحْظَاه . ولو شاهدَ الأميرُ - أيَّدهُ اللهُ - من حُسْنِ هذهِ الأُحدُوْثَةِ ما شاهَدْنَاهُ ، لتضاعفَتْ مسَرَّتُهُ واغْتِباطُه ، ورأى كل بساطٍ فوقَهُ بساطه . لا زالَ بالعُلماءِ مَحْفُوفاً وعلى أَمثالِها من الصَّالِحاتِ مَوْقُوفاً - بحول الله -.

[١١٩]

وله إليه* في جانبه[١] أيضاً ، رَحْمَةُ اللهِ عليهم :

أَمَدَّ اللهُ الأميرَ الأَجَلّ بِمَعُونته وتَأْيِيده ، وخَصَّهُ بتوفيقه وتَسْدِيده وتكَفّلَ بدوام حَظّهِ ومَزِيده .

---

(٣) يقال : أنا في ذَرا فلان : أي في كنفه ، وستره ، ودفئه .

[١١٩]

(☆) إلى الأمير المرابطي أبي إسحاق بن يوسف بن تاشفين (انظر القطعة : ١٠٩)

(١) أي في جانب أَبي علي الصَّدفي (انظر القطعة : ١٠٩)

كتبنـاهُ أَعْلى الله ذكركَ ، وأعـزَّ بتَقـواه قَـدرك ؛ ومـودَّتُنـا إليـكَ مُستبقـة ، وقلوبُنـا في مُلكـكَ مُتّسقـة ، وأَلسِنَتُنـا بشكركَ والـدُّعـاء لـكِ مُنطلقة ؛ فإنّكَ لا تزالُ بحمدِ الله تُحيي للعلمِ أَثَراً ، وتجرّدُ في أَهلِه نَظراً ، وتسنّ سُنَنـاً حَسنـةً وسِيَراً . ومن أَعـلاَهـا مَظْهَراً وأَسْنـاهـا سَنـاءً ومَفْخَراً اشتمالُكَ على الفقيـهِ الإمـام الحـافـظ أبي عليّ ، مُعظّم سُلطـانـك وظَهيرنـا ـ أَبقاهُ اللهُ ، وأكرَمهُ بتقوَاه ـ وتقييدُه في حَضرَتِكَ وتقديمُـه في أُثْرَتـك[٢] ، وحَبس مَعارِفه الجَليلة ورواياتِه الحَفيلةِ على إمْرَتِك . فالعلماءُ لا يُخْرِجُهم فـاضـلٌ ، ولا يَـزْهَـدُ فِيهم عـادِل . وهمُ القـومُ كما جـاءَ في الأَثَرِ عن رسولِ اللهِ ﷺ : لا يشقى جَليسُهَم[٣] ، ولا تنكشِفُ أَنوارُهم وشُموسُهم .

ولما سبَقْتَ أَيّـدكَ اللهُ إلى هـذهِ الْمَنْقَبـةِ الجَليلـة ، واليـدِ الجَميلـة التي أَجملت الصَّنيع وطوّقتِ الجَميع ؛ بالَغْنا في ذِكرها ، وخَرجنـا عن مُفْتَرض شُكْرِها ؛ لتتأكّـدَ في شَـدِّ اليـدِ عَليـه بصيرَتُـكَ ، وتزدادَ في عينـكَ حُسْنـاً وجَمالاً طريقَتُك المثلى وسِيرَتُك .

---

(٢) الأُثرة : البقيّةُ من العلم .

(٣) روى الإمـام أحمـد في مسنـده (٢ : ٣٥٨) من حـديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : « إنّ لله عزّ وجل ملائكة فضلاً يتبعون مجالس الـذكر يجتمعون عنـد الـذكر ؛ فـإذا مَرّوا بمجلس علا بعضهم على بعض حتى يبلغـوا العرش فيقـول الله عز وجل لهم ـ وهو أعلم ـ من أين جئتم ؟ فيقولون من عند عبيد لك يسألونك الجنـة ويتعوّذون بك من النار ويستغفرونك فيقول : يسألوني جَنّتي هل رأوهـا ويتعوّذون من نار جهنم فكيف لو رأَوها ؟ فإني قد غفرت لهم . فيقولون : رَبّنـا إن فيهم عبـدك الخطّـاء فلانـاً مرّ بهم لحـاجـة لـه فجلس إليهم فقـال الله عَزّ وجـل : أولئـك الجلسـاء لا يشقى بهم جليسهم » .

واللهُ يُبقي دَولتك مأوًى للصّالحين ، ومثوىً للفاضِلين ، بِعزّته وقُدْرته .

[١٢٠]

وله أيضاً(☆) ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ إليه ، نَضَّر اللهُ وَجْهَهُ :

أَطالَ اللهُ بقاءَ الأَميرِ الأَجلّ للمَحلّ الأَسْمى والقَدْرِ الأَعلى والصِّيت الأَبْعَد والأَثرِ [١٠٨/ب] الأَحمد والنّصرُ من جُنودِه ، والظَّفرُ من عَديده ؛ والقدرُ من أوليائه ، والدهرُ من خَوَلِه ونُصحائِه . ولا زالت آمالُه مُجدَّدة .

[١٢١]

وله(☆) أيضاً ، رحمةُ اللهِ عَليه :

أطالَ اللهُ بقاءَ عِمادِيَ الأَعْظَم ، وظَهيري الذي لا يُضَامُ ولا يُهْتَضم ، ونَيِّري إن أَظلم خَطبٌ أو ادلَهَمّ : حَميدةً مناقِبُهُ ، سَعيدةً ثواقبهُ ، منيفةً مراقِيهِ ومَراقِبهُ . ولا زالَ للمجدِ حارِساً ، وللمكْرُماتِ مُزاولاً ومُمارساً ، كتبتُ ـ أَدامَ اللهُ عِزَّكَ ـ وقد عادَني من ذِكراكَ عِيد[1] ، وترامى بي

---

[١٢٠]

(☆) إلى الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف (انظر القطعة : ١٠٩) .

[١٢١]

(١) العيد : ما يعتادُ من الشَّوق (أو الهمّ أو الحزن أو نحو ذلك) .

نَحْوَكَ شوقٌ مُبْدئٌ مُعيد . وما زلتُ ـ عَلِمَ اللهُ ـ إلى تلكَ الفضائل جانِحاً وفي نَشْرِها جامحاً ؛ أُعْطِيها في كلِّ نادٍ حَقَّها مُذيعاً ، وأَجْلُوها رَوضاً مريعاً ؛ فتظلّ الأَعناقُ لها خاضِعَة ، والمراتِبُ السَّامية مُتَواضعة . فلَحى اللهُ دهراً لم يمتعْ بالجوار [وقد سـ]ـمَحَ[٢] بالمزار . صَرم الحبل وَشِيكاً ، وأبكى العُيون دَماً سَفيكاً . أفادَ الأَعلاقَ وأَفاتها ، وأحْيي الفُتُوَّةَ ثمّ أَماتَها . فهَلاّ قَبْلَ أن تلتَئِمَ الأَهواءُ[٣] ، ويترتّب بين القُلوبِ على المصَافاةِ الجَزاءُ ؟ ما أكذَبَ وميضَهُ ، وأقَلّ تغافُلَهُ وتغميضَه ! رمى الله في عَيْنَيْه بالقَذى[٤] ، وسامَهُ ما يسومُنا من الأَذى ؛ ونقَلهُ عن أخلاقه الصُّمّ ، واستعملنا بحمده بدلاً من الذّم . أما إنّهُ هَمّ بجميل وسَمح من قُربنا بقليل . فها أَنا أشرفُ باليَفاع[٥] وأرمى بعينيَّ أَثْلاتِ القَاع[٦] . وأتبلّغُ بالنَّسيمِ إن خلص وأَجتزيءُ بتوهّم ذلك الظّل وإن تقلّص . فمتى نلبسه وارداً ، ونتسوَّغُ العَيْشَ بارداً ؛ وألقى الفضلَ باهراً ، وذلك الجو رائعاً زاهراً ؟ ولو عِشْنا بهِ زَمناً رَغْداً ، واعتقدنا في تلك المعاهِد عَهداً لوجَدْنا للسّلوانِ نشقاً ، وأنشَدْنا :

« مُنًى إن تكنْ حَقّاً »[٧] لكن كان حَظّاً عثر أَوّلُه بآخِره صَدَراً

---

(٢) ما بين معقوفتين غير ظاهر من أثر التصوير ، وأظنه كذلك .

(٣) أي فهلاّ صنع كذا قبل أن .. ومثله قول الأشتر : « فهلاّ تلاحاميَ قبل التقدّم ؟ » .

(٤) من قول جميل : « رمى الله في عيني بثينة بالقذى ... » .

(٥) اليفاع : المشرف من الأَرض والجبل ، أو التلّ المشرف .

(٦) الأَثلات جمع أثلة . والأَثل : شجر عظيم .

(٧) من قول رجل من بني الحارث ، (الحماسة بشرح المرزوقي ١٤١٣) ، وهما بَيْتان :

منىً إن تكن حقاً تكن أحسنَ المُنى ... وإلاّ فقد عشنا بها زمَناً رغدا

أمانِيَّ من سُعْدى حساناً كأنّما ... سقتك بها سُعدى على ظمأٍ بَرْدا

والتقتْ طَرفاه قِصَراً ، فَما كادَ يَحُلّ حتّى رَحل ، ولا كربَ حتّى أَفَل[٨] . وعلى ذلك فقد أخذْنا منه بلاغاً ووجَدْنا لِهبتهِ وإن قَلّتْ مَصاغاً[٩] وادّخرنا إلى ذلك صفاءً والتزمنا ذمة ووفاءً وما الدهرُ إلا أنفاسٌ وبَرْقٌ خلاّس[١٠] ، قُصاراه [١٠٩/أ] ـ وإن طالَ ـ ذكْرٌ ، ومحصولُه ـ وإن أنالَ ـ توهُّمٌ أو فِكر . وإنّ الكتابَ الرفيعَ وافاني بالمبرّة مفتتحاً ، وللمسرّةِ مقترحاً ، وإلى الغَرْبِ مُشيراً ؛ وعلى البُعد مُغيراً ؛ فزحزحَ حَرَّ الهَواجر ، وسَمح بالوصْلِ من الجَانِي الهاجر . أجَلْ ! لقد نابَ عن اللِّقاء وشَفى مِنَ البُرَحاءِ وقصَّرَ من أنفاسِ الصُّعَداء[١١] وإنّهُ لمِاَ يَشْجَى لهُ البَيْنُ وتَقَرُّ به العَيْنُ (وكُلُّ ما بلَّ وَجْداً فهو مَحْمُودُ)[١٢] . ورأَيتُ ما أومأتَ إليه دام عزك من أمر أَبي عامِر بنِ الحَاسِب[١٣] وما فارقتُ في عون الإخوانِ ماتَعرفُ ، وإن قلَّ منهم من يُنصف . وذلك فتىً تَغَيَّرَ لا لعلّة ، وصارَ في الخَيالات الْمُضمَحِلَّة ، نَقَم عَليّ مُخَاطبتكَ عندَ تلكَ الوَهْلة ، معرفاً لكَ بما دَفَعت الضّرورةُ إلى ذِكره ولم يكن بدٌّ من وَصْفِه واستهْجَن ذِكري لذلك النَّزْرِ الّذي قَدَّمْتُه إلى الشَّيخ ليكون عوناً على رِحلته قبْلَ الْمُطالبة التي

---

(٨) كربت الشمس : دنت للأُفول .

(٩) المصاغ : الحلى المصوغة .

(١٠) خلاّس مبالغة اسم الفاعل من خلس الشيء : اختطفه بسرعة .

(١١) البُرَحاء : الشدّة والمشقّة :

(١٢) قال حمّاد عجرد ، وتروى للعتابي (بهجة المجالس : ٦٣٦) من قطعة :

بُثّ النَّوالَ ولاتمنَعْكَ قلّته ... فَكُلُّ ماسَدّ فَقْراً فهو محمودُ

(١٣) أبو عمروُ بن الحاسب (؟)

توقّعْتُها ، والمناقشةِ التي استَنْشقْتُها . وكان أَملي أَنْ أَجِدَهُ ببلنسية[١٤] فَأصِلُ سُرَاي ، وأَتخطّى هوى الأَعداءِ إلى هَواي ، فثَبَّطَهُ ولَواهُ ، ومَنعه وعَداه ؛ وطوى كتابي بعلّة ما طَواه . فأدّى ذلك إلى الاعتقال ، وكنت سبباً إلى مالا أنساهُ من الإذلال . وانتظارُه أَلْقَاني في تلكَ الحِبالَة[١٥] ، ومَنَعنِي من الأصالة . والأقدارُ سابقةٌ ، والأَكدارُ لاحِقَةٌ . ولم يكفِه ذلكَ حتّى كَتَب إليَّ كِتاباً إلى الحَضْرَةِ ـ حرسَها الله ـ يلومُ فيه ويُعَنِّفُ ويُقَرِّطُ ويشنّفُ . ومن كلامه نصاً « إنّي لَمْ أَرَ نزعةً أَرْذَلَ مِن تلكَ النَّزْعَة » . فأَيُّ نزعةٍ ـ أَعزَّكَ ٱللهُ ـ أَبْخَسُ وأَيُّ صَفْقَةٍ أَوْكَسُ ؟ وَليتَهُ إذ لم يَرْعَنِي في

---

(١٤) بلنسية : مدينة كبيرة في شرق الأَندلس ، تقع على نهر جارٍ غزير المياه ، عند البحر المتوسّط . كانت قاعدة من قواعد الأندلس الكبرى . واكتسبت مكانة كبيرة في أيام الدولة الأمويّة . وكانت أيّام الفتنة (منذ ٣٩٩ هـ) تحت سيطرة عدد من الفتيان العامريّين . ثم سيطر عليها عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد العامريّ المتلقب بالمنصور واستمر إلى ٤٥٢ هـ وخلفه ابنه عبد الملك ، فوزيره أبو بكر بن عبد العزيز (٤٥٧ ـ ٤٦٧) وخلفه ابنه أبو عمرو . ثم استولى القادر بن ذي النون على المدينة بمعونة جيش من ألفونسو السادس المستولي على طليطلة سنة ٤٧٨ . وفي سنة ٤٨٥ استولى القاضي ابن جحاف على الأمور وقتل القادر . وفي سنة ٤٨٧ دخل السِّيْد الكمبياطور أحد القواد الإسبان وهو مغامرٌ أَفّاق فاحتل المدينة وأحرق القاضي وبعض أعوانه وعاث فساداً . ثم حرّر المرابطون مدينة بلنسية سنة ٤٩٥ هـ بقيادة الأمير أبي محمد مزدلي .

واستمرت بلنسية مدينة إسلامية إلى أن انهارت الأندلس أيام الموحدين فسقطت المدينة سنة ٦٣٣ هـ بيد خايمة ملك أراغون .

وقيل في رثاء المدينة ، والحَثّ على استرجاعها شعر ونثر كثير .

(١٥) الحبالة : المصيدة .

الغَيْبَةِ فدفعَ بيني وبينَهُ حِجابَ الهَيْبَةِ لم ينتهكْ حُرْمَةَ ذلكَ الشَّيخ القَدِيم ، والصاحبِ النّديم ؛ فإنَّهُ أَنحى عليه ، وتطرّقَ بكلٍّ وقيعةٍ وذمٍّ إليه . وقد كانَ يجبُ أن يرعاهُ لِصُحبتي ويستشعر في سنّه سِني ورُتبتي .

باسَطْتُكَ - أعَزّكَ اللهُ - من أَمْرِهِ فيما لعَلّهُ يستتِرُ ، ولا يظهر ؛ ولا يشتهر ، فإنّما هيَ شَكْوى راحة ، وإبراءُ ذمّة وساحَة ؛ فَرُبّما غابَ عنكَ أَمْرِي وربّ سامعٍ لخبري ، لم يسمعْ عُذري .

وبعد فما أَحقِدُها ولاأُردِّدُها ، وإنّما بقيتْ في الضَّمير لأشكُوَها [١٠٩/ب] إليكَ ، وأبسُطَها لَديك . ثمّ هو مُنتهاها وغايَةُ مَداها . وأمّا ذلك الفاضِلُ المشارُ إليْهِ ؛ فلا أتّهمُ رأيكَ في اختيارِه ، ولاأَشُكُّ في رِفعةِ مِقْدَاره . وإنّه المتجمّلُ بِمَشْهَده ، الْمُسْتراحُ إلى كرَمِ مَقْصِده . لكنْ هَذه الجهةُ - مَهَّدَها اللهُ وبَسطها - ضيّقةُ الأَعْطانِ ، حَرِجَةُ مجالِ السُّلطان . اليدُ بها مَغْلُولةٌ والعزَائمُ مَحلُولةٌ والأعمالُ لاترجعُ إلى قانُون يُفيد ، ولا إلى نظرٍ يُعيد . وإنّ العُطلةَ - دامَ عزُّكَ - لأَوْطَأُ منها مِهاداً وأوْرى زِناداً وأحمد مغبّةً ، وأخلقُ بالحُرّ هوىً ومحبّة . ومافيها - أعَزّكَ اللهُ - مايحوج إلى استنابة ، ولا يخرجُ عن استيحاشٍ واستِرَابة . وحَسبُك بما تراهُ ممّا لاأَرى الخروجَ عنهُ إلاّ لمثلكَ ولا الإلقاءَ به إلاّ إلى فَضْلك . وإن نَشأَ مايَبعثُ أَملاً ، ويقتضي مُفَسّراً ومُجْملاً ثوّبْتُ[١٦] داعياً ، وأسْرَعْتُ ساعياً ، إن شاءَ اللهُ عَزَّ وجَلّ . وإذْ قد بدأتَهُ بالمؤَانسةِ فلا تقطعْ ، ونهضتَ فلا ترجعْ ، ووهبتَ فلا تَسْتَرْجِعِ إن شاء الله والسَّلام .

---

(١٦) ثَوَّب الداعي : دعا مَرّة بعد أُخرى .

[١٢٢]

وله مَلْعَبَةٌ ، رحْمَةُ اللهِ عليه :

سمتْ لَهُم بالغَوْرِ والشَّمْلُ جامعُ بُروقٌ بأعلامِ العُذَيْبِ[١] لَوامِعُ
فباحَتْ بأسرارِ القُلوبِ الْمَدامِعُ[٢] ورُبَّ غَرامٍ لمْ تنَلْهُ الْمَسامِعُ
أذاعَ به[٣] مُرْفَضُّها[٤] المتصوّبُ

ألا في سَبيلِ الشَّوق قلبٌ موكّلُ بركبٍ إذا شَامُوا البروقَ تَحَمَّلُوا
هو الموتُ إلاّ أنّني أتجَمَّلُ إذ قلتُ : هذا مَنْهَلٌ ، عنَّ مَنْهَلُ
ورايةُ برقٍ نحوَها القلبُ يجنبُ[٥]

خُذوا بِدَمي ذاكَ الوميضَ الْمُضَرَّجا ورَوْضاً لقبضِ[٦] العاشقين تأرَّجا
عفا الله عنهُ قاتلاً ما تحرَّجا تمشّى الرَّدى في نشرِه وتَدرّجا
وفي كُلِّ شَيْءٍ للمنيّةِ مَذْهَبُ[٧] !

أفي اللهِ ، أمّا كلّ بعد فثابتُ وأمّا دُنوُّ الدَّارِ منهمْ ففائتُ

---

[١٢٢]

(١) العُذيب : العُذَيب وبارق في ديار بني تميم .

(٢) في الخريدة : بأسرار الضمير .

(٣) في الخريدة : أذاع بها .

(٤) ارفضّ الدمع : سال وتفرّق .

(٥) جنب إلى كذا : اشتاق .

(٦) في الخريدة : لقبر .

(٧) في الخريدة : مرهب .

[١١٠/أ] ولا يلفتُ البينَ المُصَمِّمَ لافِتُ ويـا رَبّ حتّى البـارقُ المتهـافتُ

غرابٌ بتفريقِ الأحِبَّةِ يَنْعَبُ[٨] ؟

سقى اللهُ عهـداً قـد تقلَّصَ ظِلُّـه حيـا نضرةٍ[٩] يُحْيي الرُّبا مُسْتَهِلُّـه

وحَيّى بـه شَخْصـاً كريمـاً أُجلُّـه يُصِـحُّ فـؤادي تـارةً ويُعِلُّـه

ويلأَمهُ بالذّكر طوراً ويَشْعَبُ[١٠]

رَمـاني على فـوتٍ بشرخِ ذكائِـه[١١] فأعشتْ جُفوني نظرةٌ من ذُكائِه[١٢]

وغصّت بـأدنى شُعبـةٍ من سَمائـه شِعـابي وجـاءَ البحرُ في غُلوائِـه

فكلٌّ قَرِيٍّ ردع حدّيه يركبُ[١٣]

ألمْ يـأتـه أنّي ركبتُ قَعُـودا[١٤] وأجْمَعْتُ عن وَفْدِ الكَلامِ قُعُودا

وأرْهَقني هـذا الـزّمـانُ صَعُـودا[١٥] ولم أعتصر للـذكر بعـدك عـودا[١٦]

فَرَبْعُ الّذي بينَ الْجَوانحِ سَبْسَبُ[١٧]

على تلـكَ من حـالٍ دعوتُ سميعـا وذَكَّرْتُ رَوضـاً بـالعُقـابِ مَرِيعـا

(٨) نعب الغُرابُ ونعق .

(٩) في الخريدة : نظرة .

(١٠) شعبَه : صدَعه .

(١١) الشرخ من كل شيء : أوله ونضارته وقوّته

(١٢) ذكاء : اسم للشّمس .

(١٣) القرِيُّ : مجرى الماء في الرّوض وفي الحوض .

(١٤) القَعُود : ما يقتعده الرجل للركوب والحمل لا يكونُ إلا بكراً ذكَراً .

(١٥) من الآية الكريمة : ﴿ سأرهقهُ صَعُوداً ﴾ المدثر ١٧/٧٤ . أي مشقّة من العذاب .

(١٦) في الخريدة تقديم وتأخير بين القسمين ٣ ، ٤

(١٧) السبسبُ : القفر والمفازة .

وشَمْلاً بشعب المـذحجيّ جَميعـا   وسِرْبـاً بـأكنـافِ الرُّصـافـةِ رِيعـا
وأحداق عين بالحِمَامِ تقلَّبُ

ولم أنْسَ مَمْشـانـا إلى «القَصْرِ ذي النَّخْـلِ»
بحيثُ تجـافى الطَّـودُ عن دَمِثٍ سَهْـلِ
وأشْرَف لا عن عُظْمِ قَدْرٍ ولا فضْلِ   ولكنَّـهُ للْمُلْـكِ قـامَ على رِجْلِ
يقيهِ تَباريحَ الشّمال ويحجبُ[18]

فكم مُـوجعٍ ينتـابُـه بِرَسِيْسِـهِ[19]   ومُعتبرٍ ألْقى بـأرحُـلِ عِيسِـهِ
يَرى أُمَّ عمرو في بَقايـا دَرِيسِـه[20]   كسَحْـقِ اليَماني مُعتليـه نفيسِـهِ
ورُقعتُه تَسْبي العيونَ وتُعْجِبُ

ببيضـاءَ للبيضِ البَهـاليـلِ تَعْتَـزِي   وتعتزُّ بـالبـانِي جَلالاً وتَنْتَـزِي[21]
[١١٠/ب] سوى أنَّهـا بعـد الصَّنيع الْمُطَرَّزِ
كسَـاهـا البِلى والثُّكل أسمالَ مُعْـوِزِ[22]
فتَبْكِي وتُبْكِي الزّائرين وتندبُ

وكم لـكَ بـالـزَّهْراءِ من مُتَردّدِ   ووقفـةِ مُستَنِّ الْمَـدامعِ مُقْصَـدِ[23]

---

(١٨) التباريح : الشدائد . وتباريح الشوق : توهّجه .

(١٩) الرسيس : ابتداء الشيء .

(٢٠) الدَّرِيس : الثوب الْخَلَقُ .

(٢١) اعتزى إليه : انتسب وانتمى . من التنزّي : التوثّب .

(٢٢) أسمال جمع سَمَل : الثوبُ الخلق البالي .

(٢٣) استن : اضطرب .

ـ والزهراء : مدينة في غربي قرطبة بناها الناصر عبد الرحمن بن محمد . بينهـا وبين قرطبـة =

يُسَكّنُ من خَفْقِ الْجَوانحِ باليدِ ويهتكُ حُجْبَ النّاصرِ بنِ مُحَمَّدِ[٢٤]

ولا صَولة تُخشى هناكَ وتُرْهَبُ!

كأنْ لم يكن يُقْضى بها النَّهْيُ والأمرُ ويُجبى إلى خُزَّانِها البَرُّ والبَحْرُ[٢٥]

ويُسْفِرُ مَخْفُوراً بذمّتها الفَجْرُ ويوسَمُ مَخْتُوماً بِطينَتِها الدَّهْرُ

فأيَّامُه تُعْزى إليها وتُنْسَبُ

لَنِعْمَ مَقامُ الخاشِع الْمُتَنَسِّكِ وكانت محلَّ العَبْشَمِيِّ الْمُمَلَّكِ[٢٦]

متى يُوردِ النّفْسَ العزيزةَ تُسفَكِ وإن يَسْمُ نحو الأبْلَقِ الفَرْدِ يُمْلَكِ[٢٧]

وأيُّ مَرامٍ رامَهُ يَتَصَعَّبُ؟

قُصورٌ كأنَّ الماءَ يَعْشَقُ مَبْنَاها فَطوراً يُرى تاجاً لمفرقِ أعلاها

وطَوراً يُرى خَلْخالَ أسْؤقِ سُفلاها إذا زَلّ وَهْناً عن ذوائبِ مَهْواها[٢٨]

تقولُ: هَوى بدرٌ أو انْقَضَّ كوكَبُ

أتاها على رَغْمِ الجِبالِ الشَّواهِقِ وكُلِّ مُنيفٍ للنُّجومِ مُراهِقِ[٢٩]

= خمسة أميال. كانت دُرَّة ضواحي قرطبة. ذكرها المؤرخون والشعراء كثيراً. أصابها الخراب في أيّام الفتنة. (وانظر كتاب قصر الزَّهراء: نجلة إسماعيل العربي. بغداد).

(٢٤) الناصر لدين الله عبد الرّحمن بن محمد (المعروف عند المؤرخين بعبد الرحمن الثالث) أشهر خلفاء بني أمية، ومجدّد دولتهم في القرن الهجري الرابع، وهو باني ضاحية (الزهراء) حكم من (٣٠٠ ـ ٣٥٠) وكانت ولادته سنة ٢٧٧ هـ.

(٢٥) خُزّان جمع خازن.

(٢٦) العبشميّ نسبة إلى (عبد شمس)، وهم بنو أُميّة.

(٢٧) الأَبْلَقُ الفَرْدُ: حصن قديم في الجاهلية، في تيماء، والعرب تضرب به المثل في الحصانة والمنعة، فتقولُ: تمرّد مارد وعزّ الأبلق.

(٢٨) أسؤق (بالهمز) وأسوق: جمع ساق، وتجمع أيضاً على سوق وسيقان.

(٢٩) ضبطها في الأصل بكسر الهاء: مُراهِق: اسم فاعل من راهق بمعنى قارَبَ.

وكْمْ دفعتْ بالصَّدرِ منهُ بعائقِ فأودِعَ في أحشائِها والْمَفارقِ

حُساماً بأنْفاسِ الرِّياحِ يُذَرَّبُ[٣٠]

هي الْخَوْدُ من قَرْنٍ إلى قَدَمٍ حُسْنا[٣١] تناصَفَ أقْصاها جَمالاً مع الأدْنى

ودُرّج كالأفلاكِ مَبْنًى على مَبْنى تَوافَقْنَ في الإتقانِ واختلفَ الْمَعْنى

وأسبابُ هذا الْحُسْنِ قد تتشعَّبُ!

كم احتضَنَتْ فيها القِيانُ الْمَزاهِرا[٣٢] وكم قَدْ أجابَ الطَّيرُ فيها الْمَزامِرا

[١١١/أ] وكم فاوَحتْ فيها الرِّياضُ الْمَجامِرا[٣٣]

وكم شَهِدَتْ فيها الفراقِدُ سامِرا

عليهِمْ من الدُّنيا شُعاعٌ مُطَنَّبُ[٣٤]

فأينَ الشُّموسُ الطالعاتُ بها لَيْلا وأينَ الظِّباءُ السّاحباتُ بها ذَيْلا[٣٥]

وأينَ الغُصون المائساتُ بها مَيْلا وأيْنَ الثَّرى رَجْلاً وأين الْحَصى خَيْلا؟

فواعَجَباً لو أنّ من يتَعجَّبُ!

وما لكَ عن ذَاتِ القِسِيِّ النَّواضحِ[٣٦] وناصِحَةٍ تُعْزى قَديماً لناصِحِ

وذي أثَرٍ باقٍ على الدَّهْرِ واضحِ يُخَبِّرُ عن عَهْدٍ هُنالِكَ صالحِ

ويَعْمُر ذِكرى الذّاهبينَ ويخربُ

---

(٣٠) ذرّب السيف (وذربه) : أحدّه .

(٣١) الخود : الفتاة الحسنة الشابّة ، والجارية الناعمة المتيّلة .

(٣٢) المِزاهر جمع المِزهر : العود .

(٣٣) المجامر جمع المجمر : ما يوضع فيه الْجَمْرُ مع البَخُور .

(٣٤) هذا الخماسي (البيت من خمسة أقسمة) مقدم على التالي في الخريدة .

(٣٥) بين هذا القسيم وتاليه تقديم وتأخير في الذكر .

(٣٦) نضحَ القوم بالنَّبل : رماهم ففرَّقهم .

تـلاقى عليـهِ فيضُ نهرٍ وجَـدوَلِ   تصعَّـد من سُفـل وأقبـلَ من عَـلِ
وهــذا جُنــوبيٌّ وذلــكَ شَمْــألِي   ومــا اْتَّفقــا إلاّ على خَيْرِ مَنْــزِلِ
وإلاّ فإنَّ الفَضْلَ فيهِ مُجَرِّبُ !

كأنَّهما في الطِّيب كانَــا تَنــافَرا   وسـارا إلى فَصْلِ القَضـاءِ وسـافَرا
فلَمّــا تَـلاقى السَّــابقــان تَنــاظَرا   فقـالَ وَلِيُّ الحقّ: مَهْلاً تضَـافرا
فَكُلُّكما عَذْبُ الْمُجاجَةِ طَيِّبُ[٣٧]

ألَمْ تَعْلَما أنّ اللَّجـــاجَ هــو الْمَقْتُ   وأنَّ الّـذي لا يقبل النَّصْفَ مُنْبَتٌّ[٣٨]
ومـا منكُما إلاّ لَــهُ عنـدَنــا وَقْتُ   فلَمَّا اسْتَبان القصدُ واتَّجَـه السَّمْتُ[٣٩]
تَقشَّعَ عن نُور المَودَّةِ غَيْهَبُ

وإنَّ لنــا بــالعَــامِريِّ لَمَظْهَرا[٤٠]   ومُستَشْرَفـاً يُلْهي العُيـونَ ومَنْظَرا
ورَوْضاً على شَطَّيْ خُضارةَ أخْضَرا[٤١]   وجَوْسَقَ مُلْكٍ قد عَـلا وتَجَبَّرا[٤٢]
لَهُ تِرَةٌ عندَ السِّماكين تُطْلَبُ[٤٣]

تَخيَّرَهُ من عُنفُــوانِ الْمَــوارِدِ   وأثْبَتَــــهُ في مُلْتقى كُـــلِّ واردِ

---

(٣٧) الْمُجاجة : الريق ، ومُجاجة الشيء : عُصارته .
(٣٨) النصف مصدر نصف : انتصف ، وعدل .
(٣٩) السّمت : الطريق الواضح .
(٤٠) العامري : نسبة إلى المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد ، والمتغلب على الدّولة . عُني ببناء القصور وإنشاء الحدائق مضاهاة لعبد الرحمن الناصر .
(٤١) خُضَارة : علم على البَحْر (لخضرة مائه) .
(٤٢) الجوسق : القصر الصّغير ، والحصن (معرّب) .
(٤٣) أي له ثأرٌ ، من فعل وَتَرَ فلاناً .

[١١١/ب] وأبْرَزَهُ للأَرْيَحِيِّ الْمُجاهِدِ وكُلِّ فَتًى عن حَوْمَةِ الدِّين ذائِد

حَفيظَتُهُ في صَدْرِهِ تَتلَهَّبُ

تَقدَّمَ عن قَصْرِ الخِلافَةِ فَرْسَخا وأصْحَرَ في الأرضِ الفَضاءِ لِيُصْرِخا[٤٤]

فخالَتْهُ أرضُ الشِّرْكِ فيها مُنَوِّخا[٤٥] كذلك من جاس الدّيارَ ودوَّخا[٤٦]

فرَوْعَتُه في الأَرْضِ تَسْري وتَذْهَبُ

أُولئك قومٌ قد مَضوا وتصرَّعُوا[٤٧] قضَوْا ما قضَوْا من أمْرِهِمْ ثمّ وَدَّعُوا

فهلْ لهمُ رُكنٌ يُحَسُّ ويُسْمَعُ تأمَّلْ، فهذا ظاهرُ الأرضِ بَلْقَعُ[٤٨]

ألا إنَّهُم في بَطْنِها حيثُ غُيِّبُوا!

ألسْتَ تَرى أنّ الْمُقامَ على شَفا وأنّ بَياضَ الصُّبح ليس بذي خَفا

وكَمْ رَسْم دَارٍ للأحبَّةِ قد عَفَا وكانَ حديثاً للوفودِ مُعَرّفا

فأصبحَ وحْشَ الْمُنتدى يُتَجَنَّبُ

وللهِ في الدَّارات ذاتِ الْمَصانعِ[٤٩] أخِلاَّءُ صِدْقٍ كالنُّجوم الطَّوالِع

أُشَيِّعُ مِنهم كلَّ أبيضَ ناصِع وأرجعُ حتّى لستُ يوماً براجِع

فيالَيْتَني في فُسْحَةٍ أتأهّبُ!

---

(٤٤) أصْحَر : خرج إلى الفضاء . أصْرَخ : أغاث .

(٤٥) نوّخ الناقة : أبركها .

(٤٦) جاس الشيء : وطئه وداسه . وفي سورة الإسراء ٥/١٧ : ﴿ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيارِ ﴾ .
والجوس : التردّد خلال الدور والبيوت والطواف للغارة والقتل .

(٤٧) في الخريدة : « وتصدّعوا » .

(٤٨) البلقع : الخالي من كل شيء .

(٤٩) المصانع : المباني من القصور والحصون والقرى والآبار ..

أَقُرْطُبَةٌ لم يَثْنِني عنكِ سلوانُ   ولا بَعْدَ إخواني بمغناكِ إخْوانُ
وإنّي إذْ لم أُسْقَ ماءَك ظمآنُ   ولكنْ عَداني عنكِ خَطْبٌ له شانُ
ومَوطئُ آثارٍ تُعَدّ وتُكتَبُ!

لكِ الْحَقُّ والفَضْلُ الذي ليسَ يُدْفَعُ   وأنتِ لِشَمْسِ الدِّين والعِلْمِ مَطْلَعُ
ولولاكِ كان العِلْمُ بالجهل يُرفَعُ   وكُلُّ التُّقى والهَدْيِ والخيرِ أجمعُ
إليكِ تناهى، والحسودُ مُعَذَّبُ!

ألم تَكُ خُصَّتْ باخْتِيارِ الْخَلائفِ   ودانَتْ لَهُمْ فيها مُلوكُ الطَّوائفِ
[١١٢/أ] وعَضَّ ثِقافُ الْمُلْكِ كُلَّ مُخالِفِ
بكلِّ حُسامٍ مُرْهَفِ الحدِّ راعِفِ(٥٠)
به تُحْقَنُ الآجالُ طَوْراً وتُسْكَبُ

إلى مُلْكِها انقادَ الْمُلوك وسَلَّموا   وكَعْبَتَها زارَ الوُفودُ ويَمَّموا
ومنها استَفادوا شَرْعَهُم وتعلَّموا   وعاذُوا بها من دَهْرِهِمْ وتحَرَّموا
فنكَّب عَنْهُم صرفَهُ الْمُتَسَحِّبُ(٥١)

علوتِ فما في الْحُسْنِ فوقكِ مُرْتَقى   هَواؤُك مختارٌ وتُرْبُكِ مُنْتَقى
وجِسْرُكِ للدُّنيا وللدّين مُلْتقى   وبيتُك مرفوعُ القَواعِدِ بالتُّقى
إلى فضْلِه الأكْبادُ تُنْضى وتُضْرَبُ(٥٢)

تَولّى خيارُ التّابعينَ بناءَهُ(٥٣)   وخَطُّوا بأطرافِ العَوالي ثَناءَهُ

(٥٠) راعف: يقطرُ منه الدَّمُ.

(٥١) في الخريدة: المتصحّبُ.

(٥٢) يقال أنْضى الدابة أي هزلها ـ من السَّفر والجهد ـ وأتْعبَها. وإنضاءُ الأكباد مجاز.

(٥٣) دخل الأندلس من التابعين عَدَدٌ فيهم حنش الصَّنعاني وكان ماهراً بتعديل القبلة مقدّماً في بناء المساجد بالأنْدَلُس.

ومَـدُّوا طـويـلاً صِيتَـهُ وثنـاءَهُ   فـلا خلـعَ الإسـلامُ عنـه بهـاءَه
ولا زَالَ سعْيُ الكائِديهِ يُخَيَّبُ !

وتـابـع فيـه كلّ أروعَ أصْيَـدِ   طـويـل الْمَعـالي والمكارمِ واليَـدِ
فَشـادُوا وزادُوا سَيِّداً بعـد سَيِّـد   وبـادُوا جَميعـاً عن منيـعٍ مُخَلَّـدِ
يقومُ عَلَيْهِمْ بالثَّناء ويَخْطُبُ

مصَابيحُهُ مثلُ النُّجومِ الشَّوابكِ[54]   تُمـزِّقُ أثْـوابَ اللَّيـالِي الْحَـوالـك
وتحفَظُـهُ من كُـلِّ لاهٍ وسـالِـكِ   أَجَادِلُ تنقَضُّ انْقِضاضَ النِّيـازِك[55]
فأبْشارُهمْ بالطَّبْطَبيَّةِ تُنْهَبُ ![56]

أجـدّك لم تَشْهَـدْ بهـا لَيْلَـةَ القَـدْرِ   وقد جاشَ مَدُّ النّـاسِ منـه إلى بَحْرِ[57]
وقد أُسْرِجَتْ فيهِ جبـالٌ من الزّهرِ   فلو أنَّ ذاكَ النّـور يُقْبَسُ من فجْرِ
لأَوْشَك نور الفجر يَفْنى ويَنْضُبُ

كأنَّ الثُّريّـاواتِ[58] أطْـوادُ نَرْجِسِ   ذَوائبُـهُ تهفُـو بـأذْكى تَنَفُّسِ
[١١٢/ب] وطيبُ دُخَانِ النَّدِّ في كُلِّ مَعْطِسِ
وأنفـاسُـه في كلّ جِسْمٍ ومَلْبَسِ
وأذْيالُه فوقَ الكَواكبِ تُسْحَبُ

---

(٥٤) الشوابك : المشتبكة . قال تأبط شرّاً (ديوانه : ١٥٦) :
يرى الـوحشـة الأنس الأنيس ويهتـدي   بحيثُ اهتـدتْ أمُّ النُّجـومِ الشـوابـكِ
(٥٥) الأجادل جمع الأجدل : الصقر .
(٥٦) الأبشار جمع بشر : الإنسان . والطبطبيّة : الدِّرّة (يعني الضَّرب بها) .
(٥٧) جاش الماء : تدفَّق وجرى . وجاش البحر : هاج فلم يُستَطَعْ رُكوبه .
(٥٨) جمع (الثريّا) المعروفة ، مجموعة النُّجوم المعروفة في السَّماء .

إلى أنْ تبَـدَّتْ رايَـةُ الفَجْرِ تـزحفُ　　وقـد قُضِيَ الفَرْضُ الّـذي لا يُسَوَّفُ

تَـولَّـوا وأزْهـارُ الْمَصـابيـح تُقْطَفُ　　وأبْصَـارُهـا صَـوْنـاً تُغَضُّ وتُخْطَفُ

كما تُنصَلُ الأرْماحُ ثُمَّ تُرَكَّبُ(٥٩)

سَلامٌ على صَحْرائهـا وقُصورِهـا　　سَلامٌ على أوْطـانهـا وقبـورِهـا

سلامٌ على غُيّـابِهـا وحُضـورِهـا　　ولا زَالَ سُورُ اللهِ من دون سُورِهـا

فَحُسْنُ دِفَاعِ اللهِ أحْمى وأرْهَبُ(٦٠)

ففي ظَهرِها المعشوقِ كُـلُّ مُرَفَّـعِ　　وفي بطنهـا الْمَنْشُوقِ كلُّ مُشَفَّـعِ

مَتى تَـأتِـهِ شَكْوى الظُّلامـةِ تُرْفَـعِ　　وكُـلّ بعيـدِ الْمُسْتَغَـاثِ مُـدَفَّـعِ

من اللهِ في تلكَ الْمَواطن يَقْرُبُ

وكَمْ كُرْبَـةٍ مـلءِ الجـوانـحِ والقَلْبِ　　طرَقْتُ وقد نـامَ الْمُواسُونَ من صَحْبي

بِرَوْعَتِها مثوى الوَلِيِّ أبي وَهْبِ(٦١)　　وناديتُ في التُّربِ الْمُقَدَّسِ : يارَبّي !

فَعُدْتُ كما يهوى الفُؤادُ ويَرْغَبُ

ألا لَيْتَ شِعري هــل تَخُبُّ رِكابُ(٦٢)　　وهَل يتَقاضى النَّـازِحِينَ إيـابُ(٦٣)

وهَـل لِلَّيـالي الْمُذْنِبـاتِ مَتـابُ　　ألا إنَّــه بَعْــدَ الْمَشِيبِ شَبــابُ

وعُمْرٌ إلى رأدِ الغَرارة يُقْلَبُ(٦٤)

---

(٥٩) أنصل الرمح : نَزع نِصَاله .

(٦٠) في الأقسمة : الأول والثاني والثالث تقديم وتأخير وتداخل في نسخة الخريدة .

(٦١) المثوى : القبر .

(٦٢) الْخَبَبُ : نوعٌ من العدو ، والفِعْلُ منه : خَبَّ .

(٦٣) الأصـل في معنى تقـاضـاه الشيء : طلبـه منـه . والمعنى : هـل يقيّض للنـازحين أن يَعُودوا ؟

(٦٤) الغرارة : حداثة السنّ . ورأد الشباب : مقتبله .

فيا صاحِبي إن حـانَ قَبْلَـك مَصْرَعِي   وكنتَ على عَهْـدِ الرِّضى والهـوى مَعِي
فخُطَّ بضاحِي ذلـكَ التُّرْبِ مَضْجَعِي   وذَرْني فجـــارُ القَـــوْمِ غَيْرُ مُرَوَّعِ
فَعِنْدهمُ للجارِ أهْلٌ ومَرْحَبُ

رَعى اللهُ مَنْ يَرْعى العُهودَ على النّوى   ويبـدُو على القَوْلِ الْمُحبَّرِ مـا نَوى
[١١٣/أ] ولبَّيْــهِ من مُستحكمِ الـوُدِّ والهَـوى
يَرى كلَّ وادٍ غَيْرَ واديـــــهِ مُجْتَــوى[٦٥]
وأهْدى سَبِيليهِ الّذِي يُتَنكَّبُ

[١٢٣]

ولهُ ـ نفَعَهُ اللهُ ! ـ خُطْبَةٌ حَضَّ فيها عَلى الجهاد :

الحمدُ للهِ الـذي لا تُعَـدُّ سوابِقُ نِعَمِـه ، ولا تُحَـدُّ عَلائِقُ عِصَمِـه ، ولا تُرَدُّ بوائِقُ[١] نِقَمِه ؛ الذي فضَح البريةَ عَدْلُـه ، ووسِعَتْهم رحمَتـهُ وفضْلـهُ، قَـدَّر أرزاقَهمْ وأعمـارهُم ، وأحصَى أنفـاسَهمُ وكتَب آثـارَهُمْ ؛ ووكَّـلَ بِهم ليلَهُم ونَهـارَهُم ؛ فكُـلٌّ يتحرَّى مطـالِعَـهُ إلى أن يبلُـغَ مُنتهـاهـا ، ويتقرَّى[٢] مَضاجِعَهُ حتى يبيتَ بأقْصاها . من رضيَ حَتْمَهُ فمِن السُّعَداء ، ومَنْ سَخِـط حُكْمَهُ « فليمدُدْ بِسَببٍ إلى السَّماء »[٣] .

---

(٦٥) اجتوى البَلَد : كره المقامُ به (ولم يوافقه) .

[١٢٣]

(١) البوائق جمع البائقة : الغائلة والدّاهية .

(٢) يتقرّى : يتتبّع .

(٣) من الآية ١٥ من سورة الحج (٢٢) .

أحْمَدهُ حَمْدَ مؤمنٍ بلقائِه ، موُقنٍ بدوَامِه وبقَائِه ، ويعتقـدُ كُلَّ خَلْقٍ مَمْلوكاً له ، وهو المالكُ ويرى أَنّ كُلّ شيءٍ ـ غيرَ وجهِه ـ هَالِك[٤] .

وأشهدُ أَن لا إِلّه إلا اللهُ وحدَهُ لاشريكَ له ؛ كَلِمةٌ لفظُها أمانٌ ، وعَقْدُها عهدٌ بالجَنّةِ وضَمان ، وشهادةٌ يشهَدُ بها لَحْمُ الجاحِدِ ودَمُه ، ويَعْرِفُها قَرْنهُ وقدَمُه ، وإِن أَباهُ لِسانُهُ وفَمهُ[٥] . كلمةٌ مَنْ أَخْطأها تاهَ وركب المهامِهَ الأَشْباه . ومَنْ قالهَا لَزِمَ القَصْدَ ، وأَوردتْهُ حَوْضاً لم يظمأ بعدَه ولم يَصْدَ[٦] .

وأشهدُ أنّ محّمداً نبيَّهُ ورسولَهُ الصَّادِعَ بأَمرِهِ ونَهْيِهِ ، النَّاهِضَ بأَعباءِ رسالتِهِ ووحْيِهِ ؛ الرادعَ لأَهل الزيّغ والجهالة ، الجادعَ لأنفِ الكُفْر والضَّلاله . اعتَمد عُروشَهُم فَتَلَّها وثَلَّها[٧] ، وقصدَ جموعَهُمْ ففَضَّها وفَلَّها ، وأَعطى المشرفيَّةَ حَقَّها . وعَلّم صِلَةَ الأَرحامِ مَنْ قَطعها وشَقَّها ، وأَشْعَر برَّ شَعائرِ اللهِ وحُرُماتِه مَنْ جَفاها وعَقَّها ؛ حتى نَقَعَ الإِسلامُ غُلّته ورَوي ، وانتشَرَ الإِيمانُ وقد كانَ طُوِي ، واقْتَضى الدِّينُ الحنيفُ دَيْناً طالَما مُطِلَ ولُوِي[٨] وبَلَغَ مُلْكُ أُمَّتِهِ ما له من الأَرْضِ زُوي[٩] . صَلّى اللهُ عَليه وعلى

---

(٤) من الآية الكريمة : ﴿ ...كُلُّ شيءٍ هالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص ٢٨/٨٨] .

(٥) إشارة ـ واقتباسٌ من الآية الكريمة (٢٠) من سورة فُصّلت: (٤٤) .

(٦) صَدِي يَصْدى : عطش .

(٧) تلّه : صرعه ـ وثله (بالثاء المثلثة) من ثَلَّ البيت : أذا حفَر أصل حائطه ودفعه فانهدم .

(٨) يقال : لواهُ بدَينْه : إذا مطله .

(٩) نقل ابن الأثير في النهاية (زوى) من الحديث : « زُويت لي الأرضُ فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها » أي جُمِعت .

آلـهِ الـذّين أَلْبَسَهُم الفَضْلَ شَهِيراً واختـارَهم لَـهُ عَضـداً وظَهِيراً [١١٣/ب] وأَذهب عنهمُ الرِّجْسَ وطهّرهم تَطهيراً[١٠] . وعلى أَصحابِـه الـذين ابْتَـدرُوا دَعْوَتهُ سَبْقا ، وأَخْبروا عنهُ صِدقـاً ؛ ووجـدوا مـا وعَـدهُم حَقّـاً[١١] ومَـدُّوا أَطْنـابْ الإيمـان غَرْبـاً وشَرْقـاً . صلاةً تكـونُ لرضـاهُ عنهم ورضـاهُم عنـهُ وَفْقا[١٢] ، وتتَقرّاهُم حيثُ كانوا داراًداراً ، وأُفقاً أُفقاً .

أيّها النّاس !

بالنَّصيحةِ ماأَنْطِقُ ، والذُّبالةُ[١٣] تُضيءُ وتَحترِقُ ، لو صَدقْتُم أَجسـادَكم عن مُوحشِ مآلها ، وتَغيُّرِ جمالهـا ، وحؤول أحوالهـا ، وانتقـاض أَجْزَائِهـا وأَوْصَالِها ،وتَوديعِ الحيَاةِ وانْفِصَالِها ؛ لواجَهَتْكُم العِبَر ، وشـافَهكُمْ بيقِينِـهِ الخَبَر ، ولعلمتُمْ أَنَّ آمالكم سَرابٌ ، وعمرانَكُم خرابٌ ، وكلَّ الـذي تصونونَـهُ فوق تُرابكم تُراب[١٤] .

اللسـانُ ـ رَحِمَكُم اللهُ !ـ يَجُـورُ ويَعْـدِل ، والنـاطـق يُحَرِّف كثيراً ويُبَدّل : فاتْركُوا النّاطِقَ للصّامتِ ، والمتحرّكَ للسّاكِنِ السـاكِت ، وسَلوا

---

(١٠) من الآية الكريمة [الأحزاب ٣٣/٣٣] : ﴿ إنَّما يُريـدُ اللهُ لِيُـذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

(١١) من الآية الكريمة [الأعراف ٤٤/٧] : ﴿ونادى أَصحَابُ الجَنّـةِ أَصْحَـابَ النّـارِ أَنْ قَـدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقّاً... ﴾ .

(١٢) تنبيه إلى قوله تعالى في سورة المائدة[١١٩/٥] : ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورَضوا عَنْهُ ﴾ .

(١٣) الذُّبالة : الفتيلة التي تُسْرَجُ (تكون في السراج وتُشْعَل) .

(١٤) من قول أبي الطيب (ديوانه ٨٤٢) :

إذا نلت منـك الـودّ فـالمـالُ هَيِّنٌ   وكُـلّ الـذي فـوق التُّراب تُرَابُ

منازِلكم عن عُمَّارها ، ومنـازِهَكُم عن زُوَّارِهـا ، وميـاهَكُم عن فُرَّاطِهـا[15] ووُرَّادِها ، وظلالَكُم عن مُتوسّدي أَبْرادِها ؛ وشَجَرَكُم عَمَّنْ روَّى عُروقَهَا ، واستَشْرى عُـذوقَهـا[16] ، وقَطَـع عُمره بـاعتمادِهـا ، وذادَ الطَّير عن حُلـوِ ثِمارِها[17] .

سَلُوا جيادَكُم مَنْ صَنعها وأنضاها ، وصَوارِمَكُم مَنْ طبعَها وانْتضاها ، وسَوابِغَكُم من جمعَها وقَضاها[18] ؟

سَلُـوا ثغرَ الفَجْرِ إذا افْتَرّ ، وقَرْنَ الشَّمْسِ إذَا ذَرّ . أمـــا سَحَب على القُرون ذيولَهُ وجَرّ ، وغابَ على أُمَمٍ قد خَلَتْ من قبلها أُممٌ وكَرّ ؟!

سَلُوا الكواكبَ إذا اصطفّت في مَجـارِيهـا ، ورَفّت في غـدائِر الظّلمـاء مَـدارِيهـا[19] عن أَوانِس كانتْ القصـورُ تُـواريهـا ، والغيُـور يـدرَأُ عَنهـا ويُـداريهـا ، وملوكٍ نِيـطَ سُلطـانُهم بـالنُّجوم وصَيـاصِيهَـا[20] ، وعُقِـدَت تِيجَانُهمْ بِنَواصِيها ، عاجَلهم ـ والله ـ الفِطامُ ، وهَمَدُوا كما هَمـد الحُطـام ، ولفَظتْهُم تلـكَ القصـورُ والآطـام ؛ فمـا عنـدهُم أَمـانٌ لخـائف ، ولا مقـامٌ

---

(15) فرط البئر : تركها حتى يثوبَ ماؤها . اسم الفاعل : فارط والجمع فُرّاط .

(16) سَرى الشيء : ارتفع .

(17) استفاد من قول أَبي نُواس (ديوانه : 399)

لأَذُودَ الطَّيْـرَ عـن شَـجرٍ قـــد بلـوتُ المرَّ مِن ثَمَرِه !

(18) قضى الشَّيءَ : قدّره وصنَعَه .

قرن الشمس : أَول ما يبزغُ عند طلوعِها . وذَرّت الشمس ، ظهرت أوّلَ شُروقها .

(19) المداري جمع المدرى : المشط .

(20) الصياصي جمع الصّيصية والصِّيصة : الحصن .

لطـائف ، ولا زَجْرٌ لعـارفٍ عَـائف[٢١] ، فهـل منكم مُشْتَرٍ لِنعَيمِهم ومُلكهم بدرْهَمٍ زائف ؟ لَشَـدَّ ـ والله !ـ مـا زَهِـدْتُم وبَخِلْتُم ، ولَحَقٌّ أن تَخـالوا فيما خُوِّلْتُم غيرَ ما خِلْتُم[٢٢] !

سَلُـوا نَشَبَكُم المقْتَنى ، ونَسبكم الأَقْصى والأَدنى : هـل تَجِـدُون إلاّ أَسماءً وكُنى ، وأَلفاظاً خاليةً [١١٤/أ] من المعنى ، ومحلاًّ قِيل فيه : قد كان فلانٌ وفـلانٌ مَرَّةً هُنـا ؟ أرْهِفُـوا[٢٣] ـ رَحِمَكُم اللهُ ! ـ غِلَـظَ الأَكْبـادِ ، ومُرُّوا بأَجـداث الآبـاءِ والأَجْـدادِ ، وخُـذوا الموعظـةَ عن الجَمـاد ، واعلَمُوا أَنّ أَديم الأَرض مشُوبٌ بهـذه الأَجْسـاد[٢٤] . تـاللهِ لو كفَفْتُم عن الهَوى فضولَ القَول والنُّظر ، وصَرفتم إلى غَيْث التُّقْوى رائِـدَ السَّمْـع والبَصر ، لَما صَـدَرتْ نظرةٌ إلاّ عن إفادةِ عِبْرَةٍ ، ولا خَطرت فكرةٌ إلا في زيادَةِ علمٍ بـالـدُّنيـا وخِبْرَةٌ . كلاّ ! لا عَتْبَ لكمْ عَليها ! قد أَمَّتكم[٢٥] جهاراً بأَحجارها ، ولَـدغتكُمْ مِراراً من أَجْحارِها ، وعَمَّتكم صَغاراً بِذُحولها وأَوتَـارِهـا[٢٦] ؛ وأَنتم ـ على ذلـك ـ تَتَهافَتُون تهافُتَ الفَراش على حُطـامِهـا ونَـارِهـا . أَيُّ مَصُونٍ منكم لَمْ تَنَلْـهُ

---

(٢١) عائف : اسم فاعل من عافَ الطير (وغيرها) أي : زجَرها وحدس وظَنّ .

(٢٢) خوّله الشيء : مَلكه إيّاه ، أعطاه إياه تفضُّلاً . وخال الأمر : ظَنَّه .

(٢٣) رهفَ السيف وأرهفه ، رقّقه .

(٢٤) ينظر إلى قول أبي العلاء المعريّ (سقط الزند : ٩٧٤) :

خفّف الـوطْءَ مـا أَظُنّ أَديْمَ الـ أَرْضِ إلاّ مَن هـذِه الأَجْسَـادِ

(٢٥) أَمّهُ يؤُمُّه أَمّاً : شجّهُ شَجّةً أصابت أمَّ رَأْسه !

(٢٦) يونس ١٠/٤٤ ، ذحول جمع ذَحْل ، وأَوتار جمع وتر : الثأر .

بِهَتْك ، أم أَيُّ مَنيع لم تَغُلْهُ[٢٧] بِفَتْك ، أَم أيُّ مُصَافٍ لها لم تُـذِلْـهُ[٢٨] بِنَبْـذ وترك ؟ ! فانْفُضوا ـ رَحِمَكُمُ اللهُ ! ـ أَيْدِيَكُم بها نَفْضـاً ، وأَجْمِعُوا لهـا[٢٩] ـ كما رفَضَتْكَمْ ـ رَفْضاً ، واستَبْدِلُوا من نَصب غُرُورِها بـالزُّهْـدِ فيهـا دَعـةً وخَفْضاً .

روي عن الحسن بن أَبي الحسن البصري[٣٠] ـ رَحِمَهُ الله ! ـ أَنه قـال : دخـل حـارثـةُ الأَنصـاريّ[٣١] على النبي ﷺ ، فقـال لـه : كيف أصْبَحْتَ يـا حـارثـة ؟ قـال : أصبحتُ يـا رسـول الله مُـؤمنـاً حَقّـاً . قـال رسـولُ اللهِ ﷺ : « إنّ لكل إيمان حَقيقـة ، فَما حقيقَـةُ إيمـانـك ؟ قـال : عَزَفَتْ نَفْسي عن الدُّنيا . فقالَ رسولُ الله ، ﷺ ، بَدأَ بالدَّاءِ فَحَسَمه » .

وفي بعض الآثـار أنّ المسيـح صلى الله عليـه كان إذا مَرّ على دارٍ مـاتَ أهْلُها وقفَ عَليها وقال : يـا ويْحَ لأَرْبـابـك الـذين تَوارَثُوكِ . أَلَمْ يعتَبِرُوا بِفِعلِـكِ في إخوانِهم المـاضِين ؟ أَلا يتفكَّرون في طَيِّ البَسيطـةِ ، والأَعـداءِ المحيطة والدّماء العَبِيطة[٣٢] وفِرَق الكُفر المتَداعية عَلَيْكُم المسْتَشِيطـة[٣٣] ؟

---

(٢٧) غاله الموت : أهلكه .

(٢٨) أذالَهُ : أهانه وابتذله .

(٢٩) أجْمَعَ الرأيَ والأمْرَ : وأجمع عليه ، عزَم عليه .

(٣٠) الحسن البصريّ : هو الحسن بن يسار ، أبو سعيـد ، كان إمـام أهل البصرة وحبر الأمّـة في زمانه وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء ، الشجعان النسّاك (٢١ ـ ١١٠) .

(٣١) هو : حارثةُ بن سُراقة الأنصـاري الخزرجي النّجـاريّ . والحـديث في ترجمتـه في أُسـد الغابة (١ : ٣٥٥) مطوّلاً مفصّلاً .

(٣٢) الدَّمُ العبيطُ : الطريّ . في الأصل : يتفكّرون ؛ والسياق يرجح : تتفكرون .

(٣٣) استشاط عليه : اشتدّ غضبه .

ألا تَسْتَوْحِشُون لِتبَاريح العَصْرِ ، ورُكودِ رِيحِ النَّصر ، وتَداعِي أُممِ الكُفْرِ ، وإجْفَالنا عن مُقاومتهم إجفَال العُفْر[٣٤] . أَلا تُقلع عن الذُّنوب التي فَتّت في أَعضادِنا وقَضت باهتضامِنا [١١٤/ب] واضطهادنا . أُقسمُ باللهِ ما انقلبَ حالُ الدّهر ، وَلا سُلِبنا عادةَ الظُّهورِ والقَهْر ؛ ولا نكَلَ الأَبطالُ ، ولا أَخْلَفنا الغيثُ الهَطّال ، ولا رُفعت علينا من الرُّعبِ جبال لا تُظْهَرُ ولا تُطال ؛ ولا غَيَّرَ اللهُ نِعَمنا ، ولا خَذلنا ولا أَسْلَمنا ، إلا لِما عَهِدَ إلَينا وأَعْلَمنا ؛ إذ يقول الله سبحانَهُ : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بأَنْفُسِهِمْ ﴾[٣٥] و ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمونَ ﴾[٣٦] . فاستقيلوا ـ رَحمكم اللهُ ـ عِثارَكُم ، واستَقْبِلُوا عَدُوّكُم وخُذوا ثَارَكُمْ . وخَلِّدُوا في صُحفِ القَبُولِ آثارَكُم ، وأَخْلِصُوا للهِ طاعَتُكُمْ وحَقِّقُوا إنابَتكُم وضَراعَتكُمْ . فضراعَةُ العبدِ إلى مولاه تَسْتنزِلُ عَطْفَهُ ورضاه ، وتوجبُ رَحمته وعُتْباه . وقد نعى اللهُ القسوةَ على قومٍ حَذّرهم نَفْسَهُ ، وأَنزلَ بهم ـ فلم يَتَضَرَّعُوا ـ بأسَهُ ؛ فقال جَلّ من قائل : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ولكنْ قَسَتْ قُلُوبُهمْ ﴾[٣٧] . وروى أَبو هريرة عن رسول الله ﷺ أَنّه قال : « إنّ اللهَ إذا أَحبّ عَبْداً ابْتَلاهُ لِيَسْمَع تَضَرُّعَهُ »[٣٨] .

---

(٣٤) العُفر جمع الأَعفر : الظبي يعلو بياضه حُمرة .

(٣٥) الرّعد ١١/١٣

(٣٦) من الآية ٥٧ من سورة البقرة ٢

(٣٧) الأَنعام ٤٣/٦ .

(٣٨) وفي الفتح الكبيْر (١ : ٣٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن صَبر فله الصبر ومَن جزع فله الجَزع » .

اللهم إنَّا لِفَرْضك مُجتمعون ، ولِذكرك مُسْتَمِعُون ، وبين يَدَيْ عِزَّتك وجَلالِكَ خاضِعُون ، وإليكَ ياذَا الرَّحْمَةِ التي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ ضارِعُون ولأَبْواب نَصْرِكَ وفَتْحِكَ مُستفتحون ، ولِمَا فسَد من أَعْمالنا بَعَوْنِك وتَوفيقِكَ مُستصلحون ، وبدعائك مُستَنْصِرُون ولإجابتك مُنْتظرون ، وبفَضلِكَ على عَدْلِك مُستظهرون ، ولعادَتِكَ الحُسْنى مُسْترجِعُون ، ولآياتِك التي تُتْلى مُنْتَزِعُون .

إنّ أبلغَ الموعظةِ في القُلوبِ وأَوْلاها بَدركِ المطْلُوب كلامُ عَلاَّمِ الغُيوب . فإذا قُرِىءَ القرآنُ فاستمعوا بيانَهُ واتّبعُوا قرآنه . (وتتعَوَّذُ ، وتَقْرَأُ) : ﴿ وَإذا سَأَلَكَ عِبَادي عَنّي فَإنّي قَرِيبٌ ﴾[٣٩] الآية . ﴿ وقال رَبُّكُمْ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[٤٠] .

[١٢٤]

ولَهُ[☆] ـ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْه ـ :

الفقيه الأَجَلّ المشاور الأَفضَل شَيْخي الذي أَهْبِطُ إثْرَهُ ، وأَلتَقِطُ مانَثَرَهُ ، وأَرتبط ماأَرذاه[١] ، وأغتبِطُ بما أَخَّره وقفّاه . لا أَحْمَد اللهُ شهابَهُ

(٣٩) البقرة ١٨٦/٢

(٤٠) غافر ٦٠/٤٠

[١٢٤]

(☆) رسالة ، أو بطاقةإعلام ،

(١) أَرذاه : نبذه . وأرذى خيله وإبله : خَلّفها وهزلها .

ولا أعْدَم المقْتَبِسين[١١٥/أ] نُثارَهُ ونِهابَـهُ عُصْبَـةً لأَهل الأدب سَنِيعَـة[٢] ، وهضبَـةً عَمِـدَةَ[٣] التراب مَرِيعَـة . فـإليـه يـأرِزُون[٤] وبجـانِبَيْـهِ يمتنعـون ويحترزُون .

والأديبُ أَبُو عبد اللهِ بن البَلَنْسِيّ[٥] ـ أبقـاه اللهُ ـ صَحِبَ القَوْمَ وأخـذ عَنْهُم وأَحَبّهم فهـو منهم . وَمَنْ ذهب هـذا المَـذْهَب ، وامْتطى إلى أَهلـه الهَجِيْرَ المُلْهَب والأَصِيْلَ المُذْهَبَ ، وركب الحَوْلِيَّ الأَشْهَب[٦] ، فجـديرٌ أَن تذهبَ معه نفوسُهم حيثُ ذهب ، إن تحظّى نحونـا الآن حَيّـاً بعـد حَيّ ، ووافانا صَكّةَ عُمَيّ[٧] لا تُنْهِزُه[٨] وتَحْفِزُهُ ، وتدمثُ لجنبـهِ[٩] وتُشئِزُه[١٠] إلا لطيمـةٌ[١١] من ذِكركَ واردة ، وغنيمـةٌ من شكرك بـاردة ، ونتفٌ من

---

(٢) سَنُع : طال وارتفع .

(٣) عَمِدَ الثّرى : بلّله المطر .

(٤) أرز إلى كذا : انضمّ إليه واجتمع بعضه إلى بعض وفي الحديث : « إنّ الإسلامَ ليأرِزُ إلى المدينة كما تأرزُ الحيّة إلى جحرها » . (النهاية لابن الأثير) .

(٥) أبو عبد الله بن البلنسي .؟

(٦) الهجير : وقت الهـاجرة من منتصف النهـار .والأَصيـل : الـوقتُ المعروف قُبَيـل الغروب .والحوليُّ الأَشهب صفتان لموصوف محذوف : الفَرس .

(٧) يُقال : لقيتُـه صكّـةَ عُمَيّ ، وصكّـةَ أعْمى ؛ وهو أَشـدّ الهـاجرة حَرّاً . قـال : بَعْضُهم عُمَيّ : اسم رَجُل .

(٨) نهزه : دفعه .

(٩) دمّث (المكان) : سهّله وليّنه . والكلمة في المخطوطة بـالـدّال . وأمّـا (رَمَثَ الشي) بالرّاء : فمعناه لَمّه وأَصلحه .

(١٠) أشأزه : أقلقه .

(١١) اللطيمة : المِسْكُ .

محاسنك اعْتَلقها ، وتُحَفٌ من مآثِرِكَ جاسَدها[١٢] واعتَنَقَها .

ولّما انتهى في إذاعتها ونَثِّها ، و « قَضى كُلَّ حاجَةٍ » من نَشْرِها وبَثِّها صَدر مصْدَر الغانِم الرّابح ، وفاز فَوْزَ أبي طلحة[١٣] بالمالِ الرَّائح !

وأنتَ ـ أدام الله عزّك ـ لا تعبأُ بابتناءِ مَجْد ، ولا تزْهَدُ في اقتناءِ حَمْد ، ولا تُوقَدُ بالحضِيض نارُك[١٤] ، ولا تَنْأى عن ذِي حَاجةٍ دارُك . لا زالَتْ لكَ المِنَنُ الغُرّ ، والأَيادي يُقْشَعُ بها الضُّرُّ[١٥] ، وينتعشُ بمعروفِه الحُرّ ؛ إنْ شاءَ اللهُ .

---

(١٢) جاسَدَها (وزن فاعل من جسد) بمعنى تلامسا جَسَداً بجسد . ولم أجده في المعاجم مستعملاً . وهو صحيحٌ في القِياس .

(١٣) أبو طلحة زيد بن سهل بن الأسود ، النّجاري الأنصاري ، صحابيّ جليل ، شهد العقبة مع رسول الله ﷺ والمشاهد كلها . وله أخبارٌ وأحاديث في كتب الأصحاب وكتب الحديث . (انظر مثلاً الطبقات الكبرى لابن سعد ٣ : ٥٠٤) . ويشير الكاتب إلى حديث رواه أنس بن مالك رضي الله عنه « أنّ رسول الله ﷺ قال يوم حنين مَنْ قتل قتيلاً فله سَلبُه . فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رَجُلاً فأخذ أسلابهم » .

(١٤) الحضيض : قرار الأرض عند سفح الجبَل . وكانوا يتمدّحون بإيقاد النَّارِ في اليفاع (في المحلّ العالي) لكي يرى الضيفان النيران ؛ إمعاناً في استئلاف الضيف وإعلاناً عن القِرى .

(١٥) يُقْشَعُ الضر أي ينكشف وينجلي ويذهب عنه .

[١٢٥]

وكَتبَ(☆) :

وجّهتُ الصَّبيَّ ـ نعمتكَ ، حفظه اللّهُ ـ ليبدَأ الجُمَلَ على ماأَحكَمْنـاهُ . وأنت ـ بفضلك ـ تُوسِعَني فيـه اهْتِبـالاً(١) ، وتفرغُ لِتَفْهيمـهِ بـالاً . وتشتـدُّ عليه في حفظِ الأُصول ، والمحْتَاج إليه من الفُصول . وتتقَدَّمْ إليه ألاّ يُكَلِّمَ بشَراً ، ولا يُعْمِلَ إلا في كتـابـةِ نَظراً ؛ وتعتـدّهُ ابنَـكَ حِيـاطـةً وحِمايـةً ، وإرشاداً وهِدَاية ؛ إن شاءَ الله .

[١٢٦]

ولَهُ(☆) ـ بَرَّدَ اللهُ ضَرِيحَهُ :

يـا سيِّـدي الأَعلى ، وحسَنـة الـدَّهرِ المثلى ، وحَظِيَّ الأَنْفَس الْمُتَمَلّى ،

---

[١٢٥]

(☆) هذه رسالة موجّهة إلى مؤدّب معلّم ، لم يذكر اسمه . يسأل فيها الكاتب المعلم العنـايـة بالصبيّ الموصى به ، ويذكّره بالمنهج الـذي رسماه معاً لتـأديبـه وتعليمـه ، ورعـايتـه . والأظهر ـ عندي ـ أنها من الكاتب نفسه للعنـايـة بـأحـد أولاده ـ وليست على لسـان غيره ـ بدلالة عبارة (على ما أحكمناه) .

(١) يقال : اهتبَل الفرصة وغيرها : أفْترصَها واغتنَمَها .

[١٢٦]

(☆) رسالة من الكاتب إلى شخص لم يسمّه ، فيها مجاملة ، واعتذارٌ لطيف ، وبيان العنايـة بـ (أبو عبد الله البلنسي) . ولم أجد له ترجمةً .

ومَن أَطالَ الله بقاءه ، رحْبَ أقطارِالسِّيادة . قريبَ أَوطار الإرادة ، رفيعَ أخطارِ المواهبِ المسْتَفادة .

المفاتحـةُ ـ أدامَ الله عِزَّك ـ خوضُ غِمار أَو ضربُ قِمار ! وقـد كنتُ أَلأَمُ الشَّعْبَ ولا أَرَأم الصَّعب[1] .لكنْ تَنْشـأُ أَزَمـات . ونظراً لمن لا يرد من الإخـوان ، عَـزمـات يُـوضع لهـا الخَـدّ ويُركَبُ فِيهـا الحَـدّ ، ويُتْرَك [١١٥/ب] الأَهْوَنُ ويُؤخَذُ الأَشَدّ .

وإنّي اختطَفْتُ هـذه الحُروف بينَ مَبْكى ومَجْـزَع ، ومَرْأى من الحَـوادثِ ومسمع ؛ وكأنّي أَنحتُها من حِجارة الأبـارق[2] ، واستنزلهـا من خُلَّبِ البَوارق[3] ، أو أَسْأَلها عودة الشباب المفارِق ، وردَّ الليالي الحالكة على المفارق !

فناهيـك ـ أعزّكَ الله ـ بهـا عُسْرَةً وإضـاقـة ، وافتقـاراً إلى إغضـائـك وفاقَة ، ونشوةً لا ترجُو منها الخَواطر إفاقة !

والأديبُ ، أبو عبد الله البَلَنْسِيّ ـ أبقـاه اللهُ ـ ثـابتٌ [ ][4] القفّ[5] لا يعرِفُ ما في الخُفّ . قد ركبَ لجاجَته ، ولم يَرَ ـ على ما خيّلَتْ ![6] ـ إلاّ حاجَته . ولولا وَلاءٌ صادِقٌ حَثَّهُ ، وثناءٌ عاطِرٌ بثَّهُ ، وشهادةٌ في محـاسنـكَ

---

(١) رأمه : أَصلحه .

(٢) الأبرقُ : مكانٌ غليظٌ فيه حجارةٌ ورملٌ وطين مختلطة .

(٣) البـوارق جمـع البـارِق . والخُلّبُ السحـابُ يـومض برقـه حتىّ يُظَنّ مطره ثم يُخْلِفُ ويتقشّع .

(٤) كلمة لم تستبن لي .

(٥) القُفّ : ما ارتفع من متون الأرض .

(٦) في الأساس : يقال افعَل ذلكَ على ما خَيّلت ، أي : على ما أَرَتْكَ نَفْسُكَ وشبّهت وأَوْهَمت .

استحفظَها ، ونبذٌ من محامدكَ نبَذها إلينا ولفظَها ، استحقَّ من الجميع إحماداً ، واستوجبَ ـ لمكانها ـ اعتداداًواعتماداً ؛ إلى ما اعترفَ به من إجمالٍ ناضر ، واهتبالٍ منك حاضِر ؛ هو منها بينَ فَرْضٍ ونَدَب ، ومالٍ يأخذُه وأدب ؛ لَمَا أبديْتُ مع هذه الأنكادِ الفاضِحة عن ظهرٍ واضِحة .

أنّى ؟! وأيْسَرُ لوازِمِها ، وامتناع رِجائنا المضارع بجوازِمِها ؛ أن يستوليَ عَلينا العيُّ والخَرسَ ، ولا نتمّرسَ بالكَلامِ فيما نتَمرَّس ؟

عادَ اللهُ علينا بفضْلِه ، ولا وكَلَنا إلى استقصاءِ عَدْلِه ؛ وجَعلَنا من المعْتَصِمين بحبله ؛ ومَنَّ علينا بكرة عصْرٍ تَفْثأ[7] وهَبّة نصرٍ : دماءُ الأَعادِي ودمُوعهم من حَرِّها لا ترقأ[8] . والسّلام .

[١٢٧]

وله ـ حفظهُ اللهُ ! ـ خُطْبَةٌ فيها الْحَضُّ على قِيامِ اللَّيْل :

الْحَمْدُ للهِ ذي الصِّفاتِ العَلِيّة ، والهِباتِ السَّنِيَّة ، والسّموات المبنيّة والأرْضِ الْمَدْحِيّة[1] ، الآخذ على الأرواحِ كُلّ ثَنيّة ، والمسلّط على الحياةِ والحيَوانات يَدَ المنيّة . يُعِزُّ ويُذِلّ ، ويَهْدِي مَن يشاءُ ويُضِلّ ، وليسَ شيءٌ عن قَدَرِه وقُدْرَتِهِ يَدِقُّ ولا يَجِلّ . ضربَ الذّبابَ في كتابه العزيز

---

(٧) فَثأَ الغضب : سَكّنه وكَسر حِدَّته .

(٨) رقأ الدّمع : سكنَ ، وجَفّ ، وانقطعَ بعد جَريانه .

[١٢٧]

(١) دحا اللهُ الأرضَ : بسطها ووسّعها .

مثلاً لِما يَدْعُون من دُونِه التّبكيت والتّعْجيز[٢] ، فملأَت حِكَمَتُه ما بينَ العُيونِ والقُلوب ، وأعلن بضعف الطّالبِ [١١٦/أ] والمطلوب ، وفَوْتَ سالبِه بالمسْلُوب ، ودَلَّ بتَناهي عَجْز الغالِب على تَناهي عَجزِ المغلُوب . وعَلِمَ الجاحِدُونَ أنَّ الحقَّ لله ، ونُكِسُوا على الرّؤوسِ والجِباه ، وضَلّ عنهم ما ادَّعَوْهُ من الأندادِ والأشباه .

أحْمَدُه حَمْدَ الخاضع الْمُقِرّ ، وأستغفِرُه في الْجَهْرِ والسِّرّ ، وأستهديه سَبيل الرّشد والبِرّ ، وأعوذُ بهِ من اليَوم العَبُوسِ المكْفَهِرّ .

وأشْهَدُ أن لا إلَه إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ له شَهادةً وقَرتْ في الضَّمير وسَكنت ، وصَادَفت القلْبَ فارغاً مِن سِواها فتَمكّنَتْ[٣] ، ولَفّ يقينُها القَرْنَ والقَدَم ، وخامَرَ صِدْقُها اللّحْمَ والدَّم . شهادة ، تنعشُ الْجُدود العَواثِر[٤] والْجُنوب ، وتَسْتَمْطِرُ الصَّبا والْجَنُوب ، وتَحُتُّ الْخَطايا والذُّنوب ، وتَجُبُّ ما قَبْلَها وتَطُلُّه[٥] ، وتَؤُمُّ ما عقَدته الأوزارُ فَتَحُلُّه ، وتلقى غضبَ الْجَبّار فتَسُلُّه .

وأشهدُ أنَّ محمّداً نَبيُّه ورسُولُه الذي انتقاهُ من أطهَرِ سُلالَة ، واصطَفاهُ للبلاغ والرِّسالة ؛ وأيَّدَهُ بالْحُجَجِ البُلْج[٦] ، وخَصَّه بالنَّصر الْمُؤَزّر

---

(٢) في سورة الحج٧٣/٢٢ : ﴿ وَإِنْ يَسْلُبهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَالْمَطْلوبُ ﴾ .

(٣) من قول مجنون ليلى (ديوانه : ٢٨٢)

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

(٤) الجدود جمع الْجَدّ : الحظّ .

(٥) من قولهم : طلَّ دَمُ القتيل : هدَر وبطَل (ولم يُثْأر به ، ولم تُؤخذ ديته) .

(٦) بلج جمع أبلج . وكل واضح أبْلج .

والفَلْج[٧] . رمى بـهِ الأقران فـأتـاهم دونَ لبث ، وأنزلَ عَليـهِ القُرْآنَ فقرأه على الناس على مُكث . وشرَع لهم دِينهم ، وأوْضَح سُنَنَهُ ، وأدّى مـا عليـه ائتَمَنَهُ ، ولم يحتسب إلا على الله أجره وثمنه . وبلّغ وَحْيَـه كما وَعـاه ، وأعلن عَتْبَهُ ورِضاه ، وصرَّح بفتحِه ومَنعاه ، ثم أجابَ داعِيه حينَ دَعاه ؛ فـأجَـدَّ رحيلاً ، واتّخذَ إلى ربّه سَبيلاً . لم يَتّخذ من الأُمَّـةِ خَليلاً[٨] ، ولا كتَم من الوَحْيِ دَقيقاً ولا جَليلاً ؛ بل لقيَ القَول ثَقيلاً[٩] ، وآثَر التي هي أشدُّ وَطْأً وأقْوَمُ قِيلاً[١٠] ، وجعل جمـاجِمَ الكُفّـار للسيوف مَقِيـلاً . وأوْرَثَ الإسـلامَ مَفاتيحَ الأرْضِ تُنْتَثَلُ[١١] ، ومغانم تجري فيهـا السِّهـامُ والنَّفَل[١٢] ، وكنوز كسرى تُنْهَبُ وتُنفـل ، وتيجـانـه تُـداسُ وتُنْتَعـل ! صلى اللهُ عليــه وعلى أصحابه الذين آزَرُوا ووَزَرُوا ، وأنصاره الّذينَ آوَوْا ونَصَرُوا : نجوم الهُـدى اللّوامع ، وغيوثُ النَّـدى الهَوامِع[١٣] ؛ وليوثُ الرَّدى الخَوادِر[١٤] ، وسيـوف

---

(٧) من فعل فَلَج : ظفر (من باب نصر) ، والمصدر : فَلْج .

(٨) في حديث صحيح مشهور : « لو كنتُ متّخذاً من أُمّتي خليلاً - دون ربّي - لاتّخـذتُ أبا بكر خليلاً ، ولكنْ أخِي وصاحِبي » (الفتح الكبير ٣ : ٤٨) .

(٩) من سورة المزمّل ٥/٧٣ : ﴿ إنّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقيلاً ﴾ .

(١٠) في المزمّل ٦/٧٣ : ﴿ إنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وأقْوَمُ قِيلاً ﴾ .

(١١) انتثل الشيء : نثله ، واستخرجه ؛ يقال : نثل ما في الوعاء .

(١٢) السهام جمع سهم : النَّصيب . يقال : ساهمه أي قاسمه ، أخذ سهماً أو نصيباً معه . والنفل : الغنيمة .

(١٣) همعت العين : دمعت .

(١٤) خدر بالمكان : استتر . وخدر الأسد : لزم عرينه وأقام به .

الإيمان [١١٦/ب] البَواتِر ، الرُّحَماءُ بَينهم الأشـدّاءُ على الكُفّـار[(١٥)] ؛ صلاةً تهبُّ هُبوبَ الرِّياح ، وتتعاقَبُ تعاقَبَ المساءِ والصباح ، وتخيّم بفِناءِ تلـك الأعْظُم الطّـاهرة والأرواح ؛ وتَقْضِي حقَّهم المُرتهَنَ للرِّقـاب ، الموكّـل بالأخلافِ والأعقاب ، إلى مُنقَطَعِ الدُّهورِ ومُنتَهى الأحقاب .

أيُّها النّاس !

لا حُجّةَ بعدَ الرُّسُل ، ولا حَيْرَةَ مع وُضوح السُّبل . أمثالٌ مَضروبَـةٌ ، وأعلامٌ مَنصُوبة ، وأيّامٌ مَحْسُوبة ، وغايات مطلوبَةٌ ؛ وآجـالٌ مكتُوبـة ؛ ونـارٌ مـوقـودة[(١٦)] على الأفئـدة تطّلِـعُ[(١٧)] ، وجَنّـات مُـونِقـةٌ ، دِيَمُ نعيمِهـا لاتُقلِعُ . وسيّئةٌ بحالِها وحسَنَةٌ بِعَشر أمثالِها وحَرامٌ وراءَهُ عَـذاب ، وحَلالٌ إزاءَهُ ثَـوابٌ . فـالحـازِمُ ـ رحمكم الله ! ، كلُّ الحـازِم ـ مَن استبرأ لـدينـهِ ، وترك الشـكَّ ليقينـه ، وتـأهّب ليومِـه وحِينـه ؛ قبلَ غُصَص[(١٨)] الحُلقُـوم وشَرَقِـه ، وشُخـوص البَصَرِ وبَرَقِـه[(١٩)] ، وتبجّس الجبينُ بعرقــه ، وحُلـولِ

(١٥) في سورة الفتح ٢٩/٤٨ : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والّذِينَ مَعَـهُ أشِـدَّاءُ عَلى الكُفّـارِ رُحَمَـاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

(١٦) وقـدت النّـارُ : اشتعلت ؛ وأوقـد فـلان النـار : أشْعَلهـا . والكلمـة (مـوقـودة) من الأصل .

(١٧) في سورة الهُمَزة ٦ ـ ٧ : ﴿ نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الّتِي تَطَّلِعُ عَلى الأَفْئِدَةِ ﴾ .

(١٨) في سـورة الـواقعـة ٨٣/٥٦ ـ ٨٤ : ﴿ فَلَـوْلا إذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُـومَ . وأَنْتُمْ حِينَئِـذٍ تَنْظُرونَ ﴾ . غصص الحلقوم : حين تبلـغ روح المحتضر الحلقـوم وتشـارف الخروج من جسده .

(١٩) بَرِقَ البصر : تحيّر حتى لا يطرف أو دهش فلم يُبصر . وفي سـورة القيـامـة ٧/٧٥ ـ ٩ : ﴿ فَإذا بَرِق البَصَرُ ۞ وخَسَفَ القَمَرُ ۞ وجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ ﴾ .

الموت وفَرَقِه ، وإدراجِ الجسمِ في خِرَقِه ؛ قبل كشفِ الغِطاءِ ، ومَوقفِ الحِرْمان والعَطاءِ ، وتبريزِ السَّوابقِ وتعجيزِ البِطاء . ألا تعتبرون ما بَقِيَ من الدُّنيا بما مَضى ؟ أمّا دَيْنُ الْحَياةِ فَمُقتضى ، وأمّا سيفُ الصِّراطِ فَمُنْتضى ، وستُفضون إلى ما قَدّمتم مع من أفْضى . وها أنتُم تُقْرِضون السّخط وتأمَلُون الرِّضى ، ولو عُومِلَ أحَدُكم بهذا ما تَجاوَزَ ولا أغْضى ! ألا نادِمٌ على ما سَلف من ذُنوبِه وفرَّط ؟ ألا خائفٌ من طُولِ ما جَمح وأفْرَط ؟ ألا مُسْتَنْقِضٌ لنفسٍ أوبَقها وأشرط ؟ ألا مُناجيَ لِمَوْلاه ؟ ألا هاجِرٌ لِكَراهُ ؟ ألا حامِدٌ عند الصَّباحِ لِسُراه[٢٠] ؟ ألا مُبَدِّدَ لِعبَراتِه ؟ ألا مُرَدِّدَ لِحَسراتِه ؟ ألا مصعّدٌ لِزَفراتِه ؟ أما واللهِ ما عنفَ بكُمُ المالِكُ ، ولا بَعُدَت عليكم في ابْتِغاءِ رِضوانِه وفضْلِه الْمَسالِك ، ولا يهلِكُ عليه إلا الحائِنُ الهالك . ألْمْ يأتِكُمْ في صَحيح الأثر عن سيّد البَشر صلواتُ اللهِ عليه وعلى آلِه أعدادَ الرِّياحِ والمطَر والنّجمِ والشَّجر أنّهُ قال[٢١] : « يَنْزِلُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى إلى السَّماءِ الدُّنيا كُلَّ ليلةٍ [١١٧/أ] حين يمضي ثُلث اللَّيلِ الأوّل فيقول : أنا الْمَلِكُ أنا الملك ، مَنْ ذا الّذي يَدْعُوني فأسْتجيبَ له ؟ مَنْ ذَا الذي يَسألني فأُعطيَهُ ؟ من ذا الذي يَستَغْفِرُني فأغفرَ لهُ ؟ فلا يَزالُ كذلكَ حتى يُضيءَ الفَجْر » .

وقال ﷺ : يقولُ اللهُ عَزّ وجَلّ[٢٢] : « أنا عِند ظَنّ عَبدي بِي ، وأنا

(٢٠) من المثل العربي (جمهرة الأمثال للعسكري ٢ : ٤٢) : « عند الصّباح يحمد القومُ السُّرى » .

(٢١) هذا حديث صحيح مشهور ، رواه أبو هريرة وغيره . (الفتح الكبير ٣ : ٤٣٦) .

(٢٢) في صحيح البخاري ومسلم ، وسنن الترمذي وابن ماجه . وانظر الأحاديث القدسية ٦٢ ـ ٦٦

معَهُ حين يَذْكُرني ؛ فإنْ ذكَرني في نفسِه ذكرتُـه في نفسِي ، وإن ذكَرني في مَلأ ذكرْتُـهُ في مَـلأ خيرٍ منـهُ ؛ وإن اقتربَ إلي شبراً تقرّبتُ إليـه ذِراعـاً ، وإن اقْتَرب إلي ذراعـاً تقرّبْتُ إليــهِ بـاعـاً ؛ وإن أتـــاني يمشي أتيتُـــه هرْوَلـةً »[٢٣] . فـاحتَمِلُـوا ـ رحمكم الله ! ـ الخطبَ اليَسير واهتَبِلُـوا هــذا الْخَطَرَ الْخَطير . واعلَمُوا أنَّ النوم أهونُ واقعٍ أُطِير ! هيهاتَ هيهـاتَ أبتْ من ذلك قلوبٌ قاسيَةٌ ، وجُنوب راسيةٌ ، [ورؤوسٌ][٢٤] عاتيةٌ عـاصِيَـةٌ . إن دُلّيت بغرور ، أو لاحَظَتْها بَرْقَةُ زُور ، أو بُعِثَتْ على مَمْنُوعٍ محظُور : اعتَلَقَتْه بـذِكراهـا ، وأراقتْ في تطلُّبـهِ كُـؤوسَ كَراهــا ، وتجشّمت إليــهِ تأويبَها وسُراها . فلا وعْدَ الصِّدق تَنْتَجزُون ولا فُرصةَ الرّحمـةِ تَنْتَهزُون ؛ وأنتُم لو علمتم مُسْتَوفزون ، [وللسَّفرِ][٢٥] الطَّويل مُستقبلون ، ومن الـزَّادِ المبلّغ مُرْمِلُون[٢٦] ، وللحِســابِ مُواجِهُون وللْمَلـكِ الْحَقّ مُشـافِهُون . فمـاذا قَدَّمتم للْمَقام الهائِل ؟ وما الذي أعـددتُم من جَوابِ السَّـائل : وقـد ذَهِلْتُم عن الأبنـاء والْحَلائل[٢٧] . إن كَتمْتُم خَـذَلَتْكُم الْجَـوانِـحُ ، أو أنكرتم أقَرَّتِ الجوارِحُ ، وواجَهتْكُم من صُحفكم الفَضائح ، وسـاوَرتكُم الأراقِم مِمّـا كَتَب الكاتب ورقَمَ الرَّاقِم . ونادَيتُم وسَيِّئاتكم ينتظمُها ويتَقَصَّاها : ﴿ يـا وَيْلَتَنـا

(٢٣) قارن ألفاظ الحديث ففي بعضها هنا مقاربة .

(٢٤) ذهب بعض الكلمة : وهي مستجلاة من بقية الحروف والسّياق .

(٢٥) بعض الكلمة غير ظاهر من التّصوير ، أو من أثر ترميم .

(٢٦) أرْملَ فلان : نفد زادهُ وافتقر .

(٢٧) الحلائل جمع الحليلـة : الزوجـة . وفي سورة الحج ٢/٢٢ : ﴿ يوم تَرَوْنَهـا تـذْهَلُ كُـلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أرضعَتْ ﴾ .

مالِهذا الكِتَابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً ولا كبيرةً إلاّ أحْصَاها ﴾[٢٨] . جعَلنا اللهُ وإيّاكُم مِمَّن حَسُن قَبُولُه واستعدادُه ، ومالَ إلى الذِّكْرِ فُؤادُه ، ووَرِيَتْ بالحكمةِ البالِغَةِ والموعِظَةِ الْحَسنةِ زنادُه ، وكان منهُ على بالٍ مُنقَلَبُه ومَعادُه . فلا هُدى إلاّ هُداه ولا إرشادَ إلاّ إرشادُه .

إنّ أبْلَغ الموعِظَة وأنْفَع الذّكرى ، وأكرمَ ما سَدِكَ[٢٩] بهِ اللّسان وجَرى ، كلامُ من أرْسَل [١١٧/ب] رُسُلَهُ تَتْرى ، و ﴿ لَهُ ما فِي السَّموات ومَا فِي الأرْضِ وما بَيْنَهُما وما تَحْتَ الثَّرَى ﴾[٣٠] . فإذَا قُرِئَ فأحْسِنُوا الاستِماع ، وفَرّغُوا لهُ القلُوبَ والأسْماع ، وارفَعُوا عنها الأكِنّةَ[٣١] والأقْماع . وتقرأ : ﴿ أمْ حَسِبَ الّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا سَاءَ مَا يَحكُمونَ . مَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ اللهِ فَإنَّ أجَلَ اللهِ لآتٍ وهو السَّمِيعُ العَلِيم . ومَنْ جاهدَ فَإنّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إنّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِيْنَ ﴾[٣٢] .

---

(٢٨) في سورة الكهف ٤٩/١٨ : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرى الْمُجْرِمِيْنَ مُشفقينَ مِمّا فيه وَيَقولونَ يا وَيْلَتَنا ... ﴾ .

(٢٩) سَدِكَ بالشّيء : لزمه .

(٣٠) من سورة طه ٦/٢٠

(٣١) الأكنة جمع الكنان : الغطاء .

(٣٢) العنكبوت ٢٩ / الآيات : ٤ ـ ٦

[١٢٨]

وله - رَحْمَةُ اللهِ عليه - :

اشْتِراكُكما - أيّدكما الله - في الأعمال ، وتعاوُنكما - وصَلَهُ اللهُ - في بَثِّ الإجمال ، يُوجِبُ ألاّ يفصلَ بَينكما في إيقاع النُّكر وإيقاعِ[1] الشُّكر . فَحُيِّيتُما تحيةَ الأمجاد ، وبَقيتُما للإسعافِ والإنجاد ، وبُوِّئتُما شَرفَ الرَّوابي والنِّجاد ؛ ولا زلتُما تحتَ رايةِ الاتّفاق ، وفوقَ علم الإجماع والإصفاق . ولا شعَب انتظامَكُما شاعِبٌ[2] ، ولا نعَب بينكما ناعِبٌ[3] . ومُتِّعتما بجمالِ الأُحدوثة وطِيبها ، ولا خَلا نادي بِرٍّ من شاعِرها وخَطيبها .

النّوائبُ - أعَزّكُما اللهُ - بتقارُبِ الزَّمانِ ، وتَقارُضِ جَفْوةِ الأعيان ، لا تُغِبّ خَطْرَةَ بال ، ولا تُوَلّي إلا رَيْثَ ما تستعدُّ لإقبال . ومهما نَهْنَهَ[4] سطوتها زعيم ، وزحزحَ بُؤسها نَعِيم ؛ أضَبَّتْ[5] على حَنَق ، وانصبّتْ تَسْتَنُّ في عَنَق[6] ؛ فطَمَا سَيْلُها ، وتَبارَتْ بما تَوارَتْ خَيْلُها . وقد كانَ منكما إلى

---

[١٢٨]

(١) لم يستبن الحرفان الأوّلان من الكلمة ، ولعلّها كذلك .

(٢) شَعَبَ هنا بمعنى : فَرّق . (وتأتي لمعنى جمع ، فالكلمة من الأضداد) .

(٣) نعَب الغُراب : صوّت . ومن أساطيرهم القديمة أنه ينذر بفراق .

(٤) نهنهه عن الأمر : زجره ، ومنعه .

(٥) أضبَّ على ما في نفسه : أضمره مُحْنَقاً .

(٦) استنّ الفرسُ : جرى في نشاطه على سننه في جهةٍ واحدة . والعَنَقُ : نوع من السَّير فسيح سريع ؛ للإبل والخيل .

الشَّريف ذي الْحَسَب الْمُنيفِ أبي بَكرِ بن العِراقيّ[٧] مُعَظّمكُما ـ أعَزّه اللهُ ـ ما سَطَعَ أرَجُه ، وفاحَ مَهبُّه ومَدْرَجُه ، ووضحت براهنُه[٨] وحُجَجُه . وإنّها ـ أعَزّكُما اللهُ ـ لَيدٌ سائرة ومنّةٌ طائِرَة ، لا تختصُّ من الأرض داراً حتّى تُطبّقَها ديمةً مِدْراراً . ولئن نالَها نَيْلٌ واحدٌ لقد شَملت كلَّ ماجدٍ وسَرتْ إلى كُلّ ساهِرٍ وهاجدٍ ، ومُغرَمٍ وواجِد . وبيّضَتْ وجهَ الإيمان ، وأنهضت إلى رضى الرحمن . وما هو إلا أن اطمأنَّ الْحَيْزُوم[٩] [١١٨/أ] واستُديم الثّبوتُ على العِزّ واللُّزوم . فارَ من الخصْمِ فائر ، وثارَ إلى الْمُنازعة ثائر ، فوافى الصَّريخ وأفْسدَ بتَرْبيعه المِرّيخ .

ونفذَ الآن ابنُ عَمّته إنفاذاً [إلى تَسْكِين] ما حفَز ، وتمهيد ما أشْأز[١٠] ؛ ومُصَانعةِ تلك العَقاربِ اللاّسعة بما يكفُّ أذاها ، ويصرفُ شَذاها ، ويفلُّ شَباها[١١] ؛ فإنّها إذا أمكنَتْ لسَعت ، وإذا ألْفتْ خللاً مَدّت وأوسعت . ولا يُفْقَدُ مالم [تُسَلَّلْ][١٢] أحْقَادُهُ بإتاوة[١٣] ؛ ولم يُسْتَنزل اعتِقادُه ، بأرْشٍ[١٤] يُمَادُّهُ ، إلى ملاوةٍ منه كَرّةٌ خاسِرَةٌ وطلعَةٌ

---

(٧) أبو بكر بن العراقي ؟.

(٨) البُرهان يُجمع على بَراهين . ووردت الكلمة في الأصل (براهنه) .

(٩) الحيزوم : الصدر أو وسطه .

(١٠) أشأزه : أهَمَّه وأقلقه .

(١١) الشبا جمع الشّباة ، وشباة الشيء : حدُّ طرفه ، وشباة العقرب : إبرتُها .

(١٢) سقط معظم الأحرف ، وهي مقدّرةٌ تخميناً من بقايا الحروف .

(١٣) الإتاوة ، يقال : شكم فاه بالإتاوة : رَشاه .

(١٤) الأرشُ : دية الجِراحة .

باسرة[١٥] ومضرّةٌ حاضرةٌ ياسِرة . فإنْ رأيتُما ـ دامَ لكُما السَّدادُ ـ إحضار سَعيد الذي شَقِيَ به جارُه ، وبَعُدت حين قَرُبت منه داره ؛ ولَمَّ الشَّعثِ ورمَّ الْمُنتكِث ، تبلّغ بِيُمنكما وَدام في ظِلّكما وأمكما ؛ فالدُّنيا بلاغٌ [والأجَلُ ؟][١٦] روّاغٌ . واللّهُ جَلّت قدرته يذودُ بكُما عن الأحْدار ، ويجعَلُكما في أمنٍ من صُروف الأقدار . إنّهُ وَلِيُّ الْحَوْلِ والاقتدار ؛ لا رَبَّ غَيْرُه .

[١٢٩]

وله ـ رحِمَهُ اللّهَ ـ:

أَتَمّ اللّهُ يا سَيِّديَ الأَعلى ـ حَفِظَكَ [اللّهُ] وشعشَع لتقوى لَفْظك ، وجَعل فيما يَرْضى حَظَّك ، وأمَدَّكَ بكرَّةٍ تُطْرِقُ لإحسانك [وتُطْلِقُ][١] من لسانك . ولا زَال فُوكَ بِشُكرِ الله تعالى على النِّعَمِ رَطْباً ، ودُمْتَ تَسْتَتْبِعُ مَنّاً وتَسْتدفِعُ خَطَباً .

وافى كتابُك الأثير ـ أَعزّكَ اللّهُ ـ على نفس عازِفَة ، وبين يَدَيْ حادثةٍ للقولِ نازِفة ؛ فتوارَتْ الفقَرُ وكاد جَوادُ الكلام يُعْقَر . وعلى ذلك فقد أَلَنْتُ منهُ قناةً صُلبةً ، وحلَبْتُ الضَّجُور[٢] عُلبة ، وأَنفذْتُ نحوَكَ أُنموذجاً

(١٥) بسَر : أظهر العبوس .

(١٦) بقي من الكلمة (والأ ...) . أو لعلها : « والأَمَلُ » .

[١٢٩]

(١) بقي من الكلمة (وتط...) .

(٢) الضَّجُور : الناقةُ السيئة الخُلق .

وراءَهُ مددٌ ، ومع يَوْمِه غَد . فاسْبُرْهُ سائقاً واخبره ذائقاً فإن لاق بمرتبتكَ وعذبَ على عَذبتك ، وحدجَتْكَ الأَحداقُ ، وطالت نحوكَ الأَعناقُ ، وبَدت الاستِجادَةُ وافتكَ الزّيادة . وإن لم تردْ موردَ الجِدّ ولا حَظِيَتْ بالمسْتَمعِ المسْتَعِدّ فاطْوِها طيَّ البُرد . واللهُ يجْعَلُ بعد عيّي بياناً ، ويُعقِبُ بعد هذِه الشدّة خَفْضاً ولِياناً . بِعزّتِه وقُدْرَتِه .

[١٣٠][☆]

وكتب إليه[☆☆] الوزير الكاتب أبو بكر محمّد بن عَبْدِ العَزيز[1] [١١٨/ب] مع رَجُلٍ حاجٌّ يَضْرِبُ القُرْعَةَ ، ويَدَّعِي عِلْمَ النُّجومِ ، ومخاريقَ أُخر :

أَطالَ اللهَ بقاءَ إما[مي وكَبِـ]ـيري ، وصَفِيّ وسَجِيري[2] ، المنوط به

[١٣٠]

(☆) القطعة في (الريحان والرَّيعان) ٨٦/ب و ٨٧/أ .

(☆☆) رسالة من أحد الوزراء الكتّاب (أبو بكر بن عبد العزيز) إلى صديقه أبي عبد الله بن أبي الخصال في التّوصية برجلٍ يقدّم شيئاً من ألعاب الخِفّة وماشابه ذلك .

(١) الوزير الكاتب أبو بكر محمد بن عبد العزيز ، من أهل قرية شرّانة من قُرى شريش . وكان أبوه متقدّماً في صنعة الكتابة ، مضطلعاً بالكتابة لبني عباد أَصحاب إشبيلية ، واختَصّ بالكتابة للمأمون بن المعتمد . قال ابن سعيد : نشأ أبو بكر في حجر تلك الدّولة (العَبّاديّة) . ويُعْرَفُ آله ببني عبد العزيز وبني المرْخِي . ولكن ظهوره ومكانته كان أيام المرابطين وكنت وفاته سنة ٥٣٦

(الذخيرة ٣/١ : ٤٠ ـ ٤٤ ، والمغرب ١ : ٣٠٧ ، والصلة ٢ : ٥٢٩ ، ومعجم أصحاب الصدفي : ١٣٢ ، والمطرب : ٢٠٨ ، وقلائد العقيان : ١٦٣ ، وخريدة القصر ٠٠٠٠٠) .

(٢) السَّجير : الخليل الصفيُّ المخالط ، والجمع سُجَراء .

إجْلالِي وتَوقيري ، وأدام عِزَّتَهُ وسعادتَهُ ، ولا قطَع عن الفُضَلاءِ عادتَه .

كتَبْتُه عن ظَمأٍ إلى لقائه ، وصَدأٍ لا يُجْلى إلا بجلائه ؛ وشوقٍ أَطوي عليه الضُّلوَع ، وأرتقبُ به الكَوْكَب السَّعْدانِيَّ يُواجهُ الطُّلوع . واللهُ يُدْني القُرب ويُتيحهُ ، ويكشفُ البُعْدَ ويُريْحُه . وهذه الرُّقعةُ تُطلع عليه فائدةً من فوائدِ الدَّهر ، وتَسُوقُ إليه يانعةً من يوانِع الزَّهر ، الشيخ الجليل أَبا إسحاق وهو أَصَمٌّ سميعٌ ، ومفترِقٌ جَميع ، وصاعِدٌ مُنحدر ، وطالِعٌ مُنكَدِرٌ ، وراكدٌ مُنهَمِر ، وعاصٍ مُؤتمر ، وثعلبٌ ونَمِر . وعندهُ نارٌ تُشَبُّ بذكاءٍ وصلاةٌ تُمْزَجُ بتصْدِيَةٍ ومُكاء[٣] . وهو مع ذلكَ ينظرُ في الخَفِيّ فَيُخْرِجُه وينقرُ على النِّحرير فَيُبهِرجُه ، ويُخبر عمّا يَكونُ ، وتوجدُ لهُ حَركاتٌ وسُكون .

وتَوَجَّهَ إلى ذلك القُطر وغرضُه لقاءُ مَن يهديهِ إليه ويَدُلُّه عليه . وهو يَمْتَحُ له بِدَلْوِه ، و[يَعْمَلُ][٤] في تَنْفيقِه بَعْضَ عَفْوِه ، ويُلقي عليه شُعاعاً من جاهِه ، ويوُرِدُه العَذبَ من أَمواهِه .

وقد خاطبتُ في أَمرِهِ فُلاناً بما مجْدُه يُشيعه ، وفَضْلُه لا يُضيعه . وإنْ أمْكنَ إعلامُ فلانٍ بمكانِه وتَحريكُه لاستحسانِه كان ذلكَ زائداً في إحسانِه ؛ إنْ شاء الله .

---

(٣) التصدية مصدر صدّى الرجلُ : صفقّ بيديه . والمكاء : الصَّفير . وفي سورة الأَنفال ٣٥/٨ ﴿ وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إلاّ مُكاءً وَتَصدِيَةً فَذوقوا الْعَذابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرونَ ﴾ .

(٤) لم يظهر من الكلمة إلا طرف من أوّلها ؛ ووجدتها كما استظهرتها في الريحان والريعان .

[١٣١][☆]

فأجابه ذو الوزارتين ، رحمهما اللهَ ،

أطال اللهُ بقاء رئيسي وإمامي ، الذي لهُ إعظامي ، وفي سلكه اتّساقي وانتظامي ؛ وإلى ملكه انتسابي واعتزائي ، وبِوُدّه افتخاري وانْتِزائي : للفضائِل مُحْتَبياً ومُنْتَدِياً ، وبالمَحامِد ، مَشتَمِلاً ومَرْتَدِياً ، وبالغرائب مُتْحِفاً ومُهْدِياً ، وما زالَ لِرَخاءٍ من الموالاة وأَزْل[1] ، وجِدٌّ من المصافاةِ وهَزْل ، وشَخْتٍ[2] من المراعاةِ وجَزْل .

وصَل كتابُه الجَزِيْلُ صحبةَ عَرَّافِ اليَمامَةِ[3] ، وحدَّاء نجدٍ[4] وتِهامة ؛ يُقَرِّظُه ويُحَلّيه ويُقرّظُه ويُزَكّيه ، ويصفُه بالخبء يفسّره ويُجَلّيه ، والخَفِيُّ يُظهِرُه ويُبْدِيه . ولعلّه رائدٌ لابنّ صائد [١١٩/أ] أو هادٍ للمسيحِ الدجّال قائد ! أشْهَدُ شهادة إنصافٍ أنّ عندهُ لغصب صاف[5] ولو كانَ هناكَ ناظرٌ طاف ـ وللهِ خَفايا أَلْطَاف ـ لَقُلنا هو غَير خَافٍ ، من بينِ كُلّ

---

[١٣١]

(☆) الرسالة في الريحان والرَّيعان ٨٧/أ ـ ٨٨/أ وقد تجوز ثَمّة في الاختصار والاجتزاء . وقال في آخر ما أورده منها « وهذه الرسالة أمدُّ من هذا فاقتضبناها لطولها ، ولم نُخلَّ بمعنى فائدتها » .

(١) الأَزْلُ : الضيق والشدة .

(٢) الشخت : الدقيق الضامرُ من الأَصل لا من هُزال .

(٣) عرّاف اليامة أحد كهان العرب المعروفين . وذكره الشعراء في أشعارهم .

(٤) حدّاء اسم فاعل من حدا (الإبل)

(٥) صاف (ضاف ؟) .

ناعلٍ وحَاف . وسأُخبرك ـ أيّدكَ اللهُ !ـ بما اتّفَق ، وكيفَ طار ونَفق ، وتوسد الكرَامة وارْتَفق . طَرَّق لهُ وصْفُك[٦] ونَعْتُك ونَفعهُ بَرْيُك ونَحْتُك ؛ فدَفعَهُ للعُيونِ جَدُّك وبَخْتُك ، فامتَدَّتْ نحوَه النَّواظِرُ ، واستشْرفَهُ الحاضِرُ ؛ وتسابق إليه النّبيهُ والخامِل ، وازدحَم عليه العاطِلُ والعامِل . هذا يَلتمسُ مزيداً ، وذاكَ يَبتغي حَظّاً جديداً ، وهذا يطلب تقليداً ، وذلكَ يُسْأَلُ إلى مقاليدِه إقْليداً[٧] ، فَكُلاًّ غَلبَ وغَرّ ، وحلَبَ واسْتَدَرّ ، وتَلَقّاه ـ وإن سأله الغَيْبَ ـ بما سرّ !

وكنتُ قد واثقْتُ جملةً من الأَعيانِ ، ووافقت نخبةً من الإخوان كُلُّهم لهُ من أجلِكَ خاطِب ، وفي حَبْلِ رِضاك حاطِب على تَمشيةِ أمرِهِ ، وتوشِيهِ ذِكْرِه . فلمّا صدقتْ تلك الفِرقةُ ، واستوتْ لهُ بهمْ الفرقَةُ أَحضرناهُ للسِّبار[٨] ، وقَعدْنا للنّقدِ والاختبارِ ، وأَردْنا أن نقف على جَلايا تلكَ الأَخْبارِ ؛ فأحضرنا طِحْناً ونِطْعاً[٩] ، وسرَّينا عنهُ من الوحْشَةِ قطعاً ، وقلنا له : خُذْ عَفْوكَ ، ولا تُورِدْنا إلا صَفوك ، ولا تُصانِعنا في الكريهة تَراها ، والحادِثَةِ تستفْظِعُ ذِكراها . فما عِنْدَنا جهل ، وما مِنّا إلا مُحْتَنِكٌ كَهْل . لا يَتكادُّهُ[١٠] حَزْنٌ ولا يَسْتَخِفُّه سَهل . فسَكن جائشُ

---

(٦) طرّق له : جعل له طريقاً .

(٧) المقاليد (جمع المِقْلَد والمقلاد ، والمِقليد) : المفتاح . وكذا الإقليد .

(٨) يقال سَبَره (سَبْراً) : جَرَّبه . ولم أجد السبار مصدراً لـ (سبر) . ولم أجد سابَر . على أن السّبار والمسبار معاً : ما يُسْبَرُ به غور الجرح .

(٩) الطِّحْنُ : الدَّقيق المطحون . والنِّطْعُ : بساطٌ من الجلد (يوضع عادةً تحت الرَّحا)

(١٠) كادّه : غالبه .

فَوْرِه وضَرب بِلحْيَيْهِ على زَوْره[١١] ؛ ثمّ صعَّد فينا النَّظر وصَوّب ، واستَهلَّ صارِخاً وثَوّب ، وتحرَّج من الكذِبِ وتحوّب[١٢] وقال : لست للعشْوَةِ خابِطاً[١٣] ، ولا للطِّرْق[١٤] غابطاً ، ولا عن الصِّدْقِ إذا صدَق حائداً ، ولا للقَدَرِ بمَنْ وقَع ذائداً ؛ ولا بمعجزةِ النُّبُوّةِ لاعِباً ، ولا بصَريحِ الجِدِّ مُداعِباً . ولا تطّبيني بُثْلَةٌ[١٥] ولا حُلوان ، ولا تَستفِزُّني نَضائِدُ وَثِيرةٌ[١٦] ولا ألوان . إنّما هو رَسْمٌ وخَطّ ، ورِفعةٌ وحَطٌّ ، ونحسٌ وسَعد ، ونقدٌ ووَعْد ، ويَوْمٌ وبَعْد . فقلنا : الآنَ صحَّت الإفادَةُ ، والتقت الإرادَةُ لا وأَلَ من خَام[١٧] ، ولا ورَد مَنْ عليهِ[١١٩/ب] الذُّعرُ حامَ . ثم نظَر إلينا نظر المسْتَقِلّ ، واجتذبَ النِّطْعَ اجتذاب المدِلّ ؛ ونثلَ الطّحنَ وهاله ، وأداره [فاسْتَدارَ][١٨] هالة ، ثم قال : ياأيُّها الملأ هذا النّبأُ فأَيُّكم يَبدأ ؟ فَرَمقني القومُ بأبصارِهِمْ وفَغَرُوا وكَبَّرُوا ، وليتهم صَغَّرُوا ، فقلت لهم : ياقَومُ !

---

(١١) اللحْيُ : منبت اللحية من الإنسان وغيره .
والزور : الصدر أو وسطه .

(١٢) تحوّب من القبيح : تحرّج .

(١٣) العَشْوَة : الظلمة ، وتكون بالليل وبالسَّحر . وخبط (الليل) سارَ فيه على غير هدى .

(١٤) الطّرق : الشَّحم والسِّمَن . وغبَط (الكبش) جسّ أليته وجسَّ ظهره بيده ليعرف هُزاله من سِمَنه .

(١٥) البُثْلَةُ : الشهرة . الحُلوان : أُجرة الدلاّل (وما يشبه ذلك) .

(١٦) نضائد جمع نضيدة : الوسادة ، وما حشيَ من المتاع .

(١٧) وأل : لجأَ وخلَص ؛ وخام : وخَمُ ووَبىً .

(١٨) في الأصل فراغ بمقدار كلمة . واستدركتُها من (الريحان والرَّيعان) .

قد عَضضْتُ على ناجذي حِلْماً ،وقتلتُ شأني كُلّه عِلماً ، وعقدتُ بَيني وبينَ غــدٍ سِلْماً ؛ فكيفَ أستكشِفُ مــا أعرفُ ، وأستفهِمُ عمّــا لا يَسْتَبْهِمُ . عَلى [الرحْمن][18] توكّلْتُ ، وعلى الشَّيطْانِ تَدَكَّلْتُ[19] ، ومن كِيْسِي أَكْلْتُ ، وفي مَبْرَكِ السَّلامَـةِ بركتُ ، وجَسِيمـاتِ الأُمـورِ تركَتْني وتركتُ ، والمِيتـة المطمَئِنةَّ رجوتُ ، ولعلّي قد نجوتُ ، فَذَرُوني وما نَحوتُ .

فتخطَّتْني عند هذه المقالة عَيْنُه ، وطَواني صِدْقُه ومَيْنُه . ثُمّ صارَ القومُ دوني أَنْجِيَة[20] ، وأَعدّ له كلٌّ توريةً وتَعْمِيَـة . فقـال قـائلٌ منهم : تعـالوا نشترك في ضميرٍ ، وَنَرْمِيه بهذا الطَّاغيـة ابنِ رُذمير[21] ؛ ففي كُلّ قلبٍ منـه نُـدَب ، والسّـؤالُ عنـهُ دِينٌ وأَدَب ؛ فـإن أَصــابَــهُ استَرحْنــا من النَّصَب والشُّخوص وصرنا من العُمومِ إلى الخُصوص ؛ وإن أَخطأَ فهو لا سواه أَخْطَأَ وعَمّـا يَـدّعيـهِ ونُريـدُه فيـه أَبطـأ . فقــالُـوا : نِعْمَ مــا عَرَضْتَ ، وحُسْنَ مــا رَوَّيتَ وأَرَّضت[22] . فلمــا رآهُ يتقلّــد التَّعـويص ، ويُحكِم التَّغْــوِيرَ والتَّغْويص ؛ قـالَ لـه حقّـقْ ضميرَك كُـلَّ التَّحقِيـق ، وضَـعْ مَسبحتـكَ في الـدَّقيق . فـابتـدَر مـا أمر ، ثم حَسر عن ذراعيـه وشمّر ، ومرَّت إصبَعُـه في خَطّه مَرّ الدُّرّ المتهـالِـك ، ووقعَتْ وقعَ القَطْرِ المتَـدارِك ، لا يَمسُّ الطِّحْنَ إلا تَخْلِيـلاً ، وغَمـزاً كالـوَهْمِ قَليـلاً ، فطَـوْراً يستقيم سَبيــلاً ، ويستــديرُ

---

(١٨) في الأصل فراغ بمقدار كلمة . واستدركتُها من (الريحان والرَّيعان) .

(١٩) تدكّل عليه : اعتزّ وترفَّع في نفسه .

(٢٠) أنجية جمع النَّجِيّ : المناجي .

(٢١) انظر عن ابن رذمير حواشي القطعة [١] .

(٢٢) أرَّض (الكلامَ) : شذبه وهذّبه .

إكليلاً ، وآونةً يأتي بالسّماء ونُجومِها قَبيلاً . فكائنٌ هناكَ لنعشٍ من بَنات ، وللثُّرَيّا من أَخوات ، وطيرٍ قابضاتٍ وصافّات[٢٣] ، وأَسرابٍ بأَسرابٍ حَافّات . فلما استَوْفى عَددهُ ، وبلغَ أمَده ، وحَتَم طرائقَهُ وقِدَدَهُ[٢٤] ، وأَعطى الأُصولَ فُروعَها ، وتدبَّر تَفاريقَها وجُموعها ، تجمَّع وتَقبَّض ، وفتر ثمّ انْتَفض ؛ وصقَل ذِهْنَهُ وشافَه ، وأَخذَ الطِّحْنَ فَسافَهُ ؛ وزَفر [١٢٠/أ] وشَهق ، وعَشَّر[٢٥] ونَهق ، وألصق بظَهْرِهِ حَشاه ، وكتَم الرَّبْوَ[٢٦] ثُمّ أَفْشاه . وقالَ : هذا الذي كنتُ أَخْشاه . عفيتُم الأَثر[٢٧] ، وعثرتُم خاطِري فَما عَثَر ، ونَثَرْتُم نظامَ الحَدْسِ فَما انتثَر ، سألْتُم عن روحٍ شاردٍ وشَيْطانٍ ماردٍ ، وصادِرٍ مع اللَّحَظاتِ واردٍ : لا يوطنُ داراً ولا يأوي قَراراً ، ولا يطعَمُ النّومَ إلا غِراراً . نعمْ أمرُه عِندي مُستَقِرٌّ : هو زِنديقٌ مُسْتَسِرٌّ ، أو شِهابٌ من شُهب الشِّرْكِ مُستَحِرّ[٢٨] .

ثمّ رجَع البَصر ، وانْتَطق بيدَيْه واخْتَصر . وعادَ إلى الحِسابِ يتَقرّاهُ والصّوابِ يتَحرّاه . وتتبّع أَديْمَ الطِّحْنِ ففراه ، وقال :

أعوذُ باللهِ من شَرِّ ما أَراه ! إلى كَمْ في عَناءٍ وبَلاءٍ ؟ كأنّي لستُ ذا

(٢٣) صَفّت الطّيْرُ : بسطت أجنحتها في التحرك . وفي سورة النور ٤١/٢٤ ﴿ والطَّيْرَ صَافّاتٍ ﴾ .

(٢٤) القِدَدُ جمع القِدّة : الفرقة والطريقة من الناس إذا كان هوى كل واحد على حدة . وفي سورة الجن ١١/٧٢ ﴿ وأَنّا مِنّا الصالِحُونَ ومِنّا دونَ ذلك كُنّا طَرائقَ قِدَداً ﴾ .

(٢٥) عَشّر (الحِمارُ) كرّر النهيقَ في طَلْقٍ واحد .

(٢٦) الرَّبْو : البَهْرُ وهو تواتُر النَّفَس من عَدْوٍ ونحوه .

(٢٧) عفى فلانٌ الأَثَر : محاه وأَذْهَبَ معالمه .

(٢٨) استَحرَّ : اشتدّ حَرُّه .

إمرارٍ ولا إحلاءٍ[٢٩] ! تاللهِ لو كانتْ قُرعَة رفعةٍ وعَلاءٍ لما غابَ عنها اللِّحيانيُّ ذو السَّبَلَة[٣٠] ولواجهنا البَياضَ ذا الغُرَّةِ المسْتَقبلة ، مواجهةَ حَسّان لِجَبَلَة[٣١] . النَّحْسُ على هذا الرُّوح قد رَتب[٣٢] ، وكتبَ عَليه من الشَّقاء ما كتَب ، زأخرج النُّصَر الدّاخلة والعَتَب[٣٣] .

ثم أَشارَ إلى الحُمْرَةِ ، وكأَنَّما وضَع يَدَهُ على جَمْرَة وقال : « كَوْسَجٌ شَقِيّ وسناط[٣٤] الوجْهِ نقيّ ؛ وثقافٌ وطَرِيق ، وجَماعَةٌ وتفريقٌ ؛ وقَبضٌ خارِجٌ ، ومنكُوسٌ مّارج » .

ثُمّ قاربَ وجازَفَ ، وتطاولَ وتآزفَ[٣٥] ، ووضَع عِمامَتَهُ ولَوْلَبَ[٣٦] هامَتَهُ ، وأسالَ وجْهَهُ فجَرى طَلْقاً ، ثم عَرَّضَهُ فاسْتَدارَ مجنّاً مُطرقاً ؛ وعَقَر أَناملَهُ عَصّاً ، وأَدْمى صَدْرَهُ دَعّاً ورصّاً[٣٧] ، وقطّع بصره لَمْحاً وغصّاً ،

---

(٢٩) يقال : فلانٌ لا يُمِرُّ ولا يُحلي : إذا لم يكن ذا شأن ، ولا يعتدّ به وبما عنده .

(٣٠) اللِّحياني : الطويلُ اللحية . ويقال لمقدّم اللحية : سبَلَة .

(٣١) حسان بن ثابت ، وجبلة بن الأَيهم الأَمير الغسّاني ممدوح حَسّان في الجاهلية .

(٣٢) رتبَ : ثبت ودام .

(٣٣) العتَبُ (بفتح التاء) : الشدّةُ والأمرُ الكريه .

(٣٤) الكوسج : الذي لا شعر على عارضيه . والسناط (السّين تُكسَرُ وتُضَمّ) : الذي لا لحيةَ لهُ أَصْلاً أو هو خفيف العارضين ولم يبلغ حال الكوسج .

(٣٥) تآزف (القوم) تدانى بعض من بعض .

(٣٦) اشتق فعلاً من اللَّوْلَب . على أنّ فعل (لاب) فيه معنى حامَ حول المَاء ...

(٣٧) الدَّعُّ : دفعٌ عنيفٌ بجفوةٍ . والرصُّ : ضم الشيء بعضه إلى بعض .

وتكَفّـأ وتَقَلَّعَ[٣٨] ، وتفطّس وتجلّع[٣٩] ، وأدلع لسـانـه فـدلـع[٤٠] فَقُلنـا داءٌ يتـأُبّطُـه ، أو شيطـانٌ يَتَخَبَّطُـه ؛ أو قَرينٌ[٤١] يَسْتَنْـزلُـه ويَخْتِلُـه ، أو رَئيٌّ[٤٢] في الذُّرْوَةِ والغَارِب بهذه الخُزَعْبَلاتِ يفتِلُه[٤٣] !

ثم تجاحظَ وتخازر[٤٤] ، وتضاءَل وتنازَر وقال : والّذي أَحْيـا عـازَرَ[٤٥] وأَخرجَ إبراهيمَ من آزر[٤٦] ، ومَلَـك عِنـانَ الرِّيـح ، وأذْعَن لَـهُ كلُّ شيءٍ بـالسُّجـودِ والتَّسبيـح : إنّـه لمنْ عُبّـادِ المسيـح . هَيهـاتَ ، هيهـات !

---

(٣٨) تكَفّأ في مشيته : تبختر . وتقلّع : لم يُبطىء ولم يعجل وكأنه ينحدر من ارتفاع .

(٣٩) تفطّس من فَطَس (بالكلمة) جابه بها . وتجلّع ترك الحياء وتكلم بالقبيح .

(٤٠) أدلع لسانه : أخرجه .

(٤١) القرينُ : الشَّيطانُ المقرون بالإنسان لا يفارقُه .

(٤٢) الرئيُّ : الجِني يعرضُ للإنسان ، ويُطلعه على ما يزعمُ من الغيب .

(٤٣) يقـال : مـا زال يفتِـلُ في الـذروة والغـارب : أي يـدورُ من وراء خـديعتـه ؛ وأصلـه ما يفعله خاطِمُ الصعب من الإبل يختله بذلك .

(٤٤) يقال : جحظت عينه إذا نتأت حـدقتهـا وبرزت . ووزن تفـاعل في هـاتين الكلمتين (تجاحـظ وتخـازر) يفيـد تكلف ذلـك الموقف واصطنـاعـه . وتخـازر : ضيّق عينيـه ليحدّد النظر ، وأظهر الخَزَر (صغر العين وضيقها) .

(٤٥) من معجـزات نبيّ الله عيسى عليـه السَّلام إحيـاءُ المـوتى بـإذن الله . قـال ابن الأثير (الكامل ١ : ٣١٥) : « فممّن أحياه عـازر ، وكان صـديقـاً لعيسى ، فمرض فـأرسلت أُخته إلى عيسى أن عازر يموت . فسار إليها وبينهما ثلاثة أيام فوصل إليـه وقـد مـات منذ ثلاثة أيام ، فأتى قبره فدعا له فعاش ، وبقي حتى وُلِد له .

(٤٦) آزر اسم والد إبراهيم عليه السَّلام ، وقالوا بل اسمـه تـارخ . وقيل سمي بتـارخ ثم بـآزر (الطبري ١ : ٢١١) .

لا أُضَعْضَعُ[٤٧] بظَنّ ولا يُقَعْقَعُ لي بِشَنّ[٤٨] ، ولا أُنـازَعُ من هـذه الفُنـونِ في فنّ ! قد ركبتُ أثباجَ البِحـار[٤٩] ، وقطعْتُ نِيـاطَ[٥٠] المفـاوز والقِفـار ، وشـافَهَني الحَرمُ والبَيْت ، وَصـافحني [١٢٠/ب] الحَجَرُ الكُمَيت[٥١] ، وأَحْرَمتُ ولَبَّيْتُ ، وطُفْتُ ووفَّيْتُ ، وزُرْتُ المصطفى ﷺ وتَحفَّيْتُ . ثُمّ [قصـدت إلى عـ]ـدَن[٥٢] ، وانحـدرتُ عن اليَمَن ؛ واستسقيتُ كُـلَّ راعدة ، وأتيتُ كلّ قاعـدة ، وأوفيتُ على كُلّ رَبْوَة متصـاعـدة . وحيَّيْتُ صاحِبَ الجَمَل الأَحْمَر قُسَّ بنَ سـاعـدة[٥٣] ، ووردتُ عُكاظ[٥٤] وصـدَقْتُ الحِفـاظ ، وقـدتُ الصِّعبـةَ بِنِسْع[٥٥] ، وزرت صـاحبَ الآيـاتِ التِّسْع ومَسَحْتُ الشَّـامـاتِ بـأَخمص وشـ[ـسـع][٥٦] ، ووقفتُ حيثُ وقف

---

(٤٧) ضعضع الرجل :أضعفه ، وأخضعه .

(٤٨) يقال : فلانٌ ، لا يُقَعقع له بالشنان : لا يُخدع ولا يُرَوّع .

(٤٩) الثَّبَجُ : وسط الشيء ومنه ثَبجُ البحر .

(٥٠) يُقال : مفازةٌ بعيدة النِّياط : بعيدة الحدّ كأَنّها نِيطت بمفازة أُخرى فلا تكاد تنقطع .

(٥١) الكميت : ما كان لونه بين الأَسود والأحمر . (يعني الحجر الأَسود) .

(٥٢) سقط من التّصوير نحو كلمتين .

(٥٣) قس بن ساعدة الإيادي أحد حكماء العرب في الجاهلية ، وخطيب مَشْهُور .

(٥٤) من أسواق العرب المشهورة .

(٥٥) النّسع : سيرٌ عريضٌ طويل تُشَدّ به الحقائب أو الرّحال أو نحوها .

(٥٦) الأَخمص : باطن القدم ومـا رقَّ من أسْفَلهـا وتجـافى عن الأَرض . والشُّسـع : قبـال النعل ، وهو أحد سيورها الذي يدخلُ بين الإصبعين ، ويدخل طرفه في ثقب صدر النعل المشدود في الزمام .

الحكمان[٥٧] وشهدتُ زَحْف[٥٨] التّركمان ، وكيف تصَاوَلت القُرومُ[٥٩] وغُلِبت الرُّوم[٦٠] وهزَم المدْبِرُ المقْبِل ، واكتَسحت الجحَاشُ الإبل[٦١] . ثم قال : « تَحْتَاجون في هذه النّكتة إلى تفسيرٍ وبَسْطٍ يَسِير[٦٢] : تَظاهَرت على الفُرْسِ الرُّوم والعَرب ؛ فَلَمَّا جَدّ المِراسُ طَارَ بِهمُ الهرب ، وجَعلت سِهامُ الفُرس مع إدبارها تُخالفُ إلى الرُّوم في إقبالها خِلافَ الجمال بأَبْوَالِها ، فتركتْهُم العُرَيبُ[٦٣] والرِّماحُ تَقِصُهُم[٦٤] ، والسِّهامُ تُنْزِيهم[٦٥] وتُرْقِصُهم ، والسُّيوفُ تُرْديهم وتُقْعِصُهم[٦٦] ؛ فاستُبيحَتْ آيالُهم ، وجُزّت نَواصِيْهم وسِبالُهم » . فقُلنا : للهِ أَنت ! لقد جَليتَ عن نَفْسِك ، وأَرْبى يومُكَ على أَمسِك ، ولقد صَدَقَ مُطْرِيكَ ، ووفَتْ صَحيفَةُ مُزَكّيك ، وما كانَت فراسَتُهُ لِتنامَ فِيك ، فماذا تَسْتَقرِئُ مِن اللَّوح وتَرى في ذلكَ الرَّوح ؟ بعَيْشِكَ إلاّ ماأَمعنْتَ في الإفشاءِ والبَوْح !

فرجعَ في البَحْثِ أدراجَهُ ، وطالَع كواكبَهُ وأبراجه ، وعادَ على مَلاءةِ

---

(٥٧) في الحكومة بين علي ومعاوية ، وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص .

(٥٨) « زحف » غير واضحة تماماً .

(٥٩) القروم جمع القرم : الفحل ، والسيّد المعظَّم .

(٦٠) إشارة إلى هزيمتهم التي ذكرت في أول سورة الرُّوم .

(٦١) الجحاش : جمع جحش : ولد الحمار .

(٦٢) في الأَصل : « سبط يسير » وأظنّهُ كما أثبت .

(٦٣) العُرَيب : تصغير « العرب » للتحبيب .

(٦٤) وقص الشّيءَ : كسره .

(٦٥) نزا (ينزو) : وثب ، وأَنزاهُ : جعلَهُ يثب .

(٦٦) قعصه : طعنه بالرمح طعناً سريعاً .

الطِّحْنِ يَرْقُمُ ويرمُقُ ، ويفتُقُ ويرتُقُ ، ثم جعل يبتسِمُ ، وقال : « أحلفُ باللهِ وأُقسِمُ لقد استقامَ المَنْسِمُ[٦٧] وإنّه لكما أَرْسِمُ وأَسِمُ أجدُه لا[عبـ]ـاً مبهُوراً ومنكوباً مَقْهُوراً ، ولن يلبثَ إلاّ شُهوراً ! قد أَفَلَ جَدُّهُ وفُلَّ حَدُّ[ه] وَ]أتى عليه تَقِيٌّ خَدُّه ، وصَبِيٌّ لم يملكْ أبوه وملكَ جَدُّه ! فقلنا : « سرحْتَ[٦٨] وأوضَحْتَ وشَهرتَ هذا المسْتورَ وفَضحْتَ . فإن ساعدكَ القَدَرُ وكان لكَ على هذا الورودِ صدَرَ فحظُّكَ مُبْتَدَرٌ ، وخَطُّكَ صافٍ لا يَشُوبه كَدَرٌ [١٢١/أ] فقال : هذا أمرٌ قد آن أو كانَ ، وسَيأتيكم الخبر الآن ، فانْفَصلنا وأَصْغَيْنا[٦٩] الآذان ، وجَعلْنا نتلَقى الرُّكبان ، فلم تَرُعْنا إلاّ تِلْكَ النُّعمى النَّاجمة ، والبُشرى الهاجمَة ، بما بانَ فأدْهَنَّا في شانِه ، ولم نكدْ نُعاوِدُه خوفَ طُغيانه ، فإذا الخَبَر لم يُخطىء سِماخَه[٧٠] وكأنما كان إليه عَوْداً وافى مُنَاخَه ، أو طائراً أمّ أفراخَه ، فلم ننشب[٧١] أن أَقْبَل يصمد[٧٢] نَحونا أيَّ صَمْد ، ويتعَرَّضُنا على عَمد تَعَرُّض الجوزاءِ للنُّجوم ، وتقَضّي نيازِك الرُّجوم[٧٣] فقال : ألم يأْنِ أَن تَدينوا لي بالإكبار ،وتعلَمُوا أنّي من الجهابذة الكبار ؟ فقلنا : مِنكَ الإسْجَاحُ[٧٤]

---

(٦٧) المنسِمُ : الطَّريق ، يقال : استبان المنسمُ .

(٦٨) في الأصل « سرحت » (بالسين المهملة) . ولعلّها : شرحت (بالمعجمة) .

(٦٩) في الأصل : فأسغينا (بالسين) ولم أجد هذه المادّة . وأَثبتُّ قراءتي للكلمة .

(٧٠) السّماخ لغةٌ في الصّماح (مدخل الأذن) .

(٧١) يقال : لم ينشب أن فعل كذا أي لم يلبث .

(٧٢) صَمد إليه : قصده (وانتظر غفلته) .

(٧٣) الرجوم جمع الرجم وهو ما رُجِمَ به أي ما قُذِف به .

(٧٤) أسجح : أحْسَن العفو ، ومنه : « ملكْتَ فأسجِحْ » .

فقد ملكْتَ ، ولك النّجاحُ أيّةً سَلكْت ، فأطرق زَهواً ، وأعرض عنّا لهواً ، ثم قال : اعلَمُوا أنّ القُرعة لو طوَت أسرارَها ، وطمَست آثارَها ، ومنعَتْني أخبارَها ، لمزّقْتُ صِدارَها ، وذَروْتُ غبارَها ، ولكان لي عنها أوسَعُ مُنْتَدح[٧٥] ، وأمجَدُ زنادٍ مُقْتَدح[٧٦] . أين أنتم عن رَصَدي في الأحلاك وَعِلمي بالأفلاك ؟ أنا موجُ الموجِ ، وأَوجُ الأوج ، والمنفرد بعلم الفَرْدِ[٧٧] ومُشْتَرِطُ السَّرَطان[٧٨] ، ومُسْتَدْبِرُ الدَّبَران[٧٩] ، وبائعُ المشتَري بالميزان[٨٠] ، والقابضُ بيد الحسابِ والعملِ على رَوْق الثّور[٨١] ، وذَنب الجَمَل . عندي نَعْلُ العَقْرب[٨٢] ، وقَيْدُ الأبعد والأقرب ؛ أَصِيدُ أوابِدَها[٨٣]

---

(٧٥) المنتدح (والمندوحة) : المتّسع .

(٧٦) أي أكثره ناراً . وفي مثل « استمجدَ المرخ والعفار » وهما شجرتان تكثر نارهما . (أمثال العسكري ٢ : ٩٣) .

(٧٧) انظر الكليات لأبي البقاء ٣ : ٣٥٢ ، وتعريفات الجرجاني ١٧٢

(٧٨) السَّرَطان من منازل الشمس « فإذا حلّت بأول السَّرطان فذلك أوّل فصل الصيف » . الأنواء لابن الأجدابي ١٠٠

(٧٩) الدَّبَران من المنازل التي تقطعها الشمس في فصل الربيع . والدَّبَران : كوكبٌ أحمرُ منير يتلو الثُّرَيّا . وباستدباره الثريا سمّي دَبَراناً (الأنواء لابن قتيبة : ٣٧ ، والأنواء لابن الأجدابي : ١٠٣) .

(٨٠) في الكلام تورية . والمشتري من الكواكب السيّارة معروف . والميزان أحد بروج الشمس الاثني عشر وتكون الشمس في (الميزان) في فصل الخريف (الأنواء لابن الأجدابي : ٤٦) .

(٨١) برج الثَّور من بروج الشمس . والرَّوق : القَرْن .

(٨٢) نعل العقرب ؟

(٨٣) يقال : فَرسٌ قيد الأوابد : لا يكاد يفوقُه الوحش إذا طلبه . (جمع آبد وآبدة) .

بالدَّقائق والدَّرَج[٨٤] ، حتّى اضطَرَّ سارِحَها إلى الحَرج ، وأَجمَعها في أضيقِ مُنْعَرج . أنا استدرَكْتُ بالأَنبارِ[٨٥] ، حركةَ الإقبالِ والإدبار ؛ وطالعْتُ إقليدس[٨٦] فاسْتَبْطَنْتُه ، وصارَعْتُ المجسطي[٨٧] فَجَسْطَنْتُهُ ، وأَطقْتُ الأَلُوطقيا[٨٨] ، وارتميتُ إلى الأرثماطيقا[٨٩] ، ولحَظْتُ التَّحليل فحلّ ما عَقده ، واقتَضَيْتُه ما مَطَل بهِ الجهابِذَةَ فنَقَده ![٩٠] .

أَنا عادَلْتُ زُحَلَ[٩١] حين استقلّ على بَعيرهِ ورَحل ؛ وضايقْتُه في ساحَتِه ، وحَصَرْتُه بمساحته ؛ وحضرتُ قِرانَهُ ، وشهدتُ تقدُّمَهُ وحِرَانَه ؛

(٨٤) الدَّرج جمع درجة وهي في علم الفلك جزء من ثلاث مئة وستين جزءاً من دورة الفلك .

(٨٥) الأنبار مدينة قديمة في العِراق . كانت لها نهضة في صدر الدولة العباسيّة .(الروض المعطار ٣٦) .

(٨٦) إقليدس عالم رياضيّات يوناني نشأ في الإسكندرية . وكتابه (الأُصول) من الكتب التي نُقلت إلى العربية في وقت مبكر ، ومنها نقل إلى لغات أُخرى كثيرة . وهوأساس دراسة مبادئ الهندسة .

(٨٧) المجسطي : مرجع فلكي مهم ، كان له أثر في تقدّم علم الفلك ، كتبه بطليموس أحد علماء الإسكندرية وتُرجم أيضاً إلى العربية . وألفت ـ بالعربية ـ كتب على غراره مثل المجسطي لأَبي الوفاء البوزجاني ، والقانون المسعودي للبيروني .

(٨٨) كذا في الأَصل . وفي فهرست ابن النديم : (٣٠٨) : أنّه من كتب أرسطو واسمه (أنالوطيقا) ومعناه تحليل القياس .

(٨٩) يبدو أنه اسم أكثر من كتاب . والأثماطيقي من كتب أحمد بن الطيب السرخسي ، وهو كتاب في الأعداد والجبر والمقابلة .

(٩٠) الجهابذة جمع الجهبذ : النقّاد ، واستعملت لمعنى خازن المال .

(٩١) كوكب زُحَل .

وساهَرْتُه شُفْرَ الشُّفر[٩٢] ، وناجاني بوقائعه [بأَهْلِ / الكُفْر][٩٣] وتخريبه لِمُلْكِ الصُّفر[٩٤] ، وتقرّيهِ لبلادِهِمْ طينةً طينةً ، وإنجازِ الوَعْدِ[١٢١/ب] في فتحِ قسطنطينة[٩٥] . أنا عقدتُ رِشى[٩٦] الدَّلو ، وذرَوْتُ غبارَ الحُوت للقَلْو ، أنا امْتَدحْتُ سقط [الزَّنْد][٩٧] حتى زهَر ، ولاحَ بعد خفائه وظَهر ، أنا استثْرتُ الهلالَ من مكامِن سَرَره[٩٨] ، وأخذتُ عليه ثنايا سَفَرِه ، وقددتُ قُلامته من ظُفره[٩٩] ، ودَلَلْتُ طير الصِّيام على شَجرِه ، فجنَيْتُ المرَّ من ثَمره[١٠٠] . أنا طرقتُ الزُّهرة[١٠١] في خِدْرِها ، وصافحتُها من الفكرة بيد لم تدرِها ، أنا أذكيتُ على ذُكاء [لظىً ؟] تلتهبُ[١٠٢] ،

(٩٢) الشُّفر : منبتُ الشعر في الجفن .

(٩٣) الكلمتان غير ظاهرتين بوضوح من أثر ماء في أصل المخطوطة . ولعلها كذلك .

(٩٤) الصُّفر جمع اصفر . وبنو الأَصفر : الرُّوم .

(٩٥) يقالُ : قسطنطينية والقسطنطينيّة . ورسمها هكذا مطابقة للسجع .

(٩٦) وردت هكذا مقصورة . والرشاء : حبلُ الدَّلْو .

(٩٧) لم تظهر الكلمة ، وأظنها كذلك .

(٩٨) السرر : ليلة السرار من الشهر .

(٩٩) يشبه الهلال بقلامة الظفر .

(١٠٠) لم أعرف (طير الصّيام) وكأنه يُريد ما في اللسان (الصوم شجر على شكل شخص الإنسان كريه المنظر جداً يقال لثمره رؤوس الشياطين (أي رؤوس الحيّات) وليس له ورق .

ـ وقال أبو نواس (ديوانه ٣٩٩) :

لا أذودُ الطير عن شجر ... قد بلوتُ المرَّ من ثمره !

(١٠١) كوكب الزُّهرة .

(١٠٢) ذُكاء : الشمس . و(لظى) لم يظهر منها غير الظاء ، ولعلها كذلك ، وأنا منها في شكّ .

وأجررتُها من الـوَهم شطنـاً أَجـذبهـا بـه فتنجـذب ، أنـا أَنعي للمُعْتَبرين حيـاتها ، وأنـدبُ للسّاجـدين الراكعين إيـاتهـا[١٠٣] . فيتهيـؤون للسُّنَّـة ويتَحرَّون أَوقاتها ؛ حتى تُنشَر بعـد الطيِّ مبنـاتُهـا ، وتستقلّ من العثـار أَنـاتُهـا ، أَنـا انتضيتُ الشّبـابَ شَرْخـاً ، وأَضْرَمْتُ للمِرّيـخ[١٠٤] عُفـاراً ومَرْخـاً[١٠٥] ، حتّى اتّقـاني بمَلاحِم خطـوبـه[١٠٦] ، وحـوادث طلُـوعِـه وغُروبِه ، وتَلمُّظِه إلى النَّجيع وولوعِه ، في مهجة البطل الشّجيع[١٠٧] . أنـا أُبْرِئُ من اللّمم[١٠٨] ، وأشفي من الصمم ، وأنقـل من الفطس إلى الشّمم[١٠٩] ؛ فقلنا :

أَمّا الأُولى فقد سلمنا لكَ جميعَهـا وأَمـا هـذه الثّلاث فلن تَستطيعهـا . قال : ولِمَ تُعَجّزون ولا تَسْتَنجِزُون ؟ فَقُلْنا : مَنْ كانَ عِنْـدَهُ عِلاجٌ فبنفسِـهِ يَبدأ ، وَنقْب بَعيره يَهْنأ[١١٠] ، ولَسْنا نَزيدك ، ولكنْ نَسْتَزيدُك ! قال :

---

(١٠٣) إياة الشمس : شعاعها وضوؤها .

(١٠٤) كـوكب المرّيـخ ، ويسمى بِهرام . وهـو كـوكب شـديـد الحُمرة ،ولـذلـك يسمّيـه المنجمّون : الأحمر .

(١٠٥) المرخ والعفار أجود ما تقتـدح بـه النـار ، وفي مثل (في كل شجرة نـار واستمجـد المرخ والعفار) وقد سَبق .

(١٠٦) لم تظهر الطاء من (خطُوبه) .

(١٠٧) النجيع : الدم . والشجيع : الشجاع .

(١٠٨) اللّمم : الجنون أو طرف منه .

(١٠٩) فَطِس (بكسر الطـاء) : انخفضت أرنبـة أنفـه . وعكس الفَطس : الشمم . وهم يستحسنون الشَّمم دون الفطس .

(١١٠) هنـأ البعير : طـلاه بـالهنـاء (القطران) . وبـه يعـالـج الجَرب . والنَّقبُ من القروح الناقبة (فيها ثقوب) .

أَمَّا مَنْ بَرع بُروعي ، وأُلْقِيَ في رُوعِه[111] ما أُلقِيَ في رُوعي ، فمثلهُ كالصَّارم حَسَبُه في إفْرِندْهِ ، لا في غِمْده ، وجَمالُه في حَدّيه ، لا في خَدَّيه ، والمرءُ - كما قيل - بأَصْغَريه[112] ، لا بمنخريه ، والشان في الحَيْزُومِ لا في الخَيْشُوم[113] ، وفي الذّكرين لا في الأُنثيَين[114] .

وبعد فهو كلامٌ ظاهرهُ إجمالٌ ، وباطِنُه احتِمال . وسأُنْبِئكم بِقَرارَةِ سَيْلهِ وفَجْرِ لَيْلِه !

أما الأَفْطَسُ فَيُدلي الصَّفْنَة[115] ، ويتَزوَّجُ في آلِ جَفْنَة[116] ؛ فإنِ اللّهُ أتمَّ جاءَ الولدُ أَشَمّ ، وإن نامَ عِرْقُ خالِه بَقِيَ الولدُ بحالِه !

وأمـا الأَصمّ فيخرج عن القلائصِ والإفال[117] ، ويَطْلُبُ في بني السّميعةِ[118] بركة الاسمِ والفال . فإنِ اللّهُ أَراد ظَفِرَ [١٢٢/أ] بالمُراد ،

(١١١) الروُّع : القلب .

(١١٢) في أمثال العرب :« المرء بأصغريه » (مجمع الأمثال ٢ : ٢٩٤) .

(١١٣) الحيزوم : الصدر . والخيشوم : أقصى الأنف .

(١١٤) الأُنثيان : الخصيتان . والذكران مثنى ذَكر (عضو التذكير) وثنّاه لمناسبة الأنثيين .

(١١٥) الصّفنة : وعاء الخصية .

(١١٦) آل جفنه من عرب الجنوب اليمانية .

(١١٧) الإفال جمع الأفيل : الفصيل (ولد الناقة) . والقلائص جمع القَلُوص : الناقة الفتيّة .

(١١٨) في جمهرة ابن حزم (٣٣٢) : « كان بنو لوذان من الأوس يُدْعون في الجاهلية بني الصمّاء فسمّاهم ﷺ بني السَّميعَة .

وجاء ابنه أَسْمَع من قُراد[119] . فأَحسَّ من بعض الحاضرين تَمْرِيضاً[120] ، وعايَن طَرْفاً غَضيضاً ؛ فتفَطّر وتَشذّر[121] وخَوَّفَ وحَذَّر ؛ ، وقال : صاحب الشريعة سَمّاهم بني السَّميعة . قُوموا يابني اللّكيعة[122] ، فقد قَطعتُم رزقي ، وأفنيتم خرصي وزرقي[123] ، وأذلتم ضربي وطرقي وأَذبتم طِرْقي ، وسَدَدْتُم طُرقي ، وأخَذْتُم عَلَيَّ أُفقي : غَربي وشرقي . ذَروني للتّي هي اللّيلُ يُجن ، ثم الوفرُ يَعِنّ ، أَو سربٌ نوادبُه تُرِنّ ، ثم نحَر بعَزْمته سُهَيلاً ، وأَرْسَل بناتِ نَعْشٍ ذَيْلاً ، وقد أفادَ بما استصْحبَ من ميامنك نَيْلاً . كذبني ـ أَيّدك الله ـ عند نَواه ، ولم يُطلعني طَلْعَ ما نَواه ، وما ذاك إلا لمطمعٍ لِوَاهُ[124] ، أو مَطْعَمٍ حَواه ، فرفعتْهُ لي بعد وَداعِه نَجْوَة[125] ، ورمَتْني بشخْصِه فجوة . فقلتُ له : ما أراك إلا غالكَ غائلٌ ، أَو وَنتْ عنك الجَعائل[126] ، فَسُراك سُرى قين[127] ، وحديثُكَ حَديثُ

---

(١١٩) من أمثال العرب « أسمع من قُراد » ـ (أمثال العسكري ١ : ٥٣١) .

(١٢٠) التمريض هنا : التَّضعيف (لما يقول) .

(١٢١) تشذّر : توعّد وتهدّد .

(١٢٢) اللكيعة : الأَمَةُ اللئيمة .

(١٢٣) الَخِرْص : الرُّمح ، وكذا الخِراص ، والجمع خُرُص (بضمّتين)
ـ والزُّرق جمع أزرق : وهو من النصال الشديد الصَّفاء .

(١٢٤) لوى الأمر : طواه ، وكتمه .

(١٢٥) النجوة : المرتفع من الأرض . .

(١٢٦) ونى : قصّر . والجعائل جمع جُعَالة .

(١٢٧) « سُرىالقين » يُضرب مثلاً لمن يُظهر الشخوص(المغادرة) وهو مُقيم ، ويُعْرَف بالكذب فلا يصدّق وإن صدق ! (ثمار القلوب : ٢٤٠) .

مَيْن[١٢٨] ، ألم أُخْبَر أنّـك عَبْرتَ دُجَيلاً[١٢٩] ، ويمّمْتَ سُهَيلاً[١٣٠] ، فقـال : طربتُ إلى الأَصْبِيَة[١٣١] الصّغار ، وثناني الشّوقُ بين الطّواعية والإصغـار ، فقلت له : هلمّ إلى خطٍّ نُعيده ، وحـظّ نستفيـدُه ، فقـال : لولا أن تقولُوا السَّاعة متى ، وتطالبُوني بإحياء المؤْتى ، لمـا أَجمعتُ عن مطـالعكم غروبـاً ، ولأَريْتكُم من الحِذق ضروباً .

ثم قال : إن لي بالحضرة أفراخاً ، وأُمّاً استُصرختُ عليهـا استِصراخـاً ، وانسلخَ مني انسلاخاً ، وأَعْيي عليّ[١٣٢] فلم أعلم لهُ ظَعْناً ولا مُناخاً !

فلبثتُ بذلكَ أيّاماً قد أَعتَم[١٣٣] علي أَمْرُهُ إعتاماً ، ولم أَعرف لـه إنجـاداً ولا إتهاماً . فإذا به وقد أَضمرتُ عنه ياساً ، ولم أَطمع فيـه راسـاً ، حتى قـد أَشِبّ إلي إشباباً ، ولمعت صَلْعَتُه شِهـابـاً ، تكتَنفُـه صَرَّة[١٣٤] ، وتنوء بيمنـاه قَوْصَرّة[١٣٥] وتؤُودُ يُسراه جَرَّه . فقلت له : قاتلَكَ اللّهُ ! ماأشـاء فقـدانـك

---

(١٢٨) المين : الكذب .

(١٢٩) دُجَيل : نُهَير متفرع من دجلة .

(١٣٠) سُهَيل ، ويعرف بسهيل اليماني كوكب عظيم أحمر ، قـال ابن الأجـدابي (٧٤) : « هو يُرى باليمن والحجاز وبالعراق ومصر وبعض بلـدان المغرب ولا يُرى بـالأنـدلس...) . والمقصود أنه عزم على الرَّحيل .

(١٣١) أصبية : واحد من جموع كلمة صبيّ .

(١٣٢) أعيي عليه الأمر : عجز ، ولم يهتد لوجهه .

(١٣٣) أعتم : دخل في العتمة ، يريد : استبهم .

(١٣٤) الصرّة : الضجّة والصيحة .

(١٣٥) القوصرّة : وعاء للتمر .

إلا فقدتُك ، وما أذكرُ وُجْدانَكَ إلا وَجدْتُكَ ! أين أفراخُك ، والتي جدّ بها استصراخُك ؟ فقال : الصُّعلوكُ لوأَعْلَم مَذاهِبَهُ لَحُرِمَ مناهبه ، وعُدِمَ مَواهبه . ذَرْني وعِلاجي ، أُحاجي وأُداجي ، وأُعاين وأُناجي ، وأَتقلّب [١٢٢/ب] في بَركَةِ دُعاء الباجي . فقلتُ : مالك والميت رحم اللهُ ا[لميـ]ـت[١٣٦] مَنْ سَمّيت . فقال : لمّا أذن اللهُ فالتامت الشّيـ[ـمة ، وتفتّقـ]ـت[١٣٧] عَنّي المشيمة عُمّمْتُ بالسَّرق[١٣٨] ، ولُفِفْتُ في الخِرَق . ومثلت في منتداه ، وأقلتني يداه ، فحنّكني بتمر المَدينة ، وسَقاني من ماءِ البلدة الأَمينة ، وعَوّذني بدعواتٍ متينة ؛ فأَنا كما تَرى أَتهادى وأَتجاذب ، وأُسْتَحلى وأُستَعذب . فقلتُ : لعمري إنّهُ لفضلٌ عَمم ، لولا الصَّمم ، وإنّها لَمَنْقَبَةٌ ، لولا تلك [...][١٣٩] ومأثرة ملتمسة لولا تلكَ الفَطْسة . فقال : دَعْنا من زخاريفك ، واغضُضْ من عنان تَصارِيفك ؛ البازلُ لا يكونُ إلا وَهْماً ، واللّيثُ لا يُوجد إلا شتيماً جَهْماً ، ثم قال ، وخجِل ، وابتده وارتجل :

[من مجزوء الخفيف]

عَيْشُنا كُلُّه خُدَعْ ... فدع اللَّوْمَ عنكَ دعْ
أنا كاللّيثِ ، واللّيو ... ثُ بأرساغِها فَدعْ[١٤٠]

(١٣٦) كلمة مطموسة جزئياً ، ولعلها كما رسمت .

(١٣٧) ما بين معقوفتين مطموس . وهو مقدّر تقديراً منّي ، ولعلّه كذلك .

(١٣٨) عمّم : جُعلت له عمامة . السَّرَقُ : الحرير .

(١٣٩) كلمة غير واضحة .

(١٤٠) فدعت رجله : مالت واعوجّت .

ولهـا الأَوجُـه الشّتيـ......مـة من يَلْقَهـا يُرَعْ
أيّ حُسن لمـارن بيـد الـذلّ يُجتَـدعْ ؟[141]
أنـا كالسَّيف حَـدُّه لا يُبـالي بمـا وقـعْ !
إنمـا الْحُسن للمَهـا ... ةِ وللظّبي يـالكـعْ !

فقلت لـه : تبّـاً لـك سـائر اليـوم ! لتَرِيشُ وتَبري ، وتَقُـدُّ وتَفْري ، وتُحـاسِنُ وتُقـابـح ، وتُهـارِشُ وتُنـابِـح ، وتخبّ وتنـاقـل ، وتُحـاول وتُعـاقل ، وتُشـاعِرُ وتُزاجر ، وتُحـارِبُ وتُحـاجـز ، وأَنت على هـذا كُلّـه مُصِرٌّ ، وبه مُستسرّ ، ما جَزاؤكَ إلاّ رَيحٌ فيها صِرّ ![142] .

فما هوَ إلاأن غفلتُ عنهُ لَمْحَةَ طَرْف ، أو نفحةَ عَرف ، ثم التفتُّ فإذا بهِ قد انملَس وكأنّما ، كانَ برقاً فأَخْلَس ، ولم أَدْرِ أنزل أم جَلس !

[١٣٢]

وله خُطبَةٌ في عيد الأَضْحى ـ رحمه اللهُ ونفعه ! ـ :

اللهُ أكْبَرُ اللهُ أكبرُ الله أكبر الله أكبرُ اللهُ أكبر اللهُ أكبرُ اللهُ أكبر . الحمـدُ للهِ الـذي [١٢٣/أ] وَسِعَتْ قُـدرتُـه الأمـور ، ونَسقت حكمتـهُ الأيّـامَ والشُّهور ، وأَطْبقت الظّلمـاتِ وفَتقت النُّور ، وزَمَّنت الأَزمنـة ، ودَهرت

---

(١٤١) المارِنُ : الأَنْف .

(١٤٢) الصرّ : الريح الباردة . وفي سورة آل عمران ١١٧/٣ ﴿ كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ ... ﴾ .

[١٣٢]
(☆) من خطب المؤلف المطوّلة . وهي خطبة منبريّة ، في المناسبة المذكورة .

الـدُّهور . لـهُ مُلـكُ السَّمواتِ والأَرض ، ومقـامُ المجـازاة والعَرض ؛ وإليـه توجّهُ الوُجوه بالنَّوافِل والفَرْض .

أحْمَدُه على ما يَسَّر من نعمة ورزق ، وقـدّر من رحمـةٍ ورفق ، وأَشْعَر منْ عصمةٍ وصدق ، وأبوء له بالعُبوديّة والرِّق ، وأَسـأَلُـه عونـاً على شـدائـد الحقّ . وأَشهدُ أَن لا إله إلا اللهُ وحْدَهُ لا شريكَ له شهـادةً مـا أُودعهـا صَـدْرٌ إلا استقرّ وانشَرَح ، ولا أُشْرِبَهـا قَلْبٌ ، إلا اطمأَنّ وانفسـحَ ، ولا قُـذِفَ بهـا على باطلٍ إلا زَهَق وتزحزح . من خـاصَمَ بِبُرهـانِهـا فَلَج[1] ، ومن استَفْتَح بأَيمانِها ولَج ، ومن حادَ عن واضِحَتَها السَّمْحةِ زَلّ وزَلج[2] .

وأشهدُ أَنّ مُحَمّداً نَبِيُّه ورسولُـه الـذي انْتَضى لوحْيـه الكريمِ لسـانَـهُ ، وارتَضى لكلامـه العَزيز أَداءَهُ وبَيـانـه ، واصْطَفى لأَمـانيـه الثقيلـة فؤادهُ الطّـاهر ، وانتقى لكرامتـه الجليـة نصـابَـهُ الظّـاهر ، ورمى منــه العربَ بأفصح العَرَب ، وأتاهم فأتاهم بـالأَعرف الأَغرب ، وأَولاهم من جوامع الكلم بـالأَبعـد الأَقرب ، فـآضَ[3] بـه نَبْعُ مقـالِهم كالغَرَب[4] . وكيفَ لا يكـون كـذلـك وهو بـالحكمـة البـالغـةِ مفطُور ، وبعـارِض كُلّ فصـاحـةٍ مُعجزةٍ

---

(١) فلج : غَلب .

(٢) زلج : وقَع على وجه الأَرض (أصل معناه للسّهم إذا لم يصب الرميّة) .

(٣) اض : رجع وعاد .

(٤) الغَرَب : شجَرٌ تسوّى منه الأَقـداحُ البِيض . والنبع : شجر تُتّخـذ منـه القِسيُّ ويتّخـذ من أغصانه السهام .

مَمطُور ، ولِتَبْكِيت الشَّقاشِق[٥] الهادِرَةِ مَذْخُور .

صلى اللهُ عَليـه وعلى أهلِـه الأَبرار ، وأَصحـابـهِ المصْطَفَين الأَخيـار ، الـذّين آثَرُوه على الأَسماع والأَبصـار ، وفَـدوْه بنفـوسِهم الخَطرة الكبـار ، وتلَقَّوا دونَهُ المكارِه بالرّحب والاستبشار ، صلاةً ساطِعَةَ الأَنوار ، صـاعـدةً إلى الجَبّار ، مُكاثرةً للرّياح والأَمطار ، مُتَعـاقبـة تَعـاقُب اللّيل والنّهـار ، مُتَرادفـةً تَرادُفَ أَمْـواج البِحـار ، متنفّسـةً عن أذكى من أَرج الأَزهـار بالأَسحار .

اللهُ أكبر اللهُ أكبر اللهُ أكبر [١٢٣/ب] أَيّهـا النّـاسُ ! ونفسِي من نُفوسكم أَصدأ ، وبموعظتِها قبل موعظتكم أبدأ ، رُبّ غِرَّةٍ وضعَها اللهُ تعـالى لـلاهتِبـال ، ونعمـةٍ تـزن رواجِـحَ الجِبـال ، أَعْرَضنـا عنهـا وهي عُرْضَـةُ الإقبال ، ولم تَحْظَ منّا بذكرٍ ولا جَرْت في بال ، ويوم يُعدل بدهرٍ ، وليلةٍ خير من ألف شهر ، قد تركنا حُرمتها بظهر[٦] ، وعطلنـا سنتهـا عن طوعٍ لا عَن قَهر . فيَـاخيبـة من زارَهُ الأَجر فردّه ، يـا وحشـة مَنْ وافَـدهُ الفَجْر فصَدَّه ، ويـا أَسفـا على وافِـدٍ يفـد مَبَرّة ، ولا يَلْقـانـا في الحَـوْلِ إلاّ مَرّة ، أَوْسَعنا بشْراً واحْتِفاءً ، وأوْسَعناهُ تَجهُّماً وجَفاء ، وولّيناه صِفـاحـاً مُعْرِضَـةً وأقفـاء . أَهـذا نُـزُل الأَضيـاف [وتحيّـز] الأُلاّف ، إن هـو إلا عُقـوقُ الأَجلاف ، وآدابٌ تَبْرَأُ من غلظتها ذواتُ السَّنابك والأَظلاف ، أَمَتْنا أيّام

(٥) الشقاشق جمع الشقشقة : أصل معناهـا مـا يخرج من فم البعير إذا هـاج ، ومن الكلام ما يدخل فيه الباطل والكذب .

(٦) يقال : جعله بظهر : أي طرحه .

مِلّتنا الأَوانِس ، وأَحْيَيْنا مِهرجانَ الرُّوم وفارس ، وجَدّدنا نَيْرُوزَها[7] الدّاثر الدّارِس . وهَجرْنا تسبيحَ تلكَ وقُرآنها ، وأعَدْنا لِهذه الطّاغية أَقْرانها ، وضارعناها إلاّ نيرانَها وأوثانها . هل كان الدّهرُ ـ لو اعتبرناه ـ إلاّ سواءً ظلاماً وضِياء ، وإصباحاً وإمساءً ، وليالي تَرْتَدُونها بين بِيض وجُون ، وقمراً قُدِّر مَنازلَ حتّى عادَ كالعرجون[8] ، وأَياماً طُبعت أشكالاً ، وحُذيت أشباهاً[9] ، وأمثالاً ؛ وشمساً سُخّرت بين إدبارٍ وكَرٍ ، تَجري بِتَقْديرِ العزيز العليم المستقر[10] ، فاطّلعَ اللهُ على عَجْزِ عبادِه وعَلِمه ، ورأى ضعفهم فَرحِمَه ، واختصّهم بأعيادٍ أَنزلها ، وأيامٍ على الأَيّام لتفضيلهم فَضّلها ، قَرّب عليهم فيها مَسافةَ رِضاه ، وأَوْجَب لهم بأدنى العمل أَقْصاه ، ونصَبها معالم ، أَراها الجاهلَ والعالِمَ ؛ وجَعلها مراقي عرفها الماضي والباقي ؛ ودلّهم بها على سُبلٍ إلى رِضوانِه تُشْرَع ، وأبوابٍ إلى غُفرانه تُقرع ، ودَرجات إلى دارِه دار السّلام تُفْرَع ، وإلاّ فما كان [١٢٤/أ] اليومُ ليفضلَ أَخاه ومَداهُ مَداه[☆] ، وسِيْمى وجْهه سِيماه .

هذه الأَشهرُ الحُرم قد نَوّه اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ بأسمائِها ، وقديماً

---

(٧) المهرجان والنيروز موسمان ليسا من أعياد العرب . ويقابل الكاتب الخطيب بينهما وبين مناسبة عيد الأَضحى المبارك ، أَحد العيدين .

(٨) اقتباس من سورة يس : ٣٩ ﴿ والقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَديم ﴾ .

(٩) أي قُدّرت وقُطعت على مثال فجاءت متشابهة .

(١٠) في سورة يس : ٣٨ ﴿ والشَّمْسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْديرُ العَزيزِ العَليم ﴾ .

(☆) من قول أبي الطيب (بشرح الواحدي : ٥٣٢)

هو الجَدُّ حتى تفضل العينُ أختها ... وحتى يكونَ اليومُ لليومِ سَيِّدا

كانت الجاهليّةُ في ظُلمها وظَلمائها ، وجَرْحِ مَعيشَتها ، وبَرْح أَظمائها ، تَصُونها عن شنّ غاراتِها وسَنّ دِمائها[11] . يخبُو فيها اتّقادُها وتموتُ مُدَّتُها ضغائِنُها وأَحقادُها .

فكمْ نائمٍ هناكَ على دِمْنَـة[12] ، وراتعٍ في ظلّ هُدنَـة ، وجارحٍ ضَاحي[13] الجوارح ، وقاتلٍ بادي المقاتل ، ودم أعذبَ من الزُّلال البارد في قيظ ، قد رُدّت عنه مَشْرفيّاتهم[14] وخَطّياتهم بغيظ ، أذلّت حُرمَتُها رقابَهُم فخضَعت ، وحطّت أَوزار حُروبهم ووَضعت ، وكم ملأ [...][15] نحن نرجو من الله ما لا يُرْجُون ، بالإثم والعُدوان فيها ينتجون ، وبالمَعاصي الفاضحة يَلْهَجُون ، وبالملاهي المبْطرة لا المطْرِبة يُحْبَرُون ويُبهجون[16] ، قد هتكوا حجابَ الحقّ هتكاً ، وفتكُوا بالدِّين فَتكاً ، وسَفكوا مُهجة الإسلام سَفكْاً ، وابتَذَلُوا مَصُونَها ابتذالَ المعاوز[17] ، وأَوحَشُوها من إيناس الذكْرِ إيحاش المَفاوز ، أَظَلّتْهُم ساعاتُها المباركة تُرفرف ، واطّلَعَتْ عليهم تَستشرف ، وأَعيُن رِضاها من الرَّحْمَةِ تقطرُ

---

(١١) سنّ الماءَ : صبّه . واستعاره للدم .

(١٢) الدّمنة : الحقد الثابت القديم .

(١٣) ضحي الشيءُ : برَز .

(١٤) المشرفيات جمع المشرفيّ : والسّيوف المشرفية منسوبة إلى المشارف من أرض الشاّم . والخطي : الرُّمح منسوبٌ إلى (الخطّ) .

(١٥) كلمة ذهبت بأثر ترميم . وقريب أن تكون العبارة « وكم ملأٍيلهون » . وفي العبارة التالية اقتباس من الآية الكريمة من سورة النساء ٤ : ١٠٤

(١٦) يُحبرون : يُسَرّون .

(١٧) المعاوز جمع المعوز : الثوب الخَلَق (البالي) الذي يُبتذل .

وتَـذرف . فلمّـا رأت غير مـا تعَرف ، « مُلِئتْ منهم رُعبـاً وولّت فِراراً » تؤفّف ، لا تثني نَحوهم لحظاً ولا تَصْرف .

أما واللهِ لو علموا ما فاتَهم ، لَمَقُتوا حيـاتَهم ، ولأذابهم الأَسَفَ وأمـاتَهم اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ اللهُ أكبر .

قالَ الله تعالى جَدُّه : ﴿ إنَّ عِـدَّةَ الشُّهُورِ عِنْـدَ اللهِ اثْنَـا عَشَرَ شَهْراً في كتابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السَّموات وَالأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِـكَ الـدِّينُ القَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُم ﴾[18] وقد كان أَهَلُ الجـاهليّـةُ يتـأوّلُون لإسـاءة المسِيء ، ويَسْتَتِرُون بـالنَّسِيء[19] ، وهـا نحن لا نَسْتَتِرُ منهـا بجُنَّـةٍ ، بـل معَاصينا نارٌ على قُنّة[20] ، نأتيها فيها عن عَمد ، ونَصْمُدُ نحوها أَيَّما صَمْـد[21] ونقعـدُ عن وَاجبِ الشُّكر والحَمْـدِ ، ولعـلَّ فراقهـا إلى غيرِ لقـاء ، ولعَلَّنـا لا نُمَتَّعُ [١٢٤/ب] بَعْدَها بِبَقاء !

فالسَّعِيدُ ـ رَحِمَكُم الله ! ـ من استَوْدَعَهـا براً ، واستَحْفَظهـا من العَملِ الصّالـح خَبِيّـةً زاكيـةً وسرّاً ، وا[عـامَـلَ][22] اللهَ تَعـالى بـإكرام زائِره ،

(١٨) من الآيـة ٣٦ من سـورة التّـوبـة (٩) ، وتمـامُهـا : ﴿ وقـاتِلُوا المشْرِكينَ كافَّـةً كَمـا يُقَاتِلُونَكُمْ كافَّةً واعْلَموا أنَّ اللهَ مَعَ المتَّقِينَ ﴾ .

(١٩) النَّسِيءُ لغةً التأخير . وهو شهر كانت تؤخره العرب في الجاهلّيـة ليكون يوم صـدورهم عن الحجّ في وقت واحـد من السَّنـة . كان بعض رؤسـائهم إذا نزلوا مِنى يحلّ لهم المحرم ويحرّم بدله صفراً . وفي سورة التوبـة ٩ : ٣٧ ﴿ إنّما النَّسِيءُ زِيـادَةٌ في الكُفْرِ يُضِلُّ بـهِ الّذِينَ كَفَرُوا ﴾ .

(٢٠) القُنّة من كل شيءٍ أعلاه ، كالقُلّة .

(٢١) صمد إليه : قصده .

(٢٢) سقط شطر الكلمة من أثر الترميم ، في الأصل « و... مل » واستظهرتُ ما أثبتّ .

وإعظامِ شعائِره ، وبَسَط لوافدها رِداءَ الصِّيانة ، وشدّ على حَظّه منها يَدَ الضَّنانة ، ووَفى الله تعالى بما حَمَّله فيها من الأَمانة .

الله أكبر الله أكبر الله أكبر

هـذا ـ رحمكم الله ـ يومُ الموسِم الأشهر ، والحجِّ الأكبر[٢٣] ، والحَظِّ الأَوْفر ، ومَعْدِنُ الحسَنات ، وكَنْزُ الخيرات ، وينبوع البركات ، شَهْر حَلَّ من الثّلاثـةِالحُرُم المتَواليات ، مَحلّ الواسِطَة من [الخرزات][٢٤] واختَصَّ بالأيّام المعْلُومات والمعْدُودات[٢٥] . ختَم اللهُ بهِ الحَوْل ،وأتمّ عليكم فيه النّعْمَةَ والطَّوْل ، وقال : ـ فمجّدُوا الله تعالى والقول : ﴿ اليَوْمَ أكْمَلْتُ لكُمْ دِينكُم وأَتْمَمْتُ عَليكُمْ نِعْمَتِي ورضيتُ لَكُمُ الإسْلاَمَ دِيناً ﴾[٢٦] .

رُوي في الصَّحيح[٢٧] « أنّ رَجُلاً من اليَهُود جاءَ عمر بن الخطّاب رضيَ اللهُ عنه فقال : ياأَميرَ المؤمنين ! آيَةٌ في كتابكم تقْرَؤُونها لو عَلينا أُنزلت معشرَ اليَهُودِ لاتَّخذنا ذلك اليومَ عِيداً . قال لهُ عُمر رضي الله عَنه : وأَيّةُ آيةٍ هي ؟ قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ

---

(٢٣) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَذانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلى النّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرَ ﴾ التوبة ٣/٩ أريد بيوم الحجّ الاكبر يوم النحر أو يوم عرفه .

(٢٤) في الأَصل كلمة طمست من أثر الترميم وبقي من آخرها حرف التاء . وقد استظهرتُ العبارة كما ترى . والخرزة : فصٌّ من حجارة أو جوهر . والجمع خرز وخرزات .

(٢٥) في سورة البقرة ١٩٧/٢ ﴿ الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ ﴾ .

(٢٦) من الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢٧) قال القرطبي في تفسير الآية (٦ : ٦١) « روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال : ياأمير المؤمنين آيةٌ....إلخ » .

نِعْمتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ فقال عمر ـ رضيَ اللّهَ عنهُ ـ : إنّي لأَعْلَمُ حيثُ أُنزِلَت ، وأيَّ يومٍ أُنزلت ، وأَيْن رَسُول الله ﷺ حيثُ أُنزلت . أنزلت على رسُولِ الله ﷺ بِعَرَفاتٍ في يوم جُمعة » .

وعنه ﷺ قال[٢٨] : « ما رؤيَ[٢٩] الشَّيطانُ يوماً هو فيه أَصْغَرُ ولا أَدْحَرُ ولا أَحْقَرُ ولا أَغْيَظُ منهُ في يوم عرفة ، وما ذاكَ إلاّ لِما رَآهُ من تَنَزُّلِ الرَّحَمةِ وتجاوُز اللهِ عن الذُّنوبِ العِظام ، إلاّ ما أُرِيَ[٣٠] يَوْمَ بَدر . قيل : ومَا رأى يَوْمَ بَدْرٍ يا رسولَ الله ؟ قال : أَما إِنَّهُ رأَى جبريلَ يَزَعُ المَلائكة »[٣١] .

وعنه ﷺ قال :[٣٢] : « أَفْضَلُ الدُّعاءِ دُعاءُ يَوْمِ عَرفة ، وأَفْضَلُ ما قُلْتُه أَنا والنَّبِيُّونَ من قَبلي : لا إِلَهَ إلاّ اللّهُ وحْدَهُ لا شريكَ لهُ » . فافْرَغُوا رحمكم الله لإكرامه وتجهيز ما اجتازَ بكم من أَيّامه . واسأَلُوا الله تَعالى من فَضْله وإنعامه وليّنُوا قُلوبكم بالخُشوع ، وزَيِّنُوا أعمالكم بالخُضوع ، ورَوُّوا من دموعكم الهِيم ، واذكُروا مقامَ أَبيكم إبراهيم حين

---

(٢٨) الحديث في موطأ مالك ١ : ٤٢٢ من حديث طلحة بن عبيد الله بن كُرَيز . قال في التعليق على الحديث وتخريجه « هذا مرسل وقد وصله الحاكم في المستدرك عن أبي الدرداء » .

(٢٩) في الأصل : رأى . وأثبت ما في نصّ الموطأ .

(٣٠) في الأصل : رأى . وأثبت نص الموطأ .

(٣١) يزع الملائكة أي يصفّ الملائكة للقتال ، يعبّيهم للقتال ، والمعبّي يسمّى وازعاً .

(٣٢) الحديث في موطأ مالك ١ : ٢١٤ ـ ٢١٥ ، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز . قال أخرجه الترمذيّ مَرفُوعاً .

استَقْبَـل في مِثـلِ يـومكم هـذا الخطبَ البَهِيم ، وقـد اسْتَسلم للبَـلاءِ المبين ، [١٢٥/أ] وتلَّ واحِدَهُ للجَبين[٣٣] ، وانْتَضى مُدْيَتـه بـاليَمين ، ورأى الموتَ عَيْنَ اليقين ، فلولا عَزْمٌ صَدَق ، وكتابٌ من اللهِ سَبق ، لعَصى رِقّة قَلْبـه ، ومَضى على طـاعـةِ رَبّـه ، وأَنحى على صَميـه ، وقطـعَ في ذاتِ الله رَحِمَ حميه ، فجـازاهُ اللهُ على التّصميم والتسليم ، وتَلَقّي أَمْرِه بقلبٍ سَليم ، وفَـداهُ بِذبْحٍ عَظيم[٣٤] ، ونودِيَ وهو بالكرامة والسَّلامة يُحيّـا : أَنْ يـاإبراهيم قـد صَدَّقْتَ الرؤيا وكذلـك يجزي الله المحسِنين[٣٥] ، ويُوفّى بغيرِ حسـابٍ أَجْرُ الصـابرين ، يستخرج لهم من المِحن مِنَحـاً ، ومن التَّرَح فرَحـاً ، ومن الشِّدَّةِ والضّيق لِيناً ومُنْفَسحاً .

ومـا هي بـأوّل بركـةَ أَبيكم ، وسُنّتـه المتَّبَعَـة فيكم ، التي أَحْيـاهـا أَوْلى النَّاس بإحيائها ، وأَقامها للأُمّة خاتمُ أنبيـائهـا ، صلّى الله عليهما وعلى مَنْ مِن رسُله وأَنبيائه سَبَق ، وعلى مَنْ بَيْنَهما انتظَمَ واتّسَق .

اللهُ أكبر ، اللهُ أكبر ، اللهُ أكبر .

ونحنُ ـ رحمكم اللهُ ! ـ لما قص علينا مُسْتَمِعُون ، ولِتِلْكَ السُّنَّةِ الماضِيَـة مُتَّبِعُون ، نُضَحّي كما ضَحَّوا ونَنْسُك ، ونأكُل ونُمسِك .

---

(٣٣) اقتباس من سورة الصافات ﴿ فلمّا أسلما وتلّهُ للجبين ﴾ ١٠٣/٣٧
ـ ومعنى﴿ تلّة للجبين ﴾ كبّه لوجهه ، أي ألقاه فوقع جبينه على الأَرض .

(٣٤) من الآية الكريمة ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ الصافّات ١٠٧/٣٧

(٣٥) الصّافات ١٠٥/٣٧ ﴿ قَدْ صدَّقْتَ الرُّؤيا إنَّا كَذلِك نَجْزِي الْمُحْسِنينَ ﴾ .

رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت [٣٦] : قال رسول الله ﷺ : « ما عَمِل آدميٌّ يومَ النَّحرِ من عملٍ [٣٧] أحبّ إلى اللهِ من إهراقِ الدَّم ، إنّهُ ليأتي يوم القيامة بقُرونها وأشعارِها وأظلافها وإنّ الدم ليقعُ من اللهِ بمكانٍ قبل أن يقعَ في الأرضِ ، فطيبوا بها نفساً » . وقد علمتُم ـ رحمكم الله ـ من مَحامِدها ما تنتقون ، وأحصيتم من مذامّها ما تَتَّقُون ، وبان لكمُ الفضلُ فيما تَتَصدَّقُون ، وما تُمضون وما تبقون ، وإنما هي قُربَةٌ إلى اللهِ تعالى . فتقَرَّبُوا إليه بأَرْضاها لديه ، وليَعْلم امرؤٌ ما يقدّمُ بينَ يَديه . وتكفي أَهلَ البيتِ شاةٌ ، والتوسُّع لغيرِ البرّ مُباهاة . وباسم الله ابتداءُها ، وبحمدِه انتهاؤُها . ولن ينالَ اللهَ لُحومُها ولا دماؤها ؛ لكن التّقوى منكُم تنالُه [٣٨] ، ولكمْ في العاجلِ منالُه وإليكم في الآجلِ مآلُه .

اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبر ، اللهُ أكبر .

ثمّ إنّ الإسلام ـ عَصمكمُ اللهُ ـ قَد دَخل على العَذْراءِ خِدْرَها ، وعلمت الفرائضَ والسننَ وقدْرَها ، وكتابُ اللهِ قد أَخذ مآخذه ، ولزمَ مَلازمه ، ودينُ اللهِ يُسر والتكلُّف لِما [١٢٥/ب] قد تناولَهُ البَيانُ عُسر ، ولم يَبْقَ إلاّ ما سبيلُه تَنبيهٌ وذِكر ، بُني الإسلامُ على خمس : شهادَةِ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وأَنّ محمّداً عبدُه ورسولُه ، وإقام الصّلاة ، وإيتاءِ الزّكاة ، وحَجّ البيتِ ، وصَوم رَمضان .

---

(٣٦) الحديث في سنن الترمذي ٣ : ٢٦ . وروره بلفظ مقارب في الموطأ ١٠٤٥/٢

(٣٧) في سُنن الترمذي : « من عمل يوم النّحر » .

(٣٨) في سورة الحج ٣٧/٢٢ ﴿ لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحومُهَا وَلا دِمَاؤُها وَلكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ ﴾ .

قال رسولُ الله ﷺ[٣٩] : « من ماتَ وهو يعلمُ أنْ لا إلَـه إلا اللهُ دَخَل الجنة » .

وقـال ﷺ : « ذاقَ طعْمَ الإيمـانِ مَنْ رَضِيَ بـالله ربّـاً ، وبـالإسـلام ديناً ، وبمحمّدٍ رَسُولاً »[٤٠] . و « الحيـاءُ من الإيمـان »[٤١] . و « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويـده »[٤٢] ، و « ثلاث من كن فيـه وجـد حلاوة الإيمـان : من كانَ اللهُ ورسُولُـه أحبَّ إليـه مِمّـا سـواهُما . وأن يحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلاّ للهِ وأَن يكْرَه أَن يَعُودَ في الكُفر بعد أَن أَنْقَذَهُ اللهُ منه كما يَكْرَهُ أَن يُقْذَفَ في النَّار »[٤٣] .

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يُؤمن عبدٌ حتّى يحبّ لجـارِه ـ أَو قال لأَخيـهِ ـ مـا يحبُّ لنفسِـه »[٤٤] . وقـال ﷺ : « لا يَـدْخُل الجنَّـةَ من

(٣٩) الحـديث في صحيـح مسلم ١ : ٤١ ، (ومختصره للمنـذري : ٩) ، عن عثمان رضي الله عنه .

(٤٠) الحـديث في صحيح مسلم ١ : ٤٦ ، في بـاب الإيمـان ، (ومختصره : ١٤) ، وفي مسنـد الإمام أحمد ١ : ٢٠٨

(٤١) الحـديث في صحيـح مسلم ١ : ٤٦ (ومختصره : ١٥) ، وسنن ابن مـاجـه ٢ : ١٤٠٠ ، والموطأ ٢ : ٩٥ ، ومسند أحمد ٢ : ٥٦

(٤٢) الحـديث في صحيح البخـاري (الإيمـان : ٥) ، وصحيح مسلم ١ : ٤٨ ، و(مختصره : ٢٣) ، ومسند أحمد ٢ : ١٩٥ والنصّ لمسلم .

(٤٣) الحـديث في صحيح البُخـاري (الإيمـان : ٩) ، وصحيح مسلم ١ : ٤٨ ، و(مختصره : ١٤) والنص لمسلم .

(٤٤) الحـــديث في صحيـح البخـــاري (الإيمـــان : ٧) ، وصحيـح مسلم ١ : ٤٩ ، و(مختصره :١٤) ، ومسند أحمد ٣ : ١٧٦

لا يأمَنُ جَارُه بوائقَهُ »[٤٥] . وقَال ﷺ : « مَنْ رأى منكمْ مُنكَراً فليُغَيّره بيدهِ ، فإن لم يستطعْ فبلسانِه فإنْ لم يَستطع فبقلبه ، وذلكَ أضعَفُ الإيمان »[٤٦] . وقال ﷺ : « لا تَدْخُلونَ الجنّةَ حتّى تُؤمِنُوا ولا تُؤمنونَ حتّى تحابُّوا أَوَلا أَدُلّكُم على شيءٍ إذا فعلتُموه تحاببتُم ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بينكم »[٤٧] . وقالَ ﷺ : « الدّينُ النَّصيحةُ ، ثلاثاً ، قلنا : لمن ؟ قال للهِ ولكتابهِ ولرسولهِ ولأئمّةِ المسلمين وعامّتهم »[٤٨] . وعنه ﷺ قال : « لا يَزني الزّاني حينَ يَزني وهو مؤمن ، ولا يَسْرقُ السَّارقُ حين يسرق وهو مُؤمن ، ولا يشرَبُ الخَمر حين يَشْرَبُها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبةً ذات شرفٍ يَرْفَعُ النّاسُ إليه فيها أَبصارهُم حين ينتَهبُها وهو مُؤمن »[٤٩] . وقال ﷺ : « أَرْبَعٌ من كُنَّ فيه كان مُنافِقاً خالصاً ، ومَنْ كانت فيه خَلّةٌ منهن كانت فيه خَلّةٌ من نِفاق حتى يَدعَها : إذا حَدّث كَذب ، وإذا عاهدَ

---

(٤٥) البوائق جمع البائقة : الغائلة والدّاهية .
ـ والحديث في صحيح البخاري (أدب ٩) ، وصحيح مسلم ١ : ٤٩ ، و(مختصره : ١٦) ، ومسند أحمد ١ : ٣٨٧

(٤٦) الحديث في صحيح البخاري (علم : ٢٨) ، وصحيح مسلم ١ : ٥٠ ، (ومختصره ١ : ١٦) ، ومسند أحمد ٢ : ١٠٤

(٤٧) الحديث في صحيح مسلم ١ : ٥٣ ، و(مختصره : ١٨) ، وسنن ابن ماجه ٢ : ١٢١٧ ، ومسند أحمد ١ : ٣٩١

(٤٨) الحديث في صحيح البخاري (إيمان ٤٢) ، وصحيح مسلم ١ : ٥٣ ، و(مختصره ٢ : ٨٩)

(٤٩) الحديث في صحيح البخاري (مظالم : ٣٠) ، وصحيح مسلم ١ : ٥٤ ـ ٥٥ ، و(مختصره : ١٨) ، وسنن ابن ماجه ٢ : ١٢٩٩ ، ومسند أحمد ٢ : ١٣٩

غَدَر ، وإذا وعَد أَخْلَفَ ، وإذا خاصَم فَجر » . وفي الحديث : « وإن صامَ وصَلّى وزعَم أَنّهُ مُسلم »[٥٠] . وقال ﷺ : « لا ترغَبُوا عن آبـائكم فَمَنْ رغبَ عن أبيه فهو كُفر »[٥١] . وقال : [١٢٦/أ] « سبابُ المسلم فُسوق ، وقتـالُـه كفر »[٥٢] . و « الطَّعنُ في النَّسبِ والنِّياحةُ من الكُفر »[٥٣] . و « أَيّما عبد أَبـقَ من مَـوالِيـه [فقَـد] كَفر حتّى يرجـع إليهم »[٥٤] . و « من قـال : مُطِرْنا بـالأَنواء فهو كفر »[٥٥] . و « آيـةُ الإيمـان حُبُّ الأَنصـار . وبُغْضهُم آيَةُ النِّفـاق »[٥٦] ، و « لا يُحبُّ عَليّـاً إلا مؤمن ولا يبغضُـه إلا كافر »[٥٧] . و « بين العبـد وبين الكُفر ترك الصلاة »[٥٨] . و « أَعظمُ الـذنب أن تجعل لله نِـدّاً وهــو خلقــك »[٥٩] . و « أكبر الكبــائر الإشراكُ بــالله »[٦٠] .

---

(٥٠) الحـديث في صحيـح البخـاري (إيمـان ٢٤) ، وصحيـح مسلم ١ : ٥٦ ، و(مختصره : ١٤ ـ ١٥) واللفظ لمسلم .

(٥١) الحـديث في صحيح البخـاري (فرائض : ٢٩) ، وصحيـح مسلم (٢ : ٥١) ، ومسنـد الإمام أحمد ١ : ٤٧ واللفظ لمسلم .

(٥٢) صحيح مسلم ١ : ٥٨ ، ومختصره : ٤٣ ، وسنن ابن ماجه ٢ : ١٢٩٩ ، ومسند أحمـد ١ : ١٧٦

(٥٣) صحيح مسلم ١ : ٥٨ ، ومختصره : ٢٠

(٥٤) صحيح مسلم ١ : ٢١ ، ومختصره : ٢١

(٥٥) صحيح مسلم ١ : ٥٩ ، ومختصره : ٢٠

(٥٦) صحيح مسلم ٢ : ٦٣ ، وفيه : « حب الأَنصار آيـة الإيمـان ، وبغضهم آيـة النّفـاق » . ومسند أحمد ٣ : ١٣٠

(٥٧) سنن الترمذي ٥ : ٢٩٩ ، وفيه « لا يحب عليّاً منافق ، ولا يبغضه مؤمن » .

(٥٨) صحيح مسلم ١ : ٦٢ ، ومختصره : ٦٢

(٥٩) صحيح مسلم ٢ : ٨٠ ، ومسند أحمد ١ : ٣٨٠

(٦٠) صحيح مسلم ٢ : ٨١ و ٨٢

و « لا يـدخـلُ الجَنَّـة [مَنْ كانَ فِي قَلْبِـهِ] ! مثقـالُ ذَرّةٍ من كبر »[٦١] .
و « من مات ولم يُشرك بالله شيئاً دخلَ الجنّة »[٦٢] . و « مَنْ حَمَل عَلَيْنـا السِّـلاح فَليسَ منّـا »[٦٣] و « مَنْ غَشَّنـا فليسَ مِنّـا »[٦٤] . و « من ضَرَب الخُـدود وشَـقَّ الجُيـوبَ ، ودَعـا بـدعـوةِ الجـاهِليّـة فليسَ مِنّـا »[٦٥] .
و « لا يدخل الجنة نمّـام »[٦٦] و « ثلاثـة لا يكلّمهم اللهُ ولا ينظر إليهم يوم القيامة : المسبل إزاره والمنان والمنفق سلعته بـالحلف الكاذب »[٦٧] و « من قتل نفسَه بشيءٍ عـذب بـه في النـار »[٦٨] . و « من غَلَّ فهو في النـار »[٦٩]
و « من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه وجبت له النـار »[٧٠] . و « من قُتِلَ دونَ مـالِـه فهو شهيـد »[٧١] . و « مَن اسْتُرْعِيَ رعيّـةً فغشَّهم ولم يَنْصَح لَم

---

(٦١) صحيح مسلم ٢ : ٨٩ :و ٩٠ ، والمستدرك من الحديث من صحيح مسلم .

(٦٢) صحيح مسلم ٢ : ٩٢ و ٩٣

(٦٣) صحيح مسلم ٢ : ١٠٧ ، وسنن ابن ماجه : ٨٦١

(٦٤) مسند أحمد ٢ : ٥٠

(٦٥) صحيـح مسلم وفيـه « ليسَ مِنّا من ضَرب الخـدود أو شَقَّ الجُيـوب أو دعَـا بـدعـوة الجاهلية » .

(٦٦) صحيح مسلم ٢ : ١١٣

(٦٧) صحيح مسلم ١ : ٧١ ، ومختصره ٢ : ١٢٣

(٦٨) صحيح مسلم ١ : ٧٢ ، ومختصره ٢ : ٣١

(٦٩) مسند أحمد ٥ : ٣١٦ ، وفيه : « ولا تغلّوا فإن الغلول نار وعار على أصحابـه في الـدنيـا والآخرة » .

(٧٠) صحيح مسلم ١ : ٨٥ ، ومختصره ٢ : ٢٨

(٧١) من حديث في مسند أحمد ، وهو في الفتح الكبير ٣ : ٢٢٢

يَـدْخُـل الجَنّـة »[٧٢] . « كُلّكُم راعٍ وكُلّكُم مسْـؤُولٌ عن رعيّتـه ، فـالأَميرُ الذي على النّاسِ راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيّته ، والرَّجُلُ راعٍ على أَهْل بَيْتِهِ وهو مسؤولٌ عنهم ، والمرأةُ راعِيَةٌ على بَيْتِ بَعْلِها وولـده ، وهي مَسْؤولـةٌ عنهم ؛ والعَبْـدُ راعٍ على مـالِ سَيِّـده وهـو مَسْؤولٌ عنـه . أَلا كُلّكُم رَاعٍ وكُلّكُم مَسْؤولٌ عن رَعِيّته »[٧٣] . و « من خرَج من الطّاعَةِ وفارَق الجَماعَـة فماتَ ماتَ مِيتَةً جاهِليّة » . و « من قاتَل تحتَ رايةِ عُمِّيَّةٍ يغضبُ لِعُصبـةٍ أو يَنْصُر عُصْبَـةً فَقُتِل فقِتْلَـةٌ جـاهِليّـة » . و « من خَرجَ على أُمّتي يضرب بَرّها وفاجرهـا ولا ينحـاش من مؤمنهـا ، ولا يفي لـذي عهـدهـا ؛ فليس مني ، ولستُ منه »[٧٤] . وقال ﷺ : « إنه ستكونُ هنـاتٌ وهنـات ؛ فَمَنْ أَراد أن يُفرّقَ أَمرَ هـذِهِ الأُمّـة وهُمْ جميـعٌ فـاضْرِبُـوه بـالسَّيف كائنـاً مَنْ كان »[٧٥] . وقـال ﷺ « يضمَنُ اللهُ لِمَنْ خرَج في سبيلـهِ لا يُخْرِجُـه إلا جِهـادٌ في سَبيلي وإيمـانٌ بي وتصـديـقٌ بِرُسلي فهـو عليَّ ضـامِنٌ أَن أُدْخِلَـه الجنّة ، أَو أَرجِعَـهُ إلى مَسكنـه الـذي خرجَ منـه نـائلاً مـا نـال من أَجرٍ أو

---

(٧٢) ورد بألفاظ مختلفة ومنه في المسند « أيما راعٍ استُرعي رعيّة فغَشّهـا فهو في النّـار » ٥ : ٢٥ . وانظر ١ : ١٥ ، وفي صحيح مسلم ٦ :٩ « مـا من عبـد يسترعيـه الله رعيّـة يموت يوم يموت ، وهو غاشّ لرعيّته ، إلاّ حَرّم الله عليه الجنّـة » ، ومختصر صحيح مسلم ٢ : ٨٩

(٧٣) صحيح مسلم ٦ : ٨ ، ومختصره ٢ : ٨٧ و ٨٨ ، ومسند أحمد ٢ : ١٢١

(٧٤) صحيح مسلم ٦ : ٢١ ، ومختصره ٢ : ٩٤

ـ والعُمّية : الأَمر الأَعمى لا يستبينُ وجْهُه .

(٧٥) صحيح مسلم ٦ : ٢٢ ، ومختصره ٢ : ٩٤

غَنيمةٍ . [١٢٦/ب] والذي نَفسُ محمّدٍ بيده ما مِن كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيلِ اللهِ إلاّ جاءَ يومَ القيامةِ كهيئَتِه حينَ كُلِمَ لونُه لونُ دمٍ وريحُه ريحُ مسكٍ . والذيْ نفسُ محمدٍ بيدِه لولا أن يَشُق على المسلمينَ ما قعدتُ خلافَ سريةٍ تغزوُ في سبيل اللهِ أبداً ولكنْ لاأجدُ سَعَةً فأحَملَهمْ ولا يجدونَ سعةً ويشقُ عليهمْ أنْ يتخلَّفوا عنّي . والّذي نفسُ محمّدٍ بيدِه لوددتُ أن أغزوَ في سبيلِ اللهِ فأقتلَ ثم أغزُو فأُقتلَ ثمَ أغزُو فأُقتلَ »[٧٦] . و « ما من نفسٍ تموتُ لها عندَ اللهِ خيرٌ يسرُّها أَنّها ترجعُ إلى الدنيا ولاَ أنَّ لها الدنيا وما فيها إلا الشَّهيدَ يتَمَنَّى أن يرجعَ فَيُقتلَ في الدنيا لِما يرى من فضلِ الشهادةِ »[٧٧] . و « حرمةُ نساءِ المجاهدين على القاعدينَ كَحُرْمَةِ أمّهاتِهم » . و « ما مِنْ رجلٍ من القاعدينَ يَخْلُفُ رجلاً من المجاهدين في أَهلِه فيخونُه فيهم إلاّ وقفَ لهُ يومَ القيامةِ فيأخُذ من عَمَلِه ماشاءَ . فَما ظَنُّكُمْ »[٧٨] . و « أَبوابُ الجنَّةِ تحتَ ظلالِ السيوف »[٧٩] . و « كلُّ مُسكِرٍ حَرام »[٨٠] و « ما أسكر كثيرُه فقليلُه حرام »[٨١] و « من شَرِبَها في الدنيا لم يَشْرِبْها في الآخِرة إلاّ أَن يَتُوب »[٨٢] . و « يُسَلِّمُ الرّاكبُ على الماشيْ »[٨٣] . و « حقُّ الطَّريقِ

---

(٧٦) صحيح مسلم ٦ :٣٣ ، ومختصره ٢ : ٤٤ ، ومسند أحمد ٢ : ٣٩٩

(٧٧) مسند أحمد ٣ : ١٢٦

(٧٨) صحيح مسلم ٦ : ٤٢

(٧٩) صحيح مسلم ٦ : ٣٣

(٨٠) مسند أحمد ١ : ٢٧٤ ، وصحيح مسلم ٦ : ١٠٠

(٨١) مسند أحمد ٢ : ٩١ ، وصحيح مسلم ٦ : ١٠٠

(٨٢) صحيح مسلم ٦ : ١٠١ ، ومسند أحمد ١ : ٥٤

(٨٣) مسند أحمد ٢ : ٢٢٥ ، وصحيح مسلم ٦ : ١٧٩

ردُّ السَّـلامِ وغَضُّ البَصرِ »[٨٤] . و « حـقُّ المسلم على المسلمِ خَمْسٌ : ردُّ السَّلامِ ، وتشميتُ العاطِسِ ، وإجابةُ الـدَّعوة ، وعِيـادةَ المَريضِ ، واتّبـاعُ الجَنـائِـز »[٨٥] . و « إذا سَلَّمَ عليكم أهـلُ الكتـابِ فقـولُـوا : وعليكم ولا تبـدؤوهمْ بـالسَّلامِ »[٨٦] . و « سلّمـوا على الغِلْمانِ من المسْلِمينْ »[٨٧] . و « لا يبِيتَنَّ رجـلٌ عنـدَ غَيْر ذات مَحْرَم »[٨٨] . و « لا تَـدْخلُـوا على المُغيبات ومن دَخَلَ فَمَعهُ رجلٌ أو اثنان »[٨٩] .و « لا بأسَ بالرُّقَى والطبّ لمن اشْتكى »[٩٠] .

و « إيـاكُمْ والطيرة[٩١] وإتيـانَ الكهـانِ » ، و « الرؤيـا من الله والحلمُ من الشيطانِ ، فإذا حَلَمَ أحـدكُمْ حلمـاً يكرهُـهُ فلينفِثْ عن يسـارهِ ثلاثـاً وليتعوذْ بالله من شرِّهَا فإنها لنْ تَضُرَهُ »[٩٢] .

وحُبّ أَصحاب النّبي ﷺ من عَقائـدِ الشَّرعِ : قـالَ ﷺ : « لا تَسُبُّوا أصحـابي ، لا تَسُبُّوا أَصحـابي [١٢٧/أ] فوالـذّي نفسيْ بيـدِهِ لو أَنَّ أَحـدكَمُ

---

(٨٤) مسند أحمد ٣ : ٦١ ، وسنن أبي داود ٤ : ٢٥٦

(٨٥) مسند أحمد ١ : ٨٩

(٨٦) مُسند أحمد ٣ : ٩٩

(٨٧) سنن أبي داود ، وفيه « أَتى رسول الله ﷺ على غلمانٍ فسَلَّم عليهم » ٤ : ٣٥٢

(٨٨) في الفتح الكبير (٢ : ٣٥٢) : « لا يبيتنّ رجلٌ عند امرأة في بيت إلا أن يكون ناكحاً أو ذا مَحْرَم » .

(٨٩) سنن الدارمي ٢ : ٣٢٠

(٩٠) صحيح مسلم ٧ : ١٩

(٩١) مسند أحمد ١ : ١٧٤

(٩٢) سنن الدارميّ ٢ : ١٢٤

أنفقَ مثلَ أُحدٍ ذَهباً ماأَدرك مُدَّ أحـدِهم ولا نَصِيفَـه »[٩٣] . وقـالَ : « رَغِمَ أنِفُ من أدرك والـديْـه أو أحـدَهمـا عنـد الكِبَرِ ولْم يـدخـل الجنـةَ »[٩٤] .
و « لا يدخلُ الجنة قاطعٌ »[٩٥] . و « صلةُ الرحمِ تزيـدُ في الرزقِ والعمرِ »
وقال : « لا تباغضُوا[٩٦] ولا تحاسَدُوا ولا تَدابرُوا وكونُوا عبـاد الله إخوانـاً »
و « لا يَحِـلُّ لأَحـد أن يَهْجُرَ أخـاه فـوق ثـلاث » . و « لا تحسسـوا ولا تجسَّسُوا ولا تناجَشُوا » . و « المسلم أَخو المُسلم لا يَظْلِمه ، ولا يخذلـه ، ولا يَخْفِرُه ، التّقـوى هـاهُنـا (ويُشير إلى صـدره ثـلاث مرات) » .
« بِحسب امرئ من الشرّ أَن يَحْقِرَ أَخـاه المُسْلِمُ » . « كل المسلم على المسلم حرام دمُه ومَاله وعِرْضُه »[٩٧] . وقالَ ﷺ فيما رَوى عن رَبّـه - عزّ وجَلّ - أَنّه قَال : « ياعبادِي ! حَرَّمْتُ الظّلْمَ على نَفسِي ، وجَعَلْتُه بينكمْ مُحَرْماً ، فَلا تَظالَمُوا »[٩٨] . و « المُؤمن للمُؤمِن كالبُنْيان يَشُـدّ بَعْضُـه بَعْضـاً »[٩٩] .
وقـال : « أتـدرُون مـا الغِيْبَـةُ قـالوا : اللهُ ورسُولُـه أعلَمُ . قـال : ذِكْرُكَ أخاكَ بمـا يَكْرَهُ ؛ قيل : أَفَرَأَيْتَ إن كان في أخِي مَـا أَقُول ؟ قـال إنْ كان فيه ماتَقولُ فقد اغْتَبْتَـهُ وإن لم يكنْ فَقَـدْ بَهتَّـهُ »[١٠٠] ! و « لا يسْتُر عبـدٌ

---

(٩٣) سنن أبي داوود ٤ : ٢١٤

(٩٤) مسند أحمد ٢ : ٣٤٦

(٩٥) مسند أحمد ٢ : ٤٨٤

(٩٦) مسند أحمد ١ : ٣

(٩٧) صحيح مُسلم ٨ : ٩ ، ومختصره ٢ : ٢٣٧ ، وسنن ابن ماجه ٢ : ١٢٦٥

(٩٨) صحيح مسلم ٨ : ١٧ ، ومختصره ٢ : ٢٤٣ ، ومسند أحمد ٥ : ١٦٠

(٩٩) صحيح مسلم ٨ : ٢٠ ، ومختصره ٢ : ٢٣٢ ، ومسند أحمد ٤ : ٤٠٥

(١٠٠) صحيح مسلم ٨ : ٢١ ، ومختصره ٢ : ٢٣٨

عبداً في الدنيا إلاستَره اللهُ يومَ القيامة »[(١٠١)] . و « شَرُّ النّاسِ منزلَةً عندَ اللهِ يومَ القيامة مَنْ تركه الناسُ اتّقاءَ فُحْشِه »[(١٠٢)] . وتَجنَّبُوا الرِّبا فقد جاءَ عنهُ ﷺ أَنّهُ « لعَن آكلَ الرِّبا ومُؤكله وكاتِبَهُ وشاهِدَيْه » . وقالَ : « هُم سَواء »[(١٠٣)] . وقال ﷺ : « إن الحَلال بَيّنٌ وإن الحَرامَ بَيّنٌ وبَيْنَهُما مُشْتَبِهات لا يَعْلَمُهنّ كثيرٌ من النّاس . فمن اتقى الشُّبُهات استَبْرَأَ لدِينه وعِرْضِه ومَن وَقع في الشُّبهات وقعَ في الحَرام كالرّاعي يُرْعى حَوْلَ الحِمى يُوشِك أن يَرْتع فِيه . أَلا وإنّ لكلّ مَلِكٍ حِميٍ ، وإنّ حِمَى اللهِ مَحارِمُه . أَلا وإنّ في الجِسد مُضْغَةً إذا صَلُحت صلحَ سائرُ الجسدِ كُلّه وإذا فسَدت فسَد الجسَدُ كُلّه . أَلا وهي القَلبْ »[(١٠٤)] . و « خيارُكم أَحْسَنكُم قَضاء »[(١٠٥)] . و « من احْتكَر فهو خاطئ »[(١٠٦)] . و « من ظلَمَ من الأَرضِ شبْراً طُوِّقَهُ من سَبْع أرضين »[(١٠٧)] . و « من حَلَف على يمينٍ فَرأى خيراً منها فليكفّر ، وليأت الذّي هو خَير »[(١٠٨)] [١٢٧/ب] و « من لَطم مملوكَهُ

---

(١٠١) صحيح مسلم ٨ : ٢١ ، ومختصره ٢ : ٢٣٣ ، ومسند أحمد ٢ : ٩١ ، وسنن ابن ماجه ٢ : ٨٥٠

(١٠٢) صحيح مسلم ٨ : ٢١ ، ومختصره ٢ : ٢٣٥ ، وسنن أبي داود ٤ : ٢٥١

(١٠٣) صحيح مسلم ٥ : ٥٠ ، ومختصره ٢ : ١٣

(١٠٤) سنن ابن ماجه ٢ : ١٣١٩ ، برواية مختلفة دون ذكر (كله) .

(١٠٥) سنن ابن ماجه ٢ : ٧٦٧

(١٠٦) سنن ابن ماجه ٢ : ٧٢٨

(١٠٧) مسند أحمد ٢ : ٩٩

(١٠٨) صحيح مسلم ٥ : ٨٥ ، ومختصره ٢ : ٢٩

أو ضَرَبَهُ فكفّارَتُه أن يُعْتِقه[١٠٩] وإنّما هم إخوانكم جَعلهم اللهُ تحت أيـديكم ، فأَطعموهم ممّا تـأكلون وألبِسُوهم ممّـا تلبسون ولا تُكَلِّفوهم مـا يغلبهم . فـإن كَلّفتموهم فـأَعينوهم »[١١٠] . و « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بـإحـدى ثلاث : الثيّب الزّاني ، والنفسُ بالنفّسِ ، والتّارك لدينه المخالِفُ للجماعـة »[١١١] . و « لا تقتلُ نفسٌ ظُلمـاً إلا كانَ على ابن آدَم الأَول كِفْلٌ من دَمِهـا ، لأَنّـه أول من سنّ القتـل »[١١٢] . فـأوّل مـا يُقضي بين النـاس يَـوْم القيـامــة في الـدّمـاء . وعَليكُم بـالرّفق فـ « إنّ اللهَ رفيـقٌ يحبّ الرِّفـقَ ، ويُعطي على الرّفق مـا لا يُعطي على العُنف »[١١٣] ومـا لا يُعطي على مـا سِواه . و « مَن يُحْرَم الرِّفـق يُحرم الخير »[١١٤] . و « لا ينبغي للمـؤمنِ أن يكـونَ لَعّاناً »[١١٥] . و « إنّ من شَرّ النَّاسِ ذا الوَجْهَين : يأتي هؤُلاء بوجهٍ وهؤُلاء بوجه »[١١٦] . و « ليسَ الشّديدُ بالصُّرَعة ولكنّـهُ الـذي يَمْلـكُ نَفَسه عنـد الغضب »[١١٧] وتعـوَّذُوا بـالله عنـدَ الغَضب ؛ قـالَ ﷺ للمُسْتَبَّيْن « إنّي لأَعْرفُ كلمةً لو قالَها لذَهب عنـهُ الـذّي يَجـدُ : أَعُوذ بـالله من الشَّيطـان

(١٠٩) مسند أحمد ٢ : ٤٥

(١١٠) سنن ابن ماجه ٢ : ١٢١٦

(١١١) صحيح مسلم ٥ : ١٠٦ ، ومختصره ٢٢ : ٣١

(١١٢) صحيح مسلم ٥ : ١٠٧ ، ومختصره ٢ : ٣١

(١١٣) سنن ابن ماجه ٢ : ١٢١٦

(١١٤) سنن ابن ماجه ٢ : ١٢١٦

(١١٥) مسند أحمد ٢ : ٣٣٧

(١١٦) مسند أحمد ٢ : ٢٤٥

(١١٧) راوه أحمد ، وهو في الفتح الكبير ٣ : ٥٨ ، من حديث أبي هريرة .

الرَّجيم »[118] و « إن الله يعّـذبُ الـذينَ يعـذّبون النّـاسَ في الـدُّنيـا »[119] و « تعهَّدُوا جيْرَانكُم ببرّكُمْ » . قال ﷺ « يـا أبـا ذَرّ ! إذا طَبَخْتَ مَرقـةً فـأكثرْ مـاءَهـا وتَعَـهَّـدْ جيرانـكَ »[120] وأحْسِنُوا إلى بَنـاتِكم فـإنّ رسـولَ الله ﷺ قال لعـائشـةَ ـ رضي اللهُ عنهـا ـ « يـا عـائشَـة ! من ابْتلِي من هـذهِ البَناتِ بشيءٍ فأحْسن إليهنّ كُنّ له سِتْراً من النّار »[121] و « لا يموتُ لأحدٍ من المسلِمين ثلاثـة من الـوَلـد فتمسّـه النّـار إلا تَحِلّـة القَسم »[122] . وقـال لِنسْوَةٍ من الأنصـار « لا يمـوتُ لإحـداكنّ ثـلاثـةٌ من الـولَـدِ فتحتسبـهُ إلا دَخَلت الجَنّـة . فقـالت امرأَةٌ مِنهنَّ أو اثنـان يـا رسـولَ اللهِ ؟ فقـال : أو اثنان . وقد رُوي واحِـد »[123] . وقـال للمَرْأةِ التي قـالت دفَنْتُ ثلاثـةً من الولدَ « لقد احتظرت من النار بِحظارٍ شدِيد »[124] .

و « إذا أَحَبّ اللهُ عَبْـداً حَبَّبَـهُ إلى عِبـادِه »[125] . و « المرءُ مَـع مَنْ

(118) في الفتح الكبير ۱ : ٤٥٨ ، « إني لأعلم كلمة لو قالها لـذهب عنـه مـا يجد . لو قـال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد » .

(119) في الفتح الكبير ۱ : ۳٥٩ وفيه « إن الله تعالى يعذّب يوم القيامة الذين يعذّبون الناس في الدنيا » .

(120) صحيح مسلم ۸ : ۳۷ ، ومختصره ۲ : ۲۳٤

(121) مسند أحمد ٦ : ۸۸

(122) صحيح مسلم ۸ : ۳۹ ، ومختصره ۱ : ۱۲٥ ، وسنن ابن ماجه ۱ : ٥١٢

(123) صحيح مسلم ۸ : ۳۹ ، ومختصره ۱ : ۱۲٥

(124) مسند أحمد ۲ : ٤١٩

(125) في هـذا المعنى أحـاديث ، منهـا حـديث أنس (الفتح الكبير ۱ : ٦٨) « إذا أحب الله عبـداً قـذف حبـه في قلـوب المـلائكـة ، وإذا أبغض الله عبـداً قـذف بغضـه في قلـوب الملائكة ، ثم يقذفه في قلوب الآدميين » .

أَحب »[١٢٦] . و « عليكم بالصَّدقة فإنّ ناساً من الأَعْراب جاؤوا إلى رسُولِ الله -ﷺ- عليهم الصُّوف ، فَرأى سوءَ حالِهم قد أصابَتْهُمْ حاجةٌ فحثّ الناسَ [١٢٨/أ] على الصَّدقة فأَبطَؤوا عنه حتىّ رُؤي ذلك في وَجْهه . ثمّ إن رَجُلاً من الأنصارِ جاءَ بِصُرّةٍ من وَرِق ، وجاءَ آخر ثم تتَابعُوا حتىّ عُرِفَ السُّرور في وَجْهه ؛ فقال ﷺ : « مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فَعُمِل بها بعده كُتِبَ لهُ مثلُ أجْرِ مَنْ عَمِلَ بها لاينقصُ من أُجورهم شيء ، ومَنْ سَنّ في الإسلامِ سُنَّةً سيِّئةً فعمل بها بعدَه كتب عليه مثلُ وِزْر مَنْ عَمِل بها لا ينقصُ من أَوزارِهمْ شَيء »[١٢٧] وسُئل ﷺ كذا أيُّ الكلامِ أفضلُ ؟ فقال : « ماااصْطَفاهُ اللهُ لملائكتِه أو لعِباده : سبحانَ الله وبحمده »[١٢٨] : و « يُستجابُ لأَحدِكُمْ مالَمْ يعجلْ ، فيقولَ : قد دعَوْتُه فلم يَستجبْ لِي »[١٢٩] ! .

اللهُ أَكبرُ ، اللهُ أَكبرُ ، اللهُ أَكبرُ ، والتّوبة رَحمكُم الله رُوِي عن أَبي أَيّوب الأَنصاريّ رضيَ اللهُ عنه أنه قال حِينَ حَضرتْهُ الوفَاةُ : كنتُ كتمتُ عَنكم حديثاً سمعْتُه من رسولِ الله ﷺ سمعته يقولُ : « لولا أَنكم تُذْنِبُون لَخَلَق اللهُ خَلْقاً يُذنبونَ فَيغفر لَهم »[١٣٠] .

---

(١٢٦) مسند أحمد ٤ : ٤٠٥

(١٢٧) سنن ابن ماجه ١ : ٧٥

(١٢٨) مسند أحمد ١ : ٣٦

(١٢٩) سنن ابن ماجه ٢ : ١٢٦٦

(١٣٠) الفتح الكبير ٣ : ٥٢

وقال ﷺ : « للهُ أشَدُّ فَرحاً بتوبةِ عبدٍ حين يَتُوب إليه من أَحدِكُمْ كانَ على راحِلَتهِ بأرضٍ فَلاةٍ فانفَلتتْ منهُ وعلَيْها طعامُه وشَرابُه فأَيس منها فأَتى شجرةً فاضْطَجع في ظِلّها قد أَيِسَ من راحِلته فبَيْنا هو كذلكَ إذا هو بها قائمة عنده فأَخذَ بخطامها ثم قالَ من شِدّة الفَرح : اللّهُمّ أَنْتَ عَبدي وأنا رَبّك . أَخْطأَ من شِدّة الفَرح »[131] . وفيما رواه عنه ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قَدِمَ على رسُولِ الله - ﷺ - سَبْيٌ فإذا امرأةٌ من السَّبْي تَبْتَغِي إذا وجدت صَبيّاً في السَّبي أَلصقَتْهُ ببطنِها وأَرضَعتْهُ . فقال رسول الله ﷺ : « أَتَروْنَ هذِه المرأةَ طارحةً ولدَها في النّار » قُلنا : لا والله وهي تقدِرُ على أَلا تَطْرَحه ؛ فقال ﷺ : « اللهُ أرْحَمُ بعبادِه من هذهِ بوَلَدِهَا »[132] .

وعن أبي هُريرة ، عنه ﷺ فيما حكَى عن رَبّه عَزّ وجَل قال : « أذنَب عبدٌ ذنباً فقال : اللهمّ اغفرْ لي ذَنْبي . فقال تباركَ وتعالى : عَبْدِي أذْنَب ذنباً فعَلِمَ أَنّ لهُ [١٢٨/ب] رَباً يغفرُ الذّنْبَ ويأخذُ بالذّنْبِ ، ثم عادَ فأذنبَ فقالَ : رَبّ اغفرْ لي ذَنبي ، فقال تبارَك وتعالى أَذنبَ عَبْدي ذنباً فعَلِمَ أَنّ له ربّاً يغفرُ الذّنبَ ويأخذَ بالذّنْبِ . اعملْ ما شئتَ فقدْ غفرتُ لَك »[133] .

الله أكبر الله أكبر الله أكبر ولا أَحدَ أغْيَرُ منَ الله . ولِذلكَ حَرَّم

---

(١٣١) صحيح مسلم ٨ : ٩٢ ، ومختصره ٢ : ٢٦٦ ، وابن ماجه ٢ : ١٤١٩

(١٣٢) صحيح البخاري ٤ : ٧٥

(١٣٣) مسند أحمد ٢ : ٤٠٥

الفواحش .وليسَ أَحدٌ أحبّ إليه المدحُ مِن اللهِ تعالى من أجل ذلك مَدَح نَفْسَه ، وليس أَحدٌ أَغْيَرَ منَ اللهِ تعالى ؛ ولذلك حَرّم الفواحشَ ما ظَهر منها وما بطن »(١٣٤) . و « يجعلُ اللهُ لكلِّ مُسْلِم فِداءً مِن النّار من الكفار »(١٣٥) . قال رسولُ الله ﷺ : « إذا كان يومُ القيامَةِ دفَع اللهُ إلى كُلّ مُسلمٍ يهوديّاً أو نصرانيّاً فيقول : هذا فِداؤُك من النَّار »(١٣٦) . و « الدُّنيا سِجْنُ المؤمن وجَنّةُ الكافِر »(١٣٧) . و « يذهبُ عن الميت أَهْلُه ومالُه ويَبْقى عَملُه »(١٣٨) . و « لا ينظرْ أَحدُكم إلى مَنْ فضّلَ عَليه ولينظرْ إلى مَنْ دُونه »(١٣٩) . و « العبدُ تشهَدُ عليه أركانهُ يومَ القِيامَة » . قال أنسُ بنُ مالك : « كُنّا عندَ رسُولِ الله ﷺ فضحكَ وقال : هلْ تَدْرُون ممّا أضْحَك ؟ قال ، قلنا : اللهُ ورسولُه أَعْلَمُ . قالَ : مِن مُخاطَبةِ العبدِ رَبّه ؛ يقول : يا رَبّ ألَمْ تُجرْني من الظُّلم ؟ قال فيقولُ : نَعم ، فيقول : فإنّي لا أُجِيزُ على نفسِي إلا شاهِداً منّي قال ، فيقول : كَفى بنفسِكَ اليَوْمَ عَليكَ شَهِيداً ، وبالكرامِ الكاتِبين شُهوداً . قال فَيُخْتَمُ على فِيه فيُقال لأَرْكانهِ : انطِقي ، قال فتنطقُ بأَعْمَالِه . ثمّ يُخَلّى بينَه وبين الكَلامِ ، فيقول : بُعداً لكنَّ وسُحقاً . فعنكُنَّ كنتُ أُناضِل(١٤٠) . وقال رسول

---

(١٣٤) الفتح الكبير ٣: ٣٠٩

(١٣٥) في الفتح الكبير ١ : ١٥٠

(١٣٦) في مسند أحمد ٤ : ٤٠٨

(١٣٧) صحيح مسلم ٨ : ٢١٠ ، ومختصره ٢ : ٣١٢

(١٣٨) سنن النسائي ٤ : ٥٣

(١٣٩) مسند أحمد ٢ : ٢٤٣

(١٤٠) صحيح مسلم ٨ : ٢١٧ ، ومختصره ٢: ٣١١

الله ﷺ : « اللهمّ اجعَلْ رزقَ آل محمّدٍ قُوتا »[141] . وقالت عائشـة ـ رضيَ اللهُ عنهـا ـ « مـا شَبِعَ آلُ محمّـدٍ ﷺ من خُبزِ شعيرٍ يَـومَيْن مُتَتـابعين حتّى قُبضَ ﷺ »[142] وقـالت : « مـا شَبِـع آلُ محمّـد من خبزِ بُرٍّ إلا وأحَـدُهمـا تَمْر »[143] . و« إن كنّا ـ آلَ مُحَمّد ﷺ ـ لنمكثُ شَهْراً ما نَسْتوقِدُ بنـار ؛ إنْ هـو إلاّ التّمْرُ والمـاء »[144] . وعنــه ﷺ : « السّـاعي علَى الأَرْملـةِ والمِسكينِ كالمجاهِدِ في سَبيل الله . وأحْسَبه قال : كالقائِم لا يَفْتر ، والصّـائم لا يُفطر »[145] . و« من بَنى مَسْجِداً يَبْتغي به وجْهَ الله بَنى اللهُ لهُ مِثْلَه في الجَنّـة »[146] . وعنـه ﷺ قـال : « قـال اللهُ تبـارك وتعـالى : أنـا أَغْنى [١٢٩/أ] الشُّركاءِ عن الشِّرْك ، مَنْ عمـل عَمـلاً أشرك فيــه معي غَيْري تَركْتُـه وشَرِيكـه »[147] . و« من سَمَّع سَمّـع اللهُ بـه . ومن راءى راءى اللهُ به »[148] . و« إنّ العَبْدَ ليتكَلّمُ بالكلمةِ [لا يتبين مـا فيهـا] ينزل بهـا في النّار أبعدَ ما بَيْن المشرق والمغْرب »[149] .

البِرُّ كُلُّه ـ رحمكم اللهُ ـ لا يجمع ، وهذه من سِيَر نَبِيّكم ـ ﷺ ـ وآدابِـه

---

(١٤١) صحيح مسلم ٨ : ٢١٧ ، ومختصره ٢ : ٣١١

(١٤٢) سنن ابن ماجه ٢ : ١١١٠

(١٤٣) صحيح مسلم ٨ : ٢١٨ ومختصره ٢ : ٣١١ ، وفيه (.. خبز برٍّ حتى توفي ﷺ) .

(١٤٤) صحيح مسلم ٨ : ٢١٩ ، ومختصره ٢ : ٣١١

(١٤٥) صحيح مسلم ٨ : ٢٢١ . ومختصره ٢ : ٢٣١

(١٤٦) صحيح مسلم ٢ : ٦٨ ومختصره ١ : ٧١

(١٤٧) صحيح مسلم ٨ : ٢٢٣ ، ومختصره ٢ : ٣١٥ .

(١٤٨) صحيح مسلم ٨ : ٢٢٣ ، ومختصره ٢ : ٣١٥

(١٤٩) صحيح مسلم ٨ : ٢٢٤ ، ومختصره ٢: ٣١٦ والزيادة منهما .

نُكَتٌ ولُمَعٌ . فرحم اللهُ امْرأ شهدها بِقَلْبِه ونَدِمَ على ذَنْبِه ، وتابَ إلى رَبّه ، وأَقامَ فَرائضَه وسُنَنه ، واستَمع القَوْل فاتّبع أَحْسَنه .

إن أَعْذَبَ الكلامِ وأسْوَغهُ ، وأَبْدعَ النِّظامِ وأبْلَغه ، كلامُ مَن أنْزلَ على عبده الفُرقان فبَلغه ، وقذف بالحَقّ على الباطِل فدمَغه . فإذا قُرئ فَاحْضروه ببصائر صَقيلة ، وضمائرَ لِعثراتِ الذّنُوب مُستقيلة .

وتَقْرَأُ . ﴿ إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّـذِي خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ ﴾[150] ، الآية[151] .

[١٣٣]

ولهُ ـ رَحِمَهُ الله ـ :

أعَزّ اللهُ الفقيه الجليلَ الكاتب الأَمينَ بالتّقوى ، وأورده بالمورد الأَرْوى ، وكلأه حيثُ انْتَوى ، وأَجرى أحوالَهُ على الْمُراد والهَوى . ولا زالَ يتعَرّفُ المزيدَ في نِعَمِه ، والتّمكين لِعِصَمِه ، ودامَ في أَمْنٍ لا يُذْعَرُ سِرْبُ حُرَمِه .

(١٥٠) الأَعراف ٧ : ٥٤ ﴿ إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُه حَثِيثاً والشَّمْسَ والقمَرَ والنُّجُوْمَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ .

(١٥١) قول الكاتب ـ رحمه الله ـ وتقرأ ... الآية . خطاب للقرّاء من الكتاب والمتعلمين والخطباء خاصّة ، لأنها خطبة تعليميّة (وكانت خطبة ابن أبي الخصال ورسائله تحفظ عن ظهر قلب) .

[١٣٣]

(☆) رسالة إلى أحد الفقهاء مِمّن تولى بعض المهارة يوصيه برجل (أَمين) ويزكّيه .

كَتَبْتُ عن عهدٍ إنْصافه أَن تُتكَلّفَ أوْصَافُه ؛ ويَصُونُهُ لألاؤه أَن تُعـدَّدَ آلاؤه . هو ما عَرفْتَ ، وعَهِدْتَ ، وبَلوْت ، وشَهِدْتَ . ورحمَ اللّهُ زمَاناً بل إخْوانـاً ، أسَّسُوا لـهُ على التّقْـوى بُنْيَـانـا[1] ، وأَحـلَّ عَليهم مَغْفِرةً واسِعَـةً ورِضْوَانا .

وإنّهُ انتهى إلى الأَولياء مـا نِيْـطَ بـكَ من الأَعمـال فَسَنَحتْ لهم سَوانِحُ آمال ، ووجـدوا بـكَ انفسَـاح مَجـال . والأَمينُ أبو فُلان أَبْقَـاهُ اللّهُ ـ تعْلَمُ مُنتماه ، وله من الذِّمام ما تَحْفَظُه وتَرعاه .

وقد كانَ شدّ إليكم رَحْلَهُ ، وأنزلَ بذلكِ الخِصْب مَحْلَـه ؛ ثم ثنـاهُ عُـذرٌ قـاهرٌ ومُسْتَكِنٌّ من الأَولادِ وظَـاهر . فهـو في هَمّ يـؤرّقُ ، ولا يَـدري بِمَ يُطَرِّق[2] . وبحسبـهِ كُتبٌ كَرِيمَـةٌ تنفـذُ ، وشفـاعـاتٌ عـزيـزةٌ من هنـاك تُتّخذ .

وإن عنـده لَنُبْـلاً يشِفُّ ، ومُروءَةً تَرِفّ ، وهـذهِ طِلْبَـةٌ تخِفّ . ومن كتابه يتَفسَّرُ المرغوبُ ، ويَتَعَيَّنُ [١٢٩/ب] المكْتُوبُ إن شاء اللّه .

ولنا في عَملك[3] وليٌّ حميٌم ، وصـاحبٌ كريمٌ : الوزيرُ أَبُو فُلان ـ أَعَزّه

---

(١) اقتبس من الآية الكريمة في سورة التوبة ١٠٨/ ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسّسَ عَلى التَّقوْى مِنْ أَوَّلِ يَوم أَحَقُّ أَنْ تَقُوْمَ فِيْهِ ﴾ .

(٢) يقـال : طرّقت النّـاقـةُ والمرأة : نشب ولـدهـا في بطنهـا ولم يسهل خُروجـه . يريـد وصفه بالهمِّ والحيرة .

(٣) كثير من سطـور نصف الـورقـة ١٢٩ /ب متـآكل من الأَرَضَـة . والكـلام مُستجلى استجلاء ومكّمل تكميلاً واقتراحاً .

اللهُ ـ وما علمتُـه إلاّ مخيلا[٤] ، ومستقلاً بـالأعمـالِ نبيلا ، ومفضلاً على كثيرٍ ممّن تولاّها تَفْضِيلا .

ولَعلّه قـد وَلج عنـدكَ من هـذه الجِهـات ، واتّصَل بتلـكَ [الفِئـات] وأَيْسَرُ ما يُوجِبُه الذِّمَامُ أَن [تَنهضَ إِلَيْه] في أَيّـامـك الأَيّـام ، وتهيبَ بـه الْمَبَرَّة والإكرام . لا زلت في جَدٍّ سِاهِرٍ لا يَنامُ ؛ والسَّلام !

[١٣٤]

ولَهُ ـ رحمَهُ اللهُ تَعالى[☆] :

أَمْرُنـا ـ وصَلَ اللهُ علاءَك وتَمّم مَواهِبَـكَ وآلاءَك[١] [من أمركم أَمَم][٢] والمعارف في أهل النهي والوفاءِ [الذي إليـ]ـكم انتهى كما قـال القـائل ذمَم . ومـا زلت أُعَفّى جـانبـك وأَوَفّي واجبـك (.....) الهمم وأعلمُ أَنــك وإنْ

---

(٤) غير واضحة ، ولعلّها كذلك تقديراً .

[١٣٤]

(☆) رسالة في وساطة وشفاعة .

(١) في سطور نصف هذه الرسالـة خرومٌ بـارزة من الأَرَضـة . ومـا بين معقوفتين مُستَجْلى أومتّم من الشواهد الشّعريّة . وما بين قوسين ، بداخله نقط كلام ضائع .

(٢) في عبارات الكاتب الأولى من هذه الرسالـة تضمين من قول أبي الطيب المتنبي (ديوانـه بشرح الواحدي : ٤٨٤) :

مـــاكان أخْلَقنــــا منكم بتكرمـــةٍ   لـــو أنَّ أمْرَكُمُ من أمْرِنــــــا أَمَمُ

وبينَنـــا لـــو رعَيْتُمْ ذاك معرفـــةٌ   إنّ المعـــارفَ في أهـــل النُّهى ذِمَمُ

تنكَّبَـكَ القِرْطـاسُ والقَلَم ـ (.........) الميّمين كرم . ونَضّر اللهُ عَهْـداً (.....) علقاً بحبّات القُلوب وينظم ، وعَلى النَّفـائس المُستفـادة يُقـدم . اهتزازك ـ أَعـزكَ اللهُ ـ استفهـامٌ من [غَبيّ لا] يعلم أَنَّـك النَّصْـلُ المـاضي طبق وصمّم ، (و...) رأى الضَّرائبَ[3] فما تَلَبَّث ولا عَتَّم[4] ؛ لحاجةٍ أَرسَلها همّ ، وأَلقـاهـا بسـاحِلـك المُؤَمَّـل يَمّ[5] . تَخلَـعُ عَليـكَ العَرْفَ الصّـائـك[6] والأَرج . وتحـدّثـك عن البَحْرِ ولا حَرج (...) نحوك تَخطَّت ، وغُولٌ في تأميلك بمهالكهِ تَمطَّتْ ؛ إلى أَن حَلّت محلَّك الرَّبيع ، وخطّت [وسَطـا] حُكْمُها ، وإن اشْتَطَّتْ . أَماإنّها سَتَقُومُ تجاهكَ ، ولا تتخطى إلى مـالـكَ جـاهَـك ، ولا تَعْـدُو سَـدادَ أَغْراض ، وسَـواداً في الشّفّـاعَـةِ يُلحـظ من بَياض[7] ، تُومضُ بها الآمَالُ أَيَّ إيماض ، ويُقبل لها الزَّمانُ بَعْدَ إعراض .

والأمينُ أَبُو فُلان ـ أَبْقـاهُ الله يمتُّ بخدمـة وَوُدّ ذِي قِـدْمَـه ، ويَعْتَرِفُ لكَ أَدامَ الله عزَّك ـ بِمنَنٍ جَمَّة .

ومَطْلَبُه الذي أحشُد عَليه القَوْل ، وأَسْتجيشُهُ[8] في كتب بَرَّة تَريشه .

---

(٣) الضرائب جمع الضريبة : السيف وحدّه .

(٤) عَتّم مضعف عتَمَ : احتبس عن فعل شيءٍ يُرِيْده .

(٥) اقتباس من الآية الكريمة من سورة طه ٢٠ : ٣٩ ﴿ فَلْيُلقِهِ اليَمُّ بالسَّاحِلِ ﴾ .

(٦) العَرْف : الرّائحة .

ـ الصائكُ من صاكَ به الطّيبُ والزَّعفران : لصق به .

(٧) استفاد من الآية الكريمة من سورة البقرة ٢ : ١٨٧ ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ من الخَيْط الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْر ﴾

(٨) أصل معنى استجاش الأَميرُ من مكان كذا : طلب جيشاً وجمعه .

وإنّ عِنْدَهُ لاكتفاء بمثلِه تُنالُ المَراتِب ويرْضى المُعاتِب ، ويَغتَبطُ المخاطَبُ ، والمُخاطِب . وهو بهذِه الحضرة مُبنّ ، ولضرورته مُجنّ . وله بنَفْسِه ضَنّ [١٣٠/أ] ولَعلّ الشفاعة الكريمة تُنشطُه مِن عِقاله[1] وتَحُطُّ من أَثْقاله ، وتُعْفيه ممّا حاوَلَهُ من انتقاله وهذا أَمْرٌ مشروحٌ مبسُوط ، وأَملُه بمجدك مَنُوط . ومكانٌ في مِيعَادِ سُقياك . فلا يأسَ عليه ولا قُنوط .

لا زلْتَ تعتَقِدُ عند الأَحرارِ المِنَن ، وتُسَهّل من الأَيّام ما أَحْزَن ، وتُؤثِرُ الأَجْمِلَ الأَحْسَن ؛ بحول الله .

[١٣٥]

وله[☆] ـ رحمة اللهِ عليه ـ :

مَرْمَى البلاغَةِ إلاّ عليك ـ أطالَ اللهُ بَقَاءَكَ قَصِيٌّ ـ ومن الكلامِ طَيِّعٌ وعَصِيّ ، وتَمْتامٌ ونَصِيّ[1] . ولمّا كَتَبْتُ عن مُزَاولة الفِكَر ، ومُساوَرَةِ

(١) يُقال : كأنّما أُنشِطَ من عقال : أي حُلَّ ؛ وهذا يقال للمريض ، أو المغشيّ عليه إذا برأ وللآخذ بسرعة في العَمل .

[١٣٥]

(☆) رسالة إلى أحد الكُتّاب (في الديوان) يعرّف برجل يمت بقرابةٍ إلى أحد الوزراء ، ويوصي به .

ـ وتعتور هذه الصفحة وما بقي من النصّ خروم مختلفات ؛ نستجلي الكلام من ثناياها أو ينبهم فنترك دلالة عليه .

(١) النَّصِيّ : الشريف المختار . والتّمتام : الذي يتمتم أي يعجّل بالكلام فلا يُفهم .

ـ والكلمتان غير ظاهرتين من سوء الصَّفحة : الخرم وأثر الرطوبة . ولستُ على اطمئنان من قراءتها .

الفِقر[٢] ، ولم يَبْقَ إلا صُبابـاتُ المَثْمُـودِ[٣] المُحْتَقرِ ، استَسْلَمْتُ في يـد الحَصَر[٤] ، وأَقررْتُ بـالعَجْـزِ الأكبر ، والبـاع الأَقْصَر ، واعتـذرتُ إلى مَنْ عهدَ عندي في هذا الشأن صُبَابـةً تُصْطَحب ، وأريحيّـةً تُسْتَهب ، أَنّ زنْـدَ القولِ كابٍ[٥] ، وحَدَّ الخاطر نـابٍ[٦] ، وأنّـهُ ليسَ وراءَ الهَرَمِ من شَبـاب ، ولا ارْتِقـاء في الأَسبـاب ، وعلى حـال (.....)[٧] لا يعترضُ في برِّهِ العُقوق ، ولا تدخلَ دونَ حَقّـهُ الحُقوق ، فـأَتَفَتّى لـه وكيف بِتَفَتّي الهِمِّ[٨] ومن ذا يعدُّه للأَمر المُهمّ ؟! عهدٌ بالنضال بعيدٌ ، وعجزٌ « عن اليَمين وعن الشمال قعيد » !

نعم (...)[٩] الشريف الفقيه اللّوذعي النبيه أَبُو بكر بن فلان ـ أعَزّه الله ـ وقَـد استَغْنى بـالنَّسب المشهُور ، وانتمائـه إلى خير البُطون والظُهور ، عن يَمين تُنَمْنِم[١٠] ولِسانٍ يُعَبّرُ ويُترجم ، وحَسْبُهُ عنـدَ مثلـك من أَهلِ

---

(٢) ساوره : أخذه برأسه وتناوله .

(٣) الثمد :الماء القليل لا مادّة له .

(٤) الحَصر : من حَصِر فلانٌ أي : عيي في منطقه .

(٥) كبا الزند : لم تخرج ناره .

(٦) نبـا السيف عن الضريبـة أي كلَّ وارتـدَّ عنهـا ولم يؤثر فيهـا . واستعـاره الكاتب لحـدّ الخاطر (للذّهن) .

(٧) كلمـة مطموسـة ، وفي العبـارة اقتبـاس قرآني من سـورة صٓ ٣٨ :١٠ ﴿ فَلْيَرْتَقُـوا في الأَسْبَابِ ﴾ .

(٨) الهِمُّ : الشّيخ البالي الفاني . وتفَتّى : تشبَّهَ بالفِتيان .

(٩) كلمة غير مفصحة .

(١٠) نمنم الشيء : زخرفه ورقّشه . وكنى الكاتب به عن (الكتابة) .

الإيمان الصّحيح ، والنَّقد المَحْضِ الصَّريح ؛ اعْتِزاؤه الأكرم ، وانتماؤه الذي يَعْرفهُ الحلُّ والحَرم[11] ، تُوصَلُ أسبابُه الطَّاهرة فلا تُصْرَمُ . وبين الوزير الأجَلّ السَّيد الأوحد ، الأفضل ـ أدامَ اللهُ عزّه ـ وبينَهُ سُهْمَةٌ لا تُسهَم[12] ، وقُرْبَةٌ تكلمه عنهُ ولا يتكلّم . وقد عَلِمَ الغائبُ والشّاهد ، وتواصفت المَحافِلُ والمَشاهد ؛ ماله عَلى بُيوتاتِ الشَّرف من عَزْمٍ وإقبال ، وعطفٍ وإشبالٍ[13] ، وإصدارٍ وإيراد ، وإتْهامٍ وإنْجاد ؛ لا زَالَ للأعْيانِ ثِمالاً[14] ، وفي المهمّات مآلا ، وللزَّمانِ حِلْيَةً رائقةً وجَمالاً . وما أعْجَله في المكارِم وأَسْرَعه ؛ وعُذراً إليهِ فإني في المَهمّات لا أجدني إلاّ معه . واقْرأ عَليهِ ـ أدام[١٣٠/ب] اللهُ عِزّهُ ـ أَغضَّ السَّلام وأنْصَعه ، وأعَمَّهُ وأَوْسَعه ؛ إنْ شاءَ الله .

[١٣٦]

وله رحمه اللهُ[☆] : [مِنَ المُنْسَرِح]

يا مُشْرِفاً أَشْرَفتْ مكانَتُهُ ومَيّزت قَدْرَهُ صيَانَتُه

(١١) من قول الفرزدق (الأغاني ١٥ : ٢٦١)
هذا الّذي تَعْرِفُ البطحاءُ وطْأتَهُ والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحَرَمُ
(١٢) السُّهمة : القرابة . وسُهِمَ الرجل هُزِل (صار مهزولاً) ضربه مثلاً .
(١٣) الإشبال : العطف .
(١٤) الثِّمالُ : الغياثُ والمَلجأ .

[١٣٦]

(☆) رسالة قصيرة ، فيها تزكية لرجل عند ذي جاه ، وتنويةٌ به .

كَمْ رُضْتَ من كُلّ جامحٍ أَرِنٍ أهْلكَت الحَرْثَ خُنْزوانَتُـهُ[1]
فانقبَضت كفُّهِ وكم عَبثتْ في كُلّ مَحْظُورَةٍ خيانَتُهُ
ديْنُك يأبى لك الدَّنِيَّةَ والـ إنسانُ نِسْيٌ لولا ديانَتُهُ !

هذه ـ أطالَ اللهُ بَقاءَهُ ـ صِفَتُهُ عندَ من غَبَر ومَنْ مَضى ، وحقيقَتُه بِعَيْن السُّخْطِ والرِّضى[2] ، وإنّه مِنَ الثِّقَةِ لحسامُ المُلْكِ المُنْتَضى ، ودِيْنُه ـ عَلى الأَيّامِ ـ المُتَّبَعُ المُقْتَضى . لا زَالَ يُقيم مِنْ أَودِه ، ويَسْتَوْلي بضَبْطِه وحَزمِه عَلى أمَدِه[3] وتُوجَدُ بَركَتُه في عُدده وعَدَده .

وكَتَبْتُهُ ـ دامَتْ عِزَّتُه عن ذِكْرٍ عَبِق ، وشُكْرٍ مُتَّسِق ؛ أُعِدُّه للزَّمان ، وأُعِدُّ بمَتَابِه صُفوة الإخْوَان ؛ نُجْحاً تُستَنْزَلُ بهِ آمال ، وحِصْناً فيهِ لِمَنْ يأوي مآل .

وقد تقدّمَ تَنْبيهي على الصَّفِيّ الوَلِيّ هناك الوَزيرِ أبي فُلان ـ أعزّهُ الله ـ والإفصَاح بِما يَجْمَعُنا وإيّاهُ . وأَنا أستحْفِظُه مَجْدَهُ وعُلاه .

وأَلفَيْت عند أبي فُلان اَعْتِرافاً بفضائِله ، وانْقِطاعاً إلى أَذِمَّتِه ووَسائِله ؛ ودَارُه من داري في الحَضْرَة سَقَبٌ ، والخيرُ له مُرْتَقَب ![4]

---

(١) الخُنزوانةُ : والخُنْزوان والخُنْزوانية ، والخُنْزُوَة : الكِبْر .

(٢) يلمح إلى قول الشاعر (عبد الله بن جعفر) وقد مرَّ في هذا الكتاب :

وعَيْنُ الرّضا عن كلّ عيبٍ كليلةٌ ولكنّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدي المَساوِيا

(٣) استفاد من قول النابغة الذُّبياني (ديوانه بشرح الأعلم)

إلاّ لمثلك أوْ مَنْ أنتَ سابِقُهُ سَبْقَ الجَوادِ إذا استولى على الأَمَدِ

(٤) السَّقَبُ : مصدر سَقَبت الدار : قربت .

وكان قـد أَجْمَـع الهجْرَةَ إليـه[٥] والـوِفَـادةَ عَليـه . ثم اقْتصر لِضَرُوراتٍ لا تُخْلَعُ ولا تُنْبَذُ على شَفاعاتٍ بحسنِ تأتّيه ويُمْنِ تولّيهِ من هناكَ تُتّخـذ . وهو ـ ما علمتُـه ـ مُنقَطِعٌ إلى عَلائـهِ ، مُعترفٌ بِسَوابقِ آلائـه . وحيثُ كانَ مِنْ ثَواهُ[٦] فَشُعاعُـه يَغْشَـاهُ ، وقلبُـه يَرى الصَّـديق ويَراه ، لا زالَ في خَيْرٍ لا يَطيرُ غُرابهُ ، وخِصْبٍ لا يَجِفُّ تُرابُه ، والسَّلام .

[١٣٧]

ولَهُ رَحِمَهُ اللهُ(☆) :

بَوّأكَ اللّهُ ـ يا سيّدي وواحدي ـ من الكرامةِ كنَفاً ، وجَعلـك للثَّنَـاء الصَّائب هَدَفاً ، وزادَكَ بمحاسِنِ الآدَابِ وثَمَراتِ الأَلبـابِ شَغَفـاً وكَلَفـاً ، ولا زِلْتَ مُشْرِقَ الخَـواطِرِ ، غـدِقَ المَـواطِرِ[١] . أينعَتْ لـكَ أَيْكَـةُ الأَدَبِ فهَـدِبَتْ[٢] وصَـدَحت ، وأضـاءتْ لـكَ شُعَلُ الأفهـامِ فـأَثْقَبَتْ وَقَـدَحْت . وأَمَلَّت عليكَ آفاقُ الجزيرةِ فكتَبْتَ ، ورمَيْت [١٣١/أ] بِسَواعِدِ جَهَابِذَتِها

---

(٥) أجمع الأمرَ والرأيَ : عزمَ عليه .

(٦) ثَوى الرجل ثواءً وثُويّاً ومَثْوىً في المكانَ : أقام .

[١٣٧]

(☆) أصاب هذه الرسالة تشويه شديد .

(١) غدقت عين الماء : عَذبت وغزرت . وأغْدَق المَطَرُ : كَثُرَ قَطْرُه .

(٢) هَدِبت الشجرةُ : تدلّتْ أغصانُها .

فأصَبْت [.....][1] خاملة المواضع ، غامرة المساقطِ والمواقع ، والمنظوم والمنثور قد أخْنَى عَليه الدُّثور ، وخذلتهُ القلوبُ والصدُّور ، ومحقته الأَهلَّةُ والبدور [.....] وارتها (؟) الأَيام واختلقتها الأَوهام [.....] ثمادها [.....] ولا تسمُ بسماتِ الغرر والحجول [.....] عند الشعرى التي عبرت ، وثانيه عند الغميصاء التي [.....] تحت قدميه ، وأُخرى قطب تدور رَحا الشمال عليه [.....] عن قومها في غير جرم ولا ذنب [.....] فقد الأَراقم [.....]

فلمّا أذن الله تعالى في جمع أشتاتها وإحياء رفاتها وإيجادها بعد الإعدام وإنجادها بعد الإتهام أتاح [.....] .

[١٣٨]

وله رَحِمَهُ اللهُ(☆) :

يا سَيّدي الأَعْلى ، وكبِيري الأَوْفى ، وشَيْخِي الْمُفَدّى الذي ألتَزِمُ بِرَّهُ ، وأَتَوَخّى في كُلّ حال ما سَرَّه .

---

(١) [كلام مشوه بقدر نصف سطر . وما ورد بين معقوفتين من نقاط فهو كلام غير ظاهر] .

[١٣٨]

(☆) رسالة في موضوع وساطة ، وإنجاز عَقْد زواج ، لم تتم ، وهي آخر ما في نسخة الكتاب .

أدامَ اللهُ جانِبَكَ منيعاً ، وجَنابكَ مَرِيعا ؛ وذكرك في الصّالِحِينَ مُسْتَطِيراً مُسْتَذِيعا .

كَتَبْتُ ـ أَعَزّكَ اللهُ ! ـ عما تَعْلَمُ ، وعَمّا يجبُ ويَلْزَمُ ؛ اغْتِباطاً بوُدّك ، وانبساطاً في [جَنْبك ؟] وسُكُوناً إلى كَرَمِ عَهْدِك . واللهُ ـ عَزَّ اسْمُه ـ يُبقيكَ لائحَ سَمْتِ التَّوفيق ، قابلاً نصيحةَ الصَّدِيق [قائماً] بأعباء الْحُقوق .

وقد علمت ـ أعزّك اللهُ ـ ما فَشا عندنا قَدِيماً أَمْرُهُ وجرى في كل نادٍ ، وحاضِرٍ وبَاد ذِكْرُه ؛ من إيجاب الصِّهْرِ بَيْنَكَ وبين فُلان .

وإنّ ذلك أيْقَنُ [؟] لِما في الصُّدور ، وأَعْلن ما عند الجُمهور . ثم عَرض بعدَ ذلكَ ما عَرَضَ من الفُتور ، و « إلى أَوْقاتِها مجَاري الأُمُور » .

وتَجَدَّدَ الآن من العَزْمِ ما بَعَثْته من [.....][1] الرّأي الصحيح والحَزْم ؛ فخاطَبَكَ في ذلكَ فلانٌ وفُلانٌ بما تَراه [.....][2] .

فرأيتُ أَنْ أعزّزَ وأَغْبِط ، وأحكم عند هذا الحال وأربط ، ولست بتهم ..[3] .

---

(١) نحو ثلاث كلمات غير ظاهرة .

(٢) نحو أربع كلمات غير ظاهرة .

(٣) هذا آخر الورقة ١٣١/أ ، وبنهايتها ينتهي الموجود من كتاب ترسيل الكاتب الفقيه ابن أبي الخصال .

قال محقّق الكتاب : محمد رضوان بن أحمد الداية ، الدّمشقي الصَّالحاني ، ثم الدُّومي :
هذا آخر ما وُجِد من نُسْخة ترسيل الكاتب الفَقيه أبي عبـد الله محمـد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي الفَرْغَلِّيطي الشَّقُوري الأَندلسيّ ، رئيس كُتّاب الأَندلس .
والحَمْدُ للهِ حَقَّ حمده ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيّدنا مُحَمّد وعَلى آلِه وصَحْبِه .
انتهى مراجعةً وتصحيحـاً وفهرسـة في أواخر شهر شوال ـ عَرّفنـا الله بركتـه ـ من سنـة ألف وأربع مئة وسبع من هجرة النبي ﷺ الموافق أواخر حزيران عام ألف وتسع مئـة وسبع وثمانين من مولد المسيح عليه السّلام .

المُلْحَق

برسَائل ابن أَبي الخِصَال وأَشْعَاره



[١]

وكتب[١] أبو عبد الله بن أَبي الخصال :[٢]

كتابُنـا ـ أبقـاكُمُ الله ـ وأَكْرَمَكُم بِتَقواه ، وعَصم جـانِبَكُم وحَماه ، وتَمَّم عَليكُم عَوارِفَ نُعماه ـ من فُلانـةٍ حَرسهـا الله ، وقَبْـلُ مـا وَفـد إلَينـا ووَرَد

[٢]

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ـ المجلدان السابع والثامن ـ مدريد ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ص : ١٦٧ . وقد أثبت النصوص . وهي أربعة فقط في هـذا المستـدرك ـ على حالها إلا ما ندّ من قراءة موجّهة ؛ واستفدت من مقدمات التحقيق ، وزدتُ مـا لا بـدّ منه من شرح أو ترجمة أو إحالة .

(٢) كتب أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال هذه الرسالة عن أمير المسلمين علي بن يـوسف بن تـاشفين . وهي تشير إلى سفـارة الفقيـه المشـاور القـاضي أبي الـوليـد ابن رُشد (الجدّ) ـ و سبقت ترجمته في حواشي هذا الكتـاب ـ وقـد لقي القـاضي أمير المسلمين ، وعرض عليه بعض أحوال الأندلس بعد حملة أَلفونسو الملقب بالمحـارب ملـك أَراغون سنة ٥١٩ على الأندلس التي استمرت عاماً تقريباً عاث فيها فسـاداً ، واتضّح أن النصارى المعاهدين في غرنـاطـة خصوصـاً قـد كاتبوا ألفونسو ليـأخـذ البلاد ودلّوه على عَوْراتها ، وأفتى القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رُشد بإجلاء أولئك المعـاهـدين عن أرض الأنـدلس وقـد أنجحت سفـارة القـاضي ، وغُرّب أولئـك إلى مكنـاس وسـلا وغيرهما .

(راجع مقدمة د . محمود على مكّي للنصوص المنشورة في الصحيفة و إحالاته) .

علينا الفَقيهُ الأَجَلّ المُشاور أَبو الوليد بنُ رُشد ـ أَعَزّه اللهُ بِطاعته ـ فبَسطَ لَدينا شأنَ تِلْكَ الجزيرة ـ كلأَها الله ـ وجَلاّه . ووصَفَ من حَالِها ما أَصَخْنا لهُ حتّى اسْتَوفاه ، وجالَ بِمَيْدانِ البيَانِ أَفْصَح مَجال ، وعَرض الأُمور في مَعرِضها بأبلغ مَقال ، فأَشفقنا ـ عَلِمَ الله ـ كُلَّ الإشفاق ، وَتضاعف ما كان عِندنا وكيداً لِصلة النّظر والاشْتياق ، ولن نَألُوَ جَهداً مَبْذُولاً ، وجِدّاً حَفِيلا . وعَزْما لا نابياً ولا كَلِيلا ، فيما نَدْرَأُ ونَدفع ، ونَذُودُ عن حَوزة المِلّة ونَمنع ، وندأَبُ لِذلك بالدّأْب الحَثِيث ، ونتبع القَديم فيهِ بِالحديث ، ونَنْصَبُ لهُ النَّصَبَ الذي ليسَ حبلُه بالسّحيل ولا النَّكِيث ، ولا يَشْغَلُنا عنهُ شاغِلٌ وإن أَهمّ ، بل نصرفُ نحْو جَنابكم الحَزْم الأَتمّ الأَهَمّ ، وجَهْدَ الكفَاية مادَهم حادِثٌ وأَلَمّ .

فاستَشْعِروا أَنّ أُموركم إزاءَ ناظِر اهْتبالنا ، ومن آكَدِ مؤكّدات اشْتِغالنا . وقد عايَن الفقيهُ الأجَلّ المتقدّمُ الذّكر حقيقةَ الأَمر ، وسيَبْلُغكم ذلكَ عنهُ ، فلا تَكُونوا في رَيْبٍ مِنه ، واللهُ تَعالى يُعينُنا على ما نحنُ بصَدده ، ويَمْنَحُنا من تَأييده ما يُعِزُّ الإسلام ويُقيمُ من أَوَدِه[3] بِحَوْلِه وطَوْلِه ، وعَدْلِه وفَضْلِه .

(٣) الأَوَدُ : الاعوجاج .

[٢]

وكتبَ عن[١] أمير المُسلمين[٢] :

كتـابُنـا ـ أعَزّكم اللهُ بتقواه ، وكَنفكم بِظلّ ذَراه ، وَوَفَّر حُظوظَكُم من حُسْنَـاه ، حَضْرَة مَرَّاكُش ـ حَرسهـا الله ـ يـوم الاثنين منتصف شوّال من سنة سَبع وخَمس مئة بَين يدي حركَتنـا ـ يَمَّن اللهُ فـاتِحَتَهـا وعُقبـاهـا ـ وقد قَرعَنا الظَّنـابيب[٣] ، وأشْرَعْنـا الأنـابيب[٤] ، وضَمّرنـا اليعَـاسِيب[٥] ، واستَنفَرْنا البَعيدَ والقَريب ، مُستشعرين إخلاصَ نِيّة ،وصِدْقَ حَمِيّـة ، في نصر دين الإسْلام ومَنْعِ جانِبه أن يُضام ، أو ينالَهُ من عَدُوّه اهتِضام .

ونحنُ إن كُنّا قد بالَغنْا في الاحتِشاد والاستِعداد ، واستَنْهَضنا من الأَجْنادِ والأَمْداد ، ما يُربي على الحَصى والتّعداد ، فإنّا نَعتقـدُ اعتقـادَ يقين ، بقول

---

[٢]

(١) صحيفة معهد الدراسات (٨/٧ : ١٦٨) .

(٢) كتب ابن أبي الخصـال هـذه الرسـالـة عن أمير المسلمين على بن يـوسف بن تـاشفين في التاريخ المـذكور . وموضوعهـا إعلام أهل الأنـدلس بمـا استقر عليـه العزم من التجهّز للجهاد في سبيل الله ، والدفاع عن الأرض ، وغزو العدوّ في عقر داره وقد كانت سنـة ٥٠٧ وما بعد سنوات جهاد متواصلة ، وبرز فيها عدد من قوّاد المرابطين الأشدّاء .

(٣) الظنابيب جمع ظنبوب : حرف الساق اليابس من قُدُم . ويقال : قرع ظنابيب الأمر أي ذلّله . ويقال : قرع للأمر ظنابيبة : إذا جَدَّ فيه .

(٤) الأنابيب جمع أُنبوب ، يعني الرّماح .

(٥) اليعاسيب جمع يَعْسُوب ، أراد بها الخيل .

رَبّ العَـالَمين ، في كتـابـه المُبين لِرَسُولـه الأَمين ﴿ قُلْ مَـا يَعْبَؤُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ ﴾[٦] . إنّ استِنفارَ الدُّعـاءِ ، واستِفتـاحَ أَبوابِ السَّماءِ بِخـالِص الثَّناء من أَنفعِ الأَشْياء ، وأَنْجَع الدَّواء فيما أَعْضَل من الأَدواء . وإنّ الدُّعاء إذا وافَق إجـابـةً يَمضي حَيثُ يَنْبُو الحـديـد المُذَرَّب[٧] ، ويكبُو العَـدِيـدُ المُتَهيَّب ، ولِـذَلكُم مـا رَأينـا مُخـاطَبَتَكُم مُستنفرين دُعـاءَكم وأَدْعِيــةَ مَنْ وَراءَكم من خِيَـارِ المُسلمين وصـالِحي المُـؤمنين ، لأَنْ يَمُــدّنــا اللهُ بــالنَّصر والتَّمكين والملائكةِ المُؤمنين ، ويَقْطَع بكلّ مَنْ يُريُد القَطْعَ بِنا عن حِمايـة الـدّين ، ويَرفع رايـةً[٨] في خِلافِنـا من المُفسِـدين المُعْتَـدِين ، فـإذا وصَل إليكُم خطابنا هذا أعزكم الله فامْتَثِلُوا مَذْهَبنا فيـه ، وأَشيعُوه عنـد الخـاصّ والعامّ ، لِيَرْفَعُوا أَيديهم بـالتَّضَرُّع في أَوقـاتِ المُنـاجـاةِ والقِيـام ، ويَجْمَعُوا بين تَعْفير الجِبَـاهِ ، وتَحرْيـك الشفـاه[٩] ،تحتَ جِنح الظّلام ، ويَسْتَوهِبُـوا الله من إعْـزَاز جـانِبنـا ، وإذْلالِ مُجـانِبنَــا ، مــالَهُمْ فيــه أَوْفَرُالحظُـوظ والأقسام ، وهو الكَفيلُ بإنجاز ماوَعد بـه من الإجـابـة ، لاإلـه إلاّ هُو ذو الجَلال والإكرام ، والطَّولِ والإنعام ؛ والسَّلام .

---

(٦) الفُرقان ٢٥ : ٧٧

(٧) ذرّب السِّنانَ : أحَدَّه ، فالسِّنانُ مُذَرَّب وذَرِب .

(٨) في المطبوع : رأيه ، وقرأتها : رايةً .

(٩) تعفير الجباة تذلّلاً لله تعالى وخضوعاً ، وتحريك الشفاه بالدُّعاء إلى الله تعالى أن يؤيد جنده ، ويهزم عدوّه .

[٣]

وكتب[١] عنه إلى أبي بكر ابنه[٢] :

كتابُنا يَمَّنَ اللهِ أنحاءَك ومَذاهِبَك ، وأَمنَّ أرْجَاءَك وجَوانِبَك ، وأسْمى بتَقْواه أحْوالَـك ومَراتِبَـك ، مِن حضرةِ مَرَّاكُش ـ حَرسَهـا الله ـ يَـوم الأَربعاء السَّابع والعِشرين من صَفر سَنة عِشْرين وخمسمائة ، وقد وَرَدنا في اليوم المَذْكُور كِتَابُـك الأَثير مُضَمَّنـاً صِفَـةَ الحَـالِ الجَـاريـة ، بِحُكمِ الأَقـدار النّافِذَة الماضِيَة ، وألاّ صارِفَ لِمَا أمْضاه ، ولا مُعَقّبَ لِمَا شاءَه وقَدّره لا إلهَ سِواه ، واللّهُ ـ جَلَّ ذِكْرُه ـ المليُّ بالخَير وأَجْمَلِ الصُّنع ، وإصارةِ المُسلمين في كنَفِ الحِمايـة والمَنْـع ، والّـذي أَتيتَـهُ وتَـوخَّيْتَـهُ من الثُّبـوت والـوُقـوف ، والعَمل البـادِي الصَّواب والشُّفوف ، مشكورٌ لـكَ مَحْمُود ، فليَطِرْ عليـكَ مِنك جَدٌّ مَوْجُود ، واعتمالٌ لا يكونُ عَليـهِ لِمُسْتَزِيْـدٍ مَزِيـد ، فَهـذا وقتُ

---

[٣]

(١) صحيفة معهد الدراسات : ١٦٩ .

(٢) كتبها ابن أبي الخصال عن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين إلى ابنه الأمير أبي بكر من مراكش يوم الأربعاء ٢٧ صفر ٥٢٠ ؛ والأب يدعو ابنه إلى ضبط الأمور في الأندلس والاستعانة بأهل الرّأي والمشورة ، والاستعداد المستمرّ . وهو يُثني على ابنه في حُسن تصرّفه ويدعوه إلى مزيد الجدّ والاستعداد للعدوّ ، وفي الرسالة إشارة إلى أمْر مهمّ (لم يفصح عنه) تصرّف فيه أبو بكر تصرفاً حسناً .
وفي هذه الرسالة ـ ضمناً ـ مرسومٌ بتعيين أبي بكر قائداً عاماً للجيوش الإسلامية في الأندلس .

بَـذْلِ النُّفوسِ ، فَضْلاً عن الأَموال ، الّتي تُـدَّخَرُ لحـاجـاتِ الرّجـال ، وهو مُتَعَيّن على الحَشْوَة[٣] والكَافّة ، فكيفَ عَلينا أَو عَلى مَنْ كانَ مِنّا أو مُنْتَسِباً إِلَيْنَا ! فَجَرِّدْ عن سَاعِد اعتزامِك ، واستَفِـدْ مـا يُبقي لـكَ ذِكراً ، ويَـدْخَرُ أَجْراً ، مُتعـاقِبَ أَيّـامـك ، فيحـوز لـك خَيْرَ الـدّارين ، ويَجُـوزَ شرفَ المَنزلتين .

وقـد رَأيْنـا ـ واللهُ الموفّقُ للصّواب ـ أَنْ نُقَـدّمـك على جَميـعِ الجُيـوش بتلـك الجَزيرة ـ عَصَمهـا الله ـ عُمومـاً يشمـل من كان هنـاك مِنهـا ، ومَنْ وَصل مِن هذه العدوة ـ حَرسها الله ـ إليهـا ، وخـاطَبنـا عُمّـالـك بـالسّمع منكَ والطّاعة لك ، وأَن يُطابق كلٌّ واحدٍ منهم رَأيك ، ويوافِق عَملك . وليست الحـال الآن كالحـالِ قبـلُ ، فـإنّهـا الآن يُتَنَـوّطُ بـك الـدِّقُّ منهـا والجلّ ، والكُثْرُ والقُـلّ . فقفْ إزاءَ العَـدُوّ ، وصِـلْ في المـدافَعـة والمـواثَبـةِ الرَّواح بالغُدوّ ، ومِلْ حيثُ مال ، وصِل الاجْتهاد والاعْتِمال ، وتَشاوَرْ مع القُوّاد ، وأَهْل الرّأي من الأَجْناد ، وابْعد عن الاستئثار والاستِبْداد ، وأيّد في جميع الأَنحاء ، وانْفُذ نفوذَ السّهم المُسَدّد في غَرضـه بعـد تردّد الارْتِيـاد ، وقَدّم الاستخارة للهِ تَعالى على كُلّ عَمل ، مـالـكِ الأَشيـاءِ ، والمُتـدارك في اللّأواء[٤] ، ورتّب النّـاس في مَراتِبهم وأَنْـزِلْهُم أَمْكَن مَنـازِلهم ، واعْلَم قَـدْرَ هذا الّذي نُطْناهُ وعَصَبْناه بنظرك ، فإنه عَظِيمٌ جـدّاً . ويَتَعيّن عليـكَ أن تقدرهُ حَقّ قَدْرِه ، وتستَفْرِغَ فيه جَهْداً وجِدّاً ، ووسّع صَـدْرَك ، وابْنِ على

(٣) الحشوة من الناس رُذالتهم . كذا في المعاجم ، والمقصودُ هنا العامّة ، مطلقاً .

(٤) اللّأواء : الشدّة وضيقُ العيش .

الصَّبر والأناةِ أَمْرَك ، واحتَمِلْ ما تكْرَهُه ، لتنالَ من مَغَبّة ذلك ماتَحْمَدُه ، ولاغايةَ بعد مالدينا من تطلّعٍ وكيد إليك ، وإن أَمْكَنك ، أَنْ تُعَرِّفنا معَ الأيّام بالأنباء ، فَصِلْ بذلكَ مَعْهُود الاحْتِفاء .

اطَّلع الله على السّرّاء ، وتكفّل بقَمْع الأَعداء ، بِمَنِّه .

[٤]

وكتب[١] عَنْهُ إلى الوَحِيدي يُوْصِيه[٢] :

كتابُنا ـ كتبَ اللهُ أعمالَك مَبْرُورةً ، ومَساعيك مَشْكُورَةً ، وعَرَّفَك الآلاءَ مَوْفُورة ـ من حَضْرَةَ مرّاكُش حرسها الله ، لخَمسٍ بقينَ من ذي الحجّة سنة ثَلاثٍ وعِشرين وخَمس مئة ، وإنّ مَنْ رتّب من الأَمر حيثُ

---

[٤]

(١) صحيفة معهد الدراسات : ١٧٠

(٢) كتب ابن أبي الخصال هذه الرّسالة عن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٢٣ إلى القاضي أبي محمد عبد الله بن أحمد بن عمر القيسي المالقي المعروف بالوَحِيدي ، بمناسبة وفود جماعة من أهل (مالقة) وما حولها على الحضرة في شكاوى لهم . وأكّدت الرّسالة خصوصية عمل القاضي ، وواجباته وحدود تصرّفه ، وهي تزيد « في اختصاصات القضاة ودائرة أعمالهم فهو يكل النظر في تلك الظُّلامات إلى قضاة البُلدان حتى لا يتجشم المظلومون مشقّة السفر إلى العاصمة (الحضرة) لعرض شكاواهم على السُّلطان » . (وانظر مقدمة المحقق) .

ـ والقاضي المذكور هو أَبو محمّد عبد الله بن أَحمد بن عمر بن أحمد بن عبد الله ، القيسي ، المالقي ويعرف بالوحيدي (وهو عند الضبّي في البُغية : ابن الوحيدي) =

رتّبت ، وحَسب من القيام بالمَهَمّات حيثُ حسبتُ ، لم يَسَعْه أَن ينامَ عن قَضِيّة تَجْري ببلده ، ولا أن تُدركه غَفْلَةٌ عن تَفَقّد ما تَحْتَ يده ، وقد تَجَمّعت الآن بهذِه الحَضْرة عصائِبُ الشّاكين ، وكَثُرت أَرْفَاعُ المُتظَلّمين ، وكانَ من أُمورهم بيِّنٌ ومُشْكِل ، وفيهم مُحِقٌّ ومُبْطِل ، فلم يَخْلُ ما كانُوا يجيؤون بهِ من قَولٍ مُزَوّر ، وباطِلٍ في صُورة الحَقّ مُصَوّر . وعِنْدَما التبسَ الكذِبُ من ذلك بالصِّدْق ، والتفّ المُبْطِلُ بالمُحِقّ ، صَدَدْنا أَرْفَاعَهُم عن الوُصول ، وصَرَفْنا دونها وَجْهَ القَبُول ، وأَوْعَزْنا إلى جَماعتهم لما خِفْناهُ من تَلْبيسهم في الأُمور ، وشَوْبِهم المُباحَ بالْمَحْذُور ، بأنّا لا ننظُر لأَحدٍ منهم في حَقٍّ يَدّعيه ، ولا أَمْرٍ يُوجِبُه أو يَنْفِيه ، إلاّ بعدَ أَن يأتي ببيانٍ من قاضِي بَلَدِه ، وكتابٍ ينطقُ عن صِحّةِ ما بيَدِه .

فانْصَرَفُوا وفي نفوسِنا ـ عَلِمَ اللهُ ـ من قِبَلِهم ما يَشُقُّ حَمْلُه ، ولا يَخِفُّ مِثْلُه ، فإنّه لا يُمكن إلا أَن يَكونَ فيهم الصّادِقُ البَرّ ، والرَّجُلَ المُضطَر ، لكن الخَيْرَ أَرَدْنا ، والبِرّ قَصَدْنا . ولما كانَ هذا وجَب أَن نَلتمسَ لأُمورهم

= أحد الفقهاء المحدّثين القضاة ، قال ابن بشكوال : « كان من أهل العلم والمعرفة والفهم ؛ واستقضي ببلده مدّةً حُمِدَ فيها » . وقال النباهي في صفته : « ولي القضاء بريّة (وقصبتها مالقة) سنة ٥٢١ (في الكتاب ٥٣١ وهو لا يستقيم) .. فذهب إلى انتقاء الشهود ، والتسوية في الأحكام بين الشريف والمشروف ، وأخذ في تجديد ما كان قد درس من أحكام الأحباس ، وتحفّظ من جميع النّاس ، واستمرت ولايته نحواً من ثمانية عشر عاماً » وتوفي سنة ٥٤٢ بعد أن استقال من عمله بمدّة .

(الصلة ٢ : ٢٩٦ ، وبغية الملتمس : الرقم ٩٠٢ (ص : ٣٢٦) ، والمرقبة العُليا : ١٠٤ ونفح الطيب وذكره في أعمال الأعلام : ٢٥٥ ، وفيه أنه كان ما يزال يقضي بمالقه سنة ٥٣٨) .

وَجْهاً يُتَوصَّلُ بـهِ إلى مَعرفـةِ الصَّحيـح من السَّقيم ، والْمُعْـوَجِّ من القَـويم ، فَوكَلْنا ذلكَ إلى قُضـاة البُلـدان ، وأَلْزَمْنَـاهُم القيـامَ بـهِ والفَحْصَ عنـه مع الأَحيـان ، لأَنّ موضوعَ القَضـاءِ إنّما هو لرفْعِ الْمُشكلات وتمييز الحَقـائق من الْمُتشَـابهـات ، والفصل بعـد التبرُّم في الـدَّعـاوى والْمُنـازَعـات ، ومع هـذا فنقـولُ : إنّ هـؤلاء الرّافعين لـو وَجَـدُوا في بـلادِهِم إشكاءً ، وأَلِفُـوا عنـد مُتَقَلّـدي الأُمـورِ لردّ ظُـلامـاتِهمْ وَفـاءً ، لَمَـا تَجَشَّمُـوا إلَيْنـا بُعْـدَ الشُّقّـة ، ولا تَحَمَّلُوا نحوَنـا عظيمَ المَشقّـة ، ولولا أنَّـا لا نُخليهم من التّعَسُّف ، وسـوءِ التكلُّف لشَدَّدْنـا في جهـة القَضـاء عـارضـةَ الكلام ، ولثَقَّلْنـا عَليهم وطـأةَ المَلام .

وقد قَلَّـدْنـاك تَقْلِيـداً تـامـاً أَن تنظرَ بِجهتـكَ من شكاوى العَـامّـة في اللّطيف والجَليل ، وسُمْناكَ القيامَ بالخَفيفِ منها والثّقيل ، فتفقَّدْ ما قِبَلك حقَّ تَفَقُّدِه وتَعَهَّدْهُ أحْفى تَعَهُّدِه ؛ فإنّـك إذا أَمْعَنْتَ التّطَلُّع ، وأَدْمنْتَ إلى جـانبِ الرَّعيّـة التَّلَفُّت والتّسَمُّـع ، لم يَشِـذّ عن عَلْمِـكَ مـا يَجري ببلــدكَ لاجْتماعِه وانْحِصاره ،وتَقارُب ما بَيْن مَسـافـاتـه وأَقْطـاره ، وإنّ حَقّـاً على الجارِ أَن يُفَرّجَ ضَغْطَةَ جارِه ، فاسْتَكْشِفْ ـ وفّقَـكَ اللهُ ـ الأَحْوالَ وتَعرَّفْ صُوَرها ، واستَعْلِمْ مع الرَّعيّة شأنَ الرّعِيّة وخَبَرها ، فكلُّ مـا رفَعَتْـهُ إليـكَ من أَحْوالِها ، وتظلَّمَتْ فيهِ من عُمَّالِهـا ، أجْرَيْتَـهُ مع الحقّ كيفَ جَرى ، وعَمَمْتَ بالنّظر ولم تخصّ قَضِيّـة دونَ أُخرى ، فكلٌّ بـكَ مَعْصُوب ، وأنتَ عنهُ مُحَاسَبٌ وبه مَطْلوب .

ومَدارُ هذا الأَمرِ اختيارُ الحُكّام الّذين استَنَبْتَهُم في أَقْطارِك القَاصية ،

ونَصَبْتَهُم في الجِهاتِ النّائية ، فشَرْطهُم الثِّقَةُ والدّيانة ، والصَّوْنُ والأَمانـة ، فإنّهم إذا كانُوا بهـذه الصّفـة جَرتْ أمورُهم على سَبيلهَـا القـاصِـد ، وسَيْرهـا الرّاشد ، وأَمِنْتَ في جهاتِ الرّعية والأَحْكام ، وأَمِنَّـا بـك فيهـا من اللَّبْس والمُـداخَلـة مـع الأَيّـام ، فـلا تُقَلّـد عَملـك إلا مَعْرُوفـاً بلطف النَّفْس والعَفاف ، ونقيّاً يقنعُ بالكفافِ ، ويَتَنَزَّهُ عن الإسفاف ، وتَحفَّظْ من كُلّ منهُـومٍ لا يَشْبَـع ، ومُسِفٍّ لا يَتَـوَرَّع ؛ فـالحريصُ أَصَمُّ أَعْمى لا يرى ولا يسمع ! وبعـد توليتـك إيّـاهم فـأشْرِفْ عليهم إشْرافـاً يَتَعَقَّبُ أَحْوَالَهُم ، فَمنْ رأيتَ منهُ جَنفاً[٣] ، أو نقصَ عليكَ من أطرافِ الحقِّ طرفـاً ، صرفْتَـهُ مَذْمُوماً ، وأخَّرْتَهُ مَلُوماً . فتفَقَّدْ هذا من أُمورِهم ، فإنَّـكَ مُضطَرٌّ إلَيْـه في الديّانـة ، وفيما يُبـاشِرُونـه من أُمور الرَّعِيّـة التي لا نَرْضى بِهَضْمِهـا ، ولا نُقِرُّ أَحداً على ظلمها .

وممّا نعيدُه ونتَقدَّم إليكَ فيهِ أمرُ اللّوازم الجـاريَـة هُنـاك أن تتصَفَّحهـا وتَلْمَحها ، فَما لم يكن منهـا في عُهودنـا موجوداً ، ولا مِنْ قِبلِنـا مَحْـدُوداً ، ولا في مصَالح المُسلمين مَعْـدُوداً ، فهو ردٌّ[٤] على كل والٍ رسَمَـه ، ومصروفٌ على كلّ مَنْ أَلْزَمـه ، لا يُؤَدّى منـهُ نَقِيرٌ[٥] ، ولا يُحْمَلُ منـه فَتيـل[٦] ، وأَيُّ عاملٍ من عُمَّال الرَّعِيّة قـامَت الشَّهـادَةُ عنـدك بِتَعَـدِّيـه ، وعَلِمْتَ صَحَّـةَ

---

(٣) الجَنَفُ من جنَف عن الحقّ : مالَ وجار .

(٤) الردُّ : المردود .

(٥) النَّقير : النكتةفي ظهر النواة (يُضرب بها المثل للشيء الطَّفيف) .

(٦) الفتيل : السّحاة التي في شقّ النواة .

استِهْدَافِـه وتَصَـدِّيـه ، فـأْنِـهِ أَمْرَهُ إلى صـاحِب البَلَـدِ مُستَعملـه ومُوَلِّيـه ، وأَشْعِرْهُ بما ثبتَ عندكَ فيه ، فإن غَلّ يَد أذيَّتِه ، وأَنْفَذ عَزْله عن رَعِيَّتِـهِ ، وإلا فَأَخِفَّ[٧] ذلكَ إلَيْنا في سائرِ مـا يتوقَّفُ لَـديْـكَ من الأُمور التي تَقْصُر عنها يَدُك ، وتَنْقَطِعُ دون النُّفوذِ فيها غايَتُك وأَمَدُك ، لينفـذَ من عِنـدنـا ما يقفُ مُنازِعُك عِنْدَه ، ويَسْهُل لكَ كُلُّ صَعْبٍ بَعْـدَه ، ومّـا تتفقّـده من أَحْوالِ الرَّعيّة ما يؤخذ بـهِ الحـاضِرُ عن الغـائِب ، ويُطْلِبُ بـهِ البـاقي بَعْدَ الذّاهب . فهذا الصِّنْفُ أيضاً من الظُّلامـاتِ تُبْطِلُـه وتردُّ حُكْمـه ، وتُعفّي أثَره ورَسْمَه .

وأمْرُ الزّكواتِ على تَبايُنها في الصِّفة ، وأنواعِهـا المُختلفـة ، تَجْري على مُـوجب فَريضَتِهـا ، وتـوقفُ على حَـدّ شَريعتهـا ، لا تُحَرَّفُ ولا تُبَـدَّل ، ولا تُصْرَفُ عن جهتها ولا تُعَدّل .

هذه ـ أَعَزّكَ اللهُ ـ أمثـالٌ مضروبَـةٌ ، وهِـدايَـاتٌ مَنْصُوبـة ، وقوانينُ مَوْضُوعة ، وأعلامٌ على طُرق الحقّ مَرْفُوعة ، قد بَرأنـا إليـكَ مِن وِزْرِهـا ، وتَخفّفْنـا بـإسْنـادِهـا إلى نظَرِكَ من إصْرِهـا ؛ وفي أكْثَرِهـا كانت الأَرْفـاعُ تَرِدُ ، وعَصـائبُ المُتظَلّمين تَحْتَشِـد ، وأنتَ إذا كشَفْتَ غَبْنَهَـا ، ونفضْتَ طرقهَـا ، وأعطيتهـا من بَحْثِـك وتـأمُّلِـكَ حَقّهـا ، ارْتَفعت الشُّبهـة ، وانـزاحَت العِلّـة ، وتَـوفَّرَت على المُسلمين الرِّحْلَـة[٨] ، وهَـدأت الرَّعِيّـة وتَفَرَّغَت لأَشْغالِها ولَزِمَتْ صالِح أَعْمالِها .

---

(٧) أي أسرع به إلينا .

(٨) يعني وفودهم على الأمير في الحضرة ، وفي سفرهم مشقّة ونصب وخسارة وقت ومال .

فانظرُ في هذه الأَمْثلة والجُمَل إلى أَقْصى ما يَنْقَسِمُ إليه أَقْسامُها ، وقِفْها على حَدّ ماتقفُ عليه الشّريعةُ وأَحكامُها ، واكْفِنا مااسْتَكْفَيْناك ، وانْهَضْ نُهوضَ المُسْتَقِلِّ بِما حَمَّلْناك ، وأَيّ عُذرٍ لكَ وقد شدَدْنا من أَزْرِك ، وعَضَدْنا من أمْرِك ، وإنّ تَطَلُّعَنا لوكيدٌ لِما نُجَدّده عندكَ من النُّفوذ .

هٰذه الوصايا الجامِعَةُ ، والحجّة البالِغَةُ ، وستَبْلُغنا الأَنباء ، ويَتّصل بنا الثّناء ، وبعد ذلك الثّوابُ والجَزاء ، لا إله غيره والسلام .

أعَزّك الله ، ليُقْرَأ الكتابُ على الكّافّةِ بالمَسْجِد ، فإنّ فيه زَجْراً للمُعْتَدِين ، وأَخْذاً فوقَ أَيْدي المُفْسِدين ،وبلاغاً يحملُه ويصيّره الرّاكِبُ ، ويتلَقّاهُ عن الشّاهد الغائب ؛ إن شاءَ اللّهُ تعالى .

[٥]

وكتب[١] إلى الوزير المشرّف أبي بكر بن رحيم[٢] ، يهنّئه بولاية خطة الإشراف بحضرة إشبيلية وذواتها في شوال سنة خمس عشرة وخمس مئة :

إذا ماشَرَّفَ الإشْرافُ قَوماً فَإنَّ بني رَحيمٍ شَرَّفُوهُ
ومن يعرف بـهِ لهمُ قَديماً وإن رَغِمتْ أُنوفٌ عَرَّفُوهُ

---

[٥]

(١) قلائد العقيان : ١٧٩ (ووردت في الذخيرة في بعض النسخ ٢/٣) :٨٠٨

(٢) ترجم له ابن خاقان في القلائد في القسم الثاني الذي أفرده للوزراءالكتاب والبلغاء وقال فيه : (١١٤) ذو الوزارتين المشرّف أبو بكر محمد بن أحمد بن رحيم . وذكرأطرافاً من أوصافه ، ومن علاقاته الاجتماعية والإخوانية الطيبة . واختار له من شعره ما يدل على علوّ كعبه في هذا الفن .

كُفـــاةٌ للمُلـوكِ على سَبيـلٍ   ودينُ نصيحـــةٍ مـا حَرَّفُـوهُ
أبــوبكرٍ لَـــهُ ولَهُمْ كفيــلٌ   بكلِّ كِفَـــايـــةٍ إذ صَرَّفُـوهُ
ومـــا الإشْرافُ إلا عبــدُ قنٍّ   لَهُمْ فَمتى تـولّى استَصْرَفُـوه !

هذه ـ أعزَّك اللهُ ! ـ بديهةُ البُشرى ، وعُجالَةٌ كعُجالةِ القِرى ، وبريد إلى أُمّ تلك القرى ، فأنا لها بالإقبال ضَمين ، وعلى أَليَّةٍ ويَمين ، لَتحُوطَنَّها أَقْلامُك ، ولَيُحْمَدَنَّ فيها مَقامُك ، ولَتُعْرَفَنَّ بالغُرَر والحُجول أيّامك ؛ فحالفَك السَّعْد ، ولا عَدِمَك الملكُ الجَعْد ، وأَبْلِ وأَخْلِف مثلَها جدداً بعد .

وما حقٌّ مَنْ بَشَّرَ باعْتِلائك ، وسَرى بأنبائك إلى أَوْلِيائِك ، أن يُؤخّر مُراده ، ويضيعَ عَمَلُه واعتِقادُه ؟ وإن الحاجَّ أَبا عبد الله بن شقران آملُك ، الدّاعي لك ، ـ أبقاهُ الله وجَبره ـ أَشْعَرني بهذه المَسَرّة ، والدِّيمَةِ الثَّرّة .

ولقد هَمَمْتُ عَلى هذا البَرْد ، بخلع البُرْدِ وحَلّ العَقد ، وفضّ النَّقد ؛ فَدافَعني انقِباضاً ، وأَعْلَمني أنّ له في عَملك ـ أنماهُ الله ـ أغراضاً ، تكونُ على ذلك أثماناً وأعواضاً ، وأراني عقْداً يشهدُ بِعَدمه ، وصحّة ما استَحَثّه في مَقْدَمه ، وأنّه ليس له سوى غَرْسٍ قد صار عَلَيْه كلاًّ ، بل اسْتَدار في ساقَيْهِ كَبْلا ، والتَوى في عُنقه غلاًّ ، وآض له غلالاً مُغلا .

ولكَ الطَّوْلُ أن تفتح نظرك ـ وفقه الله ـ بالتخفيف على مثله من الضُّعَفاء ، ومَنْ لا قُدْرَة له على الأَدَاء ، وحَملِ الأَعْباء ، فإنّ ذلك ذِكْرٌ في العَاجِل ، وأَجْرٌ في الآجل ؛ إن شاءَ اللهُ تعالى .

[٦]

وأجابني[1] أيضاً برقعة قال فيها :

وصل من السَّيّد المُسْترِق ، والمالك المُستحِقّ ـ وصلَ اللهُ أنعُمَهُ لَديه ، كما قَصَرَ الفضلَ عَليه ـ كتابُهُ البَليغ ، واستِدْراجُه المُريغ[2] ، فلولا أنْ يَصْلدَ زندُ اقْتِداحه ، ويَرْتدَّ طَرفُ افتِتاحه ، وتنقبضَ يدُ انبساطه وتغبنَ صفقةُ اغتِباطه ، لَلزمتُ معه مركزَ قَدري ، وضنَّ بسِرّه صَدْري ؛ لكنّه بنَفثَةِ سِحرهِ يُسمِعُ الصُّمَّ ، ويَستَنْزِلُ العُصْم ، ويقتادُ الصَّعْبَ فيُصحب ، ويستِدرُّ الضَّجورَ فَتُحْلَب .

ولّما فَجأني ابتداؤُه وقَرع سَمعي نِداؤُه ، فزعتُ إلى الفِكَر ، وخَفق القَلْبُ بين الأَمنِ والحذَر ؛ فطاردت من الفِقَرِ أوابدَ قَفْر ، وشواردَ عُفْر ، تغبِّرُ في وجُوهِ سَوابقِها ، ولا يتوجَّهُ اللحاقُ لوجيهِها ولاحقِها[3] ، فعلمتُ أنّها الإهابةُ والمَهابة ، والاصابَةُ والاسْتِرابة ؛ حتّى أيأستَنْي الخَواطر ، وأخْلَفَتْنِي المَواطر ، إلا زِبْرِجاً[4] يعقب جُواداً ، وبَهْرَجاً لا يحتملُ انتقاداً .

وأنّى لِمثلي ، والقريحةُ مُرْجاة ، والبِضَاعَةُ مُزجاة ، ببراعةِ الخِطاب ،

---

[٦]

(١) المتكلم هنا أبو الحسن بن بسام صاحب الذخيرة . والنص في كتابه ٢/٣ : ٧٩٠ ـ ٧٩٢

(٢) أراغ . أراد وطلب .

(٣) الوجيه ، ولاحق ، من الخيل المشهورة عند العرب

(٤) الزِّبرجُ : السحاب الرقيق فيه حُمرة .

والجُواد : العطش أو شدته .

وبَزاعةِ[٥] الكتاب ، ولولا دورسُ معالم البيان ، واستيلاء العَفاء على هذا الشان ؛ لَمَا فازَ لِمثلي فيه قِدْح ، ولا تَحصَّلَ لي في سُوقِهِ رِبح ، ولكنّهُ جَوٌّ خال ومِضمارُ جُهّال .

وفي فصل منها : وأنا أربأ ـ أعزّك الله ـ بقدر « الذَّخيرة » عن هذه النُّتفِ الأخيرة ، وأَرى أنّها قد بلغت مَداها ، واستَوْفت حُلاها ، وإنّما أخشى القَدحَ في اخْتِيارِكَ ، والإخلالَ بِمُختارك . وعلى ذلك فوَالله ما مِن عادَتِي أن أُثبتَ ما أكْتُبُ في رسمٍ يُنْقَل ولا في وَضَعْ المَراتب عندنا مخاطب نتحفّز له ونحتفل ، وإنما هو عَفوُ فِكر ، ونَشْرُ ذِكر .

وقد وجَّهتُ من المَنْظُوم طَيّها ما حَضر ، وعُذري إليك[☆] ـ أعَزَّكَ اللهُ ـ في أَنّي خططتُ والنومُ مُغازِل ، والقُرّ مُنازِل والرّيحُ تلعبُ بالسِّراج ، وتَصولُ عليه صولَةَ الحجَّاج[٦] ، فطوراً تسدّده سِنانا ، وتارة تحرّكه لسانا ، وآونة تطويه حَبابة ، وأُخرى تَنْشُرُهُ ذُؤابة ؛ وتُقيمه إبْرَةَ لَهب ، وتعطفُهُ بُرةَ[٧] ذَهب ، أو حُمَةَ[٨] عَقْرب ، وتُقوّسُه حاجبَ فتاةٍ

---

(٥) بَزُعَ بزاعةً ، ظَرُف ومَلُح .

(☆) من هنا يبدأ ما نقله ابن سعيد في عنوان المرقصات والمطربات : ١١ . وبعض اختياره هذا في المقتطف من أزاهر الطرف .

(٦) من قول جرير في مدح الحجاج بن يوسف (ديوانه : ٩٠)
من سَدَّ مُطّلعَ النِّفاقِ عَليهم　　أم مَنْ يصولُ كصولةِ الحَجّاجِ

(٧) البُرَة . حلقة من صُفْرٍ أو غيره ـ والصُّفر : النُّحاس ـ تكون في أحده جانبي أنف المرأة للزينة ، أو أنف البعير لتذليله ، والبُرة ، كل سوار وقرط وخلخال وما أشبه ذلك !

(٨) حُمة العقرب : الإبرة التي تضرب بها .

ذاتِ غَمزات ، وتتسَلَّطُ على سَليطِـهِ[٩] ، وتزيلُـهُ عن خَليطِـه ؛ وتُخَلِّفـه نَجما ، وتردُّه رَجْما ، وتستلُّ رُوحه من ذُبالِه[١٠] ، وتُعيده إلى حاله . وربما نَصبَتْـهُ أذنَ جـواد ، ومَسَختـه حَـدَقَ جَراد ، ومَشقتـه حُروفَ بَرْقٍ بكفٍّ وَدْق[١١] ولثَّمَتْ بسناه قِنْديله ، وأَلْقَتْ عَلى أَعطَافِه مِنْديله فلاحَظَّ منـه للعَيْن ، ولا هـدايـةَ في الطِّرس لليَـدَيْن ، واللَّيْـلُ زَنجيُّ الأديم تِبْرِيُّ النجـوم ، وقـد جلَّلنَـا سـاجُـهُ ، وأغْرقتنا أمواجُـهُ ، فلا مجـالَ لِلَحْظَـة ولا تعـارف إلاّ بلَفْظَـة ، ولو نظرتْ فيـه الزَّرْقاء لاكْتَحلت[١٢] ، أو خُضِبَتْ بِهِ الشَّبيبةُ لّما نَصَلَت[١٣] والكلبُ قـد صَـافح خيْشومُهُ ذَنَبه ، وأَنكر البيتَ وطُنبَه[١٤] ، والتوى التواءَ الحُبـاب[١٥] ، واستـدارَ اسْتـدَارة الحَبـاب ، وجَلَـدَه الجَليـد ، وضَربـه الضَّريب[١٦] ، وصعَّـدَ أنفـاسَـهُ الصَّعيـد ، فحِماه مُبـاحٌ ، ولا هَريْرَ ولا نُبـاح ، والنّـارُ كالصَّـديقِ أو كالرَّحيقَ ، كلاهُما عَنْقاءُ مُغْربَ ، أو نَجْمٌ مُغَرِّب[☆] !

استُوفي ـ يا مُعتمدي ـ هذا الفَصْل ، ولكَ في الإعضاء الفَضْل !

---

(٩) السّليط : الزيت (وهو عند أهل اليمن : دهن السمسم : الشّيرج) .

(١٠) الذُّبال : جمع الذُّبالة : (الفتيل) التي تُسرج .

(١١) الودق : المطر .

(١٢) هي زرقاء اليمامة ، وكانت مشهورة بدقة النظر ، والرؤية من بُعد ، وسلف لها ذكر في هذا الكتاب (تراجع الفهارس)

(١٣) نصل الشعر زال عنه سواده (أو لونهُ) .

(١٤) من قول مرّة بن محكان (الحماسية ٦٧٥ ، شرح المرزوقي)

في ليلـة من جمـادى ذات أنـديـة　　لا يُبصر الكلبُ من ظلمـائهـا الطُّنبـا
لا ينبـحُ الكلب فيهـا غيرَ واحـدة　　حتى يلفّ على خُرطـومِـه الـذَّنَبـا

(١٥) الحُباب : نوع من الحيّات .

(١٦) الضّريب : الصقيع .

(☆) إلى هنا اختيار ابن سعيد .

[٧]

وله[1] من رسالة أخرى[☆] :

إنّي أُعَـزّيـكَ لاأنّي على ثِقَـةٍ	مِنَ البَقـاء ولكِنْ سُنَّـةُ الـدِّينِ
فَما الْمُعَـزَّى ببـاقٍ بعـدَ صَـاحِبِـهِ	ولا الْمُعَـزّي وإنْ عـاشَـا إلى حينِ

كتبتهُ وقد دهم الْمُصَابُ بـالأخت البَرّة ـ كرّم الله مثواهـا ومُنقلبهـا ، ورفَع في جَنّاته درجـاتِهـا ورُتَبَهـا ـ مـالفَح الأكبـادَ حَرُّه ، وصـدعَ الفؤادَ ذِكرُه ، ولمّا غارَ الحُزن وأنجدَ ، وصوَّب الوجْدُ وصَعّد ، أهـابَ داعي النُّهى فلَبَّيتُ ، وصدعَ زاجرُ الحِلم فانْثَنيت ، وما الجَزعُ ممّا لايُطفا ، ولا يُعَـافُ مالابُدّ من شُربه ، ويُشفق من قُرّب إلى تُربه .

هـذا وللسُّلـوان مَـذاهبُ لاتَـذْهَبُ على ذي نَظر ، ولا تَغيب على ذِي تأمّلٍ وتَـدبُّر ، أولهـا التّسليمُ للقـدرِ المحتُوم ، والثقـة بـالعِوَض الكريم ، إلى مالا يخفى موضِعُهُ ، ولا يُجهل من النفوسِ موقِعُـه ، من فضْلِ اللهِ تعـالى في بقاء فُلان الذي هو رأسُ المال ، وجماعُ الآمـال ، ومـا زالتْ للهِ مع كُلّ مِحنةٍ مِنحـةٌ تُقـاوِمُهـا ، ومنّـةٌ تلازِمُهـا ، حكمَةٌ منـهُ بـالغـةٌ تسكن إليهـا القُلوب ، ويرجعُ معها الصَّبرُ وَيَثُوب .

وأنتَ ـ أيَّـدك الله ـ فوقَ أن تُنبَّـه بوعـظ ، إلى مكان حـظّ ، وأَرحَبُ

---

[٧]

(☆) من رسالة في التعزية في سيّدة .

(١) الذخيرة ٢/٣ : ٧٩٨ .

بالنّوازل ذِراعاً ، وأكثر عن الأجر ذَبًّا ودِفاعاً ؛ لكنْ ناجيتُ مُسترِيحا ، وذكَّرتُ تلويحاً .

واللهُ يجعلها آخِرَ الرّزايا ، ويحرسُ الأَولياء والوَلايا بِمَنّه .

[٨]

مِنْ رُقْعَةِ تَعْزِيَة(☆) :

أطال الله بقاء الأَمير مُؤيّداً اعْتِزَامُه ، مُسَدَّدَةً إلى أَغْراضِه سِهَامُه ، نائمَةً عنهُ النُّوَب ، سامِيةً بِهِ الرُّتَبُ ، ولا زالت الرَّزايا تتخَطَّاهُ ، والحوادثُ تَهابُه وتتحَامَاه .

الأَميرُ الجليلُ أيَّده اللهُ مِمّن آتاهُ اللهُ أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ(١) ، وجَمع لَهُ بين الدَّارَيْن : جِهادٌ في سبيلِهِ مَبْرُورٌ ، وأجْرٌ بجميلِ صَبْره مَوْفُور . ومثله تَقلّد نجادَ السَّعْدِ مُثَنّى ، ووردَتْ عليهِ الصّالحاتُ مَثْنى ، فكلٌّ لَهُ في كِلْتَيْهِا غابِطٌ ، ولكلتا يَدَيْه باسِط ، في انفِسَاح عُمره ، وانشِرَاح صَدْرِه ، وتأييد صَبْرِه ، وما أَلامَ(٢) دَهْرٌ تحَاماهُ ، ولا أَلَمّ رُزءٌ تخطّاه !

---

[٨]

(☆) الذخيرة ٣/٢ : ٧٩٨ .

(١) اقتباس قرآني . انظر : القصص : ٥٤ والأحزاب : ٣١ .

(٢) ألام فلان : أتى بما يُلامُ عليه .

[٩]

ولَهُ مِنْ أُخْرى[☆] :

يا سيّدي الأَعْلى ، وظَهيري لِخَطْبٍ إن تَجَلّى ، نداءَ مَنْ قامَ شاهِدُهُ في المَوَدّة وبُرهانه ، واسْتَوى في مُوالاتك إسرارُهُ وإعلانُهُ ؛ دُمْتَ مقتبلَ الجَدّ ، وارِيَ الزَّنْد ، مُسْتَقِلاًّ بأعباء السّيادة والمَجْد ، في المحلّ النَّجْد ، والطّالعِ السَّعد .

كتبتُ هذه الحُروف ذاهباً مَذْهَبَ الإيجاز ، وراغِباً مع الحَقيقة عن المَجاز ، فَعِبْءُ الإطْراءِ ثَقيل ، ومَرْكَبُ الاسترسالِ نَبيل ، وشاهِدي منكَ حاضِرٌ ، وإليكَ في كُلّ الأَحوالِ ناظِر ، ومُوصلُه (فلان) ، الواثقُ بفَضْلِك في ما يُنهيه إليكَ ، ويُورِدُه عَليك ، ويَستظهر فيه بِسَعْيِك الحَميد ، ويَستَنْجِحُ بِرأيك الأَصيل السَّديد .

وأنت لا تَألُوه بسَرْوِكَ نُصحاً ، ولمبهمِ أَبْوابِه فَتْحاً ، وهو في تَفْضيْلكَ أُمّةٌ لا يُثْنى ولا يُصَدُّ ، وما قالَ إلاَّ بالذي عَلِمَتْ سعد[١] .

---

[٩]

(☆) في شفاعة

(١) من قول الحطيئة (ديوانه)

وتعذلني أفناءُ سعدٍ عليهم ... وما قلتُ إلا بالذي علمتْ سَعْدُ !

[١٠]

وله من أخرى(☆)

أطـالَ اللهُ بقـاءَك ومقـاليـدُ المَجْـدِ تُلْقى إلَيْـك ، ووفودُ الحَمْـد وَقْفٌ عَليـك ، وأَزِمَّـةُ الفَضْل في يَـديـك ، ولا زِلْتَ للمُبهمات فـارِجـاً ، ولِسُبل المَكْرُمات ناهِجاً ، ناهضاً بالبَزْلاء[١] صَبُوراً على العَزّاء[٢] .

كتبتُ والأحوالُ التي استَطْلَعَها اهتِبَالُك ، واستَهْدى عِلْمَها إجمالُـك ، في رَيعان ظُهورها ، وشَرْخِ شبَاب نورها ، واللهُ ـ بفضله ـ يعيـذنـا فيهـا من عَيْن الكمـال ، ويُـديمُ لنـا حـالَ الاستواءِ والاعْتِـدَال . وإن الخطـاب الكريم نَجْرُهُ ، المنير فَجْرُهُ ، الذكي نَشْرُه ، وافى قريبـاً بـالسّيـادة عَهْـدُه ، مطرّزاً بالبَلاغة بُرْدُهُ ، فورَدْتُ منه مَعيناً ، واجتليْتُ بهِ من البيَان سِحْراً مُبيناً ، ومثلُك أهْدى مِثْلَهُ ، ووالَى فَضْلَـهُ ، وتـابَع بَـذْلَـه ، وأَتْبَعَ دَلْوَهُ في السَّماح رشاءَها ، وسَما إلى هِمَمِ أملاكٍ جُعِلَ إزاءَها .

واللهُ لا يُعْدِمُني الأُنسَ طالعاً من أُفقـك ، والـدُّنيـا تَجري في وَفْقِـك ،

[١٠]

(☆) الذخيرة ٣/٢ : ٨٠٠

(١) البَزلاء : الرأي الجيّد أو الداهية العظيمة ، قال الشاعر

إني إذا شَغَلت قـــومـــــــاً فروجهمُ رحبُ المســالــكِ نَهّــاضٌ بِبَــزْلاءِ !

(فصل المقال للبكري ١٤٧)

(٢) العَزّاء : الصبر والتأسّي عن كل ما فقد المرء .

ولا زالَتْ قِداحُكَ فائزةً ، وأحْكامُكَ جائزة ، وحُظوظُك لكلّ أمنيةٍ حَائِزة .

[١١]

ولَمّا[١] نُكِبَ الوزير أبو مُحَمّد بن القَاسِم[٢] النّكبةَ التي أنبأت بتعذُّرِ الأوْطار ، لذوي الأخطار ، وأعْلنت بِكسَاد الفَضائِل والمعَالي ، واستئثار[٣] الوضيعِ على المَاجِد العَالي ، لأنّهُ كانَ طود كال ، وبحرَ إجمال ، وناظِمَ خِلالَ ، وعالِم جَلال ، وحين ثَلَّ الدّهرُ عَرْشَه ، وأحلّ سِواهُ فَرْشه خاطبَهُ كُلُّ زَعيمٍ مُسَلّياً عن نكْبَتِه ، وانتِقَالِه من رُتْبَتِه ، فكتَب إليه [هو في جُملة مَنْ كتَب ، وإنْ كانَ نازِلاً عن تِلك الرُّتَب][٤] بِرُقعةٍ مُسْتَبْدَعة وهي :

مثْلُك - ثبتَّ اللهُ فُؤادَك ، وخَففّ عن كاهِلِ المَكارِم

---

[١١]

(١) القلائد : ١٨٧ (والذخيرة ٢/٣ : ٨٠٦) .

(٢) أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن القاسم الفهري ، لقبه في المغرب بالأمير ، وهؤلاء هم أصحاب حصن البونت ، من أمراء دول الطوائف . وكان هشام المعتدّ قد لجأ إلى جدّه أبي محمد بن القاسم . وقد انتهت دولتهم سنة ٤٨٥ حين أنهى يوسف بن تاشفين معظم دول الطوائف . قال ابن سعيد : ومنه أخذ هذا الحصن (حصن البونت) أمير الملثّمين يوسف بن تاشفين .

(المغرب ٢ : ٣٩٥ . وقلائد العقيان : ١٢٧ . والبيان المغرب ٣ : ٢١٥ . وأعمال الأعلام : ٢٠٨)

(٣) في الذخيرة : واستئسادِ النَّدل .

(٤) هذه العبارة ليست في الذخيرة وثبتت في القلائد . وهي غريبة على مجرى الكلام : لقوله : رقعة مستبدعة . على أن لسان ابن خاقان كان شديداً . وله سابقة مثلها عن ابن أبي الخصال .

ما هاضك[5] وآدَك ، « يلقى دَهْرَه غير مُكْتَرِث[6] » ، وينازله بصبرٍ غيرِ مُنتكث ، ويبسِمُ عندَ قُطوبه ، ويفّل شَباةَ خُطوبه ، فما هي إلا غَمْرَةٌ ثم تَنْجَلِي ،[7] وخَطْرَةٌ يليها من الصُّنع الجميل ما يَلي . لا جَرَمْ ! إن الحُرَّ حَيثَ كان حُرّ ، وإن الدُّرَّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَه دُرّ . وهل كنتُ إلا حساماً انْتَضاه ، قدَرٌ أمضاه ، وساعِدٌ ارْتَضاهُ ؛ فإن أَغمده فقد قضَى ما عَلَيْه ، وإن جَرّده فذلك إلَيْه . أما إنّهُ ما تثلّمَ حَدُّه ، ولَبِسَ جَوْهَرَ الفِرَنْد خَدُّه . لا يَعْدِمُ طَبناً يَشْتَرِطُه[8] ، ويَميناً يَخترطه ، هذه الصَّمصامة[9] ، تقوم على ذِكرها القيامة ، طبّقت البلاد أخْبَارُه ، وقامَت مقامَهُ في كُلّ أُفق آثارُه . فأمّا حامِلُه فَنِسْيٌ مَنْسِيّ ، وعَدمٌ مَنهيّ ، كلاّ ! لقد فَنيت الحَقائق ، وأُنهيت تلكَ العَلائق ، فلم يصحَبْهُ غيرُ غِرار ومَتْنٌ عارٍ ؛ وكِلاهُما بالغٌ ما بَلغ ، ووالغٌ مَعه في الدّماء أيَّ وَلغ . وما الحُسْنُ إلا المُجَرّدُ العُريان ، وما الصُّبْحُ إلا الطَّلْقُ الأضحيان ، وما النُّور إلا ما صادَم الظَّلام ، ولا النَّوْرُ إلا ما فارَق الكِمام ، وما ذَهب ذاهِبٌ ، أجْزَل مِنهُ العِوضَ واهِب . ولئن قَضى حَقّ المُساهمة في هذه الحال الّتي الْتوى عَرْضُها ، وتأخّرَ

(٥) هاضه : كسره بعد الجبُور .

(٦) من قول أبي الطيب المتنبي (ديوانه بشرح الواحدي ٦٦٨)
لا تَلْقَ دهركَ إلا غير مُكْترثٍ ... مادام يصحبُ فيه روحَك البَدنُ

(٧) من المثل : (غمراتٌ ثم تنجلي ، وأول من قاله الأغلب العجلي ، وفي رسالة ابن زيدون (الجدّية) : « وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبةُ سحابةُ صيف عن قليل تقشّعُ » . تمام المتون : ٧٤ ـ ٧٥ .

(٨) الطَّبنُ : الفطن .

(٩) الصَّمصامة : سيف عمرو بن معدي كرب ، أشهر سيوف العرب

للأَعْـذار القـاطعَـةِ فَرْضُهـا ، أَسَفٌ يُرَدّد ، وارْتِمَاضٌ يُجـدّد ، وذنوبٌ على الأَيّام تحْصى وتُعَدَّد ، وحُبا اللّئام منها تُحَلُّ وتُعْقَـد ؛ فَيَعْلَمُ اللهُ عَزّ وَجهـهُ لقَـد استَـوفيتُ فيـك هـذهِ الاقسْـام[10] ؛ ونَهيتُ فيـك حتّى المُـزْنَ عن الابتِسام ![11]

[١٢]

وله[☆] أيضاً[1] :

ـ أَيَّـدك اللهُ ـ لَيست الأذنـابُ كالأَعراف ، ولا الأَنْـذالُ كالأَشراف ولا كُلّ أَشْرافٍ بأَشْراف ! ؛ فثَمّ من يَصمُ ما وَلي ، ويَعْمى عن الصُّبح وقـد جُلي ، وإن ذكّر نَسِي ، وإن عُـذِل فَكأَنّما أُغْرِي ، وكثِيراً مـا يمْتَـدُّ شَططـه فَتُحذَف نُقَطُـه ، ويُهْجَر نَمطُـه ؛ وإن سـامَحْنـاهُ في الضَّبْـط ، وأَمْتَعْنـاه بالنَّقْط ، نبَذ الوَفاء ، فَحَذَفْنا الفَـاء ، وجَفـا الكريمُ ، فـأَلْغَيْنـا الميم ، ولَـهُ

---

(١٠) في القـلائـد : (هـذه الأيـام ، ونهيت فيـه) وفي الـذخيرة : (فيـه هـذه الأقسـام ونهيت ... الخ) . قرأتها كما ترى .

(١١) من قول أبي العلاء المعّري (سقط الزند : ٩٠٧)

نقمت الرضى حتى على ضاحـك المُـزْن فـلا جـادَني إلا عبـوسٌ من الـدَّجْنِ !

[١٢]

(☆) النص في القلائد : ١٨٦ . وفي الذخيرة ٣ /٢ : ٨٠٧ ـ ٨٠٨

(١) من رسالة في وصيّة إلى صديق يتولّى ولاية أو يدبّر مهمة يتوسط لرجل من الأشراف يكنى أبا بكر . وكان هذا الرجل قد بعث برسالة مع آخر يحملها إلى صاحب الولاية . ومع رسالته هذه الوساطة من ابن أبي الخصال .

بَعْدَ ماأُلغِيَ ، مابَقي[٢] ، وان أَشْرَف فعَلى الخَطِير العَظيم ، وان اطَّلَع ففي سَواءِ الجَحِيم . ورُبّ طويلِ النِّجادِ غَريقٍ في الإتْهامِ والإنجاد : ولا يَته أَمان ، وعَملُه جَنان ، وخُلقُه رِضوان ؛ تودُّ النجومُ أن ينظمَها في كتاب أو يَنسقها نسقَ حِساب ، ارْتَقى بِخُطّته باذخَ السَّناء وأَخَذ بضَبْعِها رافِعاً إلى السَّماء . فهناك ـ وأنت ذاك ـ طابَ بالجَنى ، ودنَت المُنى ، وأَيْقَن الشَّرَفُ أنّه في حَرمٍ وحِمى . أُقسم بالمُبتسم البارِد ، والحَبيب الوَارِدِ ، قسَماً تَبْقى على الشَّيْب جِدَّتُه ، ويعزُّ على المَشِيب جِدَّتُه ، ذِكرى من ذلك العَهْد مُدّت بسببه ، ومَتَّت إلى القَلْب بِنَسبه ، ليَحْنُونَّ على الكِرام ، وليَجْتَرِ أنّ على الأَنام ، وليأخُذَنَّ فوقَ أَيْديها ، ولَيكُفّنَّ مِن تعَدّيها . مالَهمُ تنحت أَثَلاتِهم ، وتَسِمُهم بغير سماتِهم ، وتَصِفُهم بصفاتِهم وتَعُلّهم بعَلاّتِهم ؟ فأينَ أنتَ مِن الذَّبِّ ، وسنامٍ قد استُؤصل بالجَبّ ، وكيف ارْتياحُك بغير خَمْرٍ إن دارَتْ ، لمكرمةٍ كالشَّمْسِ أَ شْرَقتْ وأَنارَتْ ، لا جَرمْ ! إنك منها على ذِكْر ، وبمَدْرَجةِ حمدٍ وشُكر ، وما هو إلا الشّريفُ الأَوحَدُ ،ومن لا يُنكَرُ فضْلُه ولا يُجحَد ، أَبو بكر ـ أعَزّهُ الله ـ وناهِيكَ ثَناءً ، وحَسْبُك عَلاءً وسَناء ، فتىً دُهِي في ضَيْعَتِه هناكَ بِدَواه ، ورُمي بخطوبٍ غير رُيوثٍ ولا سَوَاه . ورَأيك أصابَ اللهُ برأيك ، وجَبَرَ الأَوْلياء بِسَعْيك ، في تحصينِ مُراعاته وترفيهِه ومُحاشاته . ولولا عُذْرٌ مَنع ، لكانَ على أُفقك بالنَّيِّرُ قد طَلع ، ولكنّهُ اسْتَناب فلاناً ، وحَسْبُه أن يودّي كتاباً ، ويَقْتضِي جَواباً ، ويتصَرَّف على حُكمك جيئة وذهابا .

---

(٢) في القلائد : بعدما بقي ماأبقي . والمثبت من الذخيرة .

[١٣]

مِعْرَاجُ المَناقب ومِنْهَاجُ الحَسَبِ الثَّاقِب(☆)

إلَيْـــكَ فَهَمِّي وَالفُــؤادُ بيَثْرِبِ ۞ وَإنْ عاقَني عَنْ مَطْلَعِ الوَحْي مَغْرِبي[1]

أُعلِّلُ بـالآمـال نَفْسـاً أَغُرُّهـا ۞ بِتَقْديمِ غـايـاتي وَتَـأْخيرِ مَـذْهَبي

---

[١٣]

(☆) قال صاحب الاكتفا : « ... قصيدة فريدة مفيدة ، لأبي عبد الله بن أبي الخصال ، خاتمة رؤساء الآداب والعلماء المبرزين في هذا الباب ، سمّاها معراج المناقب ، ومنهاج الحسب الثاقب ، في ذكر نسب رسول الله ﷺ ومعجزاته ومناقب أصحابه ... وقد رأيت أن أُورد منها هنا ما يختصّ بهذا النسب الكريم على اختصار ... » .

وقد أورد ابنُ أبي الخِصال نسب رسول الله ﷺ إلى عَدْنان .

ثم استرسل مُجارياً بعض الرواة في رفع النسب إلى آدم عليه السلام وهو لا يصحّ ـ كما نبّه الكاتب في أواخر قصيدته هذه . وقال ابن حَزْم « ليس على ظهر الأرض أحدٌ يصل نسبه بصلةٍ قاطعة ونقل ثابت إلى إسماعيل ولا إسحاق عليهما السلام (يعني ابْنَيْ إبراهيم خليل الله ﷺ) فكيف إلى نوح ؟ فكيف إلى آدم عليهما السلام ؟. هذا ما لا مِرْية فيه » . (جمهرة أنساب العرب : ٨)

ونسبه إلى عدنان هو : أنه ﷺ : « محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب (واسمه شيبة) بن هاشم (واسمه عمرو) بن عبد مناف (واسمُه المغيرة) بن قصيّ (واسمه زيد) بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (واسمُه قريش ، وقيل بل فهر اسمه) بن مالك بن النضر (واسمه قيس) بن كنانة بن خُزَيمة بن مُدركة (واسم مدركة عامر) بن إلياس بن مُضر بن نزار بن معدّ بن عدنان .

(١) يقول : « عاقني » لِبُعد ما بين المشرق والمغرب ، وضيق دائرة الاستطاعة بالقياس إلى من قربت دارُه .

وَدَيْني عَلى الأَيــامِ زَوْرَةُ أَحْمَــدٍ ... فَهَلْ يَنْقَضي دَيْني وَيَقْرُبُ مَطْلَبي

وَهَلْ أَرِدَنْ فَضْلَ الرَّسولِ بِطَيْبَةٍ ... فَيا بَرْدَ أَحْشائِي وَيا طِيبَ مَشْرَبي[٢]

وَهَلْ فَضَلَتْ مِنْ مَرْكَبِ العُمْرِ فَضْلَةٌ ... تُبَلِّغُني أَمْ لا بَــــلاغَ لِمَرْكَبِ

أَلا لَيْتَ زادي شَرْبَةٌ مِنْ مِياهِهَـا ... وَهَـلْ مِثْلُها رَيًّـا لِغُلَّـةِ مُـذْنِبِ

وَيـا لَيْتَني فيهــا إِلى اللهِ صـائِرٌ ... وَقَلْبي عَنِ الإِيْمانِ غَيْرُ مُقَلَّبِ

وَإِنَّ ٱمْرَأً وارَى البَقيـعُ عِظَـامَـهُ ... لَفي زُمْرَةٍ تُلْقَى بِسَهْـلٍ وَمَرْحَبِ

وَفي ذِمَّـــةٍ مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الثَّرى ... وَمَنْ يَعْتَلِقْـهُ حَبْلُــه لا يُعَــذَّبِ

وَمــالِيَ لا أَشْرِي الجِنَـانَ بِعَـزْمَـةٍ ... يَهونُ عَلَيْها كُلُّ طامٍ وَسَبْسَبِ[٣]

وَمـاذا الَّــذي يَثْنِي عِنَـاني وَإِنَّني ... لَجَــوَّابُ آفـــاقٍ كَثيرُ التَّقَلُّبِ

أَفَقْرٌ ؟ فَفي كَفِّيَّ للهِ نِعْمَـــــةٌ ... وبَيْنٌ ؟ فَقَدْ فارَقْتُ قَبْلُ بَني أَبي[٤]

وَقَدْ مَرَنَتْ نَفْسي عَلَى البُعْدِ وَٱنْطَوَتْ ... عَلى مَثْلِ حَـدِّ السَّمهَرِيِّ المُـذَرَّبِ

وَكَمْ غُرْبَـةٍ في غَيْرِ حَقٍّ قَطَعْتُهـا ... فَهَــلاَّ لِـــذَاتِ اللهِ كانَ تَغَرُّبي

وَكَمْ فـازَ دُوني بِـالَّـذي رُمْتُ فـائِزٌ ... وَأَخْطَـأَني مـا نـالَـهُ مِنْ تَغَرُّبِ[٥]

أَراهُ وَأَهْــوى فِعلَــةَ البِرِّ قــاعِـداً ... فَيــا قَعْــدِيَّ البِرِّ قُمْ وَتَلَبَّبِ[٦]

---

(٢) طيبة من أسماء المدينة المنوّرة .

(٣) طام اسم فاعل من طما الماء ، ويعني به البحر . والسبسب : المفازة أو الأرض المستوية البعيدة .

(٤) يشير إلى خروجه عن الأندلس إلى المغرب .

(٥) لأن ذلك تغرّب في ذات الإله ، وسعياً إلى طاعته تعالى .

(٦) أي هو يقول بـالبرّ ـ على ألاّ يكونَ في الرحلة مشقة الانتقال ـ يلومُ نفسه . ومعنى تلبّب : تشمّر (للأمر) .

أمانيُّ قَدْ أفْنى الشَّبابَ ٱنتِظارُها وَكَيْفَ بِما أَعْيى الشَّبابَ لأَشْيَبِ

وَقَدْ كُنْتُ أَسْري في الظَّلام بِأدهَمٍ فَها أَنا أَغْدو في الصَّباحِ بِأشْهبِ[(٧)]

فَمَنْ لي وَأَنَّى لي بريحٍ تَحُطُّني إلى ذرْوَةِ البَيْتِ الرَّفيعِ المُطَنَّبِ[(٨)]

إلى الهاشِمِيِّ الأَبْطحِيِّ مُحَمَّدٍ إلى خاتَمِ الرُّسْلِ المَكينِ المُقَرَّبِ[(٩)]

إلى صُفْوَةِ اللهِ الأمينِ لِوَحْيِهِ أَبي القاسِمِ الهادي إلى خيْرِ مَشْعَبِ[(١٠)]

إلى ٱبْنِ الذَّبيحَيْنِ الَّذي صِيْغَ مَجْدُهُ وَلَمَّا تُصَغْ شَمْسٌ وَلا بَدْرُ غَيْهَبِ[(١١)]

إلى المُنْتَقى مِنْ عَهْدِ آدمَ في الذُّرَى يرَدَّدُ في سِرِّ الصَّريحِ المُهَذَّبِ

إلى مَنْ تَوَلَّى اللهُ تَطْهيرَ بَيْتِهِ وَعِصْمَتَهُ مِنْ كُلِّ عيصٍ مُؤَشَّبِ[(١٢)]

فَجاءَ بَرِيءَ العِرضِ مَنْ كُلِّ وَصْمَةٍ فَما شِئْتَ مَنْ أُمٍّ حَصَانٍ وَمِنْ أَبِ

كَرَوْضِ الرُّبا كالشَّمْسِ في رَوْنَقِ الضُّحى كَناشِىءِ ماءِ المُزْنِ قَبْلَ التَّصَوُّبِ[(١٣)]

---

(٧) الأَدهم والأَشهب في الأَصل صفتان من صفات الفرس استعارهما الشاعر للشباب والشعر أسود (أدهم) : وللكهولة أو الشيخوخة والشعر قد داخله البياض (أشهب) .

(٨) المطنب : ذو الطنب .

(٩) يقال لرسول الله ﷺ : الأَبطحي لأَنه من ولد عبد مناف ، وكان يقال لعبد المطلب : سيّد الأَباطح . وذلك نسبة إلى الأَبطح بمكة شرّفها الله تعالى . وقريش فريقان قريش البطاح وقريش الظواهر (البطاح نسبة إلى بطحاء مكة) . ـ الروّض :٧ ـ

(١٠) المشعب : الطريق .

(١١) الغيهب : الظلام .

(١٢) العيص : الأَصل . والمؤشّب ، المختلط (فهو خيار من خيار من خيار) .

(١٣) تصوّب السَّحاب : أسفَّ . وتصوّبَ : انحدرَ وجاءَ من عل .

عَلَيْــــهِ مِنَ الرَّحْمَنِ عَيْنُ كَـلاءَةٍ … تُجَنِّبُـــــهُ إِلْمامَ كُـــلِّ مُجَنَّبِ[14]
إذا أَعْرَضَتْ أَعْراقُـــهُ عَنْ قَبيلَـــةٍ … فَما أَعْرَضَتْ إِلاَّ لأَمْرٍ مُغَيَّبِ
وَمـا عَبَرَتْ إِلاَّ عَلى مَسْلَكِ الهُـدَى … وَلا عَثَرَتْ إِلاَّ عَلى كُـــلِّ طَيِّبِ
فَمَنْ مِثْلُ عَبْدِ اللهِ خَيْرِ لِـدَاتِـهِ … وَآمِنَـــةٍ في خَيْرِ ضَنْءٍ وَمَنْصِبِ[15]
إذا اتَّصَلَتْ جـاءَتْـكَ أَوْلادُ زُهْرَةٍ … كَأُسْدِ الشَّرى مِنْ كُلِّ أَشْوَسَ أَغْلَبِ[16]
وَلا خالَ إِلاَّ دُونَ سَعْدِ بْنِ مـالِـكٍ … وَلَــوْ كانَ في عُلْيَـا مَعَـدٍّ وَيَعْرُبِ
وَمَنْ ذا لَهُ جَدٌّ كَشَيْبَـةَ ذي النَّـدى … وَساقي الحَجيجِ بِيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبِ[17]
لَـهُ سُؤْدَدُ البَطْحـاءِ غَيْرَ مُـدافَعٍ … وَحَوْمَةُ ما بَيْنَ الصَّفـا وَالمُحَصَّبِ[18]
أَبو الحارِثِ السَّامِي إِلى كُلِّ ذِرْوَةٍ … يُقَصِّرُ عَنْ إِدْراكِهـا كُـلُّ كَـوْكَبِ
بِــهِ وَبِمـا في بُرْدِهِ مِنْ أَمـانَـةٍ … حَمَى اللهُ ذاكَ البَيْتَ مِنْ كُلِّ مُرْهِبِ
وَأَهْلَكَ بِـالطَّيْرِ الأَبابيلِ جَمْعَهُمْ … فَيــالَهُمُ مِنْ عــارِضٍ غَيْرِ خُلَّبِ
وَفيما رَآهُ شَيْبَـــةُ الحَمْـــدِ آيَـــةٌ … تَلُـوحُ لِعَيْنِ النَّـاظِرِ المُتَعَجِّبِ[19]
وَفي ضَرْبِـهِ عِنْـدَ القِـدَاحِ مُرَوَّعـاً … وَمَنْ يُرْمَ بَيْنَ العَيْنِ وَالأَنْفِ يَرْهَبِ[20]

---

(١٤) الكلاءة : الرعاية .

(١٥) الضّنء : الأَصل .

(١٦) بنو زهرة قوم آمنة أم النبي ﷺ .

(١٧) شيبة بن هاشم بن عبد مناف ، وعُرف بـ (عبد المطّلب) .

(١٨) الصَّفا في قوله تعالى : ﴿ إنَّ الصَّفا والمَرْوة مِن شَعَائِر اللهِ ﴾ وهو في أصل جبل أَبي قبيس بمكة المكرمة .
ـ والمحصّب : بمكّة (مأخوذٌ من الحصباء) .

(١٩) كان يقال لعبد المطلب : شيبة الحمد ؛ لنور وجهه .

(٢٠) خبر ضرب القداح في السيرة النبوية (١ : ١٥٢) ؛ وإنما ضرب القداح ليعرف من =

وَمـا زالَ يَرْمِيَ والسِّهـامُ تُصيبُـهُ إلى أَنْ وَقَتْـهُ الكُومُ مِنْ نسْلِ أرْحَبِ[21]

وَكانـوا أُنـــاســاً كُلَّما أَمَّهُمْ أَذىً تَكَشَّفَ عَنْ صُنْـعٍ مِنَ اللهِ مُعْجِبِ

وَعاشَ بَنُو الحاجَاتِ مِنْهُمْ وَأَخْصَبوا وَ إنْ أَصْبَحـوا في مَنْـزِلٍ غَيْرِ مُخْصِبِ

وَعَمْرُو المَعـالي هـاشِمٌ وَثَرِيُّهـا بِمَكَّـةَ يَـدْعو كُلَّ أَغْبَرَ مُجْـدِبِ[22]

بِمَثْنى جِفَـانٍ كالجَـوابِ مُنيخَـةٍ مُلِئْنَ عَبيْطـاتِ السَّنَامِ المُرَعَّبِ[23]

هُـوَ السَّيِّـدُ المَتْبُـوعُ وَالقَمَرُ الَّـذي عَلى صَفْحَتَيْهِ في الرِّضا مـاءُ مُـذْهَبِ

بَنَى اللهُ لِـلإِسْـلامِ عِـزّاً بِصِهْرِهِ إلى مُنْتَهى الأَحْياءِ مِنْ آلِ يَثْرِبِ[24]

وَعَبْـدُ مُنـافٍ دَوْحَـةُ الشَّرَفِ الَّتي تفرَّعَ مِنْهـا كُـلُّ أَرْوَعَ مِحْرَبِ[25]

مُطـاعُ قُرَيشٍ والكَفيـلُ بِعَـزْمِهـا ومـانِعُهـا من كُـلِّ ضَيْمٍ ومَنْهَبِ

وزيدٌ ومَنْ زيدٌ ؟ قُصَيّ بنُ مُجْمِع سَمِعْتَ وبُلِّغْنا وحَسْبُكَ فاذْهَبِ[26]

= سيذبح من بنيه وفاء لنذر قديم : لو رزق بعشرة أبناء ذبح أحدهم .. الخ الخبر .

(٢١) أَرحب فحل مشهور قديم ، ونسله من خير نسل الإبل . والكوم جمع الكوماء وهي الناقة العظيمة السَّنام .

(٢٢) هاشم اسمه عمرو بن عبد مناف . ويقال له هاشم لأَنه أول من هشم الثريد لقومه قال الشاعر :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكّة مُسنتون عجافُ !

الأغبر المجدب من صفة الذي أَدركه الجوع والقحط .

(٢٣) الجوابي جمع الجابية : الحوضُ العظيم الجامع للماء .

(٢٤) قال ابن هشام : أُم عبد المطّلب بن هاشم سلمى بنت عمرو النجّارية ، فهذه هي الخؤولة التي ذكرها ابن إسحاق لرسول الله ﷺ في بني عدي بن النجار .

(٢٥) رجل محربٌ وحرابٌ : خبير بالحرب شُجاع .

(٢٦) زيد هو اسم قُصَيّ بن كلاب . وسَمّته قُريش مُجَمّعاً لِمَا جَمع من أمرها (السيرة النبوية ١ : ١٢٥) .

به اجتمعتْ أَحيـاءُ فِهرٍ وأَحْرزَت ... تُراثَ أَبيهـا دونَ كُـلّ مُـذَبْـذَب

وأصبـحَ حُكْمُ اللهِ في آلِ بَيْتِـــــه ... فَهُمْ حَوْلَهُ من سـادِنيْنَ وحُجَّب[27]

ومـا أَسلَمَتْـهُ عن تَراخٍ خُـزاعَـةٌ ... ولكنْ كَما عَضّ الهِنـاءُ بـأَجْرَب ![28]

ولاذَتْ قُرَيْشٌ مِن كـلابِ بنِ مُرّةٍ ... بجذْلِ حِكاكٍ أو بعِـذْقٍ مُرَجَّب[29]

ومُرَّةُ ذُو نَفْسٍ لـــدى الحرب مُرّةٍ ... وفي السِّلْمِ نَفْسُ الصَّرْخَديّ المُذَوَّب[30]

وكَعْبٌ عقيـدُ الجُـود والحِلمِ وَالنُّهى ... وذُوالحِكَم الغُرّ المُبَشّر بـــــالنَّبي

خطيبُ لُـؤَيّ واللـواءُ بكَفّـــــه ... لِخُطْبَـةِ نـادٍ أَو لِخطَّـة مِقْنَب[31]

وأوّل من سمّى العَرُوبـــة جُمْعَـــةً ... وصَدَّر(أَمّـا بَعْـدُ) يَلْحى و يَطَّبِي[32]

---

(٢٧) السَّادن من كانت مهمّته السّدانة وهي خدمة الكعبة ، والقيام بخدمة بيوت الأَصنام قبل الإسلام ، والمقصود هنا الكعبة المشرّفة .

(٢٨) الهِناءُ : القطران يُطلى به الجَرَب .

(٢٩) هـذا الشطر منظوم من قول الحبـاب بن المنـذر : « أنـا جُـذَيلها المُحَكّك وعُـذَيْقُها المُرَجَّب » العُذَيق تصغير العَذْق وهي النخلة ، والترجيب : إرفـادُ النخلـة من جـانب ليمنعهـا من السقوط (أي إن لي عشيرة تَعضـدني وتمنعني وترفـدني) . والجـذل : أصل الشجرة ، والجربة من الإبل تحتكّ إلى الجـذل فتشتفي بـه (عنى أنـه يُشتفى برأيـه كما تشتفي الإبلُ بهذا الجذل الذي تحتك إليه ...) .

ـ ينظر السيرة النبوية (حديث السقيفة ٢ : ٦٥٩) واللسان (ج ذ ل) و (ح ك ك) .

(٣٠) الصّرخدي الشراب (وهو منسوب إلى صَرْخد) .

(٣١) المَقْنب : الجماعة من الجيش .

(٣٢) يلحى : يَلُوم . ويطّبي : يستميـل . قـال السُّهيلي في الرّوض الأُنف : كعب بن لـؤي أول من جمّع يـوم العَرُوبـة . وفي اللسـان عن ثعلب أنّ أول من قـال : (أمّـا بعـد) كعب بن لؤي .

وأرّخ آلُ اللهِ دَهْراً بِمَـوْتِـهِ ... سِنين سُدًى يُتْعِبْنَ كَفَّ الْمُحَسِّب[٣٣]

وأضحى لؤيٌّ غـالبـاً كُـلَّ مـاجـدٍ ... ومَنْ غـالِبٌ يَنْمِيْـه للمجـدِ يغلِب

وفِهْرٌ أَبُـو الأَحيـاء جـامعُ شَمْلِهـا ... وكاسِبُهـا من فخرهِ خَيْر مَكْسَب

تَقرَّشَ فـامْتـازَتْ قريشٌ بفضْلِـه ... وسـدّ فسَـدُّوا خَلّـة الْمُتـأَوِّب[٣٤]

وغـادره اسْماً في الكتـاب مُنَـزّلاً ... يَمُرَّ بـه في آيـةِ كُـلُّ مُعْرِب[٣٥]

ومـالـك الْمُرْبي عَلى كُـلّ مـالـكٍ ... فتَى النَّضْرِ حـابَتْـهُ السّيـادَةُ بَلْ حُبي

هو اللّيْثُ في الهَيْجاء والغَيْثُ في النَّدى ... وبدرُ الدّياجي حين يَسْري و يَحْتَبي

تردّى بفضفاضٍ على المَجْـدِ نَسْجُـهُ ... وليسَ عَلَيْـهِ فَلْيَجُرّ و يَسْحَب

وللنَّضْرِ يـا للنَّضْرِ من كُـلِّ مَشْهَـدٍ ... هو الشَّمْسُ صَعَّدْ في سَناهـا وصَوِّب[٣٦]

وأَعْرِضْ ببحرٍ من كنـانَـةَ زاخِرٍ ... يُسـاق إلى أمْواجِـه كُلّ مِـذْنَب[٣٧]

وخُيِّرَ حُكْماً في الصَّهيـل أَو الرُّغـا ... أَو البَيْتِ أَوْ عِزٍّ على الدّهْرِ مُصْحَب

فلمْ يَقْتِصِرْ واختـارَ كُـلاً فحـازَهُ ... إلى غـايـةِ العِزِّ المَـديـدِ الْمُعَقَّب

لـهُ البيتُ مَحْجُـوبـاً وعِـزٌّ مُخَلَّـدٌ ... وأَجْرَدُ يَعْبُـوبٌ إلى جَنْبِ أَصْهب

وخـازِمُ آنـافِ العُتـاة خُـزِيْمَـةٌ ... فلاذوا بـأخلاقِ الـذَّلولِ الْمُغَرّب[٣٨]

---

(٣٣) أرّخت العرب ـ في جملة مـا أرّخت بـه ـ من وفـاة كعب بن لـؤي إلى عـام الفيـل. (الإعلان بالتوبيخ : ٨٣).

(٣٤) تأوبّه : أتاهُ ليلاً . والتقرُّش : التجارة والاكتساب . (السيرة النبوية ١ : ٩٣).

(٣٥) إشارة إلى سورة لإيلاف قريش.

(٣٦) صوَّب رأسه : نكسه . وصَوَّب خلاف صعّد أي مال إلى الإنحدار.

(٣٧) المذنب : مَسيلُ الماء إلى الأرض.

(٣٨) خزيمة . وانظر في اسم أمّه سلمى ونسبها (تاريخ الطبري ٢ : ٢٦٦).

عظيمٌ لسلمى بنت سَـوْدِ بنِ أَسْلِمٍ لكلّ قُضَـاعِيٍّ كريمٍ مُعَصّبِ[٣٩]

ومـدركـةٌ ذو اليُمْنِ والنُّجْح عـامِرٌ وخيرُ مُسَمَّى في الُعـلا ومُلَقَّبِ[٤٠]

تَراءَى مُطِـلاً إذ تَقَمَّـع صِنْـوُهُ ففـازَ بقِـدْحِ ظـافِرٍ لم يُخَيَّبِ[٤١]

لأمّ الجبـالِ الشُّمِّ والقَطْرِ والحَصى لِخنـدفِ إن تستركبِ الأَرض تَرْكبِ

وإلياسُ مأوى النّـاسِ في كل أَزْمَـةٍ ومَهْرَبُهم في كُلّ خَوْفٍ ومَرْهَبِ[٤٢]

وزاجِرهُمْ إذْ بـدَّلوا الـدِّيْنَ ضَلَّـةً وأَضْحَـوْا بـلا هَـادٍ ولا مُتَحـوِّبِ[٤٣]

وجـاءَهُم بـالرُّكْنِ بعـدَ هَـلاكِـه وقَـدْ كانَ في صَـدْعٍ منَ الأَرض أَنْكَبِ

ومـا هـو إلا مُعجـزٌ لِنُبُـوّةٍ وبُشْرى وعُقْبى للبَشيرِ المُعَقَّبِ[٤٤]

وحَـجّ وأَهْـدى البُـدْنَ أوّلَ مُشْعِرٍ لهـا وفُروضُ الحَـجّ لم تَتَرتَّبِ

وكم حكمـةٍ لم تَسمـعِ الأُذْنُ مِثْلَهـا لـهُ إن تَلُحْ في نـاظرِ العَيْنِ تُكتبِ

إلى قَنَصٍ تَميـهِ سـوادءُ نَبْتِـهُ كِـلا طرَفَيْـهِ في مَعَـدّ لِمَنْسَبِ

وفي مُضرٍ تـاهَ الكَـلامُ وأقْبَلتْ مـآثِرُ سـدّت كلَّ وَجْـهٍ ومَـذْهبِ

وَحَيْنـا وكاثَرْنـا النُّجومَ بجمعهـا بـأَكْبر منهـا في العـديـدِ وأَثْقَبِ

هنـالـكَ آتى اللهُ مَنْ شـاءَ فَضْلَـهُ وقيـلَ لهـذا سِرْ ولـلآخرِ ارْكَبِ

---

(٣٩) قضاعي نسبة إلى قُضاعة ، وسَلْمى من قُضاعة .

(٤٠) تاريخ الطبري (٢ : ٢٦٦ ـ ٢٦٧) وقارن بالسّيرة ١ : ٧٥ وفيه :اسم مُدركة عامر .

(٤١) تَقَمّع إشارة إلى عمير من إخوة مدركة واسمه قَمَعة .

(٤٢) إلياس وهو عيلان ، سمّي كذلك لأنه كان يُعاتب على جوده فيقال له : لتغلبنّ عليك العيلةُ ياعيلان ؛ فلزمه هذا الاسم .

(٤٣) المتحوّب : الذي يترك الحوب وهو الإثم .

(٤٤) المعقّب : رسول الله ﷺ .

وكانـا شقيقَيْ نَبْعَـةٍ فتفَـاوتـا ... لعلمٍ وحُكمٍ مـــالَـــهُ من مُعَقب

ومـــا مِنْهُما إلا حنيفٌ ومُسْلِمٌ ... على نهـج إسماعيـلَ غير مُنَكّب

وقـد سَلّم الأَفعى بنجرانَ حكمَـه ... إليهمْ ولم ينظُرْ إلى مُتَعْقّب

رأى فِطَنـاً أَبْـدَتْ لـه عن نِجـاره ... وكانَ لنبـعٍ فـاستحـالَ لأَثْـأَب[٤٥]

وتلـكَ عـلامـاتُ النُّبـوةِ كُلّهـا ... تشيرُ إلى مَنْظُـورِهـا المُترقّب

وقـــال رسـولُ اللهِ مَهما اخْتَلَفْتُم ... ولم تَعرِفوا قصد السَّبيل المُلَحَّب[٤٦]

ففي مُضَر جُرْثُومة الحَقّ فـاعْمَـدُوا ... إلى مُضَرٍ تَلْقَـــوْهُ لَمْ يَتَنَقَّب

ومـا سيّـدٌ إلا نِـزَارٌ يَفُـوتُـه ... ومَنْ فاتَهُ بَـدْرُ الـدُّجى لم يُؤَنَّب !

قَريـعُ مَعَـدٍّ والـذي سَـدَّ فَقْـدَهُ ... مَتى يـأتِهِمْ شَعْبٌ من الـدَّهْرِ يَرْأَب[٤٧]

أَبُـو أبْحُرِ الـدُّنيا وأَطـوادِهـا التي ... بهـــا ثبَتَتْ طُرّاً فلم تَتَقلَّب

ولم يَكْفِـه حتّى أَعـانَتْ معـانَـةٌ ... بكلّ عَتيـقٍ جُرْهُميّ مُهَـذَّب[٤٨]

وجـاء معـدٌّ والسَّماءُ شُمـوسُهـا ... وأَقْمَـارُهـا في ذَيلِـه المُتَسحِّب

وبينَ يَـدَيْـهِ الأَنْجُم الـزُّهْرُ بَثّهـا ... على الأَرضِ حتى لا مَســاغَ لأجْنَبي

وقِـدْمـاً تَحفّى اللهُ من بُخْتَنَصّرٍ ... بهِ والوَرَى من هالِـكٍ ومُعَـذَّب[٤٩]

---

(٤٥) الأَثأَب (والأَثَبُ) شجر ينبتُ في بطونه الأودية واحدته أَثْأَبة ، وهي دوحة واسعة تُظِلُّ أُلوفاً من الناس .

ـ والنَّبع : شجر من أشجار الجبال ، تتخذ منه القِسِيّ . ولا نارَ فيـه لمقتـدح . ويتخـذ من أغصانه السّهام .

(٤٦) من لحب الطريق : وضح .

(٤٧) من قولهم : رأب الصدع .

(٤٨) نسبة إلى جُرْهم .

(٤٩) انظر مافصّله الطبري في تاريخه : ٥٥٨ وما بعدها .

وجَنَّبــه أَرْضَ البَـوارِ وحَـــازَهُ ... إلى مَعْقِــلٍ من حِرزِهِ مُتَــأشِّبِ[٥٠]

وحَــلَّ بــأرمينيــةٍ تحت حِفْظِــه ... لَـدى مَلـكٍ عن جَانِبَيْـهِ مُـذَبِّبِ

فَلمّــا تَجلّى الرَّوْعُ أَسْرى بِعَبْـــده ... إلى حَرم أَمْنٍ لأَبْنــائِـــهِ اجْتُبي

وقـــد كان رَدّ اللهُ عَنْهُم كليمَـــهُ ... ليــاليَ يَــدْعُــو دَعْـوَة المُتَغَضِّبِ

وجـاء بَنُو يعقـوبَ يَشْكُـونَ مِنْهُمُ ... ينـادُونَـهُ هــذا قتيـلٌ وذا سُبي

فقـالَ لَـهُ : لا تَـدْعُ مُوْسى عليهم ... فَمنهُمْ نَبيٌّ أَصْطَفيْـــــهِ وأَجْتَبي

أُحِبُّهُم فيــهِ رضـــاً وأُحِبُّـــه ... كَذلـك مَنْ أُحبِبْـهُ يُكْرَمُ ويُحْبَبِ

وأغفرُ إنْ يَستَغْفِرُوني ذُنـــوبَهُمْ ... ومَهما دَعـــا داعٍ أُجِبْــهُ وأقْرِبِ

فقـــال إذنْ فـــاجْعَلْهُم رَبّ أُمَّتي ... فَمَنْ تَرْضَـهُ يـا رَبّ يُرْضَ ويُرغَبِ

فقــال هُم في آخِرِ الــدَّهْرِ صَفْـوَتي ... يعضُّون أَعْـدائي ويستَنْصِرونَ بي

دعَـــائمُ إيمـــانٍ وأرْكَـــانُ سُـؤددٍ ... مضَتْ بِعُلاهـا مَهْـدَدٌ بنتُ جَلْحَبِ

ومَصْعَــدُ عَــدْنـان إلى جِــذْم آدمٍ ... بـأَبْينَ مِنْ قَصـد الصّبــاح وأَلْحَبِ

ونَهْيُ رَسُولُ الله صَــدَّ وُجـوهَهـا ... وكانَ لنـا في نَظْمِهـا شَـدٌّ مُلْهبِ

وإلاّ فَــأُدّ بن الهَمَيْسَـع مـــاثـلٌ ... ونَبْتُ بنُ قَيْـدار سُلالَـة أَشْجَبِ

ووَاجَـهَ أَعْراقُ الثّرى كُلَّ مَنْ تَرى ... وأَسْمَـع إسماعيـــلُ دَعْـــوَة مُكْثِبِ

وقـــامَ خَليْـلُ اللهِ يَتْلُـوهُ آزَرٌ ... أَغرّ صَبـــــــاحِيٌّ لأَدْهَم غَيْهَبِ

إلى النّاجِر بن الشّارع الغُمْر يرتَقي ... ولِلدَّاع ثُمّ القـاسم الشَّامخ الأَبِ

ويعبر ينميـهِ إلى المَجْـدِ شـالـخٌ ... إلى الرّافِـدِ الـوَهّـاب برك وطَيّبِ

لِسَـامٍ أَبي السّــامين طُراً سَما بِهِمْ ... لنـوحٍ لِلَمْكَـــانِ العُلى لِمُثَـوّبِ

---

(٥٠) تأشّب الشجر : التفّ ؛ والقوم : اختلطوا واجتمعوا .

لإدْرِيس ثُمّ الرائــد بن مُهَلْهِـلٍ   لِقَيْنَنَ ثُمّ الطّـــاهر المُتطَيّب
إلى هِبَــةِ الرَّحْمن شيثِ بنِ آدمٍ   أَبي البَشر الأَعْلى لِطينٍ لأَثْلَب
فمنــهُ خُلِقْنــا ثُمّ فيــه مَعَــادُنــا   ومنــهُ إلى عَــدْن فَســدّدْ وقَرِّب !

[١٤]

وقالَ أَيْضاً في لَيْلَةِ أُنْس :[١]   [من البسيط]

ولَيْلــةٍ عَــاقَــدَتْ عَيْني كَـواكِبَهــا   عَلى السُّهادِ وَخَيْلُ اللَّهْوِ في خَبَبِ[٢]
بِتْنــا نُسَلْسَــلُ ، في آذانِنـــا نَغَمٌ   كالرَّوْضِ يُسقى بماءِ الظَّلْمِ وَالشَّنَبِ[٣]
وَنَرْجِسٍ ضَحِكَتْ سِنُّ الزَّمـانِ بـهِ   لا فُضَّ مُبْتَسِمٌ حَيــاكَ بــالطَّرَبِ
وَبَيْنَنــا أَرَجٌ مِنْ نَشْرِ صــافِيَـةٍ   أَرْبَتْ عَلى المِسْكِ إذْ جَلَّتْ عنِ الذَّهَبِ

[١٥]

وقال[١] **يصفُ نار فحم**   [من البسيط]

أَمــا ترى النّــارَ وهي راقِصَــةٌ   تنفُضُ أَرْدانَهـــا من الطَّرَبِ
تَضْحَــكُ من آبنُــوسِهــا عَجبــاً   إذْ حَــوَّلتْ عَيْنَــهُ إلى الــذَّهَبِ !

---

[١٤]

(١) الريحان والريعان : ١٥٨ /أ .
(٢) الخبب : نوع معه العَدْو .
(٣) الظَّلْم : ماء الاسنان وبريقها . والشنب : جمال الثغر وصفاء الاسنان .

[١٥]

(١) الذخيرة ٣ /٢ : ٧٩٥ ورايات المبرّزين : ١٠٥ (وتراجع الرواية)

[١٦]

وقال في رواقِصَ قباح الوُجوه[1] : [من مخلّع البسيط]

جــــاءَ عليَّ بِمُلْهِيَــــات لِلْهمّ والقُبْــح جــــامِعَــــاتِ
لَمْ يَلْتَفتْ نـــاظري إِلَيْهـــا إلاّ تـــذكَّرْتُ سَيِّئـــاتِي !

[١٧]

وقَالَ أيضاً[1] : [من البسيط]

يـــا حَبَّـــذا لَيْلـــةٌ لنـــا سَلَفَت أغْرَتْ بنفسي الهَوى وقــد عَرفتْ
دارَتْ بظلمــائهــا المُــدامُ فكمْ نَرْجِسَـــةٍ مِنْ بنفسَـــجٍ قُطِفَتْ
ثمّ انطــوى ثَــوْبُهــا ومِنْ أَسَفٍ أَنْ صرَفَتْ لَـوْعَتي ومــا انْصَرفَتْ

[١٦]

(١) الذخيرة ٣ /٢ : ٧٩٥

[١٧]

(١) الذخيرة ٣ /٢ ٧٩٣ ـ ٧٩٤ والبيتان الأوّلان في الإحاطة ٢ : ٣٩٢ ، وبغية الوعاة ١ : ٢٤٤

[١٨]

وقال من قصيدةٍ[1] : [من الطويل]

وذِي نَخْـوةٍ يَخْتَـالُ ثـانَي عِطْفِـهِ ... فَلوْلا تَنـاهي لُـؤمـهِ قُلْتُ أَصْيَـدُ[2]

لـهُ نظرةُ الـزّرقـاء في كُـلِّ بِـدْعَـةٍ ... ولكنّـهُ عن مَسْلـكِ الحَـقِّ أرْمَـدُ[3]

[١٩]

وقال[1] يعتذر من انفصال صديق دونَ وَداع

ياروضـةً بعُـدتْ بهـا أَيْـدي النّوى ... ضَنَّ الـزّمـانُ بنظـرةٍ أَزْدادُهــا

فتركتُهـا والحُسنُ مـلءُ نَـواظِري ... ثم انْثَنَيْتُ بخـاطِري ارْتَـادُهـا

أُردُدْ إذَا هَبَّ النّسيْمُ فـإنَّـهُ ... بِتَحِيَّتي ومَـوَدَّتي يَعْتَـادُهـا

---

[١٨]

(١) الذخيرة ٣ /٢ : ٧٩٦

(٢) الأصيد : المائل العُنق ، والذي لا يلتفتُ يميناً ولا شمالاً من كبرٍ أو زهو .

(٣) يعني زرقـاء اليمامـة ، والعرب تضربُ المثـل بهـا في جوْدة البصر وحـدّة النَّظر (ثمـار القلوب : ٣٠٠) وقال أبو الطيب :

وأبصرُ من زرقـاء جَـوٌّ لأنّني ... إذا نظرتْ عيناي شاءَهما عِلْمي

[١٩]

(١) الذخيرة ٣ /٢ : ٧٩٤

[٢٠]

وله[1] من قصيدة يعتذر من استبطاء المكاتبة : [من الطويل]

ولو وفَتِ الأيّام جاشَتْ صُدورُها بِمَا ضُمّنَتْهُ أو تبلّغَ ما عِندي

ولو جَرت الخمسُ الرِّياحُ تضوَّعَتْ بِما استَنْشقَتْهُ من ثَنائي ومن وُدّي[2]

ولو كانَ عهدٌ للغزالةِ جَدّدَتْ لكمْ كُلَّ ما أبقى الجَديدانِ من عهْد[3]

أَلم تسألوا والقَلْبُ رَهْنٌ لديكمُ فيخبرَكُمْ عنّي بمضَمرِهِ بَعْدي

فلو قبلتني الحادثاتُ مكانَكُمْ لأنْهبْتُها وَفْري وأوْطَأتُها خَدّي

أَلمْ تَعْلَمُوا أنّي وأهْلِي وواحِدي فِداءٌ، ولا أرْضى بتَفْدِيَةٍ وحْدي ؟!

---

[٢٠]

(١) الذخيرة ٣ /٢ : ٧٩٧
والأبيات ٤ ، ٥ ، ٦ في قلائد العقيان : ١٧٧ ، والمطرب : ١٨٨ والإحاطة ٢ : ٣٩٢ (تراجع الروّاية) . والخريدة ٣ : ٤٥٢ .

(٢) الرّياح أرْبَع ، قال ابن سيده (المخصص ٩ : ٨٤) « معظم الرياح الأربع : الدَّبُور والقَبُول والجَنُوب والشّمال » . وفصّل فيها ، ثم قال : « وكل ريح من هذه ريح الأربع انخرقت فوقعت بين الرِّيحين فهي نكباء » . فكأنها هي الخامسة عند الكاتب .

(٣) الغزالة علمٌ على الشمس . والجديدان : الليل والنّهار .

[٢١]

قال الوزير ابن أبي الخصال[1] : [من الطويل]

وَكَيْفَ أُؤَدِّي شَكْرَ مَنْ إن شَكَرْتُهُ   على برٍّ يَـوْمٍ زادَني مِثْلَـهُ غَــدَا
فإنْ رُمْتُ أَقْضي اليَوْمَ الـذَّي مَضى   رَأَيْتُ لَـهُ فَضْـلاً عَلَيَّ مُجَـدَّدَا

[٢٢]

وقال[1] في مداعبة شيخ ثَقيل اتفّق حُضورهُ معهم في مجلس أُنس

[من السريع]

أَما لِهذا الشَّيخْ من عَهْدِ عـادْ   من أجَـلٍ يُقضى ولا مِنْ مَعـادْ
ليتَ لَنـا في سنّـه قَهْـوَةً   تُـدِيْـلُ من ظُلْمَتِـهِ بـاتّقـادْ[2]
وليْتَنَـا نخرجُ في صَفْقـةٍ   جـائـزةٍ عنـهُ ولـو بـالحَمـادْ
وهـل لَنـا في البَيْـع من حِيْلَـةٍ   إذَا رميْنـا بِثُبـوتِ السَّـدادْ

---

[٢١]

(١) نفح الطيب ٣ : ٤٦٦ .

[٢٢]

(١) الذخيرة ٣ /٢
(٢) القهوة : الخمرة . ويتمنى أن تكون في سنّه (أي عجوزاً معتّقة) .

[٢٣]

وقالَ أَبو عَبْدِ اللهِ بْنُ أَبِي الخِصالِ في صِفَةِ سَماعِ غِناء[1] : [من الطويل]

لَعَمْري لقد هامَتْ عُيونُ قُلوبِنا بِمَحْجوبَةٍ إلاَّ عَنِ السَّمْعِ تُسْتَرُ
فَبِتْنا كَأَنَّ الطَّيْرَ فَوْقَ رُؤوسِنا إصاخَةَ مَنْ ناجاهُ كِسْرى وَقَيْصَرُ

[٢٤]

قال ابن خاقان[1] :

« وفي أيام مقامي بالعدوة اتفقت بيني وبين أَبي يحي بن محمد بن الحاج ـ سقى الله مصرعه ، وأوردَه منهل العفو ومشرعه ـ مودّة استحكَم تواخيها ، وشُدّت أَواخيها ؛ وغَدَوْنا بها حَلِيْفَيْ صفاء وإخلاص ، وأليفَيْ إخاء واخْتِصاص ؛ والزَّمانُ مُسَاعِد ، وصَرْفُهُ مُتباعد والشبابُ خَضِلٌ يانع ، والدهر مبيح ما هو له اليوم مانع ؛ والدنيا سرورٌ وإيناس والأَرض ظِباءٌ وكِنَاس .

فوقع بيني وبينه في بعض الأَيام تنازُعٌ أَدّى بنا إلى الانفصال ، وتعطيل البُكرِ والآصال . ثم نُمي إليَّ عنه قولٌ ضاق به ذَرْعي ، واجتُث

[٢٣]

(١) ريحان الأَلباب وريعان الشباب لابن المواعيني ١٥٨/أ .

[٢٤]

(١) قلائد العقيان : ١٧٨ .

(وانظر الذخيرة ٢/٣ : ٧٨٦ والمطرب ١٨٩ والْمُغرب) .

منه أصلي وفَرْعي فكلما صدّني عن الرّحلة ، صممت ونكثت عن عُرى التلوي ما كنت أبرمت .

وبعد انفصالي علمت أنّ ذلك القول غدا زوراً ، ووشى به من غصّ أن يرانا زائراً ومَزُوراً . فانقشعت تلك المَخيلة ، وتحرّكت لوعة مودّته الدّخيلة ؛ وأكّدت تجديد ذلك العهد الرّائق ، وكف أيدي تلك العوائق ، فكتبتُ إليه :

[من الطويل]

أكعبةَ عَلْيَاءٍ وهَضْبَةَ سُؤددٍ ... ورَوْضَةَمَجْدٍ بالمَفاخِرِ تُمْطرُ
هَنيئاً لملكٍ زانَ نورُك أُفقَهُ ... وفي صَفْحَتَيْهِ من مَضائكَ أسطرُ
وإنّي لخفّاقُ الجَناحَيْنِ كُلَّما ... سَرى لكُ ذِكْرٌ أونسيمٌ مُعَطَّرُ
وقد كانَ واشٍ هاجَنا لتنافر ... فَبتُّ وأحشائي جَوًى تتفطَّرُ
فهل لكَ في وُدٍّ ذوى لكَ ظاهراً ... وباطنُهُ يَنْدى صَفاءً ويقطُرُ
ولَسْتُ بِعِلْقٍ بِيْعَ بَخساً وإنّني ... لأَرفَعُ أَعْلاقِ الزَّمانَ وأنْضَرُ

فأمره بمراجعتي ـ يعني أبا عبد الله بن أبي الخِصال ـ فكتب بقطعةٍ ؛ منها :

ثَنيتَ أَبا نَصْرٍ عِناني ورُبَّما ... ثَنتْ عَزْمَةَ الشَّهم المُصَمّم أسطرُ
ونالَت هوًى مالم تكن لِتنالَهُ ... سُيوفٌ مَواضٍ أو قَناً متأطِّرُ[1]
وما أنا إلاّ مَنْ عَرَفْتَ وإنَّما ... بَطِرْتَ ودَادي والمَوَدَّةُ تُبْطِرُ
نَظرْتَ بعينٍ لو نَظرْتَ بغيرِها ... أصَبْتَ وجَفْنُ الرَّأيِ وَسْنانُ أشْتَرُ
وقِدْماً بذلْتَ الودَّ والحُبَّ فطرةً ... وما الحُبُّ إلاَّ ما يَخُصُّ ويفطرُ

(١) تأطر الرمح : تثنّى .

[٢٥]

وقال من قصيدةٍ مراجعةً عن شِعر[1] : [من الطويل]

وما كُنْهُـهُ نظمٌ بِطِرسٍ وإنّما ... نَسقَتَ النُّجومَ الزُّهْرَ في صَفْحَةِ البَدْرِ

[٢٦]

وقال[1] في مُطَيّب وردٍ مُفصّل بِتَرِنْجان[2] : [من الطويل]

وَوَرْدٍ جَنيٍّ طالَعَتْنا خُدودُهُ ... بِنَشْرٍ وبِشرٍ يَبْعَثانِ على الشُّكرِ

وحفَّ تَرِنجانٌ بِها فكأنّها ... خُدودُ العَذارى في مَقانِعها الخُضْرِ

---

[٢٥]

(١) الذخيرة ٣/٢ : ٧٩٧ .

[٢٦]

(١) الذخيرة ٣/٢ : ٧٩٦ ، ونفح الطيب ٣ : ٦٠٢ (بشيء من اختلاف) .

(٢) التَّرِنجان : قال في متن اللغة : ضرب من الرّياحين ؛ قاله الخفاجي في الشفاء ؛ وقال : إنه عامّي . وهو الحبق عند العامليّين (يعني أهل جبل عامل) .

[٢٧]

وقال[١] في مُسْمِعٍ مُحْسِنٍ أَغَبَّ ثُمَّ زار : [من الكامل]

وافَى وقد عَظُمَتْ عليَّ ذُنوبُهُ   في غَيْبَةٍ قَبُحَتْ بها آثارُهُ
فَمَحا إساءَتَهُ بنا إحسَانُهُ   واستَغْفَرتْ لِذُنوبِهِ أوتارُهُ

[٢٨]

وقال[١] أبو عبد الله بن أبي الخصال يرثي ابنه عبد الملك[٢] :

[من الطويل]

رُزِئت بِمَنْ لا أَملكُ العينُ بعدَهُ   ففي كُلِّ ما حين لها عَبْرَةٌ تَتْرى[٣]

---

[٢٧]

(١) الذخيرة ٢/٣ : ٧٩٦ ، والقلائد : ١٧٥ والمطرب : ١٨٧ ، وبغية الملتمس : ١٢١ ، والخريدة ٣ : ٤٥٠ ، وجذوة الاقتباس ١ : ٢٥٧ .

[٢٨]

(١) الذيل والتكملة ١/٥ : ٣٨ .

(٢) ترجم ابن عبد الملك المراكشي لعبد الملك بن محمد بن مسعود بن أبي الخصال وقال فيه : أبو مروان ، ولد ذي الوزارتين أبي عبد الله بن أبي الخصال ؛ روى عن أبيه وعمّه أبي مروان ، وأبي محمد عبد الحق بن عطيّة ؛ وكان ديّناً فاضلاً من نجباء الأَبناء نشأ على صون وعفاف وانقطاع إلى طلب العلم وفنون الخير ، ثم رحل وحجّ ، وعاد إلى الأندلس وقُتل في حدود الثلاثين وخمس مئة في مدينة المريّة . وثكله أبوه ـ رحمها الله ـ ورثاه بقصيدة فريدة .

(٣) تترى : مُتواترة ، وتواترت الأشياء : تتابعت .

وإنّي لأنســـــاهُ ذُهــولاً وحَيْرَةً وما ذلك النّسيـان إلاّ من الـذّكرى

عـدمتُ أَبـا مروانَ حين.وجـدْتُـهُ ولم تَبْـقَ في يُسْرى خـلائقِـهِ عسرا

وحين أَقرَّ العينَ شرخُ شَبــــابِـــــه
وتَمّتْ بــه النُّعمى وحَفَّتْ بـــه البُشرى[٤]

وكنتُ إذا أيْقَظْتُـــــه لملمّـــــةٍ أَخذْتُ الكرى عن مقلةٍ منه لا تَكْرَى

وطـارَت بـه الجُلّى إلى كل هَيْعَـةٍ وأثْبَاجُها تُطْوى وأَوْداجُها تُفْرى[٥]

ومن قبــلُ مـــا خَـــاضَ البحــــارَ مُصَمّماً
إلى البيْتِ حتى استَـــلأَم الرّكْنَ والحِجْرا[٦]

وقَفّى إلى قبرِ الرّسُـــول بـــزورةٍ فَقضّى ووفّى الحـقَّ والفَرْض والنَّـذْرا

وعَفّر في تلـــكَ المعـــالمِ وَجْهَـــهُ سُجوداً لِموْلىً يملـكُ الخَلْـقَ والأمرا

وقد كنتُ في تلـكَ السَّبيلِ احتسَبْتُـهُ وأَضْمَرْتُ يأْساً عن لِقائي لـهُ صَبْرا

فرُدَّ على رَغْم الخُطـــــوبِ مُسَلَّماً وقد حازَ من آثـارِه في التُّقى فَخْرا

وزِدْتُ بـه وجْـداً كما ازدادَ غِبْطـةً وحُـزْتُ إلى عُمْري بريْعـانِـه عُمْرا

وطــوّلْتُ آمـــالي رجــاءَ بقــائِــهِ فـأسْفَر ذاكَ الطُّول عن مُـدّةٍ قَصْرا

وأسلمني في كُربَـــة مُـــدْلَهِمّــــةٍ نـزلْتُ، ولم أَملـك، على حُكمهـا قسرا

تقسّمني مــــــا بين حَيٍّ وميّتٍ فمنْ مَعْشَرٍ قَتْلى ومِنْ مَعْشَرٍ أسْرى

وكان ظهيراً لي عَليهمْ وفيهمُ أشـدُّ بـــه أَزْراً وأَحمي بـــهِ ظَهْرا

---

(٤) شَرخ الشَّباب ، أوَّله ونَضارته .

(٥) الهيعةُ : الصوت الصارخ للفزع .

(٦) يشير إلى أدائه فريضة الحج .

فهوّنَ عنـدي فَقْـدُه فَقْـدَمن مضى وصارَتْ به الكُبْرى الّتي كانت الصُّغرى

وما ماتَ إلا بعدَما مات قِرْنُهُ ولاَقَاهُ من هَبَّاتـهِ الضَّيْغمُ الأَضْرى[٧]

فَراه بيُمْنـاهُ بصـارمِ نَفسـهِ وخلّى على كُرْهٍ لصاحبهِ اليُسرى[٨]

ومـا زالَ أقران الظهور مُقاتـلاً وكيفَ تَوقّي المَوْتِ من حيثُ لا يُدْرى ؟

ومـا ساقَ ذلكَ الحَتْفَ إلا شهادةٌ تركتَ بهـا في كُلِّ مَنْزِلَـةٍ نَشْرا

تَعوّضتَ من فانٍ بباقٍ مُخَلَّدٍ وعَوّضتني منكَ التَّأسِّيَ والأَجْرا

فَمِنْ مَنْزِلِ البَلْوى إلى مَنْزِلِ الرِّضى ومِن عَرَضِ الدُّنيا إلى جَوْهرِ الأُخرى

سأصبر إلاّ عن سَوابقِ عَبْرَةٍ أرَى أبداً جَفني بتصريفها يُغرى

وما عذَّبَ الرَّحمنُ بالدَّمْع باكياً يُداري بِدَمْعِ العَيْنِ في قَلبهِ جَمْرا[٩]

ومـا مَفْزَعُ المحزونِ إلا إلى البُكا وكُلُّ حزازاتِ القُلوبِ بهِ تُقْرا

وفي وجْد يعقوبٍ بيوسفَ أُسوةٌ فلا تَعذِلُوني اليومَ في عَبْرَةٍ تُذْرى

وكُلُّ فتىً قد كانَ للعينِ قُرّةً سَيَمْلَؤُهـا حَرّاً كما مُلِئت قُرّا

سَقتْ جَدثاً واراكَ كُلُّ غَمامةٍ تُكَشِّفُ عن أَرْضٍ حَلَلْتَ بها الضُّرّا

وحَيّاك عني كلُّ رَوْحٍ ورَحْمَةٍ وما شئتَ من نَوْرٍ ومن رَوْضَةٍ خَضْرا

ويا كَبدي هَلاّ تفطَّرتِ حَسْرَةً ويا أَدْمُعي هلاّ جَرَيْتِ له حُمْرا

ويا فَرَطي إنّي ذَخَرتُك لي غِنىً ليومٍ يَعُودُ الأَغنياءُ بهِ فقرا[١٠]

---

(٧) القرن للإنسان : مثيله في الشجاعة ، والشدّة ، والعلم والقتال ، وغيره . ـ والضّيغم : الأسد الواسع الشّدق .

(٨) فراه : شقّه وفتّته .

(٩) يشير إلى ما في الحديث ـ وهو مشهور ـ « ... إن العين لتدمع ... »

(١٠) الفَرَط : الذي يَموتُ ولم يبلغ الحلم من الأولاد .

ويـا مُـودِعيـهِ في الثَّرى هـل عَلِمْتمُ بـــأنَّ لــــهُ في غَيْرِ أرْضِكُم قَبْرا
نَعمْ كُـلُّ قَبرٍ قبرُه فــإذا بَـــدا قرأتُ عليــه من تَـــذَكُّرِهِ سَطْرا
وإنْ لمْ أزُرْه في الحيــــاةِ ورُبَّما فَموعِـدُنـا المَضْرُوب نَجْعَلُـهُ الحَشْرا
وقـال ليَ الإخـوانُ : هـلاّ نَقلْتَــهُ وما نَقْلُ من بَوَّأْتُـهُ القَلْبَ والصَّـدْرا
أأقربُ من فِكري وذِكري وخـاطِري فأمضي لـه ظَهْراً وأحْـدُو بـه سَفْرا
أعُـقُّ بهـا أوصـالَـهُ لـو فعلْتُـهُ وأُرْهقُــهُ في غَيْرِ مَحْمَـــدَةٍ عُسْرا
وأُنْصِبُ منْ رَدَّ الإلـــهُ حيـاتَــه وأُوْسَعهـا لمّـا طـوى عُمْرَهُ نَشْرا
ألاَ إنني اسْتَـوْدَعْتُــهُ الله وحْـــدَهُ وحَسْبي بِنَصْرِ الله في ظُلْمَــةٍ نَصْرا

[٢٩]

اجتاز ابن أبي الخصال من بلدة شقورة بأُبَّدَة ، وهو صبي صغير يطلب الأَدب ، فأضافه بها القاضي ابن مالك ، ثم خرج معه إلى حديقة معروشة فقطف لهم منها عنقوداً أسود ، فقال القاضي :

« انظر إليه في العصا »

فقال ابن أبي الخصال :

« كرأس زنجي عصا »

فعلموا أنه سيكون له شأن في البيان(١) .

---

[٢٩]

(١) الخبر في تراجمه ، والعبارة للشريشي في شرح المقامات ١ : ٣٦٤ .

[٣٠]

نقل الْمَقرّي في نفح الطيب [(١)] :

وذكر ابن بَسّام أن الوزير أبا عبد الله بن أبي الخصال وقف بباب بعض القُضاةِ ، واستأذن عليه ؛ فَحُجبَ عنه ؛ فكتب إليهِ بَديهاً :

[من البسيط]

جئناكَ للحاجةِ الْمَمْطُول صاحِبُها ... وأنت تنعَمُ والإخْوانُ في بُوسِ [(٢)]

وقد وَقفنا طويلاً عند بابِكُمُ ... ثم انصرفنا على رأيِ ابن عَبْدُوسِ ! [(٣)]

يشير إلى قول الوزير أبي عامر بن عَبْدوس [من مجزوء الرَّمل]

لنا قاضٍ لَهُ خُلقٌ ... أقلُّ ذَمِيْمِهِ النَّزَقُ

إذا جئناهُ يَحْجُبنا ... فنلعَنُه ، ونَفْتَرِقُ !

وهو تمليحٌ مليح !

---

[٣٠]

(١) نفح الطيب ٣ : ٢٦٨ ، والخبر في بدائع البَدائه ٢ : ١٤٧ . ولم أجده في الذخيرة .

(٢) بوس مستهّلة مخففة من بؤس .

(٣) هو أبو عامر أحمد بن جَهْوَر بن عبدوس ، الأديب الكاتب ، من أهل قرطبة ويعدّ في الوزراء باعتباره من الذين تحلّقوا حول أبي الحزم بن جهور حين نصب نفسه حاكماً لقرطبة بعد إلغائه الخلافة الأموية .

قال ابن بسّام في الذخيرة ١/١ : ٤٣٢ في أثناء ترجمة ابن زيدون فيه : وكان بقرطبة أحد أعيان المصر ، وبعض من هذى باسم ولادة وطال عمره وعمرها حتى أربيا على الثانين

وروت كُتب الأدب له شيئاً يسيراً من الشعر .

وأخبار ابن عبدوس قليلة . وهو الذي خاطبه ابن زيدون على لسان ولاّدة في الرسالة المعروفة بالرسالة الهزلية .

[٣١]

وقال[1] في كأس غدر : [من المتقارب]

وكأسٍ مِنَ الغَـــدْرِ مَخْلُـوقَـــةٍ ولكِنَّهـــا لـــلأَمِير الـــوَفِي
إذَا مَـــا تضَمَّنَهـــا كاشِـــحٌ تبيّنَ من سِرّه مـــــــا خَفِي
قِفَـــا في المُـــدامِ على وُدِّهِ ولا تُنْشِـــداني : قِفـــا أو قِفي !

[٣٢]

وقال[1] يَصِفُ ليلة أُنسٍ مع أحَدِ ظباءِ بَنِي مَرْوَان : [من المنسرح]

ولَيْلَـــةٍ عَنْبَرِيَّـــةِ الأُفُـــقِ رَوَيْتُ فيهـــا السُّرورَ من طُرُقِ
وكنتُ حَرّانَ فـاقْتَـــدحْتُ بهـــا نـــاراً من الرَّاحِ بَرَّدَتْ حُرَقِي
حلَّت بِنـا عَـاطِـلاً وقـد لَبستْ غِـلالَـــةً فُصّلَتْ من الحَـــدَقِ
فجاءَها الـدَّهْرُ من بنيـهِ هـوًى بفتْيَـــةٍ كالصَّبـــاحِ في نَسَـقِ
قـامتْ لنـــا في المَقـامِ أوْجُهُهُمْ ورَاحُهُمْ بـــالنُّجـومِ والشَّفَـقِ
وأطْلَـعَ البـــدرُ من ذُرَا غُصُنٍ تَهْفُـو عَليْـــه القُلـوبُ كالـوَرَقِ
من عَبْـدِ شَمْسٍ بَـدا سنَـاهُ وهـلْ ذَا البَـدْرُ إلاَّ لِـذلـك الأُفُـقِ[2]

[٣١]

(١) الذّخيرة ٢/٣ : ٧٩٥ .

[٣٢]

(١) الذخيرة ٢/٣ : ٧٩٣ والإحاطة ٢ : ٣٩١ والمغرب ٢ : ٦٧ (عدا البيتين ٢ و ٩) . وفي النُّصوص شيء من اختلاف .

(٢) عبد شمس : جد بني أُمية .

مَــدَّ بحَمْراءَ مِن مُــــدَامَتِــــهِ ... بَيْضــاءَ كفّــاً ، مِسْكِيَّــةَ العَبَــقِ
فَخِلْتُهــــا وَرْدَةً مُنَعَّمَــــــةً ... تُحْمَــلُ مِنْ سَــوْسَنٍ على طَبَــقِ
يَشْرَبُ بــالرَّاحِ حين أُشْرِبَهــــا ... مــا غــادَرَتْ مُقْلَتــاهُ من رَمَــقِ[3] !

[٣٣]

مِنْ إخْوانِيّاتِه[1] ما خاطَب بِهِ أبا إسْحَاق بْنَ خفاجَة[2] : [من الكامل]

هَبَّ النسيمُ هُبــوبَ ذي إشفـــاقِ ... يُـزْهى الهَـوى بجَنـاحِـهِ الخَفّـاقِ
وكأنّما صَبَــحَ الغُصُــونَ بِنَشْــوَةٍ ... بــاحَتْ لَهــا بسرائرِ العُشّـــاقِ
وإذا تَــلاعَبت الرِّيــاحُ ببــانِــهِ ... لعبَ الغَرامُ بمُهْجَــةِ المُشتـــاقِ
مَـهْ يـا نَسِيمُ ! فَقَـدْ كَبِرْتُ عَن الصِّبـا ... لم يَبْـقَ من تِلْـكَ الصَّبابَـةِ بـاقِ !
إن كُنْتُ ذاكَ فَلَسْتُ ذاكَ وها أنـا ... قَــد آذَنَتْــكَ مَفــارِقي بِفِراقِ[3]

(٣) في المُغرب : حين يشربها .

[٣٣]

(١) النص في الإحاطة ٢ : ٣٩٠ ـ ٣٩١ ، وأثبتّ قراءتي للنصّ بما تسمح به إمكانات القراءة من خلال الرَّسم وما يصحّف عنه ويُحَرّف .. (ولم تصل يدي إلى المخطوطة) .
(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الهوّاري ، الأندلسي ، من أهل جزيرة شُقر من أعمال مدينة بلنسية (٤٥١ ـ ٥٣٣) شاعر من فحول شعراء الأندلس كاتب أديب له ديوان شعر حافل ، وفي ديوانه قصائد في عدد من رجال زمانه في غرض المدح والإخوانيات وغير ذلك .
(انظر دراستنا عنه بعنوان : ابن خفاجة . الطبعة الثانية ، ومصادره ومراجعه ثمة) ..
(٣) إن كنتُ ذاكَ الفتى ذا الصَّبوة فيا مَضى من الزَّمان ، فما أنا كذلك اليَوْم !

ولقَدْ عَهِدْتُ سُراكَ من عُـدَدِ الهَوى ... والمـوت في نَظري وفي استِنْشـاقي

أيّـامَ لـوعَنَّ السُّلُـوّ لخـاطِري ... قرَّبْتُـهُ هَـدْيـاً إلى أَشْـواقي[٤]

اللهـوُ إلْفي والبَطـالَـةُ مَركبي ... والأَمْن ظِلّي والشَّبـابُ رواقِي

في حيثُ قُسِّمت المُـدامَـةُ قِسْمَـةً ... ضِيْـزى لأَنَّ السُّكْرَ مِن أخـلاقي

لا ذَنْبَ للصَّهْبـاءِ أَنّي غـاصِبٌ ... ولِـذاك قَـامَ السُّكْرُ باسْتِحْقَـاقِي

ولقد صَدَدْتُ الكأسَ فانقَبضَتْ بها ... من بَعْدِ ما انبسَطتْ يمينُ السّـاقي[٥]

وتَركْتُ في وسَـط النَّـدامى خلّـةً ... هـامَتْ بهـا الوُسْطى من الأَعْـلاقِ

فـاسْتَشْرَفُـوني مُـذْكِرِيْنَ وعِنْـدَهُمْ ... أَنّي أدينُ اللّهْـوَ دِيْنَ نِفَـاقِ[٦] !

وحَبـابُهـا نَفَثُ الحُبَـاب ورُبَّما ... سَـدِكَتْ يَـدُ الملسـوعِ منـهُ بِرَاقِ[٧]

وكأنّـهُ لمـا تَرقْرقَ فَـوقَهـا ... نُـوْرٌ تَجَسَّمَ مِنْ نَـدى الأَحْـداقِ

أَو بـارحٌ نضحَ النَّـدى في رَوْضَـةٍ ... فـأَثـارَهـا وسَرى عن الأَحْـدَاقِ[٨]

ولقـد جَلوْا واللهِ يَـدْرَأُ كَيْـدَهُمْ ... فَتَّـانَـةَ الأَوْصـافِ والأَعْراقِ

أَغْـوى بهـا إبليسُ قِـدمـاً آدمـاً ... (وهي السَّريرة في هواها البـاقي ؟)[٩]

---

(٤) الهَدْيُ : مـا أُهـدي لِيُنحَر بمكّـة من البُـدْن . استعـارة الشـاعر لغرض آخر في الغزَل . يقول : كان لا يطيع السُّلوّ ويتبع جَمحات الهوى !

(٥) صدَّ الشيءَ : صَرَفه ومنعه .

(٦) استشرفه : تفقّده .

(٧) الحَبـاب (بفتح الحـاء) مـا يطفو على المـاء والشراب من فقـاعـات ، والحُبـاب (بضم الحاء) : نوع من الحيّات .

(٨) في معاجم اللغة : البارحُ : الريح الحارّة في الصّيف خاصّة . (؟)

(٩) كذا .

تَـاللهِ أَصْرِفُ نَحْـوَهـا وَجْـهَ الرِّضـا لوشُعْشَعتْ بِرِضَا أَبي إِسْحاق ![10][☆]

[٣٤]

ومن قَوْلـه[1] في غرض المَدْح يُخـاطب تَـاشفين بن عليّ[2] ، ويَـذْكُر الوَقْعَـة بـ (كركي)[3] :

---

(١٠) شَعْشَع الشراب (وغيره) : مَزجه .

(☆) وفي ديوان ابن خفاجة (ص : ١٥٨) أنه قال يُراجع ذا الوزارتين أبـا عبـد الله بن أبي الخِصال عن مخاطبته نظماً ونثراً ، وكتب بها إلى الحضرة .

ـ ومطلع قصيدة ابن خفاجة :

أَمُقَـــام وصـــلٍ أم مُقـــامِ فِراقِ فـالقُضْبُ بين تصـافُحٍ وعِنَـاقِ

وهي في ستة وثلاثين بيتاً . ووصلها برسالة نثريـة . ومفهومٌ أنّ ابن أبي الخِصـال وصل قصيدته أيضاً برسالة ، ولكنّ لسان الدين لم يُثبتها ؛ ولا هي واردة في مكان آخر .

[٣٤]

(١) الإحاطة ٢ : ٣٩٣ ـ ٣٩٤ (والبيتان ١ ، ٢ في الريحان والريعان : ١٥٨/أ) .

(٢) هو أبو المعزّ تـاشفين بن علي بن يـوسف بن تـاشفين اللّمتـونيّ . ولي إمرة الأنـدلس في ظلّ دولة أبيه علي ، سنة ٥٢٠ (عدا الجزائر الشرقيـة التي تولاّهـا محمـد بن علي المسّوفي المعروف بابن غانية) . وكان رجلاً نبيلاً شجاعاً ذكياً ، منصوراً في معاركه مع العـدوّ في الأنـدلس . وتـولّى تـاشفين بن علي ـ بعـد وفـاة أبيـه سنـــة ٥٣٧ ـ إمرة المسلمين . وواجـه حركـة المهـدي بن تومرت التي استفحلت . ولكنـه لم يفلح معـه كما أفلـح مـع العدوّ بالأندلس .

وتوفّي متردّياً ـ ليلاً ـ من شاهق عند وَهْران سنة ٥٣٩ .

(٣) قال الناصري في الاستقصا (٢ : ٦٩) :

« وفي سنة إحدى وثلاثين دخل الأَمير تاشفين مدينة كركي بالسيف فلم يُبْقِ بها بَشراً » .

وقال في الروض المعطار في رسم (أوريط Oreto) إنها مدينة قديمـة كانت مـذكورة مع طليطلة . قال ، وإنّما عمرت قلعة رباح وكركي بخراب أوريط .

[من البسيط]

اللهُ أَعْطَــاكِ فَتْحــاً غيرَ مُشْتَرِكِ ... ورَدَّ عَزْمَكَ عَن فَوْتٍ إلى دَرَكِ[4]

أَرْسِلْ عِنانَ جَوادٍ أَنْتَ راكِبُهُ ... واضْمُمْ يديكَ ودَعْهُ في يدِ المَلِكِ

حتّى يصيرَ إلى الحُسنى على ثِقَةٍ ... يَهْدِي سَبِيْلَكَ هادٍ غيرُ مؤتفكِ[5]

قد كانَ بَعْدَكَ للأعداءِ مملكةٌ ... حتّى استدارتْ عليهمْ كورةُ الفلكِ

سارَت بكَ الجُرْدُ أو طارَ الفَضاءُ بها ... والحَيْنُ قد قيَّد الأَعداء في شَرَكِ

فما تركْتَ كَمِيّاً غيرَ مُنعَفِرٍ ... ولاتَركْتَ نَجِيْعاً غَيْرَ مُنسَفِكِ

ناموا وما نامَ موتورٌ على حَنَقٍ ... أَسرى (إذا فرصة ... من السلك ؟)[6]

فَصَبَّحَتْهُم جُنودُ الله باطشةً ... والصُّبْحُ من عَبَراتِ الفَجْرِ في مُسَكِ[7]

مِنْ كُلِّ مُبتدرٍ كالنَّجمِ مُنكَدِرٍ ... تَفِيْضُ أنفسُهم غَيْظاً من المُسَكِ[8]

فطاعَنوكم بأرْمَاحٍ وما طعَنَتْ ... وضارَبُوكم بأسْيافٍ ولم تَحِكِ[9]

تعجّل النَّحْرُ فيهمْ قبلَ مَوْسِمِهِ ... وقدَّم الهَدْيُ منهم كُلَّ ذي نُسُكِ[10]

فالطَّيرُ عاكفةٌ والوحشُ واقفةٌ ... قَد أثقلَتْها لُحومُ القَوْمِ عن حَرَكِ

---

(٤) الفوت مصدر فاته الأمرُ : ذهب عنه . والدَّركُ من مصادر أدركه أي لحقه . يقال : أدركه دَرَكاً وإدراكاً ومُدركاً .

(٥) يقال : أَفِكَ الرجل أي صُرف عن الخير . وأُفِكَ : ضعف عقله ورأيه .

(٦) كذا .

(٧) مُسِك جمع مُسكة : وهي البقية .

(٨) مُسَك جمع مسكة وهي القوة . (ولعلّها كذلك هنا) . وانكدرت النجوم : تناثرت . وانكدر (الطير) انقض ، وأظن المقصودُ انصباب النجم (تشبيهاً له بالشّهاب) .

(٩) حاك فيه السَّيف (وغيره) حَيْكاً : أثَّر .

(١٠) استعار من مصطلحات فريضة الحجّ .

عَـدَتْ على كُـلّ عـادٍ منهمُ أشِرٍ   يَعِثْنَ في حَنْجرٍ رَحْبٍ وفي حَنَـكِ[11]
كُلي هَنيئاً مَرِيئـاً واشكري ملكاً   قَرَتْـكِ أَسْيـافُـهُ في كُـلّ مُعترِكِ
فلـو تنضَّـدت الهَـامـاتُ إذ نُشِرَتْ   بالقاع [أَلْحَقت] الغِيطانُ بالنَّبكِ ![12]
(أبْرِحْ) وطالبْ بباقي الدهرِ ماضِيَـهُ   فيومُ بَـدْرٍ أقـامَ الفَيْءَ في فَـدَكِ[13]
وكم مضَى لـك من يَوْمٍ (سَمـوْتَ ؟) بـهِ   في مَأقطٍ برماح الخَـطِّ مُشْتَبِـكِ[14]
بـالنّقـع بمُرْتكمٍ ، بـالمـوتِ مُلتئمٍ   بالبِيْضِ مُشْتَمِلٍ بالسُّمْر مُحْتَبِكِ[15]
فحصُ القبـاب إلى فحص الصعـاب إلى
أوُريولةٍ (...؟) مـداسـات إلى السّكـكِ[16]
وكمْ على (حَبْر محمود ؟) وجارَتِـه   للرُّومِ من مُرٍّ ثُكْـلٍ غير مُتَّرِكِ[17]

---

(١١) الأَشَرُ : البَطرُ والمرح ، أو أشَدُّه . والحَنْجَر جمع الحَنْجَرة (استعمل الجمع لمعنى المفرد) .

(١٢) الغيطان جمع الغائط : المطمئن الواسع من الأرض . والنبك : المكان المرتفع .

(١٣) فَدك : بينهـا وبين المـدينـة يومـان . وكان أهلهـا صـالحوا النبي ﷺ على النصف من ثمارها سنة ستّ ، وكانت له خـالصـة لأنـه لم يوجف المسلمون عليهـا بخيل ولاركاب .
(الروض المعطار : ٤٣٨) .

(١٤) المأقط : موضع القتال أو المضيق في الحرب

(١٥) ارتكم وتراكم : تجمعَّ .

(١٦) الفَحْص : كل موضع استوى من الأرض أو كشف من نواحيـه وبُسِـط ، وكثر إضـافـة (فحص) إلى اسم مكان . وقد تسمى بذلك قرى أقيمت في تلك (السُّهول) .
ـ وأوريولة Orihuela حصن بالأنـدلس من كُوَر تُـدمير (على بعـد ٢٣ كيلو متراً من مُرسية)

(١٧) كذا

وفَيْتَ للصُّفْرِ حتى قيل قد غَدَرُوا　　سَمَوْتَ تطلبُ نَصْرَ اللهِ بالدّرَكِ[١٨]

فأَسْلَمَتْهُم إلى الاسلامِ غَدْرَتُهم　　وأَذْهَبَ السّيفُ ما بالدِّينِ من حنكِ[١٩]

يا أيُّها المَلِكُ السّامي بهمَّتِهِ　　إلى رِضى اللهِ لا تَعْدَمْ رضى المَلِكِ[٢٠]

ما زلتَ تُسمعه بُشْرى وتطلعهُ　　أُخرى كَدُرٍّ على الأَجيادِ مُنسَلِكِ[٢١]

بَيَّضتْ وَجْهَ أميرِ المُؤمنين بِها　　والأرضُ من ظُلْمَةِ الإلحادِ في حَلَكِ

فاستشْعَر النَّصرُ واهتَّزتْ منابِرهُ　　بذكرِ أَرْوَع للكُفّارِ مُحْتَنِكِ[٢٢]

فأخْلَدَتْك ومَنْ والاكَ طاعَتهُ　　خُلودَ برٍّ بتَقْوى اللهِ مُمتسِكِ

وافَيْتَ والغيثُ زَجْراً قد بكى طَرباً　　لَمّا ظفرت وكم بكًى من الضَّحِكِ[٢٣]

وتَمَّ اللهُ ما أنشأتَ من حَسنٍ　　بكُلِّ منسَكبٍ منهُ ومُنْسَبِكِ

وعن قريب تُباهي الأَرض (من زهرٍ ؟)　　سماءَها (بها ؟) غَضَّة الحبك ؟[٢٤]

فعُد وقُد واعتمد واحمد وسُدْ وأبدْ　　وقلْ وصلْ واستطِل واستول وانتهكِ[٢٥]

وحَسْبُكَ اللهُ فرداً لا نظيرَ لَهُ　　تُغنيك نُصْرَتُه عن كُلِّ مُشترِكِ

---

(١٨) الصُّفر مما يُعبّر به العرب عن الروم (البيزنطيين) ومَنْ في منزلتهم كالإفرنج والقشتاليين الخ .

(١٩) كذا في المطبوع . وكأن الشاعر يريد معنى من حنق : وهو الغيظ أو شدّته .

(٢٠) خاطب الشاعر الأمير تاشفين وكان ولياً للعهد بلقب الملك . وذكر أباه علي بن يوسف في آخر البيت أيضاً بلقب المَلك تفخيماً . وكان لقب حكام المرابطين : أمير المسلمين

(٢١) الأجياد جمع جيد : وهو العنق

(٢٢) من الحنكة : الخبرة والتجربة

(٢٣) الزَّجْر : العيافة والتفاؤل ، وضربٌ من التكهّن .

(٢٤) كذا .

(٢٥) هذا على طريقة المتنبي ، وجاراه فيها من الأندلسيين ابن زيدون وغيره .

[٣٥]

وقال[1] أبو عبد الله يرثي أخاه عبد الملك بنَ مسعود بن أبي الخصال[2] :

[من الكامل]

الصَّبْرُ أَجْمَلُ لو أطَقْتُ الأَجْمَلا ... وأخفُّ لو صَدق التجمُّلُ مَحْمَلا

يا واحِداً عَمَّ الجميعَ مُصَابُهُ ... ما كنتَ إلا عارِضاً مُتهلِّلا

قُدّمت قبلي في الوَفاة وهكذا ... يتقدّم الأَخْيار أوّلَ أوّلا

ولقد تَخَرَّمتِ المَنِيّة شَطرنا ... وبَقِيْتُ في شطْرٍ فكان الأَفْضَلا

عِشْنا بذلك حِقْبَةً في غِبْطَةٍ ... ونَداك يحملُ كلّ عِبْءٍ أَثْقَلا

وسَددت خُلّةَ مَنْ مَضى لَمّا انقْضَى ... واستَقْبَل الباقُون خَطْباً مُقْبِلا

وكفيتَني وكَفَيْتَهم ما يُتّقى ... وجَلْوتَ خَطْبَ الدَّهرِ عَنّا فانْجلى

فَليبكينَّكَ كلُّ نادٍ صَالحٍ ... وليَنْدُبَنَّكَ منَ أحْبّ ومَنْ قَلى[3]

---

[٣٥]

(١) الذّيل والتّكملة ٥ /١ : ٤٨

(٢) هو أبو مروان عبد الملك بن مسعود بن خلصة بن أبي الخصال الغافقي معدود في علماء قرطبة وأصله من فرغلّيط : وهو أخو ذي الوزارتين أبي عبد الله وصغيرهُ .
وكان من أهل العلم والأدب ، والتقدم في الكتابة والبلاغة والفصاحة ، ذا حظّ من قرض الشعر .
وكتب عن بعض رؤساء لمتونة (رجال دولة المرابطين) بمراكش وفاس وغيرهما ؛ ثم تخلى عن ذلك وانقطع إلى الله وأقبل على ما يعنيه من أمر معادِه . وتوفي سنة ٥٣٩ وهو ابن ستين سنة تقريبا .
(الذيل والتكملة ٥ /١ : ٤٧ والتكملة رقم ١٧٠٦ وبغية بالملتمس رقم ١٠٧٦ والمعجب : ١١٤) .

(٣) عطل من كذا : تَجَرَّدَ عنه .

وليبقيَنَّ عليــــكَ ذِكرٌ نــــاصِــعٌ ... مـــا أَدْبَر اللَّيْــــلُ البَهيمُ وأَقْبَــــلا
جَمّلت عِشْرَتِنا وطُـول زَمـانِنــا ... لَمّــا تفَرَّطِنـــا فكَــــان كَــلا ولاَ
يـا مَنْ تَـواضـع قَـدْرُهُ عن رِفْعَــةٍ ... مـا فَـوْقَ مــا أَصْبحْتَ فيــهِ مُعْتَلى
فاستَوْفِ حَظَّــكَ عنـد ربِّـكَ كُلَّـه ... واحْطُـطْ لَـدَيْـهِ فقـدْ بَلغتَ المَنزلا
فَلــهُ تركْتَ الغَــانِيَــات ولم تَـزلْ ... بـالبَـاقِيـاتِ الصَّالحـاتِ مُـوَكَّـلا
مـا مَرَّ يـومٌ من حيـاتِـك عـاطِـلاً ... بل كانَ بـالتَّقْوى مُحلّىً مُخْمـلا[٤]
واللّيلُ يعرفُ منكَ نِضْواً خـاشعـاً ... للّـهِ يَسْكُب فيـه دَمْعــاً مُسْبَـلا[٥]
مــا ذاقَ طعمَ النّــوم إلا خِلْسَــةً ... بَخِلتْ على أَجْفــانِـــه أَنْ يُكْحَــلا
فطــوَاه بينَ رُكــوعِــه وسُجــودِهِ ... بــدموعِ تَقْـواهُ مُنَــدًّى مُخْضَــلا
أَحْشَــاؤه مَــوْقُــوذةٌ ولِسَـــانُــه ... يُهْـدِي إلى الله الكِتَــابَ مُرَتَّـلا[٦]
مـاذَا أُؤَمِّلُ بعـدَ وضْعِـكَ في الثَّرى ... هيهــاتَ أخْطــأ آمـلٌ مــا أمّــلا
يـا واهبَ العِلْـقِ النّفيسِ أخَـذْتَـهُ ... فـاجْعَلْـهُ في دارِ الرِّضــا مُتَقبَّـلا[٧]
ولقَــدْ فقــدتُ سَمِيَّـــهُ مِنْ قَبْلِــهِ ... مُتَضَرِّجــاً بــدمِ الفُــؤاد مُقَتَّــلا[٨]
رُزءٌ على رُزْءٍ تتــــابَــع ثُكْلُـــــهُ ... وكَمــا ثكلتُ فَغــايَتِي أَنْ أُثْكَــلا
عــــــــزيَّتُ نفسِي عَنْهُما ولَرُبَّما ... غلبَ البُكاءُ تَجَلُّــدي فــاسْتَرْسَلا

---

(٤) في الذيل والتكملة مُخْملا : وأشبه أن تكون مُجْمَلا (تخفيفاً من مُجَمَّل) .

(٥) النّضْو : المهزول .

(٦) الموقوذ : الشديد المرض المشرف على الموت .

(٧) العلق : النفيس من كل شيء يتعلق به القلب

(٨) سَميّه : هو ابن الشاعر (وابن أخي المرثي) عبد الملك بن محمد (انظر القصيدة السابقة في هذا الغرض بالمستدرك) .

يــا أيهــا السَّهمُ المُغبُّ لِـوَقْتِـه لابُـدّ يَـوْمـاً أن تُصِيبَ المَقْتَـلا[٩]

عُــذْراً أبــا مَروان عِشْتُ ولم أَمُتْ كَمَـداً عليـكَ وكان مَـوتي أسْهَـلا

فاذْهَب كما ذهَبَ الحَيـا أَحْيَي الرُّبـا عُلْـواً وغـادَر كل خَفضٍ منهـلا

فلقَـد تركتَ بنـاءَ صِدقٍ خـالـداً يبقى جَديـداً ، والجَديـدُ إلى بلى

يـاليتَني قَـدْ مِتُّ قَبْلَـكَ سـابقـاً وبقيتَ بَعْـدي ثـابتـاً مُتَهَلّـلا

يَـأْوي إليـكَ طَلِيقُنـا وأَسِيرُنـا وَتَفُـكُّ رِبْقَـةَ كلّ عـانٍ مُبْتلى[١٠]

لا تُخْلِفُ الأيّـامُ مثْلَـكَ مـاجِـداً أَنْدى وأَعْطى في الحُقـوق وأبـذَلاَ

وأَشَـدَّ في ذاتِ الإلَـهِ صريمَـةً وأَمـدَّ شـأواً في الصّعـاب وأقولا[١١]

لَـوددتُ بِرَّكَ أَن يشـابَ بجفـوةٍ فيكـونَ عُـذراً عنـد قَلْبي إن سَلا

لكنْ صفَتْ منكَ الخلائقُ واعتْلَتْ عن عِلَّـةٍ تُبْـدي العيون تَنصُّـلا(؟)

صلّى عليــكَ اللهُ من مُتَقَــدّم ظهرَتْ كرامَتُــهُ فكانَ الأَمْثَـلا

وسَقْتـكَ دِيمَـةُ مُزنَـةٍ هَطّـالـةٍ تَرْوي مع العِلْم المُنيفَ المُجْمـلا[١٢]

وتعهـدَّتْـكَ من المُهَيْمن رَحْمَــةٌ فتَحتْ إلى الفِردْوَسِ بَـابـاً مُقْفَـلا

أَعْـدَدْتُ بعـدك حـالَتين هُما هُما صَبْراً أُقيّــدهُ ودَمْعــاً مُهْمَـلا

هَمَلَتْ عليــكَ العَيْنُ إذْ أقَرَرْتَهـا ومن الوَفـاءِ بعهـدِهـا أَن تَهْمِلا[١٣]

---

(٩) يقال : أغَبَّهم الشيء : تأخّر عنهم .

(١٠) العـاني : الأسير ، والربقـة : حلقـة لربـط الـدواب (وتستخـدم لمعنى ربـط الأسير والسّجين وشبهها) .

(١١) الصَّريمة : العزيمة على الشَّيء .

(١٢) المُزنة : السحابة تحمل المطر .

(١٣) يقول إنه كان فاضلاً صالحاً ، مُرضيا أهله فأقرّ أعينهم ، ويقال : « أقر ابنه عينه » إذا حقّق ما يؤمّله فيه ، وكان مرضياً . وفي شعر الشاعر صنعةٌ لفظية يسلكها مسلكاً سهلاً .

لم تَبْقَ لي في العَيشِ بعدكَ لَذّةٌ ولئن أمرَّ مذاقُهُ في ما حَلا
ناجيتُ قَبْرَك والدّموع سَوافِح ورأيتُ شَخْصَك بالضّمير مُخيَّلا
وودتُ إذْ عِشْنَا معاً أنّا مَعاً إذْ فاتَ صِنْوَك أنْ يَكونَ الأعْجَلا[14]

[٣٦]

وقال[1] [من الكامل]

ومُنافق يُبدي انْفِعالَ مُنافقٍ مُتَبسّماً وضَميرُهُ مُتَجَهِّمُ
حاجَاك مُكْتَتِماً بما في نَفْسِه ولَطِيْفُ ذِهنكَ مُخْرِجٌ ما يكْتُمُ
وتُرِيدُ عَدْلاً من سَجِيّةِ جائرٍ ومَتى أفادَ الشّهدَ يوماً أَرقَمُ ؟[2]

[٣٧]

في ترجمة محمد بن هشام بن أحمد بن وليد الأموي (ابن أبي جمرة) من أهل مُرسية أنّه كان فَقِيهاً حافظاً ، وقال ابنُ الأَبار (المعجم ١١٨) إنّهُ وَلِيَ قضاءَ غَرْنَاطة ، فظهرت منه نَزاهة .

وله يقول أبو عبد الله بنُ أبي الخِصال في صدر رسالةٍ كتَبها إليه شافعاً لديه[1] : [من الكامل]

---

(١٤) الصِّنْوُ : الأخ الشقيق (وتُطلقُ على المِثلْ ...) والمرثي أَخُوه الشقيق .

[٣٦]

(١) الذخيرة ٣ /٢ : ٧٩٧

(٢) الأرقم : أخبثُ الحيّات ، وأطلبها للنّاس .

[٣٧]

(١) معجم شيوخ الصدفي لابن الأبار : ١١٨

حَـظُّ الكريمِ وَإنْ تَطـاولَ عُمْرُه ذِكرٌ يَفُـوزُ بـِـهِ مـع الأَيّـامِ

يَبْقى مَعَ التَّقْوى وَيَخْلُدُ بَعْـدَهُ وَحَيـاتُـه حُلُمٌ مِنَ الأَحـلام

وَلئِنْ تَجـانَفَتِ العُـلا عَنْ مَعْشَرٍ فَلَشـدَّ مـا جَنَحتْ إلى ابنِ هِشـامِ[2]

أَلْقى إلَيْـهِ العِلْمُ مِنْ أَفْـلاذِهِ مـا صـانَـهُ عَنْ عَلْمِ كُـلِّ إمـامِ

[٣٨]

وله مِنْ أُخْرى[1] [من الطويل]

ومن كان في حُكمِ الـزَّمـانِ مُصَرَّفـاً فـلابُـدَّ أن يَلْقى مُهيناً ومُكْرِمـا

[٣٩]

وكتب ذو الوزارتين أبو عبد الله بن أبي الخصال يستدعي أبا بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قُزمان الزُّهري[1] إلى مجلس أُنس

---

(٢) تجانف عن طريقه : عَدل . وابن هشام هو المخاطب المترجم في المعجم المذكور .

[٣٨]

(١) الذخيرة ٣ /٢ : ٧٩٧

[٣٩]

(١) تَرْجم له ابنُ خاقَان في القَلائد باسم الوَزير الكاتِب أبي بكر بن قُزمان ، وذكَر خِدمته في دولة المتوكّل بن الأَفْطَس صاحب بَطَلْيَوس ، وترجم له ابن بَشْكوال في الصّلة ، وقـال : كانت عنده درايةٌ ، وروايةٌ ، ولغة ، وأدب وافر : وأنّه توفي سنة ٥٠٨

وأبو بكر هذا هو عَمُّ سَمِيِّـهِ (أبي بكر محمد بن عيسى بن عبد الله بن قزمـان المعروف بابن قزمان الأصغر) . ويكون العَمّ الذي خاطبة ابن أبي الخصال ابنَ قزمان الأكبر .

(راجع ترجمته في الإحاطة ٢ : ٤٩٥ ، وتعليق محقّق الإحاطة في هذا الجزء : ٥٨١ ـ ٥٨٢)

[من البسيط]

إنّي أهُـزُّك هَـزّ الصّـارمِ الخَـذِمِ ... وبيننـا كُلُّ مـا تَـدْرِيْـهِ من ذِمَمِ[2]

حاشاك من قطع أُنسٍ أنتَ واصِلةُ ... بمـا لـديـكَ من الآدابِ والحِكَمِ

وشَتِّ شَمْـلِ كرامٍ أَنتَ نـاظِمُـهُ ... ورَدِّ دَعْـوةِ أَهَـلِ المَجْـدِ والكَرمِ

ولـو دُعِيْتُ إلى أَمثـالِهَـا لسعَتْ ... إليـك سعي مشوقٍ هـائمٍ قَـدَمي

وإن نشطتَ لِتَصْريفي صَرفْتُ لـهُ ... وجْهِي وكنتُ من الأَعْوانِ والخَدَمِ

ومـا أُريْـدُ سوى عَفـوٍ تَجُـودُ بـهِ ... وفي حـدِيثـك مـا يَشفِي مِنَ الألَمِ

أَنتَ المُقَـــدَّم في فَخْرٍ وفي أدَبٍ ... فاطْلَعْ عَلَيْنا طُلوعَ السَّيِّـدِ العَمَمِ[3]

فأجابه رَحِمَهُ الله

أَتى من المجـــدِ أمرٌ لا مَرَدّ لـــــه ... نَمْشِي على الرّاسِ فيـه لا عَلَى القَـدَمِ

لَبَّيْـكَ لبّيْـكَ أَضْعـافـاً مضـاعَفَـةً ... إنّي أجَبْتُ ولكنْ داعِيَ الكَرَمِ

لي هِمَّـةٌ ولأَهْلِ بـالعِـزّ مَطْمَحُهـا ... لا زلْتَ في كُـلّ مَجْـدٍ مَطْمَـحَ الهِمَمِ

وإنَّ حَقّــــكَ مَعْرُوفٌ ومُلْتَـــزمٌ ... وكيفَ يُـوْجَـدُ عِنـدي غَيْرَ مُلْتَـزم ؟

زَفْنٌ ورَقْصٌ ومـــا أَحْبَبْتَ من مُلَـحٍ ... عِنـدي وأكثرُ مـا تَـدْرِيـهِ من شِيَمِ[4]

حتّى يكـونَ كـلامُ الحـاضِرِيْنَ بِهـا ... عِنـدَ الصّبـاحِ ومـا بـالعَهْـدِ من قِـدَمِ

يـا لَيْلَـةَ السَّفْحِ هَـلاّ عُـدْتِ ثـانيـةً ... سَقى زمـانَـكِ هَطّـالٌ مِنَ الـدِّيَمِ

---

(٢) السّيف الخذم : القاطع .

(٣) العَمَمُ : من يعمّ القوم بمعروفه وخيره وعقله .

(٤) الزّفْنُ : الطرب والرّقص .

[٤٠]

وقال[1] في ليلة (مضادّة لليلة أنسٍ وصفها من قبل)[2] :

[من الخفيف]

بَعُــدَتْ ليلَــةٌ تــولّتْ ذَميْمَــهْ ... لم تَفِضْ فيضَ ديْمَــةٍ بعــد دِيْمَــهْ
ليلَــة لــو تَقَــدَّمتْ لاستَحقَّتْ ... شهرةَ الــذِّكْرِ قبلَ يَــوم حَلِيْمَــهْ
غسَلتْ لِمَّتي بصُبْــحِ مَشِيْبٍ ... وَمَحتْ لَيْلَــةً عَليَّ كريْمَــةْ
وورَائي من الخِضَــابِ قَصِيرٌ ... وهي زَبَّاءُ والشّبابُ جَذِيْمَــهُ ![3]

[٤١]

وقال[1] يصفُ كأساً صنوبريّة الشكل من عَنْبر منجّمة بذهب ، وفيها المُدام :

[من المتقارب]

وكأسٍ من اللَّيْــل مَخْلُــوقَــة ... تَبــدَّتْ من التِّبْر فيهــا نُجــومْ
تضمَّنَ بــاطِنُهــا قَهْــوَةً ... إذا مَردَ الهمُّ فضَّتْ رُجــومْ

---

[٤٠]

(١) الذخيرة ٣/٢ : ٧٩٤

(٢) انظر في هذا الملحق قافية القاف ، والفاء .

(٣) قصير ، والزبّاء ، وجذيمة أعلامٌ مشهورة ؛ ولهم ذِكر في التّواريخ ، وكتب الأمثال . وقد سبقت الإشارة إليهم (راجع فهارس الكتاب) .

[٤١]

(١) الذخيرة ٣/٢ : ٧٩٥

[٤٢]

ومنْ قَوْله[١] في غَرضِ الرِّثاء يَرْثي الفَقيهَ أَبا الحَسن بنَ مُغِيْث[٢] :

[من البسيط]

الـــدَّهْرُ ليسَ عَلى حُرٍّ بمُـؤتَمنِ	وأيُّ عِلْقٍ تَخطَّتْـهُ يَـدُ الـزَّمَنِ ؟
يَأتي العَفاءُ على الـدُّنيـا وسـاكِنهـا	كأنَّ آدمَ لمن يَسْكُنْ إلى سَكَنِ
يا باكياً فُرقة الأَحباب عن شَحَطٍ	هَـلاَّ بكَيْتَ فِراقَ الرُّوحِ للبَـدنِ ؟[٣]

[٤٢]

(١) الإحاطة ٢ : ٣٩٤ ـ ٣٩٦

(٢) أبو الحسن يونس بن محمد بن مغيث ، القرطبي ؛ ويُعرف بابن الصفّار (٤٤٧ ـ ٥٣٢) قال ابن الأبار في ترجمته « جلالة هذا الشيخ ونباهة بيته أشهر من أن تُذكر وأوضح من أن تُشرح » . وكان أبو الحسن ـ كما ترجم له ابن بشكوال ـ عارفاً باللغة والإعراب ، والأنساب وافِر الأدب ، راويةً ، مشاوراً ، عارفاً بعلماء الأندلس وملوكها . أخذ الناس عنه كثيراً . قال الذهبي : كان من جلّة العلماء في زمانه .

(الصلة ٢ : ٦٨٨ وتذكرة الحفاظ ٤ : ١٢٧٧ والعبر ٤ : ٩٠ وشذرات الذهب ٤ : ١٠١ ومعجم شيوخ الصوفي : ٣٢١ وسير أعلام النبلاء ٢٠ : ١٢٣) .

(٣) هذا عَرْضٌ لعلاقة الروح بالجَسد ، من خلال المنظور الإسلامي . فالروح أسمى من الجَسد ؛ ولقاؤهما في الأرض لغاية قَصَد إليها الخالق جلّ وعَلا : و (الشَّرَكُ) في البيت الخامس هو الجَسَد . ولقاء الروح والجسد (الحياة) يؤدّي إلى تصرّف : فإن كان في مرضاة الله تعالى (في اتّباع الشّرائع) كان خيراً ، وإلاّ فالعاقبةُ وخيمة .
ـ وكان ابن سينا قد عَرَض في قصيدته العينيّة إلى هذا الموضوع فجمع ـ كما في تاريخ الفكر العربيّ : ٤٢٠ ـ رأي أفلاطون إلى رأي أفلوطين في هبوط النفس ثم أشار إلى اتصالها بجسد ، ونفورها من الجسد ثم اطمئنانها مع الأيام إليه . ثم وصف ابن سينا فرح النفس إذا هي فارقت الجسد . وتساءل عن الحكمة من ذلك كلّه وأظهر الشكّ من =

نُـورٌ تَقَيَّـــــد في طِيْنٍ إلى أجَـلٍ ... وانحازَ عَنْواً وخلّى الطينَ في الكفَنِ[4]

كالطَّيْرِ في شَرَكٍ يَسْمُــو إلى دَرَكٍ ... حَتّى تخلَّصَ من سُقْمٍ ومِنْ دَرَنِ[5]

إنْ لم يكُنْ في رِضى اللهِ التقــاؤهُما ... فَيـا لَهـا صَفْقَـةً بُتَّت على دَغَنِ[6]

يا شدَّ ما افْتَرقا من بَعْـدِ مـا اعْتَنَقـا ... [كأنّهـا صُحْبَــةٌ] كانتْ على دَخَنِ![7]

ورُبَّ سـارٍ إلى وَجْـهٍ يُسَرُّ بــهِ ... وافى وقـد نَبتَ المَرْعى على الـدِّمَنِ[8]

أَتى إلى اللهِ لا سَمْـــــعٌ ولا بَصرٌ ... يـدعُو إلى الرُّشْـدِ أو يَهْـدِي إلى السننِ

في كُـلّ يَـوم فِراقٌ لا بقـاءَ لَـهُ ... مِن صـاحبٍ كرمٍ أو سيّـدٍ قَمِنِ

أعْيـا أبـا حَسَن فَقـدُ الـذين مَضَوْا ... فَمنْ لنا بالذي أعْيَـا أبـا حسن ؟!

كانَ البقيّـةَ في قـومٍ قـد انْقَرَضُـوا ... فَهاجَ ما شـاءَ ذاكَ القرنَ من شَجَنِ

يُعَـــدُّ فرْداً وفي أثْـوابـــهِ زُمَرٌ ... من كلّ ذي خُلُـقٍ غَمْرٍ وذي فِطَنِ[9]

وإنَّ مَنْ أَوجَـدَتْنَـا كُـلَّ مُفْتَقَـدٍ ... حَيـاتُـه لَعـزيـزُ الفَقْـدِ والظَّعَنِ

مَنْ للمُلـوكِ إذا خفَّتْ حُلـومُهُم ... بما يقاومُ ذاكَ الطّيشَ من سكنِ ؟

= الغاية التي هبطت النفس من أجلها أو أُهبطت إلى الجسد » .

وأول القصيدة :

هبطت إليـك من المحلّ الأَرفـع ... ورقــــاء ذاتُ تعـزّز وتمنُّـع

(٤) عنا عُنُوّاً : خضع ، وذلّ واستأسر .

(٥) الشرك :الجسَد .

(٦) الدغن : الدَّجن . (أم هي درن ؟ رغن ؟) .

(٧) الدَّخنَ : الحقد .

(٨) من قول الشاعر :

وقـد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حـزازات النفـوس كما هِيَـا

(٩) الغمر : الكثير ، الواسع .

ومنها :

يا يُونسَ الأُنْسِ أَصْبَحْنا لِوَحْشَتنـا نَشْكُو اغْتِراباً وما بِنَّا عَنِ الوَطَنِ[10]

ويـا مُطـاعـاً مُطِيْعـاً لا عِنَـادَ لـهُ في كُـلّ أَمرٍ عَلى الإِسـلام مُـؤتَمنِ

كَمْ خُطَّـةٍ كارْتِجَاجِ البَحْرِ مُبْهَمةٍ فَرَّجْتَهـا بحسـامٍ سُـلَّ من لَسَن

طودُ المَهابةِ في الجُلَّى وإن جَـذَبَتْ عِنـانَـهُ خَلْـوةٌ هـزَّت ذُرى وَثَنِ

أكرِم بـه سَبباً تَلْقى الرَّسولَ بـه لِخمْسِ واردةٍ في الفَرْضِ والسُّنَنِ

نـاهِيـكَ من مَنْهَجٍ شُمُّ القُصورِ بـهِ (؟) هُـدًى فمنْ فَـدَنٍ عـالٍ إلى فَـدَنِ[11]

من كُـلّ وادِي التُّقى يسقى الغمامُ بـهِ فَيستهـلُّ شروقَ الضَّرْعِ بـاللَّبَنِ

تَجمَّلتْ بـكَ في أحْسَـابِهـا مُضَرٌ وأَصْلُ مَجْدِكَ في جُرثُومَـةِ اليَمنِ[12]

من دَوْلَةٍ حولَها الأَنصارُ حـاشِدَةٌ في طـامحٍ شـامخِ الأَركانِ والقُنَنِ

من الـــذين هُمْ آوَوْا وهُمْ نَصَرُوا من غَيَّةِ الدِّين لا من جـذوةِ الفِتَن (؟)

إن يَبْــدُ مُطَّلَـعٌ منهُمْ ومُسْتَمـعٌ فارغَبْ بنفسكَ عن لَحْظٍ وعن أَذَنٍ[13]

مـا بعـدَ مَنْطقِــهِ وَشْيءٌ ولا زَهَرٌ ولا لأَعْـلاقِ ذاكَ الـــدُّرِّ من ثَمَنِ

أقـولُ هــذا وفينـا فَضْـلُ سُؤدده أستغفرُ اللهَ مِــلْءَ السِّرِّ والعَلَنِ

مُحَمَّــدٌ ومُغِيْثٌ نِعمَ ذا عِـوَضـاً هُما سلالَـةُ ذاكَ العـارِضِ الهَتِنِ[14]

---

(١٠) يونس : اسم المرثيّ . وبان هنا : بَعدُ واغترب .

(١١) الفَدنُ : القصر المَشيد .

(١٢) الجرثومة : الأَصل .

(١٣) أَذِن له : استمع .

(١٤) هما ولدا المرثيّ .

تَقَيَّـلا هَـدْيَـهُ في كُـلّ صـالِحَـةٍ	نصّ السَّوابق عن طَبْعٍ وعن مَرَن[15]
مـا حـلَّ حُبْـوَتـهُ إلاَّ وقـد عقَـدَا	حُباً بما اخْتَار من أَيْدٍ ومن مِنَن[16]
عَهد الأَحبَّة عندي حُسْنُ عِهْدِهمـا	وإنَّ يُونسَ في الأَثـواب والجَنَن[17]
عِلْماً وحِلْماً وتَرْحِيبـاً وتكرمـةً	للـزّائرينَ وإغضـاءً على وكَن[18]
يـا وافـد الغَيْثِ أوسِعْ قَبْرَهُ نُـزُلاً	ورَوِّ ما حَوْلَ ذاكَ (الربع ؟) من ثُكَن[19]
وطبَّـق الأَرض وَبْـلاً في شفـاعَتـهِ	فَنِعْمَ رائـدِ ذاك الرِّيفِ واليمن (؟)
وأنتِ يـا أَرْض كُـوني بَرَّةً بـأبي	مَثْوًى كريمٍ ليوم البَعْثِ مُرْتَهن[20]
وإن تَردَّتْ بِتُربٍ فيـك أَعْظُمـهُ	فكَمْ لَها في جنـانِ الخُلْـدِ من رَدَن![21]

---

(١٥) تقيّل أباه : أشبهه وعمل عمله . وسَيْرٌ نصٌّ : جِدٌّ رفيع . والنصيص : مثله .

(١٦) الحُبوة : الاحتباء بالثوب . واحتبى : جمع بين ساقَيْـه وظهره بثوب ونحوه ، أو بيديه . واحتبى بالثوب : اشتمل .
- وحَلّ حبوته عكس احْتبى . وكنى الشاعر هنا بِحَلّ الحُبوة عن الموت .

(١٧) الجَنن : القبر ، أو الكفن .

(١٨) يقال : زكِنَ الخبر : علمه ، أو ظنه فأصاب .

(١٩) الثكنة (في أحد معانيها) : القبر ، والجمع : ثُكَن .

(٢٠) أبو المثوى هنا ساكن القبر : المرثيّ .

(٢١) الرَّدَن : الخزّ .

[٤٣]

وقال[١] في رواقصِ قباحِ الوُجوه ، وبينهنّ واحدةٌ أَشْبَه[٢] منهنّ :

[من المنسرح]

وَلَيْلَــــةٍ طُــولُهــا عليَّ سَنَـــهْ بــاتَ بهـا الجَفْنُ نــادِبـاً وَسَنَــهْ

بـــأرْبَـــعٍ بينَهُنّ واحــــدةٌ كَسَيِّئــاتٍ وبَيْنَهـــا حَسَنَـــهْ !

---

[٤٣]

(١) الذخيرة ٣/٢ : ٧٩٥ .

(٢) يعني ذات وجه مقبول ، بينهنّ .

الفهارس

فهرس الآيات الكريمة

الآية | الصفحة

سورة البقرة : (٢)

آل عمران : (٣)

الآية | الصفحة

الآية | الصفحة

الآية الصفحة

فهرس الأحاديث

(منسوقة على أوائلها كما وردت ، مكتفًى بمطالعها في الفهرس)

الحديث	الصفحة
« إنكم لن ترجعوا إلى الله بأفضل مما خرج منه » .	٢١٤/ح
« إن لكل إيمان حقيقة .. » .	٥٢٧
« إن لله ملائكة فضلاً » .	٥٠٦
« إنما هذه القلوب أوعية » .	٢١٥
« إن الملائكة تضع أجنحتها .. » .	٢٠٠/ح
« إن من شر الناس ذا الوجهين » .	٥٨٣
« إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى » .	٢١٤
« إنه ستكون هنات وهنات » .	٥٧٨
« إني فرط لكم وإني شهيد عليكم » .	٣٦٤
« إني لأعرف كلمة لو قالها .. » .	٥٨٣
« إياكم وخضراء الدمن .. » .	٢٠٦/ح
« إياكم والطيرة .. » .	٥٨٠
« آية الإيمان حب الأنصار » .	٥٧٦
« أي الكلام أفضل ؟ فقال : ما اصطفاه » .	٥٨٥
« أي الناس أشد بلاء » .	٩٦
« أيكم يحب أن يغدو إلى بطحات » .	٢١٢

ـ ب ـ

« بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » .	٥٨١
« البيت إذا تلي فيه كتاب الله » .	٢١٥
« بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة » .	٥٧٦

ـ ت ـ

« تعهدوا جيرانكم ببركم » .	٥٨٤

ـ ث ـ

« ثلاثة لا يكلمهم الله .. » .	٥٧٧

الحديث	الصفحة

الحديث	الصفحة
« المرء مع من أحب » .	٥٨٤
« مر رسول الله في كتيبة خضراء » .	ح ٢٣٧
« المسلم أخو المسلم » .	٥٨١
« المسلم من سلم المسلمون .. » .	٥٧٤
« مطل الغني ظلم » .	ح ٣١٧
« من احتكر فهو خاطئ » .	٥٨٢
« من استرعى رعية فغشهم .. » .	٥٧٧ - ٥٧٨
« من استظهر القرآن .. » .	٢١٦ - ٢١٧
« من اقتطع حق امرئ مسلم .. » .	٥٧٧
« من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله » .	٥٨٨
« من جمع القرآن فقد حمل أمراً عظيماً » .	٢١٦
« من حمل علينا السّلاح » .	٥٧٧
« من حلف على يمين فرأى خيراً منها » .	٥٨٢
« من خرج من الطاعة وفارق الجماعة » .	٥٧٨
« من خَرج على أُمتي يضرب بَرَّها » .	٥٧٨
« من رأى منكم منكراً .. » .	٥٧٥
« من سن في الإسلام سنة حسنة .. » .	٥٨٥
« من سَمّع سَمّع الله به » .	٥٨٨
« من شربها في الدنيا لم يشربها .. » .	٥٧٩
« من ضرب الخدود وشق الجيوب » .	٥٧٧
« من ظلم على الأرض شبراً » .	٥٨٢
« من غل فهو في النار » .	٥٧٧
« من غشنا فليس منا » .	٥٧٧
« من قاتل تحت راية عمياء » .	٥٧٨

الحديث	الصفحة

فهرس الشعر

أشطار الأبيات

سمت لهم بالغور والشمل جامع ... بروق بأعلام العذيب لوامع

فباحت بأسرار القلوب المدامع ... ورب غرام لم تنله المسامع

أذاع به مرفضها المتصوب

والسمهرية تتلوه وتتبعه ... ما مال عرش رماح الخط ترفعه

خذ ما تراه ودع ما كنت تسمعه ... فالعلم في شهب الأرماح أجمعه

بين الخميسين لا في السبعة الشهب

فهرس الأمثال والأقوال

الموضوع	الصفحة
« خ »	
خُذْهُ ولو بقُرْطَيْ مارِيَة	٤٤٠
خَرّاجٌ وَلاّج	١٢٨
خلَع رسَنه وخلَع عِذَارَهُ	١٠٩
« ذ »	
ذنب صُحر	٤٣٧
« ر »	
رُبّ حَربٍ جُنيت من لَفظة ، وربّ عِشْقٍ غُرِسَ من لَحْظَة !	٣٢٤
ربّ عَجَلةٍ تَهبُ رَيْثاً	٣١٩
رُماةِ بَني ثُعَل	١٦٤
« س »	
سُرى القَيْن	٥٦١
سقَط العشاء به على سرحَان	٣١٠ـ١٦٤
« ش »	
شبّ عن الطوق ؛ و(شبّ عمرو عن الطَّوق) :	١٥٧، ٢٤٧
شرعك ما بلغك المحل	٤٣٨
شنشنه أعرفها من أخزم	٣٦٠
شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد	١١١
« ض »	
ضَرّج ما أنف الخاطب بِدَم	١٤٥

الموضوع	الصفحة
« ط »	
طوق عَمرو	٤٤٠
« ع »	
عادَ الأمر جَذعاً	١٤٢
العاشيةُ تَهيجُ الآبِية	٢٢١
غَمَراتٌ ثُمّ تَنجلي	٦٢٤
عِزّةٌ قَعْساء	١٨٨
عَضّ على ناجذه	١٤٤
عند الصّباح يحمدُ القَوْم السُّرى	٢٢٦ـ٢٩٩
	٦٧ـ٣٩١
	٥٣٨
« ف »	
في كُلّ شجرة نَار واستَمْجِدَ الْمَرْخُ والعَفار	٤٣٦ـ٥٥٦ ، ٥٥٩
فلان طيب المكسر	١٦٤
« ق »	
قال هجراً وبجراً	١٧١
قد أنصف القارة من راماها	٣٠٣
قدعت الفحل	١٣٢
« ك »	
كدابغة وقد حلم الأديم	٣٧١
كل الصيد في جوف الفرا	٣٢٨
كلا جانبي هرش طريق	٣١٠
كما تَدِينُ تُدان	٢٧٨

فهرس الأعلام

ب

ت

ث

-ج-

-ح-

ـ س ـ

ـ ش ـ

ـ ص ـ

ـ غ ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

فهرس القبائل والأقوام

(ن)

(هـ)

(ي)

فهرس البلدان والأماكن

(أ)

(ب)

(ت)

المصادر والمراجع

أ

الآثار الأندلسية الباقية في إسبانية والبُرتغال ـ محمد عبد الله عنان ـ طبع الخانجي ـ القاهرة .

الأحاديث القُدسيّة .

الإحاطة في أخبار غرناطة (١ ـ ٤) ـ تحقيق محمد عبد الله عنان ـ طبع الخانجي ـ القاهرة .

إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي ـ تحقيق د . محمد رضوان الداية ـ الطبعة الثانية ـ عالم الكتب ـ بيروت .

أخبار وتراجم أندلسية ـ (تحقيق د. إحسان عباس) بيروت .

أزهار الرّياض في أخبار عياض لأبي العباس المقّري (١ ـ ٥) ـ طبع القاهرة والرباط .

أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن حجر (بهامش الإصابة) .

أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها ـ الأسود الغندجاني ـ تحقيق محمد علي سُلطاني .

الاستقصا للناصري (١ ـ ٩) ـ طبع الدار البيضاء ـ المغرب .

الاشتقاق لابن دريد ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ نشر مؤسسة الخانجي ـ ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .

إعتاب الكتاب لابن الأبّار ـ تحقيق د . صالح الأشتر ـ مجمع اللغة العربية ـ دمشق ـ ١٩٦١ م .

الإعلام بمن حل مراكش فأغمات من الأعلام ـ عباس بن إبراهيم ـ (١ ـ ٩) مراكش ـ ١٩٧٤ م .

الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ للسخاوي ـ طبعة مصورة بدار الكتاب العربي ـ ١٩٧٩ م .

أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ـ تحقيق ل . بروڤنسال ـ طبع دار المكشوف ـ بيروت ـ ١٩٥٦ م .

أمثال العسكري = جمهرة الأمثال .
أمراء البيان لمحمد كرد علي (١ ـ ٢) ـ القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر .
أنساب الأشراف للبلاذري (أجزاء منه) .
الأنواء لابن الأجدابي ـ تحقيق عزة حسن ـ دمشق ـ وزارة الثقافة .
الأنواء لابن قتيبة ـ ط الهند .

ب

بدائع البدائه لعلي بن ظافر الأزدي المصري ـ المطابع الميرية المصرية ـ ١٢٨٧ هـ .
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبّي ـ طبع مجريط ـ ١٨٨٤ م .
بغية الوعاة للسّيوطي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة عيسى الحلبي ـ القاهرة (١ ـ ٢) .
البيان المغرب لابن عذاري المراكشي (١ ـ ٣) ـ طبعة مصورة في دار الثقافة ببيروت .
البيان والتبيين للجاحظ (١ ـ ٤) ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة .

ت

تاج العروس ـ الزبيدي (١ ـ ١٠) ـ طبعة مصورة عن الطبعة الأولى .
تاريخ الأدب الأندلسي ـ د . إحسان عباس (١ ، ٢) ـ دار الثقافة ـ بيروت .
تاريخ الفكر العربي ـ عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت (١ ـ ٦) .
تاريخ الطبري (١ ـ ١١) مع ذيله ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف .
تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ـ د . رضوان الداية ـ مؤسسة الرسالة بيروت ـ الطبعة الثانية .
شرح حماسة أبي تمام للتبريزي (١ ـ ٤) ـ طبعة مصورة في عالم الكتب عن الطبعة الأولى .
تذكرة الحفاظ لشمس الدين الذهبي (١ ـ ٤) ـ حيدر آباد الدكن ١٩٥٥ م .
التذكرة الحمدونية ـ تصنيف ابن حمدون ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ نشر معهد الإنماء العربي ـ بيروت ١٩٨٣ م (١ ـ ٢) .
ترتيب المدارك ـ القاضي عياض (١ ـ ٨) ـ وزارة الأوقاف ـ المغرب .
تعريفات الجرجاني ـ طبعة مصورة عن الطبعة الأوربية ـ بيروت .

تفسير القرطبي = (الجامع لأحكام القرآن) .
المفصل ـ د . جواد علي (١ ـ ١٠) .
التكملة ـ ابن الأبّار ـ طبعة القاهرة (١ ـ ٢) .
تكملة المعاجم العربية (١ ـ ٢) ـ دوزي .
تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ـ صلاح الدين الصفدي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة .
تهذيب ابن عساكر ـ تحقيق عبد القادر بدران (١ ـ ٧) ـ طبعة مصورة عن الطبعة الأولى .

ث

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ـ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

ج

الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ (١ ـ ٢٠) طبع دار الكتب المصرية ـ القاهرة .
جذوة الاقتباس ـ ابن القاضي (١ ـ ٢) ـ دار المنصور للطباعة ـ الرباط .
جمهرة أنساب العرب لابن حزم ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف ـ القاهرة .
جمهرة الأمثال ـ العسكري (١ ـ ٢) .

ح

الحلة السيراء ـ ابن الأبار (١ ـ ٢) ـ تحقيق د . حسين مؤنس ـ القاهرة .
الحلل الموشية في الأخبار المراكشية « مجهول » ـ تحقيق د . سهيل زكار وعبد القادر زمّامة ـ المغرب .

خ

خريدة القصر للعماد الأصفهاني ـ القسم المطبوع في تونس (١ ـ ٣) .
خزانة الأدب للبغدادي (١ ـ ١٣) ـ بتحقيق عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة .
الخصائص ـ ابن جني (١ ـ ٣) ـ تحقيق محمد علي النجار ـ دار الكتب ـ القاهرة .

د

دائرة المعارف الإسلامية (النسخة المترجمة إلى العربيّة) .

درة الغواص ـ الحريري ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة .

الديباج المذهب ـ ابن فرحون (١ ـ ٢) ـ القاهرة .

ديوان إبراهيم بن العباس الصولي (في الطرائف الأدبية) .

ديوان أبي الأسود الدؤلي ـ بغداد ـ نشر آل ياسين .

ديوان الأعشى ـ تحقيق د . محمد محمد حسين ـ القاهرة .

ديوان أمية بن أبي الصلت ـ جمعه وحقّقه د . عبد الحفيظ السطلي ـ دمشق .

ديوان أوس بن حجر ـ د . محمد يوسف نجم ـ بيروت .

ديوان تأبط شراً ـ تحقيق علي ذو الفقار شاكر ـ دار الغرب الإسلامي ط ١ .

ديوان أبي تمام (١ ـ ٤) ـ دار المعارف ـ القاهرة .

ديوان جرير (١ ـ ٢) ـ دار المعارف بالقاهرة .

ديوان جميل بثينة ـ تحقيق د . حسين نصّار ـ القاهرة .

ديوان حسان ـ تحقيق د . وليد عرفات ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٧٤ م .

ديوان الحطيئة ـ تحقيق د . نعمان طه ـ القاهرة (ط ١ ثم ط ٢).

ديوان ابن خفاجة ـ تحقيق سيد غازي ـ منشأة المعارف ـ الاسكندرية .

ديوان دريد بن الصمة ـ جمعه وحقّقه محمّد خير البقاعي ـ دار قتيبة ـ دمشق .

ديوان دعبل الخزاعي ـ تحقيق عبد الكريم الأشتر مجمع اللغة العربية (ط ٢) .

ديوان ذي الرمة (١ ـ ٣) ـ تحقيق الدكتور عبد القدوس أبو صالح ـ مجمع اللغة العربية ـ دمشق .

ديوان زهير بن أبي سلمى (صنعة ثعلب) ـ القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٦٢ هـ / ١٩٤٤ م) .

ديوان الشماخ ـ تحقيق الدكتور الهادي ـ دار المعارف ـ القاهرة .

ديوان أبي الشيّص الْخُزاعي ـ ط بغداد .

ديوان الصمة القشيري ـ جمعه د . عبد العزيز محمد الفيصل ـ النادي الأدبي ـ الرّياض .

ديوان طرفة بن العبد ـ شرح الأعلم الشنتمري ـ تحقيق درية الخطيب ، لطفي الصقال ـ مطبعة دار الكتب ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

ديوان عبد الله بن رواحة ـ د . وليد قصاب ـ دار العلوم ـ الرياض (١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م) .

ديوان عروة بن الورد ـ دمشق (وزارة الثقافة والإرشاد القومي) .

ديوان عمر بن أبي ربيعة ـ القاهرة ـ محمد محيي الدين عبد الحميد .

ديوان عمرو بن شأس ـ بغداد .

ديوان عمرو بن معديكرب ـ مجمع اللغة العربية ـ دمشق ـ الطبعة الثانية .

ديوان عنترة ـ شرح الأعلم الشنتمري ـ دمشق ـ طبع المكتب الإسلامي .

ديوان قيس لبنى ـ القاهرة .

ديوان لبيد ـ تحقيق د . إحسان عباس ـ الكويت ١٩٦٢ م .

ديوان المتنبي بشرح الواحدي ـ حققه ديتراصي (نسخة مصورة عن الطبعة الأولى) .

ديوان مجنون ليلى ـ القاهرة .

ديوان محمد بن عَمّار الأندلسي ـ تحقيق صلاح خالص ـ بغداد .

ديوان امرئ القيس ـ دار المعارف ـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم .

ديوان النّابغة بشرح الأعلم الشنتمري ـ دار المعارف بمصر .

ديوان أبي نواس ـ برواية الصولي ـ بغداد .

ديوان الهذليين ـ ط دار الكتب ـ القاهرة .

ديوان يزيد بن مفرّغ الحميري ـ بغداد .

ذ

الذخيرة لابن بسام (١ ـ ٤) ٨ أجزاء ـ تحقيق د . إحسان عباس ـ بيروت .

الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (أجزاء منه) حققها الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بنشريفة .

ر

رايات المبرّزين وغايات المميّزين ـ تحقيق د . محمد رضوان الداية ـ دار طلاس ـ دمشق .

الروض المعطار في خبر الأقطار (الحميري) ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ـ بيروت .
ريحان الألباب وريعان الشباب لابن المواعيني (مخطوطة مصورة) .

ز

الزهرة للأصفهاني (١ ـ ٢) ـ الأول مصور عن الطبعة الأولى والثاني طبع بغداد .

س

سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة ـ ط مصر (محمد أبو الفضل إبراهيم) .
سقط الزند (شروح سقط الزند) (١ ـ ٥) ط دار الكتب المصرية ـ القاهرة .
سمط اللآلي (مع مجموعة الأمالي) ـ الميمني ـ القاهرة .
سنن الترمذي ـ مصورة بدار الفكر ـ بيروت .
سنن الدارمي ـ مصورة عن الطبعة الأُولى .
سنن أبي داوود ـ بعناية محمد محيي الدين عبد الحميد .
سنن ابن ماجه ـ بعناية محمد فؤاد عبد الباقي ـ القاهرة .
سنن النّسائي ـ مصورة عن الطبعة الأولى في ٤ مجلدات .
سير أعلام النبلاء (١ ـ ١٣) ـ مؤسسة الرسالة .
السيرة النبوية لابن هشام (١ ـ ٢) ـ مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة .

ش

شذرات الذهب لابن العماد (١ ـ ٨) .
شرح الشريشي على مقامات الحريري (١ ـ ٢) ـ بولاق .
شرح المفضليات للأنباري ـ (مصورة عن الطبعة الأوربية) .
شروح سقط الزند = سقط الزند .
الشعر والشعراء لابن قتيبة (١ ـ ٢) ـ الطبعة الثانية ـ أحمد محمد شاكر ـ القاهرة .
شعر الخوارج ـ جمعه وحققه د . إحسان عباس ـ بيروت .
الشّفا للقاضي عياض ـ دار الفارابي ـ دمشق .

ص

صحيح البخاري ـ مصورة بدار الفكر ـ بيروت .

صحيح مسلم ـ بعناية محمد فؤاد عبد الباقي (١ ـ ٥) .

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد .

الصلة لابن بشكوال (١ ـ ٢) ـ عزة العطار ـ القاهرة .

صلة الصلة لابن الزبير ـ ليفي بروفنسال .

ط

تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري) ـ دار المعارف بالقاهرة (١ ـ ١٠ + الجزء الحادي عشر) .

طبقات ابن سعد ـ ط بيروت .

الطرائف الأدبية ـ صنعة عبد العزيز الميمني الراجكوتي ـ القاهرة .

طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب للسلطان الأشرف ـ المجمع العلمي العربي ـ دمشق .

طيف الخيال ـ للشريف المرتضى ـ طبع عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة .

ع

العبر للذهبي (١ ـ ٥) ـ الكويت .

عُجالة المبتدي وفضالة المنتهي ـ ط مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

المعجب للمراكشي ـ بتحقيق محمد سعيد العريان ـ مطبوعات المجلس الإسلامي الأعلى ـ القاهرة .

عصر الطوائف والمرابطين ـ (من تاريخ الأدب الأندلسي) للدكتور إحسان عباس .

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (١ ـ ٨) ـ القاهرة .

العقد الفريد (١ ـ ٧) ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة .

العمدة لابن رشيق ـ طبعة الخانجي ـ القاهرة .

غ

غرر الخصائص الواضحة ـ الطبعة الأولى ـ بولاق ـ القاهرة .

ف

الفتح الكبير للسيوطي (١ ـ ٣) ـ طبعة مصورة عن الطبعة الأولى .

فصل المقال للبكري ـ تحقيق د . إحسان عباس ـ (ط ٢) بيروت .

فهرست ابن النديم ـ ط طهران .

فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١ ـ ٥) ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس .

ق

قصر الزهراء ـ نجلة إسماعيل العربي ـ بغداد .

قضاة الأندلس = المرقبة الْعُليا .

قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزّمان ـ القاهرة ١٣٨٣ ـ ١٩٦٣ .

قلائد العقيان لابن خاقان ـ (الطبعة الأولى) القاهرة ـ ١٢٨٤ هـ .

ك

الكامل للمبرّد (١ ـ ٤) ـ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والبجاوي .

الكامل لابن الأثير (١ ـ ١٣) ـ بيروت .

كشف الخفا ومزيل الإلباس للعجلوني (١ ـ ٢) .

الكلّيات لأبي البقاء (١ ـ ٥) ـ وزارة الثقافة ـ دمشق .

ل

اللباب (في علم الأنساب) .

لسان العرب (١ ـ ٢٠) ـ بولاق .

م

مجمع الأمثال للميداني (١ ـ ٢) ـ بعناية محمد محيي الدين عبد الحميد .

مجموعة رسائل أندلسية ـ (مكتبة طلعت بدار الكتب ، نسخة مصورة) .

مجموعة المعاني (الطبعة الأولى) .

المحبّر لابن حبيب (طبعة مصورة عن الطبعة الأولى) .

المحمّدون من الشعراء ـ مجمع اللغة العربية ـ دمشق .

مختصر صحيح مسلم للمنذري ـ طبع الكويت .
المخصص لابن سيده ـ (نسخة مصورة عن الطبعة الأولى) بيروت .
المرقبة العليا للنّباهي ـ تحقيق ل . بروڤنسال ـ القاهرة .
مسند الإمام أحمد (١ ـ ٦) .
المضاف والمنسوب = ثمار القلوب .
المطرب لابن دحية الكلبي ـ القاهرة .
المعجب للمراكشي ـ بتحقيق محمد سعيد العريان ـ المجلس الإسلامي الأعلى القاهرة .
معجم الأدباء (إرشاد الأريب) ١ ـ ٢٠ القاهرة .
معجم البلدان لياقوت (١ ـ ٥) ـ دار صادر .
معجم شيوخ الصدفي ـ ابن الأبار ـ طبعة مصورة .
معجم ما استعجم للبكري (١ ـ ٤) ـ مصطفى السقا ـ القاهرة .
المغرب في حُلى المغرب لابن سعيد (قسم الأندلس) (١ ـ ٢) ـ دار المعارف بالقاهرة .
الموازنة للآمدي (١ ـ ٢) ـ القاهرة ـ دار المعارف .

ن

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ـ القاهرة .
نفح الطيب (١ ـ ٨) ـ تحقيق د . إحسان عباس ـ بيروت .
النهاية في غريب الحديث (١ ـ ٥) ـ القاهرة ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي .

و

الوافي بالوفيات للصفدي (أجزاء متفرقة منه) .
الوزراء والكتاب للجهشياري ـ طبع الصاوي ـ القاهرة .
وفيات الأعيان لابن خَلّكان ـ تحقيق د . إحسان عباس ـ بيروت .

فهرس الكتاب

القطعة	الموضوع	الصفحة

القطعة	الموضوع	الصفحة
[٣٣]	رسالة فيها جواب عن رسالة بعث بها من يوقره الكاتب ، يسترثيه في إرسال رجل سقط اسمه من الرسالة إلى أن يوافي الوالي الجديد .	١١٣
[٣٤]	رسالة يتوسط الكاتب فيها لفارس مجاهد ليعطى فرساً من الخيل الموقوفة من أهل الخير .	١١٤
[٣٥]	رسالة يخبر فيها الأمير بنجاز ما أوكله إليه من مهام سلطانية .	١١٥
[٣٦]	رسالة من الكاتب إلى رجل ذي شأن يخبره فيه بمشاركته في مقام قام فيه أحدهم بالثناء عليه .	١١٧
[٣٧]	رسالة في موضوع إنفاذ شَفاعة .	١١٨
[٣٨]	في التوسط عند رجل مجهول ـ لأحد أبناء مدينة سرقسطة .	١١٩
[٣٩]	يتوسط لرجل ليكون وكيلاً في إحدى الطّواحين .	١٢٠
[٤٠]	يستنجز وعداً بإلحاقه في الديوان .	١٢١
[٤١]	قطعة شعرية .	١٢٣
[٤٢]	رسالة إلى من دعاه « شيخه » يخبره فيها بإنجاز بعض الأمور .	١٢٣
[٤٣]	رسالة إلى أحد الوزراء في جملة أمور .	١٢٥
[٤٤]	رسالة في شرح حال ابني عم ، ورفعها إلى أحد ذوي الشأن ممن لأمر هما به تعلق بعد مقدمة مطوّلة .	١٢٦
[٤٥]	رسالة وساطة في تخفيف وجيبة عن أحد من يعرف .	١٢٩
[٤٦]	رسالة إلى بعض ذوي الشأن في تزكية صديق .	١٢٩
[٤٧]	رسالة إلى صديق حالت دون زيارته موانع .	١٣١
[٤٨]	رسالة إلى أحد ذوي الشأن في جملة أمور ديوانية وسلطانية .	١٣٣
[٤٩]	رسالة توصية .	١٣٦
[٥٠]	رسالة إلى أحد القواد بانتظام رجل في الخدمة .	١٣٧
[٥١]	رسالة إلى أحد القضاة لضمّ رجل إلى الخدمة في دائرة عمله .	١٣٨

القطعة	الموضوع	الصفحة
[٦٩]	في رثاء القَينة أيضاً .	٢٦٨
[٧٠]	قال يرثي الوزير أبا محمد بن مالك .	٢٦٩
[٧١]	خطبة منبريّة في شكر الله تعالى على نزول الغيث .	٢٧٢
[٧٢]	مرثية في المقرئ أبي الحسن بن دُرّي .	٢٨٢
[٧٣]	رسالة إلى رئيس ذي منصب عال يتوسط لديه ليضم إلى ديوانه رجلاً وصفه بالشدة والبأس .	٢٨٧
[٧٤]	يعرف أحد الفقهاء بوزير رغب إليه في ذلك .	٢٨٨
[٧٥]	رسالة إلى صديقه أبي بكر وفيها قضايا تهمها .	٢٨٩
[٧٦]	رسالة إلى جماعة عزوه بوفاة ابنه الفقيه أبي إسحاق يشكر لهم تعزيتهم .	٢٩٦
[٧٧]	رسالة إلى أحد الأولياء يخبره بورود أحد الفقهاء عليه ويوصي به .	٢٩٨
[٧٨]	أول كراسة أخرى من مخطوطة الكتاب ورسالة ابن عبدون .	٣٠٠
[٧٩]	جواب رسالة ابن عبدون السابقة ذات الرقم (٧٨) .	٣٠٥
[٨٠]	رسالة فيها تزكية لرجل لم يسمه .	٣٣٠
[٨١]	رسالة في الزرزوريات .	٣٣٣
[٨٢]	رسالة إلى ابن عبادة من مدينة جيان بعث بها مع أخيه .	٣٤٤
[٨٣]	رسالة حملها الحاج الفقيه أبو عبد الله بن جابر عن الكاتب ومعه منه أيضاً رسالة أخرى شفهية ، وهذه رسالة تزكية وتوصية .	٣٤٧
[٨٤]	رسالة مرافقة لرسالة أخرى (مُدرجة) لم يفصح عما فيها هنا .	٣٥١
[٨٥]	رسالة إلى مخاطب لم يسمّه من أهل الفضل والمكانة يزكي فيه أحد الكتاب والوزراء هو أبو محمد بن جُزَيّ .	٣٥٣
[٨٦]	إعلام بوفادة أبي عبد الله بن أبي الحجاب .	٣٥٤
[٨٧]	رسالة اعتذر فيها ابن أبي الخصال إلى صديقه الوزير الكاتب أبي الحسين بن سراج ، عما نسب إليه من تأليف المقامة القرطبية .	٣٥٥

القطعة	الموضوع	الصفحة
[٨٨]	رسالة بعث بها الكاتب مع قاصد حاج إلى الديار المقدسة يبدي فيها أشواقه إلى الحَرمين الشّريفين .	٣٦٢
[٨٩]	معارضة لملقى السَّبيل وهي رسالة لأبي العلاء المعري .	٣٧٠
[٩٠]	رسالة مشابهة للرسالة ذات الرقم [٨٨] في الغرض والقصد .	٣٩١
[٩١]	رسالة في قاض ـ وإليه ـ كان قد نحي عن رتبة القضاء ثم أعيد إليها .	٣٩٨
[٩٢]	رسالة إخوانية إلى صديق .	٤٠٢
[٩٣]	جواب عن رسالة أحد الفقهاء المشاورين .	٤١٢
[٩٤]	رسالة من الكاتب إلى أحد الوزراء من أصدقائه يخبره بوصول رسالته الجوابية على رسالة سابقة كان الكاتب قد بعث بها إليه .	٤١٣
[٩٥]	رسالة إخوانية جوابية عن رسالة لأحد أصدقائه يخبره بوصولها .	٤١٥
[٩٦]	تعزية بوفاة (أبي بكر) ابن أحد الفقهاء .	٤١٧
[٩٧]	مقامة عارض بها الحريري .	٤٢٠
[٩٨]	رسالة توصية رفعها الكاتب لأحد الفقهاء مساعفة لمؤذّن .	٤٤٩
[٩٩]	فصول من رسالة جوابية .	٤٥٣
[١٠٠]	فصول من رسالة الكاتب إلى الفقيه الكاتب أبي عبد الله بن الرفاء .	٤٥٥
[١٠١]	قطعة من رسالة مباسطة ومداعبة .	٤٥٩
[١٠٢]	فصول من رسالة إلى بعض أَصدقائه .	٤٦٢
[١٠٣]	رسالة إخوانية من الكاتب إلى كاتب ذي خَطر سياسي .	٤٦٤
[١٠٤]	فصول مختارة من رسالة .	٤٦٦
[١٠٥]	فصول من رسالة .	٤٦٩
[١٠٦]	قطعة في الوعظ من رسالة .	٤٧١
[١٠٧]	رسالة موجهة إلى رجل مجهول الاسم والصفة .	٤٧٢

القطعة	الموضوع	الصفحة
[١٠٨]	رسالة أفاض فيها في وصف السّفرجلة وتفنن .	٤٧٤
[١٠٩]	رسالة جمع فيها الشعر إلى النثر .	٤٧٦
[١١٠]	تعزية في قينة .	٤٨٣
[١١١]	رسالة إلى صديق له طبيب .	٤٨٦
[١١٢]	رسالة مداعبة .	٤٨٨
[١١٣]	قطعة من رسالة .	٤٩٠
[١١٤]	رسالة كتبها عن أحد الولاة إلى علي بن يوسف يخبره بأمور سياسية وعَسكرية وإدارية .	٤٩٣
[١١٥]	رسالة عن رجل يسأل بردّ بعض أملاك أهله .	٤٩٦
[١١٦]	رسالة إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين .	٤٩٨
[١١٧]	رسالة إلى الأمير أبي إسحاق في جانب الفقيه أبي علي الصّدفي .	٥٠١
[١١٨]	إلى الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين بمناسبة احتفائه بأبي علي الصدفي .	٥٠٤
[١١٩]	إلى الأمير المرابطي أبي إسحاق بن يوسف بن تاشفين .	٥٠٥
[١٢٠]	إلى الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف .	٥٠٧
[١٢١]		٥٠٧
[١٢٢]	وله ملعبة رحمه الله .	٥١٢
١٢٣]	خطبة حض فيها على الجهاد .	٥٢٢
[١٢٤]	رسالة أو بطاقة إعلام .	٥٢٩
[١٢٥]	رسالة موجهة إلى مؤدب معلم .	٥٣٢
[١٢٦]	رسالة من الكاتب إلى شخص لم يسمه ، فيها مجاملة واعتذار لطيف .	٥٣٢
[١٢٧]	خطبة فيها الحض على قيام الليل .	٥٣٤
[١٢٨]	رسالة	٥٤١

القطعة	الموضوع	الصفحة
[١٢٩]	رسالة	٥٤٣
[١٣٠]	رسالة توصية من أحد الوزراء الكتاب (أبو بكر بن عبد العزيز) إلى صديقه ابن أبي الخصال .	٥٤٤
[١٣١]	رد من ذي الوزارتين على الرسالة السابقة .	٥٤٦
[١٣٢]	خطبة في عيد الأضحى .	٥٦٤
[١٣٣]	رسالة إلى أحد الفقهاء ممن تولى بعض المهارة يوصيه برجل (أمين) ويُزَكيه .	٥٨٩
[١٣٤]	رسالة في وساطة وشفاعة .	٥٩١
[١٣٥]	رسالة إلى أحد الكتاب (في الديوان) يعرف برجل يمت بقرابة إلى أحد الوزراء ويوصي به .	٥٩٣
[١٣٦]	رسالة قصيرة فيها تزكية لرجل عند ذي جاه وتنويه به .	٥٩٥
[١٣٧]	رسالة قصيرة .	٥٩٧
[١٣٨]	رسالة في موضوع وساطة وإنجاز عقد زواج .	٥٩٨

ملحق برسائل ابن أبي الخصال

القطعة	الموضوع	الصفحة

القطعة	الموضوع	الصفحة

للْمُحقِّق

في سلسلة دراسات أندلسية[☆] :

١ ـ تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ـ دار الأنوار (بيروت ـ دمشق) ١٩٦٨ . الطبعة الثانية ـ مؤسسة الرسالة ـ دمشق ١٩٨٠ . والطبعة الثالثة ـ مؤسسة الرسالة ١٩٨٧ .

٢ ـ المعيار في أوزان الأشعار لمحمد بن عبد الملك الشنتريني ـ الطبعة الأولى ـ دار الأنوار (بيروت ـ دمشق) ١٩٦٨ . الطبعة الثانية ـ دمشق ١٩٧٠ . الطبعة الثالثة ـ دار الملاح ١٩٨٠ ـ دمشق .

٣ ـ مختارات من الشعر الأندلسي ـ المكتب الإسلامي ـ دمشق ١٩٦٩ . الطبعة الثانية ١٩٧٢ ـ دمشق .

٤ ـ ديوان ابن خاتمة الأنصاري ـ تحقيق ـ صدر عن وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٢ . الطبعة الثانية ـ دار الحكمة ـ دمشق ـ ١٩٧٩ . الطبعة الثالثة تصدر قريباً .

٥ ـ الإنصاف بذكر أسباب الخلاف لابن السِّيد البطليوسي ـ تحقيق ـ نشر دار الفكر بدمشق ١٩٧٣ . والطبعة الثانية ١٩٨٣ . والطبعة الثالثة ١٩٨٧ .

٦ ـ شرح مشكل شعر المتنبي ـ لابن سيدة الأندلسي ـ تحقيق ـ نشر دار المأمون بدمشق ١٩٧٥ . الإصدار الثاني معدّ للطباعة .

٧ ـ ديوان أبي إسحاق الإلبيري ـ تحقيق ـ نشر مؤسسة الرسالة (بيروت ـ دمشق) والطبعة الثانية ١٩٨٢ م .

٨ ـ أعلام المغرب والأندلس ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٩٧٨ . الطبعة الثانية ـ مؤسسة الرسالة ـ ١٩٨٧ .

٩ ـ رائق التحلية في فائق التورية لابن زرقالة ـ دار الحكمة ـ دمشق ١٩٧٩ .

(☆) تصدر كتب هذه السلسلة من الآن بعنوان (المكتبة الأندلسية) .

١٠ ـ ديوان ابن عبد ربه ـ مؤسسة الرسالة ـ دمشق ١٩٧٨ . الطبعة الثانية ـ دار الفكر ١٩٨٧ .

١١ ـ ديوان يحي بن حكم الغَزال ـ دمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

في سلسلة الذخائر :

١ ـ ابن خفاجة (دراسة) نشر المكتب الإسلامي ـ دمشق ١٩٧٢ . الطبعة الثانية ـ دمشق ١٩٨٣ .

٢ ـ أبو البقاء الرندي (دراسة) نشر مؤسسة الرسالة (دمشق ـ بيروت) ١٩٧٦ . الطبعة الثانية ـ سعد الدين . دمشق ـ بيروت ١٩٨٦ .

في المكتبة الأندلسية :

١ ـ إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي ـ (تحقيق) بيروت ـ دار الثقافة ١٩٦٥ . الطبعة الثانية في عالم الكتب ـ بيروت ١٩٨٥ .

٢ ـ نثير فرائد الجمان لابن الأحمر ـ (تحقيق نص أندلسي) دراسة عن المؤلف وأدبه وكتابه ـ دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٦ . الطبعة الثانية في عالم الكتب ـ بيروت ١٩٨٥ .

أعمال أخرى :

١ ـ الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي ـ تحقيق بالاشتراك ـ نشر وزارة الأوقاف ـ الكويت ـ ١٩٦٧ . الطبعة الثانية المعدّلة تصدر قريباً .

٢ ـ أعلام الأدب العباسي ـ تراجم واختيارات ـ نشر دار الفارابي ـ دمشق ١٩٧١ . والطبعة الثانية في مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٧٩ . الطبعة الثالثة ـ مؤسسة الرسالة ١٩٨٧ .

٣ ـ ابن زيدون (محاولة لإعادة النظر في دراسة شخصيته وشعره) بحث قدم إلى مهرجان ابن زيدون في ذكراه الألفية بالرباط (المغرب) ـ منهج جديد لدراسته .

٤ ـ المنصف لابن وكيع التّنيسي (تحقيق) ـ دمشق ـ ١٩٨١ .

٥ ـ تفسير ابن جزي (تحقيق بالاشتراك) بدئ بطباعته .

٦ ـ بحوث في الأدب الأندلسي ـ طبع جامعة دمشق ـ ١٩٨٠ . نفد .

٧ ـ فروق اللغات لنور الدين بن نعمة الله الجزائري ـ بيروت ١٩٨٧ .

٨ ـ دلائل الإعجاز بالاشتراك مع الدكتور فايز الداية (الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٢ والطبعة الثانية دمشق ١٩٨٧) .

٩ ـ الأدب العربي في الأندلس والمغرب ـ جامعة دمشق (الطبعة الثانية منه ١٩٨٧) .

١٠ ـ رايات المبرّزين وغايات المميّزين لابن سعيـد ـ تحقيق ـ صـدر عن دار طلاس ١٩٨٧ ـ دمشق .

تحت الطبع :

ـ لسان الدين بن الخطيب : في سلسلة أعلام الفكر .

ـ ابن أبي الخصال رئيس كتاب الأندلس ـ في سلسلة أعلام الفكر .

ـ ابن زيدون : دراسة في ضوء منهج جديد ـ في سلسلة أعلام الفكر .

ـ ولادة بنت المستكفي ـ في سلسلة أعلام الفكر .

ـ أبو إسحاق الإلبيري الأندلسي : زاهد الأندلس الثائر ـ في سلسلة أعلام الفكر .

ـ ابن زمرك شاعر قصر الحمراء (دراسة) في سلسلة أعلام الفكر .

ـ المعتمد بن عباد (دراسة) في سلسلة أعلام الفكر .

ـ ديوان أبي الحسن بن الجيَّاب ـ تحقيق ودراسة .

ـ أمة قد خلت (دراسة) .

ـ ديوان ابن زيدون (تحقيق) .

ـ رحلة البلوي .

ـ جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتّاب لابن عبد الملك الشَّنتريني (تحقيق ودراسة) .

ـ ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح الواحدي (تحقيق) .

ـ الحماسة المغربية (مختصر صفوة الأدب) ـ يصدر عن دار الفكر بدمشق ١٩٨٧ .

ـ الكنايات العامية الشامية وأصولها الفصيحة .

الفهارس

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٩٨٨/٥/٥م
عدد النسخ (١٠٠٠)

